

جَدِّهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

المُسْلِمُونَ الْمُنْصَرُونَ

أو

المُورِسِيُّونَ الْأَنْدَلِيسِيُّونَ

صفحة مهملة من تاريخ التمامين في الأندلس

دكتور
عبد الله محمد جمال الدين
كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

المُسْلِمُونَ الْمُتَضَرِّعُونَ أَوْ

المُورِسِكِيُّونَ الأَنْدَلُسِيُّونَ
صفحة مهمة من تاريخ الساميين في الأندلس



حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٩٩١

دار الصحوة

للنشر والتوزيع - القاهرة

٧ ش السراى - أول المنيل - ت : ٩٨٧٩٢٤

حدائق حلوان - خلف عمارات المهندسين - ت : ٣٧٤٠٠٧١

مقدمة

قضى على الحكم الإسلامى أن ينهى وجوده فى آخر معقل له بأسبانيا سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م ، عندما استسلم أبو عبد الله ، آخر ملوك غرناطة ، ووافق على تسليم البلاد للملكيين الكاثوليكين ، فرناندو وايزابيلا، ولكن الشعب المسلم ظل موجودا بهذه البلاد يمثل عنصرا مهما من عناصر السكان فى الدولة المسيحية الجديدة ، تنظم حقوقه وواجباته اتفاقية وقعها الجانبان : الإسلامى والمسيحى ، وقدم الجانب المسيحى المواثيق والأيمان المغلظة ، وتعهد بضمان احترام بنود تلك المعاهدة بكل ما يتصور من وسائل ، لكن لم يمض على ذلك سنوات معدودات حتى نقضت مواد الإتفاقية واحدة وراء الأخرى ، وتعرض المسلمون لمعاملة قاسية وعنيفة ، وأهينوا وعذبوا وصودرت أموالهم واغتصبت ممتلكاتهم وأهدرت حقوقهم ، بل وفرض عليهم فرضا أن يتنصروا وعرفوا فى المجتمع المسيحى باسم خاص بهم هو اسم " المورسكيين " ، و" المورسكى " (El Morisco) تصغير لكلمة " المورو " (El Moro) يعنى المسلم ، واذن فالمورسكى كلمة يقصد بها المسلم الصغير أو المسلم الحقير الذليل ، وقد أصبحت علما على هؤلاء الذين حملوا على الدخول فى النصرانية ، كما أطلق عليهم كذلك المسيحيين الجدد (Los Cristianos Nuevos) تمييزاً لهم عن المسيحيين القدامى (Viejos) الذين كانوا يؤمنون بالمسيحية أو الذين اعتنقوها قبل انتهاء الدولة الإسلامية من شبه الجزيرة الإيبيرية .

وقد مر تاريخ هذا الشعب المنصر بمراحل مختلفة وشغل مناطق

متعددة فى غرناطة وقشتالة وأراجون وبلنسية ومرسية وقطالونيا وغير ذلك ومثل الشغل الشاغل للملك وحاشيته وحكوماته ورجاله إلى أن تقرر القضاء عليه ، ونفى نفيأ كاملاً من كل بلاد أسبانيا فى الفترة من - ١٦٠٩ - ١٦١٤ م ، وخلال الفترة من استسلام أبى عبد الله إلى طرد المورسكيين ، صدر بشأنهم العديد من المرسومات والقرارات والقوانين ، واحتلوا قسماً طيباً من المراسلات ، وكانوا موضوعاً لمشاورات عديدة ، شغلت حيزاً ضخماً فى محاضر جلسات البرلمان واجتماعات المجالس المحلية والمركزية ، ولقاءات الملك الكاثوليكي مع مستشاريه من رجال الدين وغير رجال الدين ، كما كانوا الضحية الأولى لأعمال محاكم التفتيش بمختلف الأقاليم الأسبانية ، ودون ذلك كله فى وثائق وسجلات ، ملأت فراغاً كبيراً فى المكتبات القومية ودور المحفوظات ببلاد عديدة ، واحتفظ بها فى مظانها المختلفة .

ولما هدأت الأمور نوعاً ما ، بدأ الباحثون والمؤرخون يكتبون قصة الأحداث التى مرت بهذا الشعب المضطهد ، ويدونون أخباره وما جرى معه فأخرج " دياجو أورتادو دى مندوثا " (Diego Hurtado De Mendoza) وهو واحد ممن شهدوا الحوادث ، وكان بطلاً من أبطالها - أخرج كتابه حرب غرناطة (La Guerra De Granada) الذى طبع فى لشبونه بالبرتغال سنة ١٦٢٦ . وأعد " لويس دى مارمول كارياخال (Luis De Marmol Carvagl) كتاباً وثائقياً يتضمن الكثير من التفاصيل تحت عنوان " تاريخ تمرد وعقوبة المورسكيين فى مملكة غرناطة .

" Historia De La Rebelion Y Castigo De los moriscos Del Reino
De Granada

وقد صدر فى مجلدين بمدريد سنة ١٧٩٧ . كذلك ألف " حينيث

بيريث دى هيتا " Gines Perez De La HITA كتابامن جزئين بعنوان الحروب الأهلية فى غرناطة Las Gguerras Civiles De Granada وقد ظهر الجزء الأول فيه فى مدينة سرقة سنة ١٥٩٥ ، والثانى فى مدينة قونكة سنة ١٦١٩ ، واشتمل على الكثير من الأساطير والروايات والأقاصيص التى لها صلة بالمسلمين والمدجنين والمورسكيين ، بالإضافة إلى الوقائع التاريخية .

كانت تلك هى البواكير الأولى ، تلتها فى التأليف أعمال أدبية وتاريخية ، لم تكتف برواية الحوادث ، وإنما حاولت أن تتخذ منها موقفا مؤيدا وتبحث لها عن مبررات ، مثل أعمال " خايمى بليدا " Jaime Bleda التى ظهرت فى بلنسية ١٦١٠ - ١٦١٨ ، وأبرزها حوليته وتاريخه عن المسلمين فى أسبانيا .

Cronica De Los Moros De Espane

ومثل كتاب " بدور اثنار كاردونا "

Pedro Aznar Cardona

تحت عنوان " طرد المورسكيين المبرر من أسبانيا ، وموجز خدمات فليب الثالث المسيحية العظيمة "

Expulsion Justificada De los Moriscos Espanoles Y Suma De Las Excelencias De Filpe Tercero

المطبوع فى وشقة سنة ١٦١٢

وكذلك عمل أنطونيو كسورال أى روخاس

Antonio Corral y Rojas

وقد صدر فى مجلدين - بمدينة بلنسية ١٩٠١

وعمل " فلورنثيو خانير " Florencio Janer

الحالة الإجتماعية للمورسكيين بأسبانيا ، سبب طردهم ، والنتائج
التي نشأت عنه فى المجال الإقتصادي والسياسى .

Condicion Social De Los Moriscos De España ,Cause De Su Ex-
pulsion Y Consecuencia Que Esta Produjo En El Orden Economico Y
Politico

المنشور بمديرد سنة ١٨٥٧

وكذلك إلى عمل " هنرى تشارلس لى " Henry Charles Lea
المورسكيون الأسبان : تحويلهم للمسيحية وطردهم

The Moriscos of Spain ,Their Conversion and Expulsion

الذى طبع بالإنجليزية فى مجلدين بولاية " فيلادلفيا " الولايات
المتحدة الأمريكية سنة ١٩٠١ .

فقد اشتمل كل عمل من هذه الأعمال على وفرة من الوثائق لم يسبق
نشرها وتم تحليلها والإستفادة منها .

وابتداء من القرن العشرين بدأت تظهر المؤلفات التى تشرح أحداث
المسألة المورسكية وتحللها ونظر إليها من منظور علمى أكاديمى ، وقد بدأ
هذا المنحى الباحث الفرنسى " فيرناندو يروديل " Fernando Braudel فى
كتابه " البحر الأبيض المتوسط وعالمه فى عهد فليب الثانى " -La Mediterr-
nee et le Mond Medittraneen a la Epoque de Philippe 11 وقد صدر فى

جرتين بباريس سنة ١٩٤٩ ، وترجم إلى الأسبانية ونشرت الترجمة في المكسيك سنة ١٩٥٣ .

واتجه نفس الوجهة تلميذان لبراديل أحدهما فرنسي هو " هنري لابييري " Henry Lapeyre في عمل له بالفرنسية عنوانه " جغرافية اسبانيا المورسكية " Geographie de Espagne morisque

وقد نشر بباريس سنة ١٩٥٩ وترجم نفس العمل للأسبانية ، ونشرت الترجمة في بلنسية سنة ١٩٨٦ .

أما الآخر فأرجنتيني هو " طوليو هالفيرن دونجى " Tulio Halperin dongui في بحثين له هما : نزاع قومى : المورسكيون والمسيحيون القدماء . في بلنسية Un Conflecto Nacional: Moriscos y Cristianos Viejos en Valencia وقد نشر في مجلة " كراسات تاريخ أسبانيا " بيونس ايريس ، الأرجنتين سنة ١٩٥٥ والثانى بحث بالفرنسية عالج المشكلات الإجتماعية والاقتصادية بمملكة بلنسية فى القرن السادس عشر ، منطلقا من أوضاع المورسكيين ، وعنوان البحث الأخير هو :

Recouvrements de Civilisation:les Morisque Du Royaume De Valencè au XVI Siecle

نشر فى مجلة حوليات سنوية ، باريس سنة ١٩٥٦

ويأتى فى قمة الإنجاز الأخير " خوان رجلا " Juan Regla فى أعماله العلمية حول المورسكيين فى مملكتى اراجون وبلنسية ، وقد جمع بعضها ونشر فى كتاب عنوانه دراسات عن المورسكيين Estudios de los Moriscos وأيضا خوليو كارو باروخا Julio Caro Baroja فى عمله المتميز

" المورسكيون فى مملكة غرناطة " Los Moriscos del reino de Granada وقد صدر بمدريد سنة ١٩٧٦ .

كما بدأ ميغيل دى إبالثا Miguel De epalza وبعض الباحثين من بلاد شمال أفريقية فى إعداد بحوث عن المورسكيين المهاجرين إلى بلاد المغرب العربى مع دراسة تأثيرهم التكنيكي والفنى والثقافى على الأوضاع فى مواطنهم الجديدة .

وهكذا تنوعت الدراسات وتشعبت حول ذلك الشعب المسلم المنصر المقهور واقتصر البعض على جانب أو آخر من المشكلة عرف عنه وتخخص فيه ، وهنا لا بد من الإشارة إلى بحث " بدرو لونجاس " Pedro Longas الحياة الدينية عند المورسكيين Vida religiosa de los moriseos الذى صدر بمدريد سنة ١٩١٥ .

وإلى أعمال الباحث الفرنسى لويس كاردايلاك Luis Cardailac ومن أهمها دراسة عنوانها : " مورسكيون ومسيحيون ، مواجهة جدلية ١٤٩٢ - ١٦٤٠ "

MOriscos y Cristianos un enfrentamiento Polemico 1492-1640'

وقد صدر بالفرنسية فى باريس سنة ١٩٧٧ ، وترجم للأسبانية ونشرت الترجمة فى مدريد سنة ١٩٧٩ م .

ذلك كله ليس كل ما هنالك ، فهناك ابحاث ومؤلفات أخرى لآخرين ناهيك عن سيل المقالات التى تناولت جزئية أو أخرى والتى نشرت فى مجلات أكاديمية باللغات الأسبانية والفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها وعن الرسائل الجامعية التى قدمها باحثون شبان للجامعات ونالوا بها

درجات علمية .

بل إنه عقدت ندوات ومؤتمرات علمية عاجلت بالبحث والدراسة
والمناقشة والحوار موضوع المورسكيين وحده ، وقدمت لها بحوث القليل
منها مكتوب بالعربية ومعظمها مدون باللغات الأجنبية .

إن الدراسات حول الموضوع من الوفرة بحيث سمحت لباحث مثل "
ميجيل دي أبالسا " أن يجمع وأن يعدّ دراسة حولها نشرت بالفرنسية
وصدرت عن المعهد العربي للثقافة في مدريد سنة ١٩٧٣ تحت عنوان :
"دراسات عن المورسكيين الأندلسيين في تونس"

Studes Sur Les Moriscos Andalus En Tunisie

ولعل من المناسب أن نذكر أهم رءوس موضوعات تلك الدراسة هنا ؛
لما لذلك من أهمية :-

١ - مقال لحسن حسنى عبد الوهاب بالفرنسية تحت عنوان :

" لمحة عامة عن السلالات الأجنبية الوافدة إلى تونس "

نشر سنة ١٩١٧ في مجلة :

Revue Tunisienne (Tunis) PP.305-316-371-379

وأعيد نشره في :

Les Cahiers (Cuadernos)de tunisie (tunis) 1970 N xv111 PP 69-
70-1490-169

٢ - مقال بالإنجليزية ل . خ . د . لاثام بعنوان :

Towards a Study of Andalusian Immigrations and its Place In Tu-
nisian history

منشور فى : Les Chiers De Tunisie (Tunis) V1957-203-252

٣- مقال لخاين بجنون Jaen Pignon تحت عنوان : جغرافية أسبانيا المورسكية ، نشر بالفرنسية فى :

Les Chiers De Tunisie (Tunis) xv1 1966 PP 286-300

٤ - رسالة دكتوراة لخاين بينيا Jaen Penella

قدمها إلى قسم التاريخ فى جامعة برشلونة بأسبانيا ١٩٧١ بعنوان :
Los Moriscos Espanoles Emigrados Al Norte De Africa Despues La
Expulsicen

٣ مجلدات ولم تطبع وقت ظهور الكتاب ، وانظر أيضا :

Condicion Social De Moriscos مدريد سنة ١٩٥٧

٥ - مقال لـ " لويس كارديلاك Luis Cardaillac بعنوان :

Morisque en Provence

منشور فى :

La Revue Des Langues Romanes (Montpellier)XXIX 1971-297-315

٦ - ولنفس المؤلف (لويس كارديلاك) رسالة دكتوراة تقدم بها فى أبريل ١٩٧٠ إلى جامعة Montpellier بعنوان :

Passage De Morisques en Judoe

ولها موجز منشور فى مجلة Les Anales -Toulouse -Midi

Vol.83.N.103,-1971-259-298

٧ - مقال لـ : " عبد المجيد التركى " بعنوان : وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس منشور فى حوليات الجامعة التونسية العدد ٤ / ١٩٦٧

٨ - مقال لـ " هنرى بيرى " Henri Pierc بعنوان : "ترحيب التونسيين بالمورسكيين المطرودين من أسبانيا : شهادة مورسكية منشور بالفرنسية فى مجلة (Tunis)121(1968) - Revue Iela pp:63:70

٩ - مقال لـ " دنسى براهيمى " Denise Brahimi بعنوان : بعض وجهات النظر حول المسلمین الأندلسيين فى الولايات التركية بالقرن ١٧ الميلادى ، منشور فى مجلة :

La Revue Di historie Et De Civilizaation De La Maghrel (Alger)
9 -1970,pp:39-51

١٠ - مقال بالأسبانية لـ " ميغيل دى بالشا " بعنوان :

Moriscos Y Andalusies En Tunis En El Siglo XVII

منشور فى مجلة الأندلس Al-Andalus - العدد - XXXIV-PP:247-

327' مدريد ١٩٦٩

١١ - أدب المورسكيين الأسبان المهاجرين إلى تونس ، جزء من رسالة الدكتوراة السابق الإشارة إليها والتي تقدم بها " خوان بينيا " لقسم التاريخ بجامعة برشلونة ١٩٧١ م .

١٢ - جزء من رسالة دكتوراة لـ " ل . ب . هارفى " L.P.Harvey

عنوانها : The Literary Y Culture Of The Moriscos 1492-1609

والرسالة لم تطبع وقت ظهور الكتاب ولم يشر إلى الجامعة التى تقدم بها صاحبها إليها .

١٣ - مقال بالأسبانية لـ " خايمى أوليفرآسين Jaime Oliver Asin بعنوان :

- منشور في الأندلس مدريد ١٩٣٣ .
- ١٤- مقال للمؤلف السابق " خايمي اولفرآسين " من كتاب له بعنوان :
'El Quigote De 1604' مدريد ١٩٤٨ م .
- ١٥ - بحث بالإيطالية لـ Ciella Sar Nelli بعنوان : الكاتب الأسباني المغربي : الهجاري وكتابه ناصر الدين ألقى في المؤتمر الثالث للدراسات العربية والإسلامية - Dans Atti Del III Congresso Di Studi Arabi E Islam- ci, Ravello, 1966, Naples 1967, pp:595-604.
- ١٦ - مقال لـ " خوان بريا " Juan Perella من رسالة الدكتوراة المشار إليها سابقا ، وعنوان هذا القسم تقديم للمخطوط رقم ٥٦٥ في مكتبة جامعة Bolonge
- ١٧ - مقال لمحمد الحبيب الحلة عنوانه : الحلة السندسية في الأخبار التونسية ، للسراج الأندلسي ، مجلة كلية اللاهوت بالزيتونه ، تونس المجلد ١ ، ١٩٧٠ م .
- ١٨ - بحث ألقى بالفرنسية لسليمان مصطفى زبيبي بمناسبة لقاء تونس : برشلونه في ٢٧ مارس ١٩٦٩ ، عنوان البحث : الوجود الأسباني في تونس .
- المقالات من ١٩ إلى ٣٠ تعالج موضوعات معمارية وأثرية وفنية وأهمها المقال ٢٨ وعنوانه :
- دراسات حول التأثير الأندلسي للحملات التونسية : تحليل لطريقة منطقة ، وصاحب البحث هو : محمد الايواني M.El-Aouani
- كذلك سمحت وفرة الأعمال العملية حول الموضوع لميجيل لاسيلاني

أن مدرس اتجاهات وتطور التأليف واعلام الباحثين حول هذه المشكلة
منذ القرن السابع عشر الميلادى وحتى الآن ، وقد اختار لبعثه عنوان :
المورسكيون فى التفكير التاريخى :

Los Moriscos En El Pensamiento Historico

كل ذلك يحدث ومخضى المسألة المورسكية بكل هذا الإهتمام ، بينما
لا يكاد يتنبه إليها أحد ممن يكتبون بالعربية ، اذ لا ترى بشأنها كتابات
بتلك اللغة العربية اللهم إلا أعمال لا تصل إلى أصابع اليد الواحدة
ظهرت فى الآونة الأخيرة .

وأول من عالج موضوع المورسكيين وعرف بهم بالعربية هو الأستاذ
محمد عبد الله عنان ، فقد خصص له قسما هاما من كتابه " نهاية
الأندلس وتاريخ العرب المنصرين " الذى صدر بالقاهرة سنة ١٩٥٨ ، وفى
سنة ١٩٨٠ نشر فى " تطوان " بالمغرب كتاب لواحد ممن ترجع جذورهم إلى
هذه المجموعة هو " محمد قشتيليو " وعنوان كتابه " محنة المورسكيوس
فى اسبانيا " ، وقد حاول أن يقدم صورة عن مأساة هذا الشعب ، غير أن
اللغة والمنهج لم يسعفاه ، فقد كتبت المادة العلمية بعربية ضعيفة ، ووقع
الكاتب فى أخطاء ليس هنا مجال ذكرها ، واعتمد بصفة أساسية على
عمل " خانير " المشار إليه فيما سبق ، ثم على عدد محدود جدا من
المراجع ، ومع ذلك فحسبه أنه حاول وبذل قصارى جهده .

وفى يناير سنة ١٩٨٣ صدر لعادل سعيد بشتاوى دراسة عنوانها "
الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة "
ويادىء ذى بدء ، لسنا ندرى من أين اشتقت كلمة المواركة ؟ ومع أن

المؤلف قد بذل جهدا مشكورا فقد جاء كتابه تاريخا للأندلس أكثر منه دراسة حول المسألة المورسكية ، فقد تحدث فيه عن الأصول القوطية فى شبه جزيرة ايبيريا وعن تطور الممالك الشمالية وعن تأثير العوامل الخارجية والعوامل الداخلية فى سقوط الأندلس ، ثم تحدث عن الثورات الأندلسية من حيث أسبابها ونتائجها ، وعن ونفى الأندلسيين المواركة ، مبرراته ووجهته ونتائجه ، وخصص فصلا للأندلسيين ومحاكم التفتيش ، وفصلا للتأثيرات الأندلسية فى أسبانيا وأوربا تحدث فيه عن : الأندلس بين الإحتلال والإسترجاع ، ومن الإندلس إلى أسبانيا ، ، والحضارة الأندلسية وعصر النهضة الأوربي وعن أندلسيات فى اسبانيا ، وجاء فى آخر البحث خاتمة تضمنت أهم الأحداث الأندلسية والدولية ، وحكام الأندلس وأهم حكام الدويلات والممالك الشمالية ، وشخصيات ومواضع معربة ثم مصادر البحث وبعض الخرائط .

والكتاب مفيد ولا شك ويشكر صاحبه على جهده ، ولكنه ليس خالصاً للمسألة المورسكية برغم عنوانه وكما يتضح من العرّض السابق ، أضف لهذا أن المؤلف نفسه اعترف بأنه لا يعرف اللغة الأسبانية ، وهى اللغة التى كتبت بها معظم مصادر الموضوع ، ولم يكن أمامه حيلة إلا الرجوع إلى المراجع الإنجليزية والفرنسية الوسيطة التى نقلت عن تلك اللغة القشتالية أو اعتمدت على ما دون بها ، وهذا شيء غير محمود فى مجال الدراسات الأكاديمية الأصيلة ، فالباحث مطالب بالرجوع إلى الأصل ، خاصة إذا كانت المادة العلمية الأساسية مدونة بذلك الأصل .

هذا وقد أقيم فى تونس فى الفترة من ١٩ إلى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٨٣ مؤتمر عالمي تحت عنوان " دين وهوية المورسكيين الأندلسيين ومصادر وثائقهم " ، وقد قدمت فيه دراسات بالأسبانية والفرنسية

والإنجليزية والعربية ، ومن بين ما قدم بالعربية بحث بعنوان " المورسكيون الأندلسيون فى عهد ملوك الطوائف " للدكتور محمد بن عبود ، ودراسة للدكتور " عبد الرحمن على الحجى " عن " المورسكيون فى المصادر المخطوطة الأندلسية " ويبحث للدكتور " محمد رزوق " عن " تطور استقرار الأندلسيين بالمغرب الأقصى " وآخر للدكتور " جمعه شيخه " عن " المورسكيون فى المصادر الأندلسية " ودراسة للدكتور " عبد الرحمن عبد الرحيم " عن " وثائق المحاكم الشرعية المصرية كمصدر لدراسة أوضاع اللاجئين المورسكيين . . . إلخ (١)

ومن الطبيعى أن يستفيد البحث المقدم للقارئ الكريم الآن من كل المصادر المذكورة فيما سلف ، ومما وقعت عليه يد صاحبه من الدراسات والمقالات ولايد أن ننوه بصفة خاصة بثلاثة من المراجع أفادت البحث أيما فائدة وهى " تاريخ المورسكيين : "حياة ومأساة أقلية" Historia De Los Moriscos, Vida Y Tragidia De Una Minoría وقد تعاون على تأليفه كل من الباحث الفرنسى " بيرنارد بنثنث " Bernard Vincent

والباحث الأسباني " أنطونيو دومنجيث أورتيث " Antonio Domin- guez Ortiz أما العمل الثانى فهو كتاب " خوان رجلا " دراسات حول المورسكيين والعمل الثالث هو كتاب " خوليو كارو باروخا " تاريخ المورسكيين فى مملكة غرناطة ، وقد أشير إليهما فيما مرّ .

وعلى كل حال فالدراسة المقدمة الآن ، محاولة نرجو أن تلم بأطراف الموضوع ، وأن تقدم عنه صورة مستوفيه لكل جوانبه ونواحيه وقد خصصت فصلا من فصوله العشر لكل ناحية من هذه النواحي وأملها أن

١- أنظر تعريفا بهذا المؤتمر فى " المجلة التاريخية المغربية " السنة ١١ ، العدد ٣٢.٣٣ يونيو سنة ١٩٨٤ ، أعده الدكتور عبد الجليل التميمى .

تكون قد حققت شيئاً مما أردت ، بتوفيق الله وعون منه .

أما الوقت والجهد الذى بذل فى جمع المادة العلمية وترجمتها وتنظيمها وإعدادها للدراسة وتحليلها والمقارنة بينها ، وإستنباط الحقائق منها ، فذلك ما لا يعلمه إلا الله وحده .

وأنتهز هذه الفرصة لأقدم شكرى الخالص للأخ الأستاذ شعبان محمد مرسى عضو بعثة جامعة القاهرة للحصول على الدكتوراه من جامعة مدريد فقد زودنى بعدد كبير من المراجع ، وصور لى كل ما اجتجت إليه من المصادر والوثائق ، وتفضل على بالكثير من وقته فجزاه الله عنى خير الجزاء .

والحمد لله فى البدء والختام .

عبد الله محمد جمال الدين

القاهرة

ربيع الأول ١٤١٠ هـ

أكتوبر ١٩٨٩ م

الفصل الأول

سقوط غرناطة

وموقف السلطات المسيحية

من المسلمين

من سنة ١٤٩٠ إلى سنة ١٥٦٨

.. سقطت غرناطة : آخر المعادل الإسلامية فى بلاد الأندلس . بسبب
تشتت كلمة المسلمين وتفرق صفهم واشتغالهم بالحروب الأهلية واستعانتهم
بالعدو الماكر المخادع فى قتال بعضهم البعض الآخر ، وقد استمرت
مفاوضات الجانيين : الإسلامى والمسيحى عدة أسابيع ، وانتهت بتوقيع
أبى عبد الله ، آخر ملوك بنى الأحمر ، وفيرناندو وايزابيلا ، ملكى
اسبانيا الكاثولكيين ، على معاهدة التسليم فى الخامس والعشرين من
نوفمبر سنة ١٤٩١ م / محرم سنة ٩٨٧ هـ .

وتضم معاهدة التسليم هذه وثيقتين رسميتين ، الأولى ما يزال يحتفظ
بها فى دار المحفوظات العامة فى " سيمانقا " Archivo general de
Simancas تحت رقم P.R.11-207 ضمن مجموعة " معاهدات مع
المسلمين " Capitulaciones Con moros

أما الثانية فلا يزال يحتفظ بها فى بلدية غرناطة . ضمن مجموعة
"فيرنادو دى نافرا " أمين الملكيين الكاثولكيين الذى نيظت به مهمة
التفاوض مع الجانب المسلم ، وقد نشر هذه الوثيقة " ميغيل جريدو آتينثا "

Miguel Jarrido Atienza

فى كتابه : " وثائق تسليم غرناطة " Las Capitulaciones Para La
Entrega de Granda ,Grannda 1910 PP.269-29

وبلغت مواد هذه المعاهدة أكثر من خمسين مادة أهم ما جاء فيها :

١ - أن يتعهد ملك غرناطة والقادة والفقهاء والوزراء والعلماء وكافة الناس فى غرناطة والبيازين وأرياضهما بأن يسلموا طواعية واختياراً ، وذلك فى ظرف ستين يوماً تبدأ من تاريخ توقيع هذه المعاهدة ، قلاع الحمراء والحصن وأبوابها وأبراجها وأبواب غرناطة والبيازين إلى الملكيين الكاثوليكين أو إلى من يندبانه من رجالهما ، على ألا يسمح لنصرانى أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القسبة والبيازين حتى لا يكشف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب من يفعل ذلك . وضماناً لسلامة هذا التسليم ، يقدم الملك المذكور إلى جلالتيهما ، قبل تسليم الحمراء بيوم واحد ، خمسمائة شخص ، صحبة الوزير ابن كماشة ، من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين ، ليكونوا رهائن فى يديهما لمدة عشرة أيام ، تصلح خلالها الحمراء ، وفى نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً . وأن يقبل جلالتهما ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء وسكان غرناطة والبشرىات وغيرها من الأراضى ، رعايا وأتباعاً تحت حمايتها ورعايتها .

٢ - حينما يرسل جلالتهما رجالهما لتسلم الحمراء المذكورة ، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة وعن طريق الحقول الخارجية ، وألا يسيروا إليها من داخل المدينة عندما يأتون لتسلمها وقت التسليم .

٣ - متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ولده المأخوذ رهينة لدى الملكيين الكاثوليكين ، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية .

٤ - يتعهد جلالتهما وخلفاؤهما إلى الأبد ، بأن يترك الملك المذكور أبو عبد الله ، والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان وسائر الشعب تحت حكم شريعتهم ، وإلا يؤمروا بترك شىء من مساجدهم وصوامعهم ،

وأن تترك لهذه المساجد مواردنا كما هي ، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم .

٥ - وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أو فيما بعد ، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة ، فإنها تسلم .

٦ - يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرها ، الذين يريدون العبور إلى المغرب ، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وأنه يحق للملكيين شراءها بمالهما الخاص .

٧ - يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب ، أو يذهبوا إلى أية ناحية أخرى ، حاملين أمتعتهم وسلعهم وحليهم من الذهب والفضة وغيرها . ويلتزم الملك أن يجهز في بحر ستين يوما من تاريخه عشر سفن في موانيتها يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب ، وأن يقدموا خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين في العبور ، ولا يتقاضى منهم خلال هذه المدة أي أجر أو مغرم ، وأنه يحق العبور بعد ذلك لمن يشاء ، نظير دفع مبلغ " دويل " واحد عن كل شخص ، ويجوز لمن لم يتمكن من بيع أملاكه ، أن يوكل لإدارتها ، وأن يتقاضى ريعها حيثما كان .

٨ - لا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم ، الآن أو فيما بعد ، على تقلد شارة خاصة بهم .

٩ - يتنازل الملك ، للملك أبي عبد الله المذكور ، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، عن سائر الحقوق التي يجب عليهم أدائها عن دورهم ومواشيهم ، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه .

١٠ - يجب على الملك أبي عبد الله ، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأراضيها أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية ، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم .

١١ - لا يسمح لنصراني أن يدخل أماكن عبادة المسلمين دون ترخيص ، ومن يفعل ذلك يتعرض للعقاب .

١٢ - لا يولى على المسلمين مباشر يهودى أو يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم .

١٣ - أن يعامل الملك أبو عبد الله المذكور ، وسائر السكان المسلمين برفق وكرامة ، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم ، وأن تؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة ، وفقاً للقواعد المرعية .

١٤ - إذا حدث نزاع بين المسلمين ، يفصل فيه وفقاً لأحكام شريعتهم ، ويتولاه قضاة المسلمين .

١٥ - لا يكلف المسلمون بإيواء ضيف ، ولا تؤخذ ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية أو غيرها دون إرادتهم .

١٦ - إذا دخل نصراني منزل مسلم قهراً ، عوقب على فعله .

١٧ - فيما يتعلق بشئون الميراث ، يحتفظ المسلمون بنظمهم ، ويحتكمون إلى فقائهم وفقاً للسنن الإسلامية .

١٨ - يجوز لسائر سكان غرناطة والبشرات وغيرهما ممن يدخلون فى هذا العهد ، أن يتمتعوا بالإعفاءات الممنوحة مدى السنوات الثلاث ، إذا اعلنوا الولاء لجلالة الملكين فى ظرف ثلاثين يوماً من تسليم مدينة غرناطة

١٩ - تبقى إيرادات المساجد والهيآت الدينية ، وأية جهات برّ أخرى ، وكذا إيرادات المساجد ، متروكة لنظر الفقهاء ، ويتعهد جلالتهما بعدم التدخل فى شئون هذه الأموال كما يتعهدان بعدم الأمر بأخذهما فى أى وقت .

٢٠ - لا يؤخذ أى مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر ، فلا يؤخذ والد بذنب ولده ، أو ولد بذنب والده ، أو أخ بذنب أخ ، أو ولد عم بذنب ولد عم ، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم .

٢١ - إذا كان مسلم قد أخذ أسيرا ، ثم فرّ إلى مدينة غرناطة أو البيازين وأرباضهما أو إلى غيرهما ، فإنه يعتبر حرا ، ولا يسمح لأحد بمطاردته إلا إذا كان من العبيد أو من الجزائر .

٢٢ - لا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون للوكهم المسلمين .

٢٣ - يسمح لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرهما بمن عبروا إلى المغرب أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية ، وأن يتمتعوا بكل ما يتضمنه هذا الإتفاق .

٢٤ - يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيتها أن يتاجروا فى سلعهم آمنين ، وأن يعبروا إلى بلاد المغرب ويعودوا ، ولهم دخول سائر النواحي التابعة لجلالتي الملكين المسيحيين ، ولا يدقّعون من الضرائب إلا ما يدفعه النصارى .

٢٥ - إذا كان أحد النصارى قد اعتنق الإسلام ، ذكراً كان أو أنثى فليس من حق أحدٍ أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة ، ومن يفعل ذلك

٢٦ - إذا كان مسلم قد تزوج نصرانية اعتنقت الإسلام ، فلا ترغم على العودة إلى النصرانية، بل تسأل عن ذلك أمام المسلمين والنصارى ، ولا يرغم أولاد الروميات ذكورا كانوا أو اناثا على اعتناق النصرانية .

٢٧ - لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية .

٢٨ - إذا رغبت مسلمة ، متزوجة كانت أو أوملة أو بكرا ، اعتناق النصرانية ، بدافع المحبة ، فإنه لا يقبل منها ذلك حتى تسأل وتوعظ وفقاً للقانون ، وإذا كانت قد استولت خلسة على حلى أو غيرها من دار أهلها ، فإننا ترد لصاحبها ، وتتخذ الإجراءات ضد المسئول .

٢٩ - لا يطلب المملكان ولا يسمحان لغيرهما أن يطلب من الملك المذكور أبى عبد الله أو من خدمه أو أى مواطن من أهل غرناطة أو البيازين أو البشرات أو غيرهما ممن دخلوا فى هذا العهد ، لا يطلب منهم ردّ ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين ، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أوغير ذلك من الأشياء الموروثة ، ولا يجوز لأحد يعلم بشيء من ذلك أن يطالب به .

٣٠ - لا يطلب من أى مسلم ، يكون قد هدّد أو جرح أو قتل أسيراً أو أسيرة نصرانية ليس أو ليست فى حوزته ، أن يرده أو يردها الآن أو فيما بعد .

٣١ - لا يدفع ضرائب عن الأملاك والأراضى السلطانية ، بعد انتهاء السنوات الثلاث المعفاة ، إلا ما يجب وفقاً لقيمتها ، ومثلما يدفع عن الأراضى العادية .

٣٢ - يطبق ذلك أيضا على أملاك الفرسان والقادة المسلمين ، ولا يحصل عنها إلا ما يدفع عن الأملاك العادية .

٣٣ - يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرياضهما ، والأراضي التابعة لهما بما فى ذلك العهد من الإمتيازات ، ويسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر تبدأ من يوم ١٨ ديسمبر ١٤٩١م .

٣٤ - يختار الحكام والقواد والقضاة الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضي التابعة لها ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى ، ومن يحافظون على الإمتيازات الممنوحة ، وإذا أخل واحد منهم بواجبه ، عوقب وحلّ محله من يسلك السلوك الحق .

٣٥ - لا يحق للملكيين أو لأعقابهما إلى الأبد ، أن يسألوا الملك المذكور أبا عبد الله أو أحداً من المسلمين المذكورين ، بأية صورة من الصور ، عن أى شىء فعلوه وحتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة يعنى إلى نهاية الستين يوما المنصوص عليها فى المعاهدة .

٣٦ - لا يولى على جماعة أبى عبد الله واحد من الفرسان أو القادة أو الخدم الذين كانوا تابعين لملك " وادي آش " (يعنى أبو عبد الله الزغل أو الشجاع . عم ملك غرناطة أبى عبد الله الصغير ، وكان بينهما صراع وقتال على الحكم) .

٣٧ - إذا وقع نزاع بين نصرانى ومسلم أو مسلمة ، فإنه ينظر أمام قاض مسلم وآخر نصرانى ، حتى لا يتظلم أحد مما يقضى به عليه .

٣٨ - يقوم الملكان فى اليوم الذى تسلم فيه الحمراء والحصن ، كما تقدم ، بإصدار مراسيم الإمتيازات للملك أبى عبد الله وللمدينة المذكورة ،

مهمرة بتوقيعها ، ومختومة بخاتمها الرصاص ذى الأهداب الحريرية ، وأن يصدق عليها ولدهما الأمير والكردينال المحترم دى سيبا ، ورؤساء الهيآت الدينية والعظماء والدوقات والمركيزون والكونتات والرؤساء حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن وفى كل وقت (أيضا ٥٦ نافارا)

٣٩ - يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ، ذكورا وإناثا ، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما ، افراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أو غيرها ، وأن يتم الإفراج عن هؤلاء الأسرى فى ظرف الخمسة أشهر التالية ، وأما الأسرى الموجودون بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية ، ويعد يومين من تسليم الأسرى النصرارى لجلالتهما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين منهم مائة من الرهائن ومائة أخرى .

٤٠ - إذا دخلت أية محلة من البشرات فى طاعة جلالتهما ، فإنه يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصرارى ذكورا وإناثا فى ظرف خمسة عشر يوما من تاريخ الإنضمام وذلك دون أية نفقة .

٤١ - تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن فى مملكة غرناطة لكى تسافر فى أمان شريطة ألا يكون على متنها أى أسير نصرانى ، ولن يلحق بهذه السفن أى ضرر أو إتلاف ، ولن يؤخذ منها أى شىء ، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى نصرارى ، ومن حق جلالتيهما إرسال من يقوم بتفتيش هذه السفن لذلك الغرض .

٤٢ - لا يدعى أو يؤخذ أى فرد من المسلمين إلى الحرب رغم إرادته ، وإذا رغب صاحبها الجلالة استدعاء الفرسان من ذوى الخيول والسلاح للعمل فى نواحي الأندلس ، فإنه يجب أن يدفع لهم الأجرة من يوم الرحيل حتى يوم العودة .

٤٣ - يجب على كل من عليه دين أو تعهد أن يؤديه لصاحب الحق ، ولا يجوز التحرر من أداء هذه الحقوق .

٤٤ - يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لمحاكم المسلمين ، من المسلمين ، الآن وإلى الأبد .

٤٥ - يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين ، من المسلمين أيضا ، ولا يتولاها نصراني الآن وفي أى وقت .

وقد ذيلت المعاهدة بما يفيد أن ملكي قشتالة يؤكدان وبضمنان بدينهما وشرفهما الملكي القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص ، ويوقعانه باسميهما ، ومهراته بخاتميها وعلى المعاهدة تاريخ تحريرها في ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م .

ثم ذيلت بعد ذلك وتاريخ لاحق هو ٣٠ ديسمبر سنة ١٤٩٢ يعني بعد تسليم غرناطة بعام تقريبا ، بتوكيد جديد ، فيه يأمر الملكان ولدهما الأمير وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وإلا يعمل ضده شيء أو ينقض منه شيء الآن وإلى الأبد ، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا ، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا إلى الأبد ، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحرار والأشراف والعظماء (١)

١- هذه النصوص موجودة في أكثر من مصدر ، أنظر مثلا :

- CodoIN: Coleccion de documentos ineditos Para la historia de espana V111, pp. 41-430, Madrid 1842-1892.

- Julio caro baroja: Los moriscos del reino de Grana- وما عنده من مصادر وتعليقات - da, pp. 40, 41

- Fernando y Gonzales: estado Social y Politico de los mudejares de castilla, pp. 421-430

وفى نفس تاريخ ومكان توقيع معاهدة غرناطة ، بالمعسكر الملكى فى مرج غرناطة ، تم توقيع ملحق سرى للمعاهدة الأولى يتضمن الحقوق والإمتيازات والمنح التى تعطى للسلطان أبى عبد الله ولأفراد أسرته وحاشيته متى نفذ تعهدهاته المنصوص عليها فى المعاهدة الأصلية وتم تسليم غرناطة والحمرات وحصونها ، ويمكن إيجاز هذه المعاهدة السرية فيما يلى :

- يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبى عبد الله وأولاده وأحفاده وورثته إلسى الأبد ، حق الملكية الأبدية لما فى حوزتهم من محلات وضياع فى بلاد برجه ودلاية ومرشانه ولوشار وأندرش وأجيجر وأرجبة ويضعة بلاد أخرى مجاورة ، وكل ما يخص هذه البلاد من الضرائب وحقوق الريع وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج ؛ لتكون كلها له ولأولاده وأحفاده وورثته بحق الملكية الأبدية ، ويتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها ، ويتولى القضاء فى النواحي المذكورة بإعتباره سيدها وبإعتباره فى الوقت نفسه تابعا وخاضعا لجلالتهما ، وله حق بيع الأعيان المذكورة ورهنها وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء ، ومتى أراد بيعها فإنه يعرض ذلك أولا على جلالتهما ، فإذا لم يرغبيا فى شرائها ، فإن من حقه أن يبيعهما لمن أراد .

- يحتفظ جلالتهما بقلعة " ادره " وسائر القلاع الواقعة على

= وملحق به موجز منقول عن المقرئ ، وانظر كذلك :

- المقرئ : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وتاريخ لسان الدين بن الخطيب ج ٢ ص ٦١٥ ، ٦١٦ من طبعة بولاغ ، ج ٤ ص ٥٢٥-٥٢٧ من طبعة إحسان عباس ، بيروت ١٩٤٨ م .

- وأخبار العصر فى انقضاء أدولة بنى نصر لمجهول ، منشور بعناية الأستاذ ميللر ، جوتنجن ١٨٦٣ . هذا وقد ترجم باسكوال دى جاينجوس "Pascual de Gayangos" نصوص المعاهدة الى الإنجليزية فى كتابه : Mohammedan dynsties in Spain, Vol.11, pp.388-389, London 1948 نقلا عن المقرئ

- وانظر أيضا : محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ص ٢٤٤-٢٥٠ ،

القاهرة ، الطبعة الرابعة - ١٩٨٧ .

- يمنع جلالتهما الملك المذكور مولى عبد الله هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالى من الذهب يبعثان بها إليه ، عقب تسليم الحمراء وقلاع غرناطة الأخرى الواجب تسليمها فى الموعد المحدد .

- يهب جلالتهما للملك المذكور كل الأراضى والرحى والحدائق والمزارع التى كان يملكها أيام أبيه السلطان أبى الحسن ، سواء فى غرناطة أو فى البشرات ، لتكون ملكاً له ولأولاده ولعقبه وورثته ملكية أبدية ، وله أن يبيعها أو يرهنها أو يتصرف فيها كيفما شاء .

- يهب جلالتهم أيضاً للملكات : والدته وأخواته وزوجته ، وإلى زوجة أبى الحسن كل الحدائق والمزارع والأراضى والطواحين والحمامات التى يملكونها فى غرناطة والبشرات تكون ملكاً لهن ولأعقابهن إلى الأبد ، ولهن يبيعها ورهنها والتمتع بها وفقاً لما تقدم .

- تكون سائر الأراضى الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات وزوجة مولى أبى الحسن معفاة من الضرائب والمقوق الآن وإلى الأبد .

- ألا يطلب جلالتهما أو أعقابهما إلى ملك غرناطة أو حشمه أو خدمه رد ما أخذوه فى أيامهم سواء من النصارى أو المسلمين من الأموال والأراضى .

- إذا شاء الملك المذكور أبو عبد الله ، والملكات المذكورات وزوجة مولى أبى الحسن ، وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم وقوادهم وخدمهم وأهل دارهم وفرسانهم وغيرهم ، سفاراً كانوا أم كباراً ، العبور إلى المغرب ، فإن جلالتهما يجهزان الآن أو فى أى وقت سفينتين لعبور الأشخاص

المذكورين متى شاءوا ، تحملهم مع كل أمتعتهم وماشيتهم وسلاحهم وذلك
دون أية أجرة أو نفقة

- إذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابه والملكات
المذكورات ، وزوجة مولاي أبى الحسن ، والقواد والحشم والخدم ، وقت
عبورهم إلى المغرب من بيع أملاكهم المشار إليها ، فإن لهم أن يوكلوا من
شاءوا لتحصيل ريعها وارساله حيث شاءوا دون أى قيد أو مفرم .

- يحق للملك المذكور متى خرج من غرناطة أن يسكن وأن يقيم
حيث شاء فى الأراضى التى أقطعت له ، وأن يخرج هو وخدمه وقواده
وعلماءه وقضاته وفرسانه الذين يريدون الخروج معه . بخيلهم وماشيتهم
متقلدين أسلحتهم ، وكذلك نساؤهم وخدمهم ، وألا يؤخذ منهم شىء سوى
المدافع ، وألا يفرض عليهم الآن أو فى أى وقت وضع علامة خاصة فى
ثيابهم أو بأية صورة ، وأن يتمتعوا بسائر الإمتيازات المقررة فى عهد
تسليم غرناطة .

- فى اليوم الذى يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها ، يصدر جلالتهما
المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة ، موقعه ومختومة ومصدق عليها من ابنتهما
الأمير والكرديال وسائر العظماء .^(١)

وقد أوردت معظم نصوص هذه المعاهدة تفصيلا ، لأن الإلتزام بها
والمحافظة عليها واحترام بنودها كان كفيلا بأن تستقر الأوضاع وتسود
علاقات المودة بين الطائفتين المتعادتين لكن نقض هذه المعاهدة مادة وراء

١- نشر الأستاذ / محمد عبد الله عنان هذه الوثيقة السرية اعتمادا على الأصل المحفوظ فى دار

المحفوظات العامة بسيماثقا Archivo General de Simancas pp leg 11Fol206

انظر : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ٢٥-٢٥٢

مادة كان السبب في كل ما حلّ بالمجتمع المسلم وما لحق الجماعة الإسلامية وهو الذى دفعه إلى الثورة تلو الثورة والدخول فى مواجهة عنيفة غير متكافئة مع عدو عنيد غدار ، وما كان ينوى " فرنادو وايزابيلا " توقيع هذه الوثائق بهدف احترامها ، برغم إيمانها والحلف بدينهما وشرفهما الملكى والحصول على تصديق رجال الدين والعظماء والأمراء عليها. وتاريخهما وموقفهما من معاهدات سابقة مع المسلمين ، يؤكد خلة الغدر وخيانة العهد عندهما ،

يقول المؤرخ " ثوريتا " Zurita وهو من كبار المؤرخين الأسبان في القرن السادس عشر - عن " فيرنادو " الكاثوليكي " وكان مشهورا ، لا بين الأجانب فقط ولكن بين مواطنيه أيضا ، بأنه لا يحافظ على الصدق ، ولا يرمى عهداً قطعه ، وأنه كان يفضل دائما تحقيق صالحه الخاص على كل ما هو حق وعدل " (١)

ويقول " خوان رجلا " نقلا عن " أميركو كاسترو " " إن المعاهدات والإتفاقيات مع عدم النزاهة ، كانت الشىء المميز للعصر الوسيط " (٢)

ويقول " خوليو باروخا " " فى عام ١٤٩٩ - لم يكن هناك إلا اختيار صعب : التحول إلى المسيحية أو معاناة سجن شديد وتعذيب . . . ونتيجة لهذا هاجر الكثيرون ، ومن بقى بقى واضحا فى ذهنه أن التحول إلى المسيحية كان بالقوة ، وأن الملكيين المسيحيين نقضا معاهدة التسليم ، وبعد سنوات من الفتح قال قائل : لا تبك على ما مضى ، فإنه لن يعود ،

١- راجع Prescott,Zurita (Anales...p.697 نقلا عن عنان : نهاية ص ٣٥٠ .

٢- أنظر : ' Juan Regla:Estudios Sobre los moriscos ,P.47 Barcelona 1974' وكذلك : Americo Castro:España En Su Historia,Cristianos,moros y Judios,p.57,Buenos air.- 1948'

ولكن ابك على ما ترى . . . إن كله سيكون فظاظة ومرارة عند كل من عنده حاسة ، إذا كان ملك الفتح لم يحفظ العهد ، فماذا يحفظ خلفاؤه . " (١)

إن ما كان ما يهدف إليه " فيرناندو مايزابيللا " هو القضاء علي الإسلام وتحويل كل سكان شبه الجزيرة الإيبيرية إلى الكاثوليكية ، وما كان ليهدأ لهما بال أو يهنأ لهما عيش إلا بعد أن تجتث كل جذور الإسلام ، وتصبح البلاد كلها كاثوليكية ، لهذه الغاية عملا ، وفي سبيلها يهون كل شيء حتى الأيمان والعهود والمواثيق والشرف الملكي .

نعم ، لقد أوصيا حاكمهما الجديد على غرناطة ، الكونت تنديليا (الماركيزدى مونيتخر فيما بعد) ، بالرفق في معاملة الرعايا الجدد ، والعمل على التقريب بين عناصر السكان ، فرغب الكثيرون في البقاء ، واشتروا الرباع العظيمة ، من أخوانهم الذين آثروا الهجرة إلى بلاد المغرب بثمن بخس ، وعاش المسلمون في اطمئنان نسبي أول الأمر ، ولكنه كان إلى حين ، ذلك أن شروط المعاهدة ، مالبثت أن تحولت إلى حروف ميتة ، فالغى في الحال التصريح للمسلمين بحمل السلاح ، وأنكر على المقيمين منهم في غرناطة حق شراء الأراضى ، والغرض من هذا الإجراء هو تيسير فرص الإقامة أمام السكان المسيحيين ، وتصفية الوجود الإسلامى فى هذا الإقليم ، والأمر الأشد خطورة حدث فى عامى ١٤٩٥ ، ١٤٩٩ عندما فرض العرش ضرائب جديدة يتحملها المدجنون المسلمون وحدهم ، فعانى هؤلاء من خيبة أمل مريرة ، وأصبحت أوضاعهم أسوأ بعد أن كانوا

١- أنظر : Julio Caro Baroja: Los moriscos del Reino de Granada pp.48,48 Madrid

1974 وما عنده من مراجع .

يأملون في نظام ضرائبي أفضل من هذا الذي خضعوا له في ظل بني الأحمر : ملوك غرناطة السابقين .

وهكذا تعرضت بنود الإتفاق للتغيير والخرق ، نصا وراء نص ، واستلبت الحقوق والضمانات ، وأغلقت المساجد ، وخطر على المسلمين إقامة شعائرهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم ^(١) . أضف إلى ذلك أن نفوس رجال الكنيسة كان تفيض برغبة عارمة تبغى القضاء علي كل ما هو إسلامي ، وكانت السياسة الأسبانية أداة في يد الكنيسة ، يقول أحد كبار كتاب هذا العصر أنه " منذ استولى " فيرناندو " على غرناطة ، فإن الأبحار كانوا يطلبون إليه بالحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد - صلى الله عليه وسلم - من أسبانيا ، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء إما التنصير أو بيع أملكهم والعبور إلى المغرب ، وأنه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم ، بل قيد إنقاذ لأرواحهم ، وحفظ لسلام المملكة ، لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصراني أو يحافظون على ولائهم للملوك ما بقوا علي الإسلام الذي يحثهم على مقت النصراني أعداء دينهم " ^(٢) .

لقد استدعى الكردينال " خمينس دي سيستيروس " ليقوم ب مهمة تنصير المسلمين فوصل إلى غرناطة في أكتوبر سنة ١٤٩٩ ، وطلب من

١- أنظر : Pascual de Gayangos : Mohammedan, Daynstics in Spain, Vol.11, P.391 وانظر

أيضا : أخبار العصر في إنتضاء دولة بني نصر ص ٥٤ ، وكذلك مقال بمجلة الأندلس العدد xxx1

سنة ١٩٦٦ هامش ص ٢٩٤ James T. Monroc

2- Luis de Marmol : Historia de la rebelion y Castigo de los moriscos del reino de Granada, Libro 1 Cap XX11, XX111

وكذلك عنان : نهاية الأندلس ص ٣١٣- الطبعة الثانية 109-111 P.

الأسقف اتخاذ أنجع الوسائل لهذا التنصير ، وجمع فقهاء المدينة وأعيان المسلمين بها ، وطلب منهم أن يتنصروا حتى يكونوا قدوة لغيرهم ، ووعد وتهدد ، وقدم المنح والعطايا ، فتنصر بالفعل بعض هؤلاء وتبعهم عدد كبير من عوام الناس .

وقد احتج بعض العلية من المسلمين على هذه الأعمال ، وبينوا أنها خرق لمعاهدة غرناطة ونددوا بهذه الأعمال ، وثار أهل " البيازين " فى ١٨ ديسمبر سنة ١٤٩٩ احتجاجا على تحويلهم بالقوة إلى المسيحية ، وتحصنوا فى حبيهم ، وقد بذل الكاردينال وحاكم المدينة جهوداً كبيرة ، وطلبوا من الثائرين العودة إلى الأمن والهدوء ، فاستجاب هؤلاء بعد ثلاثة أيام والقوا السلاح مقابل وعد بالعفو عن الثائرين .

وإذا كان حى البيازين قد عاد إلى الهدوء ، فإن الإضطرابات قد تجاوزته إلى مناطق أخرى من مملكة غرناطة ، خاصة فى المناطق الجبلية وفى البشرات وبلفيق وبنخار وجونجار واندرش التى نسف الحاكم بها مسجدتها بالبارود ، وفى يناير سنة ١٥٠٠ كان الثائرون بقيادة " إبراهيم بن أمية " قد تمكنوا من السيطرة على عدة حصون ساحلية فى " البوخارا " واستمرت المعارك العسكرية بينهم وبين المسيحيين لمدة ثلاثة أشهر ، وانتهت بإحتلال المسيحيين لـ " لانخارون " فى الغرب و " انداراس " فى الشرق ، وفى اكتوبر من نفس العام ظهرت منطقة ثورة جديدة فى المرية فى جبال فيلابرس وناحية نبخار ، كما ثار المدجنون فى " بيلى فيكى " واستمروا يقاومون من يناير حتى مايو ، حيث صمد الثائرون فى المناطق الجبلية الواقعة بين آكام " فليالونجا " و " سيرا فرميليا " (الجبال الحمراء) حيث تجمعت بعض القبائل المغربية وتوزعت فى شعب الجبال وفتكت بجند الحكومة ، وسير إليهم " فرناندو " قائده " الونسو اجيلار دى قرطبه "

وحدثت بينه وبين المسلمين موقعة حامية انتصر فيها الجند المسلم ، وراح القائد ومعه بعض الكبار ضمن القتلى .

وقد أشار " المقرئ " إلى مقاومة المسلمين الباسلة وإلى إكراه النصارى لهم على اعتناق دينهم الكاثوليكي فقال :

" وبالجملة فإنهم (يعنى أهل غرناطة) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قري وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا إلا من كان من جبل بللنقة (اى فليالونجا) فإن الله تعالى أعانهم علي عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس " بعياهم وما خَفَ من أموالهم دون الذخائر ، ثم بعد ذلك كله ، كان من أظهر التنصير ، يعبد الله خفية ويصلى ، فشد عليهم النصارى فى البحث حتى أنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ، ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد ، وأقاموا فى بعض الجبال على النصارى ، ولم يقبض الله تعالى لهم ناصرا (١) .

وقد عفا الملك المسيحي عن الثوار شريطة أن يعتنقوا النصرانية فى ظرف ثلاثة أشهر أو يغادروا البلاد ، تاركين أملاكهم للدولة ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى فاس ووهران وبجاية وطرابلس وتونس وغيرها ، وعاونتهم الحكومة الأسبانية عن طريق تقديم السفن اللازمة لنقلهم (٢) . أما من بقى فقد استسلم وخضع وان استحقوا وصف مؤرخ معاصر لهم

١- أنظر : المقرئ نفع الطيب ج ٢ ٦١٦ ، ٦١٧ من طبعة بولاق ، ج ٤ ص ٥٢٧ من طبعة إحسان

عباس ، وانظر كذلك أخبار العصر ص ٥٥

٢- Prescott (w) history of fernand and isabella the catholic , p.467, London

بأنهم شعب ذو مبادئ أخلاقية متينة ، أشرف فى معاملاتهم وتعاقدهم ، ليس بينهم عاطل ، وكلهم عامل ، يعطفون أشد العطف على فقرائهم^(١)“

وكانت خطورة الحوادث وتطورها سببا لتدخل الملك بنفسه لوضع حد لثورة الثائرين ، وقسى هو والنصارى عليهم وعاملوهم معاملة وحشية ، وكان المسلمون عزلا برغم ما أظهره من بطولات ، ولم يكن أمامهم آخر الأمر إلا الاستلام وقبول التنصير مخرجا للنجاة ، وبعدهدوء الأحوال لجأت السلطات الأسبانية إلى الرفق وأرسلت القساوسة يبشرون فى كافة النواحي فاجتذبوا المسلمين إلى عقيدتهم بالوعد والوعيد وذاع التنصير فى كل مملكة غرناطة^(٢) ثم صدر مرسوم ملكى بتاريخ ١٢ فبراير سنة ١٥٠٢ يطلب من المسلمين أن يختاروا بين التنصير أو النفى ومغادرة البلاد ، فمال معظمهم إلى الخيار الأول ، يصف صاحب أخبار العصر كيفية حمل المسلمين على اعتناق المسيحية فيقول : دعاهم (فرنادو) وأكرههم عليه وكان ذلك فى سنة أربع وتسعمائة ، فدخلوا فى دينهم كرها ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول " لا إله إلا الله محمد رسول الله " إلا مَنْ يقولها فى قلبه وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الآذان ، وفى مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارا ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التى

1- Pedro Longas : Vida religiosa de los moriscos,P.L 11,Madrid 1915.

2- Marmol .Ibid,1, Cap.XXV11,P.116 Y prescot,Ibid,462

وانظر عنان : نهاية الأندلس ص ٣٢٣ .

هى أم الحباث والمنكرات ، فلا يقدرّون على منعهم ولا على نهيمهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيألها من فجيعة ما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها . . . وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا " (١)

ويتحدث المقرئ عن نفس الموضوع ، نقلا عن رسالة تعرض لتنصير مسلمى الأندلس فيقول : . . . " وتعرفنا من غير طريق وعلى لسان غير فريق ، أن قطر الأندلس ، طرقت أهلها خطب لم يوجد فى سالف الدهر ، وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضى فى الظاهر الكفر ، ولم يقبل منهم الأسر ، وكان ذلك فى أهل غرناطة ، وخصوصا أهل واسطتها لقلّة الناس ، وكونهم من الرعية الدهماء ، مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس ، وعلم النصارى بأن من بقى بها من المسلمين ، إنما هم أسارى فى أيديهم وعيال عليهم ، وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعازل ، وعتوا فيها بالخروج والجلأ ، فلم يبق من المسلمين طائل ، ونقص اللعين طاغية النصارى عهدده ، ونشر بمحض الغدر بنوده . . . "

وتعرض رواية أخرى لنفس المأساة على هذا النحو :

" إن طاغية قشتاله واراغون ، صدم غرناطة صدمة ، وأكره على الكفر من بقى لها من الأمة ، بعد أن هيض جناحهم ، وركدت رياحهم ، وجعل بعض جنده الخاسر على جميع جبهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهى فى الكفر ويختال ، ودين الإسلام تنثر بالأندلس لمجومه ، وتطمس

١- أنظر : أخبار العصر فى إنقضاء دولة بنى نصر لمجهول ٥٤ . ٥٥ . ٥٦ .

معامله ورسومه ، فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام فى الأندلس وأهليه ،
لكان كل مسلم يتدبه ويبيكيه ، فقد عبث البلاء برسومه ، وعفى على
أقماره ونجومه ، ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام ، وتوعد بالنكال
والمهالك العظام ، ومن كان يعذب فى الله بأنواع العذاب ، ويدخل به من
الشدة فى باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم مقطعه ،
وسيوف النصارى اذّك على رعوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلوطة
وأفواه الذاهلين محلولة ، وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر أن يمتل ،
ولا يلبث حيناً ولا يمهل ، وهم يكابدون تلك الأهوال يطلبون لطف الله
على كل حال . " (١)

بل إن صدى محنة المسلمين فى الأندلس ، وصل إلى مصر ، ذلك أن
المؤرخ المصرى ابن اياس يذكر فى حوادث سنة ٩٠٤ هـ (١٥٠٠ م)
أنه فى شهر صفر ، " جاءت الأخبار من المغرب ، بأن الفرنج قد استولوا
على غرناطة التى هى دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف بالمسلمين
وقالوا من دخل ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل فى دينهم
جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ثم ثال عليهم
المسلمين ثانيا ، وانتقصوا منهم بعض الشيء ، واستمر الحرب سائرا بينهم
والأمر لله تعالى فى ذلك " (٢)

هذه الوحشية التى تعرض لها المسلمون ، وهذا النقص للمعاهدات ،
دفع شاعرا مسلماً أن يكتب فصيدة شعرية من مائة وخمسة من الأبيات ،
١- أنظر : المقرئ : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمسانى : أزهار الرياض فى أخبار عياض
ص ٦٩-٧١ ، تحقيق مصطفى السقا وزميله ، القاهرة ١٩٣٩ م .
٢- ابن اياس : أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس زين الناصرى . تاريخ مصر ص ٣٩٢ ج ٢ طبع
بولاق فى ثلاث مجلدات بعنوان بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

وجهها إلى الخليفة العثماني " بايزيد الثاني " (١٤٨١ - ١٥١٢ م ،
يصف فيها ما حل بالمسلمين في بلاد الأندلس وما يواجهونه من إهانة
وتعذيب وإكراه على التنصير ، ويطلب نجدة الخليفة وغرثه ، منها هذه
الآيات :

بأندلس بالغرب فسى دار غربة
ويحر عميق ذو ظلام ولجوة
مصائب عظيم يا لها من مصيبة
شيوهم بالنتف من بعد عزة
على جملة الأعلاج من بعد ستره
يسوقهم اللباط قهرا خلوة
على أكل الخنزير ولحم جيفة
لكم ما شـرطتم كاملا بالزيادة
وقال لنا هذا أمانى وذمتى
كما كنتم قبل دون أذية
بدا غدرهم فينا بنقص العزيمة
ونصـرنا كرها بعنف وسطوة
وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
ففى النار القوه بهزء وحفرة
ففى النار يلقوه على كل حالة
يعاقبه اللباط شـر عقوبة
ويجعله فى السجن فى سوء حالة
بأكل وشرب مرة بعد مرة
ولا نذكره فى رخاء وشدة

سلام عليكم من عبید تخلفوا
أحاط بهم بحر من الروم زاخر
سلام عليكم من عبید أصابهم
سلام عليكم من شيوخ تمزقت
سلام عليكم من وجوه تكشفت
سلام عليكم من بنات عواتق
سلام عليكم من عجائز أكرهت
... فقال لنا سلطانهم وكبيرهم
وأبدي لنا كتباً بعهد موثق
فكونوا على أموالكم ودياركم
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم
وخان عهدنا كان قد غرنا بها
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف
وكل كتاب كان فى أمر ديننا
ومن صام أو صلى ويعلم حاله
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم
ويلطم خديه ويؤخذ ماله
وفى رمضان يفسدون صيامنا
وقد أمرونا أن نسعيه نبينا

فى جزيرة رودوس وعددا من الزعماء الألبان أعداء الدولة العثمانية وقد نصح المتحالفون فى الإستيلاء على " أزمير " وأفضلوا خطط السلطان ، ولم يتوقف الصراع معهم إلا بعد سنوات .

وقد اتجه مسلمو غرناطة فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى إلى سلطان دولة المماليك الشراكسة فى مصر ، الملك الأشرف قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٦) ، يطلبون تدخله لإتقاذهم من الملوك المسيحيين ، فأرسل هذا السلطان وفودا إلى البابا وإلى ملوك الدول الأوربية ، تذكر لهم ما يتمتع به المسيحيون فى دولته من حريات كاملة ، بينما يتعرض إخوانه فى الدين بأسبانيا لشتى أنواع الظلم ، وهدد بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل يعنى التنكيل بالمسيحيين إذا لم يتوقف حكام قشتالة واراجون وغرناطة عن هذه السياسة الحمقاء وعن طرد المسلمين من أراضيهم ، وطالب برد ما صودر من ممتلكاتهم وعدم التعرض لهم ، ولكن هذا التهديد لم يكن له أى ثمرة .

ومرة أخرى ولى الأندلسيون شطرهم نحو الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمد أبى الفتوح ليستتجدوا بابنه السلطان أبى يزيد الثانى (١٤٨٠ - ١٥١١) وكانت هذه الإستغاثة موضوع القصيدة المذكورة ولم يكن حظهم هذه المرة أفضل من سابقتها ، فقد كان السلطان الجديد يعانى من أزمت داخلية وخارجية ترتب عليها حروب فى جبهات متعددة ، كما كان عليه أن يواجه تحالفا صليبيا جديداً اشترك فيه البابا " جيل " الثانى وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا ترتب عليه تنازل الخلافة عن بعض ممتلكاتها .

ولم ينس أهل الأندلس توجيه نداءات للملوك المغرب ، غير أن الأوضاع الداخلية فى تلك البلاد ، وخضوع ابن وطاس لأسبانيا و عقد

معاهدة سنة ١٥٣٨ معها وازدياد نفوذ أسبانيا والبرتغال فى المياه المغربية ، كل ذلك جعل من الصعب على المغاربة انقاذ إخوانهم الأندلسيين .

ومع كل هذا ، فإن كثيرا من المسلمين حافظوا على إسلامهم ، بما إضطر السلطات الأسبانية أن تغير من سياستها ، بعد أن اقتنعت أن تحويل الإنسان إلى النصرانية بين عشية وضحاها أمر غير ممكن ، وهذا هو السبب فى أن الكنيسة منذ الآن وإلى فترة زمنية ، قد تبنت أساليب ونظمت بعثات تبشيرية ، عملت فى صفوف هؤلاء المسلمين ، لعلها تفلح فى اقناعهم باعتناق المسيحية عن يقين ، وحتى سنة ١٥٠٦ كان يحتفل بتعميد الكبار فى " البوخارا " ووقعت عدة اتفاقات مع المجموعة الإسلامية تكشف عن روح التسلط لدى المسيحيين ، مثل اتفاقيات Tabernas فى ١٨ سبتمبر سنة ١٥٠٠ ، و Baza فى ٣٠ سبتمبر من نفس السنة و Husecar فى ٢٦ فبراير سنة ١٥٠١ ، وفيها يعبر المسيحيون الجدد (المسلمون المنصرون) عن رغبتهم فى الخضوع للنظام العام ، وفى أن يؤدوا ما يجب عليهم من ضرائب ، ويتمتعوا بما يتمتع به المسيحيون القدامى من اعفاءات ، وهناك بنود قد تبدو عديمة القيمة فى مظهرها ، ولكنها تعكس معاناة المسلمين وتسلط المسيحيين لهم ، وإن أبرزت الملامح الثقافية المميزة لهؤلاء المسلمين المنصرين ، مثل :

- ليكن للمورسكيين قصابون وصيادو سمك من بينهم ، كما هو الحال الآن ، ولكن عليهم أن يذكروا ذبائحهم وفقاً لأسلوب وطريقة الذبح المسيحى ، وليس بأى طريقة أخرى .

- يمنحون مهلة تبلى خلالها ملابسهم ، وملابس نساءهم ثم تشتري

لهم ملابس جديدة يتم إعدادها وفقاً لطراز اللباس المسيحي .

- يحظر على المورسكيين استخدام الحمامات الآن وفي المستقبل (١) .

وفي ١٢ يناير سنة ١٥٠١ ارتكب الكردنيال " خميس دي سيسنيروس " أمراً اداً ، حيث أمر بجمع كل الكتب العربية من كل مملكة غرناطة ، ووضعها أكداًسا مكدسة في باب الرملة وأضرم النيران فيها جميعاً ، وقد وصل عدد هذه الكتب إلى مليون وخمسة آلاف كتاب في تقدير بعض الباحثين ، ونزل بها بعضهم إلى خمسة آلاف ، وتوسط فريق ثالث فجعلها ثمانين ألفاً ، ولا يعنيها العدد بقدر ما يعنيها العمل الهمجي الذي ارتكبه رجل دين من كبار الأخبار المثقفين ، أنه لم ينبج من عمله أي كتاب عربي اللهم إلا ثلاثمائة كتاب في الطب والعلوم ، بعث بها ذلك الرجل إلى الجامعة التي أنشأها في قلعة عبد السلام Alcalá de Henares ، وقد علق العالم الأمريكي " وليام بريسكوت " على هذه الفعلة الشنعاء بكلمة حق جاء فيها " إن هذا العمل المحزن ، لم يرق به همجي جاهل ، وإنما حبر مثقف ، وقد وقع لا في ظلام العصور الوسطى ، بل في فجر القرن السادس عشر ، وفي قلب أمة مستنيرة ، تدين إلى أعظم حدٍ بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها(٢) .

وهكذا تتوالى إجراءات وأساليب العنف وقهر المسلمين ، ففي سبتمبر سنة ١٥٠١ صدر قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح سرا أو

١- انظر Bernard Vincent: Historia de los moriscos, Vida y Tragida de una memoria

بالاشتراك مع Antonio Dominguez Ortiz, PP.18, Madrid 1969.

2-W.Prescott: History of Ferdinand and Isabella, The Catholic

Anwar G. Chejne: Islam : وكذلك : ٣١٨ . ٣١٦ . وانظر أيضا عنان : نهاية الأندلس ص ٣١٦ . وكذلك : and the west : the Moriscos, a Cultural and social history , P.6, Newyork 1983'

علنا ، ويتعرض المخالف لعقوبه الحبس ومصادرة الممتلكات فى المرة الأولى ، فإذا ما تكررت المخالفة قضى بالإعدام على المخالف . لقد كانت السلطات الأسبانية حريصة على تجريد المسلمين من سلاحهم وإن اتخذت إجراءات لينة نوعاً ما أيام فيرناندو الكاثوليكي حيث رخص فى استعمال بعض الأسلحة المنزلية مقابل رسوم معينة ولكن الحكومة أخذت تتشدد فى منح التراخيص ، وجرّد المسلمون فى بلنسية من كل سلاحهم وفى سنة ١٥٤٥ صدر قانون يمنع كافة كل أنواع الأسلحة ، ونفذ بشيء من اللين ، وفى سنة ١٥٦٣ - فى عهد فيليب الثانى - صدر قانون جديد يؤكد تحريم حمل السلاح المورسكيين إلا بإذن من الحاكم العام ، ونفذ هذا القانون بمنتهى الصرامة ، وكان رد الفعل لدى المورسكيين شديداً ، فقد كانوا فى حاجة إلى السلاح بمواطنهم النائية (١) .

إن هذه الحملات العنيفة ، وجهود المبشرين أيضاً ، كانت نتيجتها الفشل ، وأدرك المسئولون أنه ليس من السهل استئصال الإسلام من البلاد ، فقد غادر المسلمون جماعات إلى العُدوة المغربية ، وبقي من اعتقد أنه يمكن له بالتعميد وحده أن يعيش فى سلام ، ولكن الإجراءات التى اتخذت أثمرت خيبة أمل لدى هؤلاء المورسكيين ، وبرهنت على تباين الثقافتين : ثقافة المسيحي الجديد (المسلم المنصر) والمسيحي القديم ، وهذا يفسر مساندة المورسكيين لحركات القرصنة واللصوصية وللحملات الوافدة من بلاد المغرب (٢) حسبما نفضل فى موضعه إن شاء الله .

١- انظر عنان : نهاية الأندلس ص ٣٢٦ ، ٣٥٧ .

٢- Bernard Vincent: Historia de los Moriscos, P.21

يشير " فرنسيسكو فونيث مولى " Francisco Nunez Muley في مذكراته الخاصة إلى أنه صدر مرسوم في سنة ١٥٠٨ يقيد استخدام المورسكيين للملابس الإسلامية ، وفي سنة ١٥١١ صدرت خمسة مرسومات ، الأول في ٢٠ مايو لتنظيم استخدام الأدوات التي يمكن استخدامها سلاحاً مثل السكاكين والثاني في العاشر من يونيو ويتعلق بمنع استعمال الكتب العربية والثلاثة الأخرى في ٢٠ يونيو وتعالج طريقة ذبح الحيوانات ودور آباء وأمهاة التعميد في تعميق الكاثوليكية ، والهدف من هذا كله هو تحطيم خصائص الثقافة المورسكية ، ولأن النتائج كانت محدودة ، فقد تكرر صدور الإجراءات في فبراير سنة ١٥١٢ وأضيف إليها تحريم مهنة الصرافة على المورسكيين مع اتخاذ وسائل تحول بينهم وبين مساعدة من أسموهم " بالقراصنة البرابرة " وتكرر نفس الشيء في ٢٩ يوليو سنة ١٥١٣ ، وفي ١٠ مايو سنة ١٥٢٠ ، وتكرار نفس الشيء دليل واضح على عدم مقدرة السلطات التوصل إلى نتائج حاسمة .

وقد توالى شعور المورسكيين بما يحدث بهم من أخطار ، ولذلك بعثوا بوفودهم إلى أعلى السلطات ، تؤكد ابتزاز الموظفين ومحصلى الضرائب لهم ، وتقدم مقترحات تنظم ما يدفعون من إعانات غير عادية ، لكن السلطات واصلت تعنتها ، وصدر في ١٢ مارس سنة ١٥٢٤ - في عهد الإمبراطور شارل الخامس (شارلكان - حفيد فيرناندو الكاثوليكي) - وبعد فترة من الهدوء النسبي - صدر مرسوم يفرض التنصير على من بقى مسلماً واخراج من رفض النصرانية من أسبانيا ، على أن يعاقب المخالف بضرب الرق عليه مدى الحياة أو يقضى عليه بالإعدام ومصادرة كل ما عنده من ممتلكات كما قضى المرسوم بتحويل كل المساجد الباقية إلى كنائس .

وبطبيعة الحال شعر المورسكيون بالإستياء من هذا المرسوم ، وأرسلوا

وفدا للإمبراطور فى " مدريد " يعرض تظلمهم من كل ما يتعرضون له ،
فندب الأمبراطور لجنة من النواب والأجبار وبعض قضاة محاكم التفتيش
والقادة ورأسها المحقق العام للنظر فى ظلامة المسلمين ، ولتقرير ما إذا كان
تنصير المسلمين بالإكراه صحيحا تترتب عليه آثاره أم أنهم يعاملون معاملة
المسلمين ؟ وانتهت اللجنة إلى أن تنصير المسلمين صحيح ، حتى لو كانوا
قد حملوا عليه ؛ لأنهم سارعوا لقبوله اتقاء لما هو شر منه فكانوا بذلك
أحرارا فى قبوله " وهكذا اعتبر التنصير الذى فرضه القسوى على
الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشأ لصفة لا
يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها " (١)

وحتى لا يتجمع المورسكيون فى غرناطة ، صدر مرسوم ملكى
بظليطة فى فبراير سنة ١٥١٥ يحرم على المدجنين أو المسلمين المنصرين
اختراق مملكة غرناطة وينص على إعدام ومصادرة ممتلكات المخالف ، كما
يحرم على المورسكيين بيع ممتلكاتهم لأى شخص دون ترخيص مسبق ، ومن
فعل تعرض للموت والمصادرة ، والسبب فى ذلك هو أن السلطات قد
تنبهت إلى أن كثيرا من هؤلاء المنصرين يبيعون أملاكهم ويأخذون ثمنها ثم
يعبرون إلى المغرب ويعودون إلى الإسلام (٢) .

ويواصل مسلسل العنف والإضطهاد والتضييق والتعذيب مسيرته ،
فستدعى إلى غرناطة فى سنة ١٥٢٦ لجنة بأمر من الملك ، وتصدر عدة
قرارات فى السابع من ديسمبر من نفس العام فى شكل وثيقة ، تتنكر

١- راجع تاريخ De Marles الذى إقتبسه من تاريخ " كوندى "

Hist de la domination des Arabes en Espagne V.III.P 339

وكذلك عنان : نهاية الأندلس ص ٣٥٢ .

2-Archivo general de simancas, P.R. legajos 8, Fol . 120

وكذلك عنان : نفسه : ص ٣٢٧ .

لكل الخصائص المميزة لهؤلاء المورسكيين ، فهي تمنع استخدام اللغة العربية ، كتابة أو مشافهة ، وتمنع استخدام الملابس الطويلة واستعمال التمام أو الحلى أو أى رمز يعنى الإنتماء للإسلام ، فتحرم الختان واقتناء العبيد أو السلاح ، وتمنع تزكية الحيوانات وفقاً للطريقة الإسلامية ، كما تمنع تحريك السكان المورسكيين ، ومن الآن سيعرض موضوع الزواج المشترك لرقابة صارمة ، وحرصاً على قمع أية مخالفة للقواعد المذكورة ، تقرر ولأول مرة - انشاء محكمة تفتيش فى غرناطة .

وواضح أن هذه الوثيقة تقدم تحديداً جديداً لمفهوم المسلم فى اراضى أسبانيا ، لقد كان المسلم هو ذلك الشخص الذى لا يعتنق المسيحية ، أما الآن فإن المسلم هو الذى يحافظ على أدينى عادة إسلامية تكشف عن أصله . وأمل أن يندمج هؤلاء فى المجتمع المسيحى ويذوبوا فيه بسزعة ، تبين أنها فكرة حاملة أكثر من اللازم ، فالفروق قائمة وراسخة ، وبالإضافة لما سبق فإن المورسكيين وحدهم يطبق عليهم نظام ضرائبى معقد هو نظام الفرض La Firda ذو العناصر الأربعة ، الثلاثة الأولى تسمى الفرضة الكبرى وتتضمن ضريبة عادية مقدارها ٢١ ألف دوقية ، وأخرى غير عادية قدرها خمسة آلاف ، وعشرة آلاف أخرى تخصص لنفقات القصر الملكى لكارلوس الخامس فى غرناطة ، أما الفرضة الأقل أو فرضة البحر فيدفعها المسيحيون القدماء والمورسكيون ، وتخصص للإتفاق منها على جنود وحراسة الشواطئ . وابتداء من سنة ١٥٢٦ تتبلور كلمة المورسكيين للدلالة على هؤلاء المسلمين المنصرين الذين يخضعون لنظام حكم نصرانى فى بلد نصرانية ، وهى تصغير كلمة Mors التى تعنى المسلم ، فكلمة Morisco تعنى إذن المسلم الصغير أو الذليل ، وقد تطلق عليهم كلمة " المسيحيون الجدد " بدلا من كلمة " المدجنون " Los Mudejares التى كان

يعرف بها المسلم فى بلد يحكمه النصارى^(١) وكان كل هذا الذى حل بالمورسكيين ما كان كافيا ، فلم تكتف السلطات الأسبانية بما اتخذته من إجراءات متعنته ، بل ان الملك أصدر تشريعا يحتم على هؤلاء المورسكيين أن يقيموا فى أماكن خاصة بهم بالمدن القديمة مثلما كان الحال بالنسبة لليهود فى العصور الوسطى ، وقد تم تخصيص منطقتين لهم فى غرناطة ، إحداهما وهى الصغرى - تضم ١٠٠ منزل ، والأخرى - وهى الكبرى - تضم خمسة آلاف منزل ، وتشمل مناحية " البيازين " ، وهذه المناطق التى خصصت للمورسكيين كان يطلق عليها اسم " لاس مريرياس " Las Morerias ، وتفصلها عن أحياء النصارى أسوار كبيرة ، وكانت تضم حوالى ٤٠ ألف نسمة (٢)

كل هذه الإجراءات التى اتخذت ضد المورسكيين فى قشتالة ، لم يكن ممكنا أن تمر دون أن يدركها إخوانهم فى مملكة " اراجون " لقد كانوا يخشون خلال الفترة من ١٥٠٢ - ١٥٢٠ أن يصدر أمر بطردهم أو

١- انظر : Juan regla: estudios sobre los moriscos, P.69, Barcelona 1974'

وأبضا : Anwar de chrejnc: Islam and the west: the moriscos, P.7

Julio caro baroja: Losmoriscos

وكذلك التعليق رقم ٤٧ فى ص ٥٠ عنده حيث يذكر ما يؤكد المعنى المشار اليه نقلا عن :

Covarnubias (Sebastian de) Tesoro de la lengua castellana O Espanola .P.815 Barcelona 1943'

وكذلك عن :

Salazar de Mendoza (pedro) : Origen de las dignidades, Folio V.

٢- انظر : H.Ch. lea : History of the moriscos of spain, their conversion and expulsion, P. 31, Note 1, P. 151, 152 - London 1901'

وقد أعيد نشر نفس الكتاب فى " نيويورك سنة ١٩٦٨ ، وانظر أيضا : عنان نهاية الأندلس ص ٣٢٦ ، ويشير فى هامش ٢ من نفس الصفحة الى أن الزام المسلمين بالإقامة فى أماكن خاصة بهم بدأ يظهر فى المراسيم الملكية إعتبارا من سنة ١٥٠٠ م .

تحويلهم بالقوة إلى المسيحية ، وقد تدخل النبلاء ، ورجال الإقطاع للدفاع عنهم ، وطالبوا في برلمان برشلونة سنة ١٥٠٣ بمنحهم ضمانات تكفل بقاءهم ، وقد اضطر كارلوس الأمل أن يكذب في سنة ١٥١٧ ما ينسب إليه من إعداد العدة لطردهم ، لكن التنافر بين الجماعتين : المورسكية والمسيحية كان على أشده على المستوى الشعبى كما هو الحال فى مملكة غرناطة ، وقد ساعدت حركة النقابات على تفجير الصراع ، ففي سنة ١٥٠٩ تمكنت نقابات بلنسية من الحصول على إذن يسمح لهم بحمل السلاح ، ليتأتى لهم مواجهة الهجمات التركية ، وفى سنة ١٥٢١ ، أعلنت المقاومة السياسية عن مشاعرها المعادية للمورسكيين بشكل عنيف متكرر ، وفى ٢٠ مايو سنة ١٥٢١ اغتال المسلمون شخصين أسودين ، وكان على السلطات أن تبذل مجهودا جبارا حتى لا يعاقب المتهمون بغير الطريق القانونى . وفى يونيو قام المسيحيون بمهاجمة قرى المسلمين فى منطقة أراضى الرى ببلنسية ، وفى ١٥ يوليو اعتدى ٤٠٠ شخص على " موريدرو " وفى أوائل أغسطس أكره ١٥ ألف من المدجنين على التعميد خاصة المدجنون فى " يولوب " : المكان القريب من زعيم المقاومة السياسية " بيثنتى بيرس " أخيرا فى مارس سنة ١٥٢٢ ، اختفى زعيم الثوار ، وحوصرت القرى المسلمة فى البريكى و" الكوثير " وعندما انتهت حركة النقابات فى نهاية سنة ١٥٢٢ ، فإن مشكلة المدجنين كانت لا تزال تطرح بكل خطورتها ، وعاد من أكرهوا على التنصير إلى عقيدتهم القديمة .

والآن ماذا عن موقف الحكومة من هذه الأحداث ؟

فى مارس سنة ١٥٢٣ نظرت هذه المسألة فى المكاتبات المتعلقة بمحاكم التفتيش ، وحاول المفتش العام فى يناير سنة ١٥٢٤ أن يعقد

اجتماعاً لمناقشة قضية المدجنين الذين عادوا إلى الإسلام سنة ١٥٢١ ،
وبعد تأجيلات متعددة افتتحت الجلسات في ١٩ فبراير سنة ١٥٢٥ ،
واستمرت مداولاتها حتى ٢٢ يونيو ، وانتهت إلى نتيجة محددة هي أن
تعميد هؤلاء سارى المفعول وأن من تنصر يلزمه أن يعيش مسيحياً ، وعلى
أثر هذا عين مندوبون مهمتهم إعادة المدجنين إلى عقيدة الكاثوليكية في
جنوب مملكة بلنسية ، وكانت مهمة هؤلاء من الصعوبة بمكان ، فقد ثار
المسلمون عليهم ، وكونوا قوات تحصنت بسلسلة جبال " بيرنيا " في "
اليكانتى " وفي أحواز سرقطة وفي بلنسية وغيرها ، ثم استسلم هؤلاء
عندما أيقنوا أن المقاومة لن تفيدهم في شيء (١) ، باستثناء بلنسية ، فقد
كانت تضم عددا من المسلمين يصل إلى ٢٧ ألف أسرة ، ثم إن وقوعها
على البحر كان ييسر لها الإتصال بالعدوة الأخرى في المغرب ، ومن هنا
فقد أبدت مقاومة عنيفة عندما فرض عليها التنصير ، ولجأت جماعات
كثيرة منهم إلى ضاحية بنى وزير Benguacil فاضطرت الحكومة أن تجرد
لهم حملة كبيرة مزودة بالمدافع حملت المسلمين على التسليم ، ثم أرسل
إليهم الإمبراطور عهد أمان على أن ينصروا وعدلت عقوبتهم من ضرب
الرق عليهم إلى الإكتفاء بغرامة مالية (٢) .

أما في باقى ولايات اراجون ، فقد كان السادة وأصحاب الإقطاع
يخشون على مصالحهم ويخافون تعرضهم للخراب إذا ما تمزق المسلمون كما
حدث في بلنسية ، ولهذا فقد اتصلوا بالإمبراطور وبينوا له مخاطر هذه
السياسة ، وأكدوا له أن المورسكيين في " اراجون " مجموعة عاملة
نشطة مسالمة ، لم ترتكب خطأ دينيا أو سياسيا ، وبينهم زراع في أراضي
الملك والسادة ، وبينهم صناع مهرة ، وأخراجهم من البلاد تترتب عليه

١- أنظر : Bernard Vincent : Historia de los moriscos, P.23 .

٢- أنظر : H. Ch . Lea : History of the moriscos of spain ... P. 91,92 .

خسارة ، كما أنه ليس هناك ما يدعرج حملهم على التنصير ، فالإخلاص لدين لا يتأتى من وراء ذلك الإكراه ، لكن الملك أصرّ على ضرورة تطبيق التشريع الجديد على كل مسلمى " اراجون " ، وأصدر أوامره إلى ديوان التفتيش كى يقوم بتلك المهمة ، يعنى تنصير المسلمين قبل ٨ ديسمبر سنة ١٥٢٥ ، وبالفعل لم يأت عام ١٥٢٦ إلا وقد تمّ تحويل الجميع إلى المسيحية .

ليس هذا فقط ، فقد توالى الأوامر المتعنتة تجرم على المسلمين بيع الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وتحتم على كل مسلم حمل شارة زرقاء على قبعتة ، وحظر عليهم حمل السلاح مهما كانت الأسباب ، وأمروا بالسجود فى الشارع عندما يمر كبير الأبحار ، كذلك فرض على المسلمين فى بلنسية مغادرة الأراضى الأسبانية عن طريق الشمال ، ومنع السادة من أبقائهم فى ضياعهم وإلا تعرضوا لغرامات فادحة ، ورغم تدمير المسلمين إلا أنهم ما لبثوا أن خضعوا وأرسلوا وقدأ منهم إلى البلاط يعرضون الرضى باعتراف النصرانية على ألا يخضعوا لديوان التفتيش مدة أربعين سنة وأن يحتفظوا بلغتهم وملابسهم القومية وأن يطبقوا شعائهم فى الدفن والزواج الميراث وأن ينفق على فقهاهم من إيرادات أوقاف البر الإسلامية وأن يسمح لهم بحمل السلاح وتخفف عنهم الضرائب (١) . ولكن مجلس الدولة رأى أن يطبق عليهم كل ما طبق على مورسكى غرناطة ، وأن يسمح لهم بالإحتفاظ بأزيائهم ولغتهم مدة عشرة أعوام فقط وأن تكون لهم بعض المزايا فيما يتعلق بالزواج والميراث والضرائب ، ولا تتدخل محاكم التفتيش فى المسائل الخاصة بهم ، مع الإعتراف بزيجاتهم

١- أنظر : Pedro longas : Vida religios de los moriscos. P. XLI y XLII ,
Madeid 1915.'

التي تتم بين أقرباء من ناحية الأب ، وسمح لهم بمقابر مختلفة ، كما سمح بدفع رواتب الفقهاء الذين تحولوا إلى المسيحية ، وكانوا يستفيدون من الأوقاف المرصودة على المساجد التي تحولت إلى كنائس ، كما تقرر تسويتهم في الضرائب بالمسيحين القدامى ، وقد دفع المسلمون في مقابل ذلك ٤٠ ألف دوقية (حوالي ٧٠ مليون بيزطة الآن) ، (يساوي الدولار الأمريكي حوالي ٢٠٠ بيزطة أسبانية الآن) .

وبرغم أن المباحثات قد انتهت في يناير سنة ١٥٢٦ ، فإن الإتفاق يبقى سرا حتى سنة ١٥٢٨ ، ولم يحل كل المشاكل ، فقد كان المندوبون المسلمون معتدلين من الناحية السياسية ، وعاون بعض النبلاء في إنجاح المفاوضات ، وتلقوا مكافآت من الملك ، لتعاونهم في إنجاح المفاوضات ، منهم مثلا قاضى " بال دى شلفا " أو عيد الله بن عامر أحد أغنياء " بناجواثيل " ، وإذا كان سكان " أراجون " قد حافظوا على هدوتهم ، فإن الثورة قد تفجرت في أقاليم مختلفة من " بلنسية " ، ومع أنه كان من المستحيل على المورسكيين إقامة جيوش منظمة ، إلا أن مقاومتهم كانت شرسة في جبال " بيرنيا " في الجنوب ، وفي " بناجواثيل " في الوسط ، وبالدرجة الأولى في سلسلة جبال " اسبادان (كاستيون) Castillon في الشمال ، حيث يتركز الوجود الإسلامى بقوة وحيث لجأ إلى هذه المنطقة كثير من سكان وادى بلنسية ، ولم يكن الصراع متكافئا بين القوات النظامية وبين الجماهير المتمردة ، وقد استسلمت " المونائيد " بسرعة في ١٤ فبراير سنة ١٥٢٦ ، واستسلمت " بناجواثيل " في ١٧ مارس ، لكن المتمردين في " اسبادان " ظلوا يقاومون حتى ١٨ سبتمبر ، أما البويرة الأخيرة في " مويلا دى كورتس " فقد ثابرت حتى العاشر من أكتوبر (١)

ثم أقبل المسلمون فى بلنسية على الدخول فى النصرانية أفواجا ، فلم يكن أمامهم سوى هذا السبيل .

وقد أراد المورسكيون فى غرناطة أن يحذوا حذو زملائهم فى بلنسية ، فانتهزوا فرصة زيارة الإمبراطور لغرناطة سنة ١٥٢٦ ، وأرسلوا إليه - نيابة عنهم - ثلاثة من سلالة امرائها الذين تنصروا عندما استسلمت هذه المدينة للملكيين الكاثوليكين وهم " الدون فرناندوينجاس والدون ميشيل داراجون وديجو لويث بنشارا " وقد شرحوا فى مذكرتهم للإمبراطور ما يعانى منه المورسكيون من آلام المطاردة والمضايقات ، خاصة على يدى القساوسة ورجال القضاء الدينى ، فتقرر ندب لجنة للتحقيق فى أوضاع المورسكيين بكل نواحي غرناطة ، وقد عرضت ما توصلت إليه على مجلس دينى ، فقرر المجلس مايلى :-

أن يترك المورسكيون استخدام لغتهم وملابسهم القومية وألا يستعملوا الحمامات وأن تفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات وألا يتسموا بأسماء إسلامية ولا يحتفلون بأعيادهم إلا داخل بيوتهم وعليهم إغلاق أبوابها يومى الجمعة والسبت وعليهم استخدام الرقص والضجيج ، وألا يستخدموا الحناء فى أيديهم أو أرجلهم أو على رءوس نسائهم ، وألا يستخدموا التقاليد الإسلامية فى حفلات الخطبة والزواج وغيرها ، وأن يذهبوا لسماع الموعظة فى الكنيسة ، وألا يكون عندهم أطفال لقطاع ، وألا يكون بينهم Gacis من البرابرة الأحرار أو العبيد ، وللتأكد من الإلتزام بكل ذلك تقرر نقل محكمة التفتيش من جيان إلى غرناطة .

وقد أرجىء تنفيذ هذه الأوامر بأمر الأمبراطور أكثر من مرة ، وتقرر العفو عن الذنوب التى ارتكبت فى الماضى ، كما تقرر مضاعفة العقوبات

على من يخالف من جديد ، فأذعن المورسكيون مضطرين ، ولكنهم افتدوا حق ارتداء الملابس القومية وحق الإعفاء من المطاردة للإتهام بالردة ، نظير مبلغ كبير من المال دفعوه للإمبراطور (١) .

وقد حدث توقف فى قمع المورسكيين ومعاداتهم سنة ١٥٢٦ ، فتحول بعض المدجنين رسمياً إلى المسيحية واتخذت بعض الإجراءات التي تطمئن أصحاب الأقطاع على مصالحهم ، وتأجل تنفيذ المراسيم المعادية للمورسكيين ، وبدا أن احتمال ذوبانهم فى المجتمع المسيحى أمر ممكن ، ورضيت كل القطاعات المشتركة فى المشكلة ، ولم تختلف الحالة فى مملكة غرناطة عنها فى مملكة اراجون ، لأن ما تضمنته وثائق تحريم العادات المورسكية بقى معطلا دون تنفيذ .

وقد وصل الإمبراطور كارلوس الخامس إلى مدينة " دارو " فى يونيو سنة ١٥٢٦ ، واستمر بها حتى ديسمبر ، واستقبل فيها ممثلين لأطراف المشكلة المورسكية ، بهدف فهم أبعادها ، وليطمئن أكثر ، أمر بإجراء تحقيق حول أوضاع هؤلاء المورسكيين تولاه " جاسبر دى افسالوس " و " انطونيو دى جيبارا " و " خوان دى كثناتا " ومن الكهنة القانونيين " فرنسيسكو دى أوتيل " و " بدرو لويث " وقد أنجز هؤلاء مهمتهم فى سبتمبر ، وأنتهوا إلى أن المورسكيين يعانون من ابتزاز وسب المسيحين لهم ، وخلع حجاب نسائهم وسلبهم ونهبهم ، لقد كان المسيحيون " ذئاب سارقة بلا شفقة ، إن مهنتهم التكبر والعظمة واللواط والفخامة ، والرمى بالكفر وسب الدين والفخفة والتبجح والطغيان والسرقة وكل ما لا عدالة

H. Ch . Lea : the history of the moriscos ... P. 214.,215, 216.

١- أنظر :

P.Longas : Vida religiosa de los moriscos .. P. XLIII

وكذلك :

Juan regla : estudios sobre los moriscos, P.53

وأیضا :

فيه " لقد واجه الوردسكيون سلسلة من التهديدات التي لا تنقطع ، وكانت تنفذ بلا رحمة ، من جانب أكبر الملوك قوة على الأرض . على الأقل من ناحية المظهر . . . " (١)

وقد اجتمعت الجمعية العمومية فى الكنيسة الملكية نغرناطة ، ورأى الحاضرون ضرورة حصر كل الممارسات المتنوعة بغية إيقافها ، وفى ٢٩ سبتمبر تم توقيع ٤٠ وثيقة بالغاء أو تحديد التعسف ضد الوردسكيين ، لكن المجتمعين لم يحددوا إلى مدى كان الوردسكيون مسئولين عن ردتهم ، ولهذا كتب " كارلوس الخامس " إلى البابا يقول :

" إن التحول إلى المسيحية لم يتم بإرادة كاملة عند معظمهم ، وأهم من ذلك أن هؤلاء ما علموا ولأدربوا ولا تثقفوا بعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة " وعندما نتحدث عن العمل الوردسكي فى السابع من ديسمبر سنة ١٥٢٦ ، فإنه لا بد أن نشير إلى تعليمات العاشر إلى اسقف غرناطة إنها توحى بالرغبة فى أن تنضم هذه الأقلية إلى المسيحية فى أقصر وقت ممكن . ولا بد من الإشارة أيضاً إلى عرض الوردسكيين دفع ضريبة خاصة مقدارها ٩٠ ألف دوقية أى ١٥.٧٥٠٠٠ بيزتة فى ست سنوات . وقد قدمنا أن الدولار الأمريكى يساوى حوالى ٢٠٠ بيزتة أسبانية الآن ، فهذا المبلغ إذن يساوى ٧٨٧٥٠ دولار أمريكى تقريبا .

لقد عاش الوردسكيون والمسيحيون القديما خلال ثلاثين سنة على الأسس التي تحددت سنة ١٥٢٦ وكانت العلاقات تتراوح بين القمع والإضطهاد وبين الذوبان والإنصهار ، وإن كان الخيار الأخير هو الذى

Julio caro Baroja : los moriscos del reino de Granada, P.5

أنظر :

نقلا عن :

Sasvadro (Eduard) : Literature aljamiada, P.159. Madrid : 1878

سيطر على الفترة في مجموعها ، من المؤكد أن وعود سنة ١٥٢٦ لم تحترم دائما ، فقد كانت محاكم التفتيش تطارد المورسكيين في بلنسية منذ سنة ١٥٢٨ ، وفي غرناطة منذ ١٥٢٩ ، وحافظ أصحاب الإقطاع على كل مالهم من حقوق على رعاياهم ، وتعرضت حفلات الرقص والغناء التي كان يمارسها المورسكيون للجدل والمناقشة اعتبارا من سنة ١٥٣٢ . وتتميز هذه الفترة بما شهدته من حملات التبشير والتنظيم الدقيق لتعليم أصول العقيدة المسيحية . وفي هذا الصدد نشير إلى محاضر جلسات برلمان " سيجوبيا " سنة ١٥٣٢ ، وولد الوليد ١٥٣٧ كنموذج لما جرى في مملكة قشتالة ، وإلى محاضر برلمان " مونثون " سنة ١٥٣٧ نموذجا لما جرى في " أراجون " هذه المحاضر جميعا تصرّ على ضرورة التبشير الجيد ، وإن ابتعد برنامج سنة ١٥٢٦ ، عن التطبيق بطبيعة الحال ، أما المجامع الدينية التي كان ينبغي لها أن تعقد اجتماعاتها كل خمسة أعوام ، فما كانت تنعقد إلا من حين لآخر ، وألغيت الزيارات التي كانت منظمة للكنائس وما عادت تتم إلا نادراً ، ويرغم كل هذا فإنه لا بد من الإشارة إلى أهمية واستمرارية الجهود التي بذلت ، ويرغم كل هذا فقد استمر المورسكيون مسيحيين غير جيدين وحتى منتصف القرن .

فما هو السبب الرئيسي وراء هذه الإرادة والرغبة في المقاومة ؟ إنه تتوافر معلومات فيما يتعلق بمملكة غرناطة ، فقد أنشئت المدارس والمسكن وخصصت لهؤلاء المورسكيين ، ونظمت لهم بعثات مختلفة ، وهناك زيارة قامت بها الأسقفية العامة سنة ١٥٣٧ ، وزيارتان قام بهما اسقف قادش بين سنتي ١٥٥٠ - ١٥٥٤ ، وانعقد المجمع الديني مرتين احدهما في غرناطة سنة ١٥٤١ والثانية في قادش سنة ١٥٥٤ ، وكان واضحاً أن المسيحيين يرغبون في صهر الأقلية المسلمة والعمل على أن تذوب في المجتمع المسيحي ، وقد وضعت السياسة الملكية في خدمتهم

خبراء فى المشكلة المورسكية ، واستعانت بكبار الأساقفة ، لتستفيد بطاقات ومقدرة هؤلاء المتخصصين للوصول إلى ذلك الهدف ، من هؤلاء " فرای انطونيو دى جيبارا " واعظ الملك والشخصية اللامعة بين أدباء عصر النهضة الأوربية ، وكان قد عمل مبشراً بين المورسكيين فى بلنسية سنة ١٥٢٥ ، واشترك فى اجتماع غرناطة العام التالى ، وعين أسقفاً لقادش فى يناير سنة ١٥٢٩ وظل فى هذا المنصب حتى سنة ١٥٣٧ . وكان منهم " دون جسيبر دى افالوس " الذى كان يشبه " جيبارا " فى مهمته ، وكان اسقفاً لقادش سنة ١٥٢٥ ، واشترك فى بعثات بلنسية وفى اجتماع غرناطة وعمل اسقفاً لهذه المدينة من سنة ١٥٢٨ حتى سنة ١٥٤٢ ، ويمكن أن يضاف إليهما " دون مارتين بيريث دي ايبالا " الأستاذ بجامعة غرناطة ، واسقف قادش من سنة ١٥٤٨ إلى ١٥٦٠ ، ثم نقل إلى " سيجوبيا " لبعض الوقت ، وعين أسقفاً لبلنسية سنة ١٥٦٤ وظل فى هذا المنصب حتى وفاته ، كذلك " دون بدرو جيريرو " أسقف غرناطة من سنة ١٥٤٦ إلى ١٥٧٦ ، فقد لعب هؤلاء دوراً أساسياً فى سياسة التذويب ، وكانوا الشخصيات الرئيسية خلال تلك الفترة التى غلب عليها طابع التبشير والتعليم .

إن دراسة النصوص المتعلقة بالتبشير تؤكد أن العمل كان مستمرا وواضحا ومركّزاً للوصول إلى الإنصهار ، ابتداء من تعليمات أسقف غرناطة فى ١٠ ديسمبر سنة ١٥٢٦ إلى المجمع الدينى الذى انعقد فى يناير / فبراير سنة ١٥٥٤ ، مروراً بمذكرات أسلوب تعليم الديانة المسيحية للمورسكيين ابتداء من سنة ١٥٣٠ .

وكان الأساقفة ورجال الدين على وعى تام بأن التحول التام للمسيحية يمكن أن يكون فقط ثمرة عمل مشترك ، فالصلاة الربانية يوم الأحد ، والصوم الكبير (صوم الأربعين عند المسيحيين) وكذلك الإعراف ، كلها

أمور ينبغي أن تتم مع تعليم أصول العقيدة ، ومع نشاط الجمعيات الدينية الأخوية ، هذا المنهج الذي يمكن وصفه بأنه منهج شعبي ، كان يتضمن جذب الأسر المشهورة على أمل أن تتبعها الجماهير ، وإن توجهت محاولات التذويب إلى كل المورسكيين دون استثناء ، وخاصة النساء والأطفال الذين تعلقت بهم معظم التعليمات ، وقد أشارت الوثائق أيضا إلى بعض الغرامات ، لكنها كانت تحتل المرتبة الثانية وكان خفيفة في مجموعها ، لقد كان الإعتماد بالدرجة الأولى على أساليب وطرق الإقناع وليس على وسائل الإكراه والقسر ، وهذه تحتاج إلى وقت طويل وإلى صبر كى تؤتى ثمارها .

وبرغم كل هذا فقد استمر التعارض بين الجماعتين : المسلمة المنصرة والمسيحية معلناً عن نفسه ، ويعتبر مؤتمر " سان بدرو مارتيير " الذي انعقد بطليطلة فى الفترة من ٤ فبراير إلى ٢٧ مارس سنة ١٥٣٩ مثلاً جيداً لإستمرار التوترات ، وكان للمورسكيين الغرناطيين مطالب تتعلق بمحاكم التفتيش وبالاحتجاج على السماح بممارسة الطقوس اليهودية بينما لا يسمح لهم بممارسة الشعائر الإسلامية ، كما طالبوا السلطات بالعفو عن الجرائم الماضية . . . وقد أجبوا إلى بعض ما طلبوا (١) فقد أبلغ الإمبراطور المفتشين العامين فى سنة ١٥٤٣ ، بأنه تحقيقاً لرغبة المحقق العام بطليطلة ، فإنه قد أصدر أوامره بالعفو عن المسلمين المنصرين من أهالى مدينتى " دل كامبو " و " أريفالو " فيما ارتكبه من ذنوب الكفر ، وأنه يطلب منهم فقط الإعتراف أمام ديوان التفتيش العام ثم ترد إليهم

Bernard Vincent :

. Historia de los moriscos, P.27,28

١- فى تفصيل كل ذلك أنظر

وما عنده من مصادر :

أملآهم الثابفة والمنقولة ، ويسمح لهم بتزويج أبنائهم وبنائهم من المسيحيين القدامى ، ولا تصادر الأموال التي دفعوها للخرينة العامة بسبب ما ارتكبه من ذنوب بل تبقى وديعة تستفيد بها الذرية من هذا الزواج ، ويتمتع بنفس الإمتيازات النصرانية القديمة التي تزوجن من مورسكيين ، وذلك فيما يتعلق بالأموال التي أقدمها الأزواج المورسكيون برسم الزواج أو الميراث (١) .

وهكذا نشهد بجلاء أن السياسة الأسبانية في مواجهة مشكلة المسلمين المنصرين ، قد تراوحت بين اللين والشدة أيام الإمبراطور كارلوس الخامس (شرلكان) (١٥١٦ - ١٥٦٦) وكانت بصفة عامة أكثر اعتدالا ، حيث نال المورسكيون بعض التسامح والرفق ، ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن سياسة التذويب قد فشلت ، بل إن النصوص المتعلقة بهذه الفترة تؤكد أن المورسكيين كانوا أكثر إسلاماً بصورة لم تحدث من قبل قط ، فقد صمدوا محافظين على عاداتهم وتقاليدهم ، مدركين أن رغبة المسيحيين في صهرهم لم تتوقف ، وأن السياسة إزاءهم لم تتغير برغم استسلام اعداد كبيرة منهم ، بل أنه بمرور السنين أصبحت الهوة بينهم وبين المسيحيين عميقة (٢) ، وقد مال كثير من هؤلاء إلى الهجرة للعدوة المغربية ، وشعرت السلطات الأسبانية بوجود هذه الرغبة لديهم ، فصدر في سنة ١٥٤١ قرار يحرم عليه تغيير مساكنهم أو النزوح إلى بلنسية ، وكانت دائما طريقتهم المفضل لركوب البحر ، ثم صدر قرار يحرم الهجرة من أى ثغر إلا بتصريح ملكي نظير مبلغ مالى كبير ، ورغم أن السياسة الأسبانية

1- Archivo general de simancas, P.R. leg. 28, fol. 49

نقلا عن : عنان : نهاية الأندلس ... ص ٣٥٥ . ٣٥٦

Bernard Vincent: Historia de los moriscos, P.28.

٢- أنظر :

كانت تخشى دائما اتصال المورسكيين بمسلمي المغرب ، وكانت محاكم التفتيش تعمل على قمع ذلك بكل شدة ، فإن الأنباء كانت تأتي من سفراء أسبانيا في البندقية وغيرها من الثغور الإيطالية تفيد مرور كثير من المورسكيين - معهم نساؤهم وأطفالهم - في طريقهم إلى بلاد المشرق الإسلامي (١) .

إن من بين المشكلات السياسية التي أفضت مضاجع السلطات الأسبانية آنئذ ، وكانت من أشد المشكلات خطورة : مشكلة الأتراك والبربر ، إنهم يهددون حوض غربي البحر الأبيض المتوسط ، وكان وضع المورسكيين يفرض عليهم أن يبحثوا عن عنصر للأمل ، وقد كانوا يتشجعون عندما تأتي سفينة من تونس أو الجزائر وتقترب من السواحل الشرقية ، وكانوا يساعدون القراصنة على غزو قرى المسيحيين مع ما في ذلك من خطر (٢) .

وكانت طرابلس - مثلما كانت تونس والجزائر- موطنا للصراع بين القوات المسيحية الأسبانية من جانب وبين قوات الدولة العثمانية المسلمة من جانب آخر .

فلنفرد كلمة لتطور هذا الصراع :

استولت أسبانيا على طرابلس عام ١٥١٥ لتجعل منها واحدا من الجيوب الصليبية التي تناثرت على طول الساحل الأفريقي ، ثم عهد

١- H.Ch. Ica : The history of the moriscos of spain ... P. 187 - 189

وكذلك عنان : نهاية الأندلس ص ٣٥٥ .

٢- أنظر : Julio caro baroja: los moriscos ... P. 57

تقلا عن : Marco de Guadolajara: Memorable expulsion ... Fols 53v, 56

أنظر التعليق رقم ٦٨ في نفس الصفحة وما به من مصادر .

الأمبراطور شارل الخامس إلى فرسان القديس يوحنا بحكم طرابلس عام ١٥٣٥ ، ليفرغ لمواجهة العثمانيين فى تونس والجزائر بالإضافة إلى مشاكله الأخرى ، وقد قاوم أهل طرابلس الإحتلال الأجنبى ، وبسبب ضعف مواردهم الحربية والمالية ، استنجدوا بالسلطان سليمان القانونى لإتقاذهم من الحكم الصليبيى معلنين ولاءهم للدولة العثمانية ، وقد أرسل إليهم السلطان قوات متتالية وأسطولاً دخل المدينة سنة ١٥٥١ ، وتم القضاء على فلول فرسان القديس يوحنا وامتد النفوذ العثمانى ليشمل كل سواحل ليبيا تقريبا وأصبحت طرابلس ولاية عربية تابعة للدولة العثمانية منذ العام المذكور آنفا .

أما ما يتعلق بتونس فقد استدعى السلطان سليمان القانونى خير الدين بربروس إليه فى استنابول وعهد إليه بتنظيم الأسطول ثم الإستيلاء على تونس وإعلانها ولاية خاضعة للدولة العثمانية نظراً لما لها من موقع استراتيجى هام ، وقد حقق القائد هذا الهدف حيث استولى على تونس عام ١٥٣٤ وأعلن انتهاء حكم بنى حفص فيها ، وسقطت المدن الساحلية ثم توغلت قواته فى الداخل جنوبا ، وأعلنت القبائل ولاءها للعثمانيين . وكان لذلك الإنتصار صدى بعيد فى أوربا ، نظرا لما لموقع تونس من أهمية فى السيطرة على البحر الأبيض ، ولأن ذلك مثل تهديدا مباشرا للمواصلات بين إيطاليا وأسبانيا - جناحى الدولة الرومانية المقدسة - ثم لما لهذا من تشجيع لمجاهدى الشمال الأفريقى على مهاجمة السواحل الأسبانية وانقاذ المورسكيين ؛ ولهذا كله لم يرتح خاطر شارل الخامس ، وأعد حملة هائلة خرجت من ميناء برشلونه بأسبانيا سنة ١٥٣٥ واستولت على تونس بسبب التفوق العسكرى وخيانة آل حفص واتباعهم بالإضافة إلى أسباب أخرى . وقد حكم مولاي الحسن - الأمير الحفصى - البلاد باسم الأسبان وتنازل

لهم عن ميناء حلق الوادى حيث أقاموا قاعدة عسكرية قوية ، وقد ردّ خير الدين على ذلك بغارة على جزر البليار وأسر ستة آلاف مسيحي جاء بهم إلى قاعدته فى الجزائر ثم حل حسن باشا - ابن خير الدين - وشهرته حسن الأغا - محل أبيه الذى عينه السلطان قائداً عاما للأسطول العثمانى ، ولم تتوقف جهود حسن الأغا عن مهاجمة الأسبان فى غربى البحر الأبيض المتوسط .

وقد أعد شارل الخامس اسطولاً ضخماً ، يعتبر من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة فى القرن السادس عشر وكان يتكون من ٥١٦ سفينة ، تضم ٣٦٢٥٠ جندياً من جنسيات أوروبية مختلفة ، وضم إليه كبار القادة البحريين ، وقد نزلت قوات الحملة فى أرض مجاورة لميناء الجزائر فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٥٤١ ، وكان الجو صحواً ، لكن المناخ ما لبث أن تغير وهطلت أمطار السماء وهبت الرياح ، فطارت الخيام وغرق كثير من السفن وفسد مفعول البارود ، وخرجت القوات الإسلامية المدافعة فألحقت بالإمبراطور هزيمة مريرة واضطرته للإسحاب ، وكان لإلتفاف الجزائريين جميعاً حول حسن الأغا ، ولنجدات السلطان سليمان المستمرة آثارها فى تحقيق هذا لنصر .

وقد أرسل أهل الجزائر - سواء الأصليون أو مسلمو الأندلس الذين قدموا إلى هذه البلاد - رسالة إلى السلطان سليمان القانونى ، مؤرخة فى نوفمبر سنة ١٥٤١ ، تتحدث عن الأوضاع المريرة التى يعيش فى ظلها المسلمون المنصرون فى أسبانيا ، وتذكر اضطهاد السلطات المسيحية ومحكام التفتيش لهم وإحراقهم وتقول أنهم " عبيدك الفقراء المساكين المنقطعون بجزيرة الأندلس ، وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستة آلاف ، وأنهم يشكون للسلطان ما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين

مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره ، لما أصابهم من أعداء الدين وطفاة المشركين وما هم فيه من مكابدة الكفار ووصفته بأنه المجاهد فى سبيل الله ، وناصر الدين ، وسيف الله على الكافرين وأنه كان سببا فى خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ، ونقلهم إلى أرض الإسلام ، وطالبت الرسالة بإرسال مجندات عسكرية لأهل الجزائر وإعادة "خير الدين بربروس" إلى موقعه السابق لأنه " لهذا الوطن نعم ناصر ، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر " .

وبعد هزيمة الإمبراطور شارل الخامس فى الجزائر ، انتقل الصراع بين القوى الإسلامية والقوى المسيحية إلى تونس ، حيث استطاع القائد البحرى الأسباني " اندريه دوريا " أن يستولى على عدة مدن تونسية بمعاونة بنى حفص ، وقد تصدى له القائد العثمانى " دراجوت باشا " الذى اتخذ من " طرابلس " قاعدة عسكرية لعملياته ، واحتل ميناء قفصة عام ١٥٥٦ وتوغل إلى الداخل حيث وصل إلى القيروان واحتلها وأقام بها حامية سنة ١٥٥٨ ، واستمر الأسبان محتفظين بالسواحل التونسية ، وأراد السلطان الإستيلاء على جزيرة مالطة ، فأرسل إليها دراجوت مع قوادأ آخرين ، فاستشهد فى معركتها سنة ١٥٦٥ ، وخلفه فى نيابة الجزائر قادة مشهورون مثل صالح ريس والعليج على الذى فكر فى مشروع لإعادة الحكم الإسلامى فى أسبانيا ، وله جهود عسكرية مشكورة اثناء المعارك العديدة ضد أعداء الدولة العثمانية . وكان إذا أقبل فصل الربيع خرج فى سفن حربية كبيرة متعرضا للسفن الأسبانية فى رحلاتها غربى البحر الأبيض المتوسط ، ليعوق خطوط المواصلات البحرية بين أسبانيا وغيرها ويعرض التجارة الأسبانية للخسارة ، كذلك كان ينزل فى مواقع معينة بالسواحل الأسبانية ، مسترشدا بإشارات ضوئية يبعث بها إليه المسلمون الأسبان أو

بناء على معلومات مسبقة تصل منهم ، فيقوم بتدمير منشآت هذه الأماكن وأسر سكانها ، ولذلك كان أهل السواحل من الأسبان يبعدون إلى الداخل مسافة بين خمسة وستة فراسخ فى فصل الربيع تجنبا لهذه الغارات وما يترتب عليها من أضرار .

وقد استطاع " العليج على " أن يهجم بستين ألف مقاتل على الصليبيين فى تونس وأن يببىد الحامية الأسبانية بها وأن يدخلها عام ١٥٧٤ . وبذلك عادت تونس مرة أخرى إلى رحاب الدولة العثمانية . ثم بدأ اهتمام اسبانيا ببلاد الشمال الأفريقى يضعف بعد ذلك ، بسبب ما واجه فيليب الثانى ملك أسبانيا من مصاعب داخلية ، وللأعباء المالية المتزايدة التى كانت تنفقها أسبانيا فى الشمال الأفريقى ولأن العاهل الأسبانى ركز كل جهوده على المستعمرات الأسبانية فى المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية وما ترتب على ذلك من تدفق الفضة على الموانى الأسبانية .

وقد طلب فيليب الثانى سنة ١٥٨١ عقد هدنة مع السلطان العثمانى مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٦) فاستجاب الأخير ، وبذلك قبلت أسبانيا خضوع نيابات الشمال الأفريقى الثلاث للدولة العثمانية ، وإن استمر النزاع يتجدد بين أسبانيا ونيابة الجزائر طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، بسبب احتلال الأسبان لمدينة " وهران " التى لم يتم جلاؤهم عنها إلا سنة ١٧٩١ م .

وهكذا استمر النزاع قويا وعنيفا بين القوات الإسلامية وبين القوات المسيحية والأسبانية خاصة ، وكان المسيحيون ينظرون إلى المسلمين فى بلاد الأندلس على أنهم بمثابة " طابور خامس " يعمل ضد الدول المسيحية

ويعاون المسلمين ، فيصبون جام غضبهم على المسلمين ويضطهدونهم بكل ما يتصور من وسائل وبالفنون فى التصيق عليهم ، ولم يكن أمام المسلمين إلا اللجوء للقوى الإسلامية ممثلة فى الدولة العثمانية أو الحكام فى المغرب العربى ، لإنقاذهم مما يتعرضون له من بطش وقتل وإحراق ومصادرة أملاك . . . إلخ وكانوا يجدون استجابة أحيانا ، وأحيانا كانت الظروف تحول دون تحقيق ما يريدون (١) .

لقد أعاد الأتراك فتح طرابلس عام ١٥٥١ ، وعانى أمير البحار العام التالى من هزيمة فى " بونا " ، وفقد الأسبان " بينون دى بيليث دى لاجويبيريا " سنة ١٥٥٤ ، وفقدوا " بيجيا " فى سنة ١٥٥٥ ، وفى بداية حكم فيليب الثانى (١٥٥٥ - ١٥٩٨) لم يكن لأسبانيا على الشواطىء الأفريقية إلا " مليلة وأوران ومازا الكبير وجولتيا " ، وكان ينظر إلى المورسكيين على أنهم يمثلون فى ذلك طابورا إسلاميا خامساً يعمل على تسهيل ودعم الهجمات المعادية ، ومن المؤكد أن الإتصالات كانت تجرى بين القسطنطينية من ناحية وبين الغرناطين والبلنسيين من ناحية أخرى بصورة ثابتة ودائمة ، وقد كُشف عن المراسلات المتبادلة بين الفريقين ، وتبين أن كثيراً منها يتعلق بالسنتين من القرن السادس عشر ، وكان هناك مشروع تحالف بين سلاطين المغرب وتركيا ضد فيليب الثانى ، وكذلك

١- انظر : محمد عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ من ص٩١٥:ص٩٣٣ .

عبد الجليل التيمى: أول رسالة من أهالى مدينة الجزائر الى السلطان سليم الأول سنة ١٩١٥ ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس يولية ١٩٧٦ ص١١٧ وما بعدها ، وانظر كذلك :

Jamil M. Abun-nasr : A history of Maghrib in the Islamic period. PP 131-205
Cambridge university press. 1987.

استنجد المورسكيون بالسلطان العثماني كما سبقت الإشارة (١) وكان يعزز ذلك بين المورسكيين وجود نبؤات تدور بينهم تتحدث عن نجدة عاجلة تأتيهم من قبل الأتراك ، كشفت عنها تحقيقات محاكم التفتيش بفرناطة :

" موجود فى كتبهم وقصصهم أن هذه الأرض سيعجل بعودتها إلى سيطرتهم وسيعجل بحياسة المسلمين البرابرة لها " (٢) .

أكثر من هذا اتخذت المشكلة المورسكية شكلا آخر هو شكل التلصص والقرصنة ، فاللصوص - الذين اتخذوا أسماء مختلفة ، أحيانا اسم اللصوص وأحيانا اسم قطاع الطرق وأحيانا اسم المتفيين - حسب الأقاليم - كانوا كثيرين جدا بين المورسكيين فى القرن ١٦ ، وقد تحولوا فى نهايته إلى شغل شاغل للسلطات منذ بدء الستينات ، وفى الفترة من ١٥٦٤ إلى ١٥٦٦ قدمت اللصوصية الأراجونية ، مدعومة ببعض الفرنسيين الخارجين من بلادهم ، ضربات موجعات للسلطات الأسبانية ،

١- أنظر دراسة : حول ذلك الموضوع عند " داريو كاهانيلاس " فى مجلة :

Miscelanea de estudios arabes and hebricos, Granada 1957.

تحت عنوان :

proyecto de alianza entre los sultanes de marruecos y turquia contra Felipe II, PP.

. 57' - 76'

وانظر أيضا :

J.T.Monroe : A curious appeal on the ottoman empire. Al-Andalus 1966, PP. 281-303 '.

وقد سبقت الإشارة الى هذا المقال فى هذا البحث .

Andrew C.Hess: the moriscos , an ottoman fifth column in XVI Century spain. the American historical review. LXXIV, 1968, PP. 1-25

Bernard Vincent: Historia de los moriscaos, P.29

٢- انظر :

Archivo historico nacional, legajo 2603 I

نقلا عن :

وقد عرض "أنورج جيختى" بعض هذه النبؤات فى كتابه :

Islam and the west : the morsicos. PP. 25' - 29

وكانت طوائف النبلاء وباء فى جنوب بلنسية ، وقد استخدموا رعاياهم المورسكيين فى الثأر وتحقيق الإنتقام ، وفى الأندلس قام المنفيون بدعم من مواطنيهم المورسكيين بمواجهة القوات النظامية ، وهناك قطاع طرق زرعوا الأرض حركات وأعمالا معادية للمسيحيين منذ سنة ١٥٦٥ إلى سنة ١٥٦٨ .

وقد وصلت عمليات القرصنة أشدها من جانب المغاربة والمورسكيين فى سنة ١٥٦٠ حتى إن " البرى دى بلنسية " حرم الصيد على المورسكيين فى ٢٠ يوليو من نفس السنة بسبب أنه اشتبه فى تورطهم جميعا فى عمليات القرصنة ، ولأن البحر الأبيض المتوسط قد أصبح تحت سيطرة الدول الإسلامية ، وكانت ضربات القراصنة أشد إبلاماً فى كل مرة ، وقد ترك بعضها تأثيرا قويا ، كذلك الذى حدث سنة ١٥٦٠ وبدأ بإنزال بحرى فى " كاستيل دى فيرو " أو الذى حدث فى سنة ١٥٦٥ ، وكان هدفه " أوجيفا " عاصمة اقطاع الدوق دي سيسا " ، أو الذى جرى سنة ١٥٦٦ وكان ضحاياه سكان المناطق الساحلية فى المريسة " تابيرناس " و " لوكابينينا " ، ورغم نظام الدفاع الساحلى المعقد ووجود ميليشيات كثيرة ، فإن المهاجمين كانوا يمارسون نشاطاتهم دون أن يواجهوا أية مقاومة ، ويكفى أن نعرف أنه خلال الحملة ضد " أوجيفا " فإنه بقى ٤٠٠ شخص حوالى ٤٠ ساعة دون أن يتعرضوا لمقاومة أحد لهم ، كذلك بقى منظمو الهجوم على " تابيرنا " مدة ٢٤ ساعة دون أن يتم التفكير فى مطاردتهم .

لقد عبر " دون لوى دى اوبريجون " - أحد القادة الغرناطين - عن الانطباع الذى سببته هذه الأعمال عندما كتب إلى الملك بعد حادث " اوجيفا " إنه لشيء جديد مفزع فى هذه المملكة ، وقد سيطر العجب منه

على الجميع ، وأن المسيحيين القدماء الذين يعيشون فى مناطق المورسكيين
يتمثلون خوفاً ، ويبدو لهم أن آخرين سيأتون فى وقت قريب ، بسبب نظام
الدفاع فى الوقت الحاضر ، وبسبب الاتصالات التي يبدو أن المورسكيين
فى هذه الأرض يقومون بها مع المسلمين فى العدة الأخرى " (١)

وعندما شعر المسيحيون بأن الخطر قد أحاط بهم ، وأنه اتخذ أشكالا
متعددة ، وجدناهم يعودون إلى سياسة العنف ، ويلاحظ أن التسامح
النسبى الذى تميزت به العلاقة والتعامل بين المسيحيين والمورسكيين اعتبارا
من سنة ١٥٢٦ لم يعد له وجود ، ومنذ سنة ١٥٥٥ يعنى منذ وصل فيليب
الثانى إلى الحكم تستطيع أن تلمس الهوة وبعد اللقاء بين المجموعتين :
المورسكية والمسيحية ، ونشطت محاكم التفتيش وعملت بصورة مضاعفة ،
وتحمس المورسكيون فذهب الكثيرون منهم ضحايا ، وبدأ تجديد إجراءات
سنة ١٥٢٦ ، واتهم المسلمون المنصرون بحياسة الأسلحة ، وقضت محاكم
التفتيش الأراجونية سنة ١٥٥٩ باتخاذ وسائل تكفل نزع سلاح المورسكيين
تماما ، ولم يحل دون تنفيذ ذلك إلا معارضة رجال الإقطاع القوية بسبب
تضررهم من هذا النزع للسلاح (٢) ، وقد أمكن إلغاء هذا القرار بعد
.. تقديم بعض الأموال لمفتشى التحقيق فى سرقسطة فى مقابل هذا
الإلغاء (٣) ، وفى نفس الوقت جرت محاولة لنزع سلاح البلنسيين أيضا ،

١- أنظر : Bernard Vincent : Historia de los moriscos, P. 30

إعتادا على :

Archivo del instituto de Valencia de Don Juan, Madrid envío, P.174, y Archivo general de simmancas " camara de Castilla " leg. 2. 180 .

B.Vincent : Historia de los moriscos, P. 29 , 30 : ٢- أنظر :

J. regla : Estudios sobre los moriscos, P.70. : ٣- أنظر :

ولكن أصحاب الإقطاعات عارضوا وأمكنهم تأجيل إصدار الرسوم ، ومع ذلك فقد صدر مرسوم حظر استخدام الأسلحة على المورسكيين ببلنسية في ٢ يناير سنة ١٥٦٣ ، بعد أن فقدت خمس وعشرون سفينة كبيرة ، فاجأتها عاصفة في ميناء بفرنطة خلال شهر أكتوبر سنة ١٥٦٢ بالإضافة إلى ما لمسته السلطات من استعداد القوات الجزائرية لمهاجمة " أورن " . وقد تعرض ١٦٣٧٧ منزلا مورسكيا موزعة على ٤١٥ مكانا للتفتيش بحثاً عن الأسلحة ، وقد أمكن ضبط ٣٣٠ سلاحاً نارياً ، ٢٧١٤٥ قطعة سلاح أبيض ، وواجهت مدينة غرناطة نفس عملية التفتيش بحثاً عن الأسلحة سنة ١٥٦٥ ، ويرغم أهمية ما عثر عليه فإن المشكلة لم تحل تماماً ، فكثير من الأسلحة كان مخبأ في أماكن سرية ، وفي سنتي ١٥٦٤ ، ١٥٦٥ اكتشف أن الأراجونيين في قرى دائرتي " كالاتايدو " و " بياقيلتش " يقومون بتصنيع السلاح ويرسلونه إلى إخوانهم المسلمين في منطقة " بلنسية "

يعبر " فرنسيسكو نونيث مولوى " في مذكراته سنة ١٥٦٦ عن استمرار أعمال الإضطهاد والإساءة للمورسكيين فيقول " في كل يوم نرى سوء معاملة أسوأ وأكثر في كل شيء ويكل الطرق والوسائل ، سواء من جانب سلطات العدالة المدنية وموظفيها أو من جانب رجال الدين ، وهذا شيء ملاحظ ، ولسنا في حاجة لى معرفته أو الاستعلام عنه " (١)

وقد تعرض المورسكيون في مملكة غرناطة للون جديد من ألوان سلب وابتزاز أموالهم ، فقد أصدرالدكتور " سنتياجو " - المستشار القانوني لبلد الوليد - أمراً في الفترة من ١٥٥٩ - ١٥٦٨ يقضى بمراجعة حدود

· B. Vincent: Historia de los moriscos, P.31.

١- أنظر :

الأراضي والعقارات وإبراز مستندات ملكيتها ، وفى حالة عدم توفرها فإن المستولى عليها سيكون عليه أن يدفع غرامة وإلا صودرت الأراضي وأعيد بيعها ، ويبدو أن حوالى مائة ألف هيكتار قد تغير واضعوا اليد عليها لهذا السبب ، وقد استفاد من هذه العملية بالدرجة الأولى رجال البيروقراطية بغرناطة والأديرة الموجودة بالمدينة ، وقد كتب " دون بدرو دى ديثا " رئيس مجلس سكان غرناطة ، رسالة إل الملك فى ١٢ مايو سنة ١٥٧٣ يقول فيها " إنه نتيجة لعمل الدكتور " سنتياجو " فقد تم تسليم المحاسب الملكى مبلغ ٢٤٢٥٩٩٧ مرابطسى أو أكثر من ٧١ ألف دوقية (١) .

ويمكن للإتسان أن يتخيل تأثيرهذه الأعمال على المورسكيين ضحايا هذا السلب ، فإذا أضفت إليها صعوبات أخرى تمت الإشارة إلى بعضها ، أدركت ما تعرض له هؤلاء من معاناة ، لقد حظر عليهم اعتبارا من سنة ١٥٥٥ إنتاج دودة القز أو تصنيع الحرير وقد كان هذا هو النشاط المفيد الذى يمارسه معظم سكان مملكة غرناطة ، وكان بالنسبة لسكان منطقة " البوخارا " خاصة ، الزراعة المثمرة التى يمارسونها ، فالفلاح يزرع مواد الحرير الخام خلال الشتاء ، ويبيعه بعد فترة انصهار الجليد يعنى من يونيو إلى سبتمبر ، وذلك فى منطقة غرناطة والمرية ومالقة ، وكان يعمل فى صناعة الحرير آلاف العمال المحليين ، وكان لحرير غرناطة بالذات شهرة عالمية ، ولكن أسعاره كانت غالية بسبب الضرائب الباهظة التى كانت تفرض عليه ، ولهذا فقد كان يعانى من منافسة حرير " مرسية " الذى كانت تفرض عليه ضرائب أقل ، والذى كان يتسرب إلى غرناطة بطرق

B. Vincent: Historia de los moriscos, P.31.

١- أنظر :

ملتوية ، وكل هذه الظروف الجديدة تركت تأثيرها بالتأكيد على الفلاحين من سكان الأندلس العليا .

وهكذا نرى فى كل يوم تزايد خطورة الإحتكاكات بين الجماعتين : المسلمة والمسيحية ، ولسنا نرى مبررا لهذا الجفاء ، وقد جاء أساقفة مملكة غرناطة وخطوا خطوة جديدة فى الاتجاه الصاعد نحو التنافر وعدم التلاقى ، فقد دعوا فى سنة ١٥٦٥ إلى عقد مجمع دينى اقليمى فى غرناطة ، وكان لقراراتهم فيه أهمية كبرى ، لأنها قطعت وبشكل متعمد خط رجال الدين السابق ، وصدر قرار من تسع مواد يعلن ضرورة تطبيق كل الإجراءات والمرسومات التى صدرت منذ عام ١٥١١ ثم تأجل تطبيقها ، ولا ترى فى هذا القرار استخدام مصطلحات مثل التبشير والنبوة والإقناع وتعليم أصول العقيدة . . . إلخ وإنما نرى كلاما كله توبيخ وتأنيب ، ولم يبق جانب من جوانب الثقافة الإسلامية إلا وأشير إليه ، فتتابعت كلها يتلو بعضها بعضا ، وقد أشار الأساقفة على الملك بتحريم كل الخصائص المورسكية من استخدام اللغة العربية وتحريم اللباس الإسلامى وحظر الاستحمام وتحريم العبادات والحفلات الإسلامية وما يصاحبها من شعائر ، كما مُنع المورسكيون من تملك العبيد من أصل أفريقى Los Gaces ، وقضى عليهم الا يقيموا فى مملكة غرناطة ، وقد طلب من محاكم التفتيش أن تضاعف من قسوتها عليهم وأن تعاقب أى مخالف بالأشغال الشاقة المؤبدة أو النفى أو الإعدام ، كما قضت الإجراءات بوجود اثنتى عشرة أسرة على الأقل - من المسيحيين القدامى فى أى مكان يوجد به المورسكيون ، وأجبر أصحاب الإقطاع على استقبال هذه الأسر فى اقطاعاتهم ، وأوجبوا عليهم زيارة منازل المورسكيين بانتظام فى أيام الجمعة والسبت والأعياد ، كذلك عبر الأساقفة عن أملهم فى أن

يخضع البارزون من المورسكيين لرقابة صارمة ، وأن يعاملوا معاملة خاصة فيؤخذوا بالشدة حتى يكونوا عبرة لغيرهم ، وأن يؤخذ بأبناء هؤلاء فيبعث بهم الملك إلى منطقة قشتالة القديمة ويأمر بتربيتهم هناك على نفقة آبائهم " كى يتمكنوا من العادات المسيحية هناك ، وينسوا ما هو موجود هنا إلى أن يصبحوا رجالا (١) .

وقد وجدت دعوة الأساقفة أذانا مصغية ، ولذلك نرى أن المتخصصين فى العقيدة من قانونيين وعسكريين ، يعقدون اجتماعا فى نفس السنة بمدريد ، ويطالبون بالأشياء نفسها ، وطبع النص الذى أسفرت عنه مداولاتهم فى يناير سنة ١٥٦٧ ، وأضافوا فيه إلى ما طالب به الأساقفة تحريم اقتناء وتداول الكتب العربية ووجوب التخلص منها فى مدى لا يتجاوز ثلاث سنوات ، وكان إحراز الكتب العربية ولا سيما القرآن الكريم من أقوى الأدلة على ردة المتهم ، ويعرضه لأقسى ألوان العقاب (٢) .

وقد أعلن هذا القانون فى أول يناير ١٥٦٧ ، لأنه اليوم الذى استسلمت وسقطت فيه غرناطة منذ أكثر من سبعين سنة ، وقد اعتبر عيداً قومياً تحتفل به أسبانيا فى كل عام ، وقد أمر رئيس المجلس الملكى بإذاعته فى كل مملكة غرناطة ، وتولى هذا الأمر موكب من القضاة شق المدينة ومن حوله الطبل والزمير ، وعلق فى ميدان البنود ، أعظم ميادين غرناطة القديمة ، وفى الميادين الأخرى وفى بعض أماكن بحى البيازين .

وقد رفض المورسكيون من جانبهم الخضوع لهذه الإجراءات البالغة

١- أنظر : B. Vincent: Historia de los moriscos, P.32.

٢- أنظر : نفس المرجع والموضع السابق .

القسوة والتي تهدد وجودهم نفسه ؛ ولأن الوضع قد أصبح من الخطورة
بمكان ، فقد قرروا ايفاد شخصية وجيهة موضع تقدير ولا يشك فى
إخلاصها ، وهذه الشخصية هى رئيس جماعتهم السيد " فرنسيسكو
نونيث مولوى " إلى رئيس المحكمة العليا الجديد السيد " بدرو دى ديسا " .
فأوضح له قسوة القانون الجديد وتناقضه مع العهود ، وطالب بالغاءه أو
على الأقل تأجيل تنفيذه ، ولكن مهمته فشلت ولم يلتفت إلى ما قدمه ،
ومع ذلك فقد قرر المورسكيون التظلم لدى العرش ، ورجوا مسيحياً قديماً
معروفاً بتعاطفه مع هذا الشعب البائس ومدركاً لخطر ابادته هو " السيد
خوان هنريكث " . أن يتولى الدفاع عن قضيتهم لدى الملك ووزيره الطاغية
الكاردينال " اسبينوسا " ، فذهب إلى مدريد ، يرافقه اثنان من أعيان
المورسكيين هما " ايرناندو الحياقى " - من أعيان وادى آش - و " خوان
ايرنندث مودافال " - من أعيان غرناطة - وقد قابلوا رئيس مجلس
قشتالة وأرسلوا مذكرة إلى كل أعضاء مجلس الملك ، بينوا فيها ما يترتب
على تنفيذ هذا القانون من قلق واضطراب ، ولكن الكاردينال لم يلب
تشددا على تشدده ، كذلك أجرى الماركيز دى موندنيخر - حاكم غرناطة -
مقابلة مماثلة واجهت نفس الطريق المسدود . ورغم أن حاكم غرناطة قد
أوضح خطورة الموقف ، وبين أن اليأس قد يدفع المورسكيين إلى الثورة وأن
الأتراك قد أصبحوا فى شواطئ المغرب على مقربة من أسبانيا ، لكن لم
يلتفت إلى كل ذلك وأجاب رئيس المجلس بأن جلالة الملك مصمم على تنفيذ
القانون وأنه قد أصبح أمراً واقعاً ، وليست هناك شخصية لدى
المورسكيين ، فهم شعب جبان لا سلاح لديه ولا حصون . وقد رأى فيليب
الثانى - الملك الشديد التعصب الخاضع لسيطرة رجال الكنيسة - أن
يستجيب لضغط رجال الدين ، فكرر الأمر بتحريم اللغة العربية ادراكاً
لأهمية اللغة وأنها من أشد العوامل التى تمنع تغلغل المسيحية فى نفوس

المورسكيين ، وقضى بمنح المورسكيين مهلة ثلاثة أعوام لتعلم القشتالية ثم
يُمتعون من الكلام أو التخاطب أو القراءة أ الكتابة باللغة العربية ويمنع
تحرير العقود والمعاملات بتلك اللغة ولا يعتد بها أمام القضاء ، وعلى من
عنده كتب عربية أن يسلمها في ظرف ثلاثين يوماً إلى رئيس المجلس
الملكي بغرناطة ، وسترد إليه إن لم تكن مادتها ممنوعة خلال الثلاثة الأعوام
فقط ، أما الثياب فيجب أن تكون مصنوعة وفقاً للأسلوب المسيحي
ويسمح للمسلمين بارتداء ملابسهم الحريرية لمدة عام والصوفية لمدة عامين
ثم يمنع استخدامها بعد ذلك ، كما تمنع النساء من استخدام الحجاب
الإسلامي ، وعليهن كشف وجوههن ، وارتداء المعاطف والقبعات كما تفعل
النصرانيات ، وعلى المورسكيين هدم الحمامات العامة والخاصة فوراً . . .
وقد نفذت الإجراءات الجديدة جميعاً دون رحمة أو رفق ، اللهم إلا بالنسبة
لشعب بلنسية ، فقد تمكن زعيمهم وهو أحد المقربين إلى البلاط - من
الحصول على بعض التخفيف ، فتقرر الرفق بهم في جالة الردة إلا تنتزع
أموالهم بتهمة المروق ، وتقرر أن يدفعوا في مقابل ذلك اتاوة سنوية قدرها
إلفان وخمسمائة مثقال لديوان التفتيش (١)

هل هناك شدة بعد هذه الشدة ؟ هل ترك شيء يميز المسلمين دون
التنبيه على تحريمه في قسوة ؟ ، لقد كان هذا الموقف سبباً في أن يعيش
الجانبان الإسلامي والمسيحي خلال سنتي ١٥٦٧ ، ١٥٦٨ ، ينظر
كلاهما إلى الآخر ويترقب ما عسى أن تسفر عنه الأحداث ، ويتهيأ لما
عسى أن يتمخض عنه المستقبل ، فالمورسكيون - كما يقول مارمول -
يدعون إلى الثورة ، وتكثر اجتماعاتهم السرية في حى البيازين مع شيء

١- أنظر في ذلك كله : Luis del Marmol : historia de la rebelion y Castigo de los moriscos del Reino de Granada. P. 123 y ss.
B. Vincent : historia de los moriscos, P. 33 =

من المدارة ، مثل ذلك الإجتماع الذى عقدته الجمعية المورسكية الأخوية للنهضة (١) وكانوا يرون فى المناطق الجبلية القريبة من غرناطة ملاذاً لثورة قد تفلح فى الغاء هذا القانون الهمجى أو التخفيف منه على الأقل أما المسيحيون القدامى فكانوا يخشون من ثورة يقوم بها المورسكيون بمناسبة احتفالات الخميس المقدس لعام ١٥٦٨ ، ولهذا فقد ضاعفوا من تحذيراتهم واعتقالاتهم ، وجرت استعدادات وحدثت اجراءات لطرد المورسكيين الغرناطيين واحلال سكان من الشمال فى مواطنهم ، ونشطت السلطات لتلبية طلبات عديدة بهذا الخصوص .

لقد لجأت السلطات الأسبانية لكل ما لجأت إليه منذ سقوط غرناطة مع عنف شديد وقسوة بالغة فى معظم الأحيان ، ومن رفق نسبى فى فترات محدودة ، بهدف أن تكسب هؤلاء للعقيدة الكاثوليكية و ما دروا أن العقيدة لا يمكن فرضها ، وأنك مهما بالغت فى اىذاء الناس وتعذيبهم كى يؤمنوا بما تريد ، فإن ذلك لن يفيد إلا شيئاً من الخضوع الظاهرى ، أما أن يمتلأ القلب حباً فى العقيدة ويدخل فيها راضياً فذلك لا يكون إلا عن ثقة و يقين واقتناع كامل ، وبسبب غياب هذه الحقيقة الواضحة ، وصلت العلاقة بين المجموعتين : الإسلامية المنصرة والمسيحية إلى مستوى من التحدى لم يعد يمكن معه مناقشة كيفية ذوبان الأقلية أو صهرها فى الأكثرية المسيحية ، لقد أصبح المورسكيون فى أيدي المسيحيين " أشبه

=P.longas : Vida religiosa de los moriscos, P. XLV,XLVI,XLVII.

. Prescott : Philp II of Spain, V.III, P.12-29

H.Ch. Iea : The history of the moriscos of spain, 150, 151,229,230, 240 y ss.

- عنان : نهاية الأندلس . . . ص ٣٦٠ .

بالإمامة فى مخالفة النسر " (١) وليس أمام المسئولين الآن إلا التفكير فى إقناء المسلمين والقضاء عليهم فتبنى حضارتهم بفنائهم أو طردهم نهائياً من التراب الأسيانى ، وقد قدم المورسكيون الإختيار الحاسم عن طريق الثورة التى قاموا بها فى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ والتى استمرت فترة وصلت إلى عامين قبل أن يقضى عليها بأبشع ما يتصور من قسوة ، أحداث وتطورات ونتائج هذه الثورة هو ما نحاول معالجته فى الصفحات التالية إن شاء الله ، وسيكون علينا أن نعتمد على الرواية الأوربية وحدها ، إذْ تنعدم منذ الآن ذكر أحداث الأندلس فى كل الحوليات والمصادر المكتوبة باللغة العربية .

١- أنظر : Julio Caro Baroja : los moriscos del reino de Granada, P. 172 .

الفصل الثاني

الثورة الغرناطية ١٥٦٨ - ١٥٧٠ م

اتضح مما سبق أن العلاقات بين الجماعتين الإسلامية والمسيحية قد وصلت إلى أقصى حالات التدنى ، وأن تعنت وعسف واضطهاد وعنف وتعصب السلطات المسيحية ضد المسلمين في أسبانيا قد بلغ ذروته ، لقد نظروا إلى المورسكيين باعتبارهم عنصرا غربيا في مجتمعهم الكاثوليكي ، ورأت الكنيسة أنه لن يهدأ لها بال إلا إذا قضت على هويتهم ومحت كل عناصر ثقافتهم وحضارتهم فذابوا وانصهروا في أغلبية السكان ، وإلا فلن يكون أمامها إلا التخلص منهم . أما المسلمون المنتصرون فقد سيطر عليهم بأس مطبق وسخط عميق ، ويرغم ما تعرضوا له من جور مضنٍ على أيدي السلطات الدينية والمدنية والعسكرية ، وأيدى قضاة محاكم التفتيش ، فإن جذوة الكرامة والعزة والإعتداد بالتراث الإسلامي ، وبما لهم من ماض ، وما عندهم من رغبة في الذود عنه ، كانت لا تزال تضطرم في نفوسهم فعولوا على الثورة والتعبير عن الغضب والرفض مهما كان الثمن ، وكانت قوانين أول يناير سنة ١٥٦٧ هي الشرارة التي فجرت مخازن البارود في نفوس هذه الأقلية البائسة المضطهدة .

وقد نبتت فكرة الثورة أولا في غرناطة ، موطن إقامة أعيان المورسكيين ، وكانت جمهرة كبيرة منهم تحتشد في ضاحية " البيازين " حيث كان للمورسكيين مستشفى وجمعية دينية للنهضة في غرناطة وكانوا يلتقون في هذين المكانين لجمع الأخبار والتخطيط ، وكانت اجتماعات زعمائهم تتم في منازل الأسر المشهورة بالحى المشار إليه ، وكان بعضهم من " البوخارا " كما كان على هؤلاء تجهيز التعليمات التي تقدم للشعب المسلم وفقاً - لما يذكره بعض المؤرخين - وكان على كل فرد أن يطمئن على ولاء نظيره ويطلب منه التكتم بعد أن يأنس الى حرصه ، وقد احتفظوا في الكهوف بكميات كبيرة من الأغذية ، وكميات كبيرة من

الأسلحة ، ومن دقيق القمح والشعير والزيت وأصناف غذائية أخرى تكفى لأكثر من ست سنوات (١) .

وكان زعيم الفكرة الذى أذكى لهيبها رجل اسمه فرج بن فرج ، وهو صباغ من أسرة " بنى السراج " - أشرف وفرسان غرناطة أيام مجد الدولة الإسلامية - وتذكر المصادر النصرانية أنه كان جريئاً يفيض حماسة وبغضاً للنصارى ، وقلّوه الرغبة فى الإنتقام منهم ، ولم يكن هناك أشجع ولا أجراً من فرج هذا الأسود (٢) الذى كان وثيق الصلة بمواطنى البشركات كثير التردد عليهم ، وقد ولّاه الزعماء قيادتهم ، واتفقوا على حشد جمع كبير يزحف بهم سراً إلى غرناطة ، ويخترق ضاحية البيازين ثم يفاجئ حامية الحمراء ويقضى عليها ، وحددوا للتنفيذ يوم الخميس المقدس من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ انتهازاً لفرصة انشغال النصارى بطقوسهم واحتفلاتهم بهذه المناسبة ، ولكن أخبار هذا المخطط تسربت إلى السلطات الأسبانية فتنهت للأمر وأتخذت إجراءات احتياطية وعززت حماية غرناطة وحاميات الثغور ، الشيء الذى اضطر المورسكيون اذاءه إلى تأجيل خطتهم إلى فرصة أخرى مواتية .

وكان المورسكيون يتميزون من بين العناصر السكانية الآتية التى أقامت فى مملكة غرناطة :

(١) جماعة الغزاه Los gaces وهم مسلمون مهاجرون من أفريقية ، عبيدا

١- أنظر : Julio caro Baroja: los moriscos ... P. 173'

Cabrera de Cordole, PP: 554, libro VII, Cap. XXI

نقلا عن :

وانظر كذلك :

. Perez de Hita (Gines) : guerras civiles de Granada, part II, cap. I , cuence 1619'

2- J.C. baroja : los moriscos ... P.89

وما بها من مصادر

كانوا أو مزارعين تحرروا فيما بعد ، وقد أقاموا فى الجنوب وصاهروا أهله وامتزجوا بهم بعد استرداد المسيحيين لغرناطة ، وكثير من هؤلاء كان لهم أولاد وأحفاد متزوجين سنة ١٥٦٨ وكونوا جذورا مختلفة .

(٢) المدجنون القدامى وهم كما يشير - بعض المؤرخين - السادة الذين قدموا من الشمال فى زمن الملوك المسيحيين وحملوا من بلادهم إلى غرناطة وهم مسلمون ، وخضعوا قبل استرداد هذه المدينة وكان هؤلاء يعاملون معاملة خاصة - كما يقول مارمول - لأنهم أتوا خاضعين للأمة المسيحية وقت ازدهارها ولم يضايقوها وقت حاجتها إليهم ، وقد خدموا أجداد المسيحيين فى حروبهم وفقاً للمبادئ المسيحية فى الوقت الذى كان بإمكانهم فيه خدمة المسلمين .

(٣) أبناء المسيحيين الذين ارتدوا عن دينهم أى ذرية هؤلاء الآباء الذين كانوا قد غادروا المسيحية حوالى القرنين ١٤ ، ١٥ ، وكان يوجد عدد كبير من هؤلاء وقت استرداد غرناطة وقد اتخذت ضدهم الإجراءات التى سببت قمردهم .

(٤) مجموعة Los Tagarinos أى الذين قدموا من اراجون وقشتالة وأصبحوا مسيحيين على الأقل من ناحية المظهر الخارجى ، ويقال إنهم تخصصوا فى الأنشطة التجارية بالدرجة الأولى ، أما مجموعة الغزاة فقد كانوا رجال زرع وحرب قبل أى شىء آخر (١) .

ولعل من المناسب أن نشير إلى أن أديبا وزعيما من زعماء المورسكيين اسمه محمد بن محمد بن داوود كتب قصيدة فى تلك الظروف التى عاشها بنو قومه ، يتحدث فيها عن آلام المورسكيين وبطلب الغوث من الله ويستنجد بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ضبطت هذه القصيدة - أنظر المرجع السابق ص ٩١.٩٢.٩٣ ولمعلومات أكثر تفصيلا أنظر التعليق رقم ٥٦ فى ص ٩٣

معه فى ثغر " ادره " وأرسلت مع ترجمتها القشتالية إلى القصر الملكى ،
ويستهل هذا الأديب قصيدته بحمد الله والثناء عليه والإشادة بقدرته
وخضوع الناس والكائنات لحكمه ، ثم يطلب من الناس أن يستمعوا لقصة
الأندلس المحزنة ، الأمة العظيمة التى أصبحت مهیضة الجناح يحيط بها
الكفر من كل جانب ، وأصبح أبناؤها كالأنعام لا راعى لها ، ثم يقول :
إننا نسام سوء العذاب فى كل يوم ، وليس أمامنا إلا أن ندهن إلى أن
يُنقذنا الموت من عذاب أمرٍ منه وأدهى ، لقد حكّموا فينا اليهود الذين لا
عهد لهم ولا ذمة ، والذين يبحثون فى كل يوم عن أكاذيب وضلالات
وانتقامات جديدة ، إننا نُكره على أداء الشعائر النصرانية وعبادة الصور ،
مما يعدُّ مسخاً للواحد القهار ، ولا يجرؤ أحد على التذمر أو الكلام ، وإذا
ما قرع الناقوس القى القسيس موعظته بصوت أجش ، يشيد بالنبیذ ولحم
الخنزير ، ثم تنحنى الجماعة أمام الأوثان دون ما حياء أو خجل . . . ومن
عَبَدَ اللّٰهَ بِلُغْتِهِ قُضِيَ عَلَيْهِ بالموت ، ومن ضَبَطَ القى به فى السجن وعذب
ليل نهار حتى يستكين لباطلهم .

بعد ذلك يقدم وصفاً لوسائل الإرهاق والتضييق على المسلمين من
التسجيل إلى التفتيش إلى غير ذلك ، ويتحدث عن فداحة الضرائب
المفروضة عليهم ، وكيف أنه يتم تحصيلها على الأحياء والأموات والصغار
والكبار والأغنياء والفقراء ، وكيف يرهقهم القضاة الظلمة ولا يفلت من
ظلمهم كائن ، وكيف يلقى بهم فى غياهب السجن فيعتقلون ويعذبون
ويرغمون على التنصير ، وكيف يهشم الغدو أوصالهم . ثم يحمل أشلاءهم
إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد ، وكيف تتكدس المظالم على رؤسهم
تكديساً ، ويسومهم أصاغر النصارى الخسف ، وكل منهم يتفنن فى
ضروب الأضطهاد ، ثم يتحدث عن القانون الجديد السابق الإشارة إليه

فيقول :

لقد علقوا يوم العيد (عيد سقوط غرناطة) فى ميدان باب البندوق قانوناً جديداً ، وأخذوا يفاجؤون الناس أثناء نومهم ويفتحون الأبواب ، يهدفون إلى تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا ويمزقون ملابسنا ويحطمون حماماتنا ، ونحن إذا يتسنا من عدل الإنسان ، فإننا نستغيث بالنبى صلى الله عليه وسلم أملين ثواب الآخرة ، وقد حثنا مشايخنا على الصلاة والصوم وأن نقصد وجه الله ، فمنه رحمتنا آخر الأمر (١) .

وقد عثر مع ابن داوود أيضا على خطاب موجه من أحد زعماء البيازين إلى رؤساء المغرب وإلى اخوانهم فى الدين ، فحمل إلى حاكم غرناطة قبل الثورة بقليل ونقله من العربية المترجم " كاستيو " وهو واحد من كتب كثيرة ، وجهت خفية إلى أمراء الثغور المغربية طلباً للغوث والنجدة ، ويناشد كاتب الكتاب المذكور إخوانه فى المغرب ويستخلفهم النجدة بحق روابط الدين والدم ويصف ما فعله النصرانى بهم " من ارغامهم على ترك اللغة ، وتركها فقد للشريعة ، وكشف الوجوه الحية المحتشمة ، وفتح الأبواب ، وما أنزل بهم من محن السجن والأسر ونهب الأملاك ، ويطلب منهم أن يبلغوا استغاثاتهم إلى سلطان المشرق ، قاهر أعدائه ثم يقول : " لقد غمرتنا الهموم وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة ، إن مصائبنا لأعظم من أن نتحمل ، ولقد كتبنا إليكم فى ليال

١- نشر "مارمول" القصيدة كاملة مترجمة الى اللغة القشتالية " (الأسبانية) ولخصها الأستاذ

محمد عبدالله عنان ، وعلى نصه اعتدت هنا ، أنظر :

Marmol (Carvajal, Luis de) : Historia de la rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada, libro III, cap. IX

P. 217 - 219

وأيضاً :

- عنان : نهاية الأثر : ٣٦٣ .

تفيض بالعذاب والدمع ، وفى قلوبنا قبس من الأمل ، إذا كانت ثمة بقية
من الأمل فى أعماق الروح المعذب " (١)

لكنّ الحكومات المغربية التى وجه إليها هذا النداء كانت فى شغل
عن المورسكيين ، بما تعانية من تمزقات داخلية ، ولذلك لم يكب هذا النداء
إلا مجموعة من المتطوعين ، عبرت سرا إلى اخوانهم فى البشّرات ، وكانوا
من البحارة المجاهدين الذين طالما كانوا حرباً على الثغور والسفن المغربية
فى ذلك العصر .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد واصل المورسكيون استعداداتهم ،
انتظاراً ليوم الثورة الذى يتحينون فرصته ، وأرسل فرج بن فرج وزملاؤه
رسائل إلى مختلف الأنحاء يدعون فيها إلى التأهب وإبلاغ كل الإخوان .

وخلال شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ جرى حادث كان نذيراً بالإنفجار ،
فقد اعتدى بعض المورسكيين على نفرٍ من القضاة والمأمورين الأسبان ،
كانوا فى طريقهم إلى غرناطة ، ووثبت جماعة منهم بمجموعة من الجنود
كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق وقضت عليها . أما ابن فرج فقد سار
على رأس مائتين من اتباعه واخترق المدينة ليلاً ، وحاول تحريض المواطنين
فى حى البيازين " على نصرته ، لكن هؤلاء أبوا ، لأنهم يقيمون بالقرب
من الحامية النصرانية ولهم - بالإضافة إلى ذلك - مصالح عظيمة ،
وكانوا يخشون انتقام السلطات أو الشعب النصرانى منهم إذا أيدوا الثورة

١- أشار "خوليو كارو باروخا" فى كتابه "المورسكيون فى مملكة غرناطة" الى هذه الرسالة ملحقاً الى
المصادر العديدة التى وجدت بها ، وأورد "مارمول" ترجمة قشتالية لها فى كتابه المشار اليه آنفاً ،
أنظر : Marmol : Ibid, libero III, cap. IX, P. 219- '223

والتعليق رقم ١٠٣ من نفس الصفحة J. Caro Baroja: Ibid, P.172

- عنان : المرجع السابق ص ٣٦٤

علائية ، ولذلك اكتفوا بتأييدها بالعطف والنصح والمال ، إزاء ذلك اضطر ابن فرج إلى العودة حيث اجتاز شعب جبل شلير (سيرا نفاذا) إلى الهضاب الجنوبية ، فى المنطقة بين " بلسن والمرية " ، ولم تمض أيام حتى عم لهيب الثورة فى كل القرى والمواقع المورسكية بأنحاء البشرات ، والتفت الجموع حول ابن فرج وفتك المسلمون ببعض النصارى المقيمون معهم ، وارتفع لهيب الثورة فى كل أرجاء الأندلس وأعلن المورسكيون استقلالهم واستعدوا لخوض معركة مصيرية فإما حياة كريمة أو الموت أعزاء وبدأ الزعماء يفكرون فى اختيار رجل يلتفون حوله يكون رمزاً للملكهم القديم ، فاجتمعوا فى منازل مختلفة فى ليال مختلفة متتالية وكان أبرز المجتمعين ، وفقاً لكابريرا دي قرطبة ، ابن فرج ودياجو لويث ابن أبيه وميجيل دى روساس وآخرون من " البوخارا " ، وفى الليلة السابقة على أعياد الميلاد - يوم سان ميجيل سنة ١٥٦٨ - اعترف قادة الثائرين ، المجتمعين فى قرية بزناز " وادى لكرن " برجل اسمه (ايرناندو دى قرطبة وبالور " - من سلالة عبد الرحمن الأول - ملكا عليهم ، فهو إذن سليل الخلفاء من بنى أمية الذين ازدهرت فى أيامهم حضارة الإسلام بالأندلس ، وقد روت زوجته كيف نصبوه ملكا عليهم محاولين إحياء الشعائر القديمة ، وتذكر أن أغنياء المسلمين ذهبوا إلى مكان الحفل متشحين بالسواد ظاهرين بمظهر حسن ، وقد استقبلوا استقبالاً حسناً ، وقد اصطف الأرامل فى جانب من مكان الإحتفال وغير المتزوجين فى جانب واصطف المتزوجون فى جانب آخر ، واحتلت النسوة ربع الدائرة (١) ، وفرشت على الأرض أعلام إسلامية رسمت عليها أهلة ، وقد صلى عليها محمد بن أمية صاحب الأندلس

Julio Caro Baroja : los moriscos .. P.119

أنظر :

Hurtado de Mendoza (Diego) : guerra de Granada, P.25, 26'

نقلا عن :

وغرناطة ، وسيعرف بذلك منذ الآن ، واتجه في صلاته نحو الكعبة ، وقبل أحد أتباعه الأرض رمزاً للطاعة والخضوع ، وأقسم هو أن يموت في سبيل دينه وأمته ، وبعد إنتهاء مراسيم الإحتفال ظهرت مجموعة من الأسرة ، وأخذت توزع الحلوى والكعك بأنواعه مع بعض الأشياء الأخرى . وكان هذا الملك يعمل مستشاراً في بلدية غرناطة قبل أن ينضم للشوار كما كان من ذوى المال والرواجه ، وقد اختار عمه فرناندو الزغوير (الصغير) ليكون قائداً لجيشه وسمى باسم إسلامي هو ابن جوهر ، وإليه يرجع فضل اختيار ابن أمية للخلافة . أما ابن فرج فقد اختير كبيراً للوزراء ، ثم بعث به مع بعض قواته إلى جبال البشركات لجمع ما يستطيع من أموال الكنائس ، واتخذ له مواقع منيعة في أعماق الجبال وأرسل رسلاً إلى كافة البلاد يدعون المورسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعودة إلى اعتناق الدين الإسلامى (١) .

وقد قوبل اختيار ابن أمية بشيء من عدم الإقتناع من جانب فرج بن فرج رغم تعيينه في منصب الوزير الأعظم ومنتفذ المهام الأولى ، وعلى كل حال فقد توجه الثائرون إلى ناحية البيازين بغرناطة ، لكنهم مالبثوا أن ارتدوا خائبين - كما سبقت الإشارة - لأن الترحيب بهم لم يكن بالمستوى اللائق ، وقد غادر ابن فرج الحسى يتبعه بضعة مئات من الموالى المخلصين (٢) ، يروى بعض المؤرخين أنهم عندما مروا بالشوارع العامرة بالمورسكيين في هدأة الليل ، صادفوا عجوزاً مسلماً صعد إلى أعلى مكان وأخذ ينشد بالعربية : "لقد جئت متأخراً يا زيد، أحضرت قليلين وجئت متأخراً" ويروى " مارمول " شيئاً مشابهاً ، بينما يقول " اورتادو دى مندوثا" أن

B. Vincent: Historio de los morisco .. P. 35'

١- أنظر :

J. Caro learoja : Los moriscos, P.173 - 180'

وأيضاً :

عنان : نهاية الأندلس ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

2- B. Vincent : Historia de los moriscos ... P. 35'

العجوز سأل عن عددهم فقيل له ستة آلاف فأجاب إن هذا قليل وإنهم جاؤا متعجلين . إن رفض المورسكيين بالبيازين الإنضمام إلى الثورة أعطاهم طابعا يختلف عما ستكون عليه الأحوال لو انضم إليها عشرة آلاف مواطن ، وبرهن على ضعف روح الثورة عند مواطنى المدينة وقوة البأس والإيمان بالفكرة عند سكان المناطق الجبلية . لقد كان أقوى المورسكيين فى منطقة " البوخارا " هم سكان " لاطايا دي خوبيلس " التى شهدت ميلاد الثورة ، وقد ثار فى نفس الوقت تقريبا سكان وادى " لثرين " وبعض الأراضى فى منطقة " دي المونيكار " وأراضى " دي جواديس " وماركيزية " خينيتى " ونهر آلمرية ، وتأخرت كثيرا المناطق الجبلية فى " روندا " وفى " بنتو ميز " والأماكن التابعة لـ " أواخر كياس اوياس " فى مالقة ، ومنخفضات " باتيه " و " أويسكر " ونهر المنصورة ومناطق جبال " لوس فيلابريس " ، وهذا يعنى أن الثورة بدأت فى بؤرة جبلية مركزية ومنها انتشرت إلى الأطراف الأخرى (١) .

وهكذا ثارت فى اليوم الأول قرى عديدة فى " تاياس دى أورجيفا " و" بوكيرا " و " خوبيلس " وبعدها ثارت معظم قرى المسلمين المنصرين فى " البوخارا " وكان مسرح العمليات يتسع بصورة مستمرة ، وما بدأ فى الأمر نزاعاً ليست له أهمية تذكر ، تحول إلى شغل شاغل للملك " فيليب الثانى " لدرجة أنه تقرر دعوة برلمان قشتالة فى مدينة قرطبة ليكون قريبا من مسرح العمليات العسكرية ، وهذا الإجتماع تم فى ديسمبر سنة ١٥٦٩ ، وفى الأيام الأولى من سنة ١٥٦٩ تميزت الثورة بلمحين أساسيين هما الطابع الدينى وهو الرئيسى ثم طابع الرغبة فى احياء كل مظاهر الثقافة

الإسلامية ، وهناك اربع مظاهر تعكس الطابع الأول هي :-

أ- قتل وتعذيب المسيحيين الذين تحولوا عن الإسلام إلى المسيحية .

ب- تحطيم وتخريب الأماكن المقدسة ودور العبادة .

ج- اهانة وتحطيم الصور والتماثيل المرتبطة بنفس العبادة المسيحية .

د- السخرية والإستهزاء من طقوس وعقائد الكاثوليكين .

وهناك رواية قديمة جدا محفوظة في المكتبة الوطنية بمدريد (١) تقول إنه قتل خلال الثورة ٤٩ كاهنا وثلاثة عشر راهبا في منطقة البوخارا ووادي لكرين ، ويجب أن نضيف إلى هؤلاء كثيرين من الرجال والنساء والأطفال ، ويقدم واحد من المؤرخين المحدثين (٢) أسماء القتلى ويقول لقد كانوا ستة وثمانين راهبا وكاهنا ، ومائة وأحد عشر مسيحياً بخلاف الكثير من المجهولين الذين يمكن أن يصل عددهم إلى ٥٠ من الأطفال وعدد من النساء بينهم أربع مورسكيات ، وكان المورسكيون يسخرون من القساوسة والرهبان ويذكرونهم بسوء المعاملة والقسوة التي طالما عانى منها المسلمون المنصرون ممن لم يحضر القداس ، وبالعقوبات التي كانت تفرض عليهم والإهانات التي كثيرا ما وجهوها للنساء بسبب تغطية وجوههن أو بسبب

1-Memoria de los curas y beneficiados y an amartirizado los moros levantados de Granada en los alpujarras y val de Iccin, folios 110r - 112 v del MS - '6074

2- Elpadre Hitos Francisco A : Martires de la Alpujarra en la rebelion de los moriscos 1568, PP. 227 - 231, Madrid '1935.

وانظر في المرصعين السابقين :

. J.C. Baroja : los moriscos ... P. 177 - '178

احترامهن للتقاليد الإسلامية ، وكان الثائرون يحاولون إعادة الناس إلى الإسلام ، فإذا رفضوا بدأ تعذيبهم ، وكانت جماعة المنفيين وفرج بن فرج من أشد الناس تعصبا وتعديبا ، أما ابن أمية وزاجير فكانا أكثر اعتدالا وكانت أماكن العبادة تحرق وتتهب بصورة مستمرة ، كما قام المورسكيون بالإستيلاء على منازل القساوسة وعلى الخزانة المقدسة فى الكنائس وعلى ممتلكات المسيحيين ، وقد أسهمت النساء فى هذه العمليات ، فكن يمزقن الصور ويضربن عنقها ويفقأن عيونها ويحرقنها . يذكر الأب " هيتوس " بعض هذه الأعمال نقلاً عن سجلات الأسقف " اسكولاند " فيقول : لقد جلد المورسكيون صورة للمسيح داخل كنيسته وبعد ذلك مزقوها بطعنات صوبنها إليها ، ومزقوا صورة للعدراء على درجات المذبح وهم يرددون استهزاء " اعتن بها ، لا تلحق بها ضرا " وكانت هناك فى " باياركال " صورة أخرى للعدراء ، اعتدوا عليها بصورة أكثر شراسة ، إن هذا تعبير عن رفض لمجتمع يؤمن بهؤلاء العذروات . . . لقد ذهبوا إلى الكنائس فى كل مكان وحطموا اللوحات والصور ومزقوها وأحرقوها ، وأتوا على أحواض التعميد والمناطق المقدسة مرتدين ثياب القسس الكهنوتية استهزاء وسخرية منهم ، وهذا البغض للطقوس المسيحية وكل ما هو مسيحي ، والذي يعتبر رد فعل لما حدث للمسلمين بصورة لا تحتل الشك ، تجده معبرا عنه أيضا فى رسالة ابن داود التى وجهها لحكام المغرب يطلب فيها نجاتهم .

وعلى العكس من ذلك نجد مظاهر إحياء الحضارة الإسلامية متمثلة فى إحياء رسالة المسجد وإقامة الشعائر الإسلامية بكل فخر واعتزاز فى منطقة " أوجيخر " خاصة ، وكذلك العودة إلى استخدام الزى القديم ،

والوعي بالعادات والآداب القديمة . وقد رأينا أنه عند تنصيب ابن أمية ملكا اتبعت التقاليد القديمة التي كانت تتبع عند تنصيب ملوك الأندلس وغرناطة ، حيث كانوا يرتدون ملابس باللون الأرجواني ، وتوجد أعلام تحت أرجلهم يجعلونها ويحترمونها ، واستخدموا كل الإشارات والألقاب التي استعملت في أزمنة سابقة .

وقد عينوا للملك الجديد ثلاثة من المستشارين بينهم واحد من كبار المحرضين على الثورة هو مارتين الجواثيل (الوزير) ، وكان هو الآخر من أصل نبيل ، فشرّفوه بإركابه بغلة بيضاء مزخرفة ومكفتة بالذهب والحريز وقبّلوا يده وملابسه .

كذلك قاموا بعمل مسابقات عامة ورياضية وفقاً للأسلوب القديم ، اشترك فيها أبرز الفرسان ، ويمكن أن نأخذ مثلاً للأعياد المورسكية في ذلك الاحتفال الذي قام به ابن أمية في " بورشيتا " وقد يصفه بدقة " بيريث دى هيتا " .

وقد كانت هناك مسابقات في العدو والقفز ورفع الأثقال ورقص مشترك بين رجال ونساء ورقص للنساء وحدهن مع عزف وغناء باليعربية والرومانسية ومسابقات في استخدام المقاليح والأقواس وبنادق الصيد ، وكان التنافس شديداً بين المسلمين الأسبان والمسلمين الأتراك في هذه المسابقات (١) .

Perez de hita : parte 11, cap. XIV, PP. 629' - '638

١- أنظر :

نقلا عن :

J.C. Baroja: los moriscos .. PP. 177 - '180

وقد اعترفت الرواية المسيحية بأن ما قام به المسيحيون وخاصة رجال الدين من معاملة سيئة للمورسكيين ، كان أحد الأسباب الرئيسية للثورة ، فقد أرسل " ارناندو دى مندوثا " رسالة للكاردينال " اسبيونيسا " يذكر فيها ما لم يذكره فى تاريخه ، فيتكلم عن قسوة رجال الدين المسيحيين ضد المسلمين ، وهو الشئ الذى سبب ذلك الفوران ومحاصرة " البيازين " بصورة لا يمكن إيقافها ، فدور رجال الأكليروس من طبقة رجال الدين الدنيا ومن الرهبان فى عمل هذا الهيجان أمر مقطوع به (١) .

وهناك أوامر صدرت للقساوسة والكهان ، تشعرك بنوع المعاملة التى كان يتلقاها المسلمون المنصرون على أيدي هؤلاء ، لقد طلب منهم ألا يأخذوا أكثر من حقوقهم فى مراسيم الزواج وألا يتلقوا خرافاً أو دجاجاً أو قطعاً من اللحم وألا يفرضوا ضرائب جديدة على الرعايا وخاصة المورسكيين ، فلا يأخذوا منهم خبزاً ولا خمراً ولا عنباً ولا صيداً ولا ورق شجرة التوت وعليهم ألا يكلفوهم بالعمل فى أيام الأعياد ولا فى الأيام العادية لمنافع خاصة ، ولا يستخدمون معهم كلمات سيئة فينادونهم بـ "الكلاب المسلمين " ولا يرتكبون ضدهم أى غش أو ضرر (٢) .

ولعل هذا يؤكد أن ما قام به هؤلاء فى تعاملهم مع المسلمين كان سبباً فى أن نقمة المورسكيين انصبت بالدرجة الأولى على القسس وموظفى الحكومة بالدرجة الأولى ، وكانت كلتا الجماعتين تترصد بالأخرى ، وكان المورسكيون يخشون انتقام السلطات المسيحية منهم بسبب ما فعلوه بمواطنيهم ، بينما يخشى النصارى أن يزحف الجيش المورسكى على غرناطة

1- Julio Caro Baroja: los moriscos ... P. 182'

٢- المرجع السابق ص ١٧١ .

فتسقط المدينة فى أيدهم وينكلون بهم ، ومع ذلك فقد انصف مؤرخو الفترة محمد بن أمية وقالوا إنه لم يحرض على هذه المذابح ولم يوافق عليها بل حاول دون وقوعها ، وقد عزل ابن فرج عن القيادة العامة لهذا السبب ، وقد تقبل الرجل هذا العزل برضى وانضم لصفوف الثائرين ولم نعد نسمع اسمه منذ ذلك الحين (١) .

تلك هى ملامح الصورة فى الجانب الإسلامى عند بدء الثورة ، فماذا عن رد الفعل لدى الجانب المسيحى ؟

لقد كان يحكم غرناطة " الماركيز دي مونديخر " وقد بدأ استعداداته لقمع الثورة منذ اللحظات الأولى ، لكنه لم يستطع أن يقدر حجمها الحقيقى ، وقد غصت غرناطة بالجنود ، ووضع سكان حى البيازين من المورسكيين تحت الرقابة ، رغم تأكيدهم أنهم لا علاقة لهم بالثائرين ، وعلى كل حال ، خرج " دى مونديخر " بقواته فى ٢ يناير سنة ١٥٦٩ وعبر جبل " شلير " أى " سييرا نفادا " وسار إلى أعماق البشرات حيث التقى بالثائرين ، وكانت الثورة فى هذه الآونة قد اتسعت وشملت كل النواحي الشرقية والجنوبية من البشرات . واشتد أوارها فى أجيجر وبرجه وأدره وأندرش ودلاية ولوشار ومرشانه وشلويانية وغيرها من القرى والدساكر التى قضى الثوار على ما كان بها من حاميات ، بل إن الثورة سرت إلى اطراف مملكة غرناطة القديمة فى قرى وادى المنصورة ، ولم يتخلف عن الإشتراك فيها إلا رنده ومريله ومالقة ، فقد كانت حاميتها

I- H. Ch. lea : the history of the moriscos ... PP. 236'

Prescot : Philp II, V.III, ch. II

وأبضا : عنان : نهاية الأندلس ص ٣٦٦ .

الأسبانية قديمة ، كذلك نشبت الثورة فى معظم أنحاء المرية ، وهكذا ارتجت معظم نواحي الأندلس ، وبصفة خاصة "بِسْطَة ووادى آش والمرية" (١) .

وكان محمد بن أمية يتحصن بقواته فى الممرات الجبلية الوعرة، وقد تمكنت قواته من حرب الجبال ومفاجأتها ، وما كادت القوات الأسبانية تقترب منهم حتى انقضوا عليها ، ونشبت معركة قاسية اضطر المورسكيون بعدها إلى التراجع إلى سهول " بطرنة " وتخلف الكثيرون منهم ، ففتك المسيحيون بهؤلاء دون ما تمييز أو رحمة ، ثم حاول الماركيز " دى مونديخار " بعد ذلك أن يتفاهم مع الثائرين على أن يعودوا للهدوء ، وبعث إليهم بعض بنى جنسهم من المسالمين ، وكتب واحد من أبناء الأسر الغرناطية القديمة إلى ابن أمية يعاتبه وينصحه بالتماس العفو حتى لا يعرض شعبه للخطر ، وكان ابن أمية نفسه يميل للصلح فى هذه المرحلة ، وتبادل بالفعل بعض الرسائل مع " الماركيز دى مونديخار " حول هذا المعنى ، لكن أنصاره خاصة المتطوعون والمغاربة رفضوا الصلح ، فاشتعلت المعارك مرة أخرى ، وتعرض المورسكيون لهزيمة جديدة ، وفر ابن أمية نفسه حيث اختفى فى منزل قريب وطاردته السلطات الأسبانية دون جدوى أما أمه وزوجته وإخوانه فقد وقعوا جميعا فى الأسر ، ومع كل هذا فقد تعرض المسيحيون لهزيمة شنيعة فى أكام " جواخاريس " ، وقتل ١٥٠ من قوادهم ، ومع ذلك فقد آثر المورسكيون الإرتداد فتعرض من تخلف للمقتل بل للتمثيل الشنيع (٢)

1- Marmol : Ibid, libro IV, Cap. XXXV y XXXVI, PP. 363, y ss

وكذلك عنان نفس المرجع ص ٣٦٧ .

٢- يذكر : " برنارد بنثنت " ثلاثة نماذج من معاملة المسيحيين السينة بل الوحشية للمسلمين أنظر :
Historia de los mariscos ... P. 37'.

ومع ذلك فإن هذه الهزائم لم تنل من عزم المسلمين الذين تجمعوا من جديد بأعداد هائلة فى شرقي البشراة وأخذوا يهددون المرية ، فسار إليهم الماركيز " لوس فيليس " على رأس جيش آخر ووقعت معارك شديدة راح ضحيتها قتلى كثيرون ، وفتك الأسبان بالأسرى ولم يرحموا حتى النساء والأطفال .

ووقعت فى غرناطة نفسها حادثة أليمة ، فقد كان فى سجنها ١٥٠ من أعيان المورسكيين كان قد تم اعتقالهم رهينة عند الجانب الأسبانى ، وقد أذاع الأسبان أن الثائرين سيهجمون على غرناطة لانتقاد هؤلاء السجناء بدعم من مواطنى " البيازين " ، فصدر أمر بإعدام المعتقلين المورسكيين ، فانقض عليهم الجنود وذبحوهم ذبحا ، وسفكوا دماءهم بشكل مفزع مروع . وقد ساعد هذا الحادث على إذكاء نيران الثورة فى نفوس المسلمين وامتلاؤا غيظا وحنقا، وتأكد لديهم أن الموت فى ساحة القتال خير من ذبحهم كما تذبح النعاج ، فهاجموا الحاميات الموزعة فى مختلف أنحاء البشراة ، وأعملوا فيها سيوفهم قتلاً ومزيقاً ، وهزموا فرقة أسبانية تعرضت لهم ، وامتلاأت بجموعهم السهول والهضاب ، وظهر محمد بن أمية من جديد ، والتف المورسكيون حوله أضعاف ما كانوا وأقوى مما كانوا ، وبعث الملك الجديد أخاه عبد الله برسالة إلى السلطان العثمانى فى القسطنطينية يطلب عونه ، وبعث برسالة أخرى إلى أمير الجزائر وبثالثة إلى سلطان مراكش يطلب المدد والنجدة ، ولكن رد الفعل لم يكن مشجعاً ، فلم يلب سلاطين القسطنطينية طلبات المورسكيين المتجددة للنجدة منذ سقطت غرناطة ، واعتذر أمير الجزائر عن عدم ارسال السفن واكتفى بالتشجيع والحث على الثبات ، أما سلطان مراكش فقد وعد بتقديم المعونة ، ولكن يبدو أن الظروف حالت دون الوفاء بما وعد ، واستجاب

لنداء المورسكيين مجموعة من المجاهدين الأفارقة ، وعبرت جموع جريئة منهم العودة إلى الشواطئ الأسبانية ، كما جازها إليهم فرقة من الأتراك المتطوعين ، أسرعوا لنجدة إخوانهم المنكوبين .

وهكذا احتدم الموقف وعاد الصراع أشد ما يكون من جديد ، وخشيت السلطات الأسبانية تجمع المورسكيين فى ضاحية غرناطة والبيازين فأصدرت قرارها بتهجيرهم إلى النواحي الشمالية ، وتعرض هؤلاء للمأساة الجديدة حيث افترق المرء عن أبيه والزوج عن زوجته ، وفى نفس الوقت طلب من الماركيز " لوس فيليبس " أن يذهب على رأس قواته لمقاتلة المورسكيين فى سهول المنصورة - بالقرب من أراضى مرسية - ونشبت بينه وبينهم معارك حامية ، ونقصت لديه المؤن والمعدات فلم يتمكن من متابعة القتال . وكانت هناك خصومة ومناقسة بين هذا القائد وبين نظيره " الماركيز دى موندبخار " ، وكان ذلك سببا فى اضطراب الخطط المشتركة ، وأتهم الأخير بالعطف على المورسكيين ، فاستدعى إلى العاصمة حيث أقبل من قيادة القوات المسيحية .

وبينما كانت الأحداث تجرى بهذه الصورة ، وتنتشر الفوضى والدماء فى كل الهضاب والسهول الأندلسية ، إذا بحادث خطير يقع فى الجانب المورسكى هو مصرع محمد بن أمية نتيجة للتآمر والخيانة ، وكان هذا الملك يتمتع برقة الشمائل لكن مع صرامة ، فسبب هذا حقد بعض رجاله عليه ، وكانت الضغائن والأحقاء توجد بين الزعماء : المسلمين والمسيحيين على السواء ، ومن قبل تعرض فرج بن فرج لمحاولة اغتيال قسام بها زميل له (١) .

1- B. Vincent: Historia de los moriscos ... P. 38'

لكن ما الدافع وراء اغتيال الخليفة الجديد ؟ يقال أنه كان يوجد فى معسكره أحد القادة واسمه الجوازيل (الوزير) ، وكانت له عشيقة حسناء اسمها زهرة ، انتزعتها الملك منه قسرا ، فعمل على التخلص منه بمعاونة خليلته ، ولذلك كتب على لسان الملك رسالة مُزورة موجهة إلى القائد العام يحرضه فيها على التخلص من جماعة الأتراك الموجودين فى معسكر المسلمين ، وقد علم الأتراك بأمر هذه الرسالة ، فاقتحموا معسكر الخليفة وخنقوه فى " لاوخارا " ولم يصغوا لما أكده هو من براءته ، حدث ذلك فى ليلة ما نحو ٢٠ أكتوبر سنة ١٥٦٩ ويقال أنه أعلن مسيحيته وحاول أن ينتقم لما لحقه من ذل بسبب ثورته وهذا يعنى أن الذى كان يحركه هو التضامن العصبى وليس الدينى (١) .

وقد اختار الزعماء ملكاً جديداً للأندلس هو " ابن عبو " وهو ابن عم القتل الذى اشترك فى التآمر عليه (٢) واسمه " ديجو لويث " ولقب بمولاي عبد الله ، وقد أجريت له نفس مظاهر الإحتفال البسيطة التى أجريت من قبل لابن أمية وقد إهتم الملك الجديد بتنظيم الجيش وزوده بالسلاح اللازم والذخيرة من المغرب ، ونجح فى أن يجمع حوله قوات مدربة بلغ تعدادها عشرة آلاف مقاتل من المجاهدين من داخل وخارج البلاد ، ونال احترام الجميع بما تمتع به من روية وتدبر .

وفى أواخر أكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاي عبد الله بقواته تجاه "أرجبة " - مفتاح غرناطة - واستولى عليها بعد حصارٍ قصير ، فذاعت شهرته ، وأعلن المورسكيون فى شرقى البشرات دخولهم فى طاعته وامتدت سلطته فى اتجاه الجنوب إلى بسائط رنده ومالقه ، وكثرت غارات

1- J.C. Baroja : los moriscos ... P. 198'

٢- انظر نفس المرجع السابق .

المسلمين المنصرين على فحص غرناطة ، وكانت قبل سقوطها ميدانا لمعارك حاسمة بين المسلمين النصارى ، وحقق المورسكيون بعض النجاح فى الفترة من أواخر أكتوبر إلى ديسمبر سنة ١٥٦٩ .

ورأى الملك الأسباني فيليب الثانى أن الثورة المورسكية قد استفحل خطرها ، وأن القادة المحليين قد عجزوا عن قمعها ، فعين أخاه "دون خوان" قائداً عاماً لولاية غرناطة ، وقرر هذا بدوره - ويسبب خطورة الثورة المورسكية - أن يخرج بنفسه لمحاربتها ، وبعد فترة لم تكن نسمع خلالها إلا كلمات الفشل والفوز والكر والفر ، وجدنا "دون خوان" يخرج على رأس جيش جديد فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٥٦٩ متجها نحو وادى آش ، وحاصر بلدة "جاليرا" - أمنع المواقع المورسكية - فقد كان يتحصن بها ثلاثة آلاف مورسكى بينهم فرقة تركية ، وقد هاجمتها القوات الأسبانية بشدة عدة مرات ، وصويت إليها نيران مدافها ، وأبدى الشعب المورسكى ، رجالا ونساء ، بسالة فائقة ويطولات ، ولكن البلدة سقطت آخر الأمر بعد أن قتل عدد كبير من الجند والقادة المسيحيين ، وقد انتقم الجيش الأسباني من سكان تلك البلدة ، وارتكبوا ضدهم مذبحه مريعة قتل فيها الكثيرون حتى النساء والأطفال ، وكان ذلك فى فبراير سنة ١٥٧٠ ، وحدثت مراسلات بين الملك وأخيه القائد دون خوان ، تعكس تسلط الملك ، وقلق واستياء القائد ، وعلى كل حال ، فقد كان سقوط قلعة "جاليرا" معجلا بسقوط القلاع الأخرى المجاورة ، فقد توغل دون خوان فى شعب الجبال إلى "سيرون" بالقرب من بسطة ، حيث كانت توجد قوة من المورسكيين تصل إلى عدة آلاف بقيادة زعيم اسمه "الحبقي" ، وقد فاجأت هذه القوة المسلمة الجند الأسباني فى "سيرون" وأوقعت الخلل والرعب بين صفوفه وقتلت عدداً كبيراً منهم ، ولكن "دون خوان" لم شمل جيشه بصعوبة ،

واستطاع مطاردة المورسكيين وواصل سيره حتى انتهى إلى " اندرش " فى مايو سنة ١٥٧٠ .

وإذا نظرت إلى تكتيك الثوار منذ البداية ، يتضح أنه كان بدائيا ، وإذا كان جنود " دى موندخير " ثم " خوان دى استوريا " لم ينتهوا فى الحال معهم ، فإن ذلك لا يعزى لنقص القيادة بقدر ما يعزى إلى وعورة الأرض الجبلية فى سلسلة جبال " سييرا مورينا " ، وإلى عوامل أخرى . إن المورسكيين ، ما أن قاموا بأعمالهم المعادية للمسيحيين فى اللحظات الأولى ، حتى غادروا العديد من القرى وذهبوا مع نساءهم وأولادهم ومواشيهم وثرواتهم إلى سلاسل الجبال وتحصنوا فيها وكانت جبال " لاس بنيتوس " مشهورة بموقعها الإستراتيجى ، وكذلك سلسلة جبال "جوا خارس " الواقعة حول "بروخر الأعلى" ، حيث كان يتمركز ماركوس الزامر (الوزير) بأكثر من ألف محارب ، كذلك كان جبل " فريخليانا " - وهو من سلسلة جبال " بنتو ميث " - ملجأ المسلمين ، ونذكر أيضا جبل " أيناكس " والريوة المستديرة " رستابال " وحصن " اربوتا " فى سلسلة جبال " رندا " وكان المسلمون يخرجون من القلاع والجبال لتوجيه ضربات ثم يهربون من المجموعات المعادية محتمين بظهور هذه القلاع والجبال ، وكانوا يطبقون حرب العصابات ويتجنبون إقامة معركة فى أرض مكشوفة ، إن وصف بعض المؤرخين لتكتيكهم يجعلنا نفكر فى الأنظمة التقليدية يعنى أسلوب الغارة أو الهجوم المفاجئ بمجموعات صغيرة فرساناً أو رجالة وكذلك نصب الكمائن ، وكانوا يعلنون عن هجماتهم من خلال الصياح وكذلك من خلال ضوضاء الطبل والناى ، وكانوا يستخدمون أسلحة قديمة مثل البنادق القديمة والسيوف والمنجنيق والمقلاع ، وقد أشتهر الثائرون فى "آلمرية" باستخدام المقاليع. ولإنذار المحاربين استخدمت المداخن نهارا ، واستخدم

رفع النيران على الأماكن العالية ليلاً . وقد حاول ابن أمية تقليد النظام العسكري المسيحي في لحظة معينة بسبب تواضع نتائج الحرب ، يعنى أنه قسم قواته إلى فصائل كل فصيلة تتكون من عشرة جنود ، وكل مجموعة من الفصائل تكون كتيبة لها قائد ، وكل مجموعة من القواد تتبع قائداً أعلى ، وكل إقليم أو Taa له حاكمه أو عمدته ، ومع ذلك فلم تعط هذه المحاولة الثمار المرجوة . يقول " اورتادو دى مندوثا " لقد كثر الأعداء بعد خمسة أشهر من بدء الحرب يعنى فى مايو سنة ١٥٦٩ ، فقد وصل عدد الجند المعادى فى تقديره إلى سبعة آلاف ، لكن بدون سلاح و بدون استعداد أو عقول أو ذخائر ، ولا بد أن نضيف " الإنسان " إلى هذا كله ، ذلك أن الذى يعتبر حافظاً للإتسبان ، هو واحد من الأهداف المباشرة للحرب ومن حسن الحظ أن المسلمين انجزوا :

أ- قطع الأشجار فى الحقول وتحريق المحاصيل .

ب- تحطيم طواحين الحبوب .

ج- سرقة المواشى .

يروى " بيريث دي هيتا " أحداث غارة قام بها فرج بن فرج (الأسود) بهذه الكلمات : " القائد الأسود فرج " اغتاز وجرى ، لأن فرسان " لوركا " غنموا منه مغانم وعاملوا رجاله معاملة سيئة ، فعاد وانضم لحملته ، وفى جرة شيطانية خرج من " كورخيئا " ، عبر حقول " جواركل " ، ووصل إلى ميناء " يوركا " ، حيث تمتلأ المناطق بمحاصيل القمح والشعير مع كثير من الحبوب المدروسة والمعدة للدرس ، وكل هذا حرقه الشرير " .

واحدة أخرى من حيل الحرب كانت حرق عجلات ومحاور ماكينات ومعاصر الزيتون ليصعب التزود بالدقيق ، وقد استخدمت السرقات والنهب خلال فترة الحرب ، والنهب الذى مارسه فرج بصفة خاصة كان مشهورا ، حتى أنه فى ٢٧ أبريل سنة ١٥٧٠ كتب " اورتادو دى مندوثا " إن الأعداء يأتون إلينا يأتون إلى أبواب المكان ، حيث يحملون فى كل يوم مواشى وأناس ودقيق حتى أنهم يحملون الطحّانين أنفسهم " ، وكانت القوات تحمل معها كميات كبيرة من المواشى ، يستخدمونها مصيدة ، يعبر " اورتادو دى مندوثا " فى رسالة بعث بها إلى الكاردينال " اسبينوسا " عن الأسلوب الذى تبناه الموسيكون للتنقل بدوابهم وممتلكاتهم الأخرى من هنا إلى هناك ، ويذكر " مارمول " أنهم كانوا يطلقون الأبقار المنهوبة فى اتجاه نهر " سيرون " بهدف إثارة طمع الجنود ثم الهجوم عليهم بعد ذلك (١) وكانت حملات المسيحيين تتكون من فرق المدفعية ومن الميليشيات المدعمة بالفرسان ، لكن القوات فقدت نظامها ، وانكبت على نهب المواشى والحريز والذهب والعبيد ، وفرّ الكثير من الجنديّة (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فقد مالت الكفة لصالح المسيحيين بعد سقوط القلاع وانتصارات "دون خوان" كما سبق أن أسلفنا ، وكان هذا سببا فى تدهور الروح المعنوية لدى الجند المسلم ، ورأت السلطات الأسبانية من ناحية أخرى أن تجنح إلى شىء من اللين ، لأنها لا تعرف ماذا يخبأ القدر من مصير لهذا القتال ، فبدأت مفاوضات الإستسلام التى لعب فيها " ارناندو الحباقى " دور يارزاً ، وكان لهذا الرجل أعداء من المتطرفين فى الفريقين ، وقد قتل فى يونيو سنة ١٥٧٠ بيدى أتباعه . كما حدثت حملة فى سلسلة جبال " رنده " كانت نتيجتها لصالح المسيحيين ، عندئذ أيقن كل

1- J. Caro Baroja: los moriscos ... PP: 181' - 187'

١- أنظر

والمصادر المبينة بها

2- B. Vincent: historio de los moriscos ... P. 37'

المحاربين من المورسكيين أنه ليس أمامهم إلا الإستسلام ، وتشجيعا لهذا الإتجاه صدر أمر ملكى بالعفو عن كل المورسكيين الذين يختارون الخضوع ووعده من لديه أية مظلمة بفحصها فى الحال ، ومن يرفض الخضوع فسيعرض للقتل ما عدا النساء والأطفال دون الرابع عشرة سنة ، فلم يستجب لهذا النداء أحد ، وكانت تجارب المسلمين السابقة مع المسيحيين تؤكد أنهم لا عهد لهم ولا ذمام ، فاستأنف " دون خوان " المطاردة والقتال وانقض على المسلمين قتلا وأسرأ بلا رحمة ، وسارت بعض القوات إلى شمال البشركات واشتبكت مع قوات أبى عبد الله .

يذكر " دياجودى مندوثا " فى رسالة منه إلى الكاردينال " اسبيتوسا " " أنه بقى من المسلمين أكثر من عشرة وخمسمائة ، لكنهم منقسمون وجائعون ، البعض يحاول اللجوء إلى الكهوف العديدة فى " البوخارا " كما فعلوا فى البداية ، لكن حظهم كان سيئا فهم يموتون مخنوقين بدخان النيران التي وضعت فى المداخل أو يسقطون أسرى " ، يقول مارمول حول الحملات على كهف " ميشنيا بومبارون " " أخذ المسيحيون ٢٦٠ شخصا أسرى ، واختنق من الدخان ١٢٠ آخرون ، وفى كهف آخر قرب " بارشول " اختنق ستون شخصا بينهم امرأة ، وكان "ابن عبو" وولدان له فى الداخل ، وأمكنه الخروج من فتحة سرية مع شخصين تبعاه ، وفى كهف " كاستاراس " قتل ٣٧ شخصا ، وفى كهف " تيار " أخذ ٦٢ أحياء ، وفى كل الحالات عثر على أسلحة كثيرة وأقوات وملابس ، ويشير " مارمول " بعد ذلك أنهم استولوا من المسلمين على ستة كهوف كبيرة ، كان يقف فى اثنين منها فقط ٨٠٠ شخص ، وفى آخر كهف استسلم فى ١٠ أكتوبر وهو كهف " ديتيار " عثر على مائة مسلم من الأندلس ، ٣٠ من البربر وتركى واحد ، وكانوا جميعا مسلحين بصورة

جيدة ، كل هذا بخلاف ٣٠٠ امرأة وطفل ، وفي كهف آخر أكثر بعدا ناحية البحر هو كهف " مورتاس " استسلم دون "فرنسسكو دى قرطبة" وقد أصبح هؤلاء الذين أسروا فى آخر لحظة من ممتلكات بعض المسيحيين فى جنوب ووسط أسبانيا (١) .

وقد رأى الملك عبد الله أن جنده يتساقطون من حوله ، وأن النصرارى يبالغون فى الأساءة إليهم والتنكيل بهم ، فمال إلى المسألة ، وتقدم للوساطة بين أبى عبد الله وبين دون خوان ، رجل من أكابر وادى آش هو " دون ارناردو دي براداس " ، وكانت علاقته طيبة بالمورسكيين قبل الثورة وهناك وثيقة كتبها ابو عبد الله هذا بلغة عربية ركيكة وجهها إلىسى دون " ارناردو " المذكور يبدى فيها استعداداه للصالح والمفاوضة (٢) ، كذلك كتب الدوق الونسو " بينجاس " إلى مولاي عبد الله يحثه على المسألة ، وقد ردّ عليه أبو عبد الله بما يتضمن تحمل أولى الأمر المسئولية ، لأنهم أحدثوا بدعا جعلت الحياة مستحيلة على الشعب المورسكى ، وعلى كل حال فقد استمرت المفاوضات وتم الإتفاق على أن يتقدم الحبقى - قائد قوات الثورة - وكان ذلك قبل أن يغتال - إلى دون خوان ويعلن الخضوع ويطلب العفو فيصدر عفو عام للمورسكيين وتتكفل الحكومة بحمايتهم فى أى مكان تراه وقد نفذ " الحبقى " ذلك عندما اتجه مع سرية من فرسانه إلى

١- أنظر : والمراجع الموضحة بها J.C. baroja: los moriscos, PP. 198' - 201'

٢- نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان- رحمة الله عليه- صورة وترجمة لهذه الرسالة ، نقلا عن : M. Alarcon : Miscelanea de estudios y textos Arobes,pp 691, Madrid 1915'

وانظر : نهاية الأندلس ص ٣٧٢ حيث يقول أنه عشر على الرسالة المذكورة فى مجموعة المخطوطات الشرقية للماركيز " بينا فلور " Pena Flor ، والنسخة العربية منها تحت رقم ٢٤٦ وترجمتها القشتالية تحت رقم ٢٤٥ ، هذا وقد ذكر " مارمول " الترجمة القشتالية (الأسبانية) فى كتابه المشار إليه أكثر من مرة فيما سبق ، أنظر منه الكتاب التاسع الفصل التاسع :

libro IX, cap. IX, P.393 y ss

معسكر " دون خوان" فى " اندرش" واعلن الخضوع وحصل على العفو العام لكن ذلك الصلح لم يرق لا لمولاي عبد الله ولا لغيره من الزعماء ، وقدم " الحبقى" حياته ثمنا لهذا الصلح ، لأن بقية القادة اشتموا منه نية السلطات الأسبانية فى نفيهم وإبعادهم عن مواطنهم ، وأماكن أمجادهم وتاريخهم ، ولهذا قرروا رفضه ، وارتابوا فى موقف " الحبقى " الذى كان يروج له بكل ما أوتى من قوة ، ولذلك احتالوا عليه وقتلوه فى يوليو سنة ١٥٧٠ كما سبقت الإشارة .

بعد ذلك بأسابيع بعث " دون خوان" إلى مولاي عبد الله يستكشف حقيقة الأمر ، فأجاب الأخير بأنه للمورسكيين أن يتصرفوا بحرية كما يحبون ، أما هو فقد أعلن أنه لن يخضع ما بقى فيه عرق ينبض ، وأنه يؤثر الموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه على أن يحصل على ملك أسبانيا كله ، ويبدو أنه كانت قد وصلت قوات من المغرب اشتد بها ساعده ، وعلى كل حال فقد اضطرت الثورة من جديد حول " رنده " وأرسل مولاي عبد الله أخاه "الغالب" لقيادة الثوار بهذه المناطق . أما السلطة الأسبانية فقد أغضبها هذا الذى حدث ، واعتبرته لوناً من التحدى ، وصممت على سحق المورسكيين بكل ما أوتيت من قوة ، ولذلك سار دون خوان إلى "وادي آش" على رأس قواته ، بينما سار جيش آخر يقوده "دون ركبسانص " إلى شمال البشترات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط "رنده" ، وأمعت القوات الأسبانية قتلا وتخريبا حيثما حلت ، وحاولت السرايا المورسكية أن تتصدي لها ، فمزقتها سيل القوات المسيحية ، حيث هدمت قوات الحكومة المعازل والقرى والضياح وأحرقت الحشائش والمقول حتى تحرم القوات المورسكية من مصادر القوت ، فاضطر كثير من المورسكيين للهجرة إلى بلاد المغرب والشمال الأفريقى ، ولم يبق إلا مولاي عبد الله وقواته

المحدودة ، وكان معتصما بعمق الجبال يخشى مغبة الظهور أمام هذه القوات الجارفة .

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ أصدر فيليب الثانى قرارا بنفى المورسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد مع مصادرة ممتلكاتهم غير المنقولة ، أما الممتلكات المنقولة فقد ترك لهم حرية التصرف فيها . ويقضى القرار بأن يؤخذ المورسكيون المقيمون فى غرناطة والفحص ووادى "لكرين" وجبال "بنتوفر" حتى "مالقة" وجبال "رنده" و"مريلة" إلى ولاية "قرطبة" ، ومن هناك يوزعون فى أراضى ولايتى "استريمادوره وجليقيه" . أما المورسكيون المقيمون فى وادى "آش ويسطة" ووادى المنصورة ، فيؤخذون إلى "جنجالة والبسط" ثم يفرقون فى أراضى قلعة "رباح ومونتيل" ، والمورسكيون المقيمون فى المرية يؤخذون إلى ولاية اشبيلية . وقد نفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والدقة ، وجمع المورسكيون المسلمون فى هذه الأماكن ، وسيقوا إلى الكنائس أكداً - يحاطون بالجنود من كل مكان - ثم شتوا فى مختلف أنحاء قشتالة وليون (١) فى أول نوفمبر سنة ١٥٧٠ . أمر بإرسال كل المورسكين الغرناطيين إلى الأندلس الغربى و"استريمادوره" ، وقد غادر حوالى ٥٠ ألف أمانهم الأصلية إلى الأبد فى أيام قليلة ، وفى ٣٠ نوفمبر سنة ١٥٧٠ انتهت مهمة دون خوان الذى قاد الجند المسيحي فى الحرب ، وغادر غرناطة فى ١٥ مارس سنة ١٥٧١ (٢) . وقد جرت حوادث مؤسفة أثناء تنفيذ قرار ابعاد المورسكيين عن مواطنهم الأصلية ، فلجأ رجال السلطة إلى نهبهم والفتك بهم وينسائهم

1- Marmol: Historia de la rebelion ... libro X, Cap . VI P. 437 y ss

وكذلك :عنان : نهاية الأندلس ص ٣٧٥ .

2- B. Vincent, Historia de los moriscos ... P. 35'

وأطفالهم خاصة فى منطقة " رنده " وقد وصل إلى سمع الجنود المسلمين فى الجبال أخبار ما يحدث لزميلاتهم ، فانحدوا إلى السهل وقتلوا كثيرا من الجنذ المسيحي المثل بالماغانم ، وكانت نهاية المورسكيين المنفيين مؤلمة ، فمنهم من هلك بسبب ما تعرض له من آلام ومنغصات ، أما من سلم فقد عانى من غربة مؤلمة مع وضعه تحت رقابة دائمة ، وسجلت أسماءهم وأماكن مساكنهم فى سجلات خاصة ، وتقرر تعيين مشرف خاص يتولى كل ما يتعلق بهم ، وحرّم عليهم تغيير مساكنهم إلا بإذن ملكي كما حظر عليهم السفر إلى غرناطة مهما كانت الأسباب ، ومن يخالف تعرض لعقوبات تصل إلى درجة الإعدام ، وهكذا تم تشريد كل المورسكيين وتحطم مجتمعهم المتناسك فى مملكة غرناطة ، ولم يبق إلا مولاى عبد الله وجيشه الصغير (١) .

وكان مولاى عبد الله قد استمر مختفيا فى أعماق جبال البشراى بين آكام "برشول وترفليس" مع عدد من جنده المخلصين ، وفى مارس سنة ١٥٧١ أرشد بعض الأسرى إلى مخبئه ، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره بإحدى الغارات ، وهناك أمكنهم اغراء ضابط مغربي من خاصته اسمه " جونثالو الشنيش " ، وكان الأخير قد بدأ يحقد على أبى عبد الله لأنه منعه من الفرار إلى بلاد المغرب ، فأغدق عليه الأسبان ، وتعهدوا له بضمان عفو شامل مع حفظ النفس والمال ، كما تعهدوا برّد زوجته وأبنته ، وكانت كلتاها أسيرة عندهم ، إذا سلمهم مولاى أبى عبد الله حيا أو ميتا ، وقد قام هذا الضابط بتدبير خطة لإغتيال سيده وفاجأه يوما فى قليل من أصحابه ، فقاوم عبد الله ما استطاع ، لكنه سقط أخيرا مثنخا بجراحه ،

1- H. Ch. Lea : the history of the moriscos ... PP. 258' - 265'

وكذلك : عنان : نهاية الأندلس . . . ص ٣٧٥

فألقى الخونة هؤلاء جثته من فوق الصخور لكي يراها الجميع ، ثم نقل الأسبان جثته إلى غرناطة وأعدوا له موكبا وضعوا فيه تلك الجثة مسندة إلى بغل ، وعليها ثيابها كاملة كما لو كانت حية ، ومشى وراءها أعداد غفيرة من المورسكيين الذين سلموا عقب مصرع ملكهم ، ثم حملت إلى النطع ونفذ فيها حكم الإعدام فقطعت رأسها ثم طيف بها فى غرناطة مبالغة فى التمثيل ، ومزقت أربعاً ، وأحرقت بعد ذلك فى الميدان الكبير ، ووضع الرأس فى قفص من الحديد ، رفع فوق سارية فى ضاحية المدينة تجاه جبال البشرات (١) .

وهكذا كان سبب الثورة والإنتفاضة العنيفة هو المعاملات القاسية الوحشية بل واللاتسانية التي لقبها المسلمون على أيدي السلطات الأسبانية من شتى إلى حرق إلى محن مروعة ، لقد أوسعوهم قتلا وتشريداً وإهانة ، وخرقوا المعاهدات معهم ومنعوهم من ممارسة شعائرهم واحترام تقاليدهم وصادروا حرياتهم وأرهبوهم بالضرائب والغرامات المالية ، حتى القسس ورجال الدين ، أحصوا على المسلمين أنفاسهم وأجبروهم على أداء الطقوس الكاثوليكية واغتصبوا ممتلكاتهم ودوابهم حتى كأصبح المسلمون فى أيدي النصارى أشبه باليمامة بين برائن الصقر الجارح ، حسب تعبير واحد منهم (٢) ، وإذا كان هؤلاء المسلمون قد ارتكبوا أثناء ثورتهم بعض مظاهر القسوة والعنف والنهب ، فإن ذلك لم يكن إلا رد فعل ، وشيئاً من جنس ما تلقوه مما لا يمكن وصفه ، سواء على أيدي السلطات المدنية أو الدينية .

وواضح مما سبق أن الخيانة والتآمر كانت وراء ما تعرض له هؤلاء

١- أنظر ' In: Annot. tom. libro 8, cap VII, PP. 449

عنان المرجع السابق ص ٣٧٦ .

٢- أنظر ص ٧٨ من هذا البحث .

الأبطال من حظ تعس ومصير مؤلم وهزيمة ونكسات و ولولا ذلك لكان لثورتهم شأن ولتغير وجه التاريخ .

ويمكن أن يقال ، اعتماداً على مسيرة أحداث الثورة ، أن الثورة قد مرت بأربع مراحل :

أ - من ديسمبر ١٥٦٨ إلى مارس ١٥٦٩ .

ب - من نهاية مارس إلى ديسمبر من نفس العام .

ج - من يناير سنة ١٥٧٠ إلى أبريل ١٥٧٠ .

د - من أبريل إلى نوفمبر من السنة نفسها .

وقد تميزت المرحلة الأولى بالحملات التي قام بها الماركيز "دي مونديخر" والماركيز "بيليث" ، وقد خرج الأول من غرناطة إلى طريق الجبال في ٣ يناير واجتاز "البوخارا" حتى "لاوخر" وأقام معسكراً عاماً فى "اورجيفا" وقد حاول المسيحيون القدماء المقاومة عن طريق الأبراج المختلفة التي كانت متوفرة فى كل قرية واستغلت فى الدفاع ، وكانت الأبراج مملوكة لبعض مشاهير المورسكيين ، ويبدو أنه كان فى "يارىخا" عدد كبير وقوي من هذه القلاع كما وجدت قلاع قديمة فى طرق نهر المنصورة مثبتة فى أماكن من الصعب مهاجمتها ، كذلك استعملت الكنائس حصوناً وقد تمكن بعض المسيحيين من المقاومة اليومية ، وأمكنهم التوفيق بين العمل اليومي ومتطلبات الحرب ، فمثلاً فى "توراس" أقاموا فى برج وكانوا يخرجون نهاراً للعمل بالحقل ويتركون رجلاً واحداً مع النساء ، ومن الطبيعى أن يكون لنجاح هؤلاء محدوداً بصفة عامة ، أما "دى مونديخر" فقد قام بحملاته على "البوخارا" من يناير إلى مارس

وأنقذ " دوركال " وعبر قنطرة " تيلاتي " مع كثير من الخسائر حيث نزل في " اورجيفا " وأقام بها معسكره وصعد إلى مرتفعات " بوكيرا " و" فيريرا " . . . إلخ وقد استولى على جيكر (في غرناطة) ، وأصبح لديه احساس بأن المسلمين استسلموا أو على الأقل عندهم استعداد للتسليم برغم ما منى به من فشل في بعض المناطق الجبلية ، وبرغم ما قدم فقد انتقده عوام الناس كما انتقدت الإدارة عمله ، وعهد إلى منافسه الماركيز " دى بيليث " بالتدخل من الجانب الشرقي (١) ، وكان هذا قد خرج أو ل يناير من " بيليث الأبيض " ، وأقام معسكر قواته في اليوم الثالث منه في " تركى " شرقى " البوخارا " ، وحدثت بعض المحن ، ومع ذلك فقد كان لدى المسيحيين أمل في التوصل إلى حل ، فقد استسلم كثير من المورسكيين ، وكان ابن أمية والزاجير ، من كبار قاداتهم ، قاب قوسين أو أدنى من الأسر ، لكن حدثت اختلافات كبيرة في الجانب المسيحى ، فكلا من الماركيزين كان يبغض الآخر ، وكان " مونديخار " هدفا لحملة منظمة للشوشاية به عند الملك ، اشترك فيها كبار رجال المحكمة العليا ، أما الماركيز " دى مونديخار " فقد اعتبر اشراك " دى بيليث " معه عملا مهيناً له ، فقد كان يرى أن الحرب قد انتهت من الناحية العملية وأن المفاوضات قد بدأت بالفعل ، بينما أكد " دون بدرو دى ديثا " أن الأمر ليس كذلك ، وعلى كل حال فقد حل " دون خوان دى استوريا " محل " دى مونديخار " ، وتصادف وصول رسالة توليته مع المذبحة الرهيبة التي ارتكبت ضد من كانوا رهائن في سجن غرناطة من المورسكيين كما سبقت الإشارة ، وفقد المسلمون كل أمل في معاملة حسنة فوسعوا نطاق الثورة ، وسقطت القوات

فى حالة من الفوضى وأخذت ترتكب كثيرا من ألوان العنف وهربت بعض القوات من الجندية وأخذت تبالغ فى سلوكها المسىء إلى المورسكيين .

يقول " خينيث بيريث دي هيتا " متحدثا عن قوات الماركيز دي موندنيخر : " إن نصفها أو أكثر قد استبدل ، ليحل محله أكبر اللصوص فى العالم ، تدفعهم فكرة أن يسرقوا ويسلبوا ويحطموا شعوب قرى المورسكيين الوادعة . . " ويقول فى مناسبة أخرى " إن هناك أناس كانوا يخونون فيسرقون الكثير حتى القلط وأشياء أخرى مشابهة . . . " ، وهذه الحرب أتت على المحاصيل كلها ، وأخذ الجنود بعد الإنتصار أواخر سنة ١٥٦٩ غنائم عديدة منها (١) :

(١) الفواكه والحبوب والزبيب والتين والموز ، وكان الجنود يحضرونها بأقصى ما يستطيعون للتجار والرهبان المسئولين عن قموين الأديرة .

(٢) الماشية ، مع الأسرى الذين تحتفظ بهم القوات أخيانا ، كما حدث عند الهجوم والإستيلاء على بعض الحصون .

(٣) الحرير وكميات كبيرة من الذهب واللؤلؤ والحرير ، وعند الوصول إلى حقل " ببيون " ، استولى المسيحيون من المسلمين على كميات كبيرة من الأمتعة الملية بالثياب والحرير ، كانوا قد حملوها لإخفائها فى الغابات ، وغنم الماركيز " دى بيليث " من مسلمى فاس جقائب مملوطة بالحرير والملابس وكثير من الذهب والفضة ، وعند فتح " جاليرا " وجدت بها كميات من القمح والشعير تكفى لمدة عام ، واستولى القادة والجنود على أمتعة من الحرير والذهب واللؤلؤ وأشياء أخرى نفيسه ، وكان رؤساء

1- Perez de hita (Gincs), guerras civiles de Granada, parte II, cap. IV P. 600'

نقلا عن

J. caro baroja: los moriscos ... P. 194'

وانظر المصادر المدونة عنده ص ١٩٤ ، ١٩٥

المورسكيين قد جمعوا هذه الثروات وغيرها وأخفوها فى الرُبى والجبال المنعزلة مثل جبال " يارا " وجبل " انوكس " ويطون روتى " ريستافيل وحصن " فريخليانا " .

(٤) الأسرى من الرجال والنساء والأولاد ، وقد أثار هذا شكاً حول مشروعية هذا النوع من الغنيمة باعتبار أن هؤلاء قد أصبحوا مسيحيين ولكن مجلس غرناطة أفتى بأنه وفقاً لقرارات مجمع طليطلة ، فإن المورسكى يمكن أن يضرب عليه الرق ، لأن هؤلاء يسمون باسم محمد ، ويحتفظون بإسلامهم ، وكان هذا واحداً من الأسباب التى أدت إلى تطويل أمد الثورة بسبب الرغبة فى أسر نسوة مسلمات كما حدث فى " لارالس " و " جيخر " ، لكن مسئولية الجشع لا تقع على الجنود وحدهم ، فقد بيع كثير من المسلمين فى مزاد عام بغرناطة لحساب الملك ، واقتسم القادة والرسميون مرات عديدة مجموعات من الأسرى تشمل أطفالاً ، وبعضهم مات فى الأسر ، وكانوا أسعد حظاً ممن تعرضوا لمذابح عامّة كتلك التى رواها " بيريث دي هيتا " عندما هزم " فرج " ؛ فقد خرج الجنود يسلبون النساء القتيلات ويجمعون الثياب وعقود الحلى والقرط ، وكل مظاهر الزينة ، بل إن سكان غرناطة ، انتظروا انتفاضة حى البيازين للقيام بالسلب والنهب (١) ورغم أن " دون خوان دي استوريا " هو الذى تولى قيادة القوات المسيحية خلال المرحلة الثانية الطويلة ، فإن الجيش المسيحى لم يتوصل إلى نتائج إيجابية ، لقد تسلم " دون خوان " مهام عمله فى ١٣ أبريل سنة ١٥٦٩ ، وبقيت حالة المسيحيين سيئة طوال باقى شهور الربيع وأوائل الصيف ، وكات المبادرة فى أيدي المورسكيين لشهور فهاجموا "برخا" حيث يوجد معسكر الماركيز دي لوس بيليث فى ٢٢ مايو ،

١- خوليو كارو باروخا : المرجع السابق ص ١٩٢ - ١٩٦ .

وحاصروا " سيرون " فى ١٠ يونيو واستولوا عليها فى ١١ يوليو كما استولوا على " بيزا " فى سبتمبر و " ارجيفا " فى أكتوبر ، ومع أن الزاجير قد مات فى يوليو ، واغتيل ابن أمية فى ٢٠ أكتوبر فإن ذلك لم يترتب عليه تغيير فى سير الحرب ، فقد اختير أبو عبد الله (ابن عبو) ليحل محل الخليفة القتيل وبدون منازع .

لكن اتجاه الحرب بدأ يتغير اعتباراً من ديسمبر سنة ١٥٦٩ ، ويناير سنة ١٥٧٠ ، فقد استولى حاكم الجزائر على تونس بدون قتال فى ١٩ يناير ، ولا يشك أنه حاول تقديم امدادات للثورة المورسكية بل هناك من يقول أن العليج على - الحاكم العثمانى بالجزائر - كان يفكر فى إعادة الحكم الإسلامى إلى أسبانيا ، فهذه هى الوسيلة الوحيدة لوضع حد للتهديد الأسبانى المستمر لبلاد الشمال الأفريقى وطرده الأسبان والبرتغاليين من مراكزهم فى هذه البلاد ، ولهذا عقد اتفاقاً سرى سنة ١٥٦٩ مع الثوار المسلمين فى بلاد الأندلس كان عليهم بمقتضاه أن يقوموا بثورة عارمة ، فى الوقت الذى تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مراكز مخصوصة على الساحل الأسبانى " ونجح العليج فى انزال الأسلحة والمتطوعين على الساحل الأسبانى عام ١٥٦٩ ، وفى هذا الوقت ترامت إليه أنباء عن استعداد دون خوان أمير النمسا لغزو الجزائر فعدل عن مشروعه مؤقتاً (١) . . . "

وفى نفس الوقت تقريباً حل " دون خوان دى استوريا " محل " الماركيز دي لوس بيليث " وحاصر " جاليرا " فى ديسمبر واستولى عليها فى ١٠ فبراير بعد معارك مريرة ، وكات هناك عندئذ ثلاثة جيوش تجوب أرجاء المملكة : دون خوان على رأس الجيش منحدرًا من سهل المنصورة ،

١- أنظر : عيد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٢٦.

وقد فتح "سيرون" فى شهر مارس ثم اتجه ناحية "البوخارا" حيث وصل إليها فى نهايات أبريل ، وهناك أقام معسكر "دى لوس بادوليس" حيث التقى به "الدوق دي سيسا" رئيس الجيش الثانى الذى خرج من غرناطة فى فبراير ، واجتاز "البوخارا" من الغرب إلى الشرق ، أخيراً وصل دون "انطونيو دى لونا" إلى سلسلة جبال "بنتوميث" قادماً من "انتكير" فى الأيام الأولى من مارس .

فى هذه الآونة انقسم المسلمون حول الموقف الواجب اتباعه ، فمنهم من رغب فى الإستسلام وعلى رأسهم الحباقي ، ومنهم من أراد مواصلة القتال ، وتزعم هؤلاء ابن عبو (مولاى عبد الله) كما ذكرنا من قبل ، ولهذا فإن المرحلة الرابعة والأخيرة تتميز بكونها خليطاً من الإتصالات الغامضة والعمليات العسكرية المتفرقة ، وقد حدثت مواجهات عسكرية كانت لها نتائج حاسمة فى إقليم "رندا" ، وفى ٧ يوليو حاصر المورسكيون "الوثاينا" ثم تمركزت قواتهم فى "اروتو" فى سلسلة جبال "بيرميخا" ، لكن "الدوق دي اركوس" يرافقه حاكم مالجه ، طردوهم منها فى ٢٠ سبتمبر ، ومنذ هذه اللحظة أصبح ممكناً تنفيذ المشروع الذى تم التفكير فيه من قبل وهو طرد المورسكيين من كل مملكة غرناطة (١) ، ومن الطبيعى بعد هذا العرض أن يبرز أمامنا سؤال حول المورسكيين الذين ثاروا ضد السلطات المسيحية وكم كان عددهم ؟

تبالغ القيادات المسيحية فى أعداد خصومها "فالدوق دي سيسا" يذكر أن عدد المتمردين فى فبراير سنة ١٥٦٩ وصل إلى مائة وخمسين ألفاً منهم ٤٥ يمكنهم حمل السلاح ، وهذا الإحصاء مبالغ فيه ، لأن سكان غرناطة كلها فى هذا الوقت تجاوزوا الـ ٥٠ ألف بقليل ، أما بيانات

١- أنظر : Bernard Vincent: Historia de los moriscos ... PP. 35' - 37'

المعارك العسكرية فهي مبالغ فيها أيضا ، فهي تذكر وفقا " لمارمول " (١) أن الماركيز دي مونديخر قتل في الحملات الأولى ٢٠٠ من الأعداء في " دوكال " ، ١٥٠ في " طابلاطى " ، بالإضافة إلى ١٥٠ في بوكيرا ، أما الماركيز دي بيليث فقد قتل ألفا في " اوهانس " ، أوائل فبراير سنة ١٥٦٩ ، ١٥٠٠ في " بيزخا " خلال شهر مايو ، وقتلت قوات " الماركيز دى ريكسنيس " الفين عند الهجوم على " بنيون " في " فيرخليانا " خلال يونيو عام ١٥٦٩ .

كل هذه مبالغات مألوفة من رؤساء عسكريين يحاولون إخفاء صعوباتهم ، أما الخسائر التى منى بها المسيحيون فهي قليلة - بصفة عامة - حسب عبارة مارمول :

" قتل فى هذه المرحلة ٢٠٠ مسلم ، وأسر ٨٠٠ امرأة وطفل ، واستولى على كميات كبيرة من المتاع وخسر المسيحيون ١٨ ، وكان هناك بعض الجرحى ، لكن المؤرخ نفسه يعترف فى مناسبة أخرى بأنه قتل من المسيحيين ٤٠٠ وجرح الكثيرون، وفقدت أسلحة كثيرة حسب الرواية الإسلامية أما نحن فقد علمتنا الحروب إخفاء الخسائر ، فقط قتل منا ستون وألحقنا خسائر عديدة بالأعداء " (٢) ، ومع ذلك فإنه يمكن الإعتماد على مصادر أجنبية معقولة فى تقدير عدد المسلمين الثائرين ، ووفقا لسفير فرنسا وسفير جنوه ، فإن المورسكيين الثائرين كانوا فى البداية أربعة آلاف ثم أصبحوا ثلاثين ألفا فى أوج الحركة و٢٥ ألف فى ربيع عام ١٥٧٠ منهم أربعة آلاف تركى وبربرى . وكل هذا يبدو محتملا إذا نظر إليه على أنه يمثل الحد الأقصى ، لأن رقم ٣٠ ألفا يعنى تجنيد كل القادرين على حمل السلاح ، قيمة هذه التقديرات أنها تبرهن إلى أى مدى تحركت

١- أنظر : مارمول : المرجع السابق ص ٣٠٥ ورنارد بنثت : المرجع السابق ص ٢٩

٢- أنظر : مارمول : نفسه ص ٢٩٨ ، ورنارد بنثت : نفس المرجع والموضع السابق .

الأغلبية العظمى للمورسكيين ، وقد قدم كل من " ارتادو دى مندوثا " و " مارمول كارياخال " نفس الأرقام تقريبا (١) ، كان عدد القوات قليلا فى الجانب المسيحي على امتداد سنة ١٥٦٩ فقد تعرض سهل " انوكس " لهجوم عدد يتراوح بين ٧٠٠ إلى ٨٠٠ جندي مسلح ببندقية قديمة ، و ٤٠٠ فارساً ، أما جيش " مونديخر " فقد اشتمل على ٢٠٠٠ جندي مشاه ، ٤٠٠ فارس ، وغارة " جواخار " بقيادة دون خوان والدوق دى سيسا قام بها ٩٠٠٠ من المشاة ، ٦٠٠ فارس ولمحاصرة " جليرا " أعدّ دون خوان حوالى ١٢ ألف جندي و " دون دي سيسا " من ثمانية إلى عشرة آلاف فى نفس الوقت . إذن كان هناك أكثر من ٢٠ ألف بقليل استخدموا فى المرحلة الحاسمة للحرب . والفرق الأساسى بينهم وبين المسلمين كان فى النوعية أكثر منه فى العدد . وكان الجنود المحنكون أيضا مشغولين بالقتال خارج حدود البلاد ، ولهذا اضطر الملك أن يطلب قوات طوارئ لحماية المدن وكان التدريب والحماس ينقص هؤلاء ، ولهذا استسلمت بعض المدن فى المرحلة الحاسمة للثورة بسهولة وكان ذلك أمراً عادياً ، برّره المستسلمون بأنه " ليس هناك رجال يمكن أن يوجدوا فقد هربوا إلى الفلاى وفى قري أصحاب الإقطاع حيث يتوافر أمن أكثر ، ، وأنها لخطيئة كبرى أن يبقى محصول القمح بلا حصاد ، وأن يبقى الكرم بلا عناية ، وإن حدث شئ من ذلك ، فإن النساء يقمن به " (٢) .

لقد كان المسلمون فى هذه المرحلة يقاتلون فى شجاعة قتال اليائسين ،

1- Marmol: Ibid, libro Octavo, P.243 y , Hurtado de mendoza : P. 209'

2- Diego torrente perez: Documentos para la historia de sancllemente II.,109, Madrid 1975'

B. Vincent: Historia de los moriscos, P.40

ويذكر أن قرية "سانت كليمنت" طلبت ٤١ جنديا لحمايتها ولكن البلدية ردت فى ١٢ مارس ١٥٧٠
بالعبارة الموجودة فى الأصل

وقد الحقوا بالمسيحيين خسائر كبيرة ، واشتهروا بالصلابة فى القتال ، وأرهبوا المتطوعين طمعا فى المغانم ، وسببوا رعبا حقيقيا .

مشكلتان كبيرتان محتاجان إلى بحث هما : من هؤلاء الذين ثاروا ومن كان المعبر عن حركتهم ؟ ثم ماذا عن موقف القوى الإسلامية من تلك الثورة المورسكية وإلى أى مدى كانوا معهم أو عليهم ؟ بالنسبة للسؤال الأول فإن " كارو باروخا " يلفت نظرنا إلى أن زعماء المسلمين كانوا يتنافسون ويتباغضون منذ البداية ، وقد انتمى هؤلاء الزعماء إلى جذور متعادية بصورة تقليدية (١) . وهذه الملاحظة لها قيمتها .

وسيكون من المفيد دراسة الأواصر الأسرية ، ومهن الرؤساء الذين يذكرهم ل . جراد . إنه من ناحيته يشير إلى أهمية مشكلة الحرير بين أسباب عديدة للثورة ، مؤكدا أن العدد الكبير من زعماء المورسكيين كان نشاطهم المهنى له علاقة بالحرير (٢) ، وهناك عامل ثالث أشار إليه كل من "براوديل " و " خ . كارو باروخا " حيث أكد كلاهما أنه فى سنة ١٥٦٩ انحدرت الثورة من الجبل نحو السهل ، أى أنها بدأت فى بؤرة جبلية فى الوسط ، ومنها انتشرت فى نواح أخرى (٣) وهذا يعنى تعصب سكان الجبل إذا ما قورنوا بسكان المدن ، وقد درس " مارمول كاريخال " مواطن

1- Los moriscos ... PP. 189'

2- K. Garrad: la industria sedra granadina en el siglo XVI y su conexion con el levantamiento de las Alpujarras.

(Miscelanea de estudios Analeas y hebraicas, ano 1956, PP. 73' - 104.)

3- Braudel : Fernando: la mediterrancee et le monde mediterrancee a l'epoque de philippe II, paris 1949, 1966, 1976'

Mario Monteforte Toledo : بعنوان : El mediterraneo y el mundo mediterraneo en la epoca de Felipe II

وقد صدر بالمكسيك فى عدة طبعات آخرها ١٩٨٧ ؛ والحديث عن الثورة الغرناطية بها يبدأ فى ص ٥٤٥ من المجلد الثانى أنظر خاصة ص ٥٤٨ وأنظر أيضا :

J. C. Baroja: Los moriscos ... P. 177'.

الثورة ، مجتهدا فى تحديد المناطق التي ثارت والتي لم تثر ، ووضع فى اعتباره ما أعلنته بعض الجماعات الريفية حيث قالت أنها لم تدخل الحرب وكان ينبغى ، بالتالى ، استثناءها من النفى ، وقد توصل ذلك الباحث إلى القائمتين التاليتين :

أ- المناطق التي ثارت وتحديد زمن ثورتها :

وادی المنصورة وجبال فيلا بريس (ماعدا سيرون ، لاس كوييس ، اوربا ، بيلاث بلنكا) يونيو ١٥٦٩

سيرون يوليو ١٥٦٩ ، لاس كوياس (الكهوف) سبتمبر ١٥٦٩ ، جاليرا اكتوبر ١٥٦٩ سيبرا دى روندا (جبال روندا) ابريل ١٥٧٠

ب- مناطق أقرى لم تشترك فى الثورة :

غرناطة . غوطة غرناطة ، تيورتاخار ، بادول ، دوركال ، بنجوليس المرى ، فينيانا ؟ بيليث بلاتكو وأوريا ، قادش ، أراضى قادش (باستثناء لابثيا) باثار ، أويسكر (باستثناء جاليرا وكاستيخا) ، موتريل الموخيا ، بيناكى ، ازناتى ، ماتشارا بيانا ، جبال روندا (موننتخاكى ، بينا اوخان ، الجاتوثين ، بينارابا) .

وهناك قرى فى سلسلة جبال " روندا " مشكوك فى موقفها ، وإن بقيت مسألة بدون شك وهى : موندا ، تولوس ، كاسارا بونيلا ، البندير ، خوكر ، فاراخان . (١)

من هذه اللوحة يمكن استنباط بعض الحقائق الأساسية ، ولا بد من التفرقة بين الحركة العفوية التى بدأت فى ديسمبر سنة ١٥٦٨ ، وأوائل

١- أعد "مارمول" هذا الجدول اعتمادا على الحوليات والوثائق المتنوعة فى دور المحفوظات المختلفة بسمنقة وقرطبة ومدريد . أنظر الملحق الموجود فى أواخر الجزء الثانى من عمله المشار اليه مرات سابقة ص ٤٨١ وما بعدها ، وانظر أيضا : B. Vincent: Historis ... P. 42 , Nota 17'

يناير ١٩٦٩ ، وبين اتساع الثورة الذى جاء نتيجة اقناع أو تحريض رسل الثوار ابتداء من مايو سنة ١٥٦٩ ، وقد ثارت القرى فى سلسلة جبال روندا " فى فترة متأخرة بسبب حماقات وابتزازات جيش (البرودى لونا) وليس هناك شك فى أن قاعدة الحركة الثورية كانت جبلية ، وفى لحظات مختلفة دخل فيها كل سكان المرتفعات ذات الأهمية ومثلث مرتفعات "البوخارا" روح المقاومة على مدار عامين ، وان انضم اليها رجال من السهل ومن الهضبة ، أما المورسكيون فى المدن أو السهول المتصلة بها فلم يشتركوا فى الثورة ، وكذلك سكان بعض القرى المنعزلة : فنيانا ، بيناكي ماشارا فيبيايا ، ازنات ، رغم أن الثلاثة الأخيرة ليست بعيدة عن مالقة ، ترى ما الأسباب التى يمكن أن تكون وراء موقفها ؟ .

" فنيانا " كانت على مدار سنتين جزيرة صغيرة فى وسط أراضٍ ثائرة ، وهناك سبب واحد يمكن الاعتماد عليه فى تفسير هذه الظاهرة هو الطابع المختلط لسكانها ، وفى سنة ١٥٦٢ كان فيها ٩٠ مسكناً مسيحياً ١٢٠ مسكناً مورسكياً ، وفى سنة ١٥٦٨ كان فيها ١٠٠ مسكن مسيحى ، ١٥٠ مسكناً مورسكياً ، ورغم أن أغلبية سكانها من المورسكيين الا انها لم تثر ، نفس الشئ بالنسبة لمجموعة " ازنات ، وماشارابيايا ، وبيناكس " ، رغم أن السكان المورسكيين كانت نسبتهم العددية أكبر . أما " الملوخيا " فكان يوجد فيها سنة ١٥٦١ أربعون منزلاً مورسكياً من مجموع منازلها ال ١٢٨ ، ويمكن أن نضيف مثال " لايثا " التى حمل سكانها على مغادرتها الى سلسلة الجبال ، ووفقاً للمارمول فانه كان بها ٢٦١ أسرة مسيحية منها ٤١ أسرة مسيحية . وكانت "البوخاراس" على العكس من ذلك حيث كانت توجد فقط أسرتان أو ثلاث أسر مسيحية فى كل قرية ، أما " انستان " فهى القرية الوحيدة التى ثارت من أسقفية مالقة فى ديسمبر سنة ١٥٦٨ ، وكان فيها عندئذ ١٤٧

مواطننا ، المسيحى الوحيد بينهم كان القسيس " اسكالانتى " ، ومن المحتمل أن يكون التعايش الذى يسرته أسباب متنوعة ، كان حقيقة واقعة فى قطاعات كبيرة .

أما موقف المدن ، فهو فى حاجة الى تفسير ، كيف نفسر فشل محاولة "فرج بن فرج" فى تأليب حى " البيازين " ؟ إن الامر يبدو غريبا للوهلة الأولى ، وهو ليس كذلك فى الواقع وحقيقة الأمر ، ذلك أن المورسكيين عايشوا المسيحيين مئات السنين فى حى البيازين ، ولم تكن التفرقة السكنية كبيرة كما يظن الآن ، يدل على ذلك احصاء منازل المورسكيين فى الفترة السابقة على الثورة ثم فى سنة ١٥٧٦ أى بعد الثورة بسنوات قليلة ، وهنا نقدم موجزا لذلك .

سان ئيشيليو (٤٩٠)١٠٣

سان خوسيه (٥٠١)١٤٨

سان ميغيل (٤٠١)٢٩٣

سان نيقولاس (٧٣٦)٥٢٩

سان جريجوريو (٢٤٩)٢٣١

سان لويس (٣٧٤)٣٣٣

سان بارتولومى وسان لورنثو : (٢٥٧)٢٨٦

سانتا ايزابيل (٢٧١)٢٧٢

سان كرستوبال وسان ماتيو : (٦٥١)٥١٣

سان الديفونسو (٦٧٥)١٥٨

سان سلفادور ، وسان بلاس

وسان مارتين ، وسانتا اتيس : (٨٨٣)٨٥٦

سنتا ماريادى الحمراء - (١٧٠)

منازل بمحلات الكنيسة الكبرى

٤٨٢٨ المجموع (١)

ثلاث دوائر كنسية فقط من بين ٢٣ لم يكن فيها منزل مورسكى ، وهناك ٨٨٤ منزلا أو منزلا مع محلات (١٨٪ من الاجمالي) كانت تقع فى دوائر كنسية أغلب سكانها من المسيحيين عكس ما كان يظن ، وقد وجد مسيحيون فى معظم الدوائر الكنسية التى يسيطر عليها المورسكيون. فقط المنطقة الاكثر ارتفاعا فى حى البيازين ، كانت القطاع الفرناطى الوحيد الذى سيطر عليه المورسكيون سيطرة مطلقة ، وهناك غرناطيون قليلون حملوا السلاح ، فبين أكثر من ٣٠٠ حالة لم تر الا اشارة الى ٥٠ فقط هم الذين ثاروا ، وهم جميعا تقريبا (٤٤ من ٥٠) ينتمون الى الجزء الاعلى من الربوة ، ولم تكن هناك معايشة فى السكن فقط بل اختلاط فى عالم العمل أيضا ، لقد كانت هناك خلايا تعمل وتذهب وتجيء وفيها يختلط المسيحيون بالمورسكيين ، هؤلاء وأولئك كانت لهم محلات ومصالح مشتركة هناك ، خاصة حول ميدان " ييباراميللا " ، وبصفة مستمرة أخص " الكايتاريا " . إن عمل وتجارة الحرير الذى برز فيه المورسكيون لم يكن احتكارا عليهم ، وكذلك النقل عن طريق الدواب أو البغال ، لم يكن عمل المورسكين فقط ، فقد مارس هذه المهنة ١٥ مسيحيا

١- الرقم المذكور أولا يمثل مانوينا به احصاء سنة ١٥٧٦ ، وهو موجود بدار المحفوظات فى سمنقه - القسم الخاص بقشتالة ، الورقة ٢١٩٢ ، وفى سنة ١٥٦٨ كان يوجد ٥٢٨٠ منزلا مورسكيا فى غرناطة ، وبالإضافة الى ٤٨٢٨ منزلا الموجودة فى احصاء سنة ١٥٧٦ ، لابد أن نضيف ٤١ مسكنا خاصا ، ومسكن الرسميين (الموظفين) ، وقد تهدم منها ٤٢١ . أما الرقم الموجود بين قوسين فهو يمثل منازل كل دارثرة كنيسة فى سنة ١٥٦١ ، وفقا للبيانات التى زودنا بها . ق . رويث مارتين :

Movimientos demográficos y economicos en el reino de Granada durante la segunda mitad del siglo XVI (anuario de historia economica y social, 1968, PP. 144', 145'

B. Vincent : historia de los moriscos ... P. 44, Nota . 18'

فى سان " الديقونسو " سنة ١٥٦١ .

ويمكن لفت النظر الى ملاحظات مشابهة تتعلق "بقادش وبازا والمرية أو موتزل" ففى هذه المدينة الأخيرة كان تعيش معا ١١٧ أسرة مورسكية ، ٢٨٦ أسرة مسيحية فى عام ١٥٦١ ، أما مايتعلق بالغوطات التى كانت تحيط بهذه المدن ، فإن الوضع مختلف ، فبعضها كان سكانه كلهم بلا استثناء من المورسكيين ، خاصة فى منخفضات "قادش وبازا" ، لكن هذه القرى كانت بصفة عامة أماكن عبور أو تشهد تغييرات مستمرة فى علاقاتها مع المدنية عبر السوق ، وبعض سكان هذه القرى حملوا السلاح بصفة فردية بأعداد أكبر من أعداد من كانوا فى المدن ، لكن لم تكن هناك ثورة جماعية ، ولا بد أن نشير الى أن سكان " وادى لِكْرِن " فى القرى اللصيقة بفرنطة لم يثوروا ، رغم أن كثيرين منهم كانوا فى سلسلة الجبل ، وهؤلاء لم يتعاونوا مع المسيحيين ، وكان ميلهم أكثر نحو الثائرين ، حيث كانوا يساعدونهم بالمعلومات والمؤن عرضا .

أما نظام الإقطاع فيمكن أن يكون له تأثيره على عدم ثورة بعض المجموعات الريفية ، وكقاعدة عامة يمكن أن نقول إن أصحاب الاقطاعات دافعوا عن رعاياهم المورسكيين وفى مقابل هذا استمر هؤلاء على هدوتهم فى مناسبات عديدة (١) .

وإذا نظرنا إلى زعماء الثورة أو إلى جذورهم العرقية ، نجد بينهم بعض الفرناطيين وقد عينهم ل . جرأد ، مثل ابن داود ، فرج بن فرج ، ابن عبو (مولاى عبد الله) ، والأخير هذا لا ينتمى إلى المدينة بل إلى القرية البوخارية ، وابن أمية ، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة ، كما كان نائباً فى مجلس غرناطة ومستولاً عن الرى ، لكنه كان مرتبطاً بقريته " دى بالور " ،

١- يذكر " بيرنارد بنشنت " بعض قرى ورجال الاقطاع ومواقفهم ، أنظر ص ٤٥ من كتابه المشار إليه أكثر من مره فيما سبق .

وكذلك " ارناندو دى ثاجيرا " ، وكان مأمورا قضائيا فى " قساديار " و " ميجيل دى دوخاس " وهو مواطن من " أوجيخر ، و " وايرناندو الحباقى " ، وكان مأمورا قضائيا فى " الكودياه و " الرامى " ، وكان يقوم بنفس العمل فى " انستيئون " ، و " ايرناردو الداىرا " سليل أسرة المأمورين القاضيين فى " فرى خيليانا " و " خيرونمو المالح " المأمور القضاى ل " فيرى برا " ، وكل هؤلاء الأخيرون ينتمون إلى مناطق جبلية إلا " الحباقى " ، لهذا رأينا هذا الأخير وحده يحتفظ بعلاقات مودة وصداقة مع المسيحيين سمحت له أن يكون المفاوض أثناء مفاوضات الإسلام .

ودراسة الحالة الاجتماعية لهؤلاء ليست أقل أهمية ، لقد كانوا جميعا من المشهورين ذوى النفوذ ، وقد بقى التنظيم الاجتماعى المرتبط بالسلف يعمل عمله عند المورسكيين ، كان يكفى أن يقرر واحد من هؤلاء المأمورين القضائيين المذكورين أى اتجاه فيتبعه الآخرون ، ونفس الشئ لم يحدث فى أوساط المدن ، فالأسر الكبيرة ، حتى لو كانت محترمة دائما ، ارتبطت مع جماهير المورسكيين بصورة أقل بسبب قربها من المسيحيين . وعندما انتقل "ايرناردو دى بالور" وقرطبة (ابن أمية) من غرناطة إلى "بالور" قام بعمل له مغزاه هو العودة إلى منابع وأصول الحضارة الإسلامية التي استمرت كامنة فى القرى ، فقد اتخذت الحرب فى أسابيعها الأولى طابعا متعصبا ، ترتب عليه قتل الرهبان والقساوسة مع تعذيبهم ، بالإضافة إلى تخطيط الكنائس ، وانتهاك الحرمات ، وهذا يفسر ذوبان السفاحين والمنفيين بين قوى الثورة ، ولسنا نعرف أنه كان بينهم واحد من أصل مدنى .

لقد كشفت الثورة ايضا عن قوة أواصر النسب بين المورسكيين ، فلم تكن هناك انشقاقات داخل المجموعات الأسرية ، وكان على كل أصل

أن يختار بين الولاء للحكومة القائمة أو الثورة . ونحن نرى أن الجـذر "بالور" - الذين يفتخرون بانتمائهم إلى عبد الرحمن الأول - ومعهم حلفاؤهم اشتركوا فى الصراع المسلح ، فابن أمية وجد بجواره ابن اخته " ميغيل دى دوخاس " معاضدا مساندا ، وكذلك " ارناندو الزاجير " وأخوه " لويس دي بالور " وابنى عمه ابن عيسو والغالب ، وكلهم قاموا بدور بارز . أما والد ابن أمية " انطونيو دى بالور " فيمكن أن يقال أنه رسم الطريق لأقربائه ، وقد حكم عليه بالسجن لمدة ٢٥ عاما ، وأمكته أن يهرب ولكنه عاد إلى السجن ، وبعث به إلى " جاليثيا " برفقة واحد من أبنائه كان موجودا خلال العمليات مع زوجته ومع بناته وصهره زوج ابنته ، وقد عاد هذا الأخير بعد مصرع حميه إلى " البوخارا " على رأس مجموعة من الجنود المورسكيين بهدف اقناع الثائرين المستمرين فى قتالهم والذين ينتمون إلى قبيلة "زجرس" بالخضوع ، وكل هؤلاء استمروا على ولائهم . أما القصور فقد بقيت مترددة لبعض الوقت ، وكان أصدقاء مجموعة "بالور" مخلصين للفريق الواقعى ، و "ايرنان بى" كان له - مع الحباقى - دور بارز فى المفاوضات ، كما كان هناك تنافس بين أفراد المجموعة الواحدة ، مثلا بين فرج الذى ينتمى إلى بنى السراج وبين لوس بالور ، وكذلك بين الحباقى وابن عبو ، بل وداخل أبناء الأصل الواحد ، بين أبناء العمومة ، مثلا بين ابن عبو من ناحية والغالب من ناحية أخرى ، ويلاحظ أن المفاوضات الأساسية كانوا جميعا من سكان اقليم قادش ، وينتسبون ، بصورة أو بأخرى ، إلى المعتدلين . وهكذا نرى أن كل مجموعة من الجذور العرقية تتخذ موقفاً موحداً .

إن الأسباب التى تكمن وراء قيام الثورة المورسكية ، ليس من السهل احصاؤها ، ومع ذلك فهذه الثورة لا يمكن اخفاء طابعها الثرىفى بصورة جوهرية ، وهناك قليلون من الفنيين المشتغلين بالحرير وما يتصل

بصناعته ، أسهموا فى الإعداد واشتركوا فى الثورة بصورة نشطة ، ولكنهم كانوا يمثلون استثناءات فقط ، فالأوساط الريفية هى التى عانت بسبب مشكلة الحرير ويسبب ابتزازات السلطات المسيحية .

لقد كان الشعور السائد بين الجماعتين : الإسلامية والمسيحية ، هو شعور الحقد والبغضاء ، الذى غذاه سلوك المسيحيين خاصة . وبعض المسلمين - على مدار عقود من السنين ، يستوى فى ذلك سكان منطقة "البوخارا" أو سكان سلسلة جبال " نبتو مينث " ، لقد اصطف المورسكيون تلقائيا خلف قاداتهم الثائرين ، فكانت الثورة أشبه ما تكون بحفرة عمقت الفصل بين حضارتين ، كما كانت تعبيرا عن خيبة أمل أقلية ارادت المحافظة على هويتها (١) ، وقد أبرزت فى الآن نفسه التضامن المورسكى داخل مملكة غرناطة ، فقليلون هؤلاء الذين قطعوا صلتهم بأبناء دينهم تعبيرا عن وحدتهم فى مواجهة الخصم المسيحى ، وكم كانت كثيرة أعداد الفلاحين الذين أسرههم المسيحيون ، ففعل زملاؤهم كل ما فى وسعهم لإنقاذ هؤلاء الأسرى ، وقد ذكر " نيكولاس كابريانا " بعض الحالات التى لها مغزى ، مثلا حالة الزوجين " جاريثا نابارو " و " لينورساتا " ، فقد رهنا أرضهما لمعاونة ثلاثة من المورسكيين فى جمع المطلوب لإنقاذهم من الأسر (٢) .

لكن هل نجد نفس روح ومستوى التضامن بين المورسكيين من ناحية والأتراك والمغاربة من ناحية أخرى ؟

لقد عاش المسيحيون فترة من القلق ، خاصة عندما كانت أحداث الثورة تجرى فى عملها لمصلحة المسلمين ، ولقد كانت السلطات الأسبانية

1- B. Vincent: Historia de los morisc, PP. 45'

2- Nicolas Cabrellana: Esclavos moriscos del siglo XVI.

مقال منشور بمجلة الأندلس

Al- andalus XX.I, 1957', PP. 114' - 123'

وفى المقال أمثلة أخرى غير ما جاء فى الأصل .

تخشى أن تحمل على مواجهة مع القوي الإسلامية ، خاصة فى النصف الثانى لعام ١٥٦٩ ، يعنى عندما كان الموقف فى صالح المسلمين الثائرين . وليس من شك فى أن ثورة المورسكيين فى غرناطة ، كان لها صدى خارجى عظيم ، وهذا جعل " فرنارد براوديل " يتساءل عما إذا كانت الإنتصارات العثمانية اللامعة التى حققها " سليمان القانونى " ابتداء من سنة ١٥٣٨ تعتبر مؤشرا على بداية مرحلة من السيطرة الإسلامية على البحر الأبيض المتوسط ؟ أنه لا يمكن انكار أن ازدهار وانتصار الأتراك أحيا آمالاً عظيمة لدى المورسكيين ، وقد تكلم هؤلاء سنة ١٥٦١ عن قرب محاولات تركية ضد الشواطىء الأيبانية وعن غارة ضد بلنسية ، وفى سنة ١٥٦٥ أحاط السفير الأيبانى فى باريس . فرنسيس دى الابا- الملك علما بتردد أحد المورسكيين جيئة وذهابا بين أراجون وفرنسا ، وفى سنة ١٥٦٩ قدر حاكم الجزائر " العليج على " عدد الثائرين فى غرناطة بين ٦٠٠ ألف ، ٨٠٠ ألف ، وإن كان هذا التقدير مبالغاً فيه ، وقد ناقشت القسطنطينية امكانية انزال عثمانى فى البحر الأبيض المتوسط ، ووصل هذا الخبر إلى مدريد ، ويرى " براوديل " أن ثورة المورسكيين سببت عدم توازن لصالح الشرق فى صراع السيطرة على البحر الأبيض المتوسط بين الأيبان والأتراك وقد ظهرت الأصداء العاجلة لذلك عام ١٥٧٠ ، وتمثلت فى استيلاء حاكم الجزائر على تونس وفى الهجوم على جزيرة قبرص ، وترك هذا بدوره آثاره على انهاء الجامعة المقدسة ، وعلى معركة " لبانتو الكبرى " عام ١٥٧١ ، وفى ربيع سنة ١٥٧٠ حدد الملك فيليب الثانى الوضع الإستراتيجى فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى رسالة موجهة إلى " برى دى سردينيا " يتحدث فيها عن خطر تهديد اسطول الترك لهذه الأجزاء مستغلاً ثورة المورسكيين فى غرناطة ، واحتمال مناصرة إخوانهم فى " اراجون وبلنسية " وقرب تلك المناطق من إفريقية ، وفى ١١ مارس سنة ١٥٧٠ توجه الملك

من قرطبة إلى السلطات الدينية موجها أنظارهم إلى أن اسطول الترك ، العدو المشترك للمسيحية ، لا بد أن يأتي هذا الصيف لتشجيع المورسكيين المتمردين في غرناطة ، ويوصيهم بالصلاة والعبادة حتى يمكن تجنب ذلك الخطر (١) . وكتب السفير " فرنسيس دي البا " في أوائل أغسطس ١٥٦٩ يقول " إن الله يريد معاقبة هؤلاء المشيرين للاضطرابات فى "البوخارا" قبل أن يتمكن هذا الكلب السلطان من تسليحهم " (٢) ، ولاحظ بعض السفراء بعد ذلك بعدة أيام أنه إذا اشترك المورسكيون الأراجونيون فى المعركة ، يعنى الثورة ، وهو ما يخشى منه ، فإن قوات الثائرين ستصبح مائة ألف وليس فقط ثلاثين ألفا . ورغم أن موقف المسيحيين كان قد تحسن فى الربيع التالى ، إلا أن الخوف من تدخل المورسكيين الأراجونيين ومن تدخل الأتراك كان لا يزال قائما ، وهذا ما عبر عنه فيليب الثانى فى رسائله المشار إليها آنفاً (٣) ، كذلك تتحدث وثيقة أخرى عن نفس الشئ فتقول : إنه فى " بيا " وسكانها جميعا مورسكيون بنسبة ١٠٠٪ - جرت استعدادات كبيرة ، حتى الأطفال يتدربون على

1- Fernod Braudel: la mediterrance et le monde mediterramein al, epoque de philip II, Paris 1949, P. 902'

وانظر صفحات ١٨٣، ١٨٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٨٤ من الجزء الثانى للترجمة الأسبانية حيث نجد حديثا عن الاثار الداخلية والخارجية لثورة غرناطة ، وراجع أحداث الثورة وتطوراتها من ص ١٧٤ : ٢٠٠ وانظر أيضا :

Anderson: Naval Wars en the levant, PP. 855 liverpool 1953, pp,8 y ss-Juan regla: Estudios sobre los moriscos, PP. 204,205,248, 249 Barcelona 1974'.

٢- والترجمة الأسبانية ص ٥٥١ Braudel : Op.cit, P. 362'

٣- وهناك نص بنفس المعنى فى دار محفوظات التاريخ القومى أنظر

J. regla: Estudios ... PP. 248' , 249'

Osuna, leg. 419, Fol . 115'.

استخدام الاسلحة ، ويضيف " أنهم كانوا سيتعاقدون بالتأكيد مع المورسكيين فى غرناطة وبعضهم قد جاء إلى هذا المكان ، بينما جاء آخرون من أماكن أخرى ، وعندهم طريق سرى يمكنهم أن يذهبوا خلاله دون أن يختلطوا بالسكان ، وفى وسعهم أن يقدموا خدمات كثيرة إلى ملكهم ، وأن يحملوا كثيرا من سهام النبال إلى أقربائهم ، وهم فى الآن نفسه يحاولون ويعملون على الإتصال بالمورسكيين فى المناطق الأخرى أكثر مما تعودوا أن يفعلوا قبل الثورة (١) .

وبرغم مبالغات بعض المصادر المشار إليها ، إلا أنه لا بد من الإعتراف بأن خطر الإتصال بالقوى الخارجية كان قائما ، وكان الأسبانيون والبرتغاليون يقومون بشن حروب متصلة على أقاليم الشمال الأفريقى لأنها تضم تجمعا إسلاميا هائلا يمكن له شد أزر مسلمى الأندلس فى كفاحهم الدينى أى أن هؤلاء عملوا على إحتلال الشمال الأفريقى للفصل بين المغاربة وأخوانهم المسلمين فى العدة الأخرى .

وقد احتل الأسبان المرسى الكبير غربى الجزائر عام ١٥٠٥ وقاتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف ، واحتلوا مليلة ومدينة الجزائر ، وفى عام ١٥٠٨ احتلوا حجر باديس ، وفى العام التالى استولوا على بجاية وفى عام ١٥١٥ احتلوا ميناء طرابلس ودمروا منشآت المدينة كما استولوا على وهران وغيرها من المدن الساحلية ، وتناثرت على طول الساحل الشمالى لأفريقية محطات عسكرية اتخذها الأسبان جيوبا صليبية .

ومع ذلك فإن انتصارات الدولة العثمانية الباهرة فى اوربا وآسيا ، وفتح السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية ، وصل صيتها إلى مسامع الدنيا

1- Instituto de valencia de Don Juan, envio 1, P. 37, texto del 17 de mayo de 1569'

1570'

B. Vincent : Historia de los moriscos .. P. 48'

وانظر فى ذلك كلد أيضا :

بأسرها ، ودفع المسلمين إلى أن يلبأوا طالين نجدة الدولة العثمانية وإنقاذها على النحو الذى سبق ذكره ، فأصبحت بلاد وبحار الشمال الأفرقى موطنًا للصراع بين قوات الخلافة العثمانية وأعدائها من البرتغاليين والأسبان .

وقد جذب هذا الصراع عددا كبيرا من البحارة المسلمين من شمالي أفريقيا ، من هؤلاء الذين خدموا الأسطول العثمانى أول أمر ثم ما لبثوا أن كونوا سفنا تعمل فى النقل البحرى لحسابهم الخاص وتجاهد فى نفس الوقت ضد الأعداء ، وقد عرفت هذه السفن باسم " مراكب الجهاد " وكان من أبرز قادتها : عروج وأخوه خير الدين بروس وحس باشا وصالح ريس ودراجوت ياشا وغيرهم ، وقد حرص المؤرخون الأوربيون على تجريح هؤلاء القادة وسخروا منهم وألصقوا بهم كل نقيصه ، وأسموهم قراصنة ، وصمموا على ذكر اسم كل منهم مسبقا بصفة " قرصان " وأمير بحر تركى وتبعهم فى ذلك بعض الباحثين المسلمين (١) ، والواقع أن هؤلاء مجاهدون مسلمون ، شقوا طريقهم فى البحر دفاعا عن دينهم ، وخاضوا صراعا ضاريا ضد دولتين بحريتين تمتعتا آنذ بمصادر مالية وحربية رهيبه هما اسبانيا والبرتغال ، وليس لذلك من تبرير سوى شعور هؤلاء الأوربيين بالكراهية والمقت لهؤلاء القادة ، بسبب ما أنزلوه من خسائر بالأوربيين وقرسان القديس يوحنا .

ولعل من المناسب هنا أن نلمح إلى جهاد " بابا عروج " فى منطقة الشمال الأفرقى ، فقد كان شخصية قوية ولديه خبرة فى مهاجمة الأسبان وقد انتصر عليهم مرارا فذاع صيته ، وطلب إليه رجال القبائل فى الجزائر أن يعاونهم فى استرداد ميناء " بجايه " من الأسبانيين ، وهى أكبر

١- أنظر مثلا : أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ص ٩٢ ، القاهرة ١٩٨٢

ميناء فى شرقى المغرب الأوسط آنذ ، وقد نجح فى تحقيق ذلك وحرر هذا الميناء وخلصه من قبضة الأسيان ، ثم طلب منه مواطنو بلدة الجزائر أن يساعدهم فى صمودهم أمام الأسيان الذين أقاموا قلعة منيعة اسمها "بينون " Penon على الجزيرة المواجهة للساحل والبلدة ، وحصنها جيداً بحيث تهدد سكان الساحل وتمنع وصول سفن المسلمين فى نفس الوقت ، فسار "بابا عروج" بطريق البر على رأس ثمانمائة جندى نظامى وخمسة آلاف متطوع ، وأرسل فى الآن نفسه سفنا محملة بالمجاهدين ومسلحة بالمدفعية وهدد الحصن وصد هجوم أسيانى على البلدة ١٥١٦ ، واتخذ مقرا لحكمه فى الساحل المواجه للجزيرة الخاضعة للأسيانيين وأسس حكومة عسكرية قادها وانضم إليها كبار رجال القبائل وسكان المدن ، واستولى على اقاليم المغرب الأوسط مثل "مليانه ومرية وتناس" الواحدة تلو الأخرى ثم عهد لاختيه خير الدين بإدارة كل شرقى البلاد ، وكان لنجاح بابا عروج أصداء فى تلمسان عاصمة بنى زيان غربى الجزائر ، وظهر فيها اتجاه إلى توحيد الجهود مع هؤلاء المجاهدين خاصة وقد هادن بنو زيان الأسيان واستنجدوا بهم وكان هؤلاء يحتلون "وهران والمرسى الكبير" فى ذلك الوقت وكان بنو زيان يخشون هجوم بابا عروج على وهران ، وقد أرسلت أسبانيا حملة قوامها خمسة عشر ألف مقاتل ، توغلت فى أرض الجزائر وحاصرت تلمسان ، وأسروا بابا عروج وقتلوه عام ١٥١٨ ، ولم يبلغ من العمر ٤٤ عاما ، وبسبب ما كان له من لحية حمراء أطلقوا عليه لقب عروج بربروس أى صاحب اللحية الحمراء ، وقد حمل نفس اللقب من بعده أخوه خير الدين ووصلت شهرته إلى مدى أوسع ، وكان اسمه الحقيقى " خرزيس" .

ويذكر لعروج أنه نجح فى توحيد معظم صفوف الشعب الجزائرى ، وقرب بينه وبين باقى المسلمين فى شمالى أفريقيا فى كفاحهم ضد عدو مشترك .

وبسبب ضعف المركز السياسى والعسكرى لخير الدين بسبب مقتل أخيه ، وتكالب بنى حفص وبنى زيان والأسبان عليه ، وما كان يواجهه من نقص فى العتاد ، طلب من الدولة العثمانية أن تعمل على تجديده ، فى صورة رسالة بعث بها على لسان سكان مدينة الجزائر الى السلطان سليم الأول الذى كان فى أوج إنتصاراته بعد نجاحه ضد الدولة الصفوية فى فارس وضم الشام ومصر والحجاز وسواحل اليمن الى دولته ، وقد استجاب السلطان للنداء ، وعين خير الدين قائدا أعلى ممثلا للسلطان بالإقليم وأمهده بالعتاد والجند ، وأصبحت الجزائر بذلك أول إقليم بشمال أفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية ، وأصبحت منطلقا لمد النفوذ العثمانى الى إقليمين آخرين هما طرابلس وتونس ، وكان على خير الدين بربروس فى وضعه الجديد أن يحارب الأسبانيين لطردهم من الجيوب التى أقاموها على ساحل الجزائر ، وقد نجح فى تحقيق هذا الهدف ، فضم "عنابة وقاله" وشرقى الجزائر ثم إستولى على حصن " بنيون " الأسبانى المواجه لبلدة الجزائر بعد قذف مركز دام عشرين يوما ، بعد ذلك إقتحمه بقوات كثيفة محمولة على خمس وأربعين سفينة جاءت من الساحل ، وأسر قائد الحصن 'مارتين دى فريج " Martin De Verge وكبار الضباط .. ثم أقام خير الدين حاجز أمواج يصل أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ويستخدم من ناحيته الداخلية كرصيف للسفن ، وبذلك أوجد ميناء حصينا وآمنا ترفأ إليه السفن ، ولكن ظلت " وهران " قاعدة اسبانية تهدد الجزائر حتى سنة ١٧٩٢ ، كذل نجح خير الدين فى محاولاته بالداخل ، وأعلنت بعض المدن الهامة مثل قسنطينة الإعتراف بالسلطة والنفوذ العثمانى .

وقد أمكن بفضل المساعدات التى تلقاها من السلطان سليمان القانونى أن يوجه ضربات موجعة للسواحل الأسبانية ، وأمکنه أن ينقذ آلاف المورسكيين من عنت الحكومة الأسبانية ويساعدهم على اللجوء لبلاد

الشمال الأفريقي ، حيث قام في سنة ١٥٢٩ بتوجيه ست وثلاثين سفينة إلى السواحل الأسبانية حملت سبعين ألف مسلم في سبع رحلات ونقلتهم إلى العدو الأخرى ، الشيء الذي جعل المسلمين في غرناطة وبلنسية وغيرها- يلجأون إلى خير الدين لإنقاذهم ، وبذلك أصبحت الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الأسباني " وغدا خير الدين بربروس الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، وكانت تساندة قوات وموارد الدولة العثمانية في الصراع ضد شارل الخامس وامبرطور الدولة الرومانية المقدسة ، والتي كانت تضم وقتذاك "اسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا (١) ومن المحتمل أن تكون قد جرت إتصالات بين المورسكين في غرناطة وبين زملائهم من بلنسية وأن تكون قد أرسلت شعارات عديدة الى بعض بلدان الشمال الأفريقي مثل الجزائر وتطوان ، وايضا الى القسطنطينية . لقد كانت الاتصالات نشطة مع هذه العواصم . ولدينا رسالة ابن داود - احد زعماء وادباء الثورة - والتي كتبت في فترة مبكرة ، ووجهت الى زعماء المغرب الذين طلب غوثهم ونجدتهم(٢) كذلك إنتقل " لويس دي بالور" أخو "ايرناندو" - ابن اميه - الى الجزائر في يناير سنة ١٥٦٩ ، وسافر منها الى القسطنطينية في نفس العام . كذلك حصل " الحياقي" على وعود مؤكدة قدمها اليه " أولاد ج على" حاكم الجزائر . وفي فبراير ١٥٧٠ ارسل ابن عبو (مولاي عبدالله) رسلا جديدة الى المدينتين الصديقتين . وقد أرسل حاكم الجزائر اسلحة الى الثائرين وكتب الى مولاي عبدالله بأنه "بهذا تتضاعف الرغبة في وجوب

١- أنظر : عبد العزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٠٤ الى ص ٩١٤ ، وكذلك : أحمد عبد الرحيم مصطفى في أصول التاريخ العثماني ص ٩٢ وما بعدها ، القاهرة ١٩٨٢ م .

٢- أنظر ص ٨٣-٨٥ من هذا البحث .

مساندتكم لأننا نكون معكم اليوم جسما واحدا" (١) .

لقد كان الصراع عاتيا وعنيفا بين القوات العثمانية من جانب وبين القوات الصليبية الأوربية من جانب آخر ، وقد حمل " الأسطول العثماني راية الجهاد البحرى الدينى الإسلامى ، ضد تكتلات بحرية صليبية أوربية عاتية سواء فى حوض البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأسود أو المحيط الهندى أو منطقة الخليج العربى ، ودافع عن الإسلام وأمن الحدود الجنوبية والشرقية للولايات العربية فى آسيا من الغزو الصليبي البرتغالى بوجه خاص "

وابتداء من الثلاثينات فى القرن السادس عشر ، ظهر الأسطول العثمانى قوة ضاربة عملاقة فى مناطق متعددة من الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط : فى جنوبى ايطاليا وصقلية وجنوبى فرنسا وسواحل اسبانيا بالإضافة إلى أقاليم الجزائر وتونس وطرابلس ، وقد مثل نشاط الأسطول العثماني انعكاسا لسياسة الدولة على عهد السلطان سليمان القانونى التى استهدفت مزيدا من التعاون بين الدولة العثمانية وفرنسا المتحالفة معها ، فقد أصبح فى مقدور الدولة العثمانية أن تتغلغل بأسطولها وأن تتخذ وحداتها من الموانى الفرنسية قواعد تحتوى بها ، وأن تهاجم ممتلكات الأمبراطور "شارل الخامس" فى إيطاليا وأسبانيا ، بهدف تخفيف الضغط على القوات الفرنسية فى حربها ضد الإمبراطور ، كذلك ساعدت انتصارات العثمانيين فى غربى البحر الأبيض المتوسط على انقاذ افريقية من الغزو الصليبي ، ودخول الأقاليم الإسلامية المذكورة آنفا تحت النفوذ العثماني .

وقد أسفر التعاون العثماني الفرنسي عن الإستيلاء على بعض

1- Marmol : op. cit. p.318.

الموانى المهمة ، وتطهير المنطقة الواقعة فى منتصف حوض البحر الابيض المتوسط من السفن الأسبانية ، وفى سبتمبر سنة ١٥٤٣ حدث أمر فريد وهو تحول ميناء طولون - الميناء الحربى لفرنسا فى حوض البحر المتوسط - إلى قاعدة حربية عثمانية إسلامية ، وهذا أمر بالغ الأهمية فقد كان الأسطول العثمانى يقوم بمهاجمة الأهداف العسكرية الأسبانية ، ولكنه كان فى حاجة إلى قاعدة يستند إليها فى عملياته ، فقامت الحكومة الفرنسية بإخلاء الشجر المشار إليه من جميع سكانه وحولته إلى قاعدة عسكرية للأسطول العثمانى ، وقضى خير الدين بربروس شتاء ١٥٤٣ - ١٥٤٤ فى هذه المدينة واستطاع أسر اربعة عشر ألف من قوات شارل الخامس وعامل الناس معاملة حسنة ، ولكن هذا التحالف بين السلطان المسلم وبين "فرانسوا الأول" ملك فرنسا لم يرق لدى الرأى العام الأوربى فأطلقوا عليه عبارة "الاتحاد المدنس بين فرنسا وبين الهلال " .

ورغم أن خير الدين بربروس اعتزل حياة البحر بعد معركة"طولون " فإن الأسطول العثمانى واصل انتصاراته واستولى على العديد من الموانى فى مواقع مختلفة ، إلى أن كانت موقعة " لبانت " التى تعرض فيها الأسطول العثمانى لهزيمة مريرة على عهد السلطان سليم الأول سنة ١٥٧١ وهكذا قامت قوات الدولة العثمانية ، وبرهنت على وجودها وابتشرت أخبار انتصاراتها واتجهت إليها حشود المسلمين فى أسبانيا وغيرها تطلب نجاتها وانقاذها ، وخشيت السلطات الأسبانية آثار ونتائج الإتصال بين المسلمين فيها وبين الدولة العثمانية ، فصبت جام غضبها على المسلمين المنصرين (١) .

١- أنظر : عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ من ص ٨٨٧ إلى ٩٠٤ ، القاهرة ١٩٨٦ م .

وقد درس " اندريو هيث " Andrew C. Hess قضية العلاقات بين المورسكيين وبين الدولة العثمانية ، معتمدا على مصادر تركية لأول مرة (١) ، وبالبحث فى السجلات أو فى دور المحفوظات لم يجد ما يدل على أن الثوار قد طلبوا مساعدة الحكومة التركية ، لكن هناك بعض القرارات التى تشير إلى اهتمام السلطان العثمانى سليمان القانونى بهذه القضية ، وقد كتب مرة إلى المورسكيين يقول :

" لقد علمت أن عندكم عشرين ألف رجل يحملون السلاح ، وأن هناك ١٠٠ ألف آخرون ليس لديهم أسلحة ، وإنه بوصول الأسلحة من الجزائر امتلأوا ثقة وارتفعت معنوياتهم وسببوا هزائم كثيرة للمسيحيين الأشرار " (٣).

وقد فكر السلطان العثمانى فى تقديم المساعدة بصورة مباشرة بمجرد أن ينتهى من فتح قبرص ، وقد أكد لهم - ضمن أشياء أخرى - أن عونه لهم من خلال الجزائر سوف يستمر ، ويؤكد " هيث " أن السلطان العثمانى لم يحاول فقط استخدام الطابور الخامس المورسكى بل وضد أسبانيا وضد البروتستانت أيضا (٣) .

(١) هذه الدراسة بعنوان :

The Moriscos:anottoman fifth column XVI century Spain

وقد نشرت فى مجلة :

"The American Historical Review"(LXXIV)1968, PP.1-25

2- Andrew C.Hess: the moriscos: an ottoman Fifth column, P. 14'

ويقول :

" أن السلطان سليم الثانى قد تلقى معلومات عن ثورة غرناطة قبل ربيع عام ١٥٧٠ وأن حاكم الجزائر - لا ندرى بأمر السلطان أو ببادرة منه قام بإرسال أسلحة ومعدات للثورة " أنظر ص ١٥ و١٦ و١٨ و ٢٠ من البحث المذكور " .

ومع ذلك فإن المساعدة المؤثرة التي تلقاها المورسكيون كانت محدودة وبالتأكيد كانت هناك مشاكل بين جانبي البحر الأبيض المتوسط ، مثلا في أغسطس سنة ١٥٦٩ أرسل " الهوس ثين " ٤٠٠ جندي نزلوا على الشواطئ الأندلسية ، وفي ربيع سنة ١٥٧٠ عثر على أربعة آلاف جندي من الأتراك والمغاربة بين ٢٥ ألف مقاتل ، وفي يونيو جاءت قوات أخري ، لكن اعترض طريقها وأخذوا جميعا أسرى ، ومن ناحية أخري يحدثنا " اسكولانو " عن تدخل المورسكيين البلنسيين وعن ثورة قرية بهذا الإقليم في مارس سنة ١٥٧٠ (١) ، لكن هذا كله يعتبر شيئا قليلا إذا قورن بالإحتمالات التي كان يجب أن يتلقاها الثائرون الغرناطيون القائمون بانتفاضة جماهيرية من جانب اخوانهم في الدين الذين تدعمهم امكانيات أو قوات بحرية مهمة ، كل ذلك في فترة شغلت فيها القوات الأسبانية بمعاركها في ايطاليا وفي فنلندا ، وقد ادرك المورسكيون الغرناطيون أن المساعدة التي يتلقونها غير كافية ، وشكوا من ذلك بلا ريب ، وقد أجاب " اولادج على " حاكم الجزائر ابن عبو (مولاي عبد الله) قائلا " أما ما يقال من أننا لم نضعفكم ؛ لأن المدن عندنا سكانها قليلون ، فأنا أقسم بالله أنني ما عرفت أن ذلك قد قيل . . . " (٢)

وهنا لا بد من بحث الأسباب التي جعلت المورسكيين لا يتلقون مساعدة فعالة من أخوانهم المسلمين خارج البلاد الأسبانية . فيما يتعلق

1- Escolano: Decada primera de la historia de ... Valencia, II col. 1775 (Cit. por Garcia Martinez Bandolerismo, pirateria y control de moriscos en Valencia durante el reinado de Felipe II .

"Estudis" 1972,p.123

B. Vincent. Ibid, P.49.

2- Marmol : Ibid,p.318

وانظر :

بالاتراك ، مرّ بنا أنهم كانوا مشغولين بفتح قبرص فقد تم ارسال حملة بقيادة ستان باشا سنة ١٥٧٠ لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن ، وفى العام التالى ١٥٧١ أرسلت حملة لفتح جزيرة قبرص وانتزاعها من جمهورية البندقية ، فوق أن الدولة العثمانية تعرضت لكارثة فقد أسطولها فى معركة لبانت سنة ١٥٧١ (١) ، بالإضافة إلى انشغال الأتراك بالقضايا التى كانت معلقة مع روسيا ، وقد تم فتح قبرص فى خريف عام ١٥٧٠ ، وكان الوقت قد أصبح متأخرا فيما يتعلق بنجدة المورسكيين ، وفى العام التالى ، جرت موقعة " لبيانت " Lepanto ، وأصبحت تركيا شيئا فشيئا لا تهتم بأحداث غربى البحر الأبيض المتوسط ، ثم توصلت إلى هدنة ضمنية مع فليب الثانى (٢) . ذلك أن هزيمة الأسطول العثماني على عهد السلطان سليم الثانى فى هذه الموقعة كان بمثابة كارثة وكان عدد وحدات الأسطول العثماني ٣٠٠ بينما كان سفن الأعداء ٢٥٠ ، ولم تستمر المعركة أكثر من ثلاث ساعات فى السابع من أكتوبر عام ١٥٧١ ، ورغم أن خسائر الأوربيين فى العتاد والأرواح كانت جسيمة ، إلا أن غالبية وحدات الأسطول العثماني قد تحطمت ولم يتمكن من الفرار إلا ١٣ سفينة وقتل وغرق عدد كبير من قادته وبحارته المدربين وضباطه المتمرسين فى شئون الملاحة والقتال البحرى منهم القبطان باشا وبعض البشوات والبهكوات وحكام بعض الأقاليم وعشرين ألفا من الأفراد ، ولم تتمكن الدولة من تعويض خسارتها إلا بعد ذلك بسنوات ، وقد أسمت الدولة تلك المعركة باسم " معركة الأسطول الذى غرق " وتعرف فى المصادر باسم " لبانت " ، لأنها دارت فى المنطقة الواقعة بين خليج لبانت وخليج

١- أنظر تفصيل ذلك عند : عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية ... ج ٢ ص ٩٢٥-٩٢٧ .
2- Braudel: op. cit. tomo II, P. 365 y ss

باتراس ، وليانت حاليا ثغر يوناني ، وكان من أسباب هزيمة البحرية العثمانية أنها واجهت تحالفا رهيبا من البابوية وأسبانيا والبنديقية وتوسكانيا وجنوه وفلورانس وسافوى وماتشو وبارما وفرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة وكان البابا بيوس الخامس هو المحرك والمخطط لهذه المعركة (١) .

ثم وقع مراد الثالث عدة معاهدات مع أسبانيا ، ضمنت له التفرغ لمواجهة الصفويين فى إيران (٢) أما " أولادج على " صاحب الجزائر ، فقد اهتم فى أكتوبر سنة ١٥٦٩ بصنع وتجميع الأسطول الذى سمح له بالسيطرة على تونس سنة ١٥٧٠ .

باختصار لقد فضل الحلفاء الرئيسيون للمورسكيين استغلال اللحظات الحرجة بالنسبة لأسبانيا ، وعملوا لصالحهم الخاص وتحقيق أهدافهم هم ، بل إن بعض المؤرخين يقول : " إن " أولادج على " منع المتطوعين الذين رغبوا فى الذهاب إلى الأندلس ؛ ليستخدمهم فى تحقيق أغراضه فى تونس ، ولم يسمح بالإبحار لمملكة غرناطة إلا لمقاتلين من النوع المتوسط (٣) ، ومع ذلك فقد قامت القوات التركية وقوات الشمال الأفريقي بدور لا يستهان به فى الدفاع عن " عنوس " القبطان التركى ، وحارب " الكوسالى " بشجاعة حتى الموت ، وهناك زعماء آخرون تدخلوا فى اللحظات الحاسمة مثل "حوسثين ، وكاراكاس ونبيل وعلى و محمد" ، لقد عملوا على اغتيال " ابن أمية " فى أكتوبر ١٥٦٩ ، وأقنعوا ابن عبو

١- أنظر : الشناوى الدولة العثمانية ج ٢ ص ٨٩٦-٨٩٩ ، وكذلك :

-Jamil M. Abu nasr: A history of the Maghrib in the Islamic period, P. 169 , 214 .

2- Andrew C. Hess: the moriscos ... P. 22

3- Beraudel: op.cit. tomo 2 P.365 y ss

(مولاي عبد الله) فى يونيو سنة ١٥٧٠ بوجوب مواصلة استمرار الثورة وأيدوا استمرار المقاومة مهما كلف الأمر ، وهذا ربما يخدم مصالح الجزائر أو القسطنطينية أو هما معاً .

أما عذوف المورسكيين فى مملكة " اراجون " عن مناصرة إخوانهم فى غرناطة ، فإنه يبدو أمراً غريباً للوهلة الأولى ، لكن يبدو أن الإنشاقات العديدة فى الوطن المورسكى ، كانت وراء ذلك ، كما كان المورسكيون فى منطقة بلنسية منزوعى السلاح منذ عام ١٥٦٣ ، وكانوا يتعرضون للرقابة عن قرب كما هو الحال مع مورسكى اراجون ، ويشير لـ " جاريثا كارثل " فى بحث تقدم به إلى المؤتمر الأول لتاريخ الأندلس ، أنه أقيم " عزل صحى " عزل بين الغرناطيين والبلنسيين ، لقد أدرك هؤلاء أنهم سيشترون فى حرب لا يمكن تحقيق نصر فيها ، ووعوا أن أسبانيا التى يمكن إعادة فتحها باسم الإسلام أصبحت وهماً ، وقد تنبه المورسكيون الغرناطيون من جانبهم أن التضامن الإسلامى له حدود (١) .

مهما يكن من أمر ، فقد تم تجميع المورسكيين من كل القرى فى مملكة غرناطة ، وتم حشدهم فى سفينة كبيرة بهدف نفيهم إلى مناطق أخرى وكان ذلك فى نوفمبر سنة ١٥٧٠ ، ويرجع التفكير فى هذا الأمر إلى سنوات ماضيات ، وتقرر منذ مارس ١٥٧٠ ، وهو الآن فى دور التنفيذ ولم يتم ابعاد المورسكيين الذين اشتركوا فى الثورة وحملوا السلاح فحسب بل وأيضا الذين كان يطلق عليهم لقب " مورسكيو السلام " أى الذين لم يشتركوا فى الثورة ، وقد رثى أن هذه هى الوسيلة الوحيدة المؤثرة لوضع حد للثورة ، وعزل الذين رفضوا الهزيمة واختبأوا فى شعاب الجبال بهدف مواصلة القتال .

1- B. Vincent: Ibid, p.50

وكان هذا الإجراء سببا فى امتعاض وكآبة من عاشوا مطيعين خانعين وقد عارض هذه الفكرة الماركيز دى موندخير ضمن آخرين بما فى ذلك بعض المطارنة ورجال الدين ، وكانوا يتساءلون : كيف يمكن اخلاء المملكة من هؤلاء السكان فتضيع الثمار والفواكه وهى ملك لهذه الأمة ؟ ! إن هؤلاء يعيشون بين سلاسل الجبال ويقتاتون بالقليل جدا ، بينما لا يستطيع المسيحيون أداء اعمالهم أو الحلول محلهم (١) .

وعلى كل حال فقد تم تقسيم مملكة غرناطة إلى سبعة مناطق ، وأوكل إلى عدد من المسئولين فى كل منطقة - بمعونة المأمورين - القيام بمهمة جمع المورسكيين من القرى المختلفة إلى مراكز التجمع فى (روندا ومالقة وغرناطة وقادش وبازا وبيرا وألمرية) ، وكان على كل مسئول أن يجمع السكان من عشرة من القرى .

وقد استغرقت هذه المرحلة الأخيرة اسبوعا واحدا ، وتمكن بعض المورسكيين من الإختفاء وهرب آخرون ، وتمكن فريق ثالث من مقاومة استفزازات القوات المسيحية ، ومع ذلك أمكن تجميع أكثر من ٥٠ ألف شخص فى الأماكن المذكورة تم حشدهم داخل المستشفيات والكنائس وكان توزيع هؤلاء كما يلى :

خمسة آلاف تم تجميعهم فى "مالقة ورنده" ، ١٢ ألف فى "غرناطة" ، ١٢ ألف فى "قادش" ، وستة آلاف فى "بيرا" ، ٨٥٠٠ فى "المرية" ، يضاف لهؤلاء ٤٣٥٠٠ من "بازا" ، بينهم ٢٤٠٠ شخص تزيد أعمارهم عن ١٤ سنة وتقل عن ٦٠ ، يرافقهم عدد كبير من النساء والشيوخ والأطفال ، وقد تجاوز مجموعهم ال ٥٠ ألفا ، وهو الرقم الذى قدمه الوكلاء المسئولون عن

1- J. caro Baroja: los moriscos ... P. 203

النفى ، فقد كتب واحد منهم يقول أن أكثر من ٥٠ ألف مورسكى قد تم ارسالهم إلى قشتالة . وكييل آخر يذكر فى رسالة بعث بها إلى الكاردينال يقول فيها : إن تقريرا يذكر أن المسلمين الذين أخرجوا من هذه المملكة هذه المرة أكثر من ٣٥ ألف نسمة ، وهذا الرقم تقريبي ، فقد عرفنا بعد هذا أنه خرج - بالإضافة إلى هؤلاء - أحد عشر ألف آخرين عن طريق نهر المنصورة ، ومفهوم من هذا أن عدد من خرج من المملكة ٥٠ ألف نسمة تقريبا " وتلك هى المرحلة الأولى لإخراج المورسكيين من مملكة غرناطة (١)

أما المرحلة الثانية فهى عبارة عن السير فى طريق طويل باتجاه الشمال أو الغرب ، لقد كان كل شىء معداً ، وقد قسم المورسكيون إلى مجموعات كل منها تتكون من ١٥٠٠ شخص يتبعهم ٢٠٠ من الجنود و ٢٠ من الفرسان ، وكان على كل مجموعة أن تسير مسافة ٢٠ كيلو متر يوميا ، وتتبع المجموعة صفوف من العربات تحمل الأمتعة وما يمتلكه هؤلاء المطرودون ، أما المؤونة فكانت مضمونة حيث كانت توزع وجبتان يوميا أحدهما خفيفة فى الصباح والأخرى فى المساء فى نهاية الرحلة اليومية ، وكانت قيمتها الغذائية أكثر ، وقد تلقى المشرفون تعليمات استخدام الكلمات الطيبة مع المورسكيين قبل ترحيلهم ، بل قيل لهم : دعهم يبالبون فى الأحلام والأمانى الكاذبة ، هذا مايستشف من الأوامر المعطاة لمندوب " بازا " ، وقد حاول من لم يشوروا أن يعاملوا معاملة خاصة ولكن لم يستجب لهم (٢) .

1- Archivo del instituto de valencia de don juan , Madrid
envio 62, P. 466, documento del 14 - XI - 1570

B. Vincent: Ibid, P. 51.'

2- J. caro. baroja: los moriscos ... P. 204'.

نقلا عن
وأنظر فيه ذكر لأسماء قادة المجموعات

وقد برر اخراج المورسكيين بجذب مملكة غرناطة وعدم توافر المحاصيل بها ، وبأن الحياة بها أصبحت مستحيلة بسبب الحروب المتواصلة وما ترتب عليها ، وهذا هو السبب فى أن الملك قد اتخذ قراره بأن يخرج المسيحيون الجدد من هذه المملكة ويحملون إلى " قشتالة " والمحافظات الأخرى حيث تتوافر المحاصيل ولا يتعرض الناس لمعاناة بسبب الحروب ، وحيث توجد المؤن والزاد بصورة مريحة تغطى حاجات الناس لهذا العام ، وقد يُبَيّن لهم أنه يمكن أن يعودوا مستقبلا إلى منازلهم ، بل ولهم أن يحملوا معهم كل ممتلكاتهم المنقولة دون ترك شىء منها ، والخلاصة أنه ينبغي أن نريحهم عن طريق الكلمات الطيبة التى نعرفها ، وفى الواقع فإن الخطة المبدئية لنقل المجموعات التى كان مقررا أن تتجه نحو " البيثيتى واشبيلية " لم تنفذ ، لأن الأحوال الجوية حالت دون الإنتقالات ، فقد هبت عاصفة من البحر الأبيض المتوسط تعذر معها السير وهطلت سحب وأمطار غزيرة حالت دون نقل المؤن والزاد على طول الطريق إلى " البيثيتى " ، وكان على المورسكيين أن يسيروا فى ظل أوضاع فى غاية الصعوبة وعلى مدار أسابيع عديدة حتى استوجب الأمر تأثر وشفقة الوكلاء المسئولين انفسهم عن تنفيذ قرار الطرد هذا ، وأنها لمعروفة تلك الوثيقة المعبرة التى كتبها " دون خوان دي استوريا " ويمكن ذكر أخرى مثل شهادة " خيرونمو دى قونتس " التى كتبها إلى الكاردينال : " إنه من المؤلم جدا أن ترى أعدادا غفيرة من الأطفال الرضع ومن النساء ، وأن ترى التعاسة والتكبة التى تعرضوا لها والتى لا يمكن أن تنتهى ولأن الجو ردىء وأعدادهم كثيرة ، والأخطار عديدة ، فإنه من غير الممكن اتخاذ اجراءات وقائية للجميع " (١) .

1- Archivo del in stituto de valencia ... envio 1, P. 49

B. Vincent : Historia de los moriscos, P. 52.

وأياما كان الأمر فقد وحصل فى النهاية إلى اشبيلية ٥٥٠٠ وإلى " البيثنتى " ٢١ ألف وإلى قرطبة ١٢ ألف وإلى طليطلة ستة آلاف ، وكان هذا يمثل ، بالنسبة لكثيرين ، نهاية مرحلة من مراحل تهجيرهم بالعنف من أوطانهم ، فقد كانت السلطات الأسبانية تنوى توزيعهم بين القرى التابعة للأقاليم أو المدن المذكورة ، بهدف التفريق بينهم إلى أقصى حد ممكن وعدم تركهم يتركزون فى مكان واحد ، وقد واصل سبعة آلاف من هؤلاء الذين تجمعوا فى قرطبة ، طريقهم نحو " استريما دورا " وذهب ٧٥٠٠ من " البثنتى " إلى " جوادا لاخارا " (وادى الحجارة) وإلى طليطلة أو طلبيره دى لارينا ، وغادر ستة آلاف طليطلة ، متجهين ناحية " سيجويا " و " بلد الوليد " و " بلنسية Palencia و " سلمنقه " ، ثم كان على هؤلاء أن ينتظروا توزيعهم على قرى الأقاليم المشار إليها ، وقد انتهت هذه العملية فى ديسمبر ، واستغرقت شهرين من النفى والإبعاد المريع (١) .

وينبغى أن نشير إلى أن المورسكيين الذين طردوا أثناء القتال كانوا يقطنون قرى فى الممالك القديمة باشبيلية وقرطبة وجيان ، والذين خرجوا بعد ذلك أقاموا فى المناطق الشمالية وفقاً لتوزيع منظم ، فمن كانوا يعيشون فى غرناطة وغوطةها ووادى " لثرين " وسلسلة جبال " بنتوميث " و " لاخاريا " ومنخفض مالقه وجبال رده وماريباً يعنى فى القسم الغربى من

١- درس " برنارد بيشى " طرد المورسكيين الغرناطين وتوزيعهم فى قشتالة دراسة دقيقة فى كتاب بالفرنسية عنوانه : Le expulsion des morisques du Royaume de Granada et leur repartition en castilla (1570 - 1571) en melanges de la caso de velazquez, VI, paris 1970 PP. 211 - 246

وتؤكد هذه الدراسة كل ما ذكره مارمول قديما تقريبا وإن وجد الجديد فيما يتعلق بأماكن الخروج وعدد وتوزيع المنفيين وطرق الهجرة (نوفمبر / ديسمبر ١٥٧٠) وانعكس ذلك فى خريطين لذلك النفى الذى ضاعت فيه أرواح كثيرة بسبب عدوى التيفوس وإنظر : J.C. Baroja : les moriscos . . P. 201 .

المملكة كان عليهم أن يخرجوا فى اتجاه قرطبة ، ثم يوزعون بعد ذلك من
اكستريما دورا إلى جالينا فى منطقة الغرب .

والذين قدموا من قادش وبازا وحوض نهر المنصورة والأجزاء الجنوبية
البعيدة والمناطق المأهولة فى " منشا " كان عليهم أن يذهبوا إلى مملكة
" طليطلة وقشتالة" القديمة بما فى ذلك " ليون " ، والقادمون من "المرية"
ونواحيها يبحرون فى سفن كبيرة من " دون سانشو دى لييبا " إلى اشبيلية
حيث يتم توزيعهم بعناية بحيث لا يسمح لأحد أن يستوطن لا فى مملكة
مرسية ولا فى ماركيزية " بيتا " ولا فى أية أماكن قريبة من مملكة بلنسية
التي يعيش فيها مورسكيون منذ القدم . ونفس الشيء تم فى الأندلس
الشرقى . ويرغم كل هذا فقد بقى فى غرناطة عدد كبير من المورسكيين .
" مارمول " نفسه يذكر أنه تكلم مع مورسكى عندما كان هناك سنة ١٥٧١
وأنه أطلعته على وثيقة تتعلق بأجداده ، كذلك يلفت " سباديرا " النظر إلى
مخطوط مورسكى يشير إلى معاهدة من المحتمل أن تكون قد تمت هناك
عام ١٥٧٤ (١)

وقد تعلق البعض للبقاء بأنه من المسيحيين القداماء ، وزعم آخرون
أنهم كانوا مدجنين ، وطلب فريق ثالث البقاء لتصفية أعماله التجارية ،
ومعروف أنه عاد فى سنة ١٥٨٢ مورسكيون كثيرون إلى غرناطة وعاشوا
مع ٥٠٠ أو ٦٠٠ أسرة من المدجنين ممن لم يتركوا المدينة قط ، وقد أفرغ
هؤلاء السلطات يوما عندما رأوهم يتحدثون فى الشوارع والبيادين عن
مشروعات ومؤامرات ينوى المورسكيون فى " بلنسية واراجون " القيام
بها ، وكان لهؤلاء محالفات وتعاقبات معهم (٢) .

1- J. C. Baroja: los moriscos ... P. 204 , 205

Saavadera : P. 251 (Num XVII).

٢- أنظر المرجع السابق لخوليو كارو باروخا ص ٢٠٦ . ٢٠٧ .

المصادر الأصلية للمورسكيين الذين استقروا فى مواطن مختلفة من

قشتالة (١) :

البائنتى سنشيبًا :

قادش - ماركيزية دى لوس بيليث - يورشيينا - بازا - أويسكر -
أوجيخر . قلعة دى اينارس (قلعة عبد السلام) :

بازا - كانيلاس

القنطرة :

الموخيا

الكاراز :

انتاس - أوهانيز - تيخولا .

الكاثار (قصر) - سان خوان - كونوجرا :

ماركيزية الثينيتى - بنا موارل

الماجرو - مانشانارس :

ماركيزية دل ثينيتى

بالدينياس :

١ . أنظر فى ذلك بحث " برنارد بننتى " عن طرد مورسكى غرناطة وإعادة توزيعهم فى قشتالة ،
المنشور باللغة الفرنسية والسابق الإشارة إليه .

تَبِيرَا (أرض) قَادَش

كَاثِيرِس :

فِيرِيرَا - أَوْرَجِيْفَا

كَاْرْمُونَا :

غْرِنَاطَة - غُوْطَة غْرِنَاطَة - الْبُوخَاْرَاكْس - نَهْر الْمَنْصُوْرَة - سَاْرِيَاَس
- بِيْدَاْر - لُوْبْرِن - تُوْرُوْس - كَاِيْنَاَس دِي اَثِيْتُونَا - كُوْمَاْرِس .

أَثِيخَا - اَيْسْتِيَا - أُوْسُونَا :

كَاَسَاْرَا بُوْنِيْلَا - غْرِنَاطَة - سْرَاْنِيَا دِي رُوْنْدَا - تُوْلُوْس - مُوْنْدَا -
كُوْكَارُو .

جُوَاد الْكِنَال (وَاْدِي الْقَنَاة) :

اَزْنَاثِي

جُوَادَا لَخَاْرَا (وَاْدِي الْحَجَاْرَة) زُوْرْتِيَا :

مَارْكِيْزِيَة دَلْثْنِيْتِي .

خَاِيْن (جِيَاْن) :

غْرِنَاطَة - الْبُوخَاْرَاكْس - قَادَش - رُوْنْدَا .

لُوْرَكَا :

أُوَيْسْكَار

مارتوس :

كنتنار دى لاأوردت :

ماركيزية دى لوس فيليث .

سيجورا دى ليون :

أويا دى ماجه .

سيجوبيا :

قادش - تيرا (أرض) قادش .

اشبيلية :

الميرية .

تيمبلوكى :

السالار .

طليطلة :

تيرا دى قادش (أرض قادش) - البوخاراس - ماركيزية دلثنيتى

أوكليس ويتى :

نهر المنصورة .

قشتالة القديمة :

غرناطة ، غومطة غرناطة - مَوْتِرْل - تَرِبِيلِيز .

وقبل أن تتخذ السلطات اجراء الطرد العام هذا ، فإنها كانت قد قامت بطرد جزئى يهدف إلى تيسر العمليات العسكرية فى بعض القطاعات فطرده نوفمبر سنة ١٥٧٠ لم يكن الوحيد الذى عانى منه المورسكيون ، لكنه كان أكثرها أهمية ، لأنه الطرد الرئيسى ، ومن ناحية أخرى فإن المورسكيين الذين بقوا مختفين أو متمردين بعد نوفمبر سنة ١٥٧٠ فى أراضي مملكة غرناطة ، قد تم البحث عنهم وألقى القبض عليهم وارسل بهم فى إتجاه الشمال .

والآن ترى ما حجم الفوائد أو المزايا التى قدمها هذا الطرد الجزئى ؟

قبل كل شئ لا بد من تقديم إحصائيات ، وقد قام "ماريو كاراباخال " بذكر ما يتعلق بحى البيازين بغرناطه فى يونيو سنة ١٥٦٩ ، وما يتعلق "بأويسكرا" فى نوفمبر من نفس العام ، وما يتصل "بالبورجى وكوتار وكومارس وبينامارجوس وغوطة غرناطة" فى مارس ١٥٧٠ ، أما "تولوس وموندا" فقد قدم احصاء عنها فى مايو ١٥٧٠

ونستطيع أن نلمس من هذه الاحصاءات أن الطرد قد شمل قطاعا هاما منها ، وليس مجموع السكان فى الأماكن المذكورة ، فقد استثنى البعض ، وتمكن البعض الآخر من الهرب، وقد تم إلقاء القبض على بعض الشخصيات فى "مالقة" لأنهم أخفوا مورسكيين من " تولوس وجوارو " وفى نوفمبر سنة ١٥٧٠ كان قد بقى بضعة آلاف و١٦٥ فردا فى " كومارس " - ولا ريب - فى حى البيازين ، وكانت السلطات تدرك أن

الإجراءات لم تطبق بصورة كاملة ، ومع ذلك فقد كانوا سعداء بما حصلوا عليه ، معتبرين أنفسهم قد حققوا شيئا ملموساً ، هذا ما عبر عنه " بدرو لويث دي ميسا " فى رسالة إلى الكاردينال معلقا على طرد يونيو ١٥٦٩ :

" الذين يوجدون فى السجن يمكن أن يكونوا أربعة آلاف ، وإذا استبعدنا الأطفال والشيوخ فإن كثيرين غابوا وآخرين اختفوا ، ومع هذا فنحن قانعون ، لأن اخراج أربعة آلاف من الأعداء الأساسيين فى غرناطة سيكون له تأثير كبير جدا ؛ إذ أنهم سيخرجون ويتركون نساءهم وأبناءهم ومساكنهم رهينة . . . " (١)

ورغم أن تدوين عمليات الخروج أمر غير مألوف فى حينه تقريبا ، إلا أن " بدرو لويث دي ميسا " ترك لنا وصفاً لإحدى عمليات الخروج التى جرت فى ديسمبر سنة ١٥٦٩ قال فيه "

" لقد أرسل إلى " السيد خوان دي استوريا " أن اخبس كل المورسكيين الذين بقوا بهذه المملكة فى أربعة كنانس ، تمهيدا لإخراجهم ، وقد حبسنا ٢٨٠٠ شخص ، أرسلنا للخارج أكثر من نصفهم ، وبقي الآخرون لكبير سنهم ومرضهم ، فقط استبقينا ١٥٠ من الرسميين بين خبازين وفرانين وحدادين ومهن أخرى ، وبقي البعض للتجارة ، والبعض كى يتصرفوا فى محلاتهم وممتلكاتهم المنقولة ، وقد منحوا لهذا الغرض خمسة عشر يوما ، وكلهم بدأ يتصرف فى ممتلكاته كى يغادر وفى كل يوم يذهبون . . . " (٢)

1- Archivo de la casa de Medinaceli (Sevilla) Marquesado de camares.

B. Vincent: historia de los moriscos, P. 55 . نقلا عن

2- Archivo del instituto de valencia de Don Juan Madrid, envio 1 , P. 68

Bernard Vincent : Ibid ,p.55

وبالإضافة إلى طرد الغرناطيين في ديسمبر سنة ١٥٦٩ ، فقد تم طرد سكان كهوف المنصورة في فبراير ١٥٧٠ ، وسكان يازا في مايو ، وسكان غرناطة نفسها ، ربما في يوليو ، وقد وجدت أقلية منهم في معسكر " موتيل " ، بينما توجه القسم الأكبر نحو الأندلس الغربي .

وإجمالي عدد من طرد من غرناطة يمكن أن يكون قريبا من ٢٠ ألف ما بين أربعة إلى خمسة آلاف طردوا من مدينة غرناطة في يونيو سنة ١٥٦٩ ، وأكثر من ألفين ما بين ديسمبر ويناير سنة ١٥٧٠ ، ومن خمسة إلى ستة آلاف من غوطة غرناطة في مارس سنة ١٥٧٠ ، وألف من كل من تولوس وموندا وجواروا - بدون عد النساء - في مايو سنة ١٥٧٠ ، وبصفة عامة يمكن أن يقال أنه قد تم التخلص من الرجال بعد تهجير النساء والأطفال ، ولهذا يمكن أن ينظر إلى الرقم ٢٠ ألف باعتباره الحد الأدنى أكثر من اعتباره الحد الأقصى .

أما موجة الطرد الثالثة والأخيرة في هذه المرحلة ، فقد بدأت عام ١٥٧٠ ، وكانت أكثرها تعقيدا ، ومن الصعب أن نعرف على وجه اليقين ما إذا كان ضحاياها من المجموعة التي بقيت في قراها الأصلية ؟ أم أنهم من المقاومين يعناد ممن أسروا في تاريخ متأخر ؟ أم هم من المسلمين الذين عادوا إلى أراضيهم بصورة سرية بعد إخراجهم ؟

على كل حال ، مجموعة كبيرة من هؤلاء ينتمون إلى أماكن اقطاع ، وقد حاول رجال الإقطاع المحافظة على رعاياهم في أحوال كثيرة ، وجرت بينهم وبين الملك مفاوضات في هذا الخصوص حصلوا بعدها على ما أرادوا ، وهناك أصحاب اقطاع في قشتالة ضموا إليهم مورسكيين ممن طردوا من غرناطة وقد أقام هؤلاء مع سادتهم ، ومن المعروف أن ٣٥٠٠ مورسكى

قد توجهوا إلى قشتالة في ديسمبر سنة ١٥٧٠ ، كما توجه إليها آخرون بعد ذلك التاريخ ، وقد وصل ٥١ مورسكى من ماركيزية " بيليث " إلى طليطلة في أبريل سنة ١٥٧٤ وتحولت هذه المدينة إلى مركز لاستقبال المسلمين الغرناطيين ، وقد استقبلت منهم مجموعة قوية في يونيو ١٥٧١ وقدم إليها ٧٤ من ألمرية في نوفمبر ١٥٧٢ ، ٧٢ مورسكى من "بورشينا ومورتبيل" في فبراير ١٥٧٣ ، ١١ من المونيكار ومورتيل في اغسطس من نفس العام ، وهكذا فإن عدد ضحايا الطرد في المرحلة التالية لنوفمبر ١٥٧٠ يجب أن يرتفع عن خمسة آلاف بل ربما اقترب من عشرة آلاف .

ويمكن أن يقال أن مجموع من تأثروا بمراحل الطرد الثلاث يصل إلى ٨٠ ألف نسمة ، وهذا المجموع قريب جدا من الواقع ، وهو مستخرج من المجموع الكلى لإجمالى مراحل الطرد الثلاث ، فقد طرد في المرحلة الأولى ٢٠ ألف وفي الثانية ٥٠ ألف وفي الثالثة عشرة آلاف .

وهذه هي النتيجة الرئيسية التي ترتبت على الثورة الغرناطية ، وسيكون لها صدى واسع فى الحياة الأسبانية وفى الوجة النهائية لمجموع تلك الأقلية المورسكية . (١)

أما المناطق التى تركها المورسكيون فقد بدت آثار الإهمال عليها ، ومثّل فيها القحط والخراب لأن الدولة حاولت الحصول على أموال كثيرة منها ، فأجرت أراضيها ومنازلها بأسعار عالية جدا ، وحملت السكان الجدد ضرائب عينية ومالية أكثر من تلك التى تحملها المورسكيون .

١- أنظر فى ذلك كله : Bernard vincent : Historia de los moriscos PP. 39 - 56 .

وفي سنة ١٥٩٣ أقفرت المناطق المجاورة لـ " البوخارا " من السكان تقريبا ، ومن بقى عاش بانسأ ، واستمر التدهور على امتداد النصف الأول من القرن السابع عشر . لكن ماذا عن هؤلاء المنفيين فى أماكنهم أو مواطنهم الجديدة ؟

لقد صدر فى أكتوبر سنة ١٥٧٢ مرسوم ينظم حياة المسلمين هناك ، ويلزم القرى التى نزلوا فيها بأعداد سجل خاص بهم ، فيه إشارة إلى ملامحهم الخاصة وحالات الولادة والموت بينهم ، مع تنظيم دخولهم وخروجهم ، ومنح تصريحات مؤقتة لهم لممارسة التجارة والعقود ، وفرض عليهم أن يعيشوا فى مناطق خاصة بهم بين المسيحيين القدامى ، وفرضت عقوبات قاسية على من يحاولون العودة إلى بلادهم الأصلية أو من يحاولون مخالفة القوانين التى تحرم عليهم استخدام اللغة العربية والملابس والعادات والتقاليد الإسلامية واستخدام السلاح ، ومنح الأطفال والشباب عناية خاصة ، وفرض عليهم أن يعملوا فى مصانع المسيحيين ، وطولب هؤلاء بتربيتهم وفقاً لأسلوب الحياة المسيحية ، وقد ارتكبت تعسفات ومحكمات ضد هؤلاء الأطفال ، ويبيع الكثيرون منهم عبيدا بطريقة غير قانونية وغير مبررة . (١)

وقد غصت أراضى طليطلة خاصة بأناس من هذا الأصل المورسكى كما أشرنا ، وقد وصلوا حياتهم بنفس أسلوبهم محافظين على لغتهم ، برغم قوانين الحظر ، وكانوا يتكاثرون بشكل مخيف حسبما لاحظ المسئولون هناك عام ١٥٨٩ ، ولأن وجودهم أزعج السلطات ، فقد وجدنا

1- Julio caro baroja: los moriscos .. P. 206 .

من نصح بأن يعودوا إلى أراضيهم الأصلية ، وأن ينظموا مناطقهم
وينتظمون فيها بشروط قاسية جدا ، وقد وجدت هذه الفكرة مفيدة ومجدية
ليس بين السلطات الدينية في وسط أسبانيا فحسب ، بل بين الشخصيات
المهمة في غرناطة نفسها ، وإن عارضها البعض قائلا أنه :

" رغم المكاسب المادية التي يمكن أن نفيدها من العودة المورسكية ،
ورغم الإعتراف بأنهم فلاحون جيّدون ، فإنه يجب أن نضع في الإعتبار
المصالح الدينية والسياسية ، وأنهم سوف يشكّلون تهديداً " (١)

تلك هي الثورة الغرناطية ، أحداثها وتطورها ونتائجها ، فماذا عن
المسألة المورسكية بعد تلك الثورة ؟ هذا ما سنحاوله بإذن الله في الفصل
التالي .

1- Boronat y Barrachina: los moriscos españoles y su expulsión 1 , PP. 351 , 352
Valencia 1901'

وانظر أيضا : خوليو كارو باروخا : المرجع السابق ص ٢١٠ والمراجع المذكورة بها .

الفصل الثالث

العلاقات المتوترة بين

المسلمين والمسيحيين

١٥٧ - ١٥٩٨.

تشير أحداث سنة ١٥٧٠ إلى واحد من أفظع الجروح فى جنم المورسكيين ، وقد عدت هجرة هؤلاء وإعادة توزيعهم فى مناطق جديدة بالصورة السابق بيانها فى الفصل السابق ، عدلت من وضع المشكلة المورسكية ، ومن الآن فصاعدا ، يصبح المسلمون المنصرون فى مملكة "أراجون" هى المجموعة الأكثر من ناحية الحجم وهى التى سيتم التركيز عليها وستستقطب كل اهتمام السلطات الرسمية ، ولقد كان من النتائج الأساسية لتهجير هذا الشعب من موطنه الأصلية أن تفاقمت الخصومة بين الجماعتين الإسلامية والمسيحية فى مناطق واسعة من قشتالة ، كان قد استقر فيها مورسكيون منذ زمن بعيد ، كذلك برهنت الثورة الفزنابية على أن الموروثات كانت عميقة وأنه لم يكن من السهل إزالة الجروح بسهولة ، كذلك بينت أن التضامن الإسلامى يمكن أن يكون حقيقة قد تمثل تهديدا قويا ، وكان نوعاً من السيوف المسلطة على رءوس المسيحيين ، وأصبح كل مسيحي ينظر إلى أى مورسكيى باعتباره جاسوساً أو فراد فى " طابور خامس " يهدد أمن أسبانيا ومصالحها القومية .

فى ظل هذه الظروف كان يعتقد فى ضرورة حل المشكلة المورسكية حلا جذريا ، ولم يعد من المقبول فى الوقت الحاضر أن يتحدث أحد عن صهر الأقلية أو ذوبانها أو إستيعاب الأكثرية لها ، أو على الأقل لم يصادف من يتحدثون عن ذلك آذانا مصغية ، ولم يكن أمام السلطات إلا الحظر العام لكل أنواع الأسلحة أو حمل المسلمين على الذوبان فى الأكثرية باستخدام وسائل القهر والعنف ، أو طردهم طردا عاما من كل الأراضى الأسبانية ، وقد تغلب هذا الخيار الأخير - كما سترى - وعلينا الآن أن نتعرف على المبررات والوسائل التى قادت إليه .

لقد سيطر الرعب على المسيحيين ، فقد كان المورسكيون يتحركون

بحرية لم تحدث من قبل ، وكان طرد هؤلاء المسلمين المنصرين من مملكتهم الأصلية سببا في حركة دائبة ، فهناك من حاول جمع المشتتين من أسرهم ، وهناك من حاول العودة إلى أراضيهم الأصلية بصورة حماسية ، وهناك كثير من الأراجونيين والبلنسيين اجتازوا الشمال إلى الجنوب : أراضي مملكة أراجون ، وأسسوا شبكة للإتصالات القومية مع الممالك الإسلامية في العدو الأخرى ، ومع الأتراك ، وكذلك مع الفرنسيين والبروتستانت ، على رأسهم أمير " بيرنى " ، ولم تكن هناك خشية من مؤامرات مع العالم الإسلامي فحسب ، بل كان يخشى من تحالف كل أعداء الملك الكاثوليكي " فيليب الثاني " ، وكان يعتقد أن المسلمين المنصرين سيكونون العملاء الأساسيين لتحقيق هذه المهمة الواسعة ، وقد وصلت العاهل الأسباني تنبيهات من كل الأرجاء ، من نوع ذلك التنبيه الذى وجهه إليه اسقف طليطلة : " أتوسل إلى فخامتكم بكل تواضع أن تضعوا في الإعتبار احتمال وصول الأسطول التركى بقوة إلى بلادنا كما تعود أن يفعل ، إنه يوجد فى مملكة بلنسية وحدها ٥٠ ألف جندى مسلح ، يخلاف الموجودين فى غرناطة وأراجون من المورسكيين ، وسيلتقى هؤلاء جميعا فيما بعد ؛ لأنهم يعرفون كل الطرق والسبل ، وفى هذا مشقه على هذه الممالك التى ينقصها الفرسان والسلاح والرجال المتمرسون ، وكل هذا لايجهله المورسكيون ، وهو عندهم محسوب ومدروس جيدا ، وبانضمام الفرنسيين - اتباع كلفينوس - إليهم ، لازعاجنا مع الملحدين " البروتستانت " فإن العناء سيكون كبيراً " (١)

1- Archivo del instituta de valencia de Don Juan, Madrid envio 1,P. 138, Madrid 17—3 - 1582 .

نقلا عن :

B. Vincent: Historia de los mariscos ... P . 58'.

أو ذلك الذى وجهه رجال محاكم التفتيش فى سرقة :

إن هناك ترتيبا يعدون به للثورة ، ذلك أن " دون انطونيو من البرتغال " وأمير " أورنخى " بينهما وبين المسلمين المغاربة اتفاقيات من خلال بعض التجار البرتغاليين والمورسكيين الغرناطيين الذين يأتون إلى تلك الأراضى . وقد شوهد " الأمير دى بيرنى " مع ملك فرنسا وطلب منه الوفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه عندما تزوج أخته ، وهو أن يزوده برجال يسهلون له الإستيلاء على " نابارا ، وبينه وبين المورسكيين فى " أراجون " اتفاق يتضمن مساعدتهم له ، أما بالنسبة لمورسكى " بلنسية " فيجب عليهم إنتظار وصول الأسطول التركى الذى لا يعرفون من أين يأتى ، فقط يعرفون أنه لا بد أن يكون بالجزائر فى الحادى عشر من أغسطس ، وهناك اتفاق مع الفرنسيين ، يتضمن ادخال " القطران " عبر " روثيسن بيس " فى أوعية من الشحم ، ثم يحمل من هناك إلى المورسكيين فى " الكاريا " ليحرقوا به سفن ومراكب المسيحيين . . . " (١)

أساس هذه التنبيهات شائعات مختلفة راجت ، وسواء أكانت حقيقة أم خيالا ، جرت بصورة تلقائية أم جاءت عن طريق القوة ، إلا أنها أصبحت أشبه بمرض عقلى يعطى قيمة قوية لأحداث تافهة ، مثلا حداد مورسكى أخبر فى سنة ١٥٧٣ كلا من القسيس والمأمور القضائى فى محلته عن خطة تدبر للقيام بثورة عامة ، يقول : إن كل المورسكيين الذين أخرجوا من مملكة غرناطة يريدون المجيء والعودة إلى سلسلة الجبال التى

١- أنظر المصدر السابق P.144,15-3-1582.

إعتادا على مرجع برنارد بيثنى ص ٥٨ .

نشأوا فيها ، ويفكرون في القيام بهذا زمن الحصاد ، مجتازين " أراجون " إلى هناك أي إلى Alcarse مع من في هذه المملكة ، مصدر هذه الهمسات التي وصلت إلى المكاتب الرسمية محادثة بسيطة بين اثنين أو ثلاثة مورسكيين من إحدى القرى . (١)

وقد حدث رعب عند محققي محاكم التفتيش ببلنسية مرات عديدة في بدايات عام ١٥٨٢ سببه إجتماع عدد من البغالين في قرية أو قريتين . . هذه الأشياء - على ضعفها - تشكل خرافة المؤامرة التي أقلت العديدين حتى عندما بدا أن الملك فيليب الثاني لم يعرها كثيرا من الإهتمام ، لقد عاش البعض في كرب منتظراً أن يتحقق التهديد ، وانتظره آخرون معلماً على حريرتهم الحاسمة . والكل اعتقد في صحة النبؤات التي لن يتأخر انتشارها مثلما ينتشر البارود ، وهكذا في سنة ١٥٧٤ تنبأ تركي في أراجون " بالانتقام العاجل للمورسكيين (٢) .

في سنة ١٥٨٢ احتفل المورسكيون في مملكة " أراجون " بعودة مورسكيي كان قد سافر إلى تركيا عام ١٥٦٠ ، وعاد إلى بلده الأصلي ليتأكد من تحقق امارات التنبؤ بالإنهيار المسيحي ، وفقاً لنبوءة تقول " سيوجد شاب غير متناسق البنية يهمله الآخرون كثيرا ، يعيش

1- Archivo general de simancas, camara de castilla leg. . 2. 174'.

B. Vincent: Historia de los moriscos, P. 58' : نقلا عن :

2- Archivo historico nacional: leg . 4'. 529

ذكر ذلك :

cardaillac: Morsques et chretiens: un afferentement pole'mque
(1492 - 1640) Paris 1977, P. 51

وكذلك :

B. Vincent: Historia ... P. 59, Nota 5 .

خمسة أو ستة أشهر يتيما بدون أب ، يرأس المورسكيين فى هذه المملكة ويكون مظفرا جدا فى الحروب " وقد وصف أحد القشتاليين هذه الشخصية وذكر أن عدم تناسقها يتمثل فى أنها ذات زراع يشبه ذراعين ، وأنها كبيرة وضخمة ولها فى إحدى اليدين ستة أصابع " (١)

وخلال تحقيق قام به رجال محاكم التفتيش فى " كونيكا " عام ١٥٨٤ ، كشف مورسكى عن أمل قومه فى أن يأتى الأتراك لإنقاذهم وإن شارة التعارف بين المورسكيين والأتراك ستكون عن طريق رفع الإصبع

ولم تكن هذه النبؤات خاصة بالمورسكيين ، بل إن المسيحيين أيضا لم يكونوا مقلين فى هذه الناحية ، ففى سنة ١٥٧٢ وجه رئيس مجلس السكان بمملكة غرناطة ، رسالة إلى الكاردينال رئيس المجلس الملكى ، يلفت نظره إلى مضمون كتاب سلمه له مورسكى صانع أحذية " كونترجى " فى بدايات الثورة الغرناطية ، فى هذا الكتاب تنبؤ بقدم منقذ ، اسمه "المختفى" ووفقاً للملاح الذى قدمت وصفاً له ، فإنها تدل على أنه دون "خوان دى استوريا . كذلك ذكر " دون بدرو " كتابا آخر كتب باللغة الإيطالية يشير إلى نبوءة مضمونها أن انتصار " ليبانتو " سيتلوه تحطيم الإمبراطورية التركية قبل عام ١٥٧٥ ، وبرغم بعض الأمور التى استبعدت فى الحال ، فإن مؤلف الرسالة عبر أمله فى أن تتحقق تلك النبؤات " لأن النبؤات السابقة قد تحققت كاملة ، فإن ثقتى فى الله كبيرة جدا فى أن تفيده فى ازدهار المبادئ السعيدة ، وأن تسير قدما إلى الأمام ليحصل الازدهار " (٢)

1- Archivo del instituta de valencia de Don juan. Madrid, envio 1, P. 163

B. Vincent : Ibid, P 59:

Envio 1, 29 - 1 - 1572'

٢- وثيقة بنفس دار المحفوظات المذكورة فى الملاحظة

السابقة نقلًا عن المرجع السابق ص ٥٩ .

وسرعان ما انتشرت نبؤات أخرى تقول إن المورسكيين سيطرودون ، وإن النفوذ التركي سيتحطم فى بدايات القرن السابع عشر ، وسيختفى أمره وهناك نبؤة أخرى تنسب إلى الأمير " فرناندو " بن فيليب الثالث - وهو الذى سيقال له الكاردينال الطفل فى المستقبل - تنسب إليه دور المنتصر على العدو المسلم (١) (وفى الواقع فإن شهرته العسكرية تمثلت فى أنه انتصر على السويديين فى نورد لنخن) .

وقد وصلت سرعة التصديق إلى أقصى مداها ، ولم يقتصر الأمر على الملهمين من الناس دون غيرهم ، إن تاريخ رغبة المورسكيين الملحة فى العودة لوطنهم الأصلي لجدير بأن يروى ، وفى حوالى شهر أبريل سنة ١٥٧٧ اجتاحت موجة كبيرة من الأمل مفاجئة ، كل الجماعات المورسكية الغرناطية سواء المقيمة فى قشتالة أو الأندلس الغربى ، ويقال إن الملك الأسباني كان قاب قوسين أو أدنى من التصريح لهم بالرجوع مقابل ضريبة عالية يدفعونها ، وقد وصلت المفاوضات التى اشترك فيها " الونسو دى هانيجاس " إلى مرحلة متقدمة وجرت اتصالات بشأن هذه المسألة مع كل المدن ، يشهد على ذلك مثلا الرسالة التى وقعها ثمانية من المورسكيين المقيمين فى طليطلة والموجهة فى ١١ أبريل إلى السادة المحترمين " دون ايرناندو مولى " و " انريكث دى بيادراهيت " ، و " الونسو ايرناندث كاميد " والسادة الآخرين ، وأصدقاء اشبيلية وقد طلب الموقعسون أن ينص - على الأقل - على كل الذين لم يحملوا السلاح خلال الثورة ، وربما يشمل النص الآخرين جميعا ، وأن تدفع تعويضات عن كل الممتلكات المصادرة . وقد طلبت أموال لمواصلة المساعى ، وتم تنظيم جمع التبرعات

1- T. Halperin Donghi: unconflecto nocional ... P. 11

والمرجع السابق لبرنارد بيشتى ص ٦٠ .

فى الواقع ، وهناك مجموعات من المورسكيين مثل مجموعة (قلعة عبد السلام) ، عينت ممثلين مسئولين عن ارسال الضرائب غير العادية هذه .

ويمكن أن نتخيل مدى خبر من هذا النوع ، رغم أن الاحتمال الأقرب أنه لم يقم على أساس ، أنه يدل على أن المورسكيين لم يفكروا فى شىء " فالذين يعيشون فى اشبيلية وقرطبة وأراضيهما وفى بلاد أخرى ، كانوا يشون لإثارة الفتن بين الناس . . . انهم يريدون المحافظة على أموالهم على أمل أن يقدموها للشخصيات التى يُقال أنها ترتب لهذه الصفقة مع القصر ، لما يعود عليهم من فائدة من جراء ذلك " (١)

لقد امتد القلق ليشمل "بلد الوليد ووادى الحجارة وجيان" ومواطن أخرى بالإضافة إلى قرطبة وأشبيلية ، وكان مركز هذه الحركة مدينة طليطلة التى لم يتردد مأمورها القضائى فى الكتابة إلى الملك بهدف أن يقنعه بالعدول عن هذا الإجراء وإلا يحوله إلى حيز التنفيذ " سيكون من غير الممكن معالجة الضرر المفترض حدوثه على الشاطىء ؛ لأنه ليس هناك شىء يرغب فيه الأتراك أكثر من أن يتمكنوا من إنزال بحرى ، ذلك أن السكان اليوم مسلمون ، كما كانوا بالأمس ، وإذا كان ذلك هناك ، فللنصيحة . . . إننى أتكلم كإنسان مجرب تجاوز السبعين من عمره ، وجاب كثيرا أرجاء هذه المملكة "

وكان هناك مدى من الضيق عند من أعادوا تعمير مملكة غرناطة ، أشار إليه السيد " بدرو دى ديثا " " إنه شائع أنه قد حدث ما يكفى لإزعاج السكان الجدد ، وأن لديهم شكاً فى أن منازلهم ستؤخذ منهم حقيقة وهم يتركون العمل ولن يستفيدوا كما جرت العادة ، إلى أن نرى ماذا

1- Pedro de daza al rey: 28 - IV - 1577

Bernard Vincent: Historia de los moriscos ... P. 60

وكان من الضروري رفع وإزالة حماس المورسكيين عن طريق وضع الأشياء في مواضعها بدون تردد ، فقد كان يخشى كثيرا من حدوث انفجار وفي نهاية يونيو فإن الهدوء يبدو أنه سيطر على كل النواحي . (١)

كيف يمكن تفسير ظاهرة من هذا النوع انطلاقا من مبدأ عدم امكانية الاعتقاد في حقيقة حدوث المفاوضات ؟ كل النصوص تحدد الأخوين " لورنثو وميلتشو برّيو ، بالإضافة إلى كاسير دي رايا " على أساس أنهما وراء إثارة هذه الشائعات ، وقد عرف عن الأخير منهما أنه عاش في طليطلة ، وكان كلا الأخوين " برّيو " معروفاً أكثر ، فقد كان لها حظ وافر في تجارة الشمع وكانا يمتلكان مصنعاً لهذا الصنف في غرناطة ، موطنهما الأصلي ، كما كان لهما منزلا في حي " البيازين " وحديقتين وطاحونة ، وكانت لهما علاقات تجارية واسعة جدا ، كما كانت لهما تعاقدات مع تجار من مدينة " دل الكامبو " (مدينة الحقل) ، وقد أتهم كلاهما بأنه كان رأس الثروة المدبر لها ، وأنهما أويا الاجتماعات التمهيدية لها ؛ لأن كلاهما كان صديقا " لـ " ارنادو دي بالور " (ابن أمية) ، وقد اعتقلا في ابريل سنة ١٥٦٩ ، وأطلق سراحهما ونفيا إلى طليطلة في أكتوبر ١٥٧٢ ، فهل استفادت هذه الشخصيات الثلاثة من مكائنتهم عند زملائهم المسلمين في تليفق احتيالي ونصب ضخم لحسابهم ؟ هل أرادوا التوصل إلى أغراض سياسية محاولين أن تستمر الإثارة والدعوة إلى ثورة جديدة ؟ لكى نجيب على هذين السؤالين لابد أن نعرف إذا كانوا قد حركوا فى فلکهم

1- El expediente completo en Halla en
 Archivo general de simancas, Camara de castella, leg . 2'. 179

ذكره برنارد بنشت : تاريخ المورسكيين ص ٦١ .

شخصيات أخرى مهمة ، هل كان "دون الونسو دي غرناطة بالمجاس " مشتركا أو ذكر أسمه تعلقة ؟ من المؤكد أن العملية كانت معروفة جدا ، فقد حدثت سابقة المفاوضات من قبل ، تلك المفاوضات التي حاول المورسكيون فيها تحقيق أغراضهم عن طريق دفع المال ، وعلى كل حال فقد انكشف مدى الإهتمام الذي كان من خلاله يتم الترحيب بأية شائعة والذي سبب رواج النبؤات ، ومن ناحية أخرى اتضحت متانة التضامن الإسلامي . إننا نحتاج إلى جو نفسى لتغذية الشائعات والآمال المنطلقة ، لكن لا تنقصنا الوقائع ، إن الحقائق متوافرة ، فالخطر المورسكى بقى كبيراً ما دامت العلاقات مستمرة بين المورسكيين وبين القسطنطينية ، وقد جهز الأتراك أسطولاً ضخماً خصصوه لإنقاذ المورسكيين فى سنة ١٥٨٩ (١) ثم فى سنة ١٥٩١ ، وكانت تضبط باستمرار رسائل بين الجزائريين والمورسكيين البلنسيين ، وقد اعتقل مورسكيون أثناء عبورهم شاطيء أو آخر من شواطيء البحر الأبيض المتوسط (٢) .

وكان نشاط المنفيين يتم أحيانا فى نفس الوقت الذى تجرى فيه عمليات الأتراك والمغاربية. وبين وثائق وقرارات الملك فيليب الثانى التى نشرت بفرناطة سنة ١٥٦٨ ، توجد وثائق بعضها يرجع إلى سنة ١٥١٤ وتتحدث عن المنفيين والأتراك المسلمين ، وقد قامت البحرية التركية والمغربية بتهديدات كبيرة أثرت على الروح الأسبانية فى القرن السادس عشر ، وقد كان يخشى تعرض أسبانيا لغزو إسلامى جديد ، فقد كانت تهديدات البحارة (المجاهدين) من الجزائر وتطوان وأماكن أخرى على الشاطيء الأفريقى مصدر قلق دائم ، والأعمال الأدبية فى أواخر القرن

1- F. Braudel: op. Cit. 11, P. 480

2- Archivo del instituto de Valencia de don juan, Madrid
envio 1 - 183

B. Vincent: Ibid, P. 61 .

السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر حافلة بالإشارات إلى الجرائم التي ارتكبتها هؤلاء ، وأيضا إلى المساعدات المنظمة التي كان يتلقاها المورسكيون الغرناطيون والبلنسيون ، وقد حدثت الثورة الغرناطية في فترة كانت السيادة البحرية فيها للأسطول التركي ، . . . ويكفى أن نشير إلى نصٍ عند " مارمول " يشير إلى أن سكان شاطيء " البوخارا " كانوا يستقبلون الأتراك والبربر في قراهم ومنازلهم ، وكانوا يقدمون لهم البوارج كى يقتلوا وينهبوا ويأسروا المسيحيين ويبيعونهم (١) ونذكر هنا بعض ما يتعلق بهذا الجانب :

علمت السلطات الأسبانية سنة ١٥٧٣ أن أمراء تلمسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة المرسى الكبير في " بلنسية " ويعاونهم المورسكيون بالثورة ، فبادرت السلطات إلى نزع سلاح المورسكيين ببلنسية وقيل فيما بعد أن هذه الحملة كانت ستقترن بغزوة فرنسية لأراجون ، ينظمها حاكم " بيارن " الفرنسى ، وأن سلطان الأتراك وىاى الجزائر يؤيد كلاهما المشروع ، وأن أساطيل الغزو كانت تزمع النزول فى مياه "برشلونة ودانية" وفيما بين مرسية وبلنسية "حيث يعيش حشد كبير من المورسكيين ، وإن زعماء هؤلاء وعدوا القيام بثورة وتقديم عدد كبير من الجند ، وكان من المنتظر أن تقوم تلك الثورة المورسكية سنة ١٦٠٥ ، ولكن المشروع اكتشف فى الوقت المناسب . وهذه الروايات جمعها رجال ديوان التفتيش ، وتعوزها الأدلة التاريخية . على أن الخطر الحقيقى تمثل فى غارات

1- Marmol : libro 11, cap1, pag. 129'

- J. Caro. Baroja: los moriscos ... PP: 169 - 1 70'

ويذكر أن هناك كتابا بالفرنسية حول البحرية فى زمن سايمان القانونى عنوانه :

Les corsaires barbaresques et la marine de soliman le grande

وهناك مثال للإتقلابات التي نظمها الأتراك رواه " بدروياز نتس مادونادو " فى حواراه حول نهب جبل طارق سنة ١٥٤٠ مطبوع فى :

Coleccion de libros raros y curiosos XIX PP. 1 - 27'.

المجاهدين من الشواطىء المغربية على الثغور الأاسبانية ، وقد استمرت طوال القرن السادس عشر وبعد انتهاء الحكم الإسلامى فى أاسبانيا ، ويقول " المقرى " - الذي كتب كتابه سنة ١٦٣٠ - إن المورسكيين انتظموا فى جيش سلطان المغرب وسكنوا " سلا " وكان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور . . . (١) وقد ظهر المغامرون المسلمون ابتداءً من القرن الخامس عشر حينما ضعف أمر الأندلس والمغرب وسادت الفوضى ، وكانت الشواطىء المغربية تقدم إليهم المراسى الصالحة ، ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية ؛ زاد نشاط المغامرين المسلمين ، وكان سقوط غرناطة واضطهاد الأاسبان للمسلمين ايذاناً بتطور هذه المغامرات البحرية ونزول الأندلسيين والمورسكيين المنفيين إلى ميدانها . وقد بدأت هذه الغارات البحرية على الثغور الأاسبانية عقب استيلاء الأاسبان على غرناطة وحملهم المسلمين على التنصير ، عندئذ غادر الأندلس آلاف من المجاهدين ، عبروا البحر إلى عدوة المغرب واستقروا فى وهران والجزائر وبجاية وغيرها . . . ومنها قاموا بحملاتهم ، وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة ومراسيها وخلجانها الكثيرة التى تحميها الصخور العالية ، توفر مكاناً ملائماً للقراصنة ، وكانت الغزوة تعتمد على عنصر المفاجأة . . . يصف " بترو مارتيرى " هذه الغارات فيقول : إن فيرناندو الخامس أمر سنة ١٥٠٧ بإخلاء الشاطىء الجنوبى لجبل طارق إلى المربة فرسخين إلى الداخل تحوطاً من هذه الغارات ، ثم صدرت مرسومات عدة تمنع المورسكيين من السفر إلى أبعاد معينة ، ولكن ذلك لم يقد فى شىء واستمرت حملات الهجوم ، وكان المورسكيون يزودون رجال الحملات بالمعلومات وكل مايتعلق بالشواطىء ومواطن الضعف فيها ، ويمدونهم

١- أنظر : المقرى : نفع الطبيب ، الباب الثامن ج ٤ ص ٥٢٨ من نشرة إحسان عباس .

بالمؤن والزاد ، وكانت تتم بعض الحملات أحيانا بهدف المساعدة فى نقل راغبى الهجرة من المورسكيين . وفى أوائل القرن السادس عشر ظهر عنصر جديد أذكى روح المغامرات فى هذه المياه ، ذلك أن البحارة الأتراك وعلى رأسهم "عروج وخير الدين" ، اندفعوا من شرقى البحر الأبيض المتوسط إلى غربيه . وفى سنة ١٥١٧ سار "عروج" على رأس بعض القوات والسفن واستولى على الجزائر ، ولما قتل فى العام التالى بإحدى المعارك ضد الأسبان ، عين أخوه "خير الدين" حاكما للجزائر واستولى على معظم الثغور المغربية الساحلية ، فعينه السلطان العثمانى سليم حاكما عليها وأمهه بالجند فتألق اسم ذلك القائد ، وقرن اسمه بأسماء أعظم أمراء البحر فى هذا العصر ، وكان يعاونه نخبة من أكابر الريابنة الأتراك ، بسطوا سلطانهم على معظم شواطئ البحر الأبيض المتوسط (١) ، وقد بدأ غاراته فى المياه الأسبانية بمهاجمة الشواطئ الشرقية واستمر يهاجمها لمدة ثلاثة أشهر ، وجمع فى سفنه كثيرا من الراغبين فى الهجرة وعرج أثناء عودته على جزيرة "منورقة" ، ومن أهم غارات خير الدين على الشواطئ الأسبانية غارة وقعت سنة ١٥٢٩ ، ذلك أن جماعة من الموسكيين البلنسيين كانوا قد فاضوه لينقلهم خلسة إلى العدو المغربية ، فأرسل سفنا رست ليلاً عند "أوليفا" شمال غربي "دانية" ، أمام مصب نهر "اليتا" ثم نزلت إلى البر قوة جمعت نحو ٦٠٠ من المورسكيين الراغبين فى الهجرة وهنا فاجأتها عدة من السفن الأسبانية وطاردتها إلى مياه الجزائر الشرقية (جزر البليار) ، وفجأة انقضت سفن المسلمين على السفن الأسبانية وأغرقت بعضها وأسرت البعض الآخر ، ورجعت إلى الجزائر تحمل هؤلاء الذين رغبوا فى الهجرة . . . وكان صريح المورسكيين يتوالى إلى "خير

١- يعرف الأخوان عروج وخير الدين فى الرواية الأوروبية باسم "باراروسا" يعنى « ذو اللحية الحمراء » وقد نشر عنهما كتاب فى الجزائر عام ١٩٣٤ عنوانه " غزوات عروج وخير الدين "

الدين' وحلفائه من أمراء المغرب ولا سيما أثناء الثورات المحلية التي كانت تشتد فيها وطأة السلطات الأسبانية حتى أنه نقل ٧٠ ألفاً من أخوانه المورسكيين إلى الشواطئ المغربية (١) .

فى سنة ١٥٥٩ قام أمير البحر التركى - طرغود - خليفة خير الدين بغارة على الشواطئ الأسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ٥٢٠٠ مورسكى ، وفى سنة ١٥٧٠ حملت السفن المغيرة جميع المورسكيين فسى " بالميرا " ، وفى سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر إلى ثغر "بلنسية" وحمل ٢٣٠٠ مورسكى ، وفى العام التالى حملت السفن كل سكان مدينة " كالوسا " ، وبلغت الغارات البحرية على الشواطئ الأسبانية بين سنتى ١٥٢٨ ، ١٥٨٤ ثلاثاً وثلاثين غارة ، عدا الغارات التى قامت بها سفن صغيرة حملت المهاجرين . وقد وصف " ثرفانتس " هذه الغارات البحرية وكان من بين ضحاياها حيث أسر سنة ١٥٧٥ وحمل إلى الجزائر وظل بها حتى تم فداؤه سنة ١٥٨٠ ، وهناك زعماء من بين المنفيين ، كانوا من أشد أعداء أسبانيا فى البحر ، من بينهم "بلاتيكو والريس أحمد أبو على" من " اشونية " و"مراد الكبير جواد يانو" من مدينة "ثيوداد ريال" (المدينة الملكية) وغيرهم .

وفى سنة ١٦٠٢ وقعت غارة على مدينة " لورقة " ، قرب "قرطاجنة" حيث قام مغامر اسمه "مراد الريس" بحملة بحرية وحمل عددا من الأسرى ، وكثرت الغارات فى الأعوام التالية على الشاطئ الجنوبى ، وكانت ثغور تونس أيضا أيام حاكمها عثمان داي ١٥٩٨ - ١٦١٠ ملاذاً لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، وكانت غاراتهم تتوالى على الشواطئ الأسبانية

١- انظر الفصول الثلاثة الأولى من كتاب :

1- Stanly lone poolc: the barbary corsairs.

وهكذا لبثت الغارات البحرية مصدر ازعاج للسلطات الأسبانية ، وخصوصا منذ منتصف القرن السادس عشر . . . وكان اللوم يقع دائما على المورسكيين ، وخاصة سكان الثغور منهم ، لأنهم هم الذين يدون الحملات المغيرة بالمعلومات ويزودونها بالمؤن ، ويعينون عليها مواضع الرسو والإقلاع ، وكانت السفن تأتي فى الغالب - كما يتضح مما سبق - لمعاونة المسلمين فى الفرار إلى بلاد المغرب ، فقد كان هؤلاء على اتصال مستمر بمسلمى أفريقية وأمراء المغرب برغم اضطهادهم وإخضاعهم لرقابة متشددة . ولم تجد السلطات الأسبانية حيلة للتخلص من هذه الغارات البحرية التى مثل المورسكيون العنصر البارز فى توجيهها وتنظيمها على امتداد القرن السادس عشر. وحتى بعد نفي المورسكيين من أسبانيا ، واصلت الغارات هجومها بشدة بما انتظم فى صفوفها من المنفيين المجاهدين وأصبحت " سلا " بمرفئها الذى تحميه الخليجان مركزا لأولئك المجاهدين ، وكانت تخرج منها أقوى الحملات وتغير على الشواطىء الأسبانية (٢) .

ونحن لكى نفهم لب المشكلة المورسكية ، لا بد أن نفهم الخطر التركى فى نهاية القرن ١٦ ، وأوائل القرن ١٧ ، لقد كانت التعبيرات مثل " جاء الترك " " نزل الترك " شائعة فى المحادثات اليومية كما رواها " كابريرودى قرطبة" فى العلاقات صفحات ٧٤ . ١١٥ . ١٥٣ . ٢٤٠ ، كذلك فإن مسيرة الأحداث فى المغرب كان لها تأثيرها : إن هزيمة مولاي "سيفى" (الشيخ) على يدى مولاي "زيدان" فى ربيع سنة ١٦٠٩ ساعد على طرد

١- أنظر : ابن دينار : أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ص

١٩٢ طبع تونس ١٩٦٧م

٢- أنظر : المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

المورسكيين من أسبانيا ، ومنذ فترة والموركسيون في "اراجون وبلنسية" -
 فيما يبدو - يتفاوضون مع قوى مختلفة على أمل أن تعاونهم في الثورة ،
 وقد اكتشف في الحال معاهدات مع "انريكي الرابع" ملك فرنسا ، وهكذا
 كانت الإضطراب يتزايد محاولا الاستفادة من المشكلات التي تعاني منها
 أسبانيا . . . وقد روى " كابريرا دى قرطبة" أنتصار مولاي زيدان (١) .
 وأشار " فرأى الونسو فير نندث " إلى نفس الموضوع (٢)
 . . . وقد اعتقل كثير من المورسكيين في بلنسية بسبب مراسلات معينة
 بعث بها ملك إنجلترا ، عشر عليها بين أوراق الملكة السابقة ، وقد كتبها
 مورسكيون يطلبون معونة للقيام بثورة ، وقدموا معلومات عن مدن يمكن
 نهبها ، وقد تم تعذيب الكثيرين منهم وعوقب بعضهم (٣) وقيل أن بعض
 المورسكيين عبروا إلى أفريقية برسالة إلى مولاي زيدان ، وعرضوا أموالاً
 ، و ٦٠ ألف شخص مسلم ، ولكن السلطان لم يعجباً بذلك كما سيأتي ،
 ويقول نفس " كابريرا - أن هناك كتاب بالفرنسية يتبين منه أن المورسكيين
 عرضوا وضعهم على الملك انريكي الرابع وبينوا أنهم أصحاب مصلحة
 كبرى ، وحددوا أرقام السكان المورسكيين كما يلي :

ا - الغرناطيون المتناثرون يصلون إلى ١٣٠ ألف منزل .
 ب - البلنسيون ٧٧ ألف أو أكثر .
 ج - المسلمون التاجارنيوس ٤٠ ألف منزل أو أكثر .
 د - المدجنون ٥٠٠٠ منزل في قشتالة ، ٣٠٠٠ في قطالونية .
 هذا في عام ١٦٠٢ (٤) .

١- أنظر كتابه : العلاقات . . . ص ٢٣٦ .

٢- أنظر كتابه : تاريخ ... ص ٤٨٩ .

٣- أنظر كابريرا ... العلاقات ص ٢٤٠ .

٤- أنظر خولير كارو باروخا : المورسكيون ... ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ وما بهما من تعليقات

ولقد لبث البحارة الأتراك عصرا يتزعمون الغارات البحرية ، وجل
اعتقادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والمورسكيين ويمرور
للزمن تحولت هذه الغارات إلى حملات للنهب على السواحل الأسبانية
والإيطالية واشترك فيها الفرنجية الاوربيون ، وكانت تأخذ الأسرى وتبيعهم
عبيداً في الأسواق .

وفي الوقت نفسه الذي اشتدت فيه الغارات البحرية على الشواطئ
الأسبانية ، حدثت في بلاد المغرب أحداث زادت من توجس السياسة
الأسبانية من مساعى المورسكيين وعملهم على استعداد مسلمى افريقية ،
ذلك أنه بعد موت السلطان أحمد المنصور^١ ملك المغرب سنة ١٦٠٣ ،
قامت حرب أهلية بين أبنائه الثلاثة ، وقد استعان فيها ابنه الشيخ بالملك
الأسباني فيليب الثالث^٢ فأعانه ، ولكن ذلك لم يُجده أما المورسكيون
في " بلنسية " فقد أرسلوا إلى مولاي " زيدان " يوضحون له سهولة غزو
اسبانيا وأنهم على استعداد أن يقدموا له مائتى ألف مقاتل متى أقدم على
فتح هذه البلاد واحتل أحد الثغور الهامة لكن مولاي زيدان لم يحفل
بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يقاتل خارج بلاده (١) .

يتضح مما سبق أن المجاهدين الأتراك والمغاربة أنجدوا إخوانهم ،
وعاونوهم بالحملات البحرية وساعدوهم على الهجرة والفرار من الاضطهاد
الأسباني ، وإذا كانت الخلافة العثمانية لم تتمكن من إرسال حملات
منظمة ، ومثلها حكومات المغرب ، فإنها قد شجعت المجاهدين في البحر
وأمدتهم بكل ما تستطيع على أمل أن يتمكنوا من نجدة وإنقاذ إخوانهم
المسلمين ، وهذا ما حدث بالفعل ، فقد ألحقوا خسائر كبيرة بالقوات

١- أنظر :

Lea: the morisco . PP: 289 - 290'

وأیضا : عنان : نهاية الأندلس ٣٨٢-٣٩٢ .

الأسبانية ، وتمكنوا من نقل عدد يزيد على سبعين ألف إلى العدو المغربية لكن كان هناك أمر آخر يشغل فيليب الثانى ملك أسبانيا دائما ، هو : إقامة علاقات عادية بين المورسكيين ، وبصفة خاصة المقيمون فى اراجون ، من ناحية ، وبين البروتستانت فى " بيرنى " من ناحية أخرى ، دون أن يكون هناك ما يبرر ذلك . بيان ذلك أن رسل المسيحين الجدد (المورسكيين) بدأت تسافر إلى هذا الإقليم فى جنوب فرنسا اعتبارا من سنة ٥٧٠ ، بهدف التوصل إلى توقيع معاهدة تحالف ، بل وصل الأمر إلى درجة أن " مونسير دي روس " حاكم " بيرنى " أعلن أنه " سندهب إلى أسبانيا . ونعطى هذه الأرض ونتسلم " نابارا " وفى سنة ١٥٧٥ اقترح على المورسكيين من جديد إرسال مساعدة عسكرية مقابل مبلغ مقداره عشرة آلاف ، أو إثنا عشر ألفا " أوسكودوس " ، وقد درس المورسكيون العرض فقط بدا لهم أن المبلغ المطلوب أكثر من اللازم ، ولوحظ أن فى حوزتهم كثيرا من الأسلحة المخبأة (١) وقد طلبوا من القسطنطينية فى نفس الوقت مساعدة مالية عن طريق وفد أرسلوا به لهذا الغرض . وقد قرر المورسكيون فى مناسبات عديدة تجاوز الأحداث ، تدعمهم هذه المساندة الخارجية . وسيحدث الإنذار الأول بالأندلس فى يونيو سنة ١٥٨٠ ، فهناك حديث عن مؤامرة دبرت فى " أشبيلية " ، وكان لها فروع فى المدن الأندلسية الأخرى ؛ " قرطبة ، اثيخا ، جيان " ، واكتشفت مؤامرة فى الوقت المناسب كات تدبر إنزالا بحريا من بلاد الشمال الأفرقى ، وقد فكر أطراف هذا المخطط فى الهرب إلى البرتغال أو إلى الجبال فى حالة فشل مخططهم ، واكتشف أمرهم قبل أن يتمكنوا من التنفيذ ، وفى الواقع فإن أحد المورسكيين قد كشف منذ فبراير أن شينا يحاك فى الأندلس ، فاتخذت السلطات

1- Cardaillac : Morisques et protestat. - Al - Andalus - 1971 , P. 44'

أهبتها (١) وربما كان زعيم هذه الحركة هو " فرناندو انريكث " واسمه أيضا فرناندو مولى " وكان قد تورط فى مسألة عودة المورسكيين إلى غرناطة سنة ١٥٧٧ .

وبرغم أن المؤامرة قد اكتشفت فى الحال ، إلا أنها تسببت فى رعب كبير لدى السكان المسيحيين فى المدن التى تعرضت للتهديد ، كما تعرضت الجماعات المورسكية لألوان من الإنتقام على أيدي المسيحيين خاصة فى "أشبيلية وجيان" ، وقد سمع صوت يقول إن عدة مئات من المورسكيين أمكنهم أن يتجمعوا فى سلسلة من الجبال قريبة من "قادش" وإنهم يستعدون للعبور ناحية "مالقة وماربية" (٢) وقد تم تنظيم حملات لاغتيالهم ، ولكنها لم تعثر على أثر لفردٍ واحد ، ومع ذلك فقد سجن كل العبيد المورسكيين والبربر فى مالقة كإجراء وقائى ، وفى مايو سنة ١٥٨١ استمر الاضطراب خطيرا فى اشبيلية حيث اعتقل ثلاثة من المورسكيين بدا أنه مشكوك فيهم وقد اطلق سراحهم بعد استجوابهم ، وبعد أن شفع لهم بعض الجيران المسيحيين .

وفى سنة ١٥٨٢ ألقى القبض على مورسكى من " أراجون " ، وقد كشف القبض عليه عن شبكة اتصالات خفية كان مركزها فى " اراجون " ولها شعب تمتد إلى "قشتالة وبيرنى" وبلاد الشمال الأفريقى ، وقد تم

1- Archivo general de simancas. camera de castilla, leg . 2. 178'.

نقلا عن :بيرنارد بيهنتى : تاريخ المورسكين بالاسبانية ص ٦٢ .

2- ID. id leg. 2. 182. carta de Don pedro de castro a juan vazquez, 19' - VII - 1580', para el levantamiento de 1580, vease:

Celestina lopez martinez: Mudejaros y moriscos sevillanos , sevilla 1953'

Ruth pike: An urban minority: the moriscos of sevillanos

"International Journal of middle east estudies" 1971, PP: 368 - 377'

B. Vincent: lbed, P.62. نقلا عن :

الاستيلاء على رسائل مكتوبة باللغة العربية وبلغت " الاختميا دو " تكشف عن الدور الذى يقوم به المورسكيون المقيمون في الجزائر ، وكان المورسكى المشار إليه أنفا قد ركب من هذه المدينة ونزل في " كارتاخينا " وقام باتصالات في " مرسية " واشترك في اجتماعات سرية في " سيجورى " ، ومع ذلك فهناك احتمال أن يكون اسقف تلك المدينة ورجال محكمة التفتيش في "سرقطة" قد بالغوا في تصوير الأحداث ، وتخلوا قيام ثورة في الحال ومع ذلك فقد كان قلقهم له ما يبرره (١) فبعد ذلك بسنة ، وفي مارس سنة ١٥٨٣ كشفت محكمة التفتيش في "بلنسية" بدورها عن مؤامرة تورط فيها مورسكيون وفرنسيون (٢) .

وفي سنة ١٥٨٥ بدأ الصراع بين المسيحيين الجدد في "أراجون" يعنى بين هؤلاء الذين يعيشون في الجبال وبين المورسكيين الذين يعيشون في السهول ، وعلى امتداد ثلاث سنوات واصلت الجماعات المتصارعة ضرباتها بعنف دون أن تتعرض لعقاب على الإطلاق ، الشيء الذى أبرزه أحد رؤساء الأديرة ، يقول " خلال تسعة أشهر خلفت هذه الفرق كثيرا من الموتى في المملكة ، إنه لم يبق في سرقطة طوال تلك الفترة إلا إنسان حزين حطمه النفي ، لقد سقطت العدالة " (٣) .

وكان اغتيال اثنين من سكان الجبال سببا في حملة انتقام ضد المورسكيين في اغسطس سنة ١٥٨٦ ، كذلك أدى اغتيال خمسة عشر

1- Archivo de valencia de Donjuan, Madrid, envio 1 y envio 183'

B. Vincent: Historia ... P. 63'. ذكر ذلك

2- S. Garcia Martinez: Bándolerismo, pirateria y control de moriscos en valencia durante el rcindo de Felipe 11, " Studis " 1972 - P. 144'.

3- A. Melon: lupercio latras y la guerra de moriscos y montanescs en Aragon a final del siglo XVI, Zaragoza 1917, P.X. وانظر

B. Vincent: Historia de los moriscos ... P. 63'.

آخرين فى مطعم " ما " فى أكتوبر سنة ١٥٨٨ من قبل بعض الفرق العسكرية رداً على نهب بعض القرى المورسكية ، أدى ذلك الإغتيال إلى صدور صيحات تقول " المسلمون كلاب " (١) .

لقد استمرت الفوضى على مدار عدة سنوات فى المنطقة الواقعة على طول نهر " الابرو " والمياه أسفل سرقطة ، وقد تميز استمرار الصراع بالخطورة المستمرة مما ضاعف الشك فى أن حماة المورسكيين يقفون وراءهم سواء فى ذلك الإقطاعيون وأتباعهم ، أو البروتستانت من " بيرنى " .

وقد كان أصحاب الاقطاع فى "أراجون" مدافعين كبار عن رعاياهم المورسكيين الذين يجنون من ورائهم مكاسب هائلة ، ونفس الشئ يمكن أن يقال عن البلتسنيين ، أن حالة أمير البحر المسئول عن " أراجون " الذى مثل أمام محاكم التفتيش بسبب دفاعه الحازم عن رعاياه هى الأكثر تعبيراً (٢)

وهناك تحذير آخر أكثر حدة حدث فى هذه الفترة ، عامى ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ ، فلا يشك فى أن " انطونيو بيريث " اللاجئ فى فرنسا والمدعوم بمن سيدعى مستقبلاً " انريكى الرابع " كان يضع فى حسابه التعاون مع المورسكيين عندما كان يجهز لغزو أراجون " (٣) .

وفى النهاية فإن الخوف كان مسيطراً ، ربما بصورة أكثر مما يستلزم واقع الأمر ، فلم يحدث قط أن قام المورسكيون بعمليات جماعية والمهم أن الأمر وصل إلى اعتقاد له ما يبرره فى إمكانية القيام بثورة ، وقد أشار

١- المرجع والموضع السابق

2- Julio caro baroja: los moriscos ... P. 224'

3- Juan regla: studios sobre los moriscos ... PP. 150 - 151'

بعض المؤلفين إلى استمرار حالة التوتر منذ عام ١٦٠٥ - ١٦١٣ (١)

وهناك أمر آخر هو أن التلصص المورسكي استمر ينشر الفوضى بصورة لم تتوقف منذ عام ١٥٧٠ وما بعدها ، وقد كانت أراضى جنوب أسبانيا منذ عهد الرومان مرتعا خصبا للصوصية ، وهناك مواطن فيه تعتبر مستوطنا لهذا الشر مثل جبال " مورنيا " وسلسلة جبال " رنده " ، وكان وراء هذه اللصوصية عوامل منها سوء الوضع الاقتصادى للطبقات الدنيا بما فى ذلك المورسكيون ومنها وعورة الأراضى مع الإتساع الخالي من السكان ومنها تراكم الثروات فى المدن ، وهناك أسماء مشهورة لقطاع طرق وضعوا خلفاء قرطبة فى مازق خطير ، وهناك نص للجغرافى " ابن حوقل " يبرز علاقة الوضع البائس للفلاحين من أصل مسيحي (٢) ، ويروى " المقرئ " أنه فى عصر المعتمد ، اشتهر قاطع طريق اسمه " البازى الاشهب " ارتكب كثيرا من الجرائم ثم حوله "المعتمد" إلى حارس على مدينة أهلة بالسكان . وفى زمن المورسكيين حدث نفس الشئ واتهم بسادة الاقطاع بمملكة غرناطة فى القرن السادس عشر بأنهم يشجعون اللصوصية ، وقد حاول " الماركيز دى مونديخر "، تبرير عمليات اللصوص ، يقول "مارمول " : "إن سادة القرى عاونوا المورسكيين الذين ارتكبوا بعض الجرائم ، وإن هؤلاء لجأوا إلى أراضى الاقطاعيين ، كى يخططوا لانقلابهم ، وقد استفاد هؤلاء كثيرا من اللصوص التابعين لهم ، وهؤلاء هم الذين يسمون " المنقيين " باللغة العربية ، وقد درس حالتهم " بيرموديث دي بيدراثا " بصورة وافية ، يقول : من يرتكب جريمة يصبح آمناً فى أماكن سادة الاقطاع ، وهذا تسبب فى جرائم كثيرة . . . وهؤلاء كانوا يعيشون فى

1- J. caro Baroja: Ibid, P. 225'

٢- أنظر لبنى بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية بالفرنسية ج٣ ص ٢٠٨ ، التعليق رقم ١ .

الجبال ويصبحون أقوياء بها ، ومنها يخرجون للنهب والقتل والاختلاس . .
وقد تم تنظيم "المنفيين" فى عصابات يقودها قباطنة ممن حققوا شهرة فى بعض
المناسبات ، ويتحدث " مارمول " عن أخوين من " البوخارا " هما " لوبى
وجونثالو سينيث" ، ارتكبا جرائم لا حصر لها ، وكان هؤلاء المنفيون
يتسلحون بقاذفات ويكونون مجموعات أشبه بالعصابات العسكرية ، وقد
تجاسروا على كل شىء ، وقد استفاد فرج بن فرج ، أحد قادة ثورة غرناطة
بمائتين من هؤلاء كانوا معاوين أساسين له (١) .

إنه لم ينج اقليم من الأقاليم الأسبانية من هذا الداء اللهم إلا القليل
وفى مملكة غرناطة خاصة وجدت عصابات عديدة زرعت الرعب فيها ، كان
من بينهم مورسكيون ، عاشوا فى هذه البلاد وعرفوا أراضيها شبراشبرا ،
وبرغم الجهود التى قامت بها السلطات ، فإنها لم تتمكن من استئصال هذا
الشر بسرعة (٢) ، وكانت أكثر هذه العصابات نشرا للرعب عصابة
" الخورايقى " وكانت تعمل فى منطقة المرية بين سنتى ١٥٧١ / ١٥٧٣
وعصابتى " خوان اسفيلى " و " ماركوس الملنتى " ، وكانت دائرة عملهما
فى نواحي مالقة ورنده بين سنتى ١٥٧٣ - ١٥٧٦ ، ولم يحدث قط أن
لقى القبض على واحد من هؤلاء الثلاثة ، وقد عبر " الخورايقى " إلى
الشمال الأفريقى بعد مفاوضات أجريت معه ، أما الآخران فقد استسلما
بعد أن منحا ضمانات ، لكن " الملنتى " ألقى القبض عليه ثانية عام
١٥٧٩ .

1- Permudez de pedraza: Historia eclesiastic ... Fols 239 v - 240 r libro IV cap .L
XXXV.

Cabrera de cordoba, I, P. 642 - 644 - lib. VIII, cap. XV.

Marmol: libro 11, cap. IV, p 139.

ذكر هؤلاء وغيرهم

. Julio caro baraja: los mariscos ... PP. 165 - 169'

2- B. Vincent : les bandist morisques en andalousie au XVI siecle

" Revue di Histoire moderne et contemporaine" 1974, PP: 397 - 399'

بعد ذلك قضى على اللصوصية المورسكية فى شرق الأندلس، ولكنها نشأت مرة أخرى فى اتجاه الشمال ، وابتداء من سنة ١٥٧٧ وحتى نهاية القرن ، فإن المنفيين ارتكبوا سلسلة من الاعتداءات المؤلمة مثل تلك التى قام بها أسلافهم ، وكان من الصعب إلقاء القبض عليهم ؛ لأنهم استفادوا من تعقيدات نظام المجموعة المورسكية ، وقد عانت نواحي بلد الوليد وباسترانا واوييدا واشبيلية وباداخوس ونواح أخرى من سيأتهم ، لقد وصل الأمر إلى درجة أن الدكتور " فرنسيسكو ايرناندث ليباتا " ، رئيس مجلس بلد الوليد عهد إلى بعثة أن تنتهى منهم ، وقد صدق على اعدام حوالى مائتى شخص كانوا أعضاء فى ست أو سبع عصابات ، قامت بعمليات بين سنتى ١٥٧٧ - ١٥٨١ ، وفى نهاية عام ١٥٨٢ ، تمكن من تحويل ميزان العمليات لصالحه ، لكن هذا كان نجاحا مؤقتا فقط .

وقد عانت بلاد مملكة " أراجون " من نفس المشكلات ، فاللصوصية كانت مستوطنة فى "بلنسية" خاصة فى الثمانيات من القرن السادس عشر ، وفى أكتوبر سنة ١٥٨٤ اغتيل أحد الزعماء - من الأشراف - بواسطة رعاياه المورسكيين وفى ١٨ يناير شق ستة من المورسكيين - من أصل غرناطي - فى بلنسية ، وقد زرعت عصابة " سولايا " - بصفة خاصة - الرعب ، وكان زعيمها مسئولاً عن عديد من الإغتيالات . لقد كانت فى حاجة إلى كل مهارات الوالى الذى جمع بين الدبلوماسية والقسوة ليفرغ من هؤلاء المتمردين قطاع الطريق . وفى ٧ يونيو سنة ١٥٨٦ تم إعلان قرار يقضى بفرض عقوبات قاسية ليس فقط على اللصوص بل وعلى آبائهم وكل من يدافع عنهم ، بل وضد الذين لا يطادونهم بما ينبغى من قوة ، وحكم على آباء هؤلاء القطاع بالنفى إلى " قشتالة " ، وقد تفاوض الوالى مع أسر رجال وزعماء العصابات متعهدا أن يحفظ ويحترم حياة قطاع

الطريق إذا استسلموا (١) ، وخلال أيام قليلة من صيف عام ١٥٨٦ مثل ٢١ لصاً فى "بلنسية" ، بينهم أحد كبار الزعماء ، لكن الوعد بالا يتعرضوا لعقوبة كبرى ، كان فى الوقاع فحاً نصب لهم ، ذلك أنه فى ٤ نوفمبر تمّت إدانتهم وعذبوا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة فى المناجم لمدة ٣٠ سنة وكان هذا معناه موتهم خلال زمن قصير .

وخلال الحرب بين الجبليين والمورسكيين بأراجون ، فإن جرائم المورسكى " توريكو " لم تكن أقل شهرة من جرائم المورسكى " لوبريثيو لتراس " الذي اعتبر اعتقاله فى يونيو سنة ١٥٩١ حدثاً هاماً ، وقد أنهى مجلس " أراجون " إلى الملك فيليب الثانى خبر اعتقاله ، ووصفه بأنه شرير عظيم وقاتل وأنه هو الذى بدأ التمرد بين الجبليين والمورسكيين ، وقد ربط فى حوذى بحبل من البرتغال وفقاً لوصية أحد كبار المسئولين (يراجع فى هذا رجلا ص ١٥١)

وقد ردّ المسيحيون القدماء على أعمال العنف من جانب المسلمين بعنف أشد ، بل كانوا هم البادئون ، وباستثناء حملات التبشير التي شهدتها مملكة بلنسية بين سنتى ١٥٨٧ / ١٥٩٩ فإن سياسة " Ocul- Luracion " أصبحت تستخدم أساليب عنيفة ، وكان مؤيدو هذه الحملات يثقون فى نتائجها وحدها كما برهن على ذلك بعض الباحثين (٢) لقد هوجمت هذه المؤسسات بشدة حتى يهدأ ضمير رجال الكنيسة ، ولقد

1- S. Garcia martinez. Op. Cit. P. 145, 150, 154, y apendice XII

B. Vincent: Historia ... P.64. ذكره

2- Haperin Donghi tulio: un conflicto nacional: moriscos y cristianos Viejos en va- lencia, " cuadernos de historia de Espana, Buenos aires, XXIII,XXIV,1955, PP.

115 y XXV - XXVI, 1957, PP83-250

B. Vincent: obra citada, P. 65'.

كشفت النعمة التي استخدمها الخطباء عن تغيير هام ، لقد كانوا من قبل يتسلحون بالصبر الجميل ويحاولون اقناع المتمردين ، أم الآن فإنهم يستفزونهم ويتوعدونهم مثلا أحد الآباء تحدث للمورسكيين فى أبريل سنة ١٥٨٧ قائلا : أنكم لا تريدون أن تضعوا فى اعتباركم ، ولا تخلعوا من قلوبكم المتحجرة ، هذه العقيدة الخبيثة الملعونة المنسوبة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فلتعلموا أنه ولد اليوم فى أسبانيا الأمير الذى لا بد أن يخرجكم منها " (١)

وقد حدث تغيير مماثل على مستوى التعايش ، فبينما كان يمتدح فى الزمن الماضى صهر الجماعتين المسلمة والمسيحية من خلال الزواج المشترك فإن الفصل الكامل هو المفضل الآن ، لقد طلب بعض المتعصين أن يجبر المورسكيون على حمل شارة معينة ، كان هذا فى رسالة منه موجهة إلى الملك فى يناير سنة ١٥٨٨ (٢) .

ومن بين الإجراءات التي اتخذت توكيا للشروع التى خشتها ، ضرورة أن نضع فى الإعتبار وبالدرجة الأولى ، نزع سلاح المورسكيين الأراجونيين والبلنسيين ، وقد قام الأخيرون بذلك عام ١٥٦٣ ، ومع ذلك فمن المنطقي أن تكون هناك أسلحة كثيرة أمكن تهريبها دون أن يلتفت إليها من قاموا بعمليات التحرى والجمع والتقصى ، وأيضا فإن هناك أسلحة كثيرة أدخلت فى البلاد ، وهذا هو السر فى بقاء المشلكة بلا حل ، ومن ناحية أخرى فإن الأراجونيين أمكنهم أن يهروا من إجراء مماثل عام ١٥٥٥ بفضل معارضة أصحاب الاقطاع ، أضف لهذا أن حكام بلنسية كانوا مهتمين فى الثلث الأخير من القرن السادس عشر بتحديد ما يمتلكه المورسكيون من الأسلحة

T. Haperin Donghi: op. cit, PP, 118 - 119'
2- Id. P. 119'.

١- النص يشير إلى فيليب الثالث

وكان الكونت "دي بيتا بنتى" أول من أمر بذلك بتاريخ ١٦ يونيو ١٥٦٧ وكرر هذا النداء فى أعوام ١٥٧٣ ، ١٥٧٥ ، ١٥٧٨ ، ١٥٨١ ، وهذا النص له أهمية عامة من الناحية النظرية : تحديد سلاح كل السكان فى المملكة ، ولكن "برونات" يلفت النظر - بحق - إلى أن السبب الجوهري وراء إصدار السلطات لهذا الأمر ، كان احصاء ومصادرة أسلحة المورسكيين (١) وقد كان النص الذى أصدره "الكونت دى ايتونا" يتعلق بالمسلمين المنصرين أو المسيحيين الجدد وحدهم ، وقد اكتملت هذه السلسلة من الممنوعات بإصدار أمرين آخرين :

الأول التعليمات الصادرة بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٥٧٥ ، ثم تكررت فى تواريخ لاحقة ، وتقضى بمنع المورسكيين البنلسيين من الاقتراب من الساحل بدون إذن الوالى ، ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات ، فقط استثنى البغالون - أصحاب وسائل النقل - من هذا النص والثانى مرسوم صادر فى أول أغسطس سنة ١٥٨٦ يكرر ترتيبات اجراء مرسوم سنة ١٥٥٩ ، ويقضى بمنع أى تغيير فى مواطن إقامة المورسكيين ، ويهدد كل من ليس من أصل بنلسيى بالطرد من البلاد .

إذا أضفنا إلى هذه الإجراءات ، تلك الترتيبات التى اتخذت ضد اللصوصية ، مع المجهودات التى بذلت من أجل مراقبة أفضل للشواطىء ، أمكننا أن نكون فكرة عما كانت عليه السياسة الأسبانية ضد الأقلية المسلمة أو المورسكية على امتداد ثلاثة عقود ، إن تكرار صدور الإجراءات والترتيبات يجعلنا نميل إلى التفكير فى أن فاعليتها كانت محدودة ، ومع ذلك فلا يمكن إنكار أن هذه المثابرة وذلك التصميم قد أثرا ما علق عليهما من نتائج ، على الأقل فى بعض الجوانب ، فالقرصنة والتلصص قلت بصورة ملموسة بعد ١٥٨٥ ، ١٥٨٦ وهو التاريخ الذى يتفق مع

1- P. Bronat: los moriscos españoles y su expulsión, I, P. 285'.

مرحلة الرد التي اشتد فيها العمل المركز ضد هذين النوعين من النشاط ،
وهي نفسها فترة ولاية الكونت دي ايتونا للمرة الثانية
١٥٨٤ / ١٥٨٦ (١)

إن نزع سلاح المورسكيين الأراجونيين مهم أيضا وله خطورته ، لأنهم
فوق ما يمثلونه من تهديد ، لم يمتنعوا عن تزويد إخوانهم في الدين بالسلاح
وقد تم تنفيذ نزع سلاحهم عام ١٥٧٥ على الرغم من معارضة العديدين من
أصحاب الاقطاع مثل " الدوق دي بيا ارموسا " و " الكونت دي ارندا "
والسيد فرنسيس ايرنييو " ، فقط المورسكيون المملوكون لأصحاب اقطاع
سمح لهم بامتلاك تلك الأسلحة ، وكان إجمالي الأسلحة المصادرة :

من ٣٠٥٣ إلى ٥٤٠٦ بندقية ، ٩٦١ منجنيق ، ١٣٨٢ رمح ،
يعنى بواقع قطعة سلاح لكل منزلين مورسكيين تقريبا ، وما جمع لم يكن
شيئا تافها ، لكن لا أحد يستطيع أن يتخيل الأسلوب الذي عبر به رجال
الاقطاع في رسالة منهم موجهة إلى الملك - في فبراير سنة ١٥٨١ ،
يقولون : " في سنة ١٥٧٥ نزعنا سلاحهم ، تنفيذاً لأمر صاحب الجلالة ،
وقد رأينا أن هذا كله ، لم يفد في تصحيح عاداتهم السيئة " (٢)

وقد عقد اجتماع بالقصر الملكي في مدريد سنة ١٥٨٨ ، واتخذ قرار
بصفة نهائية يبين إن المورسكيين الأراجونيين لهم نفس النوايا والأهداف ،
ويقترح نزع سلاحهم من جديد " واضعين في الإعتبار العدد الكثير جدا من
المورسكيين المسلحين جيّداً ، والذين يعيشون فس ظل مذهبهم الباطل
الفاسد " ، ويفضل أن يكون نزع سلاحهم في فصل الشتاء (٣) . ومع ذلك

1- S. Garcia martinez : op . cit , p.155.

2- Archivo de valencia de Don juan , Madrid, envio 1, P. 185'

ذكره

V. Vincent : Historia ... P. 66'

٣ . regla : studios sobre los moriscos. PP. 44 - 48'

فإن تطبيق الإجراء لم يتم فى الحال ، فقد كان تهديد ثورة المورسكيين محدودا كما أن ذلك قد اقترن بالحملة التى تبناها " انطونيو بيريث " من أجل تجاوز الأحداث . وفى سنة ١٥٩٣ تم نزع سلاح المورسكيين من جديد برغم النزاع بين " البرى كونت دي سستجو " وبين الماركيزيين فى "كمارسا" لكن ليس بصورة أفضل مما سبق ، ولهذا أوصى مجلس الدولة سنة ١٥٩٦ فى رسالة موجهة منه إلى بعض رجال الاقطاع أن يكلف أصحاب الاقطاع أنفسهم بجمع الأسلحة التى يمتلكها رعاياهم من المورسكيين .

الخطورة الكبرى الأخرى التى يمثلها المورسكيون تأتى من توزيعهم فى الأراضى وسهولة تحركهم ، وقد حاولت السلطات أن تجعلهم مستقرين بعيدا عن الشواطىء وأن تمنعهم من أية تنقلات ليست لها ضرورة حتمية ، وقد رأينا هذا الوضع بصورة مستمرة فى مملكة بلنسية ، ونفس الشىء نراه بصورة مماثلة فى نطاق مملكة قشتالة ، أما توزيع الغرناطين المنفيين إلى أراضى هذه المملكة فقد بدأ مرضيا إلى حد ما ، فقد كان هناك مورسكيون يتمركزون بأعداد كبيرة فى مناطق قريبة جدا من شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وبالقرب من مملكتى بلنسية وغرناطة ، وقد تنبه الموظفون الرسميون لهذه الحقيقة ، فأعدوا فى الحال ، فى ديسمبر سنة ١٥٧٥ ، خطة واسعة النطاق تعمل على تفريق هؤلاء المسيحيين الجدد وإبعادهم عن الأندلس كلما كان ذلك ممكنا ، وهكذا فإن المورسكيين الغرناطين الذين كانوا قد أبعادوا عن أوطانهم اعتبارا من أول نوفمبر سنة ١٥٧٠ ، كان عليهم أن يعانون من طرد جديد ، ولكن تقرر عم تنفيذ هذا المخطط ؛ لأنه كان معقدا ويتطلب وسائل كثيرة ليصبح حقيقة واقعة (١) ، ولذلك نرى أن

I- B. Vincent: L'expulsion des morisques du royaume de Grenade ... PP. 227'- 229'.

الموظفين الرسميين قد ركزوا اهتماماتهم بعد ذلك على مشروع أيسر تنفيذًا وهو تغيير مواطن إقامة المجموعات التي تستوطن الأندلس ، وقد تأثر بهذا المشروع أو ناله ضرر من جرائه عدد لا يقل عن ٢٠ ألف شخص ، ويرجع تفكير سكرتير الملك فيليب الثاني في هذا المشروع إلى شهر مارس سنة ١٥٧١ ، رغم اعترافه بأن تموين القوافل يمكن ضمانه بصعوبة في ظل ذلك المشروع (١) .

ومهما يكن من أمر فقد اتفق على تفصيلات العملية بعد تردد كبير وأعلنت بمرسوم صدر في ٢٢ نوفمبر ، وفي ديسمبر ، غادر آلاف المورسكيين ، على الأقل عشرة آلاف بدون شك - الأندلس ، متجهين إلى أرض أكثر عمقا ناحية الشمال ، فالمورسكيون من " جيآن واندوخر " و"جوها ناحية " جوادا لاخارا " (وادي الحجارة) ، والمورسكيون من " اوبيدا وبايثا وكارولا " سيقوا ناحية "اوكاينا وببيس" . أما المورسكيون من كامبو دى لا ترابا " فى الأندلس ، فقد وجهوا ناحية طليطلة ، وتوجه المورسكيون فى " دى اثيخا " نحو " بلا سنثيا " (٢) ، وقد كلفت المدن الموكول إليها أمر استقبالهم أن تفرق بينهم من جديد إلى مسافات بعيدة ما أمكن ، ولهذا وجدنا أن المورسكيين قد بعث بهم من "طليطلة" إلى مدينة " دى الكامبو وتورديسيو " ، وأن المورسكيين من " بلاسنيا " أرسل بهم إلى مدينة " رودريجو " حيث وصل إليها ٥١٣ مورسكى فى ٣ يناير ١٥٧٢ . أما المورسكيون الآخرون الذين كانوا فى " قرطبة واسبيخوا " و " الكواديتى " و تريجو " فقد أمكنهم البقاء فى "قرطبة" بفضل تدخل سلطات المدينة بصورة قوية لصالح الاحتفاظ بهم ، وفى نفس الوقت استمر

1- Archivo general de simancas. Camera de castilla, leg. 2. 161, Fol. 15'

2- ID. id. leg.2. 167'

B. Vincent: Historia ... P. 67'. أنظر فى الموضوعين السابقين

طرد المجموعات الصغيرة من مملكة غرناطة .

وكان يعتقد أن نفى ديسمبر سنة ١٥٧١ صحح - ولو بصورة جزئية - الطرد الذي سبق تنفيذه في العام الماضي ، وبدا أنه أمكن حل مشكلة توزيع المورسكيين في مملكة قشتالة ، والواقع أن ذلك خطأ ؛ لأن المجموعات الكبيرة التي استقرت في اشبيلية وقرطبة ، كان الواحدة منها تتكون من عدة آلاف من الأفراد ، وهذا يعتبر أمراً خطيراً ، ومن ناحية أخرى فإن هناك مورسكيين كثيرين رجعوا خفية إلى مملكة غرناطة ، خاصة من المدن القريبة ، وبصفة أخص مملكة " جيان " إن صح ما أعلنه " دون بدرو دي ديثا " في رسالة أول نوفمبر ١٥٧٣ (١) . وقد بذلت السلطات قصارى جهدها مع تصميم شديد علي امتداد عشر سنوات من أجل احترام التوزيع الذي تم بين سنتي ١٥٧٠-١٥٧١ ، لكنها لم تحقق نجاحاً كبيراً . أن موقف مدينة "قرطبة" وما تقرر بشأنها في خريف ١٥٧١ ، كان سبباً في ظهور مواقف أخرى مماثلة ، فقد عارض نواب المدن المعنية مغادرة المورسكيين لبلادهم متعللين بمبررات اقتصادية ، يعني أن وجهة نظرهم هي أن المكاسب التي يجنونها من وراء وجود هذه الأقلية الفعالة ، أعلى من الخطر السياسي الذي يحتمل أن تمثله ، وهكذا نرى بلادا مثل "القلعة دي انيارس" (قلعة عبد السلام) ، و"انتيكيرا" ترفض في سنة ١٥٧٣ السماح بتوزيع من ٢٥٠ إلى ٣٣٧ عبدا مورسكيا ، وتكرر هذا من جديد في العام التالي .

وقد نقل السيد "بدرو دي ديثا " إلى الملك ، شهادة المأمور القضائي بالقلعة الملكية : " ما يريدونه هو رجم السكان ، لأنهم يشعرون أنهم

1- Archivo general de simancas, Camara de castilla, leg. 2. 174'

B. Vincent: Historia ... P. 68 '.

يخرجون أكثر من أبنائهم أنفسهم ، إنها المحبة لهم ، والكرهية نحو الذين ينفذون ما أمروا به " (١) .

بعد ذلك بعدة سنوات ١٥٧٩ - ١٥٨٠ ذهب المستولون إلى كرمونا ويايثا ومرسية" ، ووجهوا باعتراضات كذلك ، وكان رد "مرسية" معبراً ، يقول:

" الآن يأمر مجلسنا المورسكيين المذكورين بأن يخرجوا من المدينة ، ويعودوا إلى محل سكنهم القديم ، لأن وجودهم أذى عظيم ويضر هذه المدينة ، وينقص من إيراداتكم ومن الثروة الملكية ، إننا نتوسل لصاحب الجلالة الا يسمح ولو بمكان واحد ، إن ال ٥٠٠ منزل الموجودة للمورسكيين في المدينة المذكورة ، والمعدة منذ زمن في هذا الجزء ، ينبغي أن تنهب ، ولا يحملون إلى أماكن أخرى " (٢)

وكان الوضع مماثلاً لذلك تماما داخل مملكة غرناطة نفسها ، فقد كانت المجموعة المورسكية تتكاثر بشكل عادي ، وقد كشف إحصاء أجرى عام ١٥٧٧ عن وجود ١٤٧٨ أسرة مورسكية (٣) ، إحصاء آخر ، أكثر دقة وأكثر تعبيراً وصل بهم إلى ٨٦٩٨ مورسكيي عام ١٥٨٠ (٤) ، دون أن ندخل في الاعتبار أولئك الذين هربوا من الإحصاء ، وكان هؤلاء المورسكيون يتجمعون في المدن ويشكلون خطراً لا ترضى به السلطات الرسمية ، وقد كان في مدينة "غرناطة" وحدها ثلاثة آلاف مورسكي وفقاً

١- نفس دار المحفوظات العامة بسمينقة - الورقة ٢١٧٥ بتاريخ ١١/٢/١٥٧٤ .

٢- المصدر السابق ٢١٨٢ بتاريخ ١/١٢/١٥٨٠ .

٣- نفس ورقة ٢١٧٩ - بدرودي ديثا - في ١٥٧٧/٦/٩ .

٤- نفس ورقة ٢١٨١ وانظر أيضا

لتقدير أحد القادة ، ولهذا فإن المرسومات الملكية الصادرة فى ٦ مايو سنة ١٥٧٦ ، ٢١ يوليو سنة ١٥٧٨ ، ٤ أبريل ١٥٧٩ ، ٢٦ يناير ١٥٨١ ، أمرت بتوزيع معظمهم ، لكن الإجراءات التنفيذية كانت تصطدم دائما بالإعتداءات المورسكية ، حقيقة إن نصف الـ ٨٦٩٨ مورسكى فى احصاء ١٥٨٠ كانوا عبيدا يعملون فى المنازل ، قد تعود أسيادهم أن يؤجروهم للعمل لدى الغير ، ومع ذلك فإن المرسوم الأخير الصادر سنة ١٥٨١ ترك تأثيرا ، لكن بعد ثلاث سنوات طويلة من التعسفات والإلتزامات ، بل أنه حتى اللحظة الأخيرة وفى يناير سنة ١٥٨٤ ، فإن اسقى "غرناطة وقادش" مع بعض المدن كانوا يحاولون تعديل الموقف الملكى ، ومن المحتمل أن تكون هذه الضغوط قد أفلحت فى تخفيض عدد المورسكيين المطرودين ، وقد اجتمع سبعة من المندوبين فى النصف الثانى من يناير من نفس العام مع عدد يتراوح بين ٣٠٠٠ ، ٣٥٠٠ شخص ، بدأوا طريق الرحلة إلى القشتالين : قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة ، وخصص أكثر من مائتين للعمل فى المناجم كما تمكن الملك فى أغسطس ١٥٨٥ من توزيع ٤٠٤ غرناطين آخرين فى اتجاه " استريما دروا " ، وقد باشرت المجموعة الأخيرة هجرة شاقة ، وبعد ذلك فإن السلطات لم تتمكن أو لم ترغب فى تنظيم توزيع جديد برغم تحركات المورسكيين المستمرة ؛ السبب أن ذلك كان قريبا من حادثة الطرد النهائى من أسبانيا والذى تم ١٦٠٩ - ١٦١٤ كما سنيين فى الفصل التالى .

من ناحية أخرى فإن زمن العمليات المحدودة أصبح ينظر إليه على إنه فترة قد انتهت ، فأى فائدة تجنيها من وراء إعادة توزيع المورسكيين أو اجراء احصاءات لهم ؟ وأى مكسب يأتينا من تحرك القساوسة والرهبان من أجل تبشير أفضل بالمسيحية ؟ إن المورسكيين يصرون على موقفهم ولو

كان خطأ من وجهة النظر المسيحية ، ويسخرون من التحذيرات التي توجه إليهم ، ويواصلون عداوتهم التي لا تلين ، ومن هنا فإنه لا بد من البحث عن حل جذري لهذه المشكلة ، ولا بد من العمل على تجنب الخطر الذي يمثله هؤلاء عند المسيحيين القدامى ، وفي هذا الصدد فإن لدى السلطات الرسمية سابقة ، هي سابقة طرد الغرناطيين من وطنهم الأم ، وكان هذا العلاج يبدو ممتازا في حينه ، لأنه بالإضافة إلى حل النزاع ، أمكن أن يفيد كمثال أو باعتباره تحذيرا للجماعات المورسكية الأخرى ، وبالفعل استمر أثر هذا الإجراء الذي نفذ عام ١٥٧٠ لبعض الوقت ، وكانت نهايته تتمثل في ذلك النفى البسيط الذي جرى في أغسطس ١٥٨٥ . وعلى كل حال فقد وصلت إلى الملك معلومات وآراء حرة من كل الجهات ، وكلها يقترح أشكالا متنوعة لحل المشكلة المورسكية ، وكان القاسم المشترك بينها جميعا هو طابها الراديكالي .

فلنتظر في الطرد العام بصفة خاصة ؛ ربما لأن هذا الشكل هو الذي كانت له الغلبة والأف فإن دائرة الأمور التي اقترحها الاساقفة والمستشارون ورجال الدولة كانت واسعة ، فبالإضافة للطرد العام من كل أسبانيا ، ظهر اقتراحان فرضا نفسيهما بالقوة ، أولهما تشكيل جيتوس Guettos والثاني التخلص من الأقلية المورسكية بصورة تدريجية ، وكلا الأمرين يستحق وقفة .

لقد كان " فرأى فرنسسكو دي ريبس " من بين مؤيدي أسلوب " الجيتو " وقد أخطأ " بورنات " عندما عدّ هذا الراهب بين مؤيدي الطرد ، وقدم معلومات خاطئة ونظرة قاصرة في معالجته الطويلة لموقفه (١) ،

1- P. Boronat: los moriscos Espanoles y su expulsion, 1, PP. 296 - 297'

الشيء الذى كان يدافع عنه الراهب المذكور هو منح كل مورسكي حرية الاختيار ، يعنى أن يكون فى مقدوره أن يختار إما الاندماج فى المجموعة المسيحية بدون تحفظات أو البقاء مخلصا للإسلام . الحالة الأولى فإن المسيحيين القداماء سيكون واجبا عليهم ملاحظة سلوك المورسكيين عن قرب وفى الحالة الثانية فإنه يبعدون فى " الجيتو " ، وبهذا يزول الغموض الشامل فى المسألة المورسكية :

" الذى يريد تعميد ابنه فليعمده ، ومن لا يرد فلا يعمد ، والذين يرغبون من هؤلاء فى تعميد أبنائهم بإرادتهم وحريرتهم يقبلون العقيدة الكاثوليكية ، فليعلنوا ذلك على الملأ ، وليتعاونوا مع المسيحيين على الطريقة المسيحية ، وسيكون مفروضا عليهم الإعراف والإشتراك فى القران وكل الأعمال المسيحية الأخرى ، ويكتبون فى قائمة المسيحيين ويكون معهم مراقب ، ويجرى عليهم ما يجرى على المسيحيين من حيث أسلوب الحياة وطريقة الزواج وبالصورة التى تسمح لهم أن يتزوجوا منا . . ولنحذرهم بأننا سنستخدم القسوة معهم إذا انفصلوا عن عقيدتنا الكاثوليكية ، كما هو جارٍ اليوم مع اتباع مذهب " لوتيروس " ، والذين ينفصلون هؤلاء سيكونون قليلين ، وإذا حدث ذلك فإننا يمكن أن نعدّ لهم برنامج تعليم خاص ، ويمكن أن فمنحهم بعض الأمل ، والذين لا يريدون تعميد أبنائهم سوف نعتبرهم جميعا أعداء لنا ، ولن نشرب ماء معهم ولن نعاملهم ، ولأنهم مسلمون فإنه يحتفظ لهم بالقانون الطبيعي ، وتكون حماية أماكنهم على نفقتهم ، ويكون بينهم جنودٌ منا ممن نظمنا إليهم ، ويكون قضاتهم وقوانينهم وحكامهم من المسيحيين وفيما يمسّ مذهبهم فإننا لن نعاونهم ولن نعوقهم ، وسيكون حسنا أن نسمح لهم ببعض الأماكن التى تشبه مخازن التبغ ، ليمارسوا فيها شعائرهم ، ذلك أنه ليس هناك

أخطر من أن تحول مسيحياً ليصبح مسلماً " (١)

قريب من هذا النص . وإن اختلفت فيه الوسائل المقترحة ، رأى من "أشبيلية" بعث به " الونسو جيتيرا " ، سنة ١٥٨٨ (٢) مقترحاً جعل المورسكيين مجموعات بحسب الانساب ، فنصل إلى ٢٠٠ أسرة أى ٢٠٠ شخص تزيد أعمارهم عن ١٦ سنة ، وهؤلاء يوضعون تحت اشراف رئيس مسيحي ، يمارس عليهم رقابة دائمة ، ولا يتم أى زواج بدون موافقته ، ولا يسمح لهؤلاء بتملك أسلحة ، وسيكون مفروضاً على كل أصل من حيث النسب (أصل النسب) أن يدفع ضريبة سنوية عالية للملك ، وسيتسلم الملك أيضاً خمس التركات . وقد حذّر نفس صاحب الرسالة من فرض عقوبات قاسية فى حالة مخالفة الأوامر ، ابتداء من الغرامات المالية إلى ضرب الرق ، مروراً بمصادرة الأموال والأشغال الشاقة فى المناجم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وقد رأى أيضاً وجوب منعهم من الانتقال أو تغيير محل الإقامة ، ووجوب وضع علامة مميزة عبارة عن خط أو شارة فى الوجه بحيث لا يمكن إخفاؤها ويكون معروفاً أن حاملها من المورسكيين (٣)

أما المطالبون بإبادة الأقلية المورسكية ، فقد برهنوا على أنهم عنصريون أكثر من غيرهم ، مثلاً " بدرو بونشى دي ليون " الذى أمضى فى الخدمة الملكية ٢٠ سنة ، كان حساساً بالنسبة للمشكلات التى نشأت من تجنيد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وفرض العمل عليهم بالسفن أو فى

1- Archive de valencia de Don juan , Madrid, 1 , p. 183, año 1582'

B. vincent: lo historia de los moriscos, P. 70'. وانظر

2- P. Boronat y Barrachina, op. cit, PP. 634 y ss. وانظر

3- Ver: supra, P. 65, los proposiciones identicas de alonso chacon

B. Vincent : historia ... P. 70'.

المناجم ، ولهذا فقد فكّر منذ ١٥٨١ فى حل مشكلة المورسكيين ، ونصح بأن يرسل كل الذكور ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨ إلى ٤٠ سنة رسمياً إلى السجون ، حتى يمكن عزل العناصر القوية التى تسبب ازعاجاً للدولة وينتهى الأمر باختفائهم ، أما من هن فى سن الأربعين وما بعدها ، فلا بأس من تكاثرهم قليلاً ، سيأتي وقت قريب ، ينتهى فيه من كل أسبانيا هذا الجيل الشرير، من هؤلاء الأعداء المؤكدة عداوتهم لصاحب الجلالة " (١) ومنذ سنوات خلت ، وعلى وجه التحديد فى سنة ١٥٧٣ ، فإن " توريوخوس " قد وصل إلى نتائج مشابهة ، وكان ذلك الشخص يعمل قسيساً فى " دَرِيْكَال " عندما قامت الثورة الغرناطية وقد أنقذه من مصير غيره أنه ابن لأب مسيحي وأم مورسكية ، فحمته الأبوة المرتبطة بتلك الأمومة ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنعه من عمل خطة تهدف إلى اخفاء المورسكيين عن طريق خطف كل الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ٦ سنوات ثم نظمهم على إعطاء كل طفل لمسيحي قديم يحافظ عليه ويرعاه ، ثم منع الزواج بين المورسكيين ، وبذلك نفرغ من هؤلاء بسرعة .

" فليأمر جلالتم بالآ يتزوج مورسكي من مورسكية ، ولا مورسكية من مورسكى ، ومن يرغب فى الزواج منهم ، فليتزوج من المسيحيين القداماء ، وهذا سيكون سبباً فى بقائهم أو بقائهن بدون زواج ، وإذا استمر الوضع هكذا ، فسنرى نقص هذا الجيل وقتله ثم يقضى عليه ؛ لأنه بدون الزواج من المسيحيين القداماء ، سوف نرتاح ، وإذا تزوج البعض فسيكون هؤلاء أقلية قليلة جداً ، ويناسب أن يكون لنا مع هؤلاء موقف فيما يتعلق بِنقاء الدم ، ولن يكون هذا عائقاً كبيراً ، فیهود "قشتالة" كان

1- Archivo de valencia de Don Juan, Madrid, envio 1, P. 110'

ذكره برنارد بيشتى : تاريخ المورسكيين .. ص ٧٠

عدددهم مثل عدد هؤلاء ، ولم يعد أحد يشعر بهم تقريباً الآن ، لأن المورسكي الذي يتزوج مسيحية قديمة سكون أبناؤه مسيحين خوفاً من الزوجة ، ونفس الشيء بالنسبة للمورسكية التي تتزوج من مسيحي قديم ، وبهذا الأسلوب لن يتزوج هؤلاء ، وسرى نقص جيلهم والتقليل منهم ثم انتهاؤهم . . . " (١)

مذكرتان حملتا هذا المنطق الذي لا يرحم إلي أبعد مدى ، وأيضاً فإن خصاء المورسكيين ، كان عبارة عن اقتراح لأسقف " سيجورتى " الذي كتب سنة ١٥٨٧ يقول :

" سوف نفرغ من كل شيء ، وننتهي من كل الذكور كباراً وصغاراً ومن كل النساء بهذا الأسلوب " ، بينما رأى " الونسو جيتيرث " اللجوء إلى هذه الوسيلة فقط لمنع الانتشار المتكاثر للجذور النسبية . (٢)

لقد كان هناك اذن تياران من الأفكار تم التعبير عنهما بشكل موسع رغم أن أصحابها كانوا أقلية في العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر لكن التيار القادر والذي كان ينصت إليه أكثر في الأوساط الحكومية ، كان ذلك التيار الذي يحبذ طرد المورسكيين من كل أسبانيا ، يبدو هذا بوضوح في الآراء المعلنة بالاجتماعات التي عقدت في " لشبونة " ، وكانت لها أهمية سياسية ، وكان فيليب الثاني موجوداً في هذه المدينة قد فرغ لتوه من تنصيبه ملكاً على البرتغال، وقد عقد الاجتماع الأول في الرابع من ديسمبر سنة ١٥٨١ ، وحضره كبار رجال المملكة ، وتم في هذا

1- Archivo general de simancas, camara de castilla, leg. 2. 178'

Madrid 29 - VIII - 1573'

B. Vincent: Historia de los moriscos, P. 71'

تقلا عن :

2- P. Boronat y Barrachina, op. Cit, 1, P. 346 y634.

الإجتماع دراسة الوضع الداخلي الصعب والوضع الخارجي ، وما يمثله الدور المورسكي من خطر ، كما درست الحلول المقترحة ، وعقد اجتماعان آخران فى ١٩ يونيو ، ١٣ سبتمبر سنة ١٥٨٢ ، انصب كلاهما على اقتراح النفى العام الذى انتهى مجلس الدولة من صياغته فى ١٩ سبتمبر من نفس العام .

فلنركز الحديث عما جرى خلال الحقبة موضع الدراسة :

لقد اكتشفت أمور تستوجب الفرع فى الفترة من ١٥٦٤ - ١٥٦٦ وهى فترة نشاط اللصوصية الأراجونية المدعومة بالمهاجرين الفرنسيين الذين هربوا من المشكلة الدينية فى فرنسا - فقد كان المورسكيون فى اقليمى " كالاتيادا " و " فيلا فتشى " ، يصنعون أسلحة ويرسلونها لـإخوانهم فى بلنسية. وفى سنة ١٥٧٠ اتخذ الملك فيليب الثانى إجراءات احتياطية ازاء امكانية قيام هجوم تركيى بسبب الثورة فى "غرناطة واسبيرنكا" ، ولا بد أن المورسكيين فى "أراجون وبلنسية" وجزيرة "سردينا" يشعرون بالتعاطف مع إخوانهم فى غرناطة ، ولأن أفريقية قريبة فإنه من الممكن أن يعاون هؤلاء بعضهم البعض الآخر . وقبل ذلك بقليل فإن مفتش " سرقسطة " لفت نظر الملك والمفتش العام إلى الموقف الخطير الذى لاحظته لدى جماعات المسلمين الأراجونيين ، وفى ١٥٧٥ أصبح التوتر خطيرا وبدأنا نسمع عن اقتراحات بنزع سلاح المورسكيين وإلغاء كل التنظيمات التى تقف عقبة فى سبيل هذا الأمر . وقد تلقى الملك اقتراحات نائب مستشار "أراجون" حول الإجراءات آت الوقائية الواجب اتخاذها ضد المورسكيين وهى :

أ- تعيين حراسة على منطقة تجمع المسلمين .

ب- تعيين مساعد عسكري لمساعدة والى اراجون .

ج- إرسال قوات اضافية لاقاليم المملكة ودعم وتقوية الأماكن التي يمكن أن يتخذها الترك للهجوم على أسبانيا .

د- التسليح الكامل بحيث يرهب الأعداء الحصون الأسبانية .

هـ- تسليح المسيحيين القدامى ونزع سلاح المورسكيين .

و- انتقاء الرؤساء والقادة المسئولين عن المورسكيين .

ز- تقوية الشواطىء والطرق فيما بين اراجون وبلنسية .

ح- أن يصدر أمر لسادة المورسكيين بأن يقيم هؤلاء فى أماكنهم .

ط- أن يستمر الإتصال دائما بين الولاة وبين الملك بهدف اتخاذ القرارات الفعالة ، وأخيرا يصير نائب المستشار على ضرورة ارسال أسلحة إلى منطقة اراجون بصورة عاجلة ، ويختم مهذا البارونات بتحويلهم إلى محاكم التفتيش إذا لم يقوموا بواجبهم .

وفى سنة ١٥٧٥ أمر بنزع سلاح المورسكيين الارجونيين على أساس أن هؤلاء اتصالات مع البربر ومع اتباع مذهب " كلفينوس " بفرنسا ، ويبدوأن هناك مبالغات فى تقرير مرفوع إلى الملك من نائب مستشار إراجون يقول أن عدد المورسكيين فى المملكة عشرون ألفا ، فعدد منازل هؤلاء لم يتجاوز أحد عشر ألفا ، من المحتمل قليلا أن يضم كل منزل اثنين من المورسكيين المسلحين ، خاصة وأنه لم يكن يملك السلاح إلا العبيد عند بعض السادة ، ممن لهم عداوات مع غيرهم ، لحاجتهم إليه فى كفاحهم عن سادتهم ، أما المورسكيون الذين عاشوا مع سادة بلا مشاكل فلم يكونوا

بحاجة إلى هذا السلاح ، وكان نائب مستشار اراجون يرى أن احتمال الإتصال بملوك المغرب أو أتباع مذهب " كلفينوس " بفرنسا ، احتمال غير وارد بسبب ضيق جبال البرانس ، بالإضافة إلى أن المورسكيين لم يكن لديهم ميناء بحري يمكنهم من التحصن والدفاع ولو لمدة يومين ، فوق أن كل مورسكى كان يقابله مائة مسيحي ، ولهذا كله استبعد حدوث ثورة أو تمرد . أما عدد منازل المورسكيين فكان ١٠٨٢٥ ، وقد عثر عندهم على ٥٤٠٦ قطعة سلاح و ٣٠٥٣ بندقية من الطراز القديم و ٩٦١ منجنيق و ١٣٨٢ سلاحا من نوع آخر (١) .

وفى سنة ١٥٨٥ بدأت الحرب الأهلية بين المورسكيين يدعمهم سادة الاقطاع ولوس برتيسس" (مستقبلا انريكى الرابع ملك فرنسا) بعد ذلك بثلاث سنوات، دعا الملك إلى اجتماع غير عادي بقصر " البرادو " لدراسة المشاكل الناجمة عن المورسكيين ، وكانت نتيجة المناقشات ضرورة نزع سلاح المورسكيين اجباريا على أن يوضع فى الإعتبار الأعداد الكبيرة المسلحة منهم وأن لهم اتصالات مع الأتراك ومع الملحدين وأنهم يعيشون فى اقطاعياتهم النائية ، ولهذا فلا يمكن أن ينتظر منهم إلا التمرد ، ولهذا فإنه من المناسب أن ينزع سلاحهم خلال فصل الشتاء وحتى نهاية أبريل ، ويجب ألا ترسل قوات أجنبية حتى لا تثير الشبهات كما يجب التعامل مع السادة بمودة وإقناعهم بأن نزع سلاح المورسكيين أمر لا بد منه ، ومن الضرورى تقوية الحصون والحدود الفرنسية وكل الأماكن التى يمكن أن تستقبل المورسكيين ، ولا بد من العمل على عدم التقائهم مع المورسكيين فى بلنسية مهما كلف الأمر .

1- Juan regla: Estudios ... PP. 70 - 73'.

وقد أخبرت السلطات فى " سرقة " الملك فيليب الثانى عن بعض المؤامرات وطلبت منه ارسال تعزيزات عسكرية عاجلة وأضافت أن الخطر الأكبر هو الخشية من تمرد مورسكى وأنه يناسب أن يشير الملك بما ينبغى عمله اذا تحرك المورسكيون ، وكان أسقف " سرقة " يرى أن الأسلوب الأمثل لنزع سلاح المورسكيين هو أن يتم ذلك بمعرفة السادة أنفسهم ، لأن البعض يقول إنه مادامت المملكة مضطربة وأن رجال الجبل يثيرون المورسكيين فانه ليس من العدالة تجريدهم من سلاحهم حتى يمكنهم الدفاع عن أنفسهم .

إن التطورات التى حدثت فى أراجون^١ بسبب بعض المؤامرات الداخلية ومحاولات ملك فرنسا التى تلت ذلك، رفعت التوتر فى المشكلة المورسكية ويقال أنه جرى حديث فى القسطنطينية بين سنتى ١٥٨٩ - ١٥٩١ عن تجهيز ٣ من السفن الكبيرة القديمة لارسالها نجدة للمورسكيين الذين كانوا يثيرون الفتن فى اسبانيا(١) وقد نظم أحد المتآمرين واسمه " انطونيويرث " هجوما فاشلا ضد الاراضى الأراجونية سنة ١٥٩٢ ، بدعم من "انريكى" ملك فرنسا مستقبلا ، وقد تصادف هذا مع تمرد مورسكى ، وقد حاول المتآمرون توجيه المسألة المورسكية لصالحهم اكثر من مرة ، وكشف "انريكى" نفسه سنة ١٥٩٣ عن خطة جديدة لتمرد فى اسبانيا يعتمد على المورسكيين فى بلنسية الذين يزيد عددهم عن ٢٠ الف سيتحدون مع اخوانهم فى اراجون ، كما سيهاجم " سرقتسة " الفان من Gascones وسوف يعلن بعض المتمردين العصيان فى بعض القلاع المهمة فى الطريق بين " اراجون ویرشلونه " . وسيجاوب عملاء آخرون مع هذا

١- نقلا عن براوديل : البحر الأبيض بالفرنسية ص ١٠٤٧ .

التمرد فى المدينة الأخيرة وفى اشبيلية ومدريد ، كما سيشارك فيه الملكة " ايزابيل " ملكة انجلترا ، وقد وصلت كل هذه المعلومات الى الملك عن طريق جاسوس مشترك ؛ فكتب يقول أنه يرى كل هذا بل ويعلم انه حقيقة ولهذا اصدرت أمرا بنزع سلاح المورسكيين فى " أراجون " ، وقد تم ذلك بصورة فعالة سنة ١٥٩٣ وتأخر عاما بسبب النزاع بين الوالى وبين الماركيزات .

وفى ديسمبر سنة ١٩٥٦ عاد مجلس الدولة الى الاهتمام بالمورسكيين الارجونيين ، واتفق على أمور طلب من الوالى تنفيذها وهى :

أ - أن يسلمح المسيحيون القدامى وأن يوزعوا على معسكرات ويعين لهم رؤساء ويعنى بهم الى أن يطلب منهم القيام بنشاط .

ب - أن يقوم السادة أنفسهم بنزع سلاح المورسكيين ووضعه فى أماكن آمنة .

ج - حتى يقوم المورسكيون بذلك فى سهولة فإن محكمة التفتيش تعفيهم مما جرى فى الماضى ، ومن لا يقدم سلاحه لن يستفيد منه ويصبح بلاقيمة .

د - يؤمر الذكور بالاقامة فى اراضيهم ونحترم الاتفاقيات معهم الا اذا اكتشفت تحركاتهم ونواياهم الشريرة ، على أن يتم إبعادهم عن تأثير السادة الاقطاعيين .

هـ - أن يحمل المسئولون ومن بيده سلطة منهم على العيش بين المسيحيين القدامى

و . مراقبة الطرق لمنع الاتصال بين المورسكيين فى اراجون واخوانهم فى بلنسية .

وبالنسبة لفرنسا فان المورسكيين يعيشون فى ركن قصى بعيد عن حدود وموانئى فرنسا ، لهذا ، ويسبب وجود عصابة قشتالة ، فان الخوف ليس كبيرا ، ومن الواجب اتخاذ القرار وبسرعة قبل انهاء فصل الشتاء وإرسال القوات اذا لزم الأمر ، والتصرف بسرعة حسبما تملى الظروف .
ويعد موت "فيليب الثانى" بفترة قصيرة ، وعلى وجه التحديد سنة ١٥٩٥ ، خطط "انريكى الرابع" ملك فرنسا لمؤامرة جديدة ضد اسبانيا اعتمادا على تمرد مورسكى ، لقد كانت هناك نوايا لهجوم على عمق اسبانيا يحتمل جدا أن يكون قد تم الاعداد له بالاشتراك مع المتآمر "أنطونيو بيرث " ، وقد قام فى قسم رئيسى منه على اضطراب الجذور النسبية داخل شبه الجزيرة . وكان " باسكوال سانتى ستيبان " - وهو جاسوس مشهور جدا - أحد الضالعين فى المؤامرة ، وقد نقل خبرا الى انريكى الرابع مؤداه أن المورسكيين يعملون فى صمت لرفع نير العبودية والظلم ، وقد طاف نفسه بكل الاقاليم والأراضى الاسبانية بهدف اعداد الارض وتقديم هبات ووعود كثيرة باسم ملك فرنسا ، لكن الحكومة الاسبانية فضحت المؤامرة بعد تمام الاعداد لها .

يقول " مارنيون " إن الثورة التى اعد لها بشكل جيد جدا فشلت لسوء الحظ ، ليس بسبب و،شاية " سانتى ستيبان " هذه المرة ، بل بسبب حائك مورسكى تحول الى المسيحية وأراد تقديم خدمة للملك الكاثوليكى ، وكذلك بسبب اخلاص ملك المجلترا الذى دعى للاشتراك فى المشروع ولكنه أخبره " مدريد " لصداقته مع ملك اسبانيا .

وهكذا يتضح من التحليلات السابقة أن المشكلة المورسكية " باراجون " - خلال عهد فيليب الثانى شهدت مجموعة من العناصر عاوتت على زيادة التوتر وهم الاتراك والبربر واتباع " كلفينوس " بفرنسا ومصالح سادة الاقطاع والامتيازات ، وستتميز المشكلة بنفس الصورة خلال عصر فيليب الثالث (١)

إن معظم الآراء المؤيدة لاقتراح الطرد ، كانت تنبنى على شئ واحد هو دراسة مايترتب على ذلك من مكاسب وخسائر ، وكانت الخسائر اقتصادية بالدرجة الاولى وتتمثل فى نقص الايرادات الملكية ودخول أصحاب الاقطاع ، لكن كانت هناك خسائر سياسية تتمثل فى الحوادث الخطيرة التى قد تحدث عند تنفيذ هذا الاجراء ، وهناك موانع دينية يعنى الخوف من أن تفقد المسيحية أرواح المسيحين بشكل لايمكن تداركه أو تعويضه ، وقد اعتبر هذا كله - بصفة عامة - أقل من المزايا التى ستترتب على الطرد والمتمثلة فى الوحدة والسلام ، لهذا فإن كل الدرجات الدينية تقريبا كانت تؤيد اتجاه طرد المورسكيين جميعا من كل اسبانيا مثل اسقف ^١ " تليطلة واسقف بلنسية " وكذلك مفتشو التحقيق فى ^٢ "بلنسية" وقد تخيل البعض اجراء معين حتى لايدخلوا فى الاسلام ، فرأى الاسقف " سيجوزمى " (٢) نفهم الى جزيرة صحراوية نائية يمكن أن تكون جزيرة " تيرانويا " ، وقد رثى أن قبول هذا الاقتراح ليس ضروريا مادام صاحبه قد وافق على الطرد من حيث المبدأ ، على أن اجراء النفى فى هذه الآونة قد لا يتم بسبب ذلك ويسبب المعارضة التى يقوم بها أصحاب الاقطاع ممن يضر بهم هذا الاجراء ، وأيضا بسبب صعوبة توفير الوسائل العديدة التى

1- Juan regla: Estudios ... PP. 73 - 83'.

2- P. Boronat. op. cit. 1,606, 633'.

يتطلبها تنفيذ هذا الاقتراح ، وأخيرا بسبب خطورة الوضع الدولي الذي استحوذ على اهتمام الملك آنذ .

لقد هبطت درجة التوتر - الى حد ما - بين الجماعتين : الاسلامية المنصرة والمسيحية ، حتى إنه نصح ببعثة تبشيرية وبادرة رسولية جديدة فى إجتماع عقد بمدريد بتاريخ ١٧ يونيو ١٥٨٧ ، ومع ذلك فلم يعتقد أحد من أعماق ضميره فى فاعلية هذه البادرة ، وواصلت فكرة الطرد سيطرتها الكامنة باعتبارها الوسيلة الوحيدة المجدية . وفى سنة ١٥٩٨ تم توقيع معاهدة " بيرتيس " مع فرنسا خطوة أولى نحو سلام عام

وبدأت الارستقراطية المالكة فى " أراجون " و " بلنسية " تفكر فى الفوائد التى يمكن جنيها من وراء احلال مواطنين جدد محل المورسكيين أو المسلمين المنصرين (١) ، وهكذا بدأ مصير المورسكيين هؤلاء يتحدد منذ ١٥٩٨ م .

بعد هذا العرض الذى قدمناه فى هذا الفصل ، فإن الباحث يعجب من موقف السلطات الرسمية إزاء هذه الأقلية المسلمة ، لماذا كل هذه المضايقات ؟ ولماذا كل هذه المطاردات ؟ ما أن يستقر هؤلاء فى منطقة وتكاد أحوالهم تستقيم حتى يقضى عليهم أن يتفرقوا من جديد حتى كأن التشتت هو قدرهم المقدور ، ويحكم عليهم بأن يخضعوا لرقابة دائمة مستمرة ولا يمتلكون وسائل للدفاع عن أنفسهم إذا لزم الأمر ، فهم مجرمون آثمون دائما وإن كانوا برآء ، ولاهم لرجال السلطة من مدنيين ودينين الا أن يقدحوا زناد أفكارهم بهدف الوصول الى أنجح الوسائل للقضاء على هذا الشعب قضاء مبرما . يكفى أن نشير الى ما ذكره " انريكث

1- Juan regla : Estudios ... P.8.

دى خوكيرا " من انه كان يحتفل فى غرناطة فى أوائل القرن السابع عشر باعدام الملحدین حرقا ، حدث ذلك فى سنوات ١٦٠٦ ، ١٦٠٨ ، ١٦٠٩ ، حيث حكم على شخصيات إسلامية بما فيها بعض من كانوا يشغلون مناصب هامة ، وقد خرجت آلاف نتيجة لمرسوم الطرد . وفى سنة ١٦٠٨ خرج ثمانون شخصا وأحرق أثنان أحياء بينهما امرأة لفظت أنفاسها وهى تنطق الشهاداتين ، وفى سنة ١٦٠٩ خرج ٣٢ شخصا ثبتت عليهم تهمة الردة ، بينهم محلف مدينة غرناطة وكان من الرجال الأقوياء ذوى النفوذ والمال ... ويقول " ريبيرا " ان الانطباع العام أن المورسكيين يواصلون الاخلاص لاسلامهم ، ليس فقط فى غرناطة بل وفى قشتالة وبلنسية وأراجون ... " هذا كل ذنبهم (١) .

وقد تباينت اقتراحات المسيحيين فى رسائلهم الى الملك فيما يتعلق بمستقبل هؤلاء ووصلوا فيها الى أبعد مايتخيله إنسان ، فهل نلوم هذه الأقلية اذا شعرت بالمرارة من هذه المعاملة القاسية ؟ وهل نلومها اذا لجأ بعض أفرادها حتى الى قطع الطريق لينتقموا من بعض ماله يتعرضون ، وليثأروا من جزء من الاهانات التى تقع بهم على أيدي المسئولين دون ذنب اقترفموه اللهم الا إصرارهم على الاحتفاظ بعقيدتهم الاسلامية ورفضهم أن يكرهوا على التنصير !؟

إن بعض ما قام به بعض أفراد من المورسكيين ليس الا رد فعل لما لحقهم ، ولو استقامت السلطة معهم وعاملتهم معاملة طيبة لكان الحال غير

١- أنظر : Cronica de la reconquesta (Francisco) .. Henriquez de jorquera (1482 - 1492). Sucesos de los años 1588 a 1646' Edicion de Don Antonia Marin 1934 Vca sc, 2 P. 550, 558, 563'. occte, 2 Volumenes, Granada

وأنظر أيضا J.C. Baroja: Los Moriscos, P. 210, 212 y Nota 24, P 210'.

مأعرفناه ، ولتغيرت النتائج . وعلى كل حال ، فقد استقر الأمر على نفى هؤلاء وطردهم كلية من الأراضى الإسبانية جميعها ، وقصة هذا النفى هى ماسيعرضه الفصل التالى .

الفصل الرابع

نفي المورسكيين من أسبانيا ،
مبررات ذلك النفي

إتضح مما سبق أن الحكومة الاسبانية كانت تنظر الى المسلمين المنصرين على أساس أنهم خطر على أمن وسلامة البلاد ، وترى لهم اتصالات بالممالك الاسلامية فى افريقية وبالذولة العثمانية فى القسطنطينية ، وبأعداء اسبانيا الكاثوليكية من الفرنسيين والبروتستانت ، وأنهم وراء غارات القراصنة على السواحل الاسبانية ، وأنهم قد يقومون بشورات بايعاز من هؤلاء الأجانب ، وقد يتعاونون معهم على احتلال الثغور وتعريض البلاد للغزو الأجنبى ، أضف لهذا أنهم لا يزالون يصرون على هويتهم الاسلامية ، ويلتزمون العادات والتقاليد ويحترمون مظاهر الحضارة الاسلامية ، سرا أو علنا ، ولم تجد ألوان المعاملة القاسية أو وسائل التبشير فى تحويلهم حقيقة الى العقيدة الكاثوليكية . ومن هنا اتجه التفكير للبحث عن وسيلة ناجحة تستأصل هذه المجموعة من جذورها .

وقد إتجهت السياسة الاسبانية الى التفكير فى نفى المورسكيين جملة من البلاد منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، وظهرت هذه الفكرة على وجه التحديد عام ١٥٨٢ فى ذلك الاجتماع الذى عقد بلشبونه السابق الاشارة اليه (١) ، وكان ذلك بعد الثورة الفرناطية وماسببته من رعب للسلطات ، بل وضع بالفعل مشروع هذا النفى ، وتأجل تنفيذه الى حين بسبب مشاغل السياسة الخارجية .

ولم يكن النفى هو الخطوة الحاسمة الوحيدة التى فكر فيها المسئولون الاسبان للقضاء على خطر المورسكيين ، فقد رأى بعض كبار الأبحار ضرورة القضاء على المورسكيين أنفسهم حتى يتم التأكد من القضاء على مايمثلونه من أخطار ، واقترح المطران " ريبيرا " أن يضرب عليهم الرق جميعا وأن يؤخذ فى كل عام بضعة آلاف منهم للعمل فى

1- J. regla: studios sobre los moriscos P. 49'

السفن ومناجم الهند حتى تجتث جذورهم بهذا الأسلوب ، واقترح البعض وجوب قتل كل المورسكيين دفعة واحدة أو قتل البالغين واسترقاق الباقيين وبيعهم عبدا ، ورأى أحد وزراء فيليب الثاني أن يجمعوا ويحملوا فى سفن ويلقى بهم فى عرض البحر (١) ، ولكن لا بد من أن نشير الى أن هناك من عارض فكرة الطرد لمبررات دينية أو اقتصادية حتى بعد أن استقر الرأى عليه ، ومن هؤلاء السيد " مانويل بونثى دى ليون " ، فقد أرسل رسالة الى الملك بتاريخ ١٦٠٩/٨/٢٨ يشير فيها الى مخاطر اتصالات المورسكيين فى بلنسية بالبربر ، وأتصال المورسكيين فى " أراجون " بفرنسا ولكنه تساءل كيف يسمح لهذا العدد الكبير بالانتقال الى افريقية بعد انخراطه فى العقيدة المقدسة ، واشترآكه فى الطقوس المسيحية واعتناقه لها ؟ من يملأ هذا الفراغ ويعوض سادة الاقطاع ؟ من يملك السلاح حتى ولو لعبد واحد يترك العقيدة.؟ وقد اقترح الاستفادة بما حدث فى بلاد أوروبية أخرى يعنى اقامة ثلاثة حصون فى مملكة بلنسية على نفقة المورسكيين تشبه قلاع ميلان وغيرها ، ويمنع أى اتصال بين المورسكيين وبين المغاربة ، ويقول إن هذا حدث فى الدولة العثمانية حيث تحمل السكان المسيحيون فى البلقان نفقات قلاع بدلماثيا والبانبا وقبرص واليونان ، أما فيما يتعلق بالمورسكيين فى أراجون ، وعددهم أقل ، فانه يقترح بناء حصن يحصرون فيه ويمنعون من الاتصال بفرنسا ، ويحرم عليهم حمل السلاح ، ويجبرون على تعلم القشتالية خلال عامين ، ولا يعملون الا فى الزراعة ، ويتزوجون من مسيحيات قديمات ... (٢)

وعلى كل حال فقد استمر المسئولون فى تخبطهم الى أن مات

1- Ica. the moriscos ... PP. 296' - 299'

2- Juan regla: estudios sobre los moriscos PP. 52 - '53

فيليب الثانى سنة ١٥٩٨ وخلق ابنه فيليب الثالث ، وكان الأخير شابا لا إرادة له ، قد سيطر عليه الأبحار وكبار رجال الدين وكان يتحكم فى قراراته ويصرف أموره " الدوق دى ليرما " ، وكان هذا الوزير من أشد الناس مناصرة لفكرة القضاء على هذا الشعب المسلم المنصر ، وقد وضع بالفعل خطوط تنفيذها منذ سنة ١٥٩٩ ، فالمورسكيون فى نظره عرب مسلمون ، ويجب إعدامهم من تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والستين أو يضرب عليهم الرق ويبعث بهم للعمل فى السفن مع مصادرة ممتلكاتهم ، أما من جاوز الستين ، ذكرا كان أو أنثى ، فينقى الى المغرب ، ويربى الاطفال فى المعاهد الدينية . وقد أقر مجلس الدولة هذا المشروع فعلا ، وبدأ حصر المورسكيين ، بصورة سرية ، فى كل أنحاء اسبانيا .

وفى سنة ١٦٠١ عاد المطران " ريبيرا " الى كتابة تقرير عن هذه المشكلة قدمه الى الملك قال فيه : إن الدين الكاثوليكي هو دعامة المملكة الاسبانية " وإن المورسكيين لايعترفون ولايتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ، ولاياكلون لحم الخنزير ، ولايشربون النبيذ ، ولايعملون شيئا من الأمور التى يقوم بها النصارى ... " ثم يقول : إننا لانثق فى ولائهم لأنهم مارقون ، وإن هذا المروق العام لايرجع الى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع الى العزم الراسخ فى أن يبقوا مسلمين ، كما كان أبائهم وأجدادهم ، ويعرف مفتشو العموم أن المورسكيين بعد أن يحجزوا عامين أو ثلاثة وتشرح لهم العقيدة فى كل مناسبة ، فانهم يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها ، والخلاصة أنهم لايعرفون العقيدة ، لأنهم لايريدون معرفتها ، ولأنهم لايريدون أن يعملوا شيئا يجعلهم يبدون نصارى " (١)

1- P. Longas: Vida religiosa de los moriscos, P.LXIII

وفى تقرير آخر يقول نفس المطران " إن المورسكيين كفرة متعتنون يستحقون القتل ، وأن كل وسيلة للرفق بهم فشلت ، وإن اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها الى أخطار كثيرة وتتكبد فى رقابتهم والسهر على حركاتهم واخماد ثوراتهم كثيرا من الرجال والمال ، ويرى أنه لا بأس أن تتألف محكمة سرية من الأخبار ، تحكم بردتهم وأنهم خونة ، ثم تقضى علائية بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، ولكن هذا المشروع لم ينفذ ، لأن مجلس الدولة كان يريد المضى الى غايته بصورة سرية ، ويريد الا تصطبغ اجراءات النفى بالطابع الدينى . (١)

وفى سنة ١٦٠٧ نسب الى المورسكيين من بلنسية أنهم إتصلوا بمولاي زيدان ، وعرضوا معاونته على خططه لغزو اسبانيا وعزمهم الثورة ضد السلطات ، كما سبق أن اسلفنا ، عندئذ عقد مجلس الدولة اجتماعا فى أواخر يناير ١٦٠٨ ودرس المسألة المورسكية واستعرض المقترحات من جديد ، وقد كرر المطران " ريبيرا " وجهة نظره السابقة وأنه يجب طرد المورسكيين الى المغرب ، ومؤكدا أن هذا أرفق ما يمكن اتخاذه من اجراء ، وقد أيدته معظم الأعضاء ، ولفتوا الأنظار الى تكاثر الشعب المورسكى بصورة غير عادية فى الوقت الذى يتناقص فيه المسيحيون ، ولهذا فالنقى ضرورة لامناص منها ، وقد عهد الى لجنة خاصة يرأسها " الدوق دى ليرما " بدراسة المشروع كله وإعداد وسائل وتفاصيل تنفيذه والضمانات الازمة لنجاحه ، فتوصلت الى أسس مضمونها أن يمنح المورسكيون شهرا لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا الى حيث يشاؤون فمن جاز منهم الى أفريقية ، يسر له السفر فى أمان ، ومن جاز الى أرض نصرانية ، أوصى به خيرا ،

١- أنظر عنان : نهاية الأندلس ص ٣٩٥ .

ومن تخلف عن الرحيل بعد هذه المدة ، قضى عليه بالموت والمصادرة ،
وبرغم ما فى هذه الأسس من رفق الى حد ما ، الا أنه لم يؤخذ بها . (١)

وقد استشف بعض المورسكيين من الاجتماعات المتكررة وما يدور
فيها أن شيئاً ما سيحدث ، فبدأوا هجرة اختيارية سنة ١٦٠٨ ، ورأوا أن
ذلك يمكن أن يتم بصورة أفضل مما لو حملوا على مغادرة البلاد ، وقد قام
بتلك الرحلة أكثر الناس ثراء ممن يمكنهم الإنفاق على رحلة طويلة ، ومن
هؤلاء الذين رغبوا فى حماية ثرواتهم قبل أن تتعرض للمصادرة ، وكان بين
هؤلاء المهاجرين أسر غنية من مناطق مختلفة ، وقد بدأت أخبار هؤلاء
الهاربين تصل الى الحكومة ، فكتب اسقف " سرقطة " أن أفواجا من
المورسكيين يجتازون جبال " البرانس " ، ويتصرفون بطريقة تجعل الحراس
لايتعرفون على هويتهم ، ويعرض الأمر على مجلس الدولة ، أفتى أنه
فيما يتعلق بالمورسكيين الذين يجتازون الى فرنسا ، فان والى " قطالونيا"
يمكنه أن يأمر بالتعرف عليهم ، فان كان بينهم بعض الأغنياء أو ذوى
النفوة ، فانه يلقي القبض عليهم ، ويحملهم غرامات ويحاول معرفة
نواياهم ، أما الناس العاديون فيتقاضى عنهم ، لأنه كلما قل عدد الباقين
كلما كان ذلك أفضل ، وقد اختار هؤلاء طريق الشمال ، لأن الهرب الى
البلاد الاسلامية كان يمثل جريمة ، وكان يمكنهم الابحار من فرنسا الى بلاد
الشمال الإفريقى ، وكانت " تونس " هى نقطة الوصول المفضلة لديهم ،
وربما فضل بعضهم البقاء فى الأراضى الفرنسية ، منتهزين فرصة استعداد
- انريكى الرابع - ملك فرنسا - لتوطينهم فى بلاده ، أما فرنسا فقد
استفادت مما حمله الهاربون من ثروة ، ويقول واحد ممن اسروا أنهم أخلوا

١- أنظر : المرجع السابق ص ٣٩٥-٣٩٦ .

المملكة من الذهب وحملوه معهم ، وكان حراس الحدود يتركونهم لقاء مبلغ من المال يدفعونه لهم ، وكان هناك مهاجر مورسكى دخل مرسلية بفرنسا يقال له " الأخ ابراهيم " وهو الذى اتصل بالمورسكيين الذين اجتازوا الى فرنسا ، وأكد لهم قبل المغادرة ، أنهم سيكونون أحرارا وسيعيشون وفقا لعقيدتهم الاسلامية ، وكان مع المورسكيين المهاجرين بعض الصبية الهاريين من أسبانيا ، وهناك رسالة صادرة بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٦٠٨ يقول كاتبها أنه عندما كان فى تونس وصلت سفينة فرنسية على متنها أكثر من مائتى مورسكى مابين رجال ونساء وأطفال ، وعندما وصلنا وجدنا مركبة انجليزية تحمل مابين ٢٥٠ الى ٣٠٠ مورسكى متجهة الى تونس ، وكان هناك عدد يتراوح بين ٤٠٠ الى ٥٠٠ مورسكى ، جاءوا من مملكة أراجون الى فرنسا ، ينتظرون الاقلاع منها الى بلاد الشمال الافريقى (١).

وهكذا نرى أن هنالك قوما أرادوا الخروج بأنفسهم هاريين من فضاءه الطرد القهرى نفسه .

وعلى كل حال فقد بحث مجلس الدولة المسألة المورسكية للمرة الأخيرة فى يناير سنة ١٦٠٩ ، وقدم تقريرا ينصح فيه بطرد المورسكيين ، ذلك أن اسبانيا تتعرض لخطر الغزو من مراکش وغيرها ، كذلك صحت الأدلة على أن المورسكيين خونة مارقون وأنهم يستحقون الموت أو الرق ، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق معهم وتكتفى بطردهم من أراضيها ، وتقرر أن ينفذ المشروع كله فى خريف العام نفسه ، وبالفعل صدرت الأوامر الى حكام "صقلية ونابلى وميلان" بإعداد السفن اللازمة لنقل المورسكيين وجمع

أنظر : Antonio Dominguez ortiz: historia de los moriscos, PP. 178 - 179'

وقد نقل الرسالة المذكورة عن مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد رقم 3-6436-9

القوات اللازمة لحراستهم ، وفى مطلع الصيف كان فى مياه " ميورقة " عشرات من السفن ، واتخذت الأهمية للتنفيذ بكل همه ونشاط ، وعلى وجه التحديد اتخذ القرار فى ابريل سنة ١٦٠٩ - مؤسسا على أسباب سياسية وليس دينية الا بصورة قانونية - وقد اتخذ القرار فى نفس يوم توقيع هدنة ال ١٢ سنة مع هولنده ، وصدق عليه مجلس الدولة ووقعه الملك وهو فى إجتماع مغلق مع مستشاريه المخلصين بقصر "سيجوبيا" ، وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، أعلن الوالى الماركيز دى كارائينا المرسوم النهائى الخاص بنفى المورسكيين أو المسلمين المنصرين ، فاستقبلوه بكثير من الهلع والاضطراب ، وترتبت عليه بعض أحداث العنف ، هذا المرسوم يتضمن مايلى :

بدأ بالحديث عن خيانة المورسكيين واتصالاتهم بأعداء اسبانيا وفشل كل المجهودات التى بذلت لتنصيرهم وأن يكون ولاؤهم لاسبانيا ، وأن ما استقر عليه رأى الملك هو نفيهم جميعا الى بلاد المغرب ، وبناء عليه فانه يجب على المورسكيين من الجنسين أن يرحلوا مع أولادهم فى ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى الى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة ، ومن يخالف يعاقب بالإعدام ، ولهم أن يأخذوا من متاعهم مايمكن حمله على ظهورهم وذكر أن السفن قد أعدت لنقلهم الى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة بإطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما يستطيعون من المؤن ، ويجب عليهم البقاء فى أماكنهم خلال مهلة الأيام الثلاثة ليكونوا رهن اشارة المأمورين ، ومن يخالف يعرض نفسه للنهب والمحاكمة أو الإعدام فى حالة المقاومة ، وقد منح الملك كل الاملاك العقارية ، وكذلك المواشى والحبوب والزيت التى عدل المرسوم ليمنع المورسكيون من بيعها ، ومثلها الامتعة الشخصية التى

لا تحمل ، كل ذلك منحه الملك لأصحاب الاقطاع الذين رحل رعاياهم ، وإذا حاول واحد اخفاء الامتعة أو دفنها أو أضرم النار فى المنازل أو المحاصيل عوقب سكان الناحية جميعا بالموت . ونص المرسوم على أن يبقى فقط ٦٪ من أسر المورسكيين مع تفضيل الاكبر سنا ومن يحظى بثقة المسيحيين لاختصاصه للكاثوليكية وذلك للإنتفاع بهم فى صيانة المنازل والعناية بمعامل السكر ومحصول الأرز وتنظيم الري وإرشاد السكان الجدد ، ويختار السادة هذه النسبة من هؤلاء الذين يتميزون بالخبرة وشدة الولاء للنصرانية ، أما الأطفال الذين تقل أعمارهم عن أربع سنوات فإنه يسمح لهم بالبقاء اذا شاموا ورضى آباؤهم وأولياؤهم ، واذا كانوا دون السادسة سمح لهم بالبقاء شريطة أن يكونوا من أبناء النصارى القدماء ، ويسمح كذلك لأهم المورسكية بالبقاء ، فان كان الأب مورسكيا والأم مسيحية ، نفى الأب وبقى الأولاد الذين هم دون السادسة مع أهمهم ، كذلك يسمح ببقاء المورسكيين الذين أقاموا بين المسيحيين مدة لاتقل عن عامين دون أن يختلطوا بالجماعة المورسكية أو يحضروا احتفالات المسلمين اذا زكاهم القساوسة ، وحظر القرار من اخفاء الهارين أو حمايتهم ، وهدد المخالف بالاشغال الشاقة لمدة ستة أعوام ، ومن ناحية أخرى منع المرسوم المسيحيين القدماء من التعرض للمورسكيين أو اهانتهم بالقول أو الفعل ، كى يفهم المورسكيون أن هدف صاحب الجلالة هو طردهم من المملكة فقط ، ولهذا لاينبغى تعريضهم لمضايقات ، وأخيرا نص المرسوم على السماح لعشرة من المورسكيين بالعودة عقب كل رحلة كى يشرحوا لإخوانهم كيف أن النقل الى عدوة المغرب قد تم على أكمل وجه (١) .

1- P. Boronat: Los moriscos españoles y su expulsión, 11, P. 158 y '190 y ss

- J. regla: estudios ... P. 57 y ss

- Antonia Dominguez ortiz: Historia ... P. 226 y ss

عنان نهاية الأندلس ص ٢٩٦، ٢٩٧ .

أما رد الفعل عند المورسكيين فكان الاضطراب ، ولم تكن أمامهم حيلة الا الخضوع ، وقد يجدون فى أرض المغرب معاملة أفضل مما لقوا هنا ، فقد نهكت قواهم ونضبت مواردهم ولم تكن عندهم مقدرة على المقاومة ، بالاضافة الى أن الحكومة الاسبانية قد اتخذت أهبتها وحشدت قواتها فى كل مواطن المورسكيين ، وقد اجتمع زعماء هؤلاء وفقهاؤهم وقرروا الاستسلام والرحيل والايقى منهم أحد حتى نسبة ال ٦٪ التى سمح ببقائها ومن بقى منهم اعتبر مرتدا ومارقا ، ومع ذلك فقد حدثت بعض الثورات المحلية وتحصنت بعض الجماعات فى المناطق الجبلية تأهبا للمقاومة وقامت ببعض الأعمال فى تلك المناطق ، ولكن ذلك لم يلبث أن قضى عليه بعد قتل عدد جم -

وقد تظلم المدجنون من هذا القرار وقالوا أنهم اعتنقوا النصرانية طوعا قبل التنصير الإجبارى ، وهم مسيحيون اسبانيون يحض إرادتهم ، فصدر الأمر الى الاساقفة يبحث ذلك والسماح بالبقاء لمن توافر له الإخلاص والولاء - (١)

أما الأغلبية الساحقة فقد بدأت تستعد للرحيل ، وحتى هم أنفسهم لم يجدوا بينهم من يرغب فى البقاء ، وقد حاول بعض أصحاب الإقطاع ابقاءهم بالقوة فى حدود النسبة المقررة ، ولكن السلطات غيرت رأيها بضغط من " ريبيرا " الذى كان يرى أن الطرد يجب أن يكون كاملا ما أمكن ، فلا يبقى الا بعض الاطفال ، بل هناك من سرق الأولاد من

1- Henry Charles Lea: History of the inquisition in Spain vol 111, P. 399'

وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة الأسبانية كل من :

Angel Alcalá y Jesus Tobío

وصدر فى ثلاثة مجلدات بمدير - أسبانيا - سنة ١٩٨٣ تحت عنوان :

Historia de la inquisición española.

أبائهم حتى لا يذهبوا فيعيشوا فى أراضى غير المؤمنين يعنى الكفار من المسلمين ، وقد حاول البطريرك الأبقاء على من تقل أعمارهم عن ١٢ سنة ولكن مجلس الدولة تشدد ، وقرر طرد كل من تزيد أعمارهم عن خمس أو ست سنوات ، ففى هذا العمر لا يمكن للطفل أن يحتفظ بشئ من ذكريات دينه الاسلامى ، وقد أثار هذا جدلا بين الطوائف اللاهوتية ، اذ كيف يصح من الناحية العقديّة والقانونية نفي الاطفال المعمدين ، وقد أودت انفعالات من هذا النوع بحياة المطران سان خوان ريبيرا فى ٦ يناير سنة ١٦١١ (١) .

وقد تدفق المورسكيون الى الأسواق لبيع ماتيسر لهم ، وكان أسقف " بلنسية " يصر على ضرورة البدء بمورسكى قشتالة ، لأنهم أكثر خطورة من البلنسيين ، ولكن الأسباب الحقيقية تستشف من الرسالة التى يقول فيها ، " إن المدن والأماكن الكبيرة تعتمد على المؤونة التى يحضرها هؤلاء المورسكيون إلى الكنائس والأديرة والمستشفيات والجمعيات والنبلاء والفرسان والمواطنين ، انهم ضروريون للحكومة والخدمات الروحية والزمنية التى تعتمد على هؤلاء المورسكيين . (٢)

وعندما بدأت الشائعات فى بلنسية حول قرار نفي المورسكيين ، فان النبلاء وسادة العبيد عقدوا اجتماعات عديدة وقرروا إرسال وفد منهم الى مدريد ، وقد استقبل الملك والدوق دى ليرما أعضاء الوفد ، وبدأوا يعرضون الآثار الجسيمة التى تترتب على طرد المورسكيين ومنها تحطيم كل البارونات وأصحاب الإقطاع وضياع ملايين النقود المفروضة ضرائب على

١- أنظر : أنطونيو دو منتج أورتيث : تاريخ المورسكيين بالأسبانية ص ١٨٦ .

2- P. Boronat: la obra citada anteriormet : 11, Documentos Justificativos N. 9, P. 501'.

المورسكيين ، بالإضافة الى خسائر أخرى ، وكان الكونت دي قشتالة هو المعارض الرئيسي لفكرة الطرد وكان يؤكد أن الخراب الشامل والدمار للمملكة يأتي من هذه الفكرة (١) .

وعلى كل حال فقد تقرر البدء بالمورسكيين فى بلنسية ، وبدأت الإستعدادات بسرية كبيرة ، وتقرر إعداد السفن ، كما تقرر عمل احصاءات بالقوات المسلحة التى يمكن الإستفادة بها إذا قاوم المورسكيون ، وقد تجمعت ٥٠ سفينة بها حوالى ٤٠٠٠ جندى ، وكلفت مدفعية قشتالة بمراقبة الحدود ، كما كلفت سفن الأسطول بمراقبة الشواطئ الأفريقية ، وكل هذا لا يمكن أن يمر بدون ملاحظة ، ولذلك ترى أن ملك العبيد والنبلاء والطبقة العسكرية فى البرلمان اجتمعوا وأرسلوا مندوبين عنهم إلى القصر فتحدثوا عن الخراب الذى سينزل بهم والإمتيازات التى ستضيع منهم ، والاجراءات التى يمكن إتخاذها لتجنب هذا الاجراء المتطرف ، ولكنهما لم يحصلوا على شئ سوى اعلامهما بأن مرسوم الطرد قد حرر ، وأنه سيعلمن قريبا ، وعندما عرف هؤلاء بنود المرسوم وأن ممتلكات المورسكيين ستؤول اليهم على سبيل التعويض ، عدلوا عن موقفهم (٢) .

وبالفعل بدأ تنفيذ القرار أولا فى مملكة بالنسية فى أكتوبر ، وكان موقف أصحاب الإقطاع من رعاياهم مختلفا ، فمنهم من تصرف مع اتباعه بصورة انسانية ، وصحبهم الى موانئ الرحيل بل وعلى متن السفن أحيانا وجنبوهم كثيرا من المضايقات ، بينما كان سلوك آخرين مؤلما بغيضا مثل "الكونت دي كوثنيتينا" الذى اشتهر ببخله وصرامته ، وقد استولى من

1- P. Boronat: los moriscos ... 11, P. 183'

. - J. regla : Estudios ... P. 56'

2- Antonio dominguez ortiz: Historia de los moriscos. PP. 178' - '180

رعاياه على كل شى حتى الممتلكات المنقولة وأدوات الاستعمال الشخصى من ملابس ومجوهرات وغيرها ، كذلك شكل بعض المسيحيين القدامى عصابات عملت على اهانة ونهب بل وقتل المورسكيين ، كل هذا بدافع الحقد والرغبة فى سلب الجماعات المورسكية (١) .

لقد سيطرت الحركة والنشاط العظيم على كل موانى الساحل من "الكنتى" حتى " بيناروث " اعتبارا من شهر أكتوبر ، يصف ذلك مؤرخ من " الكنتى " فيقول : " كانت الطرق مزروعة غملا ، وكان العديدون يأتون ، وفى يوم الإبحار لايمكنك العبور فى الشوارع ، وقد استمر هذا وقتا طويلا ، أن السفن الكبيرة والزوارق كانت تقوم برحلات عديدة ، وهناك روايات عديدة عن مجموع عن أبحروا حتى يناير سنة ١٦١٠ ، فالبعض يصل بهم الى ٣٠ ألفا ، والبعض ينزل بهم الى ٥٦٩٠ ، وهذا - بالتأكيد - أقل من الحقيقة ، فقد جرى الإبحار من عدة موانى ، وكان هناك من اتخذ طريق البر عبر فرنسا ، وهذا هو سبب تعدد الروايات . (٢)

وقد خرجت أول شحنة من المسلمين المنصرين ، وتقدر ب ٢٨ ألف نفس ، على سفن حكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة منها الى ثغر وهران ، وكان يومئذ بيد الاسيان ، ومن وهران نقلوا الى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، ويقول " ماركوس جوادا لاخارا " أنه قد اجتاز الى المغرب ١٥٠ ألف شخص ، وفقا لسجل الجمارك وسجل القادة الأربعة

1- Gaspar de Aguilar: expulsion de los moriscos de España Valencia 1610'

A. Dominguez Ortiz: Historia ... PP. 180' - 183' : وراجع أيضا :

وبها تعليقات تتضمن بعض التفاصيل .

2- A.D.ortiz: la obra citada, P. 183'

وفيهما يتقل بعض التفاصيل عن :

Bendicho: Cronica ... de Alicante, P. 202, edicion y notas de : F. Figueras. Alicante, España 1960'.

وسيفعل الباكون الشيء نفسه فى زمن متأخر (١) ، وقد عاد بعض من رحل الى اسبانيا ليروى لإخوانه كيف تمت الرحلة فى أمان ، ومع ذلك فقد أثر معظم المسافرين استخدام السفن بأجر ، على تلك السفن التى أعدتها الحكومة الأسبانية ، الشيء الذى أضر الحكومة أن تستدعى عددا كبيرا من السفن الى موانى بلنسية ، وقد رحل بهذه الطريقة من بلنسية حوالى ١٥ ألف معظمهم من الموسرين ومتوسطى الحال ، وقد رحل المنفيون من ثغر " لقنت " وسط الأغانى وأناشيد الشكر لله عز وجل ، وقد سئل أحد فقهاءهم عن سبب غيبتهم فقال : إنهم كثيرا ماسعوا الى شراء قارب أو الاستيلاء عليه للفرار الى المغرب ، مستهدفين كثيرا من المخاطر ، فكيف تعرض لنا فرصة السفر الأمين مجانا ولانتتهزها للعودة الى أرض الأجداد حيث نستظل بحماية سلطاننا سلطان الترك ، وهناك نعيش أحرارا مسلمين لا عبيدا كما كنا (٢)

وكانت الجنود محرس المظرودين حماية لهم من جشع العصابات النصرانية التى تشكلت لمهاجمة المورسكيين ونهبهم بل وقتلهم أحيانا (٣).

ومع ذلك فان تنفيذ مرسوم النفى لم يكن أمرا سهلا ، وهاقد رأينا أن بعض المورسكيين قد إعتصموا بالمناطق الجبلية ورفضوا الاستجابة للأمر مؤثرين المقاومة الى أبعد مدى ، لعدم ثقتهم فى ولاء الحكومة ، وقد

1- Marmol: expulsion ... Fols 119 r - 119v

- Danvila y collado: PP: 296' - 303'

- P. Boronat: los moriscos ... 11, PP. 219' - 249'

- J. Caro. baroja: los moriscos ... 227'.

٢- أنظر : عنان : نهاية الأندلس ص ٣٩٨

3- J. regla: Ibid, PP, 94' - 95'

احتشد فى " وادى اجوار " بصفة خاصة حوالى خمسة عشر ألف وفى مويلا دى كورتيس " حوالى تسعة آلاف ، وقد حاصرت قوات الحكومة هذه المناطق ، وفتكت بمن فيها من المورسكين ، وقتلت منهم آلافا ، فوق من ماتوا بسبب الجوع أو البرد ، أما من سلموا فقد حملوا قسرا الى ميناء الرحيل وسبى كثير من النساء والاطفال يبعوا عبيدا فى الأسواق ، ولم يصل الى الموانئ المغربية الا القليل ، وأبحر من " مويلا دى كورتيس " فقط ثلاثة آلاف ، وبقيت فلول قليلة فى هذا الموقع سببت ازعاجا للسلطات لمدة عام (١) .

فالمورسكيون اذن عانوا من أعمال العنف ، وهذه - بالإضافة الى الأخبار السيئة التى بدأت تصل عن حظ من أرسلت مراكبهم فى بلاد المغرب - جعلت جماعة من المورسكيين يقومون بمحاولة مقاومة يائسة فى بعض المناطق الجبلية داخل بلنسية ، لقد صعدوا مع نسائهم وأبنائهم الى روبة عالية ، فيها قمم يزيد ارتفاعها على الف متر ، وفى المنطقة كثير من الأكمة وشجر الصنوبر وشجر البلوط ولا تصلح للحياة فيها ، وقد اختاروا من بينهم رجلا خبيرا أشيب ذكى ، ليولوه رئاستهم ، لكنه رفض ، فعرضوها على مسلم غنى اسمه " الطورخى " فقبل ، وعين بعض الفقهاء نائبا عنه ، وقد جمعوا بعض الأسلحة وقاموا ببعض الأعمال الدفاعية ومات منهم عدد لا يعرف ، فقط نعرف أنه بقى على قيد الحياة ثلاثة آلاف أبحروا ، وقد رفض رئيسهم عرضا بالتسليم ، واستمر مع قلة يقاومون مقاومة اليائسين حتى أعتقل وقتل فى بلنسية .

وقد حدثت اضطرابات ايضا فى " مارينا دى اليكانتى " وهى

1- Lea: history of the inquisition, vol, 111, PP. 397' - 398'.

أرض وعرة يسكن فيها كثير من المورسكيين ، لقد غادروا قراهم ، ووضعت القرى المسيحية المجاورة فى حالة طوارئ ، وأثناء سيرهم دنسوا بعض أماكن العبادة المسيحية والكنائس ، وجمعوا كميات كبيرة من الزاد فى المناطق الجبلية القريبة ، ولكنهم احتاجوا الى الماء اللازم لحشد يزيد على عشرين الف ، وقد حاصرتهم القوات المسيحية ، وهجموا عليهم فى هذه المسالك الوعرة ، وعاملوهم معاملة سيئة ، ومن بقوا على قيد الحياة نزلوا هلكى من العطش ، يصف " ايسكولانو " حال هؤلاء فيقول :

« فى سلسلة جبال " بوب " وجدت كميات هائلة من أجسام الموتى الباقون وصل بهم اليوس الى وضع لايتصور ، ويسبب الجوع ، أعطى الآباء أبناءهم لمن يعرفونهم من المسيحيين ، أكثر من هذا ، لقد باعهم للجنود الأجانب مقابل قطعة من الخبز أو حفنة من التين ، وكانوا يحملونهم الى الطرق نصف مجرورين الى المراكب ، وتنتزع النساء والأبناء ، وتسرق الحقائق والأمتعة ، وترى البعض نصف عار ، والبعض عار تماما ويدفع بهم الى الابحار ... بقى البعض عبيدا نتيجة للبيان الشنيع الذى أعلنه الماركيز " دى كارائينا " فى مايو سنة ١٦١١ ، وفيه يطلب مطاردة الهاريين ويعد مكافأة مقدارها ستون جنيها عن كل شخص يسلم حيا ، وثلاثون جنيها عن كل رأس كل قتيل ... فإذا رغب الشخص المطارذ فى أن يكون عبدا ، فإنه يمنح لمن يمكنه القبض عليه وتسليمه ويكون عبدا عنده ... » (١) .

1- Escolano, Gaspar: Decadas de la insigne y corona de-ciudad y reyno de valencia cd. por, J.B.Berales, valencia 1878 - 80 ... column 19

- Fonseca: libro V capitulas 4 y 5'

تقلا عن :

A. Dominguez ortiz: Historia ... PP. 183' - 185'.

أما قشتالة فقد وقع وصدر قرار النفي الخاص بالمورسكيين فيها بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، لكن تأجل تنفيذه الى أن يتم الفراغ من نفي المورسكيين فى بلنسية ، وقد بدئ فى ذلك فعلا فى أواخر ديسمبر سنة ١٦٠٩ ، ونشر المرسوم فى ١٠ يناير سنة ١٦١٠ ، ومنح المورسكيون شهراً المغادرة البلاد بنفس الشروط التى تضمنها قرار النفي فى بلنسية ، ولكن طرد المورسكيين من قشتاله لم يتسم بنفس الطابع الذى حدث فى بلنسية ، لأن المورسكيين فى قشتالة كانوا قلة مشتتة لاتخضع فى معظمها لأصحاب الاقطاع ولايحققون مصالح كبيرة وليس فى مقدورهم التمرد بل هم يعرفون حظهم ويصبرون عليه ، واذا قارنا بين مرسوم الطرد الخاص بالمورسكيين فى الأندلس ومرسيه وبين المرسوم الخاص ببلنسية ، وجدنا أن الأول يتضمن عنصرين رئيسيين أساسيين الأول خاص بالملكيات فمن حقهم بيها جميعا باستثناء الأصول التى تصادر لصالح الملك ، أما المراعى والفواكه وأثاث البيوت ، فلا يجوز أخراجها فى صورة ذهب أو فضة أو مجوهرات أو كمبيالات قابلة للتحويل ، فقط يسمح بحمل المال الضرورى للرحلة ويشتري بالباقى بضائع مصرح بنقلها مثل الحراير والتوابل ويدفع عنها الضرائب المستحقة وتحمل الى خارج البلاد ، ورغم ما فى هذا من مصادرة جزئية الا أنه قدم باعتباره دليلا على أريحية الملك ، لأنه كان يمكنه مصادرة كل شئ بل وضرب الرق على المورسكيين أنفسهم ، وقد اتخذ هذا الإجراء بتأثير المسيحيين فى بلنسية ، فقد زعموا أن المورسكيين حملوا معهم أكثر من مليون " اسكودو " (عمله قديمة) من الذهب والفضة تاركين الملكة بدون نقود . والأمر الثانى مسألة صغار السن ، فقد نص المرسوم على أنه على الآباء أن يتركوا من تقل أعمارهم عن سبع سنوات ويمكنهم - على الأقل - أن يرحلوا الى أراض مسيحية ، وهذا هو الذى دفع الكثيرين أن يقوموا برحلة طويلة جدا عبر فرنسا للوصول إلى

بلاد المغرب ، وتظاهر آخرون بالتوجه ناحية إيطاليا أو فرنسا لكنهم بعد ذلك اتفقوا مع الربانة وحملوهم الى أفريقية ، وقد نص مرسوم الماركيز دى سان جيرمن - المسئول عن تنفيذ الطرد فى الأندلس - على أن تبقى أسرة المسيحى القديم المتزوج من مورسكية ، أما المورسكى المتزوج من مسيحية فانه يمكنه أن يبقى كما يمكنه أن يرحل مع زوجته ، كذلك ذرية المغاربة والاتراك الذين تحولوا الى المسيحية ، ومثلهم من شهد القساوسة بولائهم للكاثوليكية ، وقد بقى فى غرناطة عدد قليل - نسبيا - من المورسكيين

يقول " خوان رجلا " إن فيليب الثالث وقع أمر الطرد الخاص بالأندلس ومرسية ووادى أوناكوش فى ٩ نوفمبر سنة ١٦٠٩ ونشره مندوب التنفيذ فى ١٢/١/١٦١٠ وحدد الملك ٣٠ يوما لبيع الممتلكات والتهيؤ للرحيل ولكن الماركيز مندوب التنفيذ قلل المدة الى ٢٠ يوما ، وقد أجمع المتخصصون على هجرة ٢٠ ألف من الأندلس قبل صدور البيان ، وقد خرج من الأندلس ٦٠ ألف بخلاف العشرين ألف المذكورة ، فيكون إجمالى من خرج ٨٠ ألف ، وهو رقم يقبله كل المتخصصين بالإجماع . أما وادى " أوناش" فقد كان سكانه الألف من المورسكيين الذين كانوا قد هاجروا من أشيلية ، ولم يكن فيه من المسيحيين القدامى الا أربعة .

أما مرسوم " مرسية " فقد وقعه الملك فى ٩ ديسمبر سنة ١٦٠٩ ونشر فى ١٨ يناير سنة ١٦١٠ ، وتضمن طرد كل المورسكيين رجالا ونساءً وأطفالا ماعدا العبيد وكل " المودخر " لأن الأخيرين كانوا يعيشون المسيحية بصورة جيدة ، وكانوا يقيمون فى " وادى ريكوتى " ، وقد طلب نواب مرسية - بلا جدوى - الغاء خروج المورسكيين من المملكة " حتى لاترى الفنون وقد تركت والزراعة وقد فقدت. وقد خرج من مرسية حوالى ١٥ ألف مورسكى (١) وقد سجل " لابيرى قيام ١١٢١ رحلة بحرية من

مالقة سنة ١٦١٠ ، ٨٢٥ من مالقة والمونيكير سنة ١٦١١ ، هذا بخلاف من أتخذوا طريق البر فى اتجاه الشمال ، وبقيت البيوت الشهيرة من الفرسان والنبلاء وبعض ذوى المكانة مستثناه من الطرد وخرج من العاصمة وحدها ٦٠٠ أسرة من المورسكيين القادرين ، كما تبقى صانعو الموسير ومن يعرفون السباكة المعقدة ممن يمكنهم تزويد غرناطة والقرى المجاورة بالمياه ، كما بقى ستة من المورسكيين الخبراء فى الشئون المالية الملكية بأمر من المحكمة العليا ، وهؤلاء الذين بقوا امتزجوا بالسكان المسيحيين القدامى واختلطوا معهم واختفت بينهم روح العداوة التى توجد فى بعض الأقاليم الأخرى . (١)

وفى مملكة " جيان " وجد عدد كبير من المورسكيين ، جاءوا نتيجة للطرده الذى حدث حوالى سنة ١٥٧٠ بسبب الثورة الغرناطية ، وقد قدر عدد هؤلاء بـ ٨٠٠ فى " أندوخر " ، ١٠٠٠ فى " أويدا " ، ٢٠٠٠ فى " بايثا " ، ٢٢٥٥ فى العاصمة ، وعدد أقل فى القرى ، وقد توجه معظمهم الى " مالقة " للإبحار منها ، ولم يحدث عنف كالذى حدث فى بلنسية ، وان حاول بعض رجال السلطة تحقيق مكاسب غير مشروعة على حساب هؤلاء التعساء .

أما مملكة " قرطبة " ، فقد وجد بها تجمعان مورسكيان مهمان ، أحدهما تجمع " دى بريجو " والأماكن الأخرى فى تلك المقاطعة ، وقد وصل عددهم الى ٢٢٦٤ نسمة ، والثانى تجمع العاصمة وهو الأكثر أهمية

1- Lapeyre, Henri: Geographie de l'Espagne morisque P. 205 paris 1959'

Luis C. rodriguez Garcia وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة الأسبانية

Geografia de la españa morisca

تحت عنوان

وصدر فى بلنسية بأسبانيا سنة ١٩٨٦

وانظر أيضا :

A. Dominguez ortiz: historia ... apendice VIII.

وقد وصل الى أربعة آلاف ، ثلثهم تقريبا من العبيد ، وكان اجمالى سكان المدينة آنذ حوالى ٤٠ ألف مواطن ، فنسبة المورسكيين اذن تزيد على ١٠٪ ، بينما كانت نسبة المورسكيين فى أشبيلية ٦٪ ، فهم يمثلون نسبة قوية من السكان النشيطين الذين يمثلون أيد عاملة رخيصة ، ولهذا فان الكثيرين سيتأثرون من جراء طردهم وان رفضت كل الالتماسات والتوسلات التى طالبت بابقائهم .

وكل من كانوا فى مملكة اشبيلية ، أصلهم من غرناطة ، وكان بالعاصمة وحدها ٧٥٠٣ وربما مثل هؤلاء المجموعة الأكثر كثافة ، وهذا هو سر الإضطرابات التى جرت فى هذا الإقليم لعدة سنوات بسبب الشائعات التى ترددت حول تأمرهم ، ويرغم كل ذلك فقد كانت الصورة التى تم بها النفى سببا فى كثير من الآثار المكتوبة .

كتب "روخاس كاساتانى" يقول : كلهم يبكون ، وليس هناك قلب لايتأثر من رؤية اقتلاع هذه المنازل ونفى هؤلاء المكرويين ، خاصة اذا وضعنا فى الإعتبار انه كان هناك كثير من الأثرياء كما برهن الزمن " (١) . لقد كان اجمالى الراحلين من اشبيلية ١٨٤٧١ ، وقد دفعوا مليوناً وثلاثة وخمسين ألف ريال أجرة للسفن ، وكان على الأثرياء أن يحملوا نفقات رحلة الفقراء ، لأن العرش الذى ورث ضياعهم لم يشر اشارة واحدة الى تحمله تلك التكاليف ، وكان ملاك السفن يحصلون عشرة ريبالات عن كل رأس ثم أصبحت ٢٠ ريالا ، بالإضافة الى خمسين ريالا عن كل طن متاع ، بينما التكلفة العادية على النصف من ذلك . ويقول المؤرخون - متابعين

1 - Relacion de algunos sucesos postreros de Berberia, capitulo

IV, Lisboa 1613'

إعتادا على

A. Dominguez ortiz: historia ... P. 189'

" جوادا لاخارا وبليدا " أنه خرج من الأندلس ٢٠ ألف مورسكى قبل صدور مرسوم الطرد ، وخرج بعد صدور ذلك المرسوم ٦٠ ألفا ، وهذا الرقم وإن كان محتملا ، الا انه فى حاجة الى براهين تؤكده .

وفى نفس الوقت الذى خرج فيه المورسكيون من الأندلس تقريبا ، خرج زملاؤهم من استمر بما دورا والقشتاليتين ، وقد بدأ الكثيرون منهم هجرة اختيارية سنة ١٦٠٩ .

وقد صدر مرسوم ملكى فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٠٩ يسمح للمورسكيين فى قلعتى قشتالة واستمر يما دورا بالخروج الحر الاختيارى ، وقد استفاد بهذا المرسوم ١٦٧١٣ ، وبقيت آلاف كثيرة لم ترد الإستفادة به وكان ترحيب الفرنسيين بهم سببا فى الغاء الملك المرور من " بورجوس " ، وفى مايو سنة ١٦١٠ صدرت أوامر بضرورة أنه " برغم أنهم أمروا السفن بأن تتجه نحو أراضى المسيحيين ، الا انهم توسلوا لقبطان السفينة أن ينزلهم فى ميناء الجزائر وموانى أفريقية أخرى ، ودفعوا له جيدا " (١) .

وفى ١٠ يوليو من نفس العام ١٦١٠ أصدر الملك مرسوما خاصا بمن لجأ من المورسكيين الى قلعتى استرمدورا ولامانش قادمين من بلنسية والأندلس وقرنطة وقطالونيا وأراجون وكل من بقى فى اسبانيا ، وقد تكرر هذا نفسه فى أوامر ملكية أخرى مؤرخة ٢١ أغسطس سنة ١٦١١ ، ١٦ يناير ، ٢٠ ابريل سنة ١٦١٣ ، ووفقا للأرقام التى قبلها المؤلفون بشكل عام فان مجموع من طرد من القلعتين المذكورتين ٦٤ ألف مورسكى ومن مناطق كالاترابا ستة آلاف (٢) ويسبب ما حدث فى بلنسية من مناظر

1- J. regla: estudios ... PP. 104 - 105'

١- أنظر : وما بهما من مصادر

٢- المرجع السابق ص ١٠٥ .

العنف والرعب ، فقد أصدر الملك مرسوماً فحواه أن المورسيكيين الذين يعيشون في ممالك "قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة واستريمادورا ولا منشا" قد سببوا بعض القلاقل وأن لهم رغبة في أن يعيشوا خارج هذه المملكة ؛ ولذلك بدأوا يتصرفون في ثرواتهم وبييعونها بأقل من قيمتها " ولأنه ليس في نيتي أن يعيشوا ضد رغبتهم ، فأنى أمتحهم تصرّحاً يتصرفون بمقتضاه في ممتلكاتهم المنقولة خلال ثلاثين يوماً " وما يحصلونه من ذلك يشترون به بضائع يصرح لهم بها ، ولا يحملون من النقود إلا ما هو ضروري للرحلة فقط ، وينبغي إلا يكون خروج هؤلاء عبر الأندلس أو بلنسية أو مرسية أو أرجون ، وأشير عليهم بالخروج عبر فرنسا دون تعيينها بالإسم (١) .

وقد خرج حوالي ٤٤ الف نسمة معظمهم غرناطي الأصل ، أما من مشوا بشكل اختياري فكان عليهم دفع رسوم الخروج في " بورجوس " يقول مؤرخ من الفترة : " لقد مر بالمدينة المذكورة حوالي ٣٠ ألف اجتازوها من منتصف يناير إلى أوائل مايو " وكان شيئاً طبيعياً أن ترى دخولهم في هذه المدينة مع صخب وضجيج تحدثها الدواب والمركبات والعربات التي يحضرونها ، الجميع في موكب ، مشاة وممتطون فرساناً ، بعضهم شباب وبعضهم في منتصف العمر ، لقد كان شيئاً يستحق أن يرى ، وعندما كانوا يسجلون ويعطون جوازات سفرهم ، يؤمرون باتخاذ طريقهم نحو فرنسا " .

لقد خرج من بلد الوليد ١١١٩ ومن طليطلة ٣٧٨٩ ومن قلعة

P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 288 - 289'

١- انظر نص المرسوم الملكي عند

عبدالسلام ١٢٠٦ ومن " بترانا " ٢٢١٤ ، ومن أوكانيا ١٥١٨ ومن مدريد ١٧١ فقط ، وكتب الكونت " دى سالاز " - المسئول عن تنفيذ العملية - فى تقاريره للسلطات الرسمية أن العملية تمت بدون مشاكل ، وأنهم كانوا يعيشون معهم مرشدين حتى مدينة " إيرون " ، وكانوا يمنحون مساعدة للفقراء . (١)

وقد استقبل هؤلاء استقبالا حسنا بفرنسا أول الأمر ، بل وصرح لهم بالبقاء ، والبعض فعل ذلك .

ويقول الأستاذ عبدالله عنان أنه دخل فرنسا من قشتالة سبعة عشر ألفا بخلاف خمسة وعشرين ألفا من أراجون قصدوا إليها عبر ولاية نافارا الفرنسية ، وقد صرح لهم " هنرى الرابع " ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الجارون شريطة احتفاظهم بالدين المسيحى ، ومن يرغب منهم فى السفر الى المغرب تهيأه وسائل هذا السفر (٢) .

ولكن الأغلبية اشمأزت عندما طلب منهم اعتناق العقيدة الكاثوليكية. ومن ناحية أخرى كان ازدياد اعداد المهاجرين سببا فى تغيير سلوك الفرنسيين معهم ، وكان اغتيال انريكى الرابع فى ١٤ مايو سنة ١٦١٠ ، عائقا كبيرا أمامهم . ويقال أنه كان فى " سان خوان دى لالوث " سنة ١٦١٢ أربعة آلاف مورسكى ، بعضهم كان يستعد للرحيل الى بلاد المغرب على متن سفن محملة بالأسلحة ، والبعض الآخر حاول الحصول على

١- هذا النص لمؤرخ مجهول وهو موجود عند :

Eloy Garcia de Quevedo: Libros burgaleses de memorias y noticias

P. 35, Burgos 1931'

وفقا لما ذكره

A. Dominguez ortiz: Historia.. P. 190'

٢- أنظر : عنان : نهاية الأندلس ص ٤٠٠

وثائق مزورة من أجل العودة الى أسبانيا ، وقد توجه معظم المورسكيين من قشتالة واستريمادورا - الذين كانوا قد خرجوا قبل صدور مرسوم الطرد - نحو " كارتاخينا " وموان أخرى فى الجنوب ، ومنها توجهوا نحو الجزائر ، ثم عاد بعضهم الى أسبانيا .

أما المورسكيون فى " استريمادورا " فكانوا كثيرين ، لكنهم مشتتون . وشكل المورسكيون فى " أورناتشوز " باداخوس " مجموعة قوية ومعظم الألف ساكن الذين أقاموا بالضبعة كانوا فى دائرة نظام سنتياجو " الذى كان يحقق لصاحبه - قبل الطرد - دخلا مقداره ستة آلاف دوكاس . وكان المورسكيون هناك يسيطرون على معظم المهن ، وقد ساعدت هذه الظروف هؤلاء على أن يعلنوا مشاعرهم الحقيقية بحرية كاملة ، وكان تفرد وضعهم سببا فى كتابة أدب كثير يدور حولهم ، بعضه حقيقة وبعضه مبالغات دفع اليها جو العداة العام .

أما صروف الدهر التى تعرض لها المورسكيون الأراجونيون فقد عرضها " خوان رحلا (١) " ومنه نعرف أنهم كانوا حوالى سبعين ألف رجل . يمثلون سدس إجمالى السكان ، لقد ذكر أن والى أراجون أمر بعمل إحصاء مفصل عن المسيحيين الجدد عندما كانت الإجراءات تتم لطرده المورسكيين الأراجونيين ، وقد دلت وثيقة الإحصاء هذه على أن هؤلاء يتمركزون فى المناطق الساحلية لنهر الإبرو وعلى روافده اليمنى ، أما الروافد اليسرى فقد تركها المورسكيون ، وقد قدر العدد الإجمالى لمنازل المورسكيون ب ١٤١٠٩ منزلا ، فإذا كان متوسط سكان الوحدة السكنية خمسة أفراد فمعنى ذلك أن عدد المورسكيون فى أراجون كان ٧٠٥٤٥

نسمة وقد قسمت الى ٣٥ مجموعة وطلب من المطرودين التمرکز في مناطق معينة ، ووثيقة الوالى هذه بالغة الأهمية في دراسة القضية المورسكية ، وبمقارنتها بما قدمه " توماس جونثالث " نصل الى نتيجة مؤداها أن المورسكيين الأجوانيين كانوا يعادلون ٢٠٪ من سكان مملكة أراجون .. (١) ، لكنهم يكونون أغلبية مطلقة في غطوطات قليلة من غوطات الرى ، خاصة على امتداد نهر " الابرو " وروافده ويتفقون مع مورسكى " بلنسية " في أنهم يخضعون جميعا تقريبا لنظام إقطاعى ، يقدم لهم مكاسب ومعوقات فى آن واحد ، فهم يتعرضون لغرامات ظالمة ، لكن أصحاب الإقطاع يدافعون عنهم ، ويعتنون بحقوقهم ومصالحهم . وإذا كان استخدام اللغة العربية أمرا عاما فى بلنسية ، فقد كان ذلك الإستخدام نادرا جدا فى " أراجون " وقد جرت أمور معهم لكى لاتحقق معهم محاكم التفتيش ، لأنهم أرادوا الحياة كمسيحيين ، لكن هناك براهين تدل على أنهم عبروا عن ضجرهم بسبب ما تعرضوا له من ظلم ، وأسعدهم أن ينهزم الملك الكاثوليكى سواء على أيدي المسلمين أو البروتستانت (٢) ، فمثلا أخبر مجلس أراجون الملك ببعض مواقف مفتشى التحقيق فى " سرقسطة " ضد المورسكيين ، إعتمادا على رواية تقول أن مورسكيا من " رودن " عمره ١٦ سنة قال لآخر فى نفس سنه معتقدا أنه مورسكى مثله : إن الترك قد فرغوا من استعدادهم لغزو البلد وقتل كل المسيحيين ، وأن موثق المنطقة - وهو مورسكى - قد تلقى معلومات مفيدة حول هذا الأمر من القسطنطينية، وكذلك عازف حملة " بيليا " - الذى تتلوه أحداث عظيمة وفقا للتقاليد - سبب كثيرا من المسرة عند المورسكيين بينما جلب الحزن

1- Estudios ... P. 55 y ss,PP. 78 - 79 y 93

2- Fray M. Garcia miralles: Historia de calanda, cap. VIII Valencia 1969

وكذلك

A. Dominguez ortiz : obra citada, P. 194 .

للمسيحيين ، وقد رأى عقلاء المجلس أنه لا ينبغي أن نعطي أهمية لمثل هذه الشائعات .

وقد انتهز مجلس أراجون فرصة الإحتياجات المالية المتزايدة سنة ١٦٠٢ وأشار على فيليب الثالث بفرض ضرائب جديدة على المورسكيين مؤكدا أنه بعرض الأمر على ذوى المقدرة منهم ، فإن موقفهم كان طيبا وباعثا على الأمل ، وقد أشير الى أن المورسكيين فى بلنسية دفعوا ٤٠ ألف جنيه منذ زمن قصير (١) .

وقد وافق فيليب الثالث سنة ١٦٠٨ على طلب المورسكيين فى أراجون وبلنسية والخاص بالتماس الموافقة على تعيين محام عنهم ولا نعرف إلى أى مدى كان هذا الطلب منخلصا ، فقد كان تعيين المدافعين وسيلة من وسائل استخراج المال من المورسكيين الفقراء فى مقابل حماية لم تكن تتم .

لقد طالبت محاكم التفتيش فى سرقسطة بتطبيق اجراءات الطرد على المورسكيين فى : أراجون " ، لأن هؤلاء رأوا ماحدث لاخوانهم فى بلنسية وقشتالة ، فقاموا ببيع كل ممتلكاتهم ورفضوا العمل ووصل بهم الأمر الى إعلان أنهم سيقاومون محاولات إخراجهم ، كما قاموا بإرسال معظم أموالهم الى فرنسا ، وقد يضربون عن الطعام حتى الموت جوعا وقد يرتكبون جرائم ، وقد غادر كثير منهم البلاد فعلا وتوجهوا ناحية فرنسا حيث يفيدون هناك بذكائهم ومقدرتهم (٢) .

1- J. regla . Estudios ... P. 84

وعن تقليد حملة "بيليا" أنظر :

Conde de cerdillo: las campanas de velilla, madrid 1886

نقلا عن المرجع السابق

٢- نقلا عن بورونات ، تاريخ ج٢ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩

وقد أصدر نائب المستشار أمام الملك على أن محاكم التفتيش المرعبة الفعالة هي التي ينبغي أن تتولى عقوبة المورسكيين الهاربين ومن يساعدونهم على الهرب أو يخفونهم ، وليدعم وجهة نظره قال إن محاكم التفتيش منذ عشرين سنة هي السلطة الوحيدة التي أمكنها إيقاف تهريب الفرسان الى فونسا بحجة أن هؤلاء متورطون في علاقات مع الملحدين .

وقد بلغ صاحب الجلالة أن المورسكيين غير راضين عن تفضل الملك عليهم بإعطائهم حق استخدام ثرواتهم في التجارة وثمار الأرض ، وأنهم يحاولون اخراجها عن طريق بعض التجار أو في صورة كمبيالات ، وقد أمر بالأ يتسلم أحد أموالا من المورسكيين ولا يعطيهم كمبيالات مقابل ذلك ويعاقب المخالف بمصادرة ممتلكاته وقد يسجن .

وهكذا فإن الفترة التي خلت بين طرد المورسكيين في بلنسية وطردهم في " أراجون " كانت تتميز بالحركة المستمرة من جانب هؤلاء الأخيرين (١) .

وكان المورسكيون قد بدأوا يشعرون بما يبببت لهم ، فتركوا زراعة بعض الحقول وشرعوا يبيعون ممتلكاتهم بثمن بخس وأعدو الزاد لرحلة طويلة ، فكتب فيليب الثالث الى والي " أراجون " في ٢٠ أكتوبر سنة ١٦٠٩ يطلب منه أن يحاول تهدئة المورسكيين ، مبينا أنه لن يحاول طردهم وقد قام النبلاء والاكليروس بارسال مندوبين عنهما توجهوا الى البلاط في محاولة أخيرة لإقناع الملك بعدم طرد المورسكيين في " أراجون " ، ولكن الملك وقع أمر الطرد في ١٨ أبريل سنة ١٩١٠ ، وبقي سرا لبعض الوقت

1- Juan regla : estudios sobre los moriscos. PP. 88 - 89'.

الى أن يتم الإستعدادات والى أن تحل المشكلة المعقدة : مشكلة الصغار المعمدين ، وقد صدر البيان الرسمى حول هذه النقطة فى ١٥ مايو مقروا أنه يمكن إبقاء الذين تقل أعمارهم عن أربع سنوات إذا صرح لهم آباؤهم ، أما البنود الأخرى فكانت مناظرة لسابقتها .

كثير من المورسكيين كانوا قد سبقوا صدور المرسوم وخرجوا عبر الحدود مع فرنسا ، ووفقا للسجلات الرسمية ، فقد خرج من "بيرا" ، ورونثينس فيس وسمبورت" ٢٢٥٣٢ ، وأبحر من "لوس ألفاكييس" ٣٨٢٨٦ وكان الإجمالى ٦٠٨١٨ ، بالإضافة الى من خرجوا سرا . وبمجرد صدور قرار النفى خرج عشرة آلاف عن طريق جبال البرانس عبر "ناقارا" ومايين ١٢ الى ١٤ ألف عبر "كان فرانك" ، وقد دفعوا لحاكم "بيرنى" عشرة ريبالات عن كل رأس ، أما من أبحروا من "ألفاكييس" فإن عددهم تجاوز ٤١٩٥٢ (١) .

وقد تم كل شىء دون آثار خطيرة من التعاسة أو الآلام ، وقد قدم لنا "اثنار كارдона" لوحة واقعية عن خروجهم ، قال :

" فى شكل موكب غير منظم ، يختلط فيه المشاه والركبان ، يمضى هؤلاء مجموعة تلو أخرى ، ينفجرون من الألم والدموع ، يحدثون صخبا عظيما وصراخا مركبا ، حاملين ابناءهم ونساءهم ومرضاهم ، ما بين عجائز وأطفال ، يغطيهم التراب ، ويتصبب العرق منهم ، بعضهم فى مركبات مشدودون بأفرادهم وحليهم وزينتهم الرخيصة ، والبعض على

1- P. Boronat: los moriscos ... II, PP. 301 - 302'

- J. regla: Estudios ... P. 96'.

٢- نقلا عن وثيقة هدار محفوظات سيمينقة رقمها ٢٢٥ "سكرتارية الدولة" حسب برونات .

دواب ، معهم أمتعتهم الغريبة : الكراسى والبرازع والقفف (الزنبيل)
والسقاءات ، محاطون بالتلافيع مع الأباريق وأدوات العزف والسلالات مع
الملابس والتنورات والقمصان واللوح والسماطات (أدوات السفارة) وكسر
من القنب وقطع من الكتان ، والبعض يذهبون مشاه محطمين ، ثيابهم
رديئة ، أحذيتهم ونعالهم ممزقة ، بعضهم يضع دثارا على رقبتة وبعضهم
يستخدم أربطة وأغطية متنوعة ، وكلهم يتقدم بالتحية لمن ينظر اليه قائلا "
ليجزىكم الله ويحرسكم ويديم عليكم حمايته " ، وبين المذكورين ، ترى بين
الحين والآخر ، نساء كثيرات زوجات لبعض المسلمين الأغنياء ، يضعن
زينات متنوعة من الفضة على صدورهن ، ويعلقن فى الرقبة بعض العقود
والأطواق ، بالإضافة الى بعض الأقراط والأسوار والمرجان والحلى الأخرى .
وملابسهن مزركشة ذات ألوان ، بهذا يخفون بعض آلام القلب ، أما
الأخريات فكن كثيرات ، تذهبن مشاة ، يبدو عليهن الألم ، يشعرن
بالضيق والتعب . ويتألم الجميع من أشياء لا تحتمل ويشعرون بمرات
عظيمة جدا ، ويموت منهم الكثير بسبب المحن الخالصة ، وهم يبحثون عن
الماء والظل على امتداد الطريق ، فقد كان الوقت صيفا " (١) .

بقى المورسكيون القطلان ، وقد تقرر طردهم فى نفس وقت طرد
المورسكيين من " أراجون " ولم يكن عددهم يتجاوز الستة آلاف نسمة وقد
وقع فيليب الثالث أمر طردهم فى بلد الوليد بتاريخ ١٧ ابريل سنة ١٦١٠
ونشر البيان الخاص بذلك فى ٢٩ مايو من نفس العام بمدينة برشلونة ، وقد
وصل البعض بعدد المورسكيين القطلان الى ٥٠ ألف وهو رقم مبالغ فيه ،
فعددهم لم يتجاوز العشرة آلاف ، ولعل السبب فى ذكر الرقم الكبير هو أن

1- Aznor cardona: expulsión Justificada de los moriscos Españoles, 11', cap 2'

-- A. Dominguez ortiz: obra citada, P.196.

المسيحيين الجدد فى الإقليم كانوا عبيدا ممتازين ، وعلى كل حال فعددهم قليل اذا قارناه باعداد المورسكيين فى بلنسية وأراجون .

وقد بدأ هؤلاء الهجرة إلى فرنسا قبل صدور قرار الطرد ، وأصدر مجلس الدولة فى ١٦١٠/٦/٢٤ قرارا فحواه أنه يجب تفتيش المورسكيين المتوجهين الى فرنسا ، ويعتقل الأغنياء والمشهورين ويوضعون فى مأمن بهدف معرفة نواياهم ، أما الناس العاديون فيسمح لهم بالمرور ، لأنه كلما كان المتبقى أقل كان أفضل .(١)

وتمثل سنتى ١٦٠٩ ، ١٦١٠ واحدة من أكثر فترات ازدهار اللصوصية القطالونية ، لقد كانت هناك فوضى أتاحت لمنعدمى الضمير إرتكاب ظلم ضد أشخاص وممتلكات المورسكيين حيث كانت تسرق حقائب المتوجهين الى بلاد البربر ، وقد تقاضى بعض المسيحيين القدامى مبالغ كبيرة لتقديم بيانات مزورة عن عقيدة بعض المورسكيين الدينينة حتى يسمح لهم بالبقاء ، وقد طالبت بعض البلاغات الملك بمضاعفة اجراءات القمع ضد اللصوص الذين أرتكبوا ظلما فى ظل الفوضى المتحكمة فى قطالونيا ، وقد أكد بعض المسئولين أن كثيرا من المسيحيين الجدد من "طرطوشة" ممن هاجروا الى فرنسا أو الى بلاد البربر ، قد عادوا واستقروا من جديد فى منازلهم .(٢)

وقد أستثنى معظمهم من النفى بفضل أسقف " طرطوشة " الذين زودهم بشهادات حسن سلوك ، حتى الذين خرجوا ، عادوا مرة أخرى

1- P.Boronat: los moriscos .. 11, P. 498'

2- J. regla. Estudios ... PP. 97 - 102'

واستقروا على شاطئ نهر " الإبرو " والمجرى الأدنى لنهر " سجرى " ، وكان بلاغ الطرد قد أعلن في ٨ أكتوبر ، وانحصر في المورسكيين الغرناطيين الذين دخلوا المملكة حديثا ، برغم أنهم كانوا موضع تقدير كبير بفضل معارفهم الفنية وخبرتهم في صناعة الحرير ، أما الآخرون فقد تم استدعاؤهم ليستوطن معظمهم " بوادي ريكوتى " وقد تأجل تنفيذ طردهم نظرا للمعلومات الجيدة التي وردت عن اخلاص مسيحياتهم .

وهكذا تم الانتهاء من القسم الرئيسى للعملية فى كل أسبانيا خلال عام ١٦١٠ ، لكن بقيت بعض العمليات المتممة خلال السنوات الثلاث التالية ، وبهذا انتصرت الآراء المتشددة آخر الأمر ، وفشلت التماسات بعض أصحاب الإقطاع وبعض الرسميين لإبقاء القادرين على العمل ممن يمكنهم تحمل المشقات ، ولكن نظرية " نقاء الدم " هى التى تغلبت وقيل " إنه من الأفضل طرد المشكوك فيهم جميعا ، فهذا خير من ترك تلك البذرة الرديئة فى الأرض الإسبانية " (١)

هل يعتبر العرش الأسباني مسئولاً عن هذا القرار ؟ إن مسئوليته فى هذا الخصوص ليست موضع شك ، ويرغم كل شئ فقد استمر بعض المورسكيين فى الأراضى الإسبانية لسبب أو لآخر ، بعضهم أمكنه الحصول على شهادات من رجال الدين ، ومنهم من حتمه الامتيازات القديمة ، ولكن كل هذه الحيل تصدى لها الكونت دى سالازار - المسئول عن تنفيذ العملية - فقد استصدر مرسومات ملكية سنة ١٦١١ وزعت من خلال المفتشين فى كل أسبانيا وألغت كل التصريحات السابقة بالبقاء أو كل مبررات ابقاء المورسكيين السابقة ، وحتى بعد هذا بقى البعض ، ففى الأندلس زعم

1- A. Dominguez ortiz : Historia ... P. 197'

بعض رجال الإقطاع أن رعاياه لهم مزايا ، فلم يحدث قط أن عاقبتهم المحاكم الدينية ، ومن كانوا فى بعض المناطق قدموا التماسا باعفائهم من ضريبة " الفرضا " . التى كانت تفرض على المسيحيين الجدد ، فهم من القدامى الجيدين ، وقد بقى كذلك بعض من أمكتهم الاختفاء فى غرناطة ، كما بقى فى " مالقة " العبيد العديدون من أصل مسلم ، لأنهم كانوا يعتبرون من الممتلكات الخاصة ، وفى قشتالة تمركز من بقوا فى معسكرين بمنطقتين هناك وبقيت بعض الأسر من أصل غرناطى ، بعضهم لأن الاسقف شهد بمسيحيتهم ، وآخرون لأنهم برهنوا على انحذارهم من أصل اسلامى وأنهم أتوا الى " البشرات " فى عهد الملكيين الكاثوليكين " لكن هؤلاء أمروا بمغادرة البلاد فى ٣ مايو سنة ١٦١١ .

نفس الشئ تقرر بالنسبة للمذجنين الذين استقروا فى المدينة منذ زمن بعيد وانصهروا مع المسيحيين بصورة جزئية ، لقد كانت الأوامر قاطعة فكل الذين يعيشون فى احياء منفصلة ويدفعون ضريبة (لافرضا) يجب عليهم أن يخرجوا ، ووفقا " لجونثالث دافيلا " فإن هؤلاء كانوا ١٧٠ أسرة يبلغ عدد أفرادها ٧٧٠ نسمة ، وقد باعوا ممتلكاتهم بثمن بخس وخرجوا الى فرنسا ، وقد بقى عدد كبير منهم فى " تولوز " ووصل آخرون حتى دوقية " مانتو " (١)

فى ٢٢ مارس سنة ١٦١١ كان لايد من صدور مرسوم جديد يأمر باخراج المورسكيين الذين بقوا وتظاهروا بالحياة باعتبارهم مسيحيين جيدين وقد خرج لهذا السبب من قشتالة ١١٣١٧ عن طريق " بورجوس " كما

1- Gonzalez Davila: teatro eclesiastico de espana. teatro de la iglesia de Avila.

إعتادا على

A. Dominguez ortiz: obra citada, P.198.

خرج عشرة آلاف عن طريق " كارتاخينا " ، نسبة كبيرة منهم كانت من
الفرناطيين الذين سبق نفيهم من غرناطة عقب الثورة الفرناطية ، ونص
المرسوم على الا يحمل المسلمون الذين جاءوا من المغرب بارادتهم الخاصة
ليكونوا مسيحيين ، الا يحملوا على الخروج ، ولا الرهبان أو القساوسة من
أصل مورسكى ولا العبيد الذين بقوا منذ ثورة غرناطة حتى لو كان عددهم
كبيرا . (١)

وفى ٢٥ مارس سنة ١٦١١ انعقد موكب ضخم " حضره صاحب
الجلالة فى كامل أبهته بملابسه البيضاء " يهدف الى التعبير عن الشكر
لإنهاء العملية التى بدأت منذ سنتين تقريبا (٢) ، ومع ذلك فلم تصل الى
نهايتها ، وسوف يحدث بعد ذلك أن يدل بعض المسلمين على إخوانهم ،
وتواصل قصة الإكراه على مغادرة البلاد مسيرتها .

ولعل من المناسب أن نشير الى الحادث المر من حوادث الطرد
الأخيرة ، أعنى حادث طرد المورسكيين الذين كانوا يقيمون فى " وادى
ريكوتى " . وهذا الاسم يطلق على خمس قرى من غوطة " سيجورا " ،
أتمت نظام دائرة " سنتياجو " وكان صاحب اقطاعها " دون لويس فاخاردو "
ماركيز دى لوس بيليث ، وهو واحد من الشخصيات ذات التقدير ، وكانت
له مصلحة فى الا تخرب دائرته ، وعندما وقع الملك مرسوما الطرد من
بلنسية ، أستغاث به كثيرون وهتفوا بأنهم مسيحيون ، فتقرر إرسال
شخصية دينية موضع ثقة لتحرى أحوالهم ، فزارتهم تلك الشخصية ثم
رفعت تقريرا عن أحوال المورسكيين وعن الباقيين منهم فى مملكة

1- J. Caro. baroja: Historia de los moriscos...PP. 131 - 132'.

2- Don Diego de Guzman: Vida y muerte de Doña Margarita
de Asturia , 11, cap . 20' : نقلا عن

A. Domingues ortiz : Historia ... P. 198'.

مرسية (١) ، وأصرت على أن من يقطنون " وادي ريكوتى " من المسيحيين الجيدين ، فقد أعلنتوا نصرانيتهم فى احتفال عام ، بشاهدتهم الناس وعاشروهم وشهدوا بإخلاصهم ، وعندما عرفوا بمرسوم الطرد قاموا بعمل مواكب وصلوات وأعلنوا التوبة وعبروا بمظاهر أخرى عن تدينهم المسيحى ، وفوق ذلك ، فهم منذ زمن طويل يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير ويستخدمون شحمه ، ومن تقل أعمارهم عن أربعين سنة لا يتكلمون العربية ولا يفهمونها ، فطردهم من البلاد لايلىق للأسباب السابقة جميعها . (٢)

وبرغم هذا فان ما أمكنهم الوصول اليه هو التأجيل فقط ، فقد مال المتشددون فى المجلس الملكى الى اعتقاد أن هذه البراهين ليست الا كوميديا خالصة ، وأنهم فى أعماقهم مسلمون مثل الآخرين ، وكان الملك نفسه يرى نفس الرأى فصدر مرسوم ملكى باستثنائهم من الطرد فى ١٨ يناير سنة ١٦١٠ ، وفى ٨ أكتوبر سنة ١٦١٤ وقع الملك مرسوما بالغاء هذا الاستثناء ، وكان عدد هؤلاء ٢٥٠٠ وقد منحوا مهلة ٣٠ يوما لمغادرة اسبانيا ويرر هذا الإجراء الخطير بأنه " الآن معلوم من طرق معينة أن بعضهم يتصرف بشكل فاضح ضد خدمة الاله وضدى وضد قلة من المسيحيين القدامى الذين يسكنون فى هذه الاماكن ، مبرهنين بكل شئ على نواياهم المؤذية " وقد شمل الطرد الجميع رجالا ونساء وأطفالا مهما كانت أعمارهم ، وحظر عليهم الخروج الا من ميناء " كارتاخينا " فقط ، واستثنى من الطرد العبيد وحدهم ، . وفيما يتعلق بالمتلكات فقد منحهم المرسوم الحق فى أن يتصرفوا فى الممتلكات المنقولة خلال ٣٠ يوما وأن

١- من الترجمة الأسبانية ' 325, 326' , apendice XVI, por Iopcyre, Reproducido
2- A. Dominguez ortiz: historia ... P. 199'

يحملوا معهم ما يستخرج من ذلك على أن يتركوا نصف مامعهم للموظف
المستول عن استقبالهم فى مرسية . (١)

ولهذا فقد فوض الكونت دى سالار - مسئول العملية - فى
أكتوبر سنة ١٦١٣ فى طرد ٢٥٠٠ مورسكى من " وادى ريكوتى " مع
كل المورسكيين البلنسيين الذين تراوحت اعدادهم من ستة آلاف إلى سبعة
آلاف ، وقد ابحروا جميعا من ميناء " كارتاخينا " فى اتجاه ايطاليا
وفرنسا ، ورفض كل طلب بالبقاء فى أى منطقة وبشكل متشدد .

وهذه القسوة فى معاملة هؤلاء سببت استنكارا ، وقد تساءلت
بعض الشخصيات الكبيرة ، كيف يمكن أن يمثل هؤلاء الفقراء ، بقايا
الاقلية المضطهدة ، خطرا على الدولة ؟ وعلى أى أساس لاهوتى يمكن طرد
رعايا معمدين يرغبون فى الحياة باعتبارهم مسيحيين ؟ الكونت دى سالاز
نفسه يقول : " لقد كانت زيجات كثيرة تتم بين مورسكيين ومورسكيات من
أجل البقاء ... الآن أصبح عدد من لايتزوج كبيرا ، لقد دخل الرجال فى
الرهينة وأصبحت النساء راهبات ، وفى الأديرة يبيعون التصريح للدخول
فى سلك الرهينة كما تباع سلة من الكمثرى ، انه لشيء فاضح ، هذا الذى
فعله الرهبان مع هؤلاء الناس ، جشعا ورغبة فى ممتلكاتهم " (٢)

وقد أعطى الأديب الاسبانى الكبير " ثيرفانتس " اسم " ريكوتى "
لفصل هام من فصول روايته الشهيرة " دون كيكوتى " ، إن هذا ليس
صدفة ، إنه يعكس وقع القرار بطرد هؤلاء فى هذه المرحلة النهائية لدى
الرأى العام ، وقد شغل كل من علق على " ثيرفانتس " بهذا الأمر يقول

1- P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 285 - 286'.

-- J. regla - Estudios ... P. 106'

.2- Antonio Dominguez ortiz: historia .. P. 199'

وقد بلغ السلطان احمد - الخليفة العثماني - ما أصاب الكثيرين
من ذهبوا الى أراضى فرنسا من النهب والإعتداء ، فأرسل الى ملكتها
يحتج على مايتعرض له هؤلاء المسلمين ويطلب حمايتهم (٢) .

وقد حفلت الروايات بالأحاديث المحزنة عن مصير المسلمين المنفيين
فقد كان ما يحملونه من أموال وحلى نفيسة ، سببا فى تعرضهم لهجوم
العصابات وقطاع الطريق أثناء انتقالهم من "وهران" الى داخل البلاد
المغربية وقد استولوا على مامعهم وأسروا نساءهم. وكان معظم هؤلاء من
الأغنياء والأشراف وخاصة أهل أشبيلية ، وقد كتب - حاكم وهران -
يقول : إن الكثيرين بقوا فى وهران خوفا من اعتداءات هذه العصابات ،
وقيل أن أكثر من جاءوا الى " وهران " هلكوا نتيجة الاعتداء أو المرض ،
وأن الكثيرين منهم عادوا الى اسبانيا ، وطلبوا من السلطات فيها الأبقاء
عليهم نصارى وأن يضرب عليهم الرق ، وبالفعل قبلت بعض الأسر
استرقاق هؤلاء ، ولكن رجال الدين اعترضوا ، فصدرت الأوامر برفض
انزالهم بالشواطئ الأسبانية ، ومع ذلك فقد تسرب بعضهم الى بلنسية
وغيرها من البلاد ويقوا هناك فى الأراضى الأسبانية .

١- المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٦١٧ ، ج ٤ ص ٥٢٨ من نشرة إحسان عباس ، أما مرسومات الطرد
فقد ذكرتها مصادر عديدة من بينها مثلا :

- P. Boromat: Los moriscos Españoles y su expulsion, tomo 11, PP. 190 - 305'

- J. Caro boroja: los moriscos, PP. 210 y ss

- J. regla : Estudios ... PP. 84 : 108;

- A. Dominguez ortiz : Historia ... PP. 177 - 200'

عنان : نهاية الأندلس : ٣٩٣ - ٤٠٢ .

2- Lca : the moriscos ... P. 364'

وهنا قد يطرأ سؤال مضمونة ، كم عدد المورسكيين الذين أخرجوا
قسرا من اسبانيا ؟

الواقع أن هناك من يتجه الى تفخيم الرقم ، ويستوى فى ذلك من
أيدوا الطرد ومن عارضوه ، مثلا باحث مدقق مثل " دون ماتويل دنفيللا "
يقدر عددهم بنصف مليون ، وقد تبعه آخرون مثل " ليا و بيريث و
يوستامنت ورجلا" ، بل وصل بهم البعض الى مليون نسمة . بينما يميل
"هاملتون" الى الطرف المقابل فينزل بهم الى مايزيد قليلا على مائة ألف .
ومع ذلك فقد نشر الرقم الدقيق كتاب لا بد أن لهم مداخلهم الى المصادر
الرسمية ، كتب " الونسوفرناندث " مؤلف "تاريخ بلاسنتيا" يقول :

" وفقا للبيان الحقيقى لسكرتارية الدولة ، فان عدد المورسكيين
الذين طردوا من هذه المملكة ٢٧٠ ألف وقد كثر هذا الرقم " كاسكالس "
مؤرخ مرسية. أما " بليدا " الذى إعتد على وثائق رسمية ، فقد وصل
الى الرقم ٦٧٢ر٣٤٠ ، بينما تكلم " بنياالوسا " و " سالازادى مندوثا "
عن شئ أكثر قليلا من ٣٠٠ ألف . أما رقم ٢٧٠ ألف تقريبا فهو
ماتوصل اليه " لابيرى " معتمدا على السجلات الرسمية الخاصة بخروج
المورسكيين وموجزها :

بلنسية ١٧٤٦٤ ، مرسية ١٣٥٥٢ ، أراجون ٦٠٨١٨ ،
الاندلس الغربية ٢٩٩٣٩ ، قطالونيا ٣٧١٦ ، غرناطة ٢٠٢٦ ،
قشتالة واستيرمادورا ٤٤٦٢٥ المجموع الكلى ٢٧٢١٤٠ .

ويرى " لابيرى " نفسه أن رقمى مرسية والأندلس غير دقيق ،
فهو أقل من الواقع ، ولهذا فإن الإجمالى يمكن أن يرتفع الى ٢٧٥ ألف ،
إذا وضعنا فى الاعتبار أن المتوفر بعض الوثائق وليست جميعا وأن هناك

خروجاً تم بصورة سرية ، فوق ضياع الاحصاء الاسباني ، فهذا كله يجعلنا نتحدث عن ٣٠٠ ألف نسمة على الأقل ، بالإضافة الى عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً ، ماتوا أثناء الثورات والإضطرابات فى بلنسية ، وأثناء ما تعرضوا له من ويلات فى طريقهم الى موانئ الإبحار (١) .

وقد نشر "لايبرى" كذلك احصاءات مفصلة عن رحيل المورسكيين من بلنسية وبمن طردوا من أراجون وقطالونيا، وقد عبر كثير من المورسكيين الى فرنسا من خلال " سوم بورث " و" نافارا " وبلاد الباسك ويقول : كان المورسكيون قلة فى الغرب (محافظتى ولباوقاوش) وكثيرة فى الشرق (قرطبة وجيان) وفى اشبيلية كونوا ١٠ ٪ من السكان البالغ عددهم ٨٠ ألف نسمة وقد نشر ملحقاً يتضمن عدد المورسكيين سنة ١٦٠٩ وفقاً لاجابات موجهة الى المجلس العلمي للدولة ، وكذلك الرحلات التى تمت من اشبيلية ، فقد غادر من ميناء الجراو ١٧٧٧٦ ومن البيكانتى ٣٠٢٠٤ ومن دنيا وخايا ٣٢٧٨٠ ومن بينا روث ١٥٢٠٨ ومن مونوكوفر ٥٦٩٠ ، ومن بيشلاس دى لاسيرا دى لاجوار ١١٣٦٤ كما رحل من دينا وخايا بدون تفتيش دقيق ٣٠٠٠ ، المجموع ١١٦٠٢٢ .

١- يذكر : خ . كارو باروخا تقديرات أخرى عند مؤلفين آخرين من القدماء والمحدثين ويناقش " برونات" الأرقام التى ذكرها القدماء ويرى مثلما يرى دانفيلاي كويادوا أن رقم ٥٠٠ ألف هو الأقرب الى الحقيقة ، أنظر :

- P. Boronat: abro citada, 11, PP. 304 - 307'

- Danvila y collado (manuel), la expulsion de los moriscos españoles, PP. 337'-339' 339 Madrid 1889'.

- J. caro baroja: Los moriscos ... Note N. 131, P. 253' وما بها من مصادر

- Lea. the moriscos ... P. 359'

- A. Dominguez ortiz - la historia .. P. 200'

- lapeyre: Geograpy d' l'Espagne morisque apendicc,p.245-254 من الترجمة الأسبانية

- J. regla : Estudios ... P. 35 - 39'

لقد قدم احصائيات شاملة عن السكان فى أعوام ١٥٧٠ ،
١٦٠٩ ، ١٦٦٤ .

واحصائيات تتعلق بالمورسكيين فقط فى أعوام ١٥٢٧ ، ١٥٦٣ ،
١٥٨٥ ، ١٦٠٢ ومنها تبين أن المسيحيين القدامى شكلوا أغلبية سكان
المدن ، وكان المورسكيون قلة متمركزة فى الضواحي ، وسيطر المسيحيون
القدامى على الصناعة والتجارة ، بينما سيطر المورسكيون على الأراضى
التي تعتمد على الرى فى زراعتها ، باستثناء محافظة قشتالة الحالية ،
حيث كونت الأراضى العليا فى " موريا والميستراثجو " تكتلا مسيحيا
متينا ، وهذه الأراضى نفسها كانت حصن قوات الإمبراطور "كارلوس
الخامس" خلال حرب النقابات فى بداية القرن السادس عشر .

يقول " لايبيرى " : أنه ابتداء من نهر ميخارس " فان كل المناطق
الجبلية ، بما فى ذلك مناطق التلال ، كتلك التى تمتد غرب بلنسية فى اتجاه
شيفا وبونياول " كانت مأهولة بأغلبية مورسكية ، ونتيجة لهذا فان أراضى
الرى ببلنسية كانت كلها تقريبا مسيحية ، كذلك الأراضى المستوية فى
Castellos وشاطئ الخوكر وأراضى الرى فى اليكانتى والشى وأورى ويلا
. وندر الوجود المورسكى فى مناطق الرى الأخرى ، كما كانوا أعدادا
قليلة فى اراضى السادة من رجال الدين ، وعلى العكس كانوا كثرة فى
أراضى البارونات وأراضى العلمانيين .

وقد فحص " لايبيرى " التطور الجغرافى لمملكة بلنسية حتى سنة
١٦٠٩ ، فوجد أنه قد انخفض عدد السكان المورسكيين فى ٩٠ مكانا
مورسكيا فى الفترة من ١٥٢٧ إلى ١٥٦٣ ، ويفسر المؤلف ذلك بالهجرة
الى بلاد البربر ، وعلى العكس من ذلك تعرض ٨٠ موضعا مورسكيا

لارتفاع يمكن تقديره ب ٧٪ بصفة عامة خلال نفس الفترة .

أثناء الفترة من ١٥٦٣ . ١٦٠٩ تجاوز العدد الاجمالي لمملكة بلنسية ٦٤٠٧٥ منزلا أو ٩٦٧٣١ Focs بزيادة قدرها ٩٠.٥٠٪ ، وكانت نسبة الزيادة بين المورسكيين ٦٩٧ وبين المسيحيين القدامى ٤٤.٧٪ ، وقد احتكرت العاصمة وحدها حوالى ٥٠ ألف دون أن تزيد على نسبة الزيادة فى المملكة .

ويمكن أن يفسر عدم الزواج بين المسيحيين القدامى إرتفاع السكان المورسكيين ، وكان هذا ينظر اليه بصورة جيدة من جانب السادة أصحاب الأماكن ، لأن هذا يساعد على زيادة دخولهم ، وكانت الخصوبة المورسكية أحد الاسباب المهمة فى خرابها .

وهكذا فان انتصار الارستقراطية الواسعة الثراء المتحالفة بإخلاص مع التاج ، ترتب عليه انتصار الحقل على المدينة فى حرب الثقباب ، ولكن طرد المورسكيين فى القرن التالى ترتب عليه قلب القضية يعنى انتصار المدينة على الحقل ، ان النتائج الإقتصادية لطرد المورسكيين من بلنسية كانت كبيرة ، واستمرت فترة طويلة فى الداخل وكان تأثيرها أكبر على التجارة الجنوبية للمملكة (١) .

فيما يتعلق بالعدد الكلى للمورسكيين المطرودين ، فان السكان فى بلنسية أمكن تقديرهم ب ١٧٠ نسمة سنة ١٦٠٩ أى بنسبة ٣٤٪ من إجمالى السكان ، أما المورسكيون فى مملكة " أراجون " حسب الإحصاء المفصل الذى قام به ماركيز دى ايتونا خاصا بسنة ١٦١٠ فإن

1- Lapeyre: Geographie ... PP. 27'

-- J. regla : Estudios ... PP. 226 - 228'

عدددهم ٧٠٥٤٥ نسمة يعنى ٢٠٪ من اجمالى السكان ، ومجموع الرقمين هو ٢٤٠٥٤٥ يضاف اليهم عشرة آلاف كانوا فى مملكة قطالونيا ، أما من طردوا من الاقاليم المختلفة لمملكة أراجون فلايشك أنهم فى حدود ٢٥٠ ألف من اجمالى سكان هذه المملكة البالغ مليون ، ١٨٠ ألف شخص فى نهاية القرن السادس عشر .

فيما يتعلق بمجموع المطرودين من البلاد يقول هاملتون : إنه لا الاسعار ولا المرتبات تعكس العدد بشكل حاسم-وقد كان المورسكيون المطرودون قلة ، والرقم ١٠١٦٩٤ - مع استبعاد الاطفال الرضع - هو المذكور فى احصائية اللجنة المكلفة بالطرد والمنشور فى احصاء "توماس جونثالث" وهو الأكثر دقة . أما " بيريث بوستامنت " فيقبل الرقم ٥٠٠ الف والبيانات التى قدمناها عن مملكة " أراجون " تجعلنا لانؤيد نظرية "هاملتون " ، وبناء على استشارة منشورة عن مجلس الدولة عام ١٦٠١ فإن العدد الإجمالى للمورسكيين يقدر ب ٥٠٠ ألف ، وهذا الرقم قبله "ليا " باعتباره الأكثر معقولة فى حصرنا للمورسكيين الذين طردوا اعتبارا من سنة ١٦٠٩ (١) .

ويرى نابا ريتى " وهو من كبار المؤرخين الاسبان - أنه قد نفى من اسبانيا فى مختلف العصور نحو مليونين من اليهود وثلاثة ملايين من المورسكيين ، بينما يقدم " دون لورنشى " مؤرخ ديوان التحقيق بمليون ، ويرى المستشرق " فون هامار " أنهم كانوا ٣١٠ ألف ويرى " خوليو كاروياروخا " أن الأرقام التى أعطيت قبيل الطرد مباشرة ، تبدو غير ممكنة

أنظر : رجلا : دراسات بالأسبانية ص ١١٨ . ١١٩

برونات : المورسكيون الاسبان .. بالأسبانية ج ٢ ص ٣٠٤ .

براوديل : البحر الأبيض المتوسط ، بالفرنسية ص ٥٩٤ و العمل مترجم للأسبانية .

ففى محضر مجلس الدولة بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٦٠٨ مايفيد - على لسان رئيس الاساقفة فى اسبانيا أن مورسكيي البشرات الذين وصلوا الى أراضى طليطلة كانوا فى الأصل ١٥٠٠ ، وفى نفس وقت انعقاد جلسة التشاور تجاوزوا الرقم ١٣ الف ويقدر أنه قد وصل الى محكمة بلنسية فى نفس الظروف ٣٠٠٠ مخالفا للقانون ، وقد أرسل أغلب هؤلاء الى قشتالة التى هربوا منها . وفى برلمان سنة ٣٩٥١ حرص الأعضاء على ابراز الخطر وطالبوا السلطات باتخاذ اجراءات قاسية ، ولفتوا نظرها الى ما أتسم به المورسكيون فى مفاهيم الجديد ، حيث عاشوا منعزلين ، ولم يكن يسمح لهم بالتجمع أو التمرکز فى احياء معينة ، وكانوا أحرارا فلم يخضعوا لسيد أو صاحب اقطاع ، عكس من كانوا يعيشون فى بلنسية وأراجون خاضعين لسادة الإقطاع (١) .

أما الرواية العربية فتقول أنهم كانوا ٦٠٠ ألف ، ويبدو أن هذا العدد هو الاقرب الى الصواب فقد كان مجموع هؤلاء فى أواخر القرن ١٦ هو نفس هذا الرقم تقريبا ، وقد مات منهم عدد وأسر عددا آخر أثناء مأساة الطرد ، فاذا وضعنا فى الإعتبار ماكان عندهم من إخصاب وسرعة تكاثر ، أمكننا أن نقول أنهم لم يتجاوزوا الرقم المذكور (٢) .

• مبررات إخراج المورسكيين من أسبانيا :

خلف فيليب الثالث والده فيليب الثانى على العرش الأسباني سنة ١٥٩٨ ، وكان الملك الجديد مختلفا عن السابق فى كل شئ ، فالوالد كان شخصية مستتدة ذات إرادة قوية ومقدرة عظيمة على العمل ، أما الإبن

١- أنظر : تاريخ المورسكيين فى مملكة غرناطة ص ٢١١ وما بها من مصادر . وهامش ٣٥ فى ص

٢- أنظر : القرى : نفع الطيب ج ٢ ص ٦١٧ ، وعنان : نهاية الأندلس ... ص ٤٠٢ .

فكان رقيقا مسالما يسهل على الآخرين اخضاعه ، وكان تدين فيليب الثاني من النوع العسكري يعنى أنه لم يكن فقط متحمسا للسلطة بل كان مقتنعا أن الله أودع فى يديه مسئولية الكنيسة أيضا ، أما ابنه فكان تدينه تقليديا عاطفيا بدون مضمون ثقافي ، وقد نالت طائفة اليسوعيين خطوة لاحدود لها عنده .

وفى نظام حكم ملكي مطلق ، فان القرار النهائى يكون دائما فى يد الملك ، ويرغم هذا فإن الإبن فيليب الثالث أقدم على ما لم يقدم عليه والده ، ولنا أن نتساءل ، لماذا جرؤ هذا على اتخاذ قرار تراجع سلفه عنه ولم يستطع اتخاذه ، أعنى قرار طرد المورسكيين من كل أسبانيا ؟

إن المبررات التى جعلت الملك يميل فى النهاية الى تبني هذا الإتجاه غير واضحة تماما ، لقد اتخذ القرار بعد عشر سنوات من التردد ، عشر سنوات ، قلبت فيها الأوراق وطرحت آراء كثيرة متباينة ، فهل كان الرأى العام وراء هذا القرار ؟ الواقع أنه ليس هناك ما يؤيد ذلك ، لافى مناقشات البرلمان ولافى أدب الفترة ، هناك فقط مطالبة بإتخاذ اجراءات ضد التلصص، وأن يحال بين المورسكيين وبين ممارسة بعض الحرف ، أما الأصوات التى تنادى بالنفى ، فقد بدأ بها أشخاص معدودون .

أما مسئولية الكنيسة فى اتخاذ هذا القرار ، فهى موضع جدل كبير ، لأن هذا الإجراء قدمت له بعض المبررات الدينية ، والواقع أنه لاينبغى أن نقلل من دور بعض كبار رجال الدين وخاصة البطريرك " ريبيرا أسقف بلنسية " ، " وخيمى بليدا " مسئول الكنيسة فى المنطقة التى تضم كثيرا من المورسكيين ، فى نفس مملكة بلنسية ، وكان قلب هذا القس يمتلئ غيظا على المورسكيين ، لأن مهمته التبشيرية فشلت بينهم ، ولذلك ، ما

أن تولى العرش فيليب الثالث حتى توالى زيارته ومذكراته له فى محاولة لإقناعه بضرورة مباشرة الطرد العاجل والكامل لكل هؤلاء ، فلم يجد لفكرته حماسا كبيرا عند معظم الوزراء ، وقد فشل فى إقناع السلطات بأن المورسكيين - كمجموعة - مرتدون تجب معاملتهم على هذا الأساس ، ونصحته قيادة الكنيسة فى روما أن يستمر فى تبشير المورسكيين وتعليمهم أصول الدين ، ففكرة الطرد لم تنطلق من الكنيسة وإن كان هناك من أيدها وشارك فيها ، لكن ليس جمهور القساوسة ، لأن هذا سيعود بالخسارة عليهم ، بل إن مفتشى التحقيق - الذين طالما أزهبوا هذا الشعب المورسكى بوسائلهم المرعبة - لا يد أنهم أدركوا أن إيراداتهم ستنخفض بصورة محسوسة ، عندما لا يجدون ضحاياهم التى ينفذون عليهم إرهابهم ، وربما كان " لمرجرتيا " - زوجة الملك الضعيف المتردد - دور فى اتخاذ القرار ، فقد مدحها واحد من رؤساء الأديرة فى غرناطة " لمقتها المقدس الذى تضمره تجاه المورسكيين والذى يحركها للعمل لإنجاز أكبر مشروع شهدته اسبانيا : الطرد (١) .

وقال البعض -- ممن عرضوا لهذا الموضوع فى القرن الماضى - إن هذا النفى كان وراء وحدة اسبانيا الكاثوليكية ، لقد كان لزاما عليها أن تلقى عن كاهلها هذا الجسم الغريب : تلك الأقلية غير المسيحية البقية الباقية من الإسلام الذى ولى ، وهذه النظرية ، وإن كانت تتضمن جزءا من الواقع ، إلا أنها غير صحيحة فى صورتها الراديكالية ، لقد ردّ البعض ذلك الطرد لأسباب اجتماعية أو إقتصادية أو هما معا . وليس من الممكن

1- Fray Juan galvano: sermon de los leomas y obsequias de la ... reyna margarite de Asturia. Granada 1611, p.9

-- A. Dominguez: Historia ... P. 161 y note N.3 en la misma Pagina.

الحديث عن ضغط سكاني ، فقد شهدت البلاد وباء في الفترة من ١٥٩٧ : ١٦٠٢ ترتب عليه ندره في الأيدي العاملة بكل أسبانيا ، عوضتها هجرة بعض الأيدي العاملة الأجنبية لهذه البلاد ، نعم كانت هناك منافسة بين العمالية الإسلامية والمسيحية في مملكة " بلنسية " ، فقد كان الأولون أكثر كفاءة وأكثر رخسا ، لكن هذه المنافسة قديمة وترجع إلى زمن بعيد ، نعم . يمكن أن يقال أنه كانت هناك ضغينة ضد الأقلية المورسكية في بلنسية وحدها ، وأن قطاعات واسعة من شعب هذه المملكة وافقت على ابعاد المورسكيين ، ولكن هذا لم يكن حال الأقاليم الأخرى ، ولا وجد له أثر في الاجتماعات والمجالس الاستشارية التي سبقت الطرد والتي يمكن الاعتماد عليها قليلا في معرفة اتجاه الرأي العام ، لأن أصلها أرستقراطي (١).

هل يمثل ذلك الطرد مواجهة بين الارستقراطية والبرجوازية كما يقول خسوان رجسلا ؟ (٢) هذا احتمال محدود ، لأن اضرار الطرد وقعت بالدرجة الاولى على الارستقراطيين ، وكان له صدى عليهم أنفسهم ، إن تأثير^١ الدوق دي ليرما^٢ على الملكة التي تدعم فكرة الطرد وعلى كبار رجال الدين ، أثر على الاتجاه السياسي العسكري في مجلس الدولة وجعله يميل الى إخراج المورسكيين لأسباب تتعلق بالأمن القومي ، وهنا لا بد أن نعود الى الثورة الغرناطية سنة ١٥٦٨ ، فقد ترتب عليها - كما مر - توزيع المورسكيين ونشرهم في كل مملكة قشتالة ، وأصبح يشعر بالمشكلة المورسكية طبقات واسعة من المورسكيين لم تكن تبالي بها من قبل ، وتعقدت المشكلة أكثر بالتدخل الخارجي ، وربما كانت هناك مبالغة في الخوف من امكانية هذا التدخل : تدخل ماسمي بالطابور الخامس ، مثلا

1- A.D. Ortiz : Historia ... PP 161 - 162'

2- Estudios sobre los moriscos ... PP. 29 - 30'.

فى سنة ١٥٩٥ قبل أن الإنجليز اقتربوا من " قادش " فصدرت أوامر للمورسكيين باشبيلية أن يلزموا العزلة الصارمة . والواقع أنه لم تكن هناك قوات ، ولم تكن هناك رغبة فى دعم أى إعتداء خارجى ، ونفس الشئ حدث فى باقى مناطق قشتالة .

وقد كان الوضع فى " أراجون " و" بلنسية " مختلفا ، لأنه كان وراء حدود جبال البرانس مايدعو الى القلق دائما ، بسبب أنه كان يوجد فى الجانب الشمالى منها بؤرة مشاكل مستمرة ، سببها تمركز المناصرين لمذهب " كلفينوس " بهذه المنطقة ، بل أن ذلك يرجع الى الفترة التى اعترف فيها ب (انريكى الرابع) ملكا على فرنسا ، وكانت صداقته ونواياه تجاه اسبانيا موضع شك . فالعلاقات مع فرنسا كانت من أكثر الأشياء الباعثة على قلق أعضاء مجلس الدولة ، ذلك المجلس الذى نظر الى المسألة من وجهة النظر السياسية والعسكرية قبل أى شئ آخر ، ولقد لاحظ " دانفيللا" التعارض بين المنشورات الصادرة عن هذا الجهاز العالى ، إنه فى عام ١٥٩٩ كان ينصح بأن يحكم على المورسكيين بالأشغال الشاقة إذا كانت أعمارهم تتراوح بين ١٥ الى ٦٠ عاما ، وتصادر ثرواتهم ، والذين تزيد أعمارهم عن ستين سنة ، يبعث بهم مع النساء الى بلاد المغرب ، ويحتفظ بالاولاد فى المدارس .

وموقف الاكليروس العالى يختلف كثيرا ، وهو أكثر انسجاما مع اعتبارات الرحمة والشفقة التى تميز مجلس من كبار رجال الدين (١) ومختلف المدارس الدينية ، وإن كان " ريبيرا " يعبر فى كل يوم عن عناد أكبر ، وزادت خطورته بعدما جمع بين منصبى الوالى وبطريك بلنسية

1- Danvila y callado (Manuel): La expulsion de los moriscos Españoles, P. 241'

فكتب للملك مذكرتين يقترح فيهما تحديد تاريخ لنفى المسلمين .

الأولى منهما مؤرخة أواخر سنة ١٦٠١ وفيها يصرّ على عناده وبرز الخطر الذى يمثله المورسكيون من وجهة نظره ، ويؤكد إنهم إن لم يطردها " فانى لا بد أن أرى فى أيامى ضياع أسبانيا " ، وبعد ذلك بفترة قليلة - فى يناير ١٦٠٢ - ثنى بمذكرة أخرى يصرّ فيها على طرد المورسكيين " لكونهم ملحدين وخائنين للعرش الملكى " ، وحتى الآن لانرى الا إشارة أساسية للمورسكيين من " بلنسية " ، وربما اشارة اليهم وحدهم ، ثم الى الأراجونيين بالدرجة الثانية ، لأن هؤلاءهم الذين يخشى منهم بعض التحركات الخطيرة ، وتطلب المذكرة اجراءات أكثر صرامة ضد المورسكيين الذين لم يخضعوا لواحد من سادة الإقطاع ، فهؤلاء يجب نفيهم الا الذين يريد الملك احتجازهم للعمل فى السجون أو فى مناجم أمريكا ، وهو ما يجب أن نعمله دون أن تتردد ضمائرنا ، أما الذين يخضعون للسادة الاقطاعيين - وهم تقريبا - كل البلنسيين والأراجونيين - فهؤلاء يجب أن يستمروا وأن نواصل تعليمهم وتبشيرهم ، وهناك تناقض ظاهر فى هذا الموقف ويمكن أن يعزى الى الضغوط التى كانت تمارسها الطبقات العليا البلنسية على البطريك وإقناعه بجسامة النتائج المدمرة التى تعود على هذه المملكة من جراء قرار مرغوب فيه ، ولكن يخشى منه فى نفس الوقت .

فالخوف من التدخل الخارجى أذن كان وراء ذلك القرار ، فقد كان يخشى أن يساعد الشعب المورسكي أى هجوم على البلاد الأسبانية ، وكان التهديد من ناحية " بلنسية " أقل فى هذا الزمن ، لأن احتمال قيام الأتراك العثمانيين بعملية انزال بحرى على شواطئ اسبانيا كان احتمالا ضعيفا آنئذ ، ويقال أنه كانت هناك محاولة عثمانية - باشتراك مورسكي نشط - للاستيلاء على جزيرة مالطة ، وقد تمت نجدة الجزيرة بأسطول سنة

١٥٦٤ ، وقد شن الاتراك هجوما مضادا أعان عليه أحد المورسكيين حين أخبر أحد القادة الأتراك أن عدد المسيحيين الذين نزلوا على الشاطئ ، يتجاوز خمسة آلاف (١) ، وقد انتظر المورسكيين بغرناطة فى العام التالى وصول الأسطول التركى ، ظانين أنه قد انتصر فى مالطة ، حتى يمكن لهم بدء ثورتهم فى الأندلس (٢) .

وهكذا يقال أنه كان يكفى تهريب الاسلحة من ناحية البحر الى مناطق المورسكيين لتكون بؤرة إزعاج ومشاكل اذا حدثت حرب خارجية ، فالمورسكيون لا يمكنهم فعل شئ من تلقاء أنفسهم فاذا ما جاءهم دعم من الخارج ، أمكن أن يمثلوا خطرا ، على الأقل ، هذا مايعتقده أعضاء لهم تأثيرهم فى مجلس الدولة ، وكل المؤلفين تقريبا متفقون على أن هذا كان واحدا من الأسباب التى ألفت بثقلها لحظة طرد المورسكيين .

لكن هذا التحليل لا يصل الى عمق القضية ، فهل الأقلية المسلمة مسئولة عن توقع الخطر حقيقة ، وهل الذنب الأساسى ذنب غيرهم ؟ إنهم نسبة من السكان قليلة فى مجموعها ، عالية فى أقاليم معينة ، وليس يشك فى إنتمائهم للتراب الأسبانى ، فهم ملتصقون بالأرض وقيم ثقافية خاصة ، لكنهم لم يلتحموا بالمجتمع المسيحى ، وتحولوا ليس فقط الى مجموعة غريبة بل ومضطهدة ، وكان من الصعب على هذه الأقلية أن تخلص للملك يرعى أجهزة انتقامية مرعبة ، ابتداء من محاكم التفتيش ، الخاضعة لسلطة الملك رغم طابعها الدينى ، الى غيرها من وسائل القمع ، فعدم التضامن السياسى إذن كان انعكاسا لعدم التضامن الإجتماعى، إنه

١- أنظر : براوديل : البحر الأبيض المتوسط ص ٨٤٩ من الأصل الفرنسى ، ص ٤٩٢-٤٩٦ -

ج٢- من الترجمة الأسبانية .

٢- المرجع والموضع السابق ، وأيضا : ' J. regla. Estudios ... P. 201' .

الوضع الذى يجعل من المورسكيين أقلية نائية عن المجتمع ومضطهدة فيه ، وكل هذا يرجع لسبب دينى ، فحول هذه النواة الدينية صارت كل أشكال الكينونة والحياة ، لقد طردت اسبانيا المورسكيين ، لأن المورسكى بقى لايقبل الانصهار فلم يكن الاكراه على النفى من البلاد بسبب الأصل أو الجذر ، لكن لما للمورسكى من حضارة مختلفة ودين ، فقد بقى بعد مرور قرن واثنين وثلاثة محافظا على مظاهر اسلامه ، كما عرفت عنه دائما عادات ومظاهر خاصة : من اللباس ، والدين ، واللغة ، والمساكن المحكمة السد ، والحمامات الاسلامية ... الخ ، نعم كان المورسكى يحافظ على هذا كله ، وعلى كل مايميزه ، حقيقة ، ليس المورسكيون فى المدن لباس المنتصرين ، لكن هذا لم يغير شيئا من عمق الأشياء ، لأن المورسكى كان يجول ببصره نحو عالم شاسع الأرجاء : العالم الاسلامى البعيد ، ومن هنا كان اختيار اسبانيا لأكثر الحلول راديكالية : حل النفى أو الاستئصال الكامل لهذه النبتة من الأرض -

وربما كان من غير المناسب أن يجرى حديث عن المورسكيين فى كلمات عامة ، ناسين أنه كانت هناك اختلافات كبيرة ليس فقط بين الأفراد بل وبين المجموعات ، فهناك فرق كبير بين الغرناطين القدماء وبين مجموعات المدجنين " Los Mudejares " القدماء فى منطقة قشتالة ، بين المورسكيين الذين ذابوا فى المجتمع تقريبا وبين البلبنسيين ، بين الذين نسوا لغتهم والذين يحافظون عليها ، وبين الذين يعيشون يغمهم جو من الحقد المتبادل ، والذين يحتفظون بعلاقات طيبة مع جيرانهم من المسيحيين القدماء . لقد كانت مأساة المورسكى مأساة ثقافية ، إنه معلق بين ثقافتين تجذبه كلتاها ولايقبل واحدة منهما بشكل كامل . إن التعصب وعدم التسامح - الذى كان سمة العصر الوسيط - يجعلنا ندرك كيف تم

التوصل الى قرار فى المشكلة المورسكية ، قرار الطرد ، بسبب المسافة البعيدة التى تفصل الجماعتين : الإسلامية والمسيحية ، ولم يكن هذا النفى عملا وراءه القوي الداخلية المحركة للأحداث فى الداخل ، يقدر ماتقع مسئوليته على الملك فيليب الثالث والشخصيات التى أحاطت به .

ولعل من المناسب فى ضؤ هذا ، ذكر بعض الحوادث التى سبقت الطرد مباشرة ، فقد يساعد ذلك على تصور المشكلة ، وما كان ومن كان وراءها .

ما أن اعتلى " فيليب الثالث " العرش وتوج ملكا على أسبانيا ، حتى توجه الى " بلنسية " بدعوة من صديقه " الماركينز دى دينا " وتزوج الملكة " مارجريتا " فى عام ١٥٩٩ . ومن المحتمل أنه خلال هذه الرحلة عرف معلومات مباشرة عن المشكلة المورسكية التى كانت موضوع محادثات مطولة مع الشخصيات التى رافقته ، ويرغم النصيحة التى توصى بنفى المورسكين والتى ترجع الى سنة ١٥٨٢ ، الا أن الملك ما كان يفكر فى تنفيذ هذا الاجراء فى تلك الآونة ، ذلك أنه عند انتهاء زيارته لملكة " بلنسية " فى ٢٣ مايو سنة ١٥٩٩ كتب رسالة الى " خوان دى ريبيرا " - مطران بلنسية - يتحدث فيها عن تعليمات تتعلق بالتبشير مثل : بنفى تعيين رؤساء أديرة فى الأماكن المحتاجة والبحث فيها عن وعاءا وتعيينهم ، وطبع كتاب "أصول الدين المسيحى" الذى تم تأليفه لأغراض تعليمية وترقية " البيارونات " الذين يوظفون المعلمين للعمل فى أماكنهم ويدفعون رواتبهم والإهتمام بمن تحولوا حديثا الى المسيحية وانشاء جمعيات أخوية لخدمتهم ... الخ (١) فمن هذه الوثيقة بما تضمنته من

١- وما هناك من مصادر . P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 8 - 10'

تعليمات يمكن استنتاج أن الملك لم يفكر في طرد المسلمين عندما أنتهت جولته بمملكة بلنسية، بالعكس ، أعد خططا بعيدة المدى للحصول على نتائج فعالة من التبشير بين هؤلاء .

يكمل هذا مرسوم صدر بالعمو العام أصدره المفتش العام في يوليو من نفس العام ، ويبدو أن هذا قد ترك أثرا ، يقول " دون خوسيه استبيان " - أسقف " أوربهولا " : " إنه رغم حصوله على بعض الثمار من أسقفيته ، الا انها قليلة ، فقد تحول ٨٤ مورسكيي الى المسيحية بإخلاص فيما يبدو ، وتركت بعض النسوة ملابسهن الاسلامية ليلبسن ملابس المسيحيات " لكن تلت ذلك رسالة أخرى تقول أن النساء اللاتي تركن ملابسهن عدن لها بعد اجتماع سرى للجماعة المورسكية (١) .

وفي سنة ١٦٠٤ رأس الملك اجتماع المجلس الملكي في بلنسية ، وليس في محاضر هذا الاجتماع ذكر للمورسكيين للمطالبة بطردهم ، على العكس ، يرد أسفهم للاحتجاج على أن المبالغ المخصصة للاتفاق على الكنائس المنشأة سنة ١٥٧٢ لخدمة المورسكيين ، أنفقتها السلطات في أغراض أخرى (٢) .

وفي نفس العام طلب من " بدور دي ديثا " إعداد تقرير عن القضية المورسكية ، فمال الى الرأي المعتدل وقال : " اذا نظرنا الى المورسكيين بصفة عامة ، فسنرى أنهم كانوا مسلمين وفعلوا كل ما هو ممكن لتمييزهم عن المسيحيين ، انهم لا يريدون اكثر من أن يكونوا مع وطنهم

1- P. Boronat: los moriscos ... 11, P. 18

2- E. Ciscar Pallares : Las cortes Valencianas de Felipe 111

- P. 11 y 18, Valencia 1973

نقلا عن :

-- A.D. ortiz: Historia ... P. 168 .

وشعبهم ، يعتقدون أن أسبانيا كانت وطنهم ، وتنتمى اليهم " ويعد أن تحدث عن فكرة تناسل هذا الشعب ، اقترح وسائل معتدلة لصهره ودمجه مع المسيحيين القدامى ، فطالب بتفريقهم فى مجموعات صغيرة وبأساليب لينة تجعلهم ينسون عاداتهم وطبائعهم ، فى كلمة واحدة : يجب ممارسة سياسة التذويب (١) .

وهكذا نرى أن هذه السنوات حاولت التيسير ، وحتى مايو سنة ١٦٠٦ صدرت رسائل تهتم بتبشير المورسكيين ، ولم يطالب أحد بهذا الطرد لافى بلنسية ولافى قشتالة ولافى غيرها ، وهناك مؤلفون عديدون عرضوا مشاكل عدة وما تحدث واحد منهم عن استئصال المورسكيين من أرض اسبانيا ، لقد كان هذا الرأى المتطرف موروثا عن بعض المستشارين الحساسين ازاء مارأوه خطرا عسكريا ، أو هو رأى عن بعض المتعصبين لنظرية نقاء الدم وهو رأى البعض من رجال الاكليروس ، وقد كان هؤلاء أقلية الا أنهم ملأوا الدنيا ضجيجا باعتراضاتهم وأصواتهم التى كانت تقطر مرارة وغيظا ، نعم ، هناك مذكرة رفعها البعض الى الملك يطلبون القسوة الشديدة فى معاملة المورسكيين باعتبارهم ملاحدة وخونة يستحقون الموت ، فإذا رأفنا بهم لجأنا الى النفى أو ضرب الرق ، ولكن مذكرة كهذه لاتغير شيئا من سياسة الإعتدال التى اتبعتها الحكومة فى هذه السنوات ، يؤكد ذلك محضر إجتماع الثلاثة الذى انعقد فى يناير سنة ١٦٠٧ ، هؤلاء الثلاثة هم قسيس الملك الرسمى ، وحامل وسام الرهبانيات العسكرية والكونت " ميراندا " فقد طالبوا جميعا بتعليم المورسكيين وتثقيفهم وتعيين قساوسة من ذوى الخبرة العالية يمكن الإعتماد عليهم فى تحقيق المنفعة .

1- Biblioteca nacional - Madrid, Ms. 8888 hojas 3 - 160'

وطالب البعض بمنح المورسكيين حرية الانتقال الى بلاد المغرب اذا رغبوا ،
بالاضافة الى تبشيرهم وتجلية أصول العقيدة لهم ، وفي ٢٩ أكتوبر من
نفس السنة عقد الثلاثة إجتماعا آخر ، ركزوا فيه على أهمية الاستثمار
فى التبشير ، وأضاف البعض اقتراحا بتوزيع المورسكيين فى "قشتالة"
على شكل مجموعات صغيرة مع منعهم من ممارسة مهنة النقل وقصر
أعمالهم على الزراعة وحدها ، وأكدوا أنه ليس من المعقول إرسال البعثات
التبشيرية الى الصين واليابان ، بينما المورسكيون فى أراجون وبلنسية
يحتاجون الى هذه العناية ، وقد وافق الملك على هذا الرأى (١) .

وبهذا يتضح أنه حتى أواخر سنة ١٦٠٧ لم يفكر أحد فى اخراج
المورسكيين جميعا من كل الأراضى الاسبانية ، على الأقل باعتبار ذلك
اجراء عاجل ، والكلام كله يدور حول الوعظ والتبشير والتعليم ، وتلك
مهمة يفترض فيها طول الأمد .

لكن بعد ذلك بفترة قليلة ، وعلى وجه التحديد فى ٣٠ يناير سنة
١٦٠٨ اجتمع مجلس الدولة كاملا ، وقرر بالاجماع طرد المورسكيين من
اسبانيا ، والذين لم يكونوا مع اجراء الطرد منذ شهرين فقط ، اتفقوا مع
الأغلبية دون تقديم مبررات تستدعى تغيير موقفهم ، كيف يمكن تفسير
ذلك ؟ السبب هو " الدوق دى ليرما " الذى أشار الى النجاح البسيط الذى
حققه التعليم والتبشير فى مملكة " بلنسية " ، ورأى هو - ثم وافقه " ريبيرا
" وتبعهم الآخرون - أن نبعث بالرجال الأشداء للخدمة فى السفن ، وأن
نرسل الشيوخ والنساء الى بلاد المغرب ، أما الأطفال فيربون بين المسيحيين
القدماء ، وعضدوا وجهة نظرهم بأن خطر معاونة المورسكيين لهجوم تركى

I- P. Boronat: obracitade, 11, 104 - 111'

والأصل موجود فى :

-- Archivo general de simancás, Estado 208'.

أو مغربي ضد أسبانيا لايزال قائما ، وكانت المشكلة التي تواجه تنفيذ ذلك القرار تتمثل في الإنهيار الإقتصادي الذي سيعانى منه أصحاب الاقطاع في بلنسية ، وحلاً لهذا الإشكال ، استقر الرأي على أن يبقى العبيد ، وأن تسلم أصول ممتلكات المورسكيين للسلادة تعويضاً لهم .

ويمكننا أن نقول أنه حتى هذه اللحظة لانرى الا محاولة لطرده المسلمين المنصرين في مملكة " بلنسية " وحدها ، وذلك الطرد لم يتم سريعاً فقد كان لا بد أن يظهر أمام الجميع أنه قائم على حكم عادل مبنى على عدم اخلاص المورسكيين وخيانتهم ، ولما رفض المقر البابوي التصديق على تلك الإذانة الجماعية ، رفعت المسألة الى لجنة اجتمعت في ٢٢ نوفمبر سنة ١٦٠٨ برئاسة الوالى " ماركيز دى كارثينا " وتكونت من بعض الأساقفة وعلماء اللاهوت ، ومن الغريب أنها قررت مواصلة التنصير بالحسنى وأن يطلب من " البابا " الموافقة على عفو آخر لعدة سنوات ، لاتلجأ خلالها الحكومة لمحاكم التفتيش حتى لا تمارس وسائلها القاسية العنيفة، لكن الطرد كان قد تقرر ، وأمر الملك باعتماده وتنفيذه حتى بدون الدعم القانونى الذى طلبته الكنيسة ، بل وأمر بالتعجيل بذلك التنفيذ بناء على التماس من الدوق " دى ليرما " (١) ، وعلى كل حال فقد تقرر الطرد العام وقال " فيليب الثالث " بضمير مطمئن : " يجب أن نقذف بهم ، اعتقد أن هذا هو رأى الأكثر مناسبة ، مع البدء بالمورسكيين فى بلنسية . و اذا أمكن أن تترد معهم المورسكيين بارأجون - فى وقت واحد - فان هذا يكون أفضل ، بسبب مالهم من ذكاء وعلاقات طيبة مع الفرنسيين " (٢) .

1- Jaime beleda. Coronica de los moros de España, Valencia 1618'.

-- A. Dominguez ortiz: Los moriscos ... P. 172'

٢- أنظر المرجع الأخير ص ١٦٨ .

وإذا كان الملك قد إتخذ القرار ، فإن " الدوق دى ليرما " كان هو اليد المحركة وراء هذا القرار ، وقد أقامه على دعائم سياسية وليس على مبررات دينية أى أسسه على الخطر على أمن الدولة ممثلا فى المورسكيين ، فهل كان هذا الخطر حقيقيا وعاجلا ؟ هناك مبالغات فى هذا الشأن ، نعم كان هناك بين هذه الرعية من كان يعبر عن سروره لفشل السياسة أو القوات أو الأسطول الأسباني ، ويتحدث بفخر عن إنجازات القراصنة وانتصارات الأسطول التركى ، خاصة بين أحياء المسلمين فى مملكة " أراجون " ، وكان بعضهم يشعر بالطرب لفشل الأسطول الاسباني فى مواجهة اسطول إنجلترا وللإعتداءات الفرنسية المدعومة بقوات انصار مذهب " كلفينوس " على بعض الأقاليم الأسبانية .

يقول رجلا : " انه ابتداء من سنة ١٥٨٠ فان القضية المورسكية فى مملكة " أراجون " تبدو متلبسة فى الصراع الأسباني - الفرنسى ، وقد صمم فيليب الثانى سنة ١٥٨٨ على ضرورة " وضع الحصون والحدود مع فرنسا فى مأمن ، كذلك الأماكن التى يمكن أن تستقبل المورسكيين مع الحيلولة بينهم وبين الإتصال بإخوانهم المورسكيين فى بلنسية " (١) ، وقد ألقى بكثير من المورسكيين ببلنسية فى السجن لانهم أرسلوا رسائل الى ملك إنجلترا ، عثر عليها بين أوراق الملكة الإنجليزية السابقة له (ايزابيل) كما وجدت بين الأوراق المرسله براهين تدل على أنهم كانوا يحاولون الإتصال بالبروتستانت فى سويسرا للحصول على دعمهم (٢) .

لقد كانت سياسة ملك فرنسا خاصة ، استخدام المورسكيين

1- J. regla: Estudios ... P. 16'.

2- Cabrera: relaciones de la corte de España ... 240 Abril 1605'

-- OHume : spain, its greatness and decay, P. 211, combridge 1905'

-- A.D. Ortíz : Historia ... P. 173, Nota N. 30'. ذكرها

كطابور خامس فى صراعه ضد المنافسين الأسبان ، وقد استخدم شخصية رئيسية فى مؤامراته ، تلك الشخصية هى " باسكوال دى سانتى ستيبان " وهو ينتمى لقرية على الحدود الفرنسية - الأسبانية ، وقد عمل جاسوسا لوالى " نافارا " ثم انضم الى مجموعة أخرى ، وقد أرسل هذا الجاسوس الى بلنسية ، حيث اتصل بواحد من الفرنسيين الباسك ، . وعمل معه هو وخمسة من المورسكيين ، وقد أرسل واحد منها رسالة الى " أنريكى الرابع " يشكو فيها من محاكم التفتيش ومعاملاتها السيئة ، ويتحدث عن ضعف دفاعات بلنسية وعن امكانية التجهيز لثورة بغاية السرية ، لانه لا يوجد فى قرى المورسكيين الا اثنين أو ثلاثة يتولون السلطة ، واذا جاء اسطول فرنسى الى " دانية " ، وزودنا بالأسلحة ، فإنه من الممكن اعداد ٦٠ ألف شخص ، وسيصبح سقوط بلنسية أمرا مؤكدا ، ويمكن للمورسكيين فى أراجون " أن يمدوننا بأربعين الف شخص ، وسيجد التدخل الفرنسى دعما من الاقاليم الأخرى ، من البروتستانت واليهود بل ومن المسيحيين القدامى الناقمين .

ولايد أن ملك فرنسا قد أدرك أن هذه روايات يتمناها ، وليس من الممكن أن تكون موضع ثقة يعتمد عليها ، فالمهمة ليست بهذه السهولة وقد أرسل " سابستيان " الى إنجلترا ، حيث بقى هناك على أمل فى زمن الملكة " ايزابيل " ثم قام خلفها يعقوب (خاكوب الأول) بتوقيع معاهدة سلام مع أسبانيا سنة ١٦٠٣ ، و أرسل الى مدريد - أمانة على حسن النوايا - المعاهدات التى عقدت مع المورسكيين البلنسيين ، كما سبقت الإشارة . . . وقد عاد نفس الجاسوس الى اسبانيا حيث توجه الى بلنسية

فى زى تاجر ، وحضر اجتماعا شارك فيه ٦٦ مندوبا عن المورسكيين وعشرة جزائريين ، وقد اختاروا أحد المورسكيين زعيما لهم ، وكان اجتماعهم فى ديسمبر سنة ١٦٠٤ وأعدوا خطة للقيام بثورة يوم الخميس المقدس سنة ١٦٠٥ حيث يلتقى عشرة آلاف مورسكى ، يعاونهم الفرنسيين المقيمين فى مدينة بلنسية ، وسيقومون بإشعال النيران فى النصب التذكارى بالكنايس ، ثم ينتهزون فرصة الفوضى ويستولون على المدينة ، وستكون الإشارة وصول أربع سفن فرنسية حاملة قمحا ، بينما غرضها الحقيقى تزويد المتآمرين بالأسلحة ، وستحاصر المدينة ، وسينال " لافورثى " - وهو جاسوس فيما يبدو - عمولة سخية قيمتها ١٢٠ ألف " دوكاس " وسيتبع سقوط العاصمة سقوط كل بلنسية ، لكن المؤامرة أكتشفت وعذب المتآمرون حتى اعترفوا وأعدموا . (١)

وجود هذه المؤامرات وأمثالها ليس موضع مناقشة ، لكن المهم هو هل عندما صدر مرسوم الطرد كان هناك شئ جديد ؟ نعم ، إن المورسكيين غير راضيين ، لكن أغليبتهم لم تصل الى مستوى حمل السلاح ، وقد سببت هجمات السفن المغربية هجرات بعض المجموعات من مناطق الشواطئ ، لكن لم يصل الأمر الى درجة الثورة ، أما المخططات التى ذكرت من قبل فليست الأتخيلات لا أساس لها ، ولا يمكن أن يكون ملك فرنسا قد أخذها مأخذ الجد على الرغم من أن المورسكيين كان فى امكانهم تقديم مساعدات عسكرية نشطة له فى حالة اعتدائه على اسبانيا ، ولم

1- Escolano (Gaspar) : El Capitulo 42 del libro Decimo de la decada primera de la . historia de valencia, Valencia 1878 - 1888'

- Cardailiac, Luis : Morisques et protestantes, Al - Andalus, XXXVI, 1971, PP. 29' . 63'

يكن يتوقع الأ ذلك بسبب ماتعرضوا له من معاناة وقسوة ، أكثر من هذا ، لقد عبر المورسكيون فى " أراجون " فى سنة ١٦٠٦ ، سنة ١٦٠٧ عن ولانهم ورجبوا فى أن يكونوا نصارى مخلصين شريطة أن تتوقف قسوة محاكم التفتيش معهم ، وأن تختفى الصورة السيئة عنهم ، وقد شهد بذلك رجال الدين ، ورحبت به مجالس الدولة (١) ، لقد بلغت القسوة مع المورسكين أقصى مداها ، وكانوا مستعدين أن يضحوا بكل شئ حتى التظاهر بالتخلى عن عقيدتهم ، اذا كفل لهم ذلك حقوق المواطن العادى ونجاهم من شدة التعذيب وسوء المعاملة والكرامية لهم .

باختصار ان الخطر الذى مثله المورسكيون لم يكن فى سنة ١٦٠٩ أكثر منه فى أى وقت مضى.لقد كان دائما سببا مساعدا ، وليس السبب الرئيسى الذى من أجله يتقرر نفى ذلك العنصر الفعال من البلاد ، فهل أراد الدوق " دى ليرما " أن يستولى على ممتلكاتهم وأن يصادرها لصالح الملكة فى وقت كانت علاقته بها تمرّ بمرحلة حرجة ، وبذلك ينال رضاها دون أن يخسر شيئا ؟ إن من يعرف شخصية ذلك الدوق ، يدرك "انه من الصعب عليه اعتقاد أن تتخذ قرارا مهما دون أن تجنى من ورائه أموالا ، ومهما يكن من أمر ، فإن الأسباب العميقة ليس لها أثر فى الوثائق ، أننا أمام قرار شخصى . لايتطلبه أى قدر تاريخى مزعوم (٢) .

وعلى كل حال فقد تم نفى المورسكيين أو المسلمين المنصرين من كل أراضى مملكة اسبانيا وترتب على هذا الإخراج القسرى لهذه الأقلية الفعالة من البلاد ، آثار ، وكانت له نتائج ، هذه الآثار وتلك النتائج هى موضوع الفصل التالى .

1- Vea se la note 32 en la P. 174 de . A.D. ortiz : Historia ...

2-A. Dominguez ortiz: la historia ... PP. 159 - 175'

الفصل الخامس

النتائج الإقتصادية
لإخراج المسلمين المنصرين

يدور الجدل منذ قرون حول نتائج نفى المسلمين المنصرين ، لكن بذلت فى السنوات الأخيرة جهود مخلصه ، تنظر للموضوع من زاوية حيادية بحتة ، ولقد كان هناك من يخشى انتقاد قرار ملكى منذ زمن الطرد خاصة اذا قام على مبررات دينية ، ولا أحد ينكر أن النتائج الإقتصادية كانت وبيلة وإن حاول البعض تلطيفها لأسباب يستشف منها الضغينة ، فالرجل القشتالى يحترم المال ويجتاز المحيطات من أجله ، لكن ليس باعتباره مطلباً فى حد ذاته بل باعتباره وسيلة لنيل المجد والشهرة ، بينما العامل المورسكى يقدم باعتباره بخيلاً مقتراً .

يقول " كرسطوبال بيريث ايريرا " فى مذكراته عن المورسكيين " أنهم يظنون أنهم ممتازون خاصة فى زراعة الأراضى ، لكنهم حاولوا جمع أموالنا ، لأنهم يعملون فى النقل وبييعون من الباطن بضائع البقالة ، ويمتصون مصادرتنا ويتعاونون فيما بينهم حتى لا يكون فيهم فقير ... ولا ينفقون شيئاً مما يدخل فى حوزتهم ، ولا يشربون الخمر التى يستعملها أكثر الناس ، ولا يساعدون بدفع أنواع واللوان الضرائب ولا يستخدمون شحوم الخنزير ولا أشياء أخرى مكلفة ، أنهم يسهمون أقل بكثير من أسهامتها " (١) .

هذا النص يكثف الأفكار الشائعة عن المورسكيين ، ومع ذلك فالذين يقللون من نتائج الطرد ، لا ينكرون كدّ المورسكيين وجدّهم ، ونحن

١- من أنواع الضرائب تسمى ضريبة " لوس مينوس " Los Millones وهى ضريبة مفروضة على الأشياء الضرورية مثل اللحوم والزيت والخمرة والحل وكانت موجودة آخر أيام فيليب الثانى وضريبة أخرى تدعى " لا الكابالا : la Alcabala وهى تمثل ١٠٪ من قيمة المنتجات وكانت الخمر من أكثر الأشياء المثقلة بالضريبة ، أنظر :

- Michelcavillac : " Amparo de pobres " clásicos castillonos " Madrid 1975' .

A.Dominguez ortiz: Historia ... P. 201' -

نجد نفس الشيء عند أديب اسبانيا الكبير " ثيرفنتس " فى فقرة معروفة من عمله " حوار الكلاب " يقول فيها :

" كل فرد من المورسكيين هدفه الحصول على المال والمحافظة عليه ومن أجل الوصول الى ذلك يعملون ولا يأكلون ويحرصون على إدخال الريال (ربع بيزته وهو مبلغ بسيط جدا) فى حوزتهم ... يكسبون دائما ولا ينفقون قط ، يجمعون ويكدسون أكبر كمية من المال الموجود فى أسبانيا ، هذا المال هو ديدنهم ، الكل يصل إليه ويخفيه قل أو كثر ، يسرقوننا بأقدام ثابتة ، ويحصلون على ثمار مزارعنا ، ويبيعونها لنا من الباطن ، فيصبحون أغنياء ... " .

المورسكيون الذين يقصدهم الأديب الكبير قبل أى شئ :
الغرناطيون المطرودين والمشتتون فى مناطق قشتالة والكثيرون منهم يعملون بالتجارة ، وهناك أصداء عند كتاب معاصرين حول الضرر الذى سببه غيابهم ، مثلا : " كابريرودى قرطبة " (١) لفت الأنظار الى البلية التى حدثت فى " أراجون " بسبب نقص ستة ملايين كانت عبارة عن ضرائب مفروضة على المورسكيين . وإذا كان البعض قد بالغ فى عدد المنفيين فإن هناك من بالغ فى الخراب الذى مثله لأسبانيا ، ومن الحقائق أنه حتى من أيدوا اخراج المورسكيين ، لا ينكرون آثار ذلك ونتائجه ، لهذا فإن موقف المؤرخ " إيرل خ هاملتون " يوجب ضرورة التوقف عنده ، فقد انطلق من دراساته للأسعار فى أسبانيا خلال القرن السادس عشر الى فكرة يصر عليها هى أن عدد المورسكيين لا بد أن يكون أقل بكثير مما يقال ، وأن أهميتهم الإقتصادية ليست كبيرة ، لأنه بعد سنة ١٦٠٩ لم يظهر الغلاء

1- Relaciones de la corte de España, P. 408 Madrid 1857'.

الفجائي الذي لا بد أن يكون قد نتج عن غياب جمهور كبير من العاملين
المجدين ، وقد أيد هذه النظرية - كما هي - " جون . ث ساليير " يقول "
هاملتون " المؤلفون الذين كتبوا ابتداء من القرن السابع عشر أمثال ليا .
أوراتون ، أنسياكس ، كوليفرو .. اعتبروا بالاجماع الكامل تقريبا - أن طرد
المورسكيين هو السبب الجوهرى للتدهور الأسباني ، ومن الصعب أن نفهم
أن عنصرا محروما الى حد كبير من فرص التعليم ومن المزايا الإجتماعية
ومن الحريات المدنية ، والمساواه أمام القانون ، أمكنه أن يكون القسم
الأكثر شهرة فى الأمة الأسبانية " ، ويرى ذلك المؤرخ أننا إذا تأملنا
استقرار الأسعار فى العشر سنوات السابقة على الطرد ، أمكننا أن نرفض
أن يكون طرد المورسكيين هو السبب الرئيسى فى التدهور الإقتصادى ،
ويشير الى مذكرة شائعة صدرت عن مجلس قشتالة سنة ١٦١٩ لا تذكر
نفى المسلمين المنصرين بين أسباب الإضطراب الإقتصادى ، وينتهى مؤكدا
إن إخراج المورسكيين لم يخرّب حقول الأرز فى بلنسية ، ولا صناعة
السكر فى غرناطة ولا أشجار الكرم الأسباني ولا نظام الرى
الصناعى (١)

ولكن باحثا آخر هو " خ . كاسى " حطم رأى " هاملتون " الذى
اعتمد على ثبات الأسعار بعد سنة ١٦٠٩ ، وقال انه اعتمد على المدينة

1- Earl J. Hamilton: El florecimiento de capitalismo y otros
ensayos, P. 124'.

A. Dominguez ortiz: obra citada, P. 202'.

وقد أشار فى التعليق رقم ٥ فى نفس الصفحة إلا أن المؤلف قد كرر رأيه فى البحث الذى قدمه لمؤتمر
تاريخ الأندلس الأول ، وانظر أيضا :

John C. Salyer: la importancia económica de los moriscos en España ("Anales de economía, IX, 1949 ").

فيما أخذ من أسعار وربما كانت المدنية أقل تأثيرا، لكن الإجراء أثر على بعض المدن وعلى النواحي الأخرى بصورة خطيرة ، على أن نظرية " هاملتون " سقطت من أساسها عندما برهن الباحث الفرنسي " لابيري " على أن الفاقد الإنساني المترتب على مرسومى ١٦٠٩ ، ١٦١٠ وصل الى ٣٠٠ ألف نسمة وهذه النسبة تمثل ٤٪ من من السكان الأسبان ، وهذه النسبة المثوية تبدو ضئيلة ، ولكن إذا عرفنا أن عنصر السكان المورسكيين كان عنصرا فعلا نشطا ، ولم يكن بينهم نبلاء ولا صعااليك ولا جنود ولا رهبان ولا متشردين ولا متسولين ، أدركنا أن فاعليتهم كانت كبيرة ، كتب " الونسوفيرناندث " - مؤرخ بلاسنتيا - انه لا مكان بينهم لمن يتسول ، ولا يمثلون نسبة عالية فقط بين السكان النشطين بل العمل والميل للحرفة عادة عندهم ، وهذا كله تعززه شهادات معاصرين من نفس الفترة.

فمثلا قام الألماني " مونتز " بزيارة لأسبانيا بعد سقوط غرناطة فى أيدى المسيحيين بفترة قليلة وترك لنا رواية تتضمن ملاحظات جيدة : لاحظ عند عبوره نهر أراجون أن ٦٠ مورسكيا يعيشون فى مكان لا يمكن أن يعيش فيه إلا ١٥ مسيحيا ، لأنهم يجيدون الرى والأعمال الزراعية الأخرى ، وهم قانعون فى طعامهم وأغنياء جدا فى الباطن " ، بعد ذلك تمكن اليسوعى " بدرو دى ليون " من جمع معلومات وذكريات عن المورسكيين القدماء فى منطقة البشرات وهو وإن لم يتمكن من رؤية الجماعة المورسكية نفسها بصورة مباشرة ، إلا أنه استطاع أن يعقد مقارنة بين ما جمعه وبين النتائج الرسمية لاعادة التوطين وانتهى الى نتيجة مؤداها : رغم أن السلطات الرسمية قد أعطت ثروة ثلاثة أو أربعة مورسكيين لفرد واحد من السكان الجدد ، إلا أنهم يموتون جوعا ، لأنهم لا يعملون مثلما كان يعمل هؤلاء المورسكيون " (١)

1- Vea se: A. D. ortiz: la historia ... P. 203'

فى الجانب المقابل لنظرية هاملتون نجد نظرية " ببرى شاونو " الذى يرى فى نفى المورسكبين واحدا من عوامل ضياع التجارة الأسبانية فى المحيط الأطلسى وبقارها فى طريق الهند ، وربما كان فى هذا أيضا مبالغة، لأن الوجود المورسكى كان يتمركز فى بعض الأماكن ، وكان فى أماكن أخرى قليلا وربما منعدما ، ولذلك ليس صحيحا أن يقال إن النفى المورسكى قد انعكست آثاره على كل جوانب الاقتصاد الأسبانى ، فالإقتصاد الإقليمى كان قائما ، ولذلك تأثرت بعض الأقاليم بصورة ملحوظة ، بينما كان تأثر أقاليم أخرى محدودا ، مع ذلك فقد ترتب على ذلك النفى (١) إخلاء ضيعات وقرى كثيرة ، وانخفضت الضرائب نتيجة لذلك ، وتضاءلت الصفقات وتضررت التجارة ، لأن المورسكبين كانوا تجارا يكسبون من الصفقات ويشغلون فى عقدها كما يعملون فى زراعة الأرض ولذلك نرى أن قشتالة قد تدهورت تماما بعد عقود من السنين (١) ، وقد كتب الفرنسيسكان " فرأى خوان دى سولاتا " عن أمراض أسبانيا ، ولم ينس أن يذكر طرد المورسكبين سنة ١٦٠٩ ، ويقول إنه إجراء فرضه التدين ، ولكن غيابهم مثل نقصا ملحوظا ، حتى أن ملاك المزارع لم يجدوا من يزرعها وممرت البلاد بفقر ملحوظ " (٢)

1- Pierre chaunu : Minorites et conjuncture. L'expulsion des Morisques en 1609' (" Revue Historique " N. 457 - 81 - 98 .)

ولعلومات أكثر يعجل صاحب المقال على الجزء الثامن من كتاب له عنوانه :
- Sevilla et l' atlaticque "

وانظر مرجع أنطونيو دومنجيث السابق ص ٢٠٣ .

2- Bibliotica nacional, Madrid. MS. 2471 (Folios 89 - 193) tratado 30'

. A.D. ortiz : Historia ... P. 204'

إن وثائق مجلس أراجون تتضمن إشارات وفيرة لإقليمين أساسيين تضررا بطرد المورسكيين هما بلنسية وأراجون ، وليس من الممكن انكار جد المسلمين المنصرين وحرصهم على العمل والإنتاج و أنه لا يمكن فى الآن نفسه تقرير أنهم وحدهم يشكلون الطبقات المنتجة فى البلاد ، نعم ، لقد بقيت الأراضى قاحلة وغير منتجة إلا أنه أمكن زرعها بعد فترة قلت أو كثرت ، ولفترة طويلة تأثرت كثيرمن الأقاليم بهذا الإجراء ، وعانت بلنسية وأرجوان منه بصورة عميقة ملحوظة. ومن المنطقي أن يكون لهذا الإجراء أصداء على مجموع الإقتصاد الأسباني ، خاصة عندما اضطرت لحوض غمار الحروب اعتبارا من سنة ١٦٣٥ .

ومن الضروري أن نعرف الوضع الإجتماعى للمورسكيين فى مملكة أراجون فهم إما عبيد خاضعون للإقطاعيين أو مزارعون فى مزارع وضياع السادة الكبار أو فلاحون أحرارا فى بقية البلاد بالمنطقة (١) ، والمشكلة التى تلح عليها الوثائق هى أن كثيرا من المسلمين فى بلاد النصارى وكثيرا من سادة العبيد المورسكيين ، كانت لديهم أراض مرهونة ، ويطرد هؤلاء المورسكيين لم تستوف الفوائد على هذه الأراضى ، وهذا سبب خراب الدائنين ، هذه المسألة لم تكن معروفة عند قدامى المؤرخين فلم يعطوها الإهتمام الكافى الذى تستحقه ، ولو أمكن القيام بإعادة تعمير المناطق التى أخلاها المسلمون المنصرون فى الحال ، لكان الضرر بسيطا ، لكن هذا التعمير كان بطيئا وصعبا ، والنتيجة التى ترتبت على ذلك هى أن الصعوبات تراكمت ونشأت المشاكل التى عاونت على غرق الإقتصاد الأسباني فى مملكتى أراجون وبلنسية ، وكان رأس هذه المشاكل نفى المورسكيين ، يعرض الدكتور " كاسانويا " أسقف " سيجورى " هذه

1- P. Boronat: los moriscos españoles, 11, P. 39'

المشكلة على الملك فيقول " الآن وبمناسبة طرد هؤلاء الشريرين من الناس ، ينتهزون - يقصد الملاك - الفرصة ولا يريدون دفع الضرائب العينية ، البعض يقول ، لأنه لا يوجد مسلمون في بلاد النصارى ، ويحاولون أن يثبطوا ، والبعض الآخر يقول : ليس عندي عبيد ؛ ولهذا فقد فقدت دخلي ، وهؤلاء وأولئك لا يريدون دفع الضرائب العينية (١) .

وقد أعطى بعض المعاصرين لطرده المورسكيين اهتماماً للنتائج التي يسببها نفى هذه المجموعة النشطة من البلاد خاصة الجوانب الاقتصادية ، لقد جاءت الفقرة التالية ضمن رسالة موجهة من مطران بلنسية - ريبيرا - الى الملك فيليب الثالث مؤرخة ١٩ ديسمبر سنة ١٩٠٨ أى قبيل تنفيذ الطرد :

" المدن والأماكن الكبيرة تعتمد في مؤنتها على ما يجلبه هؤلاء المورسكيون ، الكنائس وأديرة الرهبان والراهبات والجمعيات الدينية والمستشفيات .. . النبلاء والفرسان والمواطنون وكل من هم ضروريون في البلاد للحكومة والخدمات الروحية والدينية ، هم جميعا يعتمدون على خدمات المورسكيين ، ويستفيدون من الضرائب التي فرضوها وأسلافهم على أماكن هؤلاء ، وهكذا نرى أنهم عاجزون عن إمكانية الحياة بدون هؤلاء (٢) .

وفي مرسوم لفيليب الرابع صادر بمدريد في ٢٨ سبتمبر سنة ١٦٢٢ نرى التأكيدات التالية :

" إذا نظرنا الى الجامعات والمدن والأماكن الصغيرة ونواحي المملكة ، فإننا سنرى شيئا مشتركا ومتيقنا منه ، هو الضرر الذي لحق بها

1- P. Boronat: los moriscos españoles, 11, P. 234-237.'

2- P. Boronat : obra citada, 11, P. 500 - 503'

-- J. regla : estudios ... P. 228'

بسبب نفى المورسكيين ، فقد خرج من هذه البلاد كثير من الشخصيات التى عاشت فيها وعمرتها وأصبحت صحراء خالية بعد خروج المورسكيين ، ويسبب نقص السكان فى قسم كبير منها ، فإن الإيرادات فيها نقصت بشكل ملحوظ (١) وفى واقعية كاملة كتب " رامون كارندى " يقول القسوة الكبرى التى بمقتضاها وضعت ماكينات الغزل تحت الرقابة ، خلال حكم كارلوس الخامس ، فى المنطقة الريفية العامرة بالمورسكيين ، تلك القسوة كان وراءها عداة الإكليروس والعادات ، ولم تكبحها المصالح المترتبة على هذه الصناعة التقليدية الممتازة ، لقد كانت تنقصنا السياسة القادرة على إبعاد الهوى والميل وتقدير الحسابات ووزن العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى مملكة قشتالة . (٢) ونفس الشيء يؤكدُه " بورونات " حين يقرر :

" إنكار أن طرد المورسكيين الأسباب كانت له نتائج مشؤومة على النظام الإقتصادي ، يساوى فى مجموعُه احساسنا بانكار ما هو بديهى (٣)

وقد أبرز " بنياس مى " الأهمية الكبرى لاحصاء القروض المضمونة فى أسبانيا ، وأكد أن نتائجها كانت فضائح بالنسبة لصغار الفلاحين فى القرن السابع عشر ، فالذى لا يستطيع دفع الفوائد المتزايدة على الأموال التى اقترضها بضمان ضياعه ، كان يرى نفسه مضطرا للتنازل عنها لدائنيه وهؤلاء بدورهم ما كانوا يستطيعون زراعتها ، فتركوها قفرا ، وفى سنة

1- Janera, Florencio : Condición social de moriscos en España, sausa de su expulsión y consecuencia que este produjo en el orden politico y economico, P. 367, Madrid 1857'.

2-Ramon carande : Gobernantes y govrnados en la hacienda de castilla (1536'- 1556) Arbor, XVIII, 1951, P. 195. Reproducido en siete estudios de historia de España, Barcelona 1969'.

. J. regla. Estudios ... P. 123'

3- P. Boronat: Los moriscos ... 11, P. 313'

١٦١١ كان هناك أكثر من مائة مليون تستخدم فى القروض ، وكان المقرض أو الدائن قد أصبح هو الإنسان الذى يعيش " بالكسبون " كما نقول اليوم (١) ، فالقروض المضمونة برهن كانت سببا فى خطورة النتائج التى ترتبت على نفى الموسكيين بصورة ملحوظة ، وأكثر الأماكن تأثرا بذلك كانت بلنسية وارجون ، فقد عاوتت على خراب المزارعين الصغار . . . ومع انتشار الديون لم تؤد الأرض ما عليها من فوائد وضرائب مما سبب خراب المقرضين (٢) وإذا عرفنا أن نصف السكان المورسكيين كانوا يعيشون فى بلنسية وارجوان ، يعنى ٢٥٠ ألف نسمة منهم ١٧٠ ألف نسمة فى بلنسية ، ٧٠ ألف فى أراجوان وعشرة آلاف فى قطالونيا ، يعنى ما يعادل ٢٠٪ الى ٢٥٪ من إجمالى السكان الذى يمكن تقديره بمليون ومائتى ألف نسمة فى بداية القرن السابع عشر كل ذلك، وفقا لإحصاء سنة ١٦١٤ إذا عرفنا ذلك أدركنا ماترتب من نتائج على إخلاء البلاد من هذا العنصر الفعال .

وإذا وضعنا فى الإعتبار أن المورسكيين المطرودين كانوا فلاحين وعبيدا للأرستقراطية الثرية جدا ، فإنه من المنطقى أن تكون الزراعة هى النشاط الإقتصادى الذى عانى بدرجة عالية من جراء هذا الإجراء ، إن مؤرخا معاصرا لهذا الطرد هو " اسكولاند " يصف منظر بلنسية الحزين التى تحولت الى صحراء جافة لايهتم بها أحد بعد أن كان الإقليم الأكثر ازدهارا لقد عانت المحاصيل الرئيسية وهى قصب السكر والأرز والقمح من ضربة قاسية ، لقد احتل قصب السكر والأرز المكانة الأولى بين المحاصيل منذ

1- Vinas Mey : El problema de la tierra de España en los siglos

-- XVI y XVII, PP. 32 y ss, Madrid 1942'.

--J. regla: Estudios ... P. 124'.

2- J . regla : Estudios ... P. 224'.

الفتح الإسلامي ، وتأخر الكرم والزيتون ، وابتداء من القرن ١٧ وحتى منتصف القرن ١٨ تأثر قصب السكر كثيرا بسبب طرد المورسكيين وبسبب منافسة السكر البرتغالي والأمريكي ، كما تأثرت صناعة الحرير ، لقد كان طرد المورسكيين ضربة عنيفة جدا لقصب السكر والأرز ، وقد اضطر الملك أن يمنع تصدير الأرز لأنه الزاد الضروري والمفيد جدا والأكثر اعتدالا فى سعره والأكثر مناسبة للفقراء ، وقد سجل " براوديل " أنه قبل طرد المورسكيين كانت هناك زيادة فى إنتاج الأرز سمحت بتصدير القمح ، ولكن يكفى أن نشير أنه ابتداء من سنة ١٦٠٩ أصبح القمح من المحاصيل الرئيسية المستوردة من "سردينيا" نتيجة لفقر الحقل البلنسى .

وكان لطرد المورسكيين علاقة بالصراع بين الزراعة ورعى الماشية ، فقد كانوا شهودا لصالح المزارعين فى الدعاوى التى لها علاقة بامتداد الزراعة داخل حقول رعى الماشية ، وكان المورسكيون هم أول من حرث لأول مرة المساحات المحفوظة لرعاة الماشية " لهذا من الممكن أن يكون تأثير رعاة الماشية على الملكية الأسبانية أحد الأسباب التى من أجلها كان الطرد " لقد ترك ذلك الطرد آثاره على الأراضى الزراعية وعلى طريقة تقسيمها ، كما ساعد على خراب الطبقات الوسطى ، لقد ألحق طرد المورسكيين إضرارا ملحوظة بالأوضاع الإقتصادية فى مملكة "بلنسية" التى فقدت سيطرتها على "أراجوان" ، وأصبحت تلك السيطرة لقطالونيا وكانت الهيمنة لبلنسية ابتداء من منتصف القرن الخامس عشر (١) .

وكانت نسبة المورسكيين نسبة ضئيلة فى مملكة قشتالة ، فهم لم يتعدوا ٥٢٠ ألف نسمة من إجمالى السكان البالغ سبعة ملايين نسمة (١)

1- P. Boronat: los moriscos ... 11, P. 329' "

-- Braudel , (Fernand) : La mediterrance .. 1, P. 205, 504'.

-- J. regla : Estudios ... PP. 235 - 243'.

ومع ذلك فقد كان تأثير طردهم ملحوظا لما تميزوا به من جد ونشاط ومهارة وفاعلية فى كثير من جوانب الحياة فى المجتمع .

وقد أبرزت البحوث الحديثة أن القروض فى مملكة اراجون ، قد ارتفعت بصورة سريعة جدا منذ منتصف القرن الرابع عشر ، وأنها كان لها أهمية كبرى فى زمن الملوك المسيحيين وملوك مملكة أو منطقة اسستوريا (Las Asturias) ، وقد أمدنا " اجناثيو دى اسنو " بملاحظات جوهريّة عن هذه المملكة ، يقول : " إنه فى القرن الخامس عشر كانت إيرادات المملكة بدائية ، وتعودت أن تعتمد على إيرادات الجمارك والأشياء العامة حتى يمكن أن تقوم بأداء ما عليها من خدمات . . . وفى سنة ١٦١٠ وبسبب طرد المورسكيين ، فإن معظم أراضى المملكة بقيت بلا سكان ، خاصة أراضى الأقطاع التى كانت تفرض عليها ضرائب متنوعة . . . وقد أصبح مستحيلا على السكان القلائل الباقين أن يدفعوا ذلك ، وترتب على هذا الأمر مشاكل ودعاوى ونوقش الوضع حتى فى جلسات البرلمان . . . (١)

وربما كان فى بيانات الولاية المرسلّة إلى فيليب الثالث ، إشارة إلى ما ترتب على نفى المورسكيين من ردود أفعال فى مملكتي بلنسية وأراجون ففي ١٨ مايو سنة ١٦١٠ ، كتب والى بلنسية يقول " بمراقبة ١٠٠ منزل للمورسكيين ، لمعرفة كم منهم تحول إلى مسيحي قديم ، فرما لم يزد العدد عن ٣٠ أو ٤٠ ، وانى أؤكد لصاحب الجلالة أنه ليس فى إمكانى أن أتحدث بكلمات عن الحالة الصعبة التى تمر بها هذه المملكة " لأن القسم الأكبر يعيشون على فوائد القروض ، وما حصلوا شيئا ، وليس فى

1- I gnacio de asso : historia de la economia politica de Aragon,

-- P.241, Zaragoza, spain 1947'.

-- J. regla : Estudios ... P. 124'.

إستطاعتهم أن يجمعوا مبالغ منها لا مع Execuciones ولا بدونها ، والذين يحدث معهم ذلك ليسوا السادة أو الجماعات فقط ، بل حتى الأفراد ، لا يمكنهم الدفع لأنهم لا يجنون ثماراً . . . " (١) ، وفى ٢٢ يونيو سنة ١٦١٠ أبلغ والى اراجون الملك فيليب الثالث بما يلى :-

" إن سادة العبيد خسروا كثيرا بسبب خروج المورسكيين ، وبرغم أن هذا لا يمثل صعوبات ، فإن الآلام كبيرة ، وقد بدأت تظهر مشاكل مقلقة تتعلق بدفع الفوائد المفروضة على أماكن المورسكيين ، لأن السيد الذى يملك ٢٠ ألف " دوكادوس " يفقد منها ستة عشر ألف ، ولا يبقى له إلا أربعة آلاف ، ويدفع فوائد قروض مقدارها ١٢ ألف فى كل سنة . . . إن أصحاب الديون يريدون تحصيل أموالهم كاملة ، وسادة العبيد لا يمكنهم أن يدفعوا لهم ، ولا بد أن يبقى لديهم شيء للأكل . . . وهكذا يحملون على ما هو مستحيل . . . والمشكلة ليست فى الممتلكات فحسب بل وفى الأشخاص الذين يحاولون وضعهم فى سجن لن يخرجوا منه أبداً ، لأنه ليس عندهم ما يدفعونه ، أنهم يائسون ومنكوبون . . . وهكذا نشأت قلاقل وعداوات . . . وإذا لم تتخذ اجراءات مناسبة ، فإن تلك المملكة لن تصبح محطة والناس فيها بلا ممتلكات فحسب ، بل ستخسر وترجع القهقرى ، وستحمل كل جماعة السلاح ضد الأخرى ، لأن الدائنين كثيرين وليس عندهم مصدر آخر لما يلزمهم من نفقات . . . (٢)

ويصف " بورونات " حالة مملكة بلنسية بعد إخراج المسلمين منها بهذه الكلمات :-

1- A.C.A. y C.A. 221, V, 9'. نقلا عن :

-- J. regla. Estudios ... P. 125, 229'.

2- A.C.A. y C. A . 221 , 11, 18' ذكر ذلك :

-- J. regla: obra citada. PP. 184, 185'.

" لقد كانت هناك مشكلة اقتصادية حقيقية ، لكنها لم تكن عميقة كما يظن ، لقد عانت الثروة الملكية معاناة ليست بالقليلة ، كما عانى السادة ، وقد عوض بعضهم ، كذلك عانى المقرضون برهون ، وكان الجزء الأكبر من هذه الديون يخص الجمعيات الدينية ، كذلك عانى آخرون ، فمحكمة التفتيش فقدت إيراداتها ورأسمالها الذى كان يأتيها منذ القديم عن طريق المصادر وأشياء قانونية أخرى كان تتفق مع قوانين المملكة ، لقد عانى الجميع ابتداء من الملك حتى آخر عبد " لأن المشكلة كانت عميقة . . . وبعد الطرد واجهت المزارع الأميرية صعوبات أقل من غيرها ، فقد وجد بها الفلاحون ، ولم يكن الوضع كذلك بالنسبة لأراضى السادة أصحاب الأقطاع ، الشيء الذى جعل مؤرخ بلنسية " جاسبير اسكولانو " يقول : الحقيقة الكاملة أن اقليم بلنسية - أكثر الأقاليم خصوبة فى أسبانيا - بقى صحراء مجدبة ، وفقد بهاءه بسبب طرد المورسكيين " (١)

فنفس المشاكل التى نشأت عن طرد المورسكيين فى أراجون ، نشأت فى بلنسية ، لكن بصورة أشد خطورة ، لأن هؤلاء ما كانوا يمثلون فقط سدس السكان ، كما هو الحال فى أراجون ، بل كانوا ثلث السكان ، فالتهور الشديد بسبب طرد المسلمين المنصرين لاجدال فيه ، لكن الخلاف فى تصنيفه ، هل كان أمرا خطيرا فقط أو كان يمثل كارثة ؟ ان النتائج التى ترتبت على ذلك الإجراء لا ينكرها أحد حتى أشد الناس تأييدا لذلك النفى ، فالبطريك " ريبيرا " مثلا يكتب إلى الملك قبل الطرد بعام قائلا : " إن آثار الطرد ستكون خطيرة بالنسبة لمملكة بلنسية " ومع ذلك فقد أثر الفقر على الهرطقة والاحداد ، لقد هبطت إيرادات صناعة الحرير من ٧٠ ألف إلى ٥٠ ألف دوقة وفقا " لكابريرو دي قرطبة " ، كما انخفضت

1- P. Boranot: los moriscos ... 11, PP. 329 - 335'.

الإيرادات فى " اورىلا وسىجوزى " ، وكذلك إيرادات محاكم التفتيش
والمؤسسات الدينية ، كل ذلك تأثر بالطرد ، وكل طبقات المملكة عانت
بسبب غيابهم ، فقد كانوا الجماعة الأكثر عمقاً ونشاطاً ، وكانت تقع
عليهم أعباء كبيرة . . . (١)

وعندما تأكد المورسكيون من مرسوم النفى الذى يتخذ ضدهم ،
أسرعوا ببيع ممتلكاتهم وقايضوا أثمانها بذهب وحلى ، أى أنهم اشتروا بما
معهم من عملات ذهباً وحلياً ، واتخذوا لأنفسهم دارسكة سرية فى مكان
خفى ، ضربوا فيها عملات مزيفة ، صنعوها بكميات وفيرة وروجوها فى
الأسواق ، ولكى يقضى على هذه العملة اضطرت مدينة " جانديا " فيما
بعد أن تستدين خمسين ألف " دوكدوس " ، واستغلت الفترة من صدور
مرسوم النفى وحتى رحيل المورسكيين ، حيث باع هؤلاء ممتلكاتهم المنقولة
وحبوبهم وفرسانهم بأسعار منخفضة جداً " (٢)

وكانت دوقية " جانديا " هى الأكثر تأثراً بطرد المورسكيين ، فقد
خرج منها ١٣ ألف شخص ، تم تعويضهم عن طريق زيادة الأسر المسيحية
التي زادت عن ١٢٧٨ أسرة سنة ١٦١٠ وأصبحت ١٦٧٤ سنة ١٦٤٦ ،
وكانت الدوقية من أكثر الأماكن غنى فى أسبانيا وبرغم أن " هامبتون "
يؤكد أنه لا محصول السكر ولا محصول الأرز عانى نتيجة للطرد إلا أنه
ثابت بالدليل إن زراعة قصب السكر التي كانت مصدراً كبيراً للثروة فى

1- P. Boronat: obra citada 11, P. 503'.

Janer : condición social de los moriscos, ópendice 96'.

- Alvaro castillo : Laco y untura de la economía valenciana en el siglo XVI y XVII (" anuario de historia económica y social" 11)

-- A. Dominguez ortiz: Historia ... PP. 214, 215'.

2- P.Boronat:los moriscos...11, P200

دوقية " جانديا " وغيرها قد عانت من ضريبة قاسية جدا (١) .

لقد اثقلت الديون كاهل دوقية " جانديا " حيث ارتفعت إلى ٥٤٦٦٦٣ جنيها ، وصلت فوائدها ومستلزماتها إلى ٥٣ ألف جنيه ، وازداد الحال سوءاً سنة بعد أخرى . وكان السكان الجدد الذين وصلوا من اقليم بلنسية في معظمهم إما حرفيون أرادوا أن يتحولوا إلى عاملين وإما عاملون تطلعوا إلى تحسين مستواهم ، وهؤلاء لم ترق لهم قري المورسكيين وكان هناك ٤٥٣ قرية بقيت منها ٢٠٥ قرية خالية في مناطق جبلية حتى سنة ١٦٣٨ ، أما ال ٢٤٨ الأخرى فقد عمرها ١٣٧٠ أسرة مسيحية ، وقد أراد الاقطاعيون معاملة هؤلاء بنفس الاسلوب الذي عاملوا به المورسكيين ، متناسين العوامل النفسية والاقتصادية التي تفرق بين الجماعتين ، فالمورسكيون أقلية مضطهدة سلسلة ، تقدم خدمات وتضمن سداد ديون السيد صاحب الاقطاع ، ولم يكن المسحيون كذلك ، وما حدث في مناطق الاقطاعيين ، حدث في ضيعات الأديرة ، وعندنا مثل من اقطاع " مورو " كتب عنه " موميلاتش " سنة ١٦٠١ يقول : " ما لم نكن رأينا في الوثائق القضائية مضايقات الاقطاعى لرعاياه ، ما اعتقدنا ذلك " لقد تضاعفت عليهم الضرائب ، وفرض عليهم تزويد السيد بالدجاج والفرسان بثمان منخفض ، وكان عليهم أن يحملوا له الحطب مجاناً ، وأن يشيدوا له قصراً وأن يبنوا له سوراً . . . وفى سنة ١٦٠٩ كان الوضع أكثر سوءاً . . . (٢) لقد وصل سعر كيل الغلال في " جانديا " إلى عشرة سويلدوس (العملة في بلنسية) على الأقل ووصل سعر الحصان الصغير

1- A. Dominguez ortiz: Historia de los moriscos ... P. 216'

2- A. Dominguez ortiz : Historia de los moriscos ... P. 218 y ss

والبغل والبقرة إلى ثمانية ريات بلنسية وكانت المشكلة الكبرى هي تلك العملة المزيفة التي قام المورسكيون بتصنيعها .

وقد أصدر الوالى مرسوما نشر فى ١٥ أكتوبر سنة ١٦٠٩ حرم بمقتضاه الشراء والبيع أو تبادل العملة ، وقد أبلغ مجلس " اراجون " الملك بوجود عملة وفيرة مزيفة فى الأقاليم التابعة لعرشه ، وفى ٢٣ أكتوبر سنة ١٦٠٩ عرض بطريك بلنسية على فيليب الثالث الصعوبة الخطيرة التى نشأت فى المملكة بسبب حمل المورسكيين لمبالغ وفيرة من المال معهم ، وتقدر هذه المبالغ فى رأى المعتدلين بحوالى أربعة ملايين ، ويقول البعض أنها أكبر من هذا المبلغ (١) .

وقد طرح البطريرك " ريبرا " مشكلة الديون المضمونة برهن بالصورة الآتية : " نقطتان يمكن ملاحظتهما فى نظام الديون المورسكية : الأولى تتعلق بالديون التى ينبغى أن يدفعها هؤلاء ، والثانية تتعلق بالديون التى تدفع لهم ، فيما يتعلق بالنقطة الأولى فإن المبالغ يجب أن تكون مرضية للدائنين رغم أن المورسكيين الذين كانوا قد استفادوا منها أكثر ، قد غادروا البلاد ، وكان التساهل معهم مطروحا إزاء هذه الضرورة ، إلا أنه كان على صاحب الجلالة أن يعمل على تحقيق رضى الدائنين ، وفيما يتعلق بالنقطة الأخرى فقد أعلن أن ممتلكات المورسكين التى كانت اذّ ذاك فى حوزة السادة أو شخصيات أخرى ، فإنها تستخدم فى السداد للمقرضين ، الذين منحوا قروضا من قبل مسلمين ، ويرتب هؤلاء حسب درجات أسبقية ديونهم " (٢)

1- P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 200, 201 y 223'.

2- P. Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 223, 224'.

وهناك قضية مهمة ترتبط بالمسألة السابقة ، هي قضية الحصيلة الاقتصادية للأراضي التي تركها المورسكيون ، لقد أريد حلها من خلال مرسوم ملكي صدر بمدريد فى ٩ نوفمبر سنة ١٦٠٩ واضعاً فى الاعتبار أن بعض البارونات وملاك الأماكن التى امتلكها المورسكيون فى مملكة بلنسية لم يجرؤا على بذرها واستزراعها ، خاصة السكان الجدد ، فقد كانوا يخشون من أنه عندما تنضج ثمارها ويحين وقت حصادها ، سوف يتم الحجر عليها ، ويحتلها الدائنون أو الأشخاص الذين رهنّت هذه الأراضي لصالحهم ، وقد استمرت هذه المشكلة قائمة حتى سنة ١٦٤٥ ، فقد رفع برلمان هذه المملكة إلى الملك تقريراً يقول : انه توجد آلاف كثيرة من الأراضي الجيدة التربة للغاية ، وأنها قفر بلا زراعة ، ولا تؤجر ولا تباع بسبب الخوف من الديون الكثيرة والقروض المضروبة عليها ، ومن المفيد أن تزرع تلك الأراضي وما يماثلها ويستفيد من عائدها الملاك والدائنون .. (١)

أضف لهذا أن كثيراً من الملاك والبارونات المذكورين ، كانوا يرغبون فى ألا تستقر أوضاع هذه الأراضي لأهداف خاصة بهم ، وحتى يبرروا بهذا عدم دفع ما عليهم من ديون ، لذلك منح المرسوم المشار إليه أنفأ الملاك مهلة مقدارها عشرة أيام يبذرون الأرض خلالها أو يسمحون لآخرين بزراعتها لحسابهم . وإذا لم يفعلوا ذلك فإن الدائنين برهنها يمكنهم أن يفعلوا ذلك . . . وقد مضت الأيام العشرة واستمرت الأرض جرداء بدون بذر كما كانت ، ولهذا أذاع نفس الوالى بيانا فى ١٥ ديسمبر سنة ١٦٠٩ كرر فيه المطالبة والسماح بزراعة الأرض ، ويعلق على ذلك " بورونات " بقوله : "إننا لم نعدم فالحين لهذه الأرض ، لكن المشكلة تأتي

1- Danvila: la expulsión de los moriscos ... PP. 333 - 339'

-- Boronat: Los moriscos ... 11, PP. 611 - 636'

-- A . Dominguez ortiz : Historia ... PP. 221, 222'.

من السادة الذين يطلبون من السكان الجدد ضرائب عالية ، نفس الضرائب التي كان يدفعها عبيدهم القدامى ، وهذا ما فجر المشكلة (١) .

وهناك بيان هام صدر عن مطران بلنسية مؤرخ ٨ يوليو سنة ١٦٩٣ يقدم معلومات عن تلك القروض المضمونة برهن ابتداء من اعادة التعمير ، وقد جاء فيه إن الملك اعترف بالضرر الخطير الذي عاناه ملاك الأراضي والأماكن بسبب طرد المورسكيين ، وقد قدم لهم هبة تعويضهم عما فقدوه (٢)

وقد ترتب على نفى المورسكيين كذلك مشكلة غذائية ، أمكن التغلب عليها جزئيا بفضل التسهيلات التي قدمها والى "سردينيا" لاستيراد القمح من جزيرته ، ثم سمح بعد ذلك فى سنة ١٦١٤ باستيراد كميات كبيرة من القمح والخبز من مملكة قشتالة (٣) .

وفى ٦ مايو سنة ١٦١٤ أمر فيليب الثالث سفيره فى روما أن يطلب من البابا الحصول على التصريح المناسب كي تتعاون الجمعيات الدينية مع المسئولين عن الضرائب عن طريق تقديم تسهيلات خلال عشرة أعوام ، وتقدم الوثيقة أسبابا خمسة لهذا الطلب منها أن البلاد أصبحت منهكة حاليا وقد كانت قوية ومزدهرة فى الزمن السابق ، وأنها فى حاجة إلى توفير المال لاستيراد القمح الذي نشتره من بلاد بعيدة وبأسعار عالية جدا ، ثم طرد المورسكيين الذي ترتبت عليه أضرار خطيرة ، والعملية الكثيرة المزيفة والمصنوعة من جلد الحيوان والتي أردنا سحبها من التداول

1- Los moriscos ... 11, PP. 238, 239, 564 - 568'

2- P. Boronat: obra Citada. 11, PP : 369 - 373'.

3- P. Boronat: obra citada. 11, P. 346'

-- A. Dominguez: Historia - P. 217'

تحقيقاً للمصلحة العامة ، وأخيراً قلة الودائع وكثرة سحب الأموال أو ما يمكن أن يسمى بالإفلاس البنكي الذى يعنى أن الناس لا محالة يحتاجون إلى استهلاك مدخراتهم وإنفاق إيراداتهم العادية (١) .

وفى ٢٥ ديسمبر سنة ١٦١٠ صدر قرار من المجلس الملكى ببلنسية يتعلق بتعمير المملكة ، ويتحدث بالحاح عن الأضرار الخطيرة التى سببها طرد المسلمين المنصرين ، ويطلب من كل السادة أن يعمروا الأماكن بأقصى ما يستطيعون فى مدة لا تتجاوز ستة أشهر ، ويطلب من السكان الجدد أن يتعهدوا بالبقاء فى هذه الأراضى مدة لا تقل عن أربعة أعوام ، ويصرّ أن تدفع نسبة ٥٪ من الديون (٢) .

ليس هذا فقط بل قد تضررت بعض الأنشطة الصناعية والتجارية فى مملكة " بلنسية " بخروج هؤلاء المورسكيين ، خاصة صناعة الأحذية والمصنوعات الجلدية ، وها هو " ريبيرا " يتساءل من سيصنع لنا أحذيتنا ؟ وقد رفع صناع هذه المنتجات أسعار بضاعتهم بصورة ملحوظة سنة ١٦٠٩ : العام الذى أكره فيه المسلمون على الخروج ، حتى اضطرت البلدية أن تحدد الأسعار وهددت المخالفين بعقوبات مالية كبيرة (٣) .

وفى سنة ١٦٣٨ يعنى بعد طرد المورسكيين بتسعة وعشرين عاماً ، وصلت إلينا مذكرة مرفوعة لفيليب الرابع من قائد إحدى الوحدات ،

1- P. Boronat : Los moriscos ... 11, P. 346'.

2- A.C.A y C.A. 221, V, 7' : نقلاً عن :

3- J. regla: Estudios sobre los moriscos, P. 136'.

-- Jacinto comara: Estudios demograficos sobre la industria en

-- Elche, P. 25, Alicante 1958'.

-- Braudel: La mediterrnee, 1, P. 640'.

-- J. regla : Estudios ... P. 238'.

العسكرية بمملكة بلنسية (١) ، تتضمن بعض التفاصيل المهمة عن نتائج
إخراج المسلمين المنصرين :

قبل الطرد :

<u>المورسكيون</u>		<u>المسيحيون القدامى</u>	
عدد المنازل	عدد السكان	عدد المنازل	عدد السكان
٢٨٧٠٠	٤٥٣ ألف	٦٣٧٠٠	٣٠٢ ألف

باستثناء مدينة بلنسية والأجمالى هو ٩٢٤٠٠ منزلا ، ٧٥٥ الف
نسمة .

بعد الطرد :

<u>عدد المنازل</u>	<u>عدد السكان</u>
٥٠ ألف فى المملكة	٥٥٠ ألف

بالإضافة الى ٢٠ ألف

فى المدينة والقرى أو

الضواحي المجاورة

ومن هذا نستنتج أنه فى ١٦٣٨ فانه وجدت هناك ٢٤٨ قرية
عمرها المسيحيون بعد أن أخلاها المورسكيون (٣٠٢.٥٥٠) وأن هناك
٢٠٥ قرية بقيت مهجورة ٧٦٦.٥٥٠ وأن إعادة التعمير تسببت فى

نشرها : I- E. asenso: Estudios de historia moderna, IV, Barcelona 1954.

هجرات مهمة بين سكان المملكة ، ذلك أن هناك ١٣٧٠٠ منزلا للمسيحيين
التقاضي بقيت مهجورة (٦٣٧٠٠ - ٥٠٠٠٠ = ١٣٧٠٠) .

وهناك مؤلف عاصر للطرد من جماعة " الدومينكان " إسمه
" فونسيكا " يؤكد أن كثيرا من العمال النشطين قد تركوا مهنتهم وتحولوا
الى مزارعين ، وبرز بصفة خاصة حالة الحائكين (الخياطين) (١)
ولقد ترتب على إخراج المسلمين المنصرين انخفاض فى خدمات المستشفيات
والجمعيات جميعا حتى أصحاب الألقاب والسادة والفرسان والمواطنون
خسروا كثيرا بسبب نقص دخل الديون وغير ذلك ، لقد أصبح الناس
يبحثون عن وسائل - حتى لو لم تكن مشروعة - من أجل الحصول على
القوت (٢) وباختصار يمكن أن يقال إن طرد سنة ١٦٠٩ بالنسبة لبلنسية إن
لم يكن كارثة ، فقد كان عائقا كبيرا وخطيرا ، عانى من نتائجه كثير من
أصحاب الإقطاع والمؤجرين والفرسان ورجال الدين ، ومؤسسات كانت قد
وضعت رأسمالها فى الإحتكارات والقروض (٣)

كل هذا يتعلق بمملكة " بلنسية " ، أما مملكة " أراجون " فإن
تقرير " الماركيز دي ايتونا " (٤) يقدم لنا صورة واضحة عنها ، وهناك
أيضا وثيقة اعتمدت على شهادة الجغرافى البرتغالى " لا بنيا ، الذى
تجول فى البلاد بعد طرد المسلمين المنصرين بفترة وجيزة . كتب "إجناتيو دى

1- Fonseca: Justa expulsion de los moriscos de España, Roma 1612'.

إعتادا على :

- Lapeyre : Geographic, PP. 67 y ss

-- J. regla : estudios ... P. 230'.

2- J. regla : estudios ... PP. 138, 139'.

3- A. Dominguez ortiz : la historia ... P. 222'.

4- A.C.A.C.A. 221, V. 12' هذا التقرير موجود فى :

-- Estudios ... Doumento N. 4' ونشره " خوان رجلا " فى كتابه

أسو " يقول : المدير بالذكر أن طرد المورسكيين الذى تم سنة ١٦١٠ تقريبا قد أخرج من المملكة ٦٤ ألف شخص كلهم ماهر ومنتج . لقد تكلم " خوان باوتستا لا بنيا " - الذى طاف كل اقليم اراجون بين سنتى ٦١٣ ، ٦١٤ ، لرسم خريطة جغرافية - تكلم مرات عديدة عن الدمار المفزع الذى شاهده فى أماكن عديدة بالمملكة فى الرواية المخطوطة الخاصة برحلته والتى شاهدت نسختها الأصلية فى ليدن " ، ويؤكد هذا الرحالة أن ١٢ ألف مورسكى عبروا من ميناء " كان فرانت " وأن كل واحد منهم دفع ١٢ ريالا كما خرج من " لويخارس " أكثر من عشرة آلاف ، وبقي فيها فقط ١٦ نسمة ، وكان يوجد فى " ميداس " ٧٠٠ انخفضوا إلى ٨٠ ، وبقي فى " الفامن " ثلاثة أشخاص من أصل ١٢٠ مورسكى كانوا بهذا المكان ، وفى " كالاته " بقى ١٠٠ فقط من اجمالى ٣٠٠ ، ومثل هذا حدث فى أماكن أخرى (١)

وقد لفت " الماركيز دى ايتونا " النظر فى ٣٠ مايو سنة ١٦١٠ إلى الانخفاض الهائل فى الأسعار والذى قاست منه ملكية الأراضى ، بسبب العرض الكثير والمال القليل ، فبخروج المورسكيين انخفضت أسعار كل الممتلكات والمنازل . . . ولم يكن هناك إقبال على الشراء ، فهناك أراضى وفيرة بلا ملاك ، وهناك أفراد قليلون ونقود أقل . . . ولهذا بيعت ممتلكات كثيرة بخمس السعر الذى تستحقه (٢) وقد تعقدت المسألة أكثر عندما أصدر اسقف "سرقطة" مرسوما مؤرخا ٣٠ يونيو سنة ١٦١٠ ، يأمر فيه بدفع عشر كل محصول أراضى المورسكيين التى كانت معفاة من

1- Ignacio de Asso : Historia de la economia politica de A ragon, P. 205'

-- J. regla : Estudios ... P. 142'

2- J. regla. obra citada, P. 142 , y Documento N. 4, PP. 174 - 175' ACA, CA, 221', V , 6'

دفعه حتى هذا التاريخ ، وقد أبلغ الوالى الماركيز دى ايتونا ذلك للملك فى الحال بعبارات مؤثرة " كل من فى هذه المدينة يشعرون بذلك بكل قوة ، يستوى فى ذلك صغار الملاك وأصحاب الديون ، لأنه يشمل الجميع ، فالعشر تدفعه كل الأراضى ، وستكون ايرادات هذه الأماكن قليلة ، مع أنه لا بد أن تعمر ، أى أن الضرر سيكون عاماً بين ملاك العبيد وأصحاب الديون . . . لقد تمّ الطرد مع هدوء ، والآن لقد اضطرت الهمم ، ولن ترتاح إلا إذا الغيت اجراءات الأسقف فى الوقف الحاضر . . . " وواضح من هذا أن الدخول قد تأثرت بطرد هؤلاء المورسكيين ، أما محاكم التفتيش فى اراجون وبلنسية ، فقد طلبت التعويض المناسب ؛ لما لحق بها من أضرار بسبب نفي المسلمين المنصرين ، ووفقا للبيان المرسل إلى مجلس " اراجون " فإن قضاة التفتيش فى سرقطة قدروا الخسارة السنوية بمبلغ ٤٣٥٩٣ ريال وقدّر قضاة بلنسية خسائره بـ ٣٥٥٨ جنيها ، وقد أمر الملك بتعويضهم من ممتلكات المورسكيين المصادرة (١) .

أما ممتلكات المورسكيين التى صودرت لصالح الثروة الملكية ففى " اراجون " فقد اشتملت على ١٤٣٠ منزلا وعقارا ، بالإضافة إلى ممتلكات أخرى ، وقد وصلت إلى الملك رسالة فى ٢ يناير سنة ١٦١١ ، تخبره أن ممتلكات المورسكيين الذين بقوا فى اراجون وبلنسية وقطالونيا كثيرة جدا ، وقد قام الخبراء بتقدير هذه الممتلكات بـ ٤٧١٥٣٣ جنيها وخمسة " سويلدوس " (الجنيه = ١٠ ريال) ، كما قدرت ممتلكاتهم ففى " بورخا " و " تورتوس " من ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ دوكادوس ، ودخلها السنوى ١٥٠ دوكادوس (٢) .

1- Estudios ... Documento N. 9. P. 190'

وقد نشر ذلك خولان رجلا فى كتابه :

2- P. Boronat: Los mariscos ... PP. 667 - 672'

وكان المورسكيون فى اراجون - كما سبق - ٧٠ ألف ، يشكلون بين سدس وسبع إجمالي السكان ، لكن توزيعهم كان بلا نظام ، فهم يتجمعون على امتداد نهر " الابرؤ " وروافده . ويرى " لابيىرى " أنه كانت هناك منطقة تمتد بعمق أربعين كيلو مترا جنوبى نهر الابرؤ ، بقيت خرابا (١) ، وقد طاف الجغرافى البرتغالى " لا بانيا " السابق الاشارة إليه بهذه المنطقة (٢) ، ولاحظ أن اقطاعات " الماركيز دى كاما راسا " هى أكثر المناطق معاناة ، وأنه لم يبق بها إلا ستة عشر منزلا بسبب رحيل ألف مورسكى ، وكان فى " بورخا " ٣٠٠ أسرة من أصل ٨٠٠ كانوا بها ومثلها غيرها ، الشىء الذى ترتب عليه كثير من الضعف والفقير .

ان الأراضى الزراعية الخصبة هى أكثر الأشياء تضررا ، وقد كان التراجع الاقتصادى أكثر بروزا فى المحاصيل الزراعية ، مثل : الكرم الذى يتطلب وفرة فى الأيدى العاملة ، ولأن كل المورسكيين تقريبا ، كانوا يعيشون فى مناطق إقطاع ، فإن السادة الأقطاعيين كانوا من أكثر الناس تضررا . ويلاحظ " بيىرى بونسوت " ارتباط المشكلة الزراعية الأراجونية بالتقاليد التاريخية والاجتماعية فى هذه المملكة ، حيث تعيش مجموعتان مختلفتان عنصريا ، كل منهما لا تختلط بالأخرى ، المورسكيون تخصصوا فى زراعة أراضى الرى ، وأجادوا جوانب فنية لا يعرف المسيحيون تفاصيلها وتميزوا بالدقة ، وعندما تركوا البلاد انخفضت المحاصيل ووقع

1- Lapcyre : Geographic ... P. 212'.

2- Juan . B. Labana : Itinerario de Reyno de Aragon, a donde andou os ultimos meses de anno de 1610 e os primeiros- de 1611. zoragoza España. 1895'.

-- A. Dominguez ortiz: Historia ... P. 211'.

التدهور ، ويذكر المؤرخون أنه حتى نهاية القرن ١٨ (١) فإن المسيحيين لم يدركوا النواحي الفنية ، وكانوا يضعون بذور الفمخ فى كل مكان بصرف النظر عن طبيعة الأرض ، وكان من الصعب على المستوطنين الذين قدموا من الجبال أو من أراضي تعتمد على المطر أن يفهموا كيفية زراعة الأراضي التى اعتمدت فى نسبة عالية منها على المورسكيين ، وقد تحدث المؤلفون عن ازدهار القري زمن المسلمين وكيف أصبحت فقيرة جدا بعد ذهابهم ، وكان على المورسكيين أن يدفعوا ضرائب متنوعة وباهظة ، ورثوها من جاء بعدهم ، لقد كانوا يدفعون لسيد الاقطاع خمس حبوب المزارع وسدس حبوب الجبل ، وسدس القُنب والكتان والبقول والفاصوليا والفواكه المجافة ، وثمان محثول العنب والزيتون ، وكانوا يكرهون على عصر الزيتون فى معصرة صاحب الاقطاع ، ويدفعون على ذلك أجرا قيمته ٣ ٪ تقريبا ، كذلك كان عليهم أن يسلموا سدس الخضار الذى لا يستخدمونه فى الاستهلاك ، وكان على المورسكى أن يدفع مكيالاً من القُمح ، كما كان السيد يحصل على دجاجتين من كل منزل ، ويؤجر مراعى الجبل للقرية مقابل عشرة جنيهاً . وهذا كله يمكن أن يعد قمة فى الحلم ، إذا قورن بقرى أخرى لأصحاب اقطاع آخرين أكثر تشدداً ، وقد أمكن للسادة الاقطاعيين ، ذوي الحظوة لدى الملك ، الحصول على تعويضات عن الأضرار التي لحقتهم بسبب نفى المسلمين المنصرين ، مثلاً دوق " بيا ارموسا " رفع مذكرة إلى الملك سنة ١٦١٣ عرض فيها الأضرار التي جرت

1- Ponsot (Pierre) : Les morisques, la culture irriguée de bleet le problème de la decadance de l'agriculture espagnole

-- au XVII, eme, Siccle " Melanges de la casa de velazquez, VII, 1971'

-- PP. 237 - 262'.

ذَكَرَهُ

-- A.D. ortiz : Historia de los moriscos ... P. 211'.

لاقطاعاته ، فحصل على ضياع كانت للمورسكيين ، ودفع له العرش
٤٠٠٠ جنيها سنة ١٦٢١ ، ثم حصل علي ٣٠٠٠ سنويا ابتداء من سنة
١٦٤٦ .

وقد ظن مجلس ارجون أن اجراء سنة ١٦١٠ لن يترك آثارا على
إيرادات اسقفية سرقطة ، لأنها لا تحصل عشورا من المورسكيين ، لكن
بعد ذلك بخمس سنتوات اعترف بانخفاض الإيرادات إلى ٣٦ ألف بعد أن
كانت ٦٠ ألف جنيه ، وقد حصلت محكمة التفتيش على تعويض مقداره
٤٧١٥٣٣ من الممتلكات المورسكية المصادرة في "أراجون وطرطوشة" ،
وعانت الطبقة الوسطى أكثر من غيرها " لأنها كانت تستثمر أموالها في
إيجارات واحتكارات عن أصحاب الاقطاع ، وكان يقع على كاهل
المورسكيين عبء دفع الفوائد بصورة تضامنية ، فلما نفى المسلمون
المنصرون ، أعلن سادة الاقطاع عجزهم عن سداد الديون وما عليها من
فوائد (١) .

أما في قطلونيا فقد منح الوالى فى ٣٠ مايو سنة ١٦١٠
سلطات كاملة لمسئول الخاصة الملكية ، وفوض فى التصرف فى ممتلكات
المورسكيين بعد رحيلهم (٢) وبسبب قلة العنصر المورسكى فى قطلونيا ،
ولأنهم كانوا يتمركزون على ضفاف نهري " سجر " و " ابرى " ، فإن
النتائج الاقتصادية لطردالمورسكيين كانت محدودة ، وكان الوالى " ماركيز

1- Jorser María Lacarra: Aragon en el pasado, 193 - 194'

وانظر فى كل ذلك

A.Dominguez ortiz : Historia, PP. 210 - 214'.

2- ACA, CA. 208, 3' : نقلا عن :

J. regla. Estudios ... Doucmento 8, PP. 187 - 189'

دى ايتونا " هو الأكثر تضررا بين أصحاب الأراضى الواسعة (١) .

وترتب على نفى المورسكيين فى ذلك الإقليم اغلاق المصانع والورش ، وتضاؤل الزراعة والرى ، وانخفاض الأجور بنسبة ٢٥ ٪ وفرضت ضرائب جديدة على العناصر المنتجة . وكان على الجماهير أن تصبر على ما آلت إليه أحوالها . . أما طبقة النبلاء التى اتحدت لحما ودما فقد حشدت ممتلكات واسعة وتضخمت إيراداتها ، فطرد المورسكيين خلق فراغا لم يكن من السهل تعويضه ، وترتب عليه اختلال عنصرى المجتمع الاسبانى . . وقد شغل عمال فرنسا قسماً كبيراً من المزارع التى تركها المورسكيون ، وتحملت الطبقة البرجوازية جزءاً كبيراً من الأضرار التى عانت منها ارسقراطية الأراضى من خلال انخفاض أو ضياع إيرادات الديقون ، وكان من الضرورى أن يترك افلاس البنوك فى بلنسية صدها على قوة اقتصاد قطالونيا خاصة فى اللحظات الحرجة (٢)

وبالنسبة لقشتالة ، فإن النكبات التى مرت بها تلك البلاد يعزى إلى غياب المورسكيين إلا أن آثار هذا الاجراء يمكن الاحساس بها أكثر فى المناطق والقرى التى كون هؤلاء فيها أغلبية ، ومع ذلك فلم تسجل الوثائق شكاوى من بلدية اشبيلية ، برغم نقص سبعة آلاف شخص كانوا يمثلون نسبة ٦ ٪ من اجمالى السكان لم يترك غيابهم صدى على اقتصاد المدينة ، وفى مدن أخرى أقل صفراً ، كان الصدى أكبر بكثير ، وفى سنة ١٦٢٣

1- ACA, reg . 4893. Fol. 206 - 207'.

المرجع السابق ، الوثيقة العاشرة ص ١٩١-١٩٢

2- J. regla : Estudios ... PP. 151 - 152'

- Braudel : La Mediterranee ... P. 328'

: وانظر عن نتائج طر المورسكيين فى قطالونيا وإعادة تعمير أماكنهم :

-- Francisco sevilleno : La villa de oropesa (castellon 1953) .

أعلن المجمع الديراني في مدينة شيوداد ريال (المدينة الملكية) أن منازل السكان قلت بمقدار ألف منزل ، وأنهم كلهم تقريبا كانوا من الفقراء ، ومع طرد المورسكيين خرج خمسة آلاف شخص ، كانوا هم الأكثر تعاوناً في المسائل الضرورية ، وكانوا يقدمون الزاد والمؤونة (١) .

وقد أعلن نائب طليطلة في برلمان سنة ١٦١٧ أنه من المستحيل عليه دفع ضريبة المكوس بسبب طرد ثلاثة آلاف مورسكي ، كان الكثيرون منهم رجال أعمال ، ولهم تجارات متنوعة ، وقد اعتمد على هذا أيضا في تخفيض ضرائب " ابيلا " سنة ١٦١٢ ، ومجد شكاوى بسبب نفى المورسكيين في العديد من القرى والضياع ، (٢) ، ويزعم " الونسوكانو " - اعمالا لنظرية نقاء الدم - أن اجداده من ناحية النسب ، قد قدموا إلى غرناطة من " بيا رويليدو " لأن هذه المدينة كانت قد أخلت من سكانها بسبب طرد المورسكيين (٣) ، وهناك مؤرخ من " بايثا " (٤) يعدد أسباب تدهورها فيذكر من بينها نفى المورسكيين الذين كان يعمل عدد كبير منهم في الفنادق ، وفي دثيا (سوريا) نقص كثير من الضرائب الواجب دفعها سنة ١٦١٤ " لنقص القسم الأكبر من سكانها بسبب طرد المورسكيين ، وفي سنة ١٦٥٤ تعرضت لمشكلة جديدة فلم يكن قد بقي بها إلا ١٠٦ منزلا

1- Delegado Merchán: Historia de ciudad Real, capitulo VIII

-- cañla Rhna phillips : the Moriscos expulsion Form castile ver extract en New . letters " Mayo de 1975, PP. 52 - 54'

-- A. Dominguez ortiz : La historia , P. 205' ذكرها

2- Archivo genéral de simancas. C J H , 1425'

ذكره نفس المرجع والموضع السابق :

3-Don Manuel Casares en " Varia Velazquena " . نشره :

4- Cozar: Noticias y documentos para la historia de Baeza, . capitulo XIV - Jaen 1884'

ذكره أيضا أنطونيو دومنجيث أورتيث في نفس المرجع والموضع المشار اليه آنفا :

١٧ ساكن ، رضاع فيها . يربون ثروات المورسكيين ، وفى " بنكرثينا " من محافظة " توريخييو " وجد ٢٢٥ منزلا سنة ١٥٩١ ، ولكن خروج المورسكيين منها جعلها مقفرة تماما ، الشيء الذى ترتب عليه نقص حصتها السنوية من الخدمات من ١١١ ألف مرابطى إلى ٨٠ ألف ، وفى ١٦٧٠ استمر النقص فقد كانت حالتها أكثر يوسا (١)

أما فى " مرسية " فقد كانت الآثار أكثر خطورة ، سواء فى العاصمة أو فى القسم الأكبر من المناطق الريفية ، وما أن طرد المورسكيون حتى بدأت شكاوى المدينة وممثليها فى البرلمان : المدينة طلبت تخفيضا فى ضرائب الخدمة ، لأنها فقدت ألف منزل ، ولأنها لم تعد ترسل إلى بلنسية ثمانية أو تسعة آلاف مورسكى تعودوا أن يذهبوا إليها كل سنة للعمل فى حقول وصناعة الحرير ، وهؤلاء هو الذين كانوا يدفعون ضرائب الخدمة العادية وغير العادية وسببوا ازدهار التجارة فى المدينة والمملكة ، أما الآن فلا يمكن دفع الضرائب وبرغم هذه الشكاوى فقد تم طرد آخر المسلمين المنصرين من " وادى ريكوتى " كما سبقت الإشارة ، وفى سنة ١٦٧٠ قال نائب من مرسية فى البرلمان " أن نقص الأسر فى العاصمة بلغ ٩٧٠ أسرة وأن هذا كان له أثره على محصول الحرير ، لكونهم رجال عمل ، ويفهمون صناعة الحرير بصورة جيدة جدا ، لقد أدخلوا ٢٢ مكانا فى منطقة مرسية ، وستنتهى بالدمار ما لم تمنع دخول الحرير الأجنبية (٢) .

وأنة لمنطقى أن تعاني مملكة غرناطة أكثر من أى مملكة أخرى من نتائج طرد المورسكيين ، لأنه لم تكن نسبتهم عالية فى أى مكان مثلما

1- Archivo general de simancas, CJH. legajo. 1400'

-- A. Dominguez ortiz : La historia ... P. 206'

2- Actes XXX, 344'

نقلا عن :

ذكره المرجع السابق فى نفس الموضع :

كانت عالية فى غرناطة . إن نقص إيرادات " الاكليروس " الذى كان يعتمد عليه بصورة أساسية فى تحصيل عشر انتاج الزراعة والرى ، شىء معروف من خلال وثائق تاريخية ، وهى تخبرنا عن تأثيرات متنوعة وفقا للنواحى ، وكانت أعلى التأثيرات السلبية فى الشرق (ألمرية) وأقلها فى الغرب (مالقة) ، وقد تأثرت إيرادات المرية كثيرا ، فقد كتب المجمع الديرانى سنة ١٦٠٩ مذكرة توضح أن هذا البلد قد أصبح خرابا ، لكونه كله كان من المورسكيين ، ثم أعيد توطينه بأناس تأهيلهم سىء وليست لديهم رغبة فى العمل ، وأنه اليوم فى حاجة كبرى فبسبب قحط السنين افتقد هذا البلد كثيرا من سكانه تاركين الأرض والعقارات مهجورة ، وقد استمرت نفس الشكوى بعد ذلك بكثير ، فقد أخبرت " فرنسيسكات ألمرية " مجلس السكان سنة ١٥٨٤ أنهم بقين فقيرات حتى إن راهبتين منها ماتتا من الجوع ، حدث ذلك بعد مرور ١٦ سنة على الثورة الغرناطية وأكثر من ١٢ سنة على بدء اعادة التعمير ، وقد كان هذا التعمير بطيئا وغير كاف وبقيت نتائجه غير فعالة حتى الثمانينات من نفس القرن السادس عشر ، بسبب المشكلة الزراعية (١) ، نفس الشىء حدث فى دوائر أخرى مثل ألمرية وقادش ، وكذلك فى " اوخيخر " بقلب جبل البشرات وغيرها .

وبرغم وصول أكثر من عشرة آلاف أسرة من "مرسية" واقليم "لامنشا" وغيرهما ، بهدف اعادة توطين الأندلس ، فإن الجمالى سكان المملكة انخفض من ٢٧٥ ألف مواطن سنة ١٥٦١ إلى ٢١٥ ألف سنة ١٥٩١ وكان هناك حوالى ١٣٠ قرية وناحية من اجمالى ٤٠٠ كان

1- A.Dominguez ortiz: La historia ... PP 206 , 207'

وفىها إشارات إلى بعض الوثائق الموجودة بدور المحفوظات والمؤكدة لما فى الأصل .

سكانها جميعا أو أغلبهم من المورسكيين كلها بقيت مهجورة خاصة فى منطقة البشرات ، كما هُجرت مناطق أخرى كثيرة فى المرية ، وهناك قرى اختفت تماما وإن بقى فى مواقعها عدد كبير ممن بقوا على قيد الحياة . وليست الكنائس وحدها هى التى تحطمت أو بقيت فى حالة سيئة جدا ، لكن الطواحين والأفران والمنازل أيضا ، كما افتقدت الأشجار المثمرة فى كثير من المواقع وتأثر كل اقتصاد الإقليم بالحرب . ثم بعد ذلك حرب العصابات التى حملت الفرق المتصارعة أن تبقى فى البلاد حتى لا تموت جوعا ، بالإضافة إلى أن الجيوش المسيحية حاولت ، خاصة فى الشهور الأخيرة من الحرب ، أن تمنع المورسكيين من تموين قواتهم ، وكانت لابد من رد فعل من جانب هؤلاء ، فبقيت المملكة خرابا ، وهناك أمثلة أخرى تبرهن على ذلك مثلا حالة الدير فى ماركيزية " ثنيتى " وحالة الطاحونة والكرم وبعض أشجار التوت وكثير من أشجار القسطل ، كل ذلك أصبح خرابا وفى " الميخيرا " و " نوتايت " من قرى البشرات ، خربت أربعة طواحين للدقيق وطاحونة للزيت واحترق ربع أشجار الزيتون فى " كأخار " وهى قرية فى غوطة غرناطة ، وتهدم ١٤ منزلا من بين ٤٤ كان يسكنها مورسكيون ، وكانت الثلاثون الأخرى فى حاجة إلى إصلاحات كبيرة ، ولك أن تتخيل خيبة الأمل التى قاسى منها من كان عليهم إعادة تعمير الإقليم فى ظل ظروف اقتصادية بالغة السوء بسبب طرد المورسكيين (١)

وكما قلنا من قبل فإن الجزء الغربى من مملكة غرناطة كانت

1- B. Vincent : Un Modele de decadence : La royaume de Grande Dans le dernier tiers du XVI Siecla (actas de las I Jornadas de Metodologia aplicada a las ciencias historicas " tomo III,Santiago de Compostela, 1976)

وانظر أيضا :

-- La Historia de los Moriscos , P. 208'.

معاناته أقل بكثير ، وفى قرى مالقه ، أعيد التعمير بلا صعوبات اللهم إلا الجانب الزراعى ، حيث فشلت حالات كثيرة ، وقد منح مرسومان ملكيان فى ٢٤ فبراير سنة ١٥٧٠ ، ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٧١ ، منزلا وأرضا زراعية لكل مستوطن جديد ، مقابل جزء صغير من المحصول، لكن الآلاف الذين اختيروا لهذه العملية لم يصل منهم إلا القليل ، ومن وصل وصل مريضا منهكا ، ومات منهم عدد كبير فى المستشفيات .

وقد توصل " بنتنتى " فى البحث الذى أجراه حول الموطن الأسمى لعشرة آلاف مهاجر ، إلى أن معظمهم كانوا اندلسيين واستقروا فى مالقة وغرناطة ، ليتمكنهم التجوال مستفيدين من المسافات القصيرة بين المواطن ، يأتى بعدهم من قدموا من إقليم " لامتشا " ثم القادمين من بلنسية ومرسية وهؤلاء استقروا فى القسم الشرقى من المملكة ، يأتى بعد هؤلاء من بقى على قيد الحياة ممن جاءوا من "جليقية" ، أما القادمون من أقاليم أخرى فكانوا ندرة ، وهذا الانتقال إلى مسافات بعيدة ثم الاستقرار فى بلد مدمر لم يكن يعزى إلا البؤساء أو المغامرين الذين وصفوا أكثر من مرة بأنهم غشاء اسبانيا . وعندما استقر هؤلاء فى مملكة غرناطة ، لم تتوقف مشاكلهم ، ذلك أنه بالإضافة إلى حالة الخراب فى الإقليم ، فإنه كان عليهم أن يصارعوا العادات السيئة لدى السلطات المحلية التى تعودت على تسخير المورسكيين ، وحاولوا فعل الشئ نفسه مع من حلوا محلهم ، وكان عليهم أن يدخلوا فى حساباتهم خطر القرصنة من الخارج ، ولصوصية المنفيين من الداخل ، ولهذا لم يكن غريبا أن كثيرا ممن جاءوا لإعادة التعمير ، قد خدمت عزائمهم ، وتركوا المهمة ، ومن هنا كانت إعادة التعمير بطيئة جدا (١) .

١- أنظر المرجعين السابقين .

وإذا أردنا أن نعرض النتائج الديموجرافية وما يتعلق بالإحصائيات والنتائج الاقتصادية التي ترتبت على نفى المسلمين جميعا من كل اراضى اسبانيا في الفترة من ١٦٠٩ - ١٦١٤ امكنا أن نقرر مطمئنين أن حالة الاضطراب والقلق قد سيطرت على الأقاليم المختلفة . لقد كثرت الشكاوى من ندرة الأيدي العاملة وغلاء الأجور ، وأخذ العمل الحرفى أهمية كبرى ، وقد وصل عدد العبيد والأيدي العاملة الأجنبية إلى أقصى مستوى له فى هذا التاريخ ، وبعض المهن التي تخصص فيها المورسكيون عانت بشكل خاص من غيابهم ، لقد رأينا " مرسية " تشكو من تدهور صناعة الحرير ، لأن شجرة التوت قد نقصت فى كثير من المناطق ، وحدث الشيء نفسه فى مهن وحرف أخرى ، ويلاحظ هذا بصفة خاصة فى مهنة النقل عن طريق البغال ، وهى المهنة المفضلة لدى الغرناطيين الذين تشتتوا فى اقاليم قشتالة ، ويقول " ب드로 لويث دي رينو " إن تكاليف النقل قد ارتفعت بسبب نقص خمسة آلاف مورسكى كانوا يعملون فى هذه المهنة مستخدمين البغال (١) .

اخفاء وتزييف العملة كان من بين النتائج المهمة المترتبة على الطرد ، وقد أصبحت العملة نادرة بسبب الكميات العظيمة التي أخرجها المورسكيون بطريقة قانونية وغير قانونية ، فقد كان مصرحاً لهم بإخراج جزء من المال والمجوهرات ، ووفقا لبيانات " البرو كاستيو " فقد ضربت قشتالة فى الفترة من ١٦٠٨ إلى ١٦١٣ ، ٥٠١٥٢٧ مارك من النحاس (المارك = نصف جنية يعنى ٢٣٠ جرام) ، وهذه الكمية الهائلة من العملة ازادادت بسبب المزورين الذين جذبهم الربح من الفرق بين القيمة

1- En su Memorial Ms. Bibliotica nacional N. 1092 , Folio 305'

أنظر :

A. Dominguez ortiz ; La Historia , P. 209 , Nota . N 23'.

الإسمية والقيمة الحقيقية للعملة النحاسية برغم أن العقوبات ضد المزورين كانت خطيرة ، وقد أخفى بعض المورسكيين كنوزهم حتى لا يستفيد منها العدو الكافر أو ربما على أمل كامن في نفسه أن يعود يوما (١) وقد رجع عدد غير قليل من الفلاحين الذين هاجروا إلى افريقية وأحضروا مكتوبات بها معلومات عن الكنوز تتضمن اشارات إلي المواضع التي كانت مخبأة فيها ، نعم ، هناك بعض الأساطير والخرافات بهذا الصدد ، ولكن هناك أرضية من الحقيقة ، لقد أخفى المورسكيون كنوزا ، نفس الشيء فعلته من قبل ومن بعد فئات مضطهدة ، بل إن مرسوم ٢٤ فبراير سنة ١٥٧١ حول مصادرة ممتلكات المسلمين المنصرين يتحدث عن هذه المسألة ، ويذكر أن كميات من الذهب والفضة يصعب تقديرها ظلت مفقودة في مملكة قشتالة (٢) ، ويمكن تلخيص ما سبق في العبارات الموجزة الآتية :

نتائج نقي المسلمين المنصرين من الناحيتين الاقتصادية والديموجرافية ، فيما يتعلق بأسبانيا ككل يمكن أن تكون كما يلي :

لاشئ بالنسبة للأقاليم الشمالية من قشتالة ، ونتائج ملموسة محدودة في عواصم ونواح معينة من باقى قشتالة ، ونتائج غير ملموسة في قطلونيا ، ونتائج قاسية بالنسبة لأراجون ، ونتائج حادة بصورة واضحة في مملكة بلنسية .

1- A. Dominguez ortiz : La Historia P. 210, 216'

ويشير في تعليقاته بهاتين الصفحتين الى إهتمام المورسكيين بتزييف وإخفاء العملة في أماكن سرية ببعض الأقاليم والى الدراسات العديدة التي عالجت هذه المسألة منها مثلا ما كتبه " Mateul Lopis " من مقالات متعددة نشرت في مجلة Numisma

2- Brigido ponce de Leon : Historia de Albendin , Madrid , 1960, P. 75'

وانظر أيضا :

أنطونيو دومنجهيث أورتيث : تاريخ المورسكيين ص ٢١٠ ، والتعليق ٢٤ بنفس الصفحة .

لقد اعترف الكتاب منذ زمن فيليب الثالث بأنه إذا كان نفى
المورسكيين مفيدا حقيقة من وجهة النظر السياسية والدينية ، فهو ضار إذا
نظرنا إليه من الوجهة الاقتصادية والديموجرافية فهو سبب قفر وخراب
اسبانيا ، مثلاً يقول " فيرنانديث دى نابا ريتى " : " لقد طرد العديد من
المسلمين واليهود أكثر من مرة ، انهم أعداء عقديتنا المقدسة الكاثوليكية ،
فقد طرد من الأولين ثلاثة ملايين شخص ، وطُرد مليونان من
الآخرين " (١) والأرقام هنا غير دقيقة ، وذلك كان طابع العصر ، وهو
يعنى جميع المطرودين ، وليس فقط من طردوا فى اللحظة الأخيرة ، وكان
هذا هو الرأى الشائع ، ولكن مؤلفا آخر هو " سانشو دى مونكادا " يعترف
بالتأثير الذي يمكن أن يكون الطرد قد أحدثه فى مجالات التجارة
والايرادات الملكية وفى تقدم الزراعة والفن ، ولكنه يرى أن نقص
الإيرادات لا يرجع للطرد فحسب ، ويؤكد أن خروج المورسكيين قد عوضه
عدد مساوٍ من الأجانب . ومع ذلك فإن المسافرين الفرنسيين الذين زاروا
اسبانيا فى زمن " فيليب الرابع " ذكروا أن فكرة الطرد لم تؤثر على
المصالح الاقتصادية للبلاد فحسب ، بل كانت إجراء وحشياً وغير مهذب ،
ويمتدحون فاعلية المسلمين المنصرين باعتبارهم فلاحين ممتازين (٢) . ورأى
فلاسفة عصر النور المستمد من الوثائق والشهادات يمكن إيجازه فى عبارة
الأديب الفرنسى " فولتير "

" الملك فيليب الثالث ، استطاع للأسف أن يطرد ستمائة أو

1- Fernandez de Navarrete : P. 150 , discurso VII,

ذكره

-- J. Caro Baroja : Los Moriscos, P. 235'.

2- Villars, Memorias ... P. 5'

-- Jose Garcia Mercadal, España Vista por los extran jeros II, P. 136' - '137

-- J. Caro baroja : Los Moriscos, P. 235', 236'. وما بها من تعليقات

سبعمائة ألف مسلم من بلاده ، وهو الذى لم يكن بإمكانه أن يتعامل مع عدد صغير من الهولنديين "

ومن الممكن تركيز نتائج نفى المسلمين المنصرين فى السطور

التالية:-

لقد كان الطرد الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها ، فانحط الانتاج الزراعى الذى يبرع فيه المورسكيون ، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدى الماهرة ، وكسدت التجارة التى كات المورسكيون من أنشط عناصرها ، وركدت ربح الصناعة ، وعفت كثير من الصناعات التى كان المورسكيون أساتذتها وغاضت الفنون الرفيعة التس استأثروا بها منذ الدولة الإسلامية ، وأحدثت هذه العوامل بمرور الزمن نتائجها المخزية ، فتناقص عدد السكان وانكششت المدن الكبيرة ، وذوى عمرانها وتضاءلت موارد الخزينه العامة ، وشلت جهود الاصلاح والتقدم ، ولم يمض على اخراج المورسكيون زهاء قرن حتى أصبح سكان اسبانيا كلها ستة ملايين نسمة ، وكان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة سبعة ملايين ، وفقدت معظم المدن الكبرى مثل قرطبة واشبيلية وطليلطة وغرناطة أربعة أخماس سكانها ، وعم الفقر والحراب مئات المناطق والمدن ، وخيم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال ، لقد عمّ الدمار والبؤس والانحطاط وحرمت أسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية التى كانت تتمتع بها الأمة الأندلسية .

وقد ظهرت هذه الآثار المخزية بالأخص فى محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور ايراد الضياع الكبيرة وايراد الكنائس والأديرة ، دليلا على ما أصاب قوة اسبانيا المنتجة الزراعية والصناعية ، بسبب نفى

طائفة كبيرة من أنشط طوائف السكان وأغزرهم انتاجا . . . وكان النبلاء والأخبار وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون فى تعهد أراضيتهم وفلاحتها على نشاط المورسكيين وبراعتهم ، فلما وقع النفى جمد النشاط الزراعى ، وختت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى وهدمت بلاد كثيرة لخلوها من السكان ولا سيما فى مملكة بلنسية ، واضطر النبلاء إلى استجلاب العمال الزراعيين من جزر البليار الشرقية ومن انحاء غيرها ، ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ فى غلات الضياع الكبيرة ، ولم يستفد اصحاب الأقطاع من استيلائهم على اراضى المسلمين التي صودرت وتعذر عليهم زراعتها وفلاحتها ، ووصل بهم الضيق إلى أن اضطر الملك إلى منح الكثيرين منهم نفقات أو تعويضات سنوية من أموال الخاصة الملكية ، هذا فضلا عما أصاب طوائف السكان الأخرى التي كانت لها صلات بالمورسكيين من عسر ما واجهته من مشكلات وضيق .

وليست فقط الكنائس والأديرة هى التي انحط دخلها ، بل إن التفتيش ومحاكمه قد خسرت كثيرا ، لأنه كان يعتمد فى مصادره على أموال المورسكيين ، ويصادر ممتلكاتهم ، ويوقع بهم الغرامات الشديدة ، واضطرت الحكومة إلى تعويض محاكم التفتيش كما سبقت الإشارة . . . وكانت أملاك المسلمين المنصرين وأراضيتهم قد بيعت بمبالغ كبيرة استولي عليها العرش ، ووزع ريعها على الأخبار والوزراء والنبلاء .

وهناك مثل يقدم دليلا على ما أصاب اسبانيا من جراء النفى ، هو مدينة ثيوداد ريال (المدينة الملكية) فقد أسس " الفونسو العاشر " هذه المدينة فى القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطا مغرية شجعت كثيرا من المسلمين واليهود على النزوح إليها ، وفى سنة ١٢٩٠ وصل عدد دافعى الضرائب من اليهود فيها ٨٨٢٨ ، فلما أخرجوا منها ستة

١٤٩٢ حل محلهم المورسكيون من عرناطة . ولما أخرج هؤلاء . منها مع المدجنين القدماء . خربت المدينة وانحطت رراعتها وتدهورت صناعة النسيج التي أدخلها المورسكيون فيها . وهبط عدد سكانها فى سنة ١٦٢١ إلى ٥٠٦٠ نسمة يعنى نحو ألف أسرة فقط . فى حين أنها قبل نفى المورسكيين كانت تضم اثنتى عشرة ألف أسرة .

وكان مما ترتب على نفى المورسكيين أيضا ، ذبوع العملة الفضية الزائفة ، وقد ترك المورسكيون منها كميات هائلة ، وكان لهم براعة فى صنعها ، وذاع هذا النقد الزائف ، وسبب اضطراباً شديداً فى المعاملات ، وحاولت الحكومة منعه وعاقبت عليه بعقوبات شديدة وصلت حدّ الإعدام . ولكنها لم تفلح فى القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة التي دامت أعواما طويلا ، بل عمد الأسبان إلى التزييف بدورهم وعرضوا على المحاكم المختلفة وأؤقتت بهم العقوبات وعانى التجار والشعب كله كثيرا ولحق بالناس ضرر بالغ (١) .

يقول " لى " : " أنه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون فى القيام بقسطٍ عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية للبلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ دون أن يبث ذلك الخراب الواسع ويشير معتركا من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة وإنه لمن خواص السياسة الأسبانية ، أنه لم يفكر أحد فى هذه الشؤون ، ولم يحتط لها أحد فى المباحثات الطويلة التى جرت حول قضية المورسكيين . . وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التى ينفذ بها النفى ، وماذا يسمح به للمنفيين ، وماذا سيكون مصير الأطفال ،

1- J. Caro Baroja: Los Moriscos PP 216 v ss

وما بها من تعليقات

ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ،
واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح فشل السياسة الأسبانية " (١)

وبعد ذلك كله من حق الباحث أن يعجب من جرأة السلطات
الأسبانية فى اتخاذها هذا القرار المؤلم الفظيع ، رغم أن كثيرا من
المستولين كانوا على وعى بما قد يترتب عليه من نتائج بل إن المطرّان
" خوان ريبيرا " ، هو المحرك الأول وأحد المحرضين الرئيسيين على نفى
المورسكيين ، قد أشار إلى خطورة نفى هذا العنصر الفعال ، وألح إلى
الآثار التي قد تترتب على ذلك . لقد عبر عن هذه الحقيقة - فى رسالته
إلى الملك قبل النفى بعام - فقال : " إن آثار الطرد ستكون خطيرة بالنسبة
لمملكة بلنسية " ومع ذلك فقد آثر الفقر على الهرطقة والإلحاد ، (انظر
ص ٢٧٧ من هذا البحث) ، فهل اتخذ هذا القرار لدوافع سياسية كما
يزعم البعض ولأن للمسلمين المنصرين اتصالات أجنبية تضر بسلامة الدولة
وأمنها ؟ إن ما نسب إليهم فى هذا الصدد من اعداد مؤامرات تضر بالبلاد
وتعرضها لمخاطر ، لم يكن أمرا حقيقيا ، ولم يكن الخطر داهما حتى نبرر
به هذا الإجراء ، ومرة أخرى نقول نعم كانت هناك بعض المكاتبات
والعلاقات الودية بين المورسكيين فى بلنسية وبين المغاربة والأتراك ، وبين
هؤلاء مع الفرنسيين ، لكن المسألة لم تكن بالجسامة التي صورها مؤيدو
الطرد " ولم نفتتح بأن النصرى المحدثين (المورسكيين) فى بلنسية كان
لهم من القوة ، ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن ، كما أنه لم يكن ثمة
ما يثير المخاوف من جانب المورسكيين فى اراجون ومرسية . . . وكذلك

1- Lea : the Moriscos, P. 387.

وانظر : عن آثار نفى المورسكيين أيضا :

عنان : نهاية الأندلس ٤١٢ - ٤١٦ وقد تلا ذلك مجموعة نصوص من أقوال كبار المؤرخين توضح
موقف كل منها من هذا الإجراء وما تترتب عليه من آثار بين مؤيد ومعارض ، انظر ص ٤١٧-٤٣٢

لم يكن المورسكيون فى قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرّون عليه . . . إننا عندما لم نوفق إلى جعلهم نصارى واسبانيين . . . لجأنا بلا ضرورة إلى وسيلة افناء جيل برمته . متى ذكرنا ذلك فإننا لا نستطيع أن ننظر بعطف إلى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه ولا إلى حزمهم أو سياستهم " (١)

إن هذا الإجراء لم يكن له مبرر إلاّ إيثار فقر البلاد وتحطيمها وتخریب اقتصادها بل وإجاعة شعبها على رؤية هذه الفئة من الناس مصرة على إسلامها ، تأبى الإندماج فى مجتمع الأغلبية النصرانية المسيطرة ، بعد مرور أكثر من قرن على انتهاء الحكم الإسلامى فى شبه جزيرة ايبيريا كلها. فهم إما أن يكونوا كاثوليك وإما أن يغادروا البلاد حتى لو عانت تلك البلاد وخيم عليها القلق والكآبة وتأثرت كل جوانب الحياة فيها ، وكان السلطات الأسبانية تريد أن تقول " تؤثر البؤس والتأخر والشقاء على رؤية غير كاثوليكي على الأرض الأسبانية " .

وإذا كنا مقتنعين بوضع هؤلاء المسلمين المنصرين فى بلادهم ، ورأينا دورهم فى صنع نهضة وازدهار تلك البلاد ، فإن من حقنا أن نتساءل عن النشاطات التى مارسوها ، والمهن التى تخصصوا فيها ، والأعمال التى قاموا بها ، واستحقوا أن يكون لهم بها هذا الدور وتلك المكانة ؟ محاولة الإجابة على هذا التساؤل ، تعالج الصفحات التالية .

1- Modesto Lafuente : Historia general de España, Madrid, 1862, cap VIII, P. 211'-

الفصل السادس

ثروة ونشاطات ومهن

المسلمين المنصرين

يعتبر المسلم وفقا للرأى العام الذى يعكسه مؤرخو القرنين السادس عشر والسابع عشر ، مؤرخا ممتازا وفلكيا ماهرا ومعماريا عالما ، ومحاربا هماما وفارسا نبيلًا ، وربما يرجع ذلك الى عهد الخلافة ، وفى الواقع فإن الثقافة الأندلسية كانت أعلى فى مجموعها من ثقافة الممالك المسيحية وان كانت صورة المقاتل الشجاع ترجع - فيما يبدو - الى فترة متأخرة عندما انقلب الوضع ، فاصبح للمسيحيين ثقافة أعلى من ثقافة المملكة النصرىة فى غرناطة (١) .

وعندما انتهى الحكم الإسلامى من الاندلس ، بقى فيها بعض المسلمين ، وهم المورسكيون الذى كانوا لا ينتمون الى المجتمع الطبقي الذى يحيط بهم ، ليس لاسباب ايديولوجيه وسياسة ، ولكن لانهم ينفصلون عنه بفروق عضوية عميقة ولم يعد ه هناك مجال للحديث عن نبل ومجد الايام الزاهرة زمن الدول الاسلامية التى خلت ، فليس يوجد الان الاقلية فقيرة ، أما معظم المسلمين فقد تحول الى المسيحية ولو مظهريا ، وآثر آخرون الخروج من البلاد الاندلسية الى العدو المغربى ، ولم تكن هناك معايير للتفرقة الامعيار واحد هو مصادر الثروة و أنواع المهن ، وكان الاختلاف بين المسيحي القديم وبين المورسكى آختلافا جوهريا قويا ، وكانت الجماعة المورسكية شيئا واحدا رغم بعض الإختلافات الداخلية التى لايمكن انكارها .

وكل الكتاب يؤكدون كد المورسكيين واجتهادهم فى العمل ف "بدر دى ليون " يجمع أخبارا بعد فترة وجيزة من طرد المورسكيين الغرناطيين ، عقب ثورتهم الأولى ويقارن بينهم وبين السكان المسيحيين فى منطقة

1- Julio caro Baroja: Los Moriscos del reino de Granada, PP. 142' - 145'

وفىها يشير الى مجموعة من النصوص والمؤلفات والأعمال الأدبية التى تؤكد فكرته .

البشرات ، ويرى أن الآخرين تميزوا بالكسل وكانوا يعيشون بصعوبة رغم أن كل واحد منهم منح ثلاثة أو أربعة أضعاف المورسكى ، لقد تعود المورسكيون أن يقولوا : " عندما تشرق الشمس هناك وتنعكس على وجهى أخرج من منزلي الى الحقل ، وعندما أتى من هناك فإن الشمس تنعكس على قفائى ، ولست مثل المسيحيين القدامى الذين يعملون بلا رغبة " (١) .

فقط ب . " بليدا " يرمى المورسكيين بالكسل ، ويقول إنهم لا يصلحون للعمل فى الزراعة بدون رى ، وهم يعملون قليلا لأنهم لا يأكلون جيدا " ، اللهم إلا فى فترات معينة كان عليهم أن يقوموا فيها ببعض الأعمال العاجلة ، فكانوا عندئذ يعملون من ثلاث الى خمس ساعات يوميا ويقضون باقى اليوم مضطجعين فى الشمس (٢) . ورغم عداء هذا الدب الدومنيكانى ، إلا أن كلماته ربما كان لها ظل من الحقيقة ، فلم يكونوا مبرزين فى الزراعة التى لا تعتمد على مياه الرى لأنهم كانوا فلاحين (بستانيين) بالدرجة الأولى ، وكانت وجبتهم قليلة الغناء من حيث ما تحويه من سرعات حرارية ، ولكنهم كانوا من أكثر الناس جدا ونشاطا ، ومن ناحية أخرى فإن من يعنيه ذلك الراهب بكلماته هم المورسكيون البلنسيون ، وهؤلاء كانوا مضطهدين للغاية ، يظلمهم سادة الإقطاع غاية الظلم ثم لا يمدونهم إلا بالقدر القليل الضرورى من القوت . لقد أرسلت الأكاديمية الملكية فى بلنسية بيانا هاما للملك يتحدث عن بعض المورسكيين

1- P. pedro de leon : Vea se el extracto que di en crisis y decadencia de la España de los Austrais, PP.: 3'2 - 33'.

وكذلك

-- A. Dominguez ortiz: La historia, PP. 109, 110 y la nota N. 1 en la pagina 110'.

2- P. Bleda Jaime : Cronica de los moros de España, Valencia 1618'

وكذلك

-- A. Dominguez ortiz: la historia ... P. 110'

وضرورة أن يستمروا فى البلاد من أجل الحاجة اليهم فى الرى وتوزيع المياه وعمل السواقي وغيرهما مما لم يتدرب عليه المسيحيون القدامى ، كذلك من أجل صناعة السكر والآلات والحرير والكتان وجمع الزيتون وعمل الحلفاء ومساعدة العمال فى فهم أسرار بعض المهن (١) لقد كانوا طوال اليوم والليل يعملون فى أراضيهم ومزارعهم كادين من أجل الخبز والعسل والزبيب والتين ولم يهملوا فى العمل قط مهما كان السبب و لقد كان على المورسكيي فقط أن يعمل وكل ثمرة ونتاج عمله إنما يكون فقط لاتخام سيده وزيادة ثروته ، وعندما كان هؤلاء المورسكيون ملاك أراضيهم كما كان الحال فى غرناطة ، فإنهم كانوا يعملون بهمة وجد .

وصف السائح الألماني الذى طاف أسبانيا فى عهد الملكيين الكاثوليكيين المورسكيين فى غرناطة بأنهم أناس أقوياء ، متعودون على أشد الأعمال خشونة ، ويذكر من بين المهن الشائعة بينهم أنهم كانوا حدادين وبنائين ونجارين ومهتمين بصناعة الخزف ويأتين للخمر والزيت .. الخ (٢) ، وكانت هناك وفرة فى المصانع المورسكية ، كان ذلك يبدو فى الإحتفال ببعض الأعياد مثل عيد كاربوس " وهو العيد الذى كانت تحتفل به غرناطة فى مهابة كبيرة ، وكانت رايات الهيئات النقابية تظهر وفقا لترتيب معين ، تراعى فيه المهنة وليس الجنس أو الأصل فيظهر أولا صانعو الأسلحة وصانعو السكاكين ثم بعد ذلك الفنيون المتخصصون فى صناعة الحرير ثم التريزية ... ونجد فى مرسومات ١٥٥٢ أسماء ٧٤ حرفة هذه الحرف لا ينقصها - بالإضافة الى الأسماء العربية الوفيرة والطابع التكنيكي - الإشارة الى أعمال يتخصص فيها المسلمون وخاصة المغاربة

1- J. regla : Estudios ... PP. 66 y 67'.

2- Aznar cardona (Pedro) Fol. 34v. ذكره

-- J. Caro Baroja : los Moriscos, P. 218'.

منهم ، مثلا فيما يتعلق بحرفة التجارة نرى الإشارة الى تجارة الزخارف المفرغة المسبكة ، وفي فقرات أخرى نرى ذكرا لزخارف معمارية إسلامية ومسامير مورسكية ، ولم يكن هذا في العاصمة وحدها ، وإنما كانت تلك العناصر الفنية موجودة في القرى أيضا ويبدو أن الحياة رتبت خلال قرون بحيث يكون النشاط الإقتصادي محصورا في عدد من المهن ، موزعة على المدن والشوارع والميادين ، وبالإضافة الى النشاط الذي وجد في الشوارع والميادين ، وجدت محلات صغيرة على امتداد الضواحي ، كانت مملوكة لإناس فقراء ، إن صورة المورسكي البسيط صاحب الدكان الذي يبيع أشياء متواضعة القيمة ، تشببه ماتجده وأنت تتنقل بين الشوارع والأزقة في مدينة مغربية ، وكان هذا أمرا مألوفا حتى القرن الثامن عشر (١).

كما كان المورسكي الغرناطي مجدا ، كان المورسكيون كذلك في البلاد الأرجوانية التي كان سكانها منهم أو غلب فيها العنصر المورسكي وكان من الممكن أن يعيش ستون من المسلمين المنصرين في مكان لا يقيم فيه إلا خمسة عشر من المسيحيين القدماء ، لأن الأولين عمال مجدود وقانعون .

وهناك مؤرخ من " بلاسنيثا " يصف المورسكيين بأنهم يعملون في الزراعة ، وبعضهم ليست له تعاملات مع المسيحيين القدماء والبعض الآخر كانت له علاقات بالمسيحيين ، وهذا النوع الأخير هو الذي كان يمتلك أفضل محلات الأظعمة والبقالة أو كانوا يعملون في مهنة النقل وينقلون

1- J. Caro Baroja : Los Moriscos ... PP. 95 - 98'

وفيه تفصيل عن الحرف وترتيبها وذكر لما كان يباع في المحلات ، إعتادا على بعض المصادر الأدبية أنظر التعليقات بالصفحات المذكورة .

التجارات من مكان لآخر ، ويذكر ذلك المؤرخ أنهم كانوا يقومون ببعض المهن الآلية مثل صناعة الغلايات وأعمال الحدادة وصناعة النعال وصناعة الصابون (١) .

أما " إثنار كاردونا " فيتهمهم بأنهم يتخصصون فى الأعمال التى لا تحتاج الا الى مجهود قليل ، ويقدم أمثلة على ذلك بأنهم نساجون وخياطون ، وهم يصنعون الحبال من الحلفاء ويصنعون الأواني وهم جزمجية وأطباء بيطرة وفلاحون وتجار من الباطن (٢) ، ويلاحظ كازويارويخا " أن هذه المهن هى التى يشير اليها كتاب الحسبة فى سوق عربى ، لكنهم أيضا كانوا يعملون فى الأنشطة الأخرى التى لا بد منها فى مجتمع بشرى " فهم حافظوا على النشاطات التقليدية للوسط التجارى والصناعى المسلم فى العصر الوسيط ، كما نجده فى كتب الحسبة ، ويمكن ملاحظتها فى سوق مدينة قديمة بالشمال الأفريقى مثل تطوان مثلا (٣) .

وبعض هذه المهن نفسها مثل التجارة من الباطن والخياطة وصناعة الأحذية ، كانت مهنا تقليدية عند اليهود كذلك وعند من تحول منهم الى المسيحية ، لقد كانوا يمارسون ذلك بالإضافة الى مهن أخرى مثل الإدارة والسمسرة والصرافة وتجارة الكتب والطباعة وكانت مهنة الطب حكرا عليهم تقريبا ، ونادرا ما كانوا يعملون فى زراعة الأرض ، لهذا لم يوصفوا بالكسل ، فهم كانوا يتجنبون المهن التى كانت تتطلب مجهودا

1- Alonso Fernandez : Anales de plasencia, libro III Capitulo 25'.

A. Doming ortiz : La Historia ... P. 110'

2- Aznar cardona. obra citada , Folio 53'

3- J. Caro Baroja : Los Moriscos ... PP. 218, 219'.

جسمانيا على عكس المورسكيين الذين كانوا يبذلون كثيرا من الجهد والعرق (١) .

تؤكد الدراسات والبحوث الحديثة المعلومات السابقة وتعمقها ، وليس من الممكن أن نتكلم عن المورسكيين باعتبارهم كلا متجانسا ، لا فى هذا الجانب ولا فى غيره من الجوانب ، فهناك اختلافات إقليمية ومحلية مهمة ، فالمورسكيون المبعدون من مملكة غرناطة ، من الطبيعى أن تخصص نسبة كبيرة مهم للتجارة والنقل ، لأنه كان من الصعب عليهم أن يعملوا فى الأرض ، على العكس من أقاليم أخرى خاصة بلنسية ومرسية وأرجون على وجه التحديد حيث كانوا يشكلون أغلبية كثيفة بين السكان إننا نجدهم - بالإضافة الى السيطرة البارزة - يعملون فى كل المهن الضرورية للحياة الإجتماعية ، وقد لاحظ بعض الباحثين أنه يوجد بين المسلمين المنصرين فى سرقسطة ، ليس فقط بنائين ونجارين وحدادين ... الخ بل وصانعى سيوف ، وتلك كانت المهنة التقليدية للمسيحيين القدامى على الأقل فى قشتالة (٢) ، ولم تشر الإحصائيات التى أجريت للمورسكيين فى القرن السادس عشر الى مهنتهم دائما ، وعندما تفعل فإنها تبرز نسبة كبيرة منهم باعتبارهم مزارعين ، وبينهم عدد من العمال الخدم وكثير من الحرفيين (٣) .

1- Cronoca de los reys catolicos, capitulo 112'

-- A. Dominguez ortiz : los Moriscos, P. 111'

2- Judcoconvertos, en España y America, 232'

3- Garcis A renal : Los Moriscos de cuerca y la inquisicion, tesis inedita, Madrid 1974'.

- Le flem : Los Moriscos en el noroest de España

ذكرها جميعا

-- A. Dominguez ortiz : los Moriscos, P. 111'

ولم يكن المورسكي بصفة عامة صيادا ولا راعيا ، ولا يبدو أنه استفاد من الجبل فى العمل حطابا أو فحاما ، ولكنه نال شهرة كبيرة باعتباره مزارعا ، ويعتبر فى هذا النشاط أعلى من المسيحي القديم بكثير. يقول "نابا خيرو" فى وصفه لغرناطة ان المورسكيين كانوا يقلون باضطراد ، وكانو يمتلكون الاراضى الصالحة للزراعة جيدة التربة ، المليئة بالاشجار المتنوعة ويؤكد " داروكا " ان البساتين المزروعة هى صرح يمتلكه المسلمون ، وقد رأيت فى نواح كثيره من اسبانيا ان هؤلاء الناس يميلون الى الزرع والغرس أكثر من أى شئ آخر (١) ، ويقول مؤرخو الزراعة إن الازدهار الذى حمله العرب الى اسبانيا يتمثل فى زراعه الاراضى ، فالمسحجون يزرعون الاراضى التى لا تعتمد على مياه الرى ، ويوزعون البذور على مساحات شاسعه من الاراضى بينما يهتم المسلمون بزراعه ضياع تعتمد على الرى بها بساتين متنوعه ومحاصيل مختلفه من تلك التى تتوافر فى حوض البحر الابيض المتوسط ، مثلا يتكلم "فراى ماركوس" عن منطقته "ريكوتى" من اقليم مرسية وسكانه جميعا من المورسكيين فيقول " إن هذا المكان يحتوى على كميات هائلة من الليمون والبرتقال وكل أصناف الحمضيات ، لكنه مجذب فى القمح ونحوه مما هو ضرورى للحياه " ويؤكد آخر " أن اراضى مرسية كانت من أفضل ما وجد فى اسبانيا (٢) وكان بين

1- Navajero (Andres) Viaje a España del Magnífico señor A ... N embajador de la republica de venecia ante el embrador carlos V valencia 1951'.

-- J. caro Baroja : La Historia ... P. 98 y la Nota 83 en la misma pagina

2- Fray Marcos de Guada la jara : Prodicion y destierro de los Moriscos de castilla hasta el valle de Ricote ... fol . 61 v

-- J. C. Baroja. los Moriscos, P. 99' ذكره

ويذكر نفس المؤلف التعليق رقم ٩٩ ص ١٠٠ أسماء بعض الحدائق المورسكية .

المورسكيين من يمتلك طواحين زيت وطواحين قمح وأفران ومحلات وفنادق ويقدم المؤرخ المسلم " الرازى " وصفا لمنتجات غرناطة فيقول أنهم كانوا ينتجون كل الفواكه ابتداء من البرتقال وأنتهاء بالجوز واللوز ومرورا بالرمان وكانت الاماكن العالية غنية بأشجار فواكه مثل الكمثرى والتفاح والجوز وأبى الفرو ، أما الاماكن المتوسطة الارتفاع فكان يزرع فيها البرتقال والليمون ، والاترنج ، وكان قصب السكر يتوفر فى الأراضى المنخفضة ، كما كانت توجد مصانع تكرير السكر فى المناطق التى تنتشر فيها تلك الزراعه ، وهكذا نرى أن كفاءة المورسكيين باعتبارهم رجال أو خبراء زراعه أمر مجمع عليه (١) ويذكر "الوقادو دى مندوثا " أن أهل البشرات لم يتركوا فراغا بدون زراعه ، وكان أسلوبيهم يعتمد على تقسيم الأراضى الى أخاديد مدرجة ، ترويه قنوات منظمه وكانت قنوات الرى مشهوره بصفه خاصه فى مقاطعات : أوريغيفا ، وفييريرا وبوكيريا" حيث كان يكثر القمح والشعير والسلت وغيرها مما تقوم زراعته على الرى ، وكانت مقاطعة انداركس " أفضل أراضى منطقة البشرات حيث كان يعتنى المورسكيون بجمع المحاصيل والاحتفاظ بها فى صوامع تحت الارض ، والى جانب ذلك عنى المسلمون بزراعه شجره الحناء ، كماعنوا بزراعه شجرة التوت لإطعام القز والاستفاده بها فى صناعة الحرير ، خاصه فى منطقة البشرات وبعض نواحي الجنوب ، وكانت "غرناطه " هى المركز الصناعى والتجارى لكل ما

١- أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، وصف الأندلس :

Al - Razi P. 37 de la edición de Gayangos, Madrid 1852'

J. C. Baroja : abro citada, P. 110'.

يتعلق بالحرير ، وكان بها فى زمن بنى نصر سوق مركزى للحرير يعقد فى مبنى اسمه " القيصويه " ، ويحضره رجال من بلدان كثيرة ، وكانت تباع فيه ، بالاضافة الى الحرير الخام والمنسوجات الحريرية ، الأقمشه وضافتر الحرير والمشغولات الذهبية والكتان ، وكانت بضائع هذا السوق تصل الى الصحراء والى ضفاف نهر" النيجر" حسب وثائق ترجع الى القرن الخامس عشر ، وكان بعض التجار يحملون مواد هذا السوق ويستبدلونها بعبيد سود يجلبونهم الي غرناطه ، ومعظم سكان غرناطه فى بداية القرن السابع عشر كانوا يلبسون حلا من الحرير ، وكان اللون الاسمر مخصصا للرجال ، والألوان الزاهيه للنساء ، ويؤكد " بعض المؤرخين "أنه كان هناك حوالي ٣٠٠٠ تاجر مهتمون بتجارة الحرير فى حدود سنه ١٦١٤ (١) فتخصص المورسكى اكثر فى زراعه الأراضي والبساتين أصبح أمراطوقا علي كل لسان ، وكان معروفا أكثر فى الزراعة التي تعتمد علي الري حيث يتطلب الأمر عملا ومهارة وصبرا ، ومن الممكن أن يكون أسلوب الزراعة اعتمادا على الري قد عرف فى اسبانيا منذ القديم ، لكن هذا لا ينفي أمرا هاما وهو أن الكلمات الفنيه المستخدمه فى الري من أصل عربى ، وكثير من النباتات المزروعة ، وبعضها مهم ، مثل الأرز ،والبرتقال وقصب السكر من أصل عربى ولا بد أن نضع فى الاعتبار أمرا آخر مهم هو حاجة هذا الشعب المورسكى الى ممارسة زراعة مركزة يمكن الاعتماد عليها فى مواجهة احتياجات شعب كثيف ، والحاجه الى ممارسة

١- عن هذا الموضوع أنظر :

Julio caro Baroja : Los Moriscos ... PP. 100 - 115'.

وما عنده من مصادر

استثمار اقتصادى يجعلهم يستخرجون أقصى محصول من الأرض ، وقد مارس السكان المورسكيون فسى " أراجوان " ، جميعا تقريبا ، الزراعة اعتمادا على الرى فى غوطات "نهر الإيرو " وراوا فده . وفى بلنسية لوحظ أن السكان المسحيين يسيطرون على البساتين فى المناطق الشرقية ، وإن كان لهذه القاعده استثناءات بعضها مهم ، لكن الشىء الجدير بالإبراز هو أن المورسكيين فى المناطق الجبلية قد إستفادوا من الجداول والحفر والفتحات ، وصنعوا مناجم تشبه مثيلتها البربرية ، للحصول على مياه يستفاد بها فى رى المنخفضات والأخاديد فى الحقول .

وسبب توزع المورسكين الغرناطين ، حاولت بعض الشخصيات والجماعات الاستفاده بخبرتهم وطاقاتهم باعتبارهم بستانيون وفلاحون جيدون ، وعندنا طلب تقدم به واحد من النبلاء يطلب من السلطات التصريح له باستقبال ٥٠ مورسكيا من غرناطة ، لمساعدته فى صرف المياه وزراعة البساتين الكبيرة والكثيرة التى غمرتها وأفسدتها المياه ، وقد أجاب المجلس المختص بأنه يبدو انه فى الامكان السماح بقبول ٣٠ منرلا مورسكيا مادامت هذه رغبتة الدوق وينبغى أن تخصص لهم أماكن فى منطقة معينته حتى يمكن إزاحتهم من هناك اذا ظهر عدم ملاءمتهم للبيئة الجديدة ، وقد وافق الملك على ذلك (١)

وفى ١١ مايو سنة ١٦١٠ أرسل المجلس الملكى فى بلنسية بياناً للملك يتعلق بحوالى ٧٠٠ مورسكيا بقوا فى البنلاد ، وقد شرح ا لبيان الضرورة الملحة لوجود هؤلاء من أجل الرى وتوزيع المياه

1- Archivo Historico Nacional : Consejos, leg 4414 No. 64'

A. Dominguez ortiz : La Historia ... P. 11'

ذکره :

والسواقي فى الاماكن التى يعيشون فيها ، وإعطاء ضوء للأشياء التى لايعرفها المسيحيون القدماء ، كذلك من أجل صناعة السكر والأرز والحريير واعداد الكتان وجمع الزيتون وعمل الحلفاء ، ومن أجل مساعدة العمال فى كل هذه الأشياء وفى فهم أسرار الصناعات التى تحتاجها المملكة ... لقد كانوا طوال اليوم والليل كادين فى أراضيهم ومزارعهم ، فقط من أجل توفير الخبز والعسل والزبيب أو التين ، ولم يهتموا بالعمل قط لأى سبب كان ، وقد طلب مجلس بلنسية الموافقة على بقاء هؤلاء على أن يكونوا عبيدا .. (١)

ولم يكن المورسكي فى بلنسية يعمل باعتباره مزارعا فحسب ، بل عمل - كما يذكر «توليوهاالبيرن» حارسا وخفيرا فى المزارع لحمايتها من النهابين والرعاة ، ويؤكد المؤرخ المذكور أن المورسكيين الذين لم يتركوا أراضي ، أو كانت لديهم قطع منها غير كافية ، فإنهم كانوا يؤجرون سواعدهم التى كانت أرخص من سواعدهم غيرهم ، ولعل هذا يفسر تصفيق الشعب فى بلنسية لقرار طرد المورسكيين بينما خشى من هذا الأمر البرجوازيون وسادة الاقطاع (٢) .

وقد بادت زراعة الارز فى «بلنسية» بسبب طرد المورسكيين وبسبب حمى الملاريا التى أعقبت ذلك ولم يتح لها أن تزدهر من جديد إلا فى القرن الثامن عشر عندما اشتدت الكثافة السكانية . وأيضا عانت كثيرا زراعة قصب السكر - المحصول التقليدى للمورسكيين - فى منخفضات وسلاسل جبال «سيرامورنيا» وفى بعض مناطق الرى بشرقى البلاد ، وقد بقيت هذه الزراعة حتى اليوم فى منطقة الجبال ، واختفت من المناطق الاخرى تماما ، السبب الرئيسى فى ذلك هو غياب الأيدى العاملة المجرية والقانعة ،

(1) regla ; Estudios sobre los Morissos, P.66 ;

(١) انظر

(2) Halperin dongui, tulio : un conflicto nacional : : Moriscos

y cristianos viejos en valencia . Cuadernos de H.de Eapans , buenos

Aires XXIII, XXIV, 1955, PP.5-115 Y XXV-XXVI, 1957, PP.83-250

A.Dominguez ortiz : la historiap. 112 وانظر

بالإضافة إلى أسباب أخرى لها صلة بالمناخ أو العوامل الاقتصادية ، لقد انقضت فترة كان المورسيكون يذهبون خلالها من «جاندي» وحتى حقول «تاراجونا» لحصد المحصول ، وقد وصل فشل الزراعة إلى أقصى مداه بسبب غياب العنصر المورسكي .

إن النتائج الطيبة التي كانت تأتي من العناية بدودة القز كانت مقصورة على المورسكيين ، وعندما نفى الغرناطيون ، ومنعوا من تغيير محل إقامتهم ، فإن الكثيرين منهم برغم ذلك قد منحوا تصاريح للهجرة مؤقتا إلى مرسية للقيام بهذه الأعمال . نفس الشيء بالنسبة لغرناطة وبلنسية ؛ فقد كان نفى المسلمين المنصرين معلما على التأخر ، ولم تنقطع استمرارية زراعة ذلك المحصول ، بفضل من بقى من المورسكيين ، بالإضافة إلى اسهام ملاك الأراضي ، وبفضل معاونة بعض المسيحيين القدامى الذين كانوا مبتدئين في هذا النوع من الاستثمار .

وربما كان المورسكي في «أراجون» مزارعا جيدا في الأراضي التي تعتمد في زراعتها على الري أكثر منه في أية منطقة أخرى ، وإن وجدنا ذلك خارج الغوطات ، ولكنهم لم يتمكنوا في هذا الاقليم من زراعة كثير من الأنواع التي يسمح بها المناخ المتميز في بلنسية ومرسية .

وقد برهن بعض الباحثين على أن زراعة القمح كانت هي السائدة في ريف «طاراذونا» وقدم بعض الملحوظات التي لا تخلو من فائدة ، فبعد سنة ١٦١٠ لم تختلف قنوات الري ولكنها تلفت ، وقد أظهر الفلاحون الذين لا يعتمدون على الري والرعاة ، مهارة ومقدرة على استيعاب الأوضاع الجديدة المختلفة تماما عما عرفوه ، فهل كانوا تلاميذ لامعين للمورسكيين القلائل الذين بقوا بعد الطرد وتعلموا منهم ؟ أم أن التفاهم بين العنصرين كانت أعمق مما يظن ؟ أم أن المسحيين القدامى تعلموا من جيرانهم المورسكيين بعد فترة أسرار فن الري ، وعلموه بدورهم تعلمن وصلوا حديثا ؟

اننا أمام اسئلة لانستطيع أن نعثر لها على إجابة الآن ، ومع ذلك فهناك شئ يبدو مؤكدا هو أن استرداد الوضع المزدهر ، ومستوي الاستيعاب كان بطيئا ولم يكن كاملا ، ولم يكن بالامكان الوصول إلى المستوي الفني العالي والمحصولات الزراعية المورسكية الممتازة اللهم إلا في ظل الثورة العلمية خلال القرن العشرين ، وفي ظل أوضاع مختلفة(١) وقد طلب النواب من مرسية إلغاء قرار نفي المورسكيين وبرروا ذلك بقولهم «حتى لائرى الفنون وقد تركت والزراعة وقد فقدت (٢)

وكان العمال المورسيكون قلة في قشتالة والاندلس - بعد طرد الغرناطين - اذا قارناهم بغيرهم ، لم يكونوا مجموعات كثيفة ، ولم تكن القوة الجسمانية هي الوسيلة المناسبة لزراعة البساتين التي توجد بكثرة أكثر مما كان يوجد في مناطق أخرى كبيرة مثل بلد الوليد مثلا . وفي هذه الاقاليم كان المؤلف ان يعمل المورسكى أجيرا بسيطا بالمياومة ، وكان فلاحا قويا . يتحدث «خوليو كاروباروخا» عن المورسكيين في وادي «اونانشو» - نقلا عن «سالزاردى مندوثا»(٣) فيقول «انهم يعيشون مكونين جمهورية خاصة ، ولهم علاقاتهم بالغرناطين المقيمين في طليطلة ، ولهم في هذا الوادي الف منزل ، وهناك مناطق في محافظة "ليون" كل سكانها من المورسكيين المحافظين على عقيدة الاسلام منذ تعميدهم في عهد الملكيين الكاثوليكين ، وهم يختنون أولادهم ويحاولون اقناع المفتشين أنهم ولدوا هكذا ، كما يخبرون القساوسة بأنهم ولدوا هكذا ، إنهم يتصرفون كجمهورية مستقلة ، ولهم مجلس دولة خاص بهم ويضربون عملة تخصهم وحدهم ،

(1) P. Ponsot : les Morisques , la culture irriguée Du blé et le problém de la secadencé l'agricultare espagno le au XVII siecle ("Melanges de la casa de velazquez" tomo-VII)

A. Dominguez ortez : la historia ... P. 114 : وانظر :

(2) J. regla : Estudios sobre los Moriscos : P 104 نقلا عن

Janer : Condicion Social, P.167

(3) Solzar de Mendoza (pedro) : Origen de las dignidades seglares de castilla y léon .. lib. 4 cop v. Parrafo vi

وكانوا يعملون فى النقل بالبغال ويعرفون الطرق ويستخدمونها بسهولة ولهم دراية بكل شئ داخل وخارج اسبانيا ، وكانت لهم مراسلات ومبعوثون الى الترك والى المسلمين .

وعندما جاء المورسكيون من غرناطة الى طليطلة قامت بينهم جميعا رابطة وصداقة حميمة والتقوا فى مستعمرات خاصة بهم اسموها «مورونو Morouno» أقاموها فى الطريق من طليطلة الى «أورناشوس» بين الجبال والغابات ، وإذا كان هذا يحدث مع من يعيشون فى «استريما دورا» داخل اسبانيا ، فماذا نقول بالنسبة لمن عاشوا على الشاطئ ، وكانوا يذهبون ويعودون من وإلى الجزائر وغيرها يوميا ، فيعاملون معاملة الجيران ؟

ويقول نفس المؤلف نقلا عن البطريرك لقد رأيت فى الأندلس سكانا كثيرين ، انخفضت أعدادهم بشكل ملحوظ فى بعض الاماكن ، وسمعت انه تنقصهم أشياء كثيرة ، ونفس الشئ حدث فى قشتاله ، وليس لذلك من سبب سوى أنهم اشتغلوا الاشياء الآلية ، وكانوا عمالا بالمياومة وتجارا جيدين ، عاملوا الناس معاملة طيبة فى البيع والشراء ، وكانت أسعار أعمالهم أقل من أسعار المسيحيين القدامى (١) .

وينقل نفسه عن «كوك» فى كتابه عن العلاقات ، انه أشار إلى قرية مويل Muel وتحدث عن طريقة أو اسلوب صناعتهم للخزف (للمصنوعات الفخارية) التى تعكس زخارف طبيعية ، ويضيف أنهم قالوا له (أى لكوك) ان هذه القرية لم يكن فيها من المسيحيين القدامى الا ثلاثة : القيس والموثق والخمار وهو نفسه صاب فندق (٢) .

وأعمال المورسكيين هذه بدت بوضوح فى احصاء أجرى سنة ١٥٩٤ ،

(1) Marcos de Guadalajara, Memorable expulsion .. Folio 84 r 84 v

(2) Cock (H) : relaciones del viaje Hecho por Felipe 11 en 1585 a zaragoza , Barcelona y valencia .. Madrid 1876, P. 31

انظر النصوص الثلاثة السابقة ذكرها عند

J. caro Baroja : los Moriscos, P. 214 Nota 39 Y40 Y P. 224

على التالى

وقام بتحليله «جارتيا ارنال» وتبين منه انه كان يوجد فى مكان ما بقشتالة ٢٢ أجيروا من الفلاحين وعمال اليومية ، وأحد عشر فلاحا فى مناطق تعتمد فى زراعتها على الرى ، وثمانية عمال فى مناطق زراعية لاتعتمد على الرى ، ووجد فى مكان آخر مالك دكان واحد ، وأربعة من المزارعين ، وثلاثة وعشرون أجيروا (١) .

ومن حسن الحظ أنه يوجد مرسوم أصدرته بعض السلطات يعود تاريخه سنة ١٤٦٥ ، وقد استمر سارى المفعول حتى مشارف العصر الحديث، وهذا المرسوم يمنع المورسكيين من زراعة أكثر من «فانيجا» Fanega واحدة من البقول . وهى وحدة قياسية تعادل أكثر من ٣ هيكتار لأن هذا يتسبب فى نقص أراضى المواطنين اللازم زراعتها حبويا . إن هذا يمثل واحدا من المرسومات المماثلة التى كان هدفها تحديد أو تصعيب اقتناء المسلمين المنصرين أو المورسكيين للأراضى ، ويبدو هذا الامر واضحا فى الاتدلس الغربى ، لأنها أرض يسيطر عليها أصحاب المزارع الواسعة للغاية ، ومن هنا كان من الصعب على المورسكيين الحصول على أراضٍ خاصة ، بل ان دورهم باعتبارهم عمال مياومة كان جشعيا للغاية . فى مقال «بونسوت» المذكور آنفا - وهو المرجع الأساسى لهذا الموضوع - نجده يقرر مايلى : «لم يذكر أحد أننا نعرف أن عمال اليومية من المورسكيين ، كانت لهم السيطرة بين العاملين ، لقد كون هؤلاء أقلية قليلة من بين جماهير الاجراء الذين شكلوا أغلبية بين السكان الفلاحين فى جنوب ووسط المملكة ، أما فى الضيعات والاملاك بالاتدلس الغربى فقد كان وجود العمال المورسكيين قليلا وفقا لما توصلت اليه بحوثنا» (٢) . وهذا لا يمنع من انه كان لهؤلاء وجود ، يدل على ذلك ماكتبه بعض المسئولين حول وجود ١٢٩ مورسكى كانوا موجودين هناك قبيل نفى الموسكيين يقول «كل هؤلاء الناس مساكين ، وهم جيدون ، يستأجرون باليومية للعمل فى الحقل ، ومع كل هذا البؤس ،

(1) A. Dominguez ortiz : la historia ... P. 114

(2) A. Dominguez ortiz : Historia , ... P. 115

لا يفكر واحد منهم ان يثبت ذاته ، ومعظمهم لا يخرج ن منزله « وعلى كل حال فالفلاح المورسكى التقليدى كان مستأجرا أو مالكا بسيطا (١) .

وكان المورسكيون كثرة فى قرى كثيرة من «استريما دورا» ، كما كانوا كل السكان تقريبا فى «اورناتشو» لقد كانوا عمالا فى الأراضى التى لاتعتمد فى زراعتها على الرى ، دون أن يفقدوا مع ذلك ميلهم للعمل فى زراعة الرى التقليدية التى تسمح بها مقدرتهم الجسمانية ، وكانت «استريما دورا» عندئذ اقليم مقل جدا فى الزراعة اعتمادا على الرى . كتب مؤرخ بلاستيا - الفونسوفيرناندث - بعد الطرد بقليل «أنهم يكرسون جهودهم فى الزراعة ويتقنونها إلى أقصى درجة من الكمال على الصورة التى نراها الآن مستخدمة على ضفة نهر «خيرتى» ، هذه المجموعة من الفلاحين يرجع قدمهم بالمدينة إلى قدم المدينة نفسها ، وهم يشكلون مجلسا اداريا يحكم بمقتضى لوائح «الجارابيداس» القديمة التى كان معمولا بها فى ٣١ اغسطس ١٥٥٠ بالنسبة لكل الفلاحين ، وكانوا يقولون : حيث أننا لانستطيع التفاهم لا من خلال اللغة ولانلتقى فى التعامل أو فى اسلوب الحياة الذى نتعامل به اليوم ، ولايمكننا الاستفادة من هذا كله : لانه قديم ، فاننا نوافق على تبنى قوانين ولوائح أخرى» (٢) .

وهكذا يمكن أن يعد المورسكيون شعبا قرويا فلاحا ، ويمكن أن يعدوا كذلك حرفيين أكثر مما يعد المسيحيون القدماء ، يفهم هذا من الاشارات العديدة للحرف والمهن التى مارسوها ، ويبدو هذا واضحا فى الإحصاءات والسجلات حتى تم اكتشافها . وقد ذكر «الونسوفيرناندث» المشار إليه فيما مضى أنهم كانوا يزرعون الأراضى التى تعتمد على الرى ، ولكنه يتوسع أكثر فينص على حرف أخرى مارسها هؤلاء «فبعضهم» يعمل فى التجارة ولديهم محلات فى أفضل المواقع بالمدن والضواحي ، تقدم المواد الغذائية ،

(1) Biblioteca nacional . Ms . 9577 Fol . 208

ذكره المرجع السابق ص ١١٥

(2) V. paredes Guillen : los zuniga, senores de plasencia

وانظر أيضا انطونيو دومنجهث أورتيث : نفس المرجع والموضع السابق (1903) 132 - 138 (cacere)

وعن محكمة الرى وأسلوب عملها انظر محمد عبدالله عنان : اندلسيات ص١٩٤ - ٢٠٠ نشر

الكويت ١٩٨٨ .

ومهم من يعمل فى حرف آلية مثل صناعة الغلايات ، ومنهم الحدادون وصانعو النعال وصانعو الصابون ومن يستخدم البغال فى النقل ، ومعظمهم يعيش من كديده» (١) ، ويمكننا أن نقول أن الفلاحة وصناعة السلال والأشياء الأخرى المصنوعة من الجريد ، وكذلك التجول للتجارة وبيع التين الجاف والزبيب والجوز والعسل والدبس والحلوى التى تعد للأطفال والفواكه وعمل الطين وصنع الطين اللين ودهان المنازل بالجير ، وعمل الجص وبيع الزيتون والخبز المحمص ، كل هذه أنشطة مورسكية .

ويقدم شعراء الفكاكة صورة عن المرأة المورسكية على أنها فقيرة بائعة متجولة يحيط بها اللباس الحرمي وتغطيها الأقمشة ، وتعيش فى حياء تبيع المناديل والحمضيات والمشروبات والمياه والتين والصابون فى شوارع غرناطة ، وفى المدن الأخرى بالوسط والمغرب الاسباني (٢). يقدم «لى فليم» فى دراسته عن المورسكيين فى شمال غربى اسبانيا بعض البيانات المستمدة من احصاء سنة ١٥٩٤ فيقول :

إن أنشطتهم كانت الصناعات التقليدية وزراعة الأراضى والتجارة البسيطة ووظائف الخدم ، وكان بين الحرفيين كثيرون ممن عملوا فى صناعة الجلود أو صناعة الخشب والخزف والحديد ، وكان بينهم عدد قليل من عمال النسيج (٣) . أما الأنشطة الثانوية وأنشطة الدرجة الثالثة فقد كانت متنوعة ، وحيث أنهم كانوا يمثلون جمهرة بين السكان ، فقد كان من الأمور المحتمية أن يوجهوا عنايتهم نحو الأنشطة التى لا يهد منها للحياة الانسانية، ولقد كانوا أقلية ، ومع ذلك كانوا موضع تقدير ، لأستاذيتهم التقليدية فى قطاعات معينة ، وقد أعطى تشتت المورسكيين الغرناطين - عقب أحداث الثورة الغرناطية - دفعة قوية لهذا النوع من الأعمال ، لأن عددا قليلا منهم فقط هم الذين أمكنهم الحصول على أراض زراعية ، أما الكثيرون ممن كانوا

(1) obra citada , libro 6 3 capitulo 25 .

(2) J. caro Baroja : los Moriscos, Pp. 145, 146.

ويذكر فى التعليقات بعض الاشعار الرومانسية التى تؤكد الحقائق المذكورة .

(3) le flem . les morisques du nord-ouest de L'Espagne ...

يعملون منذ القديم فى فلاحه الاراضى ورياعتها فقد اتجهوا إلى العمل فى نشاطات أخرى كانت مطلوبة فى قشتالة ، وبسبب قلة الأيدى العاملة ، ولأن المورسكيين من الناحية الاجتماعية لم يكونوا موضع تقدير ، فإن هذا كان سببا فى جذب الأيدى العاملة الأجنبية ، ولقد حدثت بعض الشكاوى ، لكنها كانت بدافع من الكراهية العمياء أو بسبب الخشية من المنافسة والرغبة فى توفر أيدى عاملة زراعية رخيصة ، وهذا هو السبب الذى يجب ان ترد إليه كل الطلبات المقدمة إلى برلمان قشتالة . ملتزمة أن يترك المورسكيون العقود والصفقات والحرف ، وأن يتخصصوا فى الزراعة وحدها (١) .

ويربط «فراى ماركوس» بين تدهور وخراب المدن القشتالية ووصول المورسكيين الغرناطيين ، لأن هؤلاء استولوا على كل الحرف اليدوية وكل التجارة ، وعلى خدمات العمالة والنظافة فى نفس الوقت . وكل هذا قاموا به بمنتهى اليسر ، لانهم زاهدون وبخلاء ، لا يأكلون ولا يشربون ولا يكتسون(٢) .

وقد كان الاعتقاد فى نقاء الدم ، الذى تأخذ به اللوائح النقاوية ، عائقا أمام المورسكيين ، ان هذا الاعتقاد لا يمنع استقبال اعضاء السلالات الاجتماعية الأدنى باعتبارهم أساتذة معلمين فحسب ، بل ويمنع انضمامهم باعتبارهم تلامذة أو موظفين ، ولم يكن الملوك من مؤيدى هذه السياسة بل كانوا يجندون فكرة اندماج الاجناس ، ويكفى أن نشير إلى المرسوم الملكي الصادر سنة ١٥٠٢ بتعيين «فرنسيسكو ايرنانديث» الذى تحول إلى المسيحية- معلما أكبر للتصور الملكية ولدور الصناعات فى اشبيلية (٣) أو الفقرة من المرسوم الخاص بالمورسكيين المبعدين من غرناطة سنة ١٥٧٢ والتى نص فيها على أن المورسكيين الذين كانوا يعملون فى بيوت المسيحيين القدامى ، تدفع لهم رواتبهم (٣) .

(1) A. Dominguez ortiz : la historia ... P. 116

(2) J. caro Baroj : los Moriscos ... P. 219 انظر :

(3) Archivo general de simancas . Diversos de castella, 42 - 6 .

A.Domingue ortiz : obra citada , P. 116 وكذلك

هذا المرسوم كان مهما في مواجهة الاجحاف العظيم الذى طبع القرن السادس عشر بسبب الرغبة فى التوصل إلى نقاء الدم وشرف المهنة ، وليس ممكنا ان يعادل نقاء الدم عند الطبقات الأخرى ماكان يوجد من نقاء لدى الطبقات العليا ، لقد كانت هناك رغبة فى التوصل إلى الشرف وكان هذا هو طابع اسبانيا فى العصر الذهبى ، واذا كانت طليطلة هى القاعدة الأساسية للكفاح من أجل نقاء الدم ، فان مدنا مثل أشبيلية وبلنسية ، حيث كان يوجد عبيد كثيرون ومورسكيون فى نفس الوقت ، قد أدخلت قيودا ضد النوعين المذكورين فى المراسيم النقابية ، بحيث يحال بينهم وبين العضوية النقابية ، على الأقل فى نقابات المهن التى تحاول المحافظة على مراتب اجتماعية عالية مثل الصيدلة والصاغة وسماسة البورصة ، وفى بعض الحرف مثل ترزية السيدات ، فان من ينضم إليها يجب أن يكون له على الأقل درجة شهرة متحول إلى المسيحية ، وهذا أدى إلى رد فعل يتمثل فى الرغبة فى نقاء الدم . نفس الشئ يمكن أن يقال بالنسبة لمحترفى التجارة الذين كان يطلب منهم أن يعتمدوا فى عملهم على فن المودخر التقليدى ، وتحتم الرسومات الأشبيلية على معلمى التجارة الذين لديهم أعمال رسمية أن يكونوا على الأقل مسيحيين او من سلالة مسيحيين أنقياء ، ومع ذلك فإنه بعد فترة من بدء القرن السادس عشر ، وجدت نجارة الخشب الأبيض التى تركت طابعها على هؤلاء الفنانين الصناع الذين تجنبوا أى احتكاك عنصرى فى الفن ، وواصلوا حفر الأبواب والأسقف بالطريقة الفنية المورسكية ، ووفقا للقواعد الموروثة عن الخبير المسلم (١) .

فى بلنسية ، وصل شبح المبعدين من النقابات المختلفة مدى واسعا جدا : المورسكيون ، والسود والعبيد ، الذين مثلوا أمام محاكم التفتيش ، حتى اللقطاء ، كل هؤلاء حرموا من الدخول فى نقابات ليست عالية الشهرة مثل نقابة المتجدين ، وكانت المبررات من النوع الذى أدلى به بعض أعضاء

(1) Ordenazas de seville , 2 part , título 1 ano 1632
A.Dominguez ortiz : historia .. P. 116 انظر أيضا

نقابة الجزمجية عندما رفضوا قبول التلاميذ السود لسنة ١٥٩٧ لتجنب الأضرار التي يمكن أن تنشأ بين أعضاء هذه النقابة وبين هؤلاء التلاميذ ، وبسبب الفضائح والآلام التي تحدث للشعب عندما يشاهد الناس عبداً سوداً أو مسلماً في المراكب الدينية والعامّة والاحتفالات الجماهيرية . إنه قد تحدث ضجة عند رؤية هؤلاء ، وقد أختلطوا بالشخصيات العامّة حسنة الملبس والمظهر . (١)

في القرن السابع عشر ، عمّت هذه الأوضاع في كثير من النقابات وتمثّلت في صورة ضريبة عن شرف جماعي يعتبر مرضاً نفسياً اسمه نقاء الدم ، ولكن فاعلية ذلك لن تكون كبيرة ؛ لأن تطبيق ذلك بصورة صارمة كان أمراً صعباً ومكلفاً . وقد كان الانتاج الفني والصناعي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر بأيدي المورسكيين في معظمه ، وقد أثبت هذا علامة أشبيلي من خلال مجموعة كبيرة من الوثائق العامّة والخاصة . يقول أنه «من خلال قراءتها توصل الى نتيجة هي أن المورسكيين كانوا هم الفخارون (رجال الخزف) الذين كانوا يسكنون أحياء أشبيلية تحت قناع أسماء مسيحية ، وهم أيضاً الذين كانوا يقيمون في مساكن فقيرة وينتجون أقمشة غنية وجلوداً محفورة ، وأعمالاً فنية من معدن النحاس او الفضة وأسلحة وأطقم للخيل وأشياء أخرى مما يدخل في نطاق البذخ ... ان سجلات التعميد في كنيسة «سانتا آنا» في القرن السادس عشر ، تقدم لنا معلومات غنية عن نوعية سكان إحدى الضواحي الكبرى ، فالعقود ووثائق الدفاع عن حقوق الشعب وانشاء الأوقاف ومقاعد التلاميذ مع الأساتذة ... باختصار كل الوثائق تقدم لنا صورة الحركة الفنية الصناعية في الحي المذكور ، وكلها الحقيقة التي مر ذكرها (٢)

(1) Tramoyeres , Instituciones gremiales de Valencia , Capitulo VI Valencia 1889

A . Dominguez : La Historia .. P . 117 .

(2) Jose Gestos o : Historia de Los barros Vidriados Sevillanos (sevilla 1904) , P . 331

ذكره نفس المرجع في نفس الموضوع السابق .

وكانت هناك أنشطة مفضلة عند المورسكيين فى داخل هذا النشاط الفنى المتنوع من بينها ما يتعلق بفن المعمار ، وقد مر بنا من قبل اسم المعلم الكبير لقصور اشبيلة و كان قد بدأ فى التاريخ نفسه سنة ١٥٠٥ ببناء البرج الجميل والجديد فى مدينة سرقسطة والذى اختفى ولم يبق له أثر لسوء الحظ . وهذه الجوهرة من جواهر الفن الموديخر (المدجن) تعتبر برهانا على فترة من التسامح شهدتها اسبانيا ، فقد اشترك فى عملها مسيحيان قديمان ومسلمان ويهودى (١) ، وعندما صدر مرسوم الاجبار على التحول للكاثوليكية قبل ذلك بفترة ، فإن أساتذة فن «المودخر» فى أرجوان وفى الأقاليم الأخرى استمروا على حالهم ولم يخفوا هويتهم ، وكانوا يضيفون كلمة «مسلم» الى أسمائهم فى العقود الخاصة بهم ، وفى بعض الكنائس مثل كنيسة «مولندا» وكنيسة «تويدا» كانوا يوقعون ويضيفون شهادة التوحيد الإسلامية "لا إله إلا الله محمد رسول الله" رغم أن هذا لم يكن مصرحا به بهذه الصورة العلانية خلال القرن السادس عشر ، ولكن أساتذة فن المعمار والعاملين فى هذا المجال تمتعوا بسماحة لم يتمتع بها غيرهم ، ربما تكريما لأستاذيتهم يقول لابيبرى ، محلللا توزيع السكان فى بلنسية : «إن التوزيع الفريد للسكان المسيحيين والمورسكيين ، يجعلنا نفكر فى جمهورية الجزائر الحالية التى تقدم لنا التباين نفسه مع فرق هو ان النسب لا يمكن مقارنتها بصورة مطلقة . كما هو الحال فى الجزائر ، فإن لعنة حضارتين مختلفتين يفسر حادث غزو البلاد» (٢).

وكان العمال يعيشون فى المستعمرات الخاصة بالمورسكيين "las Mo-
reias" بينما يعيش أساتذة المعمار مختلطين بالمسيحيين (٣) ، معظم هؤلاء

(1) Torres Balbas : arte mudejar الى يمكن الرجوع الى Ars Hispaniae , 1949 .
وهو المجلد الرابع فى مجموعة

(2) Henri Lapeyer : Geographie de L'Espagne morisqueP
أنظر الترجمة الأسبانية ص ٣٩ 27

(3) F. iniguez : Notas para la geografia de la arquitectura Mudejar en Aragon (Boletin de la real sociedad Geografica tomo 74 .)

الأساتذة الذين ندعوهم اليوم معمارين او مهندسين معماريين لا نعرف أكثر من أسمائهم ، ولا نعرف شيئا عن تكوينهم ولا عن توجهاتهم ، فقط نعرف ان واحدا منهم توجه لبناء سد على نهر الابرو فى إحدى المناطق سنة ١٥٤٢ ، وكان ممن ينتمون الى الطبقة الارستقراطية فى المهنة ، ونعرف ان واحدا منهم اسمه "زوزونيجى" وهذا لقب نادريين المورسكيين - قد تعاون مع "خوان دى أوربا" - حوالى منتصف القرن السادس عشر - فى تنفيذ بعض الأعمال المتنوعة وكان معظمهم تجارين مجهولين وبنائين وجصاصين وعمال تركيب قيشانيوقد ذكر أحد أفراد حراسة الملك فيليب الثانى ، نوعا من الخزف له إنعكاسات ، من إنتاج المورسكين فى منطقة بمحافظة سرقسطة ، نفس الشئ نجده فى "مانيس" وفى «اشبيلية دى طلبيره»^(١) وفى العديد من الأماكن الأخرى التى تركت بصماتها على تاريخ الفنون الأسبانية ، أما الأعمال المعدنية التقليدية التى عرف بها المورسكيون فنجدها بصورة عادية فى كثير من الأماكن ، وقد احتكروا هذا النوع من الفنون تقريبا فى منطقة "كونيكا" وفقا «لجارثيا ارنال» وعندما وصل مرسوم الطرد العام الى قرطبة طلب مجلسها الادارى ان يستثنى من ذلك استاذان لما يتمتعان به من اتقان عند ممارستهما فن ركوب الخيل ولأنهما شيخان عجوزان وليس لهما أولاد^(٢).

وقد كان يوجد بين المورسكيين فى «بلاتشيا» صانعو غلايات وحدادون ، ونفس الشئ كان يوجد فى مناطق أخرى . وهذا قد يثير تساؤلا حول وجود نوع من العلاقة بين حدادة الخيتانو (الفجر) المتواضعة ، وبين الحدادة المورسكية ؟ . لكن المورسكيين لم يصنعوا الغلايات وحدوة نعال الخيول فقط ، بل إن واحدا منهم هو "خوان رود ريجز" قام سنة ١٤٧٨ بعمل صفائح رائعة من البرونز ، مغطاة بتوريقات وكتابات كوفية ، كانت موجودة على

(1) carmen Gonzalez Munoz : la pobolacion de Talavera de la reina . PP249 ,250.

,Madrid 1915 .

(2) janer (Florencio): condicion Social de los moriscos en Espana .. apendice 95

A . Dominguez artiz : la Historia P . 118 . وأنظر أيضا

بوابة العفو بإحدى الكاتدرائيات ، وفى نفس العاصمة أعد المعلم ابراهان والمعلم زايدى والمعلم هامية ، أعدوا آلة قيمة ، وصلت قيمتها الى ٢٠ ألف طن مرابطى وقدموها للملكيين الكاثوليكين (١)

أما المصنوعات الجلدية فقد نالت كثيرا من اهتمامات المورسكيين والموديخر (المدجنين) وقد ظهرت أعمال عديدة فى سجل الحالة المدنية الذى نشرة "لى فيلم" خاصا بهذه الاعمال . وقد جاء ذكر صناعة الاحذية بوفرة فى هذه الوثائق ، وفى القرن الثامن عشر نشر «أسو» كتابه عن "الاقتصاد السياسى لارجوان" وقال فيه «إن هذا الشعب المورسكى مشهور بصناعة المدبوغات ، حتى إنه يعتقد أن المورسكيين هم الذين أدخلوا هذه الصناعة ومن المؤكد أنه عندما صدر مرسوم الطرد العام سنة ١٦١٠ ، فإنهم منحوا تصريحاً بالبقاء لمدة ستة أشهر بهدف تنظيم تجارتهم (٢) .

وكان المورسكيون أيضا يهتمون بصناعة السلال ، كما يصنعون أشياء أخرى من الخلفاء ، ويصنعون الحصير الذى يحملونه من شرقى البلاد الى العاصمة مدريد ، وقد ذكر ذلك «تيرسو» على لسان أحدى شخصياته التى تقول فى المشهد التاسع من الفصل الثالث ، المورسكيون ، ايها السيد هم الذين كانوا يبيعون فى الشوارع حصيرا مصنوعا من جريد النخل

ويبدو أيضا أن صناعة صواريخ الألعاب النارية كانت تقليدا مورسكيا ، ولذلك فليس من باب المصادفة أن تحتفظ غرناطة ومرسية وبلنسية بهذا التقليد ، وقد أمكن لبعض القدامى أن يلاحظ اهتمام عدد كبير من المسلمين الأراجونيين بصناعة البارود ، كذلك اتخذت محكمة التفتيش اجراء شهيرا ضد المورسكيين فى أراجون سنة ١٥٧٤ بسبب الأفراح التى أقاموها احتقالا بسقوط قلعة «جوليتا» وضياعها من أيدي القوات الاسبانية . وقد ثبت أن المسلمين كانوا يمتلكون مصانع البارود الذى كان

(1) Klaus Wagner : un padron desconocido de los mudejares de seville y la expulsion de 1502 / Al - Andalus' Vol xxxvi)

(2) Asso : Economía politica de Aragon , P . 150 . أنظر .

وأنظر . A . Dominguez ortiz : obra citada , P 119 .

بياع فى بلنسية ، وكانوا يشترون ملح البارود من سرقسطة حيث كانوا يصنعون البنادق أيضا . كما كانوا يحتفظون بمخازن يحفظ فيها البارود داخل براميل فى اماكن معينة .

وبالطبع فإن احتفالات القرى كانت تستخدم الرقصات والشعلات والصواريخ أو الأسهم النارية .

فى سنة ١٥٩٢ أمر فيليب الثانى بتوزيع الضرائب على المورسكيين الغرناطين ، وهذا الأمر يعتبر مصدرا يمكن الاعتماد عليه لمعرفة ممتلكات وحرف المنفيين ، وقد درس "دون خوان ارنادا دونتيل" بايجاز ، مازودتنا به الوثيقة المذكورة خاصة بمدينة قرطبة ، ولاحظ فيها وجود قطاع زراعى مهم ، فقد كان يوجد بها مائة من الفلاحين الأجراء ، ٥٠ من المزارعين الخبراء فى الزراعة اعتمادا على وسائل الري ، كما وجد أيضا كثير من الحرفيين الذين كانوا يمارسون مهنا متنوعة ، وكانوا يعملون إما لحسابهم الخاص أو لخدمة الآخرين ، وكان بين المورسكيين كذلك نجارون وحدادون وبناءون وجزمجية وأصحاب مصانع لعمل الحلويات ، ونساجون وصانعو نعال ، وخبازون ، ومن يصنع الحصر وبييعها ... الخ وهكذا كون هؤلاء نواة تجارية ذات أهمية كبرى (١)

ويقول "لى" : « أما عن الناحية الاقتصادية فقد قيل إن المورسكيين كانوا يحتكرون تجارة الأغذية ، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والخبازون وأصحاب الفنادق وغيرهم ، وهم لا يشترون الأراضى قط احتفاظا بحرية استعمال أموالهم ، وكان ذلك من أسباب غناهم وقوتهم الاقتصادية » (٢)

(1) Don Juan arnda Doncel : "Potencial económico de la poblacion Morisca en Cordoba" Boletin Real academia , ciéncian , Bellas letras y nobles Artes , 92 , 1972 , pp . 127 - 152 .

(2) Lea : the moriscos P . 210 - Y pp 207 . إنظر .

أنظر عنان : نهاية الأندلس صفحات ٣٨١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٠ .
وأنظر أيضا : regla : Estudios sobre los Moriscos , pp . 235 - 238 . حيث يذكّر الاعمال الصناعية والتجارية عند المورسكيين ، وكيف ترك تفهيم آثاره على هذه النشاطات.

وكان النقل والتجارة البسيطة من الأعمال المورسكية التقليدية جدا ، وقد مارس هذا بصفة خاصة ، هؤلاء الذين طردوا من مملكة غرناطة ، وقد شكت المجالس البرلمانية الاقليمية من ممارستهم لهذه الاعمال ، ففي ١٥٩٣ مثلا قيل ان المورسكيين يمتلكون دكاكين ومخازن للمواد الغذائية وأنهم يعملون خبازين وجزارين وسقائين ، كما يمتلكون محلات لبيع المشروبات الروحية ، وكل هذا يعطيهم مجالا للكسب وتوفير الأموال الكثيرة (١) ، وفي مرات أخرى توجهت المدن مباشرة الى السلطات الجماهيرية ، مثلما فعلت وادى الحجارة في ٢٩ يوليو سنة ١٥٩٨ عندما طالبت برجوب أن يتخصص المورسكيون في فحلاحة الارض وزراعتها والعناية بالمراعى فقط ، لأنهم ربحوا كثيرا من عملهم « سمسرة (وسطاء) وتجار وأصحاب محلات ومن ممارستهم مهنا تجارية حصلوا منها على مكسب وفير من عمل قليل ، لأنهم طموحون ويعيشون متجاوزين (٢) وقد أشار تقرير صادر من أشبيلية سنة ١٦٠٨ الى أن معظمهم كانوا تجارا ، متخصصون فى توفير والعناية بدودة القز وصناعة الحرير ، وهم يمارسون النقل بالبغال ويملكون محلات للمشروبات الروحية .

وكان النقل على البغال يمثل جانبا من النشاط التجاري للمورسكيين ، ولأنه لم تكن هناك دوائر تجارية منظمة ، فكثيرا ما كان يعمل هؤلاء فى هذه المهنة لحسابهم الخاص ، وينقلون المنتجات من الأماكن التى يكثرون فيها الى تلك التى كانوا فيها قلة ، وكانت هذه المهنة ، وهى التى يندر وجود غيرهم فيها ، يجعل قيمتهم أكثر . والسرى فى تكريس جهودهم لهذه الاعمال هو الرغبة فى الهرب من رقابة المسيحيين الشديدة عليهم ، والهرب من قسوة محاكم التفتيش ، ويمكن القول أيضا بأن المشكلة الغذائية فى

Actas , x III , P . 94 .

(١) محاضرات الجلسات ، المجلد الثالث عشر ص ٩٤

ذكره

A . Dominguez ortiz : la historia , p 120 ..

(2) Layna serrano : Historia de Guadalajara , III , 503 .

أشار الى ذلك والى غيره من المصادر

A. Dominguez ortiz :Historia ... p . 120 Y la nota 34 en la misma pagina .

الربع الأخير من القرن السادس عشر ، والتي يسرت جنى أرباح كثيرة من التجارة فى المواد الغذائية ، كانت وراء نزعة المورسكيين وطوافهم فى كل الطرق .

وهكذا يتضح أن هذا الشعب كون مجتمعا متماسكا ، قويا بنشاطه ودأبه وذكائه وقد قدر سفير البندقية عددهم بستمائة ألف تقريبا فى اواخر القرن السادس عشر ، وقدرهم آخرون باربعمائة ألف نسمة يومئذ ، وهو عدد ضخم بالنسبة لسكان اسبانيا الذى لم يتجاوز أنئذ ثمانية ملايين نسمة ، وقد وصفهم سفير البندقية فى سنة ١٥٩٥ أى بعد سقوط غرناطة فى أيدي المسيحيين بنحو قرن ، بأنهم شعب ينمو باضطراب فى العدد والثروة وانهم لا يشتركون فى الحروب ، ويكرسون جهودهم للتجارة واجتناء الريح ، وذكر الأديب "ثيرفاتس" فى "حوار الكلاب" أن المورسكيين يتكاثرون ، وكلهم يتزوج ولا يدخلون أولادهم قط سلك الكهنوت أو الجيش ولا يدفعون نفقات لتعليمهم ويقتصدون فى الاتفاق ، ويكتنزون المال . فهم الآن أغنى الطوائف فى اسبانيا . (١)

وقد واجهت هذا الشعب المورسكى عقبة تحول بينه وبين ممارسة نشاطه ، وهى منع الغرناطيين من تغيير محل أقامتهم ، لكننا نعرف أنهم أمكنهم التغلب على هذه العقبة بأكثر من حيلة ، وهناك طلب تقدم به سبعة من المورسكيين الى فيليب الثانى ١٥٧٧ ، يلتمسون فيه التصريح لهم بالغياب عن مساكنهم ودوابهم وقوافلهم « لإحضار زاد وشراء ثم العودة الى بيعة» والا فانهم سوف يواجهون الموت ، لأنه ليست لديهم وسيلة أخرى للحياة ، والتمسوا أيضا أن يمكننا من حمل بعض الأسلحة ، بسبب عدم توفر الأمن الكافى فى الطرقات ، وعرضوا أن يقدموا كفالة فى مقابل ذلك» (٢) وليس معروفا ما اذا كان رجاؤهم قد تحقق أم لا ؟ ، لكن المؤكد أن المورسكيين

(١) انظر : J. Caro Baroja : los Moriscos ... PP. 213 - 215 - وما بها من

مصادر وتعليقات ، وانظر كذلك

- lea : los Moriscos , p . 209

(2) E. Garcia chico : los Moriscos en Tordesillas (simancas) 1/440 - 441 .

سيطروا على نقل التجارات وغيرها عن طريق البغال فى منطقة قشتالة ، سواء حصلوا على ما أرادوه من تصريح أم لا ، وهذا هو الذى أشعر الناس بغيابهم عندما جرت أحداث النفى العام .

ولم يطرق المورسكيون باب النقل البرى وحده ، بل وجدت فى "اراجون" نقابة لرؤساء أو قباطنة المراكب ، الذين وصل بهم الأمر الى احتكار الملاحة فى نهر الابرود^(١) ، وقد برهن المورسكيون بأساليب متعددة على كفاءتهم فى الملاحة ، رغم أن اهتمامهم بها لم يكن كثيرا ، وقد قدم لنا "ل . ب . هارفى" السيرة الذاتية لغرناطي طرد سنة ١٥٧٠ وأقام فى اشبيلية وأعجب بالبحر وما فى عالمه من عجائب ، ثم سافر فى السفن الكبيرة الى الهند ، وتعلم معارف عن المدفعية البحرية طبقت فيما بعد فى "جوليتا"^(٢) وقد أغمضت السلطات عيونها ازاء التطوع لهذا العمل وكان مضطرة لذلك بسبب ندرة الجنود والبحارة الذين يمكنهم مواجهة أخطار هذه الحرفة الهندية . وهناك احتمال ان كثيرين ممن ظهوروا فى السجلات الرسمية بأسماء مسيحية ، وكانوا فى الحقيقة مورسكيين ، قد حصلوا على دراسات سمحت لهم فيما بعد أن يتحولوا الى قراصنة مخيفين . وبعض هؤلاء تمكن من إمساك سفن تحذير وتجارة ، وجدت منفصلة عن الأسطول الأم .

شئ بدأ شائعا بين المورسكيين هو مستواهم الثقافى المتدنى ، وإذا عرفنا أن نسبة الأمية بين المسيحيين القدماء كانت كبيرة ، أمكننا أن نتخيل المدى الذى وصلت اليه ثقافة المورسكيين . لقد كان الرأى العام يصف المورسكي بأنه شخص فظ غير مثقف ، يحتل آخر درجة فى السلم الاجتماعى بسبب عناده ، شخص ذو مقدرات خاصة ، تقنية ويدوية ، ولكنه بلا ثقافة . ولم يحظ العلماء والقضاة والبارزون فى هذه الجماعة باحترام المطارنة والأدباء ورجال القلم فى عهد كارلوس الاول وفيليب الثانى ، وكان

(1) Cabculo Astrain : Noticias Y documentos sobre morescos aragoneses . Miscelanea de estudio Arabes Y Hebraicos . Granada, V, 1956 .

(2) The Morisco who was Muley zaidans spanish interpreta sama . Miscelanea de estudios . VII, 1959 .

ومع ذلك فلنسنا نعدم بعض المثقفين بينهم ، ممن ظهوروا فى ظل أوضاع معينة ، يقول "جونثالث دافيللا" إنه ظهر بين المدجنين فى تلك المدينة عدد غير قليل من الأطباء والكتاب العموميين والصيدالة ، يعنى عناصر البرجوازية المعتدلة المثقفة (٢) ، ويشير "فيرناندث نيفا" الى انه قد وجد فى احصاء "برينا" الذى أجرى ١٥٩٤ صيدلى وطبيب وكاتب عمومي ونائب وممثل فى المجلس البلدي ، أما "جاريثا ارنال" فقد وجد بين المورسكيين فى "كونيكا" (قونيه) كاتب عمومي وجراح ومتبل لبعض اللحوم المحروقة ، وهذا يدل على أن الفروق المحلية والاقليمية كانت عظيمة .

وبدلا من أن يعمل المجتمع المسيحى على رفع المستوى الثقافى لهؤلاء ، فانه كان يعارض تطوير الوضع الثقافى بينهم ، بل ان القرارات المهنية بل وحتى النقابات اليدوية قامت بدور نشط فى هذا الصدد ، مثلا من بين مرسومات "لوركا" مرسوم يرجع تاريخه الى حوالى سنة ١٥٢٨ يحرم على المورسكيين تولى وظيفة الكاتب ويحذر من ذلك (٣) وفى الالتماس الذى قدم بشأن السماح باحتفالات عام ١٥٧٣ ، طلب الا يتولى واحد من المورسكيين الذين قدموا الى قشتالة أية مسئولية عامة ، والا يكون من بينهم عرفاء ولا عالمين (٤)

نفس الشئ تعرض له العبرانيون ، وإن تميزوا بمقدرة ورغبة أقوى فى

(1) J. caro baroja : los Moriscos .. P. 145

انظر :

(2) Teatro eclesiastico de Avila (1618), historia de

Felipe III obra Postuma Madrid 1771

نقلا عن

A. Dominguez ortiz : la historia ... P. 121

(3) ordenanzas de lorca, Granada, 1713,P. 108 .

نقلا عن نفس المرجع والموضع السابق

(٤) المقصود بكلمة عالمين Alamen - وواضح أنها عربية الأصل - تعنى المسئولين عن التفتيش على الموازين والمقاييس والأسعار فى الأسواق أما العريف Alarife فتعنى استاذ العمل أو «أسطى» المهنة ، وكانت شهرته أقل انظر التعليق رقم ٤٢ ص١٢٢ من كتاب تاريخ المورسكيين لانتونيو دومنجيث اورتيث وزميله .

الاندماج ، وخير ما يمثل ذلك ممارسة المهن الطبية ، ففي العصور الوسطى كان اليهود يحتكرون هذه المهن ، ويأتى بعدهم من تحولوا الى المسيحية ، وان أضحى من غير الممكن القضاء على الأنشطة التي زعمت ان الأطباء والصيادلة اليهود ، يقدمون السم ويقتلون المسيحيين بدافع الحقد الشيطاني نحوهم .

يتحدث أحد كبار الباحثين عن توزيع الاعمال فى اسبانيا آتتذ فيقول: "ان المسلمين يعملون وينتجون ، بينما يسود المسيحيون فى تكبير" ويتحدث آخر عن ذلك بقوله : "كان الايبيري الغالى يحتل مكان القيادة ، ويحتل اليهودى مكان الذكاء فى الحياة الاقتصادية ، بينما يحتل العربى مهنة الكد فى الحقول" (١)

ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن المسلمين كانت لهم مدرسة طبية قديمة وزاهرة ، وإن كانت أقل من المدرسة اليهودية ، وقد حظى علم هذه المدرسة بمؤيدين له من الشعب المسيحى ، ولكن "بليدا" يزعم أنه جرت محادثة مع واحد فى بعض المقاطعات قال فيها : إن الأطباء المورسكين كانوا يقتلون - على الاقل - واحدا من كل عشرة من زبائنهم المسيحيين" (٢) وهناك أمر آخر واضح فى الطب عند المسلمين ، هو الشك فى أن علمهم كان مصحوبا بالسحر واستحضار الأرواح ، وأنه كان ينبثق عن مصادر تعتبر الحادا وهرطقة من الناحية العقديّة ، وتعتبر شاذة من الناحية الادارية ، وإن كان هذا لم يحل دون لجوء كثير من المسيحيين يطلبون العلاج عند الأطباء المسلمين ، لأسباب شرحها بشكل واضح السيد "جارثيايبى استير" (٣)

(1) Américocastro : Espana en su historia , cristianas, Moros Y Judiss, Buenos Aires, 1948, P. 57 .

- Orestes Ferrera : En el siglo XVI a la luz de los embajadores venecianos , Madrid 1952, P. 13 نقلا عن

Juan regla : Estudios .. P. 47, Nota 9٠٠ .

(2) Bleda , jaimé : Cronica de los Moros de Espana , Valencia

وقد ذكر المصدرين السابقين أنطونيو دومنيجيث : تاريخ المورسكين ص١٢٢

(3) El ejercicio medico morisco y la sociedad cristiana

بحث ألقى فى الاكاديمية الطبية بقرنباطة ١٩٧٥ وهو قسم من دراسة أوسع لم تنشر عنوانها :

Medicina, Ciencia Y minorias marginadas : los Moriscos .

وقد ارتابت محاكم التفتيش فى الوصفات العلاجية التى كان يقدمها المورسكيون ، ورأت انه ربما دخلها مس شيطانى ، وترتب على هذا القيام باجراءات عديدة ضد هؤلاء ، وقد قيل أن الطبيب المورسكى لا يعتنى بالروح و اتهم بأنه يعتدى عليها حتى وهو يمارس الحتان ؛ ولهذا فقد منعت القابلات المورسكيات من ممارسة عملهن بمقتضى قرارات من المجامع الدينية صدرت فى قادش سنة ١٥٥٤ ، وبلنسية سنة ١٥٦١ وكونيكا (قونيه) سنة ١٦٠٢ .

ولم يكن الطبيب يعد اعدادا جامعييا ويمارس المهنة بعد التخرج ، ذلك أمر لم يعرفه المجتمع المسيحي الا فى نهاية العصور الوسطى . وعندما رأى المورسكيون أن المجتمع ينظر اليهم بلا تقدير ، بالرغم من اعدادهم التقليدى ، واعتبرهم دخلاء ودجالين ، رغب بعضهم أن يصل الى الدرجة المهنية لزملائهم المسيحيين ، لكن عندئذ تدخلت عوائق التمييز والتفرقة ، ففى احدى جلسات البرلمان عام ١٦٠٧ (١) ، شكا نائب من طليطلة من انه يوجد فى جامعة هذه المدينة ، وفى جامعات أخرى ، كثير من طلاب الطب من المورسكيين ، والشئ الذى أضع الثقة فى هذه المهنة أن المسيحيين القدماء لا يريدون مواصلة دراستها ، كما لا يرغبون فى مهنة الصيدلة ، حتى وصل الأمر الى أن أصبح كل الأطباء والصيادلة فى المملكة من المورسكيين ، وامتلكوا مفاتيح حياة الجميع ، ولم يشك أحد النواب البرلمانين فى صدق كل ما يشاع حول هذه النقطة ، ويقال أنه فى "مدريد وأماكن أخرى ؛ ألقى السلطات القبض على مورسكيين كانوا يسيرون ليلا لقتل المسيحيين ، لا لجرم الا بغضهم لهؤلاء المسيحيين ، وهناك طبيب ارتكب أمرا خطيرا ، فقد عرف من اعترافه هو نفسه أنه قتل ٣٠٤٨ نفس بظفر مسموم ، كذلك عاقبت السلطات الدينية فى بلنسية مورسكيا يعتبر اخصائيا وجراح عظام (مجبراتي) ، لأنه اعترف بأنه ترك داء الكساح بلا علاج عند من ترددوا عليه من المسيحيين القدماء حتى لا يتمكنوا من حمل السلاح ..

(1) actas XXIII, 583

وبرغم كل هذه الشائعات السيئة ، وبرغم عدم تقدير المهنيين المسيحيين لزمالاتهم المورسكيين ، فإن هؤلاء الآخرين كانوا اطباء ومعالجين ، ولم يعدوا زبائن بين المسيحيين القدامى ، فقط كان عدم حصولهم على شهادة رسمية هو الذى ينزل بمرتبتهم ، ويؤكد "أثنار كاردونا" أنه عندما تقرر طرد المورسكيين الأراجونيين فإن طبيبا كبيرا اسمه «كالبيراوجد» هناك ، ولم يسمح له قط أن يبقى بين المسيحيين ، لأن الكثيرين اقتنعونا بذلك (١).

ومن الطبيعى أن يهتم المورسكى بالطبقات الفقيرة ، لأن الطبقات العليا تؤثر الطبيب الحاصل على مؤهل أكاديمى ، يعنى المسيحي القديم غالبا ، ومع ذلك فقد كان هؤلاء يلجأون أحيانا الى المصحات المورسكية خاصة عندما ينقطع الأمل من جدوى علاج أمراضهم عند المسيحيين ، وعندئذ تحدث مواجهة بين الأسلوبين . يذكر بعض الباحثين ما حدث بين جراح مسيحي وبين جراح مورسكى حول اسلوب علاج مرض الأمير "دون كارلوس" وهناك مورسكى آخر حظى بشهرة كبرى عندما عالج من سيحمل مستقبلا لقب "فيليب الثالث" ، يعنى الملك الذى يسقوم بمهمة طرد المورسكيين أبناء جنس هذا الطبيب من كل البلاد عندما يؤول الأمر اليه ، طبيب مورسكى آخر كان له فى بلنسية رواد من الطبقات العليا ، بينهم تجار ايطاليون أغنياء ، وما حققه هذا الطبيب من نجاح هو الذى يفسر دعوته الى البلاط وجداله مع المسيحيين القدامى الذين أساءوا به الظنون ، ويؤكد "بليدا" أن الطبيب المورسكى المسمى "رارو" هو الوحيد الذى لم تحدث منه صدمات عنيفة مع الأطباء المسيحيين الجامعيين ، وإن وصل البعض الى درجة الاعتداء الشخصى (٢)

وهناك طبيب مورسكى آخر ، كان واحدا من بين الأطباء المورسكيين

(1) AZNAR CARDONA : EXPULSION ... FOLIO 68

فهل كان «كالبيرا» هذا واحد من حصولوا على درجة الدكتوراه فى الطب من جامعة بلنسية ، وفقا لـ «بليدات» ؟ سيكون من المفيد دراسة الوثائق الجامعية لمعرفة مدى الوجود المورسكى . وإن كان اتجاه المورسكيين إلى اخفاء أصلهم ، سيكون عاتقا امام هذا النوع من البحوث . انظر

A.Dominguez ortiz : la histori ... P, 123 Y nota 47 en la misma pagina .

ذكره نفس المرجع السابق ص ١٢٣ 368 Defensio Fedci (2)

العديدين الذين مثلوا أمام محاكم التفتيش ، وقد اتهم بأن له شيطانا يستأنسه ويخدمه ، ويفضل هذا الشيطان يصف العلاج الذى يجلب له الشهرة . وإذا صح ما قاله "بورينيو" الذى الف مجموعة من الحكايات حول فيليب الثالث - فان الأمر وصل الى درجة كراهية الملك نفسه للأطباء المورسكيين ، برغم أننا قد رأيناه يستعين بأطباء مسلمين لعلاج ماحل بأولاده من أمراض ، وقد لفت أحد كبار النبلاء نظر الملك الى المورسكي النباتى العظيم ، الانسان الذى يقدم علاجا مفيدا جدا عن طريق استخدام الأعشاب لتسكين الآلام التى تنشأ فى الحلق ولكن الملك رفض وقال أنا لا أريد علاجاً عن طريق هذه الوسائل السيئة^(١)

إن التعارض بين أسلوب علاج هؤلاء المورسكيين الأخيرين الذين ورثوا ثقافة ذات تقاليد قديمة وانتهى بها الامر الى التدهور والانحلال ، وبين ما تعلمه اليهود الذين تحولوا الى المسيحية من أساليب طبية ، أمر هام ، فاليهود منذ عهد الملكيين الكاثوليكين وحتى عهد فيليب الخامس ، وبرغم ضحايا سوء الظنون وحتى ضحايا الاضطهادات ، الا أنهم برزوا بصورة واضحة من الناحية الاجتماعية ، بينما مثل المورسكيون قسما من أقلية مثقفة ، كانت نوعيتها أدنى ، وما حظيت به من تقدير كان أقل ، بالإضافة الى عددها القليل . وليس من الممكن أن نضع مؤلفو الادب الأنحميادى ذى المضمون المتواضع علميا بين المؤلفين البارزين ، ولا أن نضعهم مع المورسكي الغرناطى "الونسوكاستيو" المترجم الرسمى فى زمن فيليب الثانى ، وهو نفسه الذى الف أو شارك مع مورسكى آخر هو ميغيل دى لوقا ، فى تأليف الحيل الموفقة بين تناقضات الكتب الكبيرة الموجودة فى "دير سكرومونتى الغرناطى"

وانظر . Porreno : Dichos Y hechos .. de Felipe II, Capitulo A
Antonio Domunguez ortiz : la historia .. P. 124

انظر : Dario Cabanelas : El Morisco granadino Alonsro del
castillo, Granada 1965

وكذلك

A.D . ortiz : la hiotoria .. P. 124

ويمكننا أن نذكر بين المثقفين البروتستانتى "كاسيو دودو دى رينا" الذى كانت له قيمة ثقافية لا يمكن إنكارها ، وهو صاحب الترجمة القشتالية للكتاب المقدس ، لكن نسبة المورسكي مشكوك فيه كثيرا (١)

وإذا القينا نظرة على النشاطات التى أسهم فيها المورسكيون ، وفقا للمعلومات المقدمة فى الصفحات السابقة ، فسيكون من السهل علينا أن نلاحظ أنها جميعا تدخل فى دائرة ما يسمى بالانشطة الحرة فى المجتمع ، ما بين أنشطة زراعية الى أخرى صناعية الى أنشطة تجارية الى مهن حرة مثل ممارسة الطب والصيدلة وغيرها ، ولم يكن بينهم من التحق بعمل فى المؤسسات الرسمية للدولة أو الوظائف الحكومية ، وقد برعوا وأثبتوا وجودهم فى كل المهن والحرف ومجالات العمل التى مارسوها ، وقد كان نجاحهم سببا فى تبرم أعدائهم منهم وضيقتهم بهم ، فأخذوا يلصقون التهم بهم ويستعدون محاكم التفتيش عليهم ، ويصفونهم بالشح والبخل والرغبة فى جمع المال واكتنازه تارة ، وتارة أخرى يرمونهم بأنهم يجمعون معلومات ويستغلون عملهم فى النقل والتجول للتجسس وتقديم تيسرات لأعداء اسبانيا تسهل هجومهم عليها ، وإذا مارسوا الطب فهم دجالون يستعينون بالسحر والشعوذة والشياطين وليس لذلك من تفسير سوى أهوة الفاصلة والعداوة بين المجموعتين المتنافرتين والتى تنتمى كل منهما الى حضارة وفكر وثقافة ، تختلف عن فكر وحضارة وثقافة المجموعة الأخرى . وشعور المورسكيين بأنهم أقلية مظلومة مضطهدة ، تسبب معاملتها أكثرية مستبدة متغترسة ظالمة .

وليس من شك فى أن هناك علاقة بين المستوى المهنى والاجتماعى وبين المقدرة الاقتصادية ، ومن كل ما قيل حول مهن أو حرف المورسكيين ، يمكننا أن نستنتج منه أن مستوى معيشتهم الاقتصادى لم يكن عاليا ، وأقصى ما يمكن اعتباره مستوى متوسطا ، ولا تنتظر أكثر من ذلك

توجد صور لبيوت قرية مورسكية فى «اراجون» اسمها Torelles فى مقال (1) Ponsot

السابق ذكره

بالنسبة لأقلية تغلق أمامها مجالات النشاطات المنتجة كثيرا ، أقلية معظم أفرادها خدم فقراء أو عمال متواضعون ، أو أصحاب محلات بسيطة ، وليس بينهم من وصل الى درجة البرجوازية الحقيقية الا القليل ، ومع ذلك فقد شاع اتهامهم بالبخل ورميهم بإخفاء ثرواتهم تحت مظاهر بؤس خارجية ، وربما كان هذا حقيقيا فى بعض الحالات ، ولكنه لم يكن سمة الجميع .

ونحن نعلم أن المظهر الخارجي للمنزل المورسكى كان متواضعا للغاية، ويتكون من مواد بناء بدائية ، وهو عبارة عن خشب وطين^(١) وهو أقرب الى الأكوخ والكهوف فى النواحي الشرقية ، كما أنه مغارات يمكن مشاهدتها حتى اليوم بكثرة فى كل مناطق جنوب شرقي اسبانيا ، وكانت مظاهر البؤس والفقر بادية على هذه المساكن ، وان أخفت وراءها كنوزا حقيقية فى بعض الأحوال . يقول "كاسكالس" - الذى يعرفهم جيدا باعتباره من مرسية - إن بيوتهم تبنى بواجهة متواضعة خشنة من مواد بدائية وأساسات خشنة أيضا ، ومع بوابة منخفضة لا تسمح بدخول القزم بدون انحناء ، فإذا ما دخل الانسان ورفع رأسه ، اذا به أمام صالة وفراغ واسع مملوء بألف من الأشياء المدهشة ، السقف تغطيه فنون من زخارف ذهبية لامعة ، والحيطان تزيناها كثير من التوريقات وصور الحيوانات المتنوعة ، وتجدهنا غرفة للفاكهة ، وهناك أخرى للحيوانات ، وثالثة للماشية ورابعة لأدوات الصيد والركائب ، والكل يُعمر فى مهارة فذة وعبقرية ، وترى أشكالا وألوانا متنوعة من المعمار تعشى العين ، وتأخذ باللب ، وتستولى على من ينظر اليها (٢)

من الطبيعي أن تكون المساكن المورسكية التى تحتوى على هذا الرونق والبهاء قليلة جدا ، ذلك ان قلة من المورسكيين هى التى تنطبق عليها عبارة «ثرفنتس» التى يكررها فى عمله الادبى «حوار الكلاب»

(1) Epistola a Juan de Arguijo en suscartas philologicas

A. Dominguez ortiz : la historia, P. 125 - Nota 54 وانظر

(2) Bennasar, B. Valladolid au siecle d' or, paris 1967

والتي تقول عنهم «أنهم يكذبون ويكفون أكبر كمية ممكنة من المال الموجود في اسبانيا» ، ومثلها عبارات أخرى مشابهة ، نراها بصورة مألوفة في أدب تلك الفترة ، فلسنا ننكر إمكانية أن يكون بعض المورسكيين الأثرياء ، وليس هذا غربيا ، فمن الممكن العثور على نماذج من هؤلاء الاغنياء مثل «لثرو لويث» - الذي ذكره «بناسار»^(١) والذي امتلك مصبغة للحرير استغل بنى قومه للعمل فيها ، وعقد صفقات تجارية بلغت قيمتها ثمانية آلاف «دوكاس» سنويا ، ومثل فرنسكو الطليطلى - الذي جاء ذكره في تقرير عام ١٥٩٦ - حيث أشار التقرير الى أنه مورسكي من طليطلة يقيم في «مدريد» وهو أكثر تجار الحديد أهمية وكان يعقد صفقات تجارية ، كما عقد صفقات تجارية في الاسلحة البيضاء والبنادق أيضا^(٢) .

انه من الممكن أن توجد عقلية مثل تلك التي وصفت في مسرحية «السيد واليهود» والتي تنتظر بشئ من العطف الى امكانية توافر مورسكيين أغنياء ، يفكرون في خداع وارهاب محاكم التفتيش ، وهناك فصل رئيس من هذا النوع نجده في رواية «ثيسبيدس ومينيسيس» يقول : طلب صعلوك من تاجر مورسكي ، رحل من بلد الوليد الى اشبيلية ، أن يريه بضائعه ، فقدم له التاجر أقمشة مصنوعة في «سيجوبيا» وفي «بايزا» وكان يخفى بينها صندوقا صغيرا في شئ من المكر ، وفي اليوم التالي كثر الصعلوك ما فعله في اليوم الأول ، وأراد أن يأخذ الصندوق فرفض التاجر أن يعطيه له وأصر ، ثم فتحا ، ولما فتح وجدت بداخله صرة صغيرة من الذهب تضم صورة محمد صلى الله عليه وسلم مع ميدالية على شكل قمر ونسخة من القرآن، عندئذ ارتعد التاجر رعبا ، واشترى سكوت ذلك الرجل بـ ٤٠٠ دوكادوس.^(٣)

ولكن نصل الى نتائج متيقنة عن ثروة المورسكيين ، فإنه لا محيص عن دراسة وثائق متنوعة ، مثل قوائم جرد ممتلكاتهم ، والمحاضر الرسمية

(1) Bennasar , B. Valladolid au siecle d, or paris 1967

(2) Braudel obra citada , 11 , 128

A. Dominguez ortiz : obra citada P. 125

وانظر ايضا

(3) El soldado .indaro, libro 1 , capitulo 22

وسجلات الممتلكات التي تركوها ساعة إبعادهم من البلاد ، ورغم أن فسما صغيرا من هذه المادة قد رُدس ، إلا أنه يكفي لاستخلاص بعض النتائج .

لقد نشر "خوان مارتينيث رويث" عددا من الوثائق حول ممتلكات المورسكيين في غرناطة (١) ، كما نشرت وثيقة عن العقارات التي تركها المسلمون في "أبيلا" ضمن "دراسات سيخورييوانوس" (٢) وقدم "جارتيا ارنال" بعض معلومات عن ممتلكات المسلمين المنصرين في محافظة كوينكا (قونية) وتحتل وثائق ممتلكات المورسكيين قسما كبيرا من أوراق دار المحفوظات العامة في "سيمنقة" وغيرها من دور المحفوظات (٣) وفيما يتعلق بممتلكات المورسكيين في مملكة قشتالة ، تعرف أن قيمتها الاجمالية وصلت الى ٣١٣ر٦٥٧ر٤٣٠ مرابطى ، بينها ٢٥٤ر٣٥٠ر١١٣ ممتلكات من ينتمون لقرى الاقطاع ، هذا فيما يتعلق بالأصول ، ومحمتمل أن تكون هناك أشياء قد تركت ، وعلى كل حال فان هذا يؤكد أن المورسكيين لم يكونوا في مجموعهم شعبا بائسا .

لكن يبدو واضحا أيضا أنه كانت بينهم اختلافات ملحوظة تتعلق بما لهم من ثروات ، فمعظم المورسكيين في مملكة بلنسية ، كانوا يعيشون حياة مشحونة بالعمل ، يكدون ويتعبون ، فقط للوفاء بالإنفاق على المسئوليات التي كانت تثقل كاهلهم ، وهذا لا يمنع أنه كان بينهم أثرياء للدرجة التي تجعلهم يقرضون جيرانهم المسيحيين ، وعندما حدث الطرد فان اعتماداتهم تجاوزت قيمتها ١٩٧ر٦٧٩ جنيها وفقا للبيانات الرسمية ، وهذا مبلغ مهم حقيقة بالنسبة لهذا الزمن . (٤) ويشير "كابيثنودا" الى أن المورسكيين في "اراجون" كانوا فقراء تقريبا ولكنه يضيف في نفس الوقت ان أسرا معينة منهم ، كانت غنية في الأثاث والأقمشة والحلى والفضة . وفي غرناطة

(1) Inventarios de bienes de moriscos en reino de Granada Madrid 1972

(2) ano 1962, PP. 472 - 475

(3) A. dominguez ortiz : los moriscos, P.126 y nota

انظر

(4) E. Ciscar pallares : prestemistas moriscos en Valencia (cudernos de historia N. 5.

وكان الجنيه البلنسى يساوى عشرة ريبالات من الفضة ، وهي تساوى تقريبا ٧٠٠ بترتة حسب اسعار سنة ١٩٧٦ ، انظر :

Antonio Dominguez ortiez : obra citada, P. 126 Y nota 61

كانت هناك أقلية ثرية أفرادها كثيرون ، ويمكن أن تكون قوائم الجرد المعروفة الآن ، مؤشرا يدل على مضمون مستوى الحياة آنئذ ، ويمكن تقديم مثل على ذلك ، يتمثل فى صداق امرأة أحد تجار الحرير الذى صادرت محكمة التفتيش ممتلكاته ، وحكم عليه بالاعدام حرقا ، واحتفل بتنفيذ الحكم فى فبراير سنة ١٥٦٦ ، وقد جاء فى الوثيقة أن هذا الصداق كان عبارة عن مساحة من أراضى الرى وصلت الى ثمانية قنوات ، ومجوهرات من الذهب ، وجلود مشغولة ملونة ، وأثواب من الحرير ، وأشياء أخرى بلغ اجمالى قيمتها ١٢٥ر١٤٢ مرابطى (١) وتوجد احصائية رسمية عن قيمة ممتلكات المورسكيين فى مكانين فقط . أحدهما هو قرطبة وقد وصل الى هذه المدينة ٧٠٠ أسرة غرناطية ، وقد تم اجراء حصر لممتلكات هؤلاء المورسكيين ، بمناسبة الضرائب التى تقرر فرضها عليهم سنة ١٥٩٢ ، وقد وجد أن نصفهم تقريبا لا يمتلك شيئا ، ووجد مجموع قيمة ما عند النصف الباقى ٤٢٠٢٥ دوكدوس ، بمعدل مائة دوكدوس تقريبا لكل أسرة . لكن بعض الأفراد كان له حظ أوفر من غيره، مثلا أحد تجار التوابل امتلك مع صهره ٢٨٠٠ دوكدوس ، وامتلك الأخوان ، "ميجيل وخيرغو لويث" ، تاجرا الحراير ١٨٠٠ دوكدوس ، بينما اقترب البعض الآخر من الرقم ١٠٠٠ (٢) وهذه ، وإن كانت ارقاما معتدلة فى حد ذاتها ، الا أنها تتضمن أهمية خاصة داخل مستوى الدخل المورسكى .

والمكان الثانى هو مدينة "أورناتشوس" وهذه المدينة تابعة لاقليم "استريمادورا" وكل سكانها تقريبا من المورسكيين ، والقائمة التى دونت ماتبقى من ممتلكات المورسكيين منذ نفيهم من البلاد ، تشتمل على البيانات الآتية :

١٠٠٠ مسكن قيمتها تقريبا ٣٠ ألف دوكدوس

١٠٠٠ فاينجاس (مقياس مساحي) من الأرض قيمتها ٣٠ ألف

(1) K. Garrad : la industria sedera granadina del siglo XVI, "Miscelanea de estudios arabes" V, ano 1956" .

(2) J . Arada Doncel : Potencial economica de la poblacion morisca en cordoba. "Boletin de la. R. academica de Cordoba.

١٠٠٠ من الكرم ، قيمتها عشرة آلاف دوكادوس .

٤٠٠٠ فاينجاس من الأراضي الزراعية قيمتها عشرة آلاف

دوكادوس

٨٠٠ بستان قيمتها ٢١ ألف دوكادوس

٧ أبراج حمام قيمتها ٣٠٠ دوكادوس

١٥٠ من الخلايا قيمتها ٨٠٠٠ دوكادوس

٨ طواحين قيمتها ٥٠٠٠ دوكادوس

٤ مدايح قيمتها ١٥٠٠ دوكادوس

١٩ مَدْتِبا مخصصة للنواب وللكتاب العموميين فى المجلس الادارى

قيمتها ٦٥٠٠ دوكادوس

٢٣٠٠ الاجمالي (١)

وربما كان هذا الرقم أقل من الواقع ، فهناك أشياء أهملت وتركت ، وهناك أشياء يتوقع إخفاؤها أو كتمانها ، ويلاحظ ان القائمة تتضمن فقط الممتلكات الثابتة ، وتنفي أشياء أخرى لم تدخل فى التقدير مثل المجوهرات والأموال النقدية والأشياء المنقولة وكذلك الأشياء ذات الطبيعة الصناعية والتجارية ، وكانت هذه الأخيرة متوفرة بكثرة ، ولدينا معلومات عن بعض الأغنياء بين الفلاحين المورسكيين ، مثل "بيثنتى دى لاتورى" من توثينا" بمحافظة اشبيلية ، وكان يمتلك عتبا وزيتونا قيمته ١٢ ألف دوكادوس ، وقد طلب تصريحا ليبيع منها ، حتى ما قيمته الفين ، لتغطية تكاليف رحلة السفر ومغادرة اسبانيا ، ولكن طلبه رفض (٢) ، ومثل هذه

(1) Archivo general de simancas . CJ H. 503

(2) Biblioteca Nacional ms . 9577 .

وانظر فى كل ماسبق

A. Dominguez ortiz : la historia .. P. 127 Y las notas

الحالات لا يمكننا انكار وجودها ولكنها كانت نادرة ، لا تمثل السمة العامة، أما الثروات المعتبرة فكان معظمها فى أيدى التجار والوسطاء .

ويمكننا من خلال ما سبق وفى حدود المعلومات المتاحة أن تكون انطبعا مؤداه أن الوضع الاقتصادي الأدنى كان من حظ المورسكيين فى بلنسية وأراجون ، لأنهم جميعا تقريبا كانوا يعملون فى فلاحه الأرض ، وكانوا - بالإضافة إلى ذلك - عرضة لابتزازات سادة الاقطاع ، أما أعلى المستويات من حيث المستوى الاقتصادي ، فكان موجودا بين المدجنين القشتاليين وخاصة المورسكيون الغرناطيون ، يستوى فى ذلك القلة التى بقيت فى مكانها الأسمى ، مع تلك الجماهير البتى تشتت فى قشتالة والتى أمكنها ، فى معظم الحالات ، التغلب على الظروف الصعبة والوصول إلى مستوى من الرخاء الاقتصادي لا بأس به ، وكان لهؤلاء ميزه على نظرائهم هى أنهم تحرروا ونفضوا عن كاهلهم قرونا من الظلم والاضطهاد بخلاف القشتاليين الأصليين أو البننسيين أو الاراجونيين ، فهؤلاء لم يكونوا ضعافا من الناحية المادية فحسب بل وعاشوا أذلاء يقهرهم السادة ورجال الاقطاع .

أما المورسكيون الغرناطيون فقد حافظوا على تراث صنعوه بمجهوداتهم حتى جاء زمن نفيهم من البلاد . وإذا كان لم يكثر بينهم عدد الاغنياء ، فقد وجد فيهم مجموعة من الطبقة الوسطى الريفية والغنية ، عاشوا نوعا من الرخاء المحقق . يؤكد هذا بالنسبة لمناطق "آلمرية" - البروتوكالات أو المراسيم التى درسها «نيوكولاس كاهريانا» والتى أوضحت أن المورسكيين كانت عندهم ممتلكات كبيرة ، بفضل كدهم المتواصل ويفضل حاسة الادخار التى كانت متوفرة لديهم ، وقد وصل الامر إلى درجة أن معظم المورسكيين الذين أقاموا فى مناطق "آلمرية" الحالية كانوا جميعا تقريبا من الملاك ، وكان كل واحد يملك منزلا وضيعة ريفية ، يدل على ذلك وثائق توزيع الممتلكات التى تدل على أن عدد السكان فى كل مكان ، كان يتساوى مع عدد الملاك بشكل مستمر ، ولاهد أن نسبعد لهذا

السبب القول المطروق عن المورسكي من أنه تنقصه أكثر الاشياء الضرورية للحياة . لقد كانوا على العكس من ذلك يمتلكون - بعضهم على الأقل - أفرانا وطواحين للدقيق والزيت . وأراض تعتمد فى زراعتها على الري ، وأخرى تعتمد على الامطار ، وبساتين وأشجار عنب وزيتون وتوت ، أما الاجراء البسطاء فكانوا قلة فى هذا الاقليم ، وتظهر لنا وثائق هذه المنطقة أيضا أن المورسكيين كانوا رعاة مهمين ، وكانت قطعان مواشيهم تنزل مراعى منطقة البشرات (١) .

وإذا كان ممكنا أن نؤكد هذا فى أشد الأجزاء فقرا من هذه المملكة ، فإنه من الممكن بالاحرى أن نتكلم عن ازدهار مادي للمورسكيين فى مالقة وقرنطة ، خاصة بقايا الارستقراطية القديمة والبرجوازية التى كانت تقيم فى منازل مريحة بعاصمة السلاطين القديمة حتى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، ويذكر «كابيرانا» أن حسد المسيحي الفقير للمورسكيين ، كان من بين العناصر التى سممت العلاقات بين الجماعتين ، وهناك احتمال أن هذا الشعور لم يكن له وجود فى مملكة قرنطة القديمة وحدها بل وفى غيرها أيضا .

والآن نحاول أن نتعرف على جانب آخر من جوانب حياة هؤلاء المسلمين المنصرين ، هو ما تميزوا به من إقامة شعائر وتقاليد اسلامية ، ومحاولة أعدائهم محاربة هذا الجانب فيهم وإبعادهم عنه ، بالحسنى والتبشير مرة ، وبالقسوة والعنف مرات .

(1) Cabrillaña ciezan Nicol1as : Esclavos Moriscos en la Almería del siglo XVI, A.I-Andalus 1975, PP. 53 - 128

الفصل السابع

المورسكيون والشعائر الإجتماعية والدينية

محاولات تبشيرهم وجذبهم ووسائل زجرهم

بعد أن استولى المسيحيون على غرناطة ، وأحكموا قبضتهم على كل بلاد الاندلس ، بدأت الشعائر الاسلامية تدخل دور الإضمحلال فى تلك البلاد ، ومنذ اللحظة التى كتب فيها على المسلمين أن يتنصروا بالقوة، فان مجتمعهم تحول إلى جمعية كبيرة شبة سرية ، وكان على الفقير أن يؤدى مهمته فى حذر شديد وعلى رئيس الجماعة أو كبير القوم أن يخفى رتبته حتى لا يلفت الانظار إليه ، وكان على الغنى أن يتصنع الفقر ، وعلى المسلم المخلص الصادق الولاء أن يتكلف الاخلاص للكاثوليكية ، ومن لم يستطع ذلك ، فقد كان واجبا عليه أن يغادر البلاد ، ويمكن القول ان المسلمين الغرناطيين عاشوا فترة تصل إلى ٦٠ سنة تقريبا يدارون السلطات الرسمية ؛ لأن العادات والتقاليد والأفكار القديمة كانت تسيطر عليهم ، رغم أنها أصبحت أكثر تواضعا وفقرا من حيث النوعية والرتبة ، لقد اتبعوا النظم والأساليب الاسلامية فى كل مؤسساتهم ، واحترموا الآباء والكبار كثيرا ، وكان الجميع يلتقون رجالا ونساء فى المناسبات الكبرى ، وتشارك النسوة فى المناسبات الاجتماعية بصورة تتواءم مع موضوع المناسبة^(١) .

وقد اهتم بهذا الموضوع «دون بدور لونغاس» وكتب عنه كتابا بعنوان «الحياة الدينية للمورسكيين» صدر فى مدريد سنة ١٩١٥ ، وقد أوضح فى هذا الكتاب المعالم والفرائض الدينية التى حافظ عليها المورسكيون . وليس هناك بأس من محاولة التذكير بها اعتمادا على هذا المرجع بصورة أساسية .

التقويم الاسلامى : العنصر الأساسى فى ذلك التقويم هو صوم أيام شهر رمضان وإحياء لياليه ، وتناول وجبتين فقط تتكونان من عجينة تطبخ فى الزيت مع شئ من الجبن ، وفى نهاية هذا الشهر يحتفل المسلمون بانتهاء الصيام ويعيد الفطر ويكثرون من الاحسان إلى الفقراء ، وكان المسلمون الغرناطيون فى العهد النصيرى يدفعون زكاة الفطر فى شكل مقادير من القمح ، أما العيد التالى فكان عيد الأضحى أو العيد الكبير ، ويحتفلون به لمدة أربعة أيام ، وهو نفسه الذى يسميه المسيحيون عيد

(1) J. caro Baruja : los Moriscos .. PP. 118, 119

الفصح أو فصح الخروف ، لأن الكباش تذبح فيه لتذكرنا بفداء سيدنا ابراهيم لابنه الذبيح ، وبعد ذلك بأربعين يوما يحتفل المسلمون بليلة عاشوراء أو يوم الانبياء ويصومون ذلك اليوم ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر يأتي الاحتفال بعيد اسلامي لعله عيد ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذى يأتي فى الشهر الثالث بعد العاشر من محرم أى يوم عاشوراء .

وكان المورسكيون يخصصون أيام الجمع للصلاة وعمل البر والاحسان تحت اشراف الفقيه أو الرئيس الدينى للمجموعة ، وكانوا يتوجهون إلى المسجد فى منتصف النهار لأداء صلاة الجمعة بعد أن يغتسلوا ويرتدوا ملابسهم النظيفة ، ويستمعون إلى التلاوة والموعظة والذكر ، وقد يلتقون على طعام جماعى .

وهناك أوقات أخرى لها طابعها المميز فى الحياة الدينية عند المورسكيين ، تلك التى تتفق مع الأحداث الكبرى المرتبطة بالأسرة ، فقد كان المورسكيون يهتمون كثيرا بالاحتفال بالمناسبات الأسرية مثل الميلاد والختان والأفراح والموت ، وكان الطفل يعمد عند الولادة ، ولكن المورسكي كان يلغى ذلك التعميد عن طريق غسل الابناء بماء ساخن لازالة آثار الزيت المقدس ثم يكملون الشعائر الاسلامية ، ويخلعون على الطفل اسما اسلاميا ذا وقع حسن ؛ ولهذا اذا نظرت إلى ثورة المورسكيين بغرناطة تجدد رؤساء حملوا اسما وألقابا اسلامية مثل فرج بن فرج ، وآخرون عرفوا باسماء وألقاب مسيحية مثل ميجيل دى روخاس ، وآخرون عرفوا باسماء مشتركة مثل دياجولوث ابن ابو أو فرنسسكو نونيث مولى ، أخيرا لانعدم من نسبوا إلى الاماكن التقليدية لقبيلتهم مثل «لوس بالروس» los valores ورئيسهم «البالور» el valor ، وقد نجد من ينسب إلى العنصر أو الاصل مثل الحسينى ، الحباقي ، الغوري ... الخ ، وماأن يبدأ الطفل الكلام حتى يعلمه آباؤه من المسلمين الحذر والاحتياط فى مواجهة المسيحيين ، ويذكر «أثناركارذونا» - وهو أحد أعداء المورسكيين - روايات تعكس وضع الاطفال المورسكيين فى «أراجونة» ، وعلاقاتهم بالمسيحيين ، وقد كانوا يلتقون أن النصرانى كائن حقير نجس قدر ، ليس عنده خلق فاضل ولاضمير ، وكان المورسكيون يكرهون المسيحيين ، ليس فقط للاختلافات الدينية ، بل لأن العادات بين الجماعتين كانت متباينة من

جذورها وأصوها (١) .

إن هناك نقطة يتفق عليها كل المسيحيين تقريبا ، هي اعتبار أن المسلمين متساوون في تطبيق التعاليم القرآنية وفي صور العادات والتقاليد والأساليب الفنية ، إن الثقافة الاسلامية في عين المسلم تمثل كلا متكاملا ، وهي واحدة بلا اختلاف من اسبانيا إلى ايران .

يقول أحد الباحثين عن مسلمي غرناطة "أن محلاتهم ومنازلهم كانت تغلق بأبواب بسيطة من الخشب ومسامير من الزان ، كما هو الحال في مصر وافريقية ، وكل المسلمين يستخدمون نفس الادوات في المنازل ويقومون بنفس الشعائر" (٢) . بعد ذلك بزمن طويل جاء سفير الملك فيليب الثالث لدى البلاط الفارسي ليتحدث عن مدينة جاوه فيقول «إن نفس شكل الشبائيك فيها هو نفسه الشكل الذي رأيناه باقيا في بعض المنازل الكبيرة القديمة في اسبانيا أو هو ماشاهدناه في غرف الحصون الرئيسية بنفس الفترة .. إن نفس اسلوب مبانيهم وملابسهم يشبه ماكان معمولا به في الجزيرة العربية (٣)» ويقدم «مارمول» صورة مجملية لحياة المورسكيين فيشير إلى أنهم عندما كانوا يتزوجون كان يحملون العروس إلى الكنيسة مرتدية ملابسها على الطريقة المسيحية بتكليف من القساوسة ، ثم يعودون إلى منازلهم فيخلعون تلك الملابس ويلبسون الملابس الاسلامية ، ويعقدون العقد وفقا للأسلوب الاسلامي ، ويقدمون أطعمة وأغان اسلامية ، وكان المرأة تحمل دبله أو طوقا كما كانت تتحلى ببعض المجوهرات ذات الطابع الدينى وفى سنة ١٥٢٦ حرم على المورسكيين الغرناطيين لبس الطوق كما حرم عليهم احضار بعض الصحف المقدسة ، التى كانوا قد تعودوا حملها فى أيديهم مكتوبة باللغة العربية (٤)

(١) انظر المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢٢ وكذلك

aznar cardona , Folio 112 r

نقلا عن المرجع السابق

(2) Jeronimo Munzer : viaje por espana Y portugal 1494 - 1495 traduccion de Jose lopez toro, Madrid 1951, PP. 43, 44

(3) Garcia de silvo Y figuero : comentarios de D.. de la embajada que de parte del ray de espana don Felipe III hizo al rey Xa Abas de persia , T, Madrid 1903, II 1905, I , pp 205 , 206 .

(4) Marmol Carvajal (Luis de) libro ... cap. I, pag, 129 .

J. caro Baroja : los Moriscos ... PP 122 -125

وعن ذلك كله راجع

ولقد كان الفقهاء يمارسون دورهم في هذا المجتمع بصورة سرية وكانت معرفة هؤلاء للقوانين الاسلامية أقل ، لكنها كانت تكفي وفاء بالحاجة ، وكان هؤلاء يشجعون على الزواج ويدعون إلى العمل ، وقد عاد المؤذنون إلى الظهور خلال الثورة ، وعادت الوظائف التي كانت قد اختفت مثل وظيفة المفتى الذي كانت مهمته ضرورية ، وظهر قديسون نسبت لهم الكرامات وعمت شهرتهم الآفاق .

وفي بداية القرن السابع عشر كان المورسكيون في مرسية وجيان والبايون منهم بفرناطة يصومون رمضان ويحتفلون بعيد الفصح (بعيد الأضحى) وبأول العام الهجرى ، ويحافظون على تقاليدهم الدينية والاجتماعية ، فكانوا يؤدون الصلاة ويتوضؤون بدقة ، ويمتنعون عما تنهى عنه عقيدتهم ، وكان الالتزام بذلك علائقية مدعاة لسخرية المسيحيين القدامى .. لقد كان المورسكيون صارمين في مراعاة المحرمات ، فهم لا يشربون الخمر ، خاصة سكان المناطق الشرقية ومملكة بلنسية حيث توجد ~~تجمعات مورسكية عظيمة~~ ، وحيث وجدت مزارع عنب كثيرة ومع ذلك لم توجد معصرة عنب واحدة ، وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يستخدمون شحمه ولا يسمعون لثيابهم أن تمس هذا الحيوان ، كذلك لم يأكلوا اللحم غير المذكى زكاة شرعية ، ولا الاشياء التي يحتمل أن يكون قد دخلها شيء من الخنزير ، كذلك لم يأكلوا اللفت والفجل والجزر ، لاعتقادهم في قذارتها ، وكانت علامات اختلاقم عن المسيحيين تتركز في أمرين هما اللغة واللباس (١) .

وقد وصف أحد المطارنة المورسكيين سنة ١٥٦٥ بقوله : «إنهم خضعوا للتنصير ، ولكنهم لبثوا كفرة في سرائرهم ، وهم يذهبون إلى القديس تباديا للعقاب . ويعملون خفية في أيام الاعياد .، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الاحد ، ويستحمون حتى في ديسمبر ،

(1) A. Gonzalez palencia : cervantes Y los Moriscos P. 109 انظر

وانظر ايضا بعض التفاصيل عند

J. Caro paroja : los Moriscos 130 Y la nota 63 en la misma pagina Y PP 136 - 140

ويقيمون الصلاة سرًا ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعًا للقانون ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان أولادهم ويطلقون عليهم أسماء عربية وتذهب عرائسهم إلى الكنيسة في ثياب أوروبية . فان عدن إلى المنزل استبدلها بثياب عربية ، واحتفل بالزواج طبقا للرسوم العربية(١) .

ويعلق الاستاذ محمد عبد الله عنان على هذه النصوص فيقول :

والظاهر أن هذه الأقوال تنطوي على كثير من الصدق ، ذلك أن الامة المورسكيين المهيضه ، بقيت ، بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والارهاق، متعلقة بتراتها الروحي القديم . وبالرغم مما فرض على المورسكيين من نبد دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهم مسلمين في سرائرهم ، يزاولون شعائر دينهم القديمة خفية ، ويكتبون أحكام الاسلام والأدعية والمدائح النبوية بالقشتالية الأصلية أو بالقشتالية المكتوبة بحروف عربية ، التي تعرف بـ « الالخميا دو » أى الاعجمية ، وقد انتهى إلينا الكثير من الكتب الدينية والادعية والمدائح الاسلامية المورسكية مكتوبة بها ، وكثير منها يدور حول سيرة النبي العربي صلى الله عليه وسلم ، وشرح تعاليم القرآن والسنة ، يتخللها كثير من الخرافات والأساطير المقدسة، بيد أنها تدل على ما كانت تعجيش به هذه النفوس المعذبة من إخلاص راسخ لدينها القديم ، وإن التبست عليهم أصوله وشعائره بمضى الزمن (٢) .

وقد جاء في تقرير من المطران « ريبيرا » إلى الملك سنة ١٦٠١ أن الدين هو دعامه المملكة الاسبانية « وأن المورسكيين لا يعترفون ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون النبيذ ، ولا يعملون شيئًا من الأمور التي يعملها النصارى ، وأن هذا المروق العام لا يرجع إلى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع إلى العزم الراسخ في أن يبقوا مسلمين كما كان آباؤهم وأجدادهم . ويعرف المفتشون العامون أن المورسكيين بعد أن يحتلوا عامين وثلاثة وتشرح لهم العقيدة في كل

(1) Lea : the moriscos ... P.213, 214 - Marmol : qbra citada, libro 11, cap. 1

وكذلك

عنان : نهاية الأندلس .. ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٢) عنان : نفس المرجع السابق والموضع السابق .

مناسبة يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها . والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة ، لأنهم لا يريدون معرفتها ولأنهم لا يريدون أن يعملوا شيئا يجعلهم يبدون نصارى (١) .

لقد كانت الأحداث الأسرية اذن بما فيها من زواج وميلاد وموت تتسم بطابعها المميز فى الحياة الدينية عند المورسكيين ، وكانت أكثر شعائر الميلاد أهمية هى تلك التى يحتفل فيها بالمولود حديثاً ، ذلك أنه فى اليوم السابع لميلاد الطفل كان يغسل وينظف بهدف تطيره ، وتحفر له نقوش على الجبهة وتعلق على رقبتة تائم فيها آيات من القرآن الكريم ، ثم يختارون له اسما اسلاميا ، ويذبحون ذبيحة بهذه المناسبة . يضاف إلى هذه الشعائر «الختان» الذى كان يتم فى اليوم الثامن بطريقة بدائية ، ثم أصبح يتأخر حتى وصل إلى العام الثامن . وكان من تقاليد المورسكيين أنهم يغتسلون بمناسبة الزواج . وكانت العروس تضع خمارا ملونا على رأسها ، وتتجه إلى منزل زوجها وتدخله بالرجل اليمنى . وعندما يموت المورسكى كانوا يغسلون جسمه بالماء المعطر ، ويلبسونه أفضل الثياب ، ويقرؤون على الجسد آيات من القرآن الكريم ثم يقومون . بدفن الجسد خارج العمران بأرض خلاء ويوجهونه ناحية المشرق ، وكانوا يضعون ماء وخبزا وعناقيد من العنب الجاف على القبر .

وهناك أشياء يحرم المورسكيون أكلها للأسباب دينية يمكن حصرها فى ثلاثة : يحرم أكل لحم الخنزير ، ولا تشرب الخمر ولا يؤكل لحم حيوان لم يذك زكاة شرعية .

ويزعم : . كاردياك (٢) أن محمد صلى الله عليه وسلم لعن الخنزير لأن ذلك الحيوان مسه ولطخ ثوبا جديدا كان يرتديه ، ولسنا ندرى من أى مصدر أتى بهذه القصة المختلفة فالخنزير محرم بصريح نص القرآن الكريم .

(1)longas, pedro : vida relegiosa de los Moriscos

Madrid , 1915 P. LXVIII

Ica : the moriscos, P. 213 , 214

Marmol : abra Citada , libro II , cap. 1

وانظر عنان : المرجع السابق ص ٣٩٥

(٢) أنظر :

وكذلك عنان . نهاية الاندلس ص ٣٧٨ . ٣٧٩

وفى أكثر من موضع . والعجيب أيضا ما يقال من أن هذه المحرمات دفعت
المورسكيين إلى عدم أكل الفجل واللفت والجزر ، لأنهم يعتقدون أنها
أشياء مشتقة من الخنزير ، ومرة أخرى لاندرى من أين أتوا بهذه
الأمور 115

باختصار لقد حافظ المورسكيون قدر استطاعتهم على كل الواجبات
الدينية والاسلامية من صيام ووضوء وصلوات وزكوات وابتهالات ، وكل هذا
كانت له أهمية كبيرة عندهم ، لهذا يذكر «مرثيدس جارثيا ارنال» أن
المورسكيين وصل بهم الأمر إلى اعتبار «الحمام» معلما من معالم هويتهم
الثقافية (١) . فواجب المؤمن عند الفجر وقبل الصلاة الأولى أن يغتسل
(يتوضأ) ويجب أن يكون ماء الوضوء نظيفا لا لون له ولا طعم ولا رائحة ،
وكذلك ينبغي الا يكون مغليا ولا تستخدم حرارة الشمس فى تسخينه ،
ويجب غسل الفم بعد كل أكل ، وكان من الممكن أن يؤدى المسلمون الصلاة
بركوعها وسجودها سرا دون أن يطلع المسيحيون على ذلك ، وكانت أدعية
الصلوات ومايتلى فيها من قرآن يدور بين المورسكيين خفية ، وكانوا جميعا
يحفظون أول سورة فى القرآن الكريم وهى سورة الفاتحة (٢) وكان عندهم
الممام بشعائر حج بيت الله الحرام وزيارة الأماكن المقدسة ، يدل على ذلك
مخطوط عشر عليه فى «اراجون» عنوانه «أدعية الحج : رحلة إلى مكة فى
القرن السادس عشر تأليف «هومي منثرون» ، وهذا يؤكد أنهم لم يكونوا
يجهلون هذه الشعيرة رغم أنها كانت نادرة بينهم . ويبدو واضحا من ذلك كله
أنهم لم يختلفوا عن غيرهم من المسلمين فيما يتعلق بأداء الواجبات
الاسلامية ككل (٣) يقول مارمول . وهو المؤرخ الاسبانى الذين أدرك
المورسكيين وعاش بينهم حينما فى غرناطة - أنهم كانوا يشعرون دائما بالحرج
من الدين الجديد ، فاذا ذهبوا الى القداس ايام الأحاد فذلك من باب مراعاة

(1) Mercedes Garcia Arenal : los Moriscos y la inquisición de

cuenca , tesis mecanografiada , ذكرها

Bernard vincent : Historia de los Moriscos .. P. 92

(2) L. cardaillac , obra citada , P. 40

(3) B. vincent : obra citada , P. 92†

العرف والنظام ، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف . وفى يوم الجمعة يحتجبون ويفتسلون وقيمون الصلاة فى منازلهم المغلقة وفى يوم الأحد يحتجبون ويعملون ، وإذا عمد أطفالهم عادوا فغسلوهم سرا بالماء الساخن ويسمون أولادهم بأسماء عربية ، وفى حفلات الزواج ، متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقى البركة ، تنزع ثيابها النصرانية ، وترتدى الثياب العربية وقيمون حفلاتهم وفقا للتقاليد العربية (١) .

إن ممارسة المسلمين لشعائر دينهم لم تختف عندما حملوا علي التحول إلى النصرانية عام ١٥٠٢ فى مملكة قشتالة ، ولم تنته عندما أجبروا على التنصير فى مملكة اراجون سنة ١٥٢٦ وهناك وثيقة وجهها واحد من فقهاء المغرب إلى المسلمين المنصرين بالاندلس الذين يسميهم «الغرياء» ينصحهم فيها بتنفيذ ، أحكام الاسلام خفية وبطريق التستر ، هذه الوثيقة مؤرخة غرة رجب ٩١٠ هـ (٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤م) . وكان من المناسب أن تطرح منذ اللحظة الأولى لهذا التنصير مشكلة صحته من الوجهة الشرعية بمعنى أنه كان لابد من الاجابة على سؤال مضمونة ، هل التعميد والتحويل إلى المسيحية بالقوة له قيمة وتترتب عليه آثاره ؟

لقد ارتفعت أصوات خلال القرن السادس عشر تستنكر هذا التحول إلى المسيحية استفادا على سببين ، الأول أنه بطريق القهر والاكراه ، الثانى أن هذا يناقض المعاهدة التى وقعها المسيحيون مع المسلمين فى مملكة غرناطة فى الفترة ١٤٨٦ إلى ١٤٩٢ وأن هذه المعاهدة لم يحترم الجانب النصراني نصوصها (٢) وقد أعلن أحد الآباء الفرنسيسكان - فى أواخر القرن نفسه « أن ذنب تحويل المسلمين إلى النصرانية يقع على كاهلنا نحن » (٣) وحتى

(١) انظر : له ما

Marmol carvajal , luis de : Historia de la.releion y castigo de los moriscos del reino de Granada libro 11, cap. 128, 129

ومنان : نهاية الاندلس ص ٣٤٢

(2) Archivo general de simancas .patronato real 68 - 64

B. vincant : historia .. P. 93 ذكره

(3) F. santo Niela : El prolelcma Hispano - Morisca (siglo XVII "Revisto de Estudios Extrimenos" ano 1973, P. 47

انظر الوثيقة كاملة عند محمد هيد الله منان : نهاية الاندلس ص ٣٤٢ وما بعدها

الملك نفسه لم يكن على يقين دائم من حقه في اتخاذ هذا الأجراء ، يدل على ذلك تردده فيما يخص تحويل المورسكيين فى بلنسية إلى النصرانية بنفس الأسلوب ، فقد مضى عام ونصف العام بين اللحظة التى تم فيها تحويل بعض المساجد نهائيا إلى كنائس ، وبين التاريخ الذى أعلن فيه التحويل العام إلى النصرانية وهو ١٣ سبتمبر ١٥٢٥ .

ومع ذلك فإن أحداثا كهذه لايمكن النظر إليها ، الا باعتبارها تأجيلا لإجراء لايمكن الفرار منه أو هى استثناء من وضع عام ، وكان هناك من يرى أن مجموع الشعب الاسبانى مع هذا الاجراء ، لأنه برغم القوة أو الاكراه ، إلا أن الاختيار كان هناك ، فقد كان لدى المسلمين امكانيات للهجرة ومغادرة البلاد مع المحافظة على إسلامهم ، لكن معظمهم آثر البقاء والتحول بالتالى إلى المسيحية ، كان هذا هو الموقف الرسمى ، وإن ادرك الكل عدم كفاية السر الكنسى الذى تلقاه هؤلاء المنصرون ، وأن الغالبية العظمى منهم تبدي استعدادها للدخول فيما حملوا عليه ، أنه عمل من أعمال التبشير ترجع فكرته إلى سنة ١٥٠١ ان لم يكن قبل ذلك ، وقد استمر على امتداد سنوات القرن السادس عشر ، وغطى جانبين أساسيين على مستويين مختلفين ، الأول ممكن أن يقال له مستوى علمى والآخر مستوى شعبى ، ويعنى الأول الجدل المستمر بين رجال اللاهوت والعقيدة مسلمين ومسيحيين (١) . والمسيحيون حاولوا اثبات أفضلية الانجيل على القرآن والتعميد على الختان ، هذا هو المضمون الاساسى لكتاب «ضد القرآن» الذى ألفه «برناردو بيريث دى شُنسُون» والذى طبع فى اشبيلية عام ١٥٢٨ ، وفى بلنسية عام ١٥٣٢ ، وهناك مؤلفون آخرون صمموا على عدم تقديرهم للنبي محمد صلى اله عليه وسلم ، لأنه فرض تعاليم القرآن بالسيف ، وخذع اتباعه حين قدم لهم أمورا أخلاقية سهلة التطبيق ، ثم اذا

(1)cardailac : la polemique anti-chretinne du manuscrit aljamiad no 4944 de la bibliotheque nationle de madrid . Ejemplar mecanografiado , tomo, 1 PP 115 y siguientes .

B.vincent : la historia .. P. 93

بالسيف ، وخذع اتباعه حين قدم لهم أمورا أخلاقية سهلة التطبيق ، ثم اذا كان هناك آيات فى القرآن الكريم تعد مقبولة ، وهي قليلة ، فانها مستمدة من نصوص مسيحية أو يهودية .

وهناك عمل آخر كتبه أحد الآباء الدومنيكان ، عنوانه improbatio Alcorani ، وكان مؤلف هذا الكتاب قد أقام لفترات طويلة فى بلاد اسلامية خاصة فى قارة آسيا ، وقدم مادة تعتبر نادرة ، وقد طبع الكتاب باللغة اللاتينية سنة ١٥٠٠ فى مدينة أشبيلية ، وطبع بعنوان «ذم القرآن» فى نفس المدينة سنة ١٥٠١ ، وطبع مرة أخرى فى طلطيطة سنة ١٥٠٢ (١)

وقد ظهر فى بلنسية سنة ٥١٩ كتاب آخر لمؤلف آخر بعنوان شعلة العقيدة فى مواجهة القرآن ، وفيه يشهر صاحبه - فيما يزعم - بالملذات الشهوانية التى وصف بها القرآن الكريم جنة الفردوس ، ويتحدث عن الشبق الشهوانى عند محمد صلى الله عليه وسلم . وهناك كتب مناظرة تعالج أشياء مشابهة مثل كتاب آخر عنوانه «فى مواجهة القرآن والعقيدة الاسلامية» ، وقد حاول الاستدلال على أفكاره ببراهين مستمدة من نفس كتب المسلمين ومن نفس حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نشرته محكمة التفتيش بفرنطة سنة ١٥٥٥ . وهناك كتيب من تأليف «خوان اندرس» يشتمل على اثنى عشر فصلا ، وهو أيضا يثير الجدل ويشبه فى مضمونه ولهجته الكتب السابقة ، ولكن شخصية مؤلفه ومحققه من نجاح يجعل له قيمة خاصة ، فقد زعم أنه أبرز التناقض بين تأكيد محمد صلى الله عليه وسلم أن القرآن وحى الله إليه جاءه عن طريق الملك ، وبدأ نزوله عليه فى مكة فى ليلة ما ، وبين أنه كان من الضرورى أن تمر عشرون سنة حتى يتم نزول القرآن ، وقد نشر الكتاب أولا فى بلنسية سنة ١٥١٥ ، وأعيد نشرة فى أشبيلية سنة ١٥٣٧ وفى غرناطة سنة ١٥٦٠ وهذا المؤلف كان فقيها وابنا للفقية الرئيسى الدينى للجماعة الاسلامية فى «خاطبة»

(1)M. Romero Martinez : veinte incunables Sevillanas que tratan de historia . Sevilla 1946

وكان اسمه ابن عبد الله وقد تحول إلى النصرانية في أغسطس سنة ١٤٨٧ ، ورقى إلى مرتبة قسيس ، وحمل اسم اثنين من الحواريين عمدا ، وقد عينه الملكان المسيحيان كاهنا ، واثتمنوه على حمل «الخبر الجديد» أى اعتناق ، أبناء دينه القديم فى غرناطة للنصرانية ، ثم أرسل بعد ذلك إلى المسلمين فى «أراجون» لنفس المهمة ، وقد ترجم معانى القرآن الكريم إلى اللغة القشتالية ، كما ترجم كتب السنة السبعة (١) .

وهذه الأعمال التى أشير إليها توجهت إلى جمهور محدود ، لكن أمكن أن تكون مفيدة كقاعدة لمحاولة تحويل الجماهير المسلمة إلى المسيحية ، وقد ايد الملكان المسيحيان - فيرناندو وإيزابيلا - فكرة تخصيص قساوسة معينين لسكان مملكة غرناطة ، ودعما محاولات المطران «فراي إيرنندوى طلبيرة» الذين حاول عام ١٤٩٤ استماله من يعرفون العربية للقيام بالخدمات الدينية ، وقد اهتم طلبيرة نفسه سنة ١٥٠١ بنشر كتاب حول القواعد والمفردات العربية ، كان قد أعده أحد الأباء الفرنسيسكان وكان مكلفا بتزويد محاكم التفتيش بالمعلومات الضرورية عن هذه اللغة العربية ، وكان هو نفسه مثالا لفهم بعض أسسها (٢) .

وقد أثمرت هذه المجهودات إلى حد ما قبل ثورة سنة ١٤٩٩ ، ولكن آثارها بقيت محدودة فى أقلية بسيطة ، لهذا نرى أن الملكين الكاثوليكين ، أسرعوا بطلب مساعدة مطران قشتالة عن طريق ارسال بعض رجال أوفرق الاكليروس إلى غرناطة ، وكان ذلك عقب صدور الأمر العام بتنصير غير الكاثوليك وتحويلهم إلى المسيحية ، وهذا هو مضمون الأمر الملكي المحرر فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٥٠٠ وكان هناك اصرار على ضرورة تحقيق هذا الهدف خلال السنوات التالية بكل الوسائل ، وقد انتشر الرعاة القساوسة بكل الكنائس فى مملكة غرناطة ، ولم يخل منها إلا القليل ، ولم يحدث نفس الشئ فى بلنسية ، إذ كان عليها أن تنتظر عشرة أعوام حتى تقام فيها

(1)F. pons : Estudios Breves , Madrid .

(2)M.A. ladero quesado : los Mudejares de castilla en tiempo de Isabel , valladolid 1969

شبكة من الكنائس تلبى بصورة مرضية - متطلبات المورسكيين الدينية بعد التحول الى المسيحية سنة ١٥٢٥ . وفى سنة ١٥٣٥ أسندالى اسقف ثيوداد رودريجيو واسمه - انطونيو راميث دى آرو- مسئولية انشاد كنائس فى الاماكن التى يسود فيها المورسكيون ، وقد تم عندئذ اقامة حوالى ١٢٠ كنيسة فى هذه الاماكن (١) وكان المشكلة الكبرى التى تحول دون أدائها لوظيفتها ذات طابع مالي ، يستوى فى ذلك الكنائس الغرناطية والبلنسية فلم تكن أى منها تمتلك شيئا وكان لابد من منحها الحد الأدنى من العشور أو الممتلكات التى كانت موقوفة على المساجد ، مثل تلك الاوقاف التى كانت محبوسة على مساجد غرناطة ، وهى عبارة عن أراضٍ وطواحين ومنازل يدفع مستأجروها ايجارا معيناً للكنيسة ، وكان من الضرورى الاستعانة بمصادر دخل أخرى ، مثل تاج أسقفية بلنسية الذى قدم عائدا مقداره ٢.٠٠٠ دوكادوس ١٥٥٣ .

لكن اقامة الكنائس فى أماكن معينة شئ ، والحصول على ثمرة فعالة منها شئ آخر ، فنوعية من اختيروا للتبشير والخدمات الدينية فى القرى المورسكية ، كان يؤسف لها بصفة عامة ، والمعينون للعمل فى الكنائس كانوا فى أغلب الأحوال أشخاصا غير مناسبين أو كانوا موضع شبهة ، وكان يوجد بينهم مراهقون أو رجال مما كانت لهم قضايا أمام محاكم التفتيش ، ولهذا فقد تضاعفت الشكاوي التى قدمها المورسكيون ضد رعاتهم على امتداد هذا القرن ، وبعضها يندد بفرض ضرائب باهظة وبصورة تعسفية ، كان المورسكيون هدفا لها ، وبمناسبة أى احتفال أو شعيرة ، وهناك قساوسة حملوا المورسكيين على هجرة الكنيسة وعدم القيام بواجبات أساسية لها ، ومنهم من استخدم الايدى المورسكية العاملة أيام الأحاد للعمل فى بساتينهم وأررضيهم ، وآخرون اتهموا بأن لهم علاقات مع رعاياهم ؛ وكان لمعظم هذه الاتهامات أساس حقيقى (٢) .

(1)T. Halperin Donghi : un conflicto nacional ...

(2)A. Dominguez : crisis y decadencia de la espana de los Austrias .
Barcelona , P. 34 1969 .

وقد أمر «كارلوس الخامس» بإجراء إحصاء فى مملكة غرناطة ، وظل متأثرا بنتيجته طوال فترة اقامته بتلك المدينة سنة ١٥٢٦ ، وقد أوقع العقاب على كثير من القساوسة ، حيث وجد أن ٦٠٪ منهم يغيبون ، ويكرسون جهودهم ووقتهم لصناعة الحرير ، وقد نصحوا بأن يعطوا وقتهم للخدمات الدينية (١) ، فماذا كان يطلب منهم ؟

هذا يمكن معرفته من خلال القرارات الجمعية ومن خلال الزيارات الاسقفية مثلا قرارات مجمع غرناطة سنة ١٥٤١ ومجمع قادش سنة ١٥٥٤ ، ومثل زيارة أسقفية غرناطة سنة ١٥٣٧ ، لقد كان مطلوبا من القسيس أن يعلم المورسكيين الصلوات الأربع الرئيسية وهى الصلاة الربانية والكلام الملائكي وأساس المذهب المسيحى ، وصالة "أهلا" ، كما كان مطالبا أن يعلمهم الوصايا العشر وبنود العقيدة وعليهم يقع عبء تعليم اشارات الصليب المقدسة ، وعلى القسيس أن يراقب حضور المورسكي للصلوة فى أيام الاعياد وتأديته لصلوة الفصح ، وعليه أن يشرح لهم صلاة البشارة إن استطاعوا أداها فى أيام الأعياد ، أما فى أيام العمل فعلى القسيس أن يركز اهتمامه على التبشير والتعليم بصفة خاصة ، وعليه أن يعلم النساء أصول الدين فى يومى الاربعاء والجمعة ويهتم يوميا بتعليم العقائد للأطفال ، ومن الواجبات المناطة بالقسيس عقد امتحان فى أصول الدين لأبناء الدائرة ثلاث مرات فى كل سنة ، هذه هى الواجبات الجوهرية للقسيس ، وان كان يشك فى تطبيق البرامج بصورة كاملة ، ولكن ذلك على أى حال دليل على اهتمام الملك وتمسكه بأداء الخدمات الدينية .

ومن الممكن - من خلال الزيارات الأسقفية التى جرت فى مملكة قشتالة سنة ١٥٨١ - أن نزن النتائج ونلمس مدى التطبيق ، فمثلا فى أسقفية "كونيكا" نرى أن كل المورسكيين الغرناطيين المقيمين حديثا يعرفون

(1) Archivo general de simancas : camara de castilla, cedula 255, fol . 319, V. 321, 326 y archivo Municipal de Granada , libro de provisiones , 1, fol. 467

B. vincent : la historia ... P. 95 . وقد ذكر كل ذلك .

كيفية أداء وترتيل الصلوات الاربع مع استثناءات قليلة ، ونفس الشيء بالنسبة للمصايح العشر وبنود العقيدة (١) ، ولكن ليس هناك شك أن هذا الترتيل كان بالنسبة لهم مجرد أنشاء لنصوص لا يحمل معنى الاقتناع .

وحيث إنه قد اكتشف أن الاطار الدائم الذى وضعته الهيئة العليا للخدمات الدينية (الاكليروس) غير كاف ، فقد كان من الضروري الاستعانة بأساليب إضافية يذكر من بينها ولاهد تنظيم الإرساليات واقامة المدارس التى تخصص لابناء المورسكيين وحدهم . وخلال القرن السادس عشر أمكن تخريج ستة أفواج تبشيرية ، بملكةبلنسية ، كان أولها يمارس مهمته فى إطار المرسوم العالى الخاص بتحويل المورسكيين الى المسيحية والصادر فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٥٢٥ . وفى مارس التالى عين كل من مندوبى التفتيش وأسقف قادش للتبشير فى جنوب نفس المملكة ، كما عين اثنان من الفرنسييسكان لنفس الغرض ، بالاضافة الى لويس دى بويرتا و"ميثيرخوان سونير" ، وقد طاف كل من "جيبارا" و"سونير" - وعلى امتداد ثلاثة أشهر من مايو الى يوليو - كل مناطق جنوب البلاد وفى شهر نوفمبر وديسمبر طاف نفس المندوبين كل شمال المملكة (٢)

لكن حملة من التبشير سريعة كهذه لا يمكن أن تثمر الا نتائج سطحية ، وقد اتضح أن هذا النشاط التبشيرى مخيب للآمال ولذلك حدث احساس بالحاجة الى تنظيم دورة ثانية من البعثات الارسالية وقد اتخذ قرار بهذا بناء على توصية من مجلس "موثنون" اويسكا سنة ١٥٣٧ ، وبناء على توصية اجتماع حضره قسيس الملك وأسقف كارتاخينا وبعض أعضاء محاكم التفتيش . وكانت الشخصية الأساسية فى هذه المهمة هى شخصية الفرنسييسكان" باترولومى دى لوس انخلس" هذا الاندلسى الذى يعرف

(1) archivo general Le simancas , camara de castilla , leg . 2183 sin foliar .

(2) A. Redondo :Fray Antonio de Guerra , tesis Mecanograf iada 1974 . cap. 5.les activites inquisitoriales ذكره .

B. vincent :la Historia ...p . 96.

العربية ، والذي كان قد اشترك فى حملة ١٥٢٥ ، وفى الفترة بين التاريخين ١٥٢٥/١٥٣٤ كان قد عين رئيسا لأديرة الفرنسيسكان فى الاندلس . وفى سنة ١٥٤٣ توجه الى مناطق الجنوب فى مملكة بلنسية ، يرافقه مساعد كان مورسكيا ، وقد حققت مهمته نجاحا قليلا ، الا أنه وجه بمعارضة قوية سواء من السادة أو القساوسة الذين تفجرت أريحتهم الطيبة تجاه الممارسات مع المسلمين ، ويبدو أنه قد تم التوصل الى تسهيل حرية المسلمين الأسرى ، وقد توجه الاتهام الى الراهب "باترلومى" وقدم للمحاكمة وأمكنه الهرب من الدير الفرنسيسكانى فى بلنسية وصدر ضده حكم غيابى ، وانتهت مهمة هذه البعثة سنة ١٥٤٧ (١) ثم قام أساقفة مملكة بلنسية بتنظيم حملة ارسالية ثالثة سنة ١٥٦٧ ، وقام اسقف "طرطوشة بالتبشير فى "وادى اكسو" مرة أخرى ، كما رأت مشروعات أخرى الضوء فى عام ١٥٨٧ ، وقبل ذلك بعام أرسلت حملة مكونة من خمسة فرنسيسكان وأثنين من اليسوعيين تحت رعاية المسئول الدينى لبلنسية ، ثم فى سنة ١٥٩٩ عهد الى السلطات المحلية الدينية بالاشراف على تلك البعثة ، وكان آخر مجهود فى هذا الصدد بعثة تم ارسالها بتشجيع من البابا سنة ١٦٠٦ ، ثم توقف التبشير مع طرد المورسكيين من كل اسبانيا .

ولم تكن حملات التبشير قاصرة على بلنسية وحدها ، بل كانت غرناطة ايضا هدفا لمبادرات مماثلة ، الأولى منها تزامنت مع بعثة بلنسية سنة ١٥٢٥ ، وإن رجعت المحاولات الى السنوات ١٥٠٠-١٥٠٢ ، وهذه كتلك ، كانت كلتاها محاولة لتنصير مجموع سكان القرى الاسلامية وتلقينهم مبادئ العقيدة المسيحية ، ولاشك أنه قد تظمت بعثات أخرى وان كانت غير واضحة أو معروفة بنفس درجة معرفة بعثات بلنسية ، ونحن نعرف مثلا أن الراهب الفرنسيسكاتى "خوان دى اوليفا" كلف بنشر والتبشير بالعقيدة المسيحية بين المسلمين فى حى "البيازين" بغرناطة ، وكان يتقاضى عن ذلك راتبا سنويا مقداره ١٥ ألف مرابطى (٢) وكان نشاطه موضع جدل كبير ،

(١) النصوص المتعلقة بهذه البعثة موجود عند .

Janer : condicion social de los Moriscos, Madrid 1857 .

(2) Archivo general le Simncas , Cedula , 27 Fols . 206 vy 208 .

وقد كتب حاكم غرناطة الى الملك مبينا أن عظاته تسبب اضطرابا بين المسيحيين الجدد ، ويبدو أن راهبا فرنسيسكيا آخر أقام فترة طويلة لمهمة مماثلة فى مناطق "البشرات" ، وقد منح مكافأة له على عمله ، مع شخصية أخرى ، ١٥ ألف مراهطى ، أخذت من إيرادات الأوقاف ، وكان مهمته تنحصر فى محاولة الحصول على الاعتراف ، وتعليم العقيدة لمن تنصروا حديثا فى منطقة البشرات(١)

وكان لرجال الخدمات الدينية العادين دور بارز ، ظهر عندما تبين عدم كفاءة الدور الذى قامت به بعثات خصصت للتبشير ، وكان من الطبيعى أن يستعين القصر الملكى بالرهبان الدومينكان والأوغسطين وخاصة الفرنسيسكان واليسوعيين ، وهناك دليل يدل على نشاط الفرنسيسكان يتمثل فى وجود دير يتبع نظام هذه الطائفة فى وادى "اورناشوس" باستمراريا دورا ، ونحن لا نعرف تاريخ نشأة هذا الدير ، ولكنه يرجع بلاشك الى فترة مبكرة من القرن السادس عشر ، ومن المؤكد ان رهبانه كانوا عمليا هم السميحيون الوحيدون الذين عاشوا فى هذا الموضع الى أن طرد المورسكيون سنة ١٦١٠ ، وقد قامت الجمعية الأخوية فى غرناطة سنة ١٥٢٦ بإنشاء أربعة أديرة منها اثنتان للفرنسيسكان واثنتان للدومينكان .

وقد كان هناك تعاون بين اليسوعيين ، والذى كان يطلب منهم هو المساعدة فى تشكيل الاطفال المورسكيين ، وهذا جانب رئيس فى التنصير ، وكانت السلطات ترى أن هناك نوعان ينبغى أن توجه إليهما عناية خاصة هم الوجهاء والاطفال ، أما الاولون ، فلان نموذجهم يمكن ان يتحدد على اساسه التحول الحقيقى للنصرانية بين السكان المورسكيين ، أما الآخرون فلأنه ينتظر ان يكونوا على العكس من آرائهم ، يعنى يصبحون مسيحيون جيديون عندما يتولون مسئوليات فى سن مبكرة ، انها محاولة سياسية واعية ، طبقها الملوك الاسبان على نطاق واسع ، ونفس الشئ الذى حاولوه

(1) Archivo de la Alhambra , leg . 15,P.72 Y leg . 58,P.12

B. Vincent : Historia ... P.97.

وانظر فى الموضوعين السابقين

مع المورسكيين كان يتم فى نفس الفترة مع سكان امريكا الأصليين .
وقدعبرعن ذلك الامبراطور " كارلوس الخامس " بوضوح شديد فى نفس
تعليماته لمبشرى مملكة بلنسية "سيكون جيدا ... فى حالة ما اذا كانوا
منتمين ومتقبلين فى مذهبهم ، وعازمين على أن يذهبوا خارج مملكتنا ...
أن يتركوا أولادهم ولايد ، حتى يصبحوا مسيحيين ، وسيكون لهذا دور
كبير فى تنصير الآباء" ، وقد تجه نفس الملك الى عبيد "الدوق دى
سيجورى" الذين أرادوا الهجرة وقال لهم "لايد أن تتركوا أبناءكم كى نعرفهم
كلمة الله ونحولهم الى عقيدتنا قدس الأقداس الكاثوليكية (١)

وفى سنة ١٩٢٦ قرر المجلس الفرناطى انشاء مدن سكنة تعليمية
خاصة بأولاد المورسكيين فى غرناطة والمرية وقادش ، وحتى الآن ، لاتوجد
دلائل على وجود هذه المدن فى المدينتين الأخرتين ، على عكس مايتعلق
بمملكة غرناطة التى نعرف إنها افتتحت فيها سنة ١٥٣٠ مدينة سكنية
تعليمية يمكنها استيعاب مائة تلميذ ، وقد أكدت ذلك النشرة البابوية
الصادرة سنة ١٥٣١ ، أما المدينة التعليمية فى سان ميغيل فقد تلقت
تبرعا مقداره ٥٥٠ الف مرابطى ، كانت لها قيمة شرائية فى هذا التاريخ
تزيد على ثلاثة ملايين بيزته فى الوقت الحاضر ، وكان أول مدير لها هو
فرنسكودى أوتيل الكاهن القانونى لكاتدرائية غرناطة ، ومع ذلك فإن هذه
المدينة لم تستطيع خدمة الأهداف المقررة لها سلفا لفترة طويلة ، ذلك أنه
بعد زمن بسيط وعلى وجه التحديد سنة ١٥٥٨ ، كان كل تلاميذها من
ابناء المسيحين القدامى .

وقد حدث مجهود مماثل فى «جانديا» بعناية الدوق الذى عرف
مستقبلا بإسم «سان فرنسسكودى بورخا» وفى سنة ١٥٤٤ عهد إلى
اليسوعيين بالإشراف ورعاية معهد تعليمى يخصص لإستقبال ١٨ ممنوحا

(1) Archivo historico nacional: inquisicion ; libro 256, Fol 462V
libro 296 Fol .70.

وانظر

B. Vincent : obra Citada , P. 98.

بينهم ١٢ من المورسكيين ، وكان الفشل سريعاً ، يدل على ذلك قرار صادر فى ٣١ أغسطس سنة ١٥٤٨ لا يُصرّ على واجب أن يكون التلاميذ من المورسكين . وكانت هناك مدينة جامعية فى بلنسية ، ربما كانت أسعد حظاً ، لأنه فى نهاية القرن السادس عشر قامت الخطة على أساس أن يساعد المورسكيون الذين تعلموا فيها وتخرجوا منها ، رجال البعثات التبشيرية . ولكن المؤسسة المشهورة أكثر من غيرها كانت مؤسسة "بيت العقيدة" التى حلت محل المدينة الجامعية "سان ميغيل" وكانت تقع فى حى البيازين ، وهو الحى الذى يسيطر عليه المورسكيون ، وكان قد عهد إلى الأب "دون بدروجيرو" سنة ١٥٥٩ بالإشراف على بعض المدن الجامعية ، وقد تحول قسم كبير منها ليكون مركز الأب "فرنسيسكو البوتودو" وهو مورسكى ابن لحداد وتلميذ قديم فى المدرسة الجامعية "سان ميغيل" وكان من قبّل قد قبّل فى جماعة أخوة المسيح ، لقد علم أبناء دينه القدامى مستخدماً اللغة العربية. وحقق بعض النجاح وله بعض التأليف . وقد واجه بيت العقيدة صعوبات خطيرة قبل طرد المورسكيين من غرناطة سنة ١٥٧٠ . (١)

ويؤخذ من مجموع الإجراءات المتجهة إلى التنصير ، رغبة المسيحيين فى صهر الإقلية المورسكية وتذويبها فى الأكثرية المسيحية ، ولكى ندرك كل مغزى لهذا الإجراء : يعنى لسياسة التذويب بصورة واضحة ، فإنه لا بد من وضعه مرتبطاً بالجانب المدمر ، يعنى جانب القمع والزجر . إن "طوليو البيرن دولجى" فى مؤلفه حول المورسكيين البلنسيين ، يميز بين المراحل الآتية فى مسيرة المشكلة المورسكينة ببلنسية : التحول الى المسيحية والتبشير بين سنتى ١٥٢٠ - ١٥٧٠ مع طرح العقيدة المورسكية إبتداء من مرحلة النزاع الاجتماعى بين البرجوازية وحرفية الضواحي من ناحية ، وبين الأرستقراطية صاحبة الثروات الواسعة. والعيبد المورسكيين من ناحية أخرى ب - القمع والتبشير وهذا بُعد جديد للمشكلة ابتداء من ثورة غرناطة سنة ١٥٦٨ ، وقد تميز بالتحطيم التدريجى للتراكيب المورسكية بفعل محاكم

١- أنظر B . Vincent : Historia ... P.99 والمراجع المذكوره عنده

التفتيش مع ملاحظة أن اليسوعيين لم يشتركوا قط بصورة جلية فى مظاهرات العقيلة المعادية للمورسكيين . ح - طرد المورسكيين بشكل محدد د - بلنسية بدون المورسكيين مع إشارات غزيرة عن مشكلة الدين وعن التعمير (١).

وواضح أنه يميل الى التمييز بين مرحلة لتذويب وصهر المورسكيين فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، وبين مرحلة للقمع جرت أحداثها فى النصف الثانى من نفس القرن خاصة بعد سنة ١٥٧٠ ، وقد اشتدت السلطات فى القمع بسبب خيبة آمالها وضآلة النتائج التى حققتها ، ومخ ذلك فإن عنصرى التذويب والقمع لم ينفصلا حقيقة قط ، وذلك أن اجراءات القمع كانت تمارس فى الحال ، وكان يلجأ اليها باعتبارها البديل الثانى منذ البداية .

وقد اتخذ أسلوب الردع مظهرين رئيسيين ، ودعم بجهاز قانونى واسع كان يتطور دائما . والهدف دائما هو إبعاد أى مظهر فردي أو جماعي للالتصاق بالاسلام ، وقد حاول المورسكيون مرات التوصل الى إلغاء أو تأجيل القوانين التى تهددهم ونجحوا فى ذلك أحيانا ، لكن ذلك لم يكن قاطعا . وقد كان هناك من يعارضهم ويخالفهم ، كما لجأت السلطات الى استخدام اسلوب اقامة الدعاوى القضائية ، لكن الجهاز البالغ الأهمية فى الردع كان جهاز محاكم التفتيش والنموذج الغرناطى له مغزى ، فمنذ مطلع القرن السادس عشر ، وروح السياسة محدودة . نجد هذا معبرا عنه بوضوح فى نص ربما يرجع الى سنة ١٥٠٠ او سنة ١٥٠١ ، هذا النص لواحد من الرهبان ، فقد تكلم عن جهود المبشرين ، وعن الاجراءات والمظاهر التى لا بد

١- أنظر . j . regla : Estudios sobre los Moriscos , p 226 (1)

وأنظر- Halperin Dongi : Un conflicto nacional : Moriscos Y cristianos Viejo en valencia . Cuadernos de historia de espana xxIII - xxIV buenos Aires , 1955 , pp 5 - 115 xxv - xxvi 1957 , pp . 83 - 250 .

ولنفس المؤلف

Recou vrements de civilisation : les morisques de Royaume de valence au xvi siecle , snnales , xI , numero 2 , paris , 1956 , pp . 154 - 182 .

من الاصرار عليها ثم قال : « أن تنسوا كل شعيرة وكل شئ مورسكى فى الصلوات وفى الصيام وفى الفصح وفى الأعياد وعند ميلاد الأولاد وفى الأفراح وفى الفسل والجناز وكل الأشياء الأخرى » (١)

فليس هناك تساهل مع أى شئ اسلامى ، والغاية هى تشكيل مسيحين حقيقيين والاستئصال الكامل للاسلام بكل مظاهره فى نفس الوقت.

أنه توجد وثائق رسمية ترجع الى سنة ١٥٠١ ، واحدة منها تختص بالحمامات واستخدامها ، صادرة فى ٣٠ يوليو ، وأخرى تتناول الكتب صادرة بتاريخ ١٢ أكتوبر (٢) . الأولى تتصل بمدينة غرناطة وحدها وتذكر الرجال الذين يذهبون الى الحمامات فى الاوقات المخصصة للسيدات ، والثانية تذكر حرق كل المؤلفات الدينية التى كانت فى حوزة المورسكيين « اننا نعطى مهلة مدتها ثلاثون يوما ، يتلو ذلك إحضار كل الكتب فى الأقليم أمام عدالتنا ، ولا يبقى منها أية نسخة من القرآن ولا أى كتاب عن الدين الاسلامى إلا وتحرقه النيران على الملأ » (٣)

فى الحال أصبح يحتفل بمنع المورسكيين من كل ما هو إسلامى . ووضحت مظاهر الحياة الدينية والاسلامية ملغاة شيئا فشيئا بين سنتى ١٥١١ - ١٥١٣ ، وتكرر حظر اقتناء الكتب فى ٢٠ يونيو سنة ١٥١١ وكل من عنده شئ منها كان عليه أن يسلمه للسلطات خلال مدة

(1) Ouesada Ladero : los mudejares de castilla en tiempo de Isabel I valladolid p . 293 , 1969

B . Vincent : Historia ...p 100 . كذلك .

(2) Gallego y Burin y Antoni Gomir sandoval , Al fonso : Los Moriscos del Reino de Granada Segun el sinodo de Cuadix en 1554 , Granada= 1968= = . p . 170 .

- M . S . Ladero Quesada : Obr ctada , p . 318 .

- B . Vincent p . 100

(3) B . Vincent : Historia " . " , p . 100 .

(4) Archivo municipal de Granada , libro de provisiones ,1, Fol 202

تقلا عن :

B . Vincent : Historia p . 100 .

لا تتجاوز خمسين يوما ، والاستثناء الوحيد كان يتعلق بكتب الطب والفلسفة والحوليات التاريخية ، ومع ذلك فقد كان واجبا أن تقدم لفحصها «لأننا نعرف أن المورسكيين يخفون نصوصا ممنوعة ، داخل نصوص مسموح بها» وهناك مرسوم ملكي جديد حول هذه المسألة نشر سنة ١٥٦٥ .

وقد كانت مقاومة الأقلية المورسكية لهذا الاجراء حية دائما ، وتم اكتشاف كتب عربية كثيرة جدا خلال القرن المذكور . مثلا في فبراير سنة ١٥٧٠ اكتشف بعض الجنود في جوف حائط بحى البيازين أكثر من ستين نسخة لمصاحف قرآنية ، وكتب حول الاسلام وابتهالات وتعليقات عليها ، مجلدة بطريقة جيدة ومزخرفة ومكتوبة بحروف لامعة ، وبعد أنتهاء حروب ثورة غرناطة ، بدأ الجنود في منطقة البشرات ومناطق أخرى ، يحضرون كتبها لاحصر لها حول الدين الاسلامي ، ويفهم منها أن المورسكيين لا يزالون يعيشون كمسلمين و أنه تنتشر بينهم كتب فقهاءهم ودينهم (١) . وقد وجد مارثيدس جارثيا ارنال «نسختين من القرآن الكريم في منزل صغير بمنطقة ركوس (خالون) وكان رجال التفتيش قد عثروا على نسخ من نفس النوع بدائرة مالطة سنة ١٥٦٧ (٢)

عادة أخرى ذات طابع ديني كان يحاربها المسيحيون ويضطهدون أصحابها كثيرا ، هي الطريقة الاسلامية في زكاة الحيوان او ذبح الماشية ، فالمسلمون يذبحون الحيوانات بطريقة معينة ويسيلون دمائها مع توجيه رأسها ناحية الشرق ، وحتى لا يلجأ المسلمون لهذه الممارسات صدر قرار في ٢٠ يونيو سنة ١٥١١ بوجوب دعوة قصاب مسيحي لاجراء عملية الذبح ، وتكرر نفس الأمر بنصه وكلماته في ٨ فبراير سنة ١٥١٢ ، وفي حوالى ٢٩ يوليو سنة ١٥١٣ ، وفي ١٠ مايو سنة ١٥٢٠ . وقد شكوا المورسكيون من عدم ملاءمة هذا الوضع لهم ، فقد لا يوجد مسيحيون في المكان فتضيع

|(1) Archivo historico nacional . inquisicion , lag 2604 (3-6-1070

B.Vincent:Historia ...P.100

وأنظر

(2) B. Vincent : olera Y lugar citados .

عليهم اللحوم ، وقد يتعسف المسيحيون معهم ، ويطالبونهم بما لا طاقة لهم به ، وقد أعيد النظر فى المسألة بعد التحرى ، وفى ٢٩ سبتمبر ١٥٢٦ صرح «كارلوس الخامس» لمورسكى واحد فى كل محلة بذبح الحيوانات فى الاماكن التى لا يقيم فيها نصرانى ، ومن المؤكد أن الذى استفاد من ذلك هو شخص القسيس (١)

الحمامات ايضا كانت موضوعا لتشريعات معينة ، فقد كان يخشى أن تستخدم هذه الاماكن فى ممارسات غير مشروعة او تستغل لاقامة شعائر اسلامية ، لهذا عملت السلطات على عدم ترميمها ، وأعدت اللوائح لتنظيم الدخول اليها ، وهنا يبرز نص مهم صدر فى ١٢ نوفمبر سنة ١٥٣٢ يحرم على المورسكيين ممارسة مهنة استثمار الحمامات ، ويحرم عليهم التردد عليها ايام الآحاد والأعياد (٢)

النقطة الرابعة فى هذه المرسومات المتعددة تتعلق بكل ما يتصل بالمواليد والزواج والدفن ، والأمر الذى يشيع ذكره بكثرة هو ما يخص عادات المواليد ، ولا يقتصر الامر على منع المورسكيات من ممارسة مهنة القبالة ، حتى لا تقمن بختان الأولاد ، بل انه وفقا لوثيقة رسمية صادرة فى ٢٠ يونيو سنة ١٥١١ ، يشترط فى أب وأم العماذ (الاب والام الروحيان) للمولدين الجدد ، أن يكون كلاهما مسيحيا قديما بشكل إجبارى ، وسينتهز المسيحيون الفرصة ، ويطلبون كثيرا من الاموال مقابل تبنينهم للأولاد ، الشئ الذى دفع المورسكيين الى رفع شكاواهم الى الملك ، فأدينت تعسفات المسيحيين القداماء فى نص صدر بتاريخ ٢٩ يوليو سنة ١٥١٣ ، ومع ذلك فلم تتوقف هذه الممارسات المتعسفة ، وهذا هو السبب فى مطالب جديدة تقدمت بها المجموعة المورسكية ، فصدرت أوامر ملكية فى ١٠ مايو سنة ١٥٢٠ تعطى الحق للمورسكيين أن يتخذوا آباء وأمهات التعميد من بينهم

(1) archivo general de simancas , camara de castilla , cedula , 255 , Fol . 339v .

(2) Gallego Burin y Gamir sandoval , obra citada , p . 235

B . Vincent : Historia p . 101

، بالاشتراك مع المسيحيين القدامى الذين كان عليهم أن يحضروا التعميد ، ويبدو أن هذا الاجراء قد حقق نتائج متواضعة ، لأن "فرنسيسكو نونيث دى مولوى" قدم طلب دراسة وتحريم حول هذا الموضوع نفسه وحول ممارسة المسيحيين القدامى له بتاريخ ١٥٢٣/٨/٢٥ ، ومن المعروف ان هذه المجموعة من الرسومات المتعلقة بالتعميد ترتبت عليها نتائج فعالة . ففى بعض قرى غرناطة ، نجد المسيحي القديم الواحد يعمل أبا روحيا او ابا تعميديا للعديد من الاطفال المورسكيين ، وفى قرية «الهندية» كانت «ماريادى ثا ياسا» وزوجها «خوان دى كاسترو» أما و ابا فى التعميد له ٢٥ طفل فى الفترة ما بين سنتى ١٥٣٨ - ١٥٥٩ وفى قرية "سان نيكولاس" كان كل من "رييل" وزوجته "فرنسا دى الاركون" يمارسان نفس العمل وقام بذلك الونسو رويث" لثمانية مرات فى ١٥٥٥ وقامت به "فرنسيسا دى بلاسكو" لست مرات (١) .

كذلك تقرر رسميا وينفس الفعالية عدم استخدام الاسماء الاسلامية ، ولذلك نرى من الأمور المألوفة أن يكون لكل مورسكى اسمان ، أحدهما مسيحي معلن والأخر اسلامي سرى ويمكن ان نشعر - من خلال الوثائق - بتطور له دلالاته ، ففى غرناطة وحتى سنة ١٥٠٠ ، تذكر تلك الوثائق الاسماء والالقب الاسلامية ، وبعد التنصير وعلى مدى السنوات حتى ١٥١٠ تستخدم طريقة أنا (الاسم واللقب المسيحي) ، وما كنت أدعى به من قبل (الاسم واللقب الاسلامى) . أما بعد ذلك فلا نرى ذكرا إلا للاسم المسيحي .

وقد بذلت مجهودات كثيرة تهدف الى أن يترك المورسكيون عادة دفن موتاهم فى الارض الخلاء ، وفى مقبرة كانت تقع دائما خارج سور الضاحية ، وهدفت المحاولات الى نشر العادة المسيحية الخاصة بالدفن ، بحيث يدفن الموتى داخل الدائرة الكنسية او الدير ، وهذا مثلا هو مضمون قرار إحدى

(1) B . Vincent : Al Baicin de Grenada , pp 202 - 203
- B . Vincent : Historia p . 102 .

البلديات الصادر سنة ١٥٢٤ ، ورغم ذلك كله فقد استمرت المقابر الاسلامية موجودة لزمان طويل .

ونلاحظ من بين المظاهر المرتبطة بالطقوس التي ترافق الشخص في تواريخ او مناسبات معينة - وجود حفلة راقصة ، إنها رقصة كانت تمارس في اعياد المورسكيين الغرناطيين ، وقد ظلت مسموحا بها لفترة طويلة ، فالأوامر المسجلة الصادرة من السيد «فرناندو دي طليطلة» لرعاياه المورسكيين ، تسمح بها ، ولاننسى أن مواعظ الراهب "ايرناندو دي طليطلة" تتجاوب مع تلك الحفلات المورسكية ، ومع ذلك فقد بدأ البحث سنة ١٥٢٦ حول منع استخدام ما اعتبر رقصا خليعا ، وفي ١٥٢٩ ، ١٥٣٠ صدرت نصوص تشريعية في نفس الاتجاه ، لكن موقف السلطات ، فيما يتعلق بحفلات الصخب ، تعارض مع طابع الردع المتعمد لسياسة التذويب .

إن تكرار المراسيم الملكية دليل على النجاح القليل الذي تحققه السلطات ، وهذا أمر متيقن منه سواء في بلنسية او اراجون او غرناطة ، ومن هنا جاء الدور الذي ادخر لمحاكم التفتيش .

لقد حاولت محاكم التفتيش الغاء كل الشعائر الاسلامية الغاء كليا ، وعملت على ان يلتصق المورسكى بالعتيدة المسيحية التصاقا كاملا ، وفي مثل هذه الاوضاع فإن محاكم التفتيش يمكنها ان تتدخل في كل جوانب الحياة الجارية ، بل تقوم بذلك مع تسهيلات أكثر عندما يصبح واجبا على كل مسيحي أن يقدم لها معاونته ويرشدها الى حالات الهرطقة اذا توافرت لديه معلومات عنها ، ولا ينبغي أن يدهشنا ان محاكم التفتيش كانت في عيون المورسكيين رمز القمع نفسه ، وكان كل مورسكى يشعر في كل لحظة أنه موضع اضطهاد هذه المحكمة ، وكان بالغ الحساسية ازاءها ، ولهذا فقد انعدمت ثقته في كل ما يحيط به .

يقول الكتاب المورسكيون عن محكمة التفتيش انها محكمة الشيطان ، حيث يتولى رئاستها ابليس ويعاونه مستشاران فيها هما الغش او الخداع ،

والعمى . وهى كلمات تشير الى سرية وبشاعة أسلوب محاكم التفتيش ، وهناك مخطوط يسير فى نفس الاتجاه ، فيذكر الكفار رجال محاكم التفتيش ، اتباع ابليس بما لهم من أساليب شيطانية ، اوهم قضاة الارواح يضابقونها من الخارج للوصول الى آذاهم وشرهم بدون مبرر^(١)

وتبرز نفس النصوص ظلم وجشع هذه المحاكم وتذكر أن اجراء مصادرة ممتلكات المتهم كان أمر عاديا ، كما تذكر الضرائب التى كان على كل مورسكى فى بلنسية أن يدفعها لها مرتين فى السنة ، فى مارس وسبتمبر من كل عام . وهذه النقطة الأخيرة مهمة ، لأنها توضح قسما كبيرا من سياسة محاكم التفتيش فى مواجهتها للمجموعة المورسكية على امتداد القرن السادس عشر ، حيث لبث ديوان التفتيش على نشاطه ضد هذه الاقلية المسلمة طوال هذا القرن وحتى آخره دون أن يتعثر نشاطه ، مما يدل على أن آثار الاسلام الراسخة بقيت دفينه فى قلب هذا الشعب تبدو بين الحين والآخر ، برغم كراعاة الاعوام ، وتوالي المحن ، يدل على ذلك ما تسجله محفوظات الديوان ، من أن قضايا المورسكيين أمام محاكم التفتيش بلغت ٢٩١ قضية سنة ١٥٩١ ، ووصلت فى العام التالى ١١٧ قضية ؛ وظهر فى احتفال تنفيذ احكام محاكم التفتيش الذى أقيم فى ٥ سبتمبر سنة ١٦٠٨ ، ٦٨ مورسكيا نفذت فيهم الاحكام ، كما ظهر فى حفلة ٧ يناير سنة ١٦٠٧ ، ٣٣ مورسكيا استخدم اسلوب التعذيب فى محاكمتهم ١٥ مرة ، وكان الاتهام يوجه أحيانا الى المورسكيين جملة على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات المورسكية ، فقد حدث مثلا فى سنتى ١٥٨٩ ، ١٥٩٠ أن سجلت مائة قضية فى قرية «مسلاته» المورسكية بالقرب من "بلنسية" وسجلت فى قرية "كارليت" مائتان ، واتهمت أربعون أسرة بصوم رمضان .. وهكذا نرى أن المورسكيين استطاعوا بالرغم من العسف المنظم ، الذى فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، أن يحتفظوا فى قرارة نفوسهم الكليمة ، ببقية راسخة من تراثهم الدينى القديم (٢) .

نعم كان نشاط محاكم التفتيش التى أنشئت فى بلنسية وسرقسطة ،

(1) L . Cardaillac : obra citada , 200 , 201 .

(٢) . انظر عنان نهاية الاتدلس ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

كما أنشئت في غرناطة ١٥٢٦ حدوداً في أول الامر ، وقد منح المفتش العام - الغرناطيين مهلة لمدة ثلاث سنوات يراجعون فيها موقفهم ؛ لكن مالبث ان ظهر ثلاثة من المورسكيين أعدموا حرقاً بسبب إلحادهم في احتفالات عام ١٥٢٩ ، وفي بلنسية تم اتفاق لا يتدخل المفتشون بمقتضاه لمدة اربعين سنة في شئون المورسكيين ، معتبرين الشعائر الاسلامية أمراً قليل الخطورة ، وفي ١٢ يناير سنة ١٥٣٤ طلب "كارلوس الخامس" من المفتشين البلنسيين الا يصادروا ممتلكات المورسكيين المتضطهدين بسبب إلحادهم ، وفي ١٥٣٥ نصحهم المفتش العام بعدم تطبيق العقوبة الكبرى (الاعدام) أما سلطات ارجوان فقد الغت سنة ١٥٢٨ نشاط محاكم التفتيش بصورة عملية (١) ، وقد اتخذ معظم هذا الاجراء بضغط من احد رجال الاقطاع الذي كان معنيا بالمحافظة على حياة وممتلكات رعاياه المورسكيين

لكن هذه التيسيرات ما لبثت أن انتهت آثارها ، فلم يترك المورسكيون قط تغذية محاكم التفتيش او لم تستغن محاكم التفتيش عن مصادرة اموال المورسكيين ، وقد احتفل ببلنسية سنة ١٥٧١ بتوقيع اتفاق يدفع المورسكيون بمقتضاه ٥٠ ألف دوقية رواتب سنوية (٢) ، وقدم الغرناطيون للمحكمة وللتاج الملكي ١٢٠ الف دورقية سنة ١٥٤٣ ، ٢٠٠ ألف في سنة ١٥٥٥ بخلاف ١٠٠ ألف للتاج الملكي ، هذا غير ثلاثة آلاف كانت تقدم سنويا لمحاكم التفتيش ابتداء من ١٥٥٨ وحتى هذه دخلت مرحلة المساومات ، ولم تعد هذه المبالغ مرضية ، اذ أن العلاقات بين المورسكيين ومحكمة التفتيش كانت قد تحددت في أهداف اقتصادية ؛ فتلك المحكمة كما يقول "جارثيا كارثل" «كانت مؤسسة مخربة ، غارقة في تناقضاتها التركيبية وفي البيروقراطية المجدية المفرطة (٣) وهذا التأكيد تدعمه مصروفات ونفقات محكمة التفتيش في بلنسية ١٥٩٨ ، والموضحة فيما يلي :

(1) L . cardaillac : olera citada , p . 223 .

(2) P . Boronat : los moriscos y su expulsion ... 1,274 - 277

(3) R . Garcia Carcel : los cuentos de la inquisicion de valencia en el siglo xvi "anuario de historia moderna "y" contemporanea 11, 111, 1979 , 1976 p . 64 .

الاجمالي بالجنيهات	المرتب الشهرى	البند
٢١١٣	١٩	مرتبات المفتشين
٤٧٩	٣	ضرائب
٥٢	٢	قاضى الممتلكات
٣١٠		مستقبل
٢٨١	١٧	مأمور قضائى
١٥٥		كاتب عمومى للبحث والتحرى
١٠٠١	٩١	اربعة للسكرتارية
٣٤١	١٥	٢ للقيادة
٢٢٥	٩	٢ قاصد رسولى
١٠١	٥	كاتب النائب المحقق
٣٣	١٢	٢ قسيس خصوصى للمحكمة
٦٠		٤ مستشارين
٣٥		طبيب وجراحان
٢١٣	٩	محاسب عام
١٠٠٤	١٣	مصاريف مساعدة
٥٠٠		أعمال وتقييدات
٤٠٠		تغذية مساجين
٧٠٠		نفقات فرق العادة
٥٢٨		اعانات مالية لمحكمة مايبوركا

المجموع ٨٥٣٨

ولم تكن نفقات محكمة تفتيش غرناطة أقل لأن عدد العاملين فيها وصل ٢٩ فى العقد ١٥٧٠ - ١٥٨٠ وهو عدد يفوق بقليل عدد العاملين فى محكمة بلنسية (١) .

لقد كان المورسكيون منغما رئيسيا بالنسبة لمفتشى التحقيق فى بلنسية وغرناطة خلال الثلاثة أرباع قرن السابقة على الطرد ، لقد أثبت هذا بأدلة قوية « كينيث جرادا » فى الفترة من ١٥٥٠ - ١٥٨٠ (٢) ، يقول : ، لقد كان المورسكيون يمثلون أغلبية المدانين دائما ، باستثناء اعدام مارس سنة ١٥٨٠ الذى كان المورسكيون فيه ربع المدانين ، مع الوضع فى الاعتبار أنهم طردوا من مملكة غرناطة ١٥٦٩ - ١٥٧١ ، وقد جرى على مدار الثلاثين سنة المشار اليها (١٥٥٠ - ١٥٨٠) اثنا عشر احتفالا لتنفيذ أحكام محاكم التفتيش ، كان عدد المدانين فيها من المورسكيين ٧٨٠ من اجمالى ٩٩٨ أى بنسبة ٧٨.١٪ . وهذه النسبة يمكن أن نجد ما يماثلها فى المناطق الاخرى التى يشكل المسيحيون الجدد (المورسكيون) فيها مجموعات عديدة قوية . ففى سرقسطة نفذ حكم الاعدام علانية فى ٦٨ شخص بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٥٤٦ (٣) وكان بين المحكوم عليهم ١٢ فقط ينتمون الى مذهب "لوتيروس" أما عدد المورسكيين فكان ٢٧ بنسبة ٣٩.٧ من اجمالى المدانين ، وكان عدد المدانين من المورسكيين فى طليطلة ١٩٠ من اجمالى ٨٠٦ (٤) لكن عدد المحكوم عليهم من اليهود فى مرسية كان أكثر من عدد المورسكيين كما يبدو ، وفقا لـ

(1) K . Garrad : la inquisicion y los Moriscos granadinos (1528 - 1580) Miscelanea de Estudios Arabes y Hebricos , Granada , 1960 y archivo historico nacional inquis . leg . 2604 , 13 - xII - 1578 .

تقلا عن : B . Vincent : Historia ... p . 104 .

(2) K . Garrada : articulo citado , pp . 55 - 75

(3) archivo general de simancas . patronato real , leg . 28 , p . 56 .

B . Vincent : obra y pagina citada

أنظر

(4) Henry Kamen : the spanish inquisition , london 1965

ولد ترجمة اسبانية عنوانها

La inquisicion espanola Madrid 1973 , 3 _ ed . p 197 .

«لورنت» (١) وكان عدد المورسكيين ١٢ فى احتفال سبتمبر سنة ١٥٦٠ بين ٤٨ من اجمالى المدانين فهم يمثلون ربع المحكوم عليهم هذا عدا ١٦ تم اعدامهم لاسباب نجھلها ، وقد نظرت محكمة التفتيش "كونيكا" ٥٠٠ دعوى لها علاقة بالمورسكيين فى الفترة من ١٥٢٠ - ١٦١٠ وقد صدر الحكم بالاعدام حرقا فى ١٥ حالة منها أما حفلة عام ١٥٨٨ ، فقد كان عدد المورسكيين وحدهم الذين تم اعدامهم ٢١ مورسكيا (٢) .

لقد تراوحت أساليب محاكم التفتيش بين عقوبتين طبقتهما على المورسكيين ، الأولى المصالحة مصحوبة بمصادرة كل الممتلكات ، وكان هذه العقوبة تطبق على كل المشتبه فيهم من المورسكيين تقريبا ، والثانية الاعدام حرقا ، وقد طبقت هذه العقوبة على البعض . وكل سياسة محاكم التفتيش تجاه المورسكيين تكشف عن تراوح الاحكام بين هاتين العقوبتين ، لأن المورسكيين فى نظر قضاتهم معتنقون للاسلام ، وأقل ما يمكن اتھامهم به اعتبار حالتهم حالة هرطقة ، ولهذا فان عقوبات خفيفة مثل الضرب بالسياط واظهار فضائحهم ، كان يطبق بصورة نادرة . والمورسكى الذى يسقط أمام قضاء محكمة التفتيش ، يصبح محكوما عليه بتمويل خزينة المحكمة ، فوق ما ينالونه من معاملة تصل الى أقصى صور التعسف ، وغالبا ما يكون الضحايا فى هذه الحالات إما رؤساء الجماعات الدينية المورسكية أو من عادوا لاقتراح الذنب مرة أخرى ، بين هؤلاء الضحايا يمكن أن تذكر "خوان آلاس" فقيه قرية "مويل" فقد كان المورسكى الوحيد الذى اعدم حرقا فى سرقسطة ١٥٤٦ ، وكذلك «مارى» المورسكية - من أصل غرناطى - وكان قد أصطلح معها سنة ١٥٧١ ثم اعدمت حرقا فى سنة ١٥٧٦ ونذكر أيضا "تيريثا دى باديا" التى كانت مقيمة فى "اركوس" واصطلح معها فى سنة ١٥٧٦ ، ثم شهر بها أكثر من مرة فى سنوات

(1) B . vincent : Historia ... p . 104 .

(2) Garcia Arenal , Mercedes : los moriscos de Cuenca y la inquisicion

١٥٨١ ، ١٥٩٤ ، ١٥٩٦ ثم أعدمت فى كونيكا (قونيه) بتاريخ ١٣
ديسمبر ١٥٩٨ ، وفى غرناطة أحرقت ١٤ مورسكيا فى ١٢ احتفال بسبب
تهم تتعلق بالعقيدة وفى مرسية أدين واحد بسبب اسلامه بين مدانين
آخرين .

وهكذا يظهر لنا تاريخ محكمة التفتيش أنه على امتداد سنوات طويلة
وحتى فى القرن السابع عشر بل وكل القرن الثامن عشر يتعرض المسلمون
المنصرون لاضطهاد لا معنى له . إن قسوة محكمة غرناطة كان أمرا يضرب
به المثل ، والوان التعذيب التى مارستها بقت فى ذاكرة الناس لأجيال ، وبين
سنتى ١٧٧٥ - ١٧٧٦ ، كتب رحالة انجليزى اسمه «هنرى سوين بورن»
عدة رسائل من اسبانيا تضمنت ملاحظات طيبة وأخبار نشرت بعد ذلك فى
مجلد ، لأن كل الاجانب الذين يمرون بالأندلس كانوا يبحثون عن أشياء
مورسكية ، ووفقا لهذا الرحالة فان محاكم التفتيش كانت لاتزال تمارس
اساليبها وتستخدم اجراءات قاسية فى ١٧٢٤ ضد البقية الباقية
الاسلامية .

بعد ذلك بقليل مر رحالة انجليزى آخر اسمه «جوزيف توسته» كان
على علاقة وثيقة بقاضى التحقيق ويقول انه فى سنة ١٧٢٦ تعرض ما
لا يقل عن ٣٦٠ أسرة غرناطية لاجراءات محاكم التفتيش ، وقد اتهمت بأنها
تعتنق الاسلام سرا ، ويضيف أن هذا الاتهام كان حقيقيا لان محكمة
التفتيش كانت جهازا مبالغا للغاية فى التحرى والبحث ، والفقرة التى تلى
ذلك أكثر غرابة ، فيها يذكر المؤلف ان المسلمين واليهود من هذه النوعية
كانت اعدادهم كبيرة فى اسبانيا : المسلمون فى مناطق الجبلية واليهود فى
المدن الكبرى ،،،،، وإنه لمن الصعب فحص هذه التأكيدات ، لكن المتيقن منه
أنه كانت هناك أحكام ومحاكمات واحتفالات ضد المسلمين فى غرناطة ،
ليس فقط فى عام ١٧٢٤ أو ١٧٢٦ بل وفى عام ١٧٢٨ هذا شئ

معروف ليس موضع شك (١) .

فى آخر هذا العرض لاهد من طرح سؤالين هما :

هل التزمت محاكم التفتيش باسلوب واحد فى اضطهادها للمسلمين المنصرين على امتداد القرن السادس عشر ، أو أن هذا الاسلوب كان يتغير بتغير المراحل . يعنى هل كان لها أسلوب فى مراحل العنف يختلف عن أسلوبها فى مراحل الهدوء ؟ ثم كم عدد المورسكيين الذين بقوا محبوسين فى شباك تلك المحكمة ؟

برغم ندرة الوثائق فانه فى الامكان اجابة السؤال الاول ، فقد أثبت «ك - جرادا» (٢) أن محكمة تفتيش غرناطة لم تتوقف سطوتها ضد المورسكيين فيما بين ١٥٣٠ - ١٥٧٠ ، فخلال هذه الفترة كان يمثل أمام المحكمة فى جلسة واحدة ثمانون وأكثر من المورسكيين ، ومثل ١٠٦ مرة واحدة فى جلسة ٢٤ أكتوبر سنة ١٥٦٣ مقابل ٥٢ فى جلسة ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٥٢ ، وال ١٤ مورسكى الذين تم حرقهم والذين أشرنا اليهم من قبل كانوا جميعا فى الفترة بين ١٥٦٠ - ١٥٦٩ .

أما بالنسبة «لكونيكا» (لقونية) فقد أبرز «جارتيا ارنيال» (٣) أن محكمة التفتيش المحلية شددت نشاطها ضد المورسكيين فى مراحل ثلاث : من ١٥٢٠ - ١٥٣٥ ، ومن ١٥٦٥ - ١٥٧٥ ، ومن ١٦٠٥ - ١٦١٠ . يعنى أنه اعتبارا من بدء محاكم التفتيش لعملها ضد المورسكيين فإن

(1) Julio caro Baraja : los Moriscos ...p 245 = 246

Lea : A history of the spanish inquisition III p . 406

وانظر

أويذكر "خوليو كارو" بعض الأسماء والهبانات المتعلقة بمن ادانتهم محاكم التفتيش فى هذه الآونة بسبب اسلامهم ، ويؤكد أن معظمهم كانوا نساء ولم يتجاوز عدد الرجال أحد عشر مورسكيا من ذوى الاعمار والمهن والوظائف المختلفة ، وعن تلك الأجيال التى ولدت فى غرناطة بين ١٦٨٠ - ١٧٠٠ ، ولكنها حافظت على اسلامها وتكررت وراء اسماء مسيحية...انظر : كتابه السابق ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٢) انظر مقاله السابق الاشارة اليه أنفا ف ص ٢

(٣) انظر رسالته الى جامعة مدريد المشار اليها فيما سبق .

فترات أقصى نشاط لها تتوافق مع حادثتين جرت فيها أقصى مواجهة بين الجماعتين الاسلامية والمسيحية ، حادثة الثورة الفرناطية ١٥٦٨ - ١٥٧٠ ، والطرده العام ١٦٠٩ - ١٦١٤ ، والمثالان الجغرافيان اللذان ذكرا : مثال غرناطة ومثال قونيه ، يبرزان الدور الأساسى الذى قامت به محاكم التفتيش فى الفترة من ١٥٦٠ - ١٥٧٠ والذى يمكن تعميمه على كل البلاد ، إن تشدد محاكم التفتيش فى تبنى وسائل القمع ، يبدو كما لو كان تعبيراً عن حساسية النزاع بين الحضارتين الاسلاميه والمسيحية .

بالنسبة للسؤال الثانى من الصعب تقديم إجابة مؤكدة ، فقط نستطيع أن نقول أنه مثل أمام محكمة تفتيش غرناطة ٧٨٠٠ مورسكى بسبب يتعلق بالعقيدة فى الفترة من ١٥٥٠ - ١٥٨٠ .. يضاف لهذا الرقم من مثلولاً أمام محاكم التفتيش فى تواريخ سابقة ولاحقة والتي لم نعثر على أثر لأعدادهم ، وأن تأكد وجودهم ومثولهم ، ومن الممكن أن نقول دون أن نخطئ كثيراً فى التقدير أنه كان واجبا على عدد يتراوح بين ألف والف وخمسمائة مورسكى أن يواجهوا حتى النهاية رعب محاكم التفتيش خلال القرن السادس عشر ، إن هذا الرقم من بين شعب يتكون من ١٥٠ ألف مواطن على الأقل ، وخلال جيل ونصف يمكن أن يعتبر قليلاً ، يعنى نصف فى المائة من اجمالى السكان المورسكيين هو الذين ادين أو أصدرت محاكم التفتيش أحكاماً ضده ، لكن القسوة فى الاجراءات والاحكام والتنفيذ جعلت شهرة هذه المحاكم وما عرف عنها من عنف بالغ ، تطبق الافاق .

بالنسبة لمحكمة «قونيه» يفترض أنه نظرت ٥٠٠ دعوى على امتداد ٩٠ سنة ، وهذا لا يعنى المدانين فقط بل كل من وجهت اليه اتهام وإن أعوزته الوثائق الدالة ، وبهذا نشعر أننا نتعامل مع ثلاثة أو أربعة اجيال من المورسكيين كان عليهم أن يروا محكمة التفتيش . إن ٥٠٠ دعوى ضد سكان يقلون عن ٢٠٠٠ مورسكى فى سنة ١٥٧٠ ، ثم يرتفعون الى خمسة آلاف ثم اثنى عشر او ثلاثة عشر الف بعد ذلك ، يعنى أن ربع فى المائة من المورسكيين كان عليهم أن يمثلوا أمام محكمة تفتيش قونيه

وبرغم ضعف هذا التقدير ، فإن من الممكن استخراج بعض الدروس منه ، فمنه يفترض أن القمع الذى مارسته محاكم التفتيش كان معتدلا نسبيا لسببين ، لأن مؤسسات هذه المحاكم كانت فى حاجة الى المال ولأن المشرفين عليها كانوا يحاولون توجيه المورسكيين الى العقيدة الصحيحة والصواب من وجهة نظرهم ، ومن هنا كانت صدور احكام الاعدام فى حالات نادرة .

وفى الواقع فان محاكم التفتيش كانت أقل وحشية من محاكم أخرى ، فهناك محاكم أخرى أكثر وحشية وقسوة ، مثل محكمة دار القيادة العسكرية بفرنطة أو محكمة المجلس ، ومن ناحية أخرى فان مهمتها تعثرت أمام المقاومة المورسكية والتي اختلفت فعاليتها حسب الاقاليم ، وهذا ما تعبر عنه نسبة النصف فى المائة فى غرناطة والربع فى المائة بالنسبة لـ «قونيه» كما سبقت الاشارة .

وفى مملكة غرناطة حافظت الجماعة المورسكية على وحدتها بشكل كبير حتى سنة ١٥٧٠ ، وقد مثل هؤلاء المسلمون المنصرون او المسيحيون الجدد كل السكان تقريبا فى كثير من القرى ، ولم تخرج الأقلية من المسيحين القدامى على الوشاية بهم خوفا من الانتقام ، ولهذا فان محكمة تفتيش غرناطة كانت تميل الى التفاوض مع ممثلى المجموعة المورسكية حول الضرائب والغرامات التى يجب أن يدفعها هؤلاء ، وعلى العكس فى «قونيه» حيث ذابت الجماعة المورسكية وكانت عرضة للتشهير بها وإقامة الدعاوى عليها ، ولهذا جرى التفكير فى قانون بوقف فاعلية ماكينه محاكم التفتيش بحيث لا يحدث تعارض مع درجة الانصهار لدى تلك الأقلية المضطهدة . وهكذا كان عمل محاكم التفتيش محدودا فى غرناطة وبلنسية برغم ما كان لها من وسائل رهيبه ، وكان هذا العمل ملحوظا فى كل من قشتالة واسترما دورا ، بينما كان الوضع فيما يبدو متوسطا فى مملكة ارجوان .

وحيثما كان المورسكيون أكثرية ، فأننا نرى أنه توافرت لديهم الوسائل للمحافظة على جزء من هويتهم الثقافية ، وحيثما كانوا أقلية فانهم كانوا

يقترون من الأكثرية وفي فترة وجيزة يطاردون ثم ينصهرون ، لكن الشيء الذي جعل الكل يكره محاكم التفتيش بلا استثناء وأكثر من أى محكمة قضائية أخرى ، هو أنه بينما كانت المحاكم الأخرى تتدخل فقط فى حالات المقاومة العلنية ، فإن محاكم التفتيش تدخلت فى أكثر الشنايا عمقا وأكثر الأمور سرية لدى الوجود المورسكى ، ورغم أنها كانت تضرب بشدة تختلف من إقليم لآخر ، فإنها بقيت ما ثلثة فى كل أجزاء البلاد . ويسبب أساليبها وهيمنتها وصلاحتها الواسعة المقتدرة بقى المسلمون المنصرون او المورسكيون فى حالة قلق ورعب مستمر (١) .

لقد نقل الينا الدون لورنتى - مؤرخ ديوان التفتيش - وثيقة تعبر عن التضيق الشديد الذى كان يعانى منه المورسكيون ، يقول : يعتبر المورسكى او العربى المنصر قد عاد الى الاسلام اذا امتدح دين محمد أو قال إن يسوع المسيح ليس الها وليس الا رسولا ، او ان صفات العذراء او اسمها لا تتناسب مع كونها أما للمسيح الرب . ويجب على كل نصرانى ان يبلغ عن ذلك ، ويجب عليه أيضا أن يبلغ عما اذا كان قد رأى او سمع بأن أحدا من المورسكيين يباشر بعض العادات الاسلامية ، ومنها أن يأكل اللحم فى يوم الجمعة وهو يعتقد ان ذلك مباح ، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثيابا أنظف من ثيابه العادية او يستقبل المشرق قائلا باسم الله ، أو يوثق رجل الماشية قبل ذبحها ، او يرفض أكل تلك التى لم تذبح أو ذبحتها امرأة ، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية او يعرب عن رغبته فى اتباع هذه العادة او يقول انه يجب الا يعتقد الا فى الله وفى رسوله محمد ، او يقسم بإيمان القرآن أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب أو يتناول طعام السحور قبل الفجر ، او يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سورا من القرآن ، أو أن يتزوج طبقا لرسوم الشريعة الاسلامية ، او ينشد الأغاني العربية أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى

(1) Bernard vincent : Historia de los Moriscos pp . 105 : 107 .

العربية ، أو أن تستعمل النساء الخضاب فى أيديهن أو شعورهن ، أو يتبع قواعد محمد الخمس أو يملس بيديه على رؤس اولاده أو غيرهم تنفيذًا لهذه القواعد ، أو يغسل الموتى ويكفّنهم فى أثواب جديدة أو يدفنهم فى أرض خلاء أو يغطى قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعنا اياه بالنبي ورسول الله ، أو يقول إن الكعبة أول معابد الله أو يقول انه لم ينصر ولا آمن بالدين المسيحى المقدس أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين الخ (١) .

أى واحدة من هذه كانت تكفى لتجعل المسلم يمثل أمام محاكم التفتيش الرهيبة لتقضى بادانته وتفرض عليه عقوبات مادية وبدنية فوق طاقة البشر علّه يترك مظاهر إسلامه .

وعلى كل حال فقد قضى الامر ، وأكره المسلمون المنصرون على ترك كل البلاد الاسبانية ، ومغادرة الاراضى التى ولدوا ونشأوا فيها ، والوطن الذى شبوا وترعرعوا فيه ، فماذا عن مقصدهم ، وما هى الأقطار التى انتقلوا اليها وواصلوا مسيرة حياتهم و احتفظوا بتقاليدهم فيها ؟ هذا ما يحاول الفصل التالى تقديمه .

(1) Don Antonio Illorente : Historia crítica de la inquisición de Espana

lea : the Moriscos , p . 130 - 13

وأنظر ا ايضا .

وقد ذكر النص

الاستاذ محمد عبد الله . ن : نهاية الاندلس ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

الفصل الثامن

المورسكيون خارج اسبانيا

كانت هجرة المورسكيين ١٦٠٩-١٦١١ الفصل الأخير فى نزيف انساني بدأ منذ فترة بعيدة فى العصر الوسيط ، ثم اشتد مع الفتوحات المسيحية الكبرى ، وواصل تطوره فى القرن السادس عشر ثم وصل فى القرن الذى يليه الى نهايته الاليمة ، وترتب عليه ضياع حيوية اسبانيا وخراب اقتصادها ونحن لا نعرف جيدا الاماكن التى توجه اليها المسلمون المنصرون . ومن عاصر خروجهم فى هذه المرحلة من المؤرخين يقدم معلومات مقتضبة ، نستشف منها مدى ما استقبلوا به من ترحيب ، وإن أصر البعض على أنهم عانوا من فواجع عقوية على تماديبهم فى الغى .

وهناك عمل شامل حول هذا الموضوع ، عبارة عن رسالة علمية غير منشورة أعدها "خوان بنيا" بعنوان "المورسكيون الاسبان المهاجرون الى الشمال الأفرقى بعد الطرد ، بالاضافة الى أعمال أعدها الباحث الفرنسى . ل . م . كاردايلاك^(١) .

ولقد دلت البراهين على أن بعض السكان المورسكيين كانت لديهم مقدرة وقابلية كبيرة على الحركة ، فالذين عاشوا بالقرب من الساحل عبروا الى الشاطئ الآخر من البحر الابيض المتوسط ، ربما بدافع شخصي ، أو منتهزين بعض الحملات العسكرية الإسلامية للهروب من ممالك غرناطة وبلنسية إلى بلاد الشمال الأفرقى ، وقد وصل مجموع هؤلاء الى آلاف كثيرة خلال القرن السادس عشر ، كذلك ترتب على سقوط الاندلس ثم على الثورة الغرناطية : حركة من الهجرة الداخلية والخارجية ، فمن كانوا يعيشون فى القسم الغربي من الاندلس يعنى فى غرناطة والفحص ووادى الكرين وجبال بونتوفير حتى مالقه وجبال رنده ، فرض عليهم أن يهجرُوا

L . Cardaillac : Morisques et protestantes , Al-Andalus 19.

(١) انظر مثلا

فى اتجاه قرطبة على أن يوزعوا بعد ذلك ما بين استرمدورا الى جليقية ، والمورسكيون فى وادى آش ويسطه .. ووادى المنصورة ، كانوا يؤخذون الى جنجاله والبسيط ثم يفرقون فى أراضى قلعة رباح ومونتيل ، والمورسكيون فى آلمريه يؤخذون الى ولاية اشبيلية . وقد أصدر فيليب الثانى قرارا بذلك فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٥٧٠ حتى يتوزع المسلمون ولا يتمركزون فى أماكن بعينها . ويقضى القرار بمصادرة الاملاك العقارية للمورسكيين المهجرين ، وتترك لهم أموالهم المنقولة يتصرفون فيها كيفما يشاءون^(١) وقد سبق بيان ذلك من قبل ، ليس هذا فحسب بل ان مجموعة أخرى توجهت الى بلاد المغرب ، فقويت بهم الميليشيات الأندلسية هناك . وقاموا بدور لامع فى تاريخ المغرب (مراكش) فى القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر . ومع ذلك فقد استمر فى غرناطة عدد كبير ، بل بقيت أسر ذات أصول مسلمة بعد نفي سنة ١٦١١ الذى خرج فيه ١٣١٧ حسبما يذكر بعض المؤرخين^(٢)

وقد ذكرت الرواية العربية بعض الأخبار المتعلقة بحالة الهجرة هذه . يقول صاحب أخبار العصر "إن من بقى من المسلمين فى مالقه - عقب سقوط غرناطة - عبروا البحر الى باريس ، وعبر أهل المرية الى تلمسان ، وعبر أهل الجزيرة الخضراء الى طنجة وعبر أهل رنده ويسطة وحصن موجر وقرية فردوس وحصن مارتيل الى تطوان وأحوازا ، وعبر أهل لوشة وقرية الفخار وبعض أهل غرناطة ومرشانة وأهل البشرة الى أراضى قبيلة غماره وعبر أهل بيرة وبرجه وأندرش الى ما بين طنجة وتطوان وعبر أهل بلش الى سلا وخرج كثير من أهل غرناطة الى بجاية ووهران وقابس وصفاقص وسوسة ، وخرج أهل مدينة طريف الى آسفى وازمور^(٣)

وكان ممن هاجر الى العدو عقب سقوط غرناطة جماعة من أهلها

(١) انظر . Marmol : obra citada libro cap . vI , p . 437 - 439 .

(٢) انظر . julio caro Baroja : los Moriscos ... p . 204 , 205 . 209 .

(٣) انظر : نهضة العصر فى أخبار ملوك بن نصر لمولف مجهول ، منشور بعناية معهد فرانكو ، العرائش سنة ١٩٤٠ ، ص ٤٨ .

برياسة زعيم جندي هو ابو الحسن المنظري (المنذري) ، و كان من أكابر الجيش الغرناطي ، فنزلوا في موقع قرية مرتيل (مرتين) الواقع على البحر على مقربة من تطوان ، وكانت يومئذ قرية مهجورة ، فاستأذن الاندلسيون سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي في تعميرها وسكنائها ، فأذن لهم ، فأقاموا فوق موقعها القديم محلة حصينة بها مسجد وقبة سنة ٨٩٨ هـ (أواخر ١٤٩٢ م) . وفي رواية أخرى أن الاندلسيين الذين عمروا تطوان لأول مرة وفدوا الى العدو قبل سقوط غرناطة ببضعة أعوام (٨٨٨ هـ) (١٤٨٣م) وأنهم كانوا نحو ستين أو ثمانين ، ثم جاء بعد بعد سقوط غرناطة قوم آخرون قاموا بتوسيعها وتحصينها «

وعلى أى حال فان المرجح أن هجرة «المنظري» وقومه كانت عقب سقوط غرناطة ، وأن هذا الفوج من المهاجرين الأندلسيين هو الذي يجب أن يحسب حسابه في تعمير تطوان وتحصينها ، ومن ذلك الحين تغدو «تطوان» ملاذا لكثير من الأسر الأندلسية التي أرغمت على التنصير ، ثم آثرت الهجرة الى دار الاسلام فرارا من اضطهاد الاسبان ومحاكم التفتيش ، وعادت الى دينها القديم ، وما تزال بها أعقابهم الى اليوم^(١) .

ولا شئ في ذلك يبدو مستغربا ، خاصة اذا وضعنا في الاعتبار السلوك المتعسف والأوضاع الصعبة التي عاش في ظلها المورسكيون ، لكن نجد أحيانا ذكر المورسكيين في أماكن لا يتوقع وجودهم فيها غالبا ، مثلا في سنة ١٥٠٨ ، ١٥٠٩ ، وجد غرناطي اسمه «سيدى على» ولقب بـ «الترتو» كان يعمل مترجما في الهند للوالي البرتغالي - وبعد ذلك بقليل وجدنا غرناطيا آخر اسمه «سيدى على» أيضا بترجم عن اللغة القشتالية ويعمل مندوبا لأحد التجار الأثرياء جدا ، والمسما «مالك حوى» . وقد درس "ل . كاردايلاك" الوجود المورسكى في امريكا ، وقدم منظورات

(١) انظر السلاوى ، الاستقصاء لآخار دول المغرب الاقصى ص ١٦٢ ، القاهرة ٢٠٠٢ ومحمد داود

: مختصر تاريخ تطوان ص ١٤ - ١٧ .

وعنان : نهاية الاندلس ص ٣١٢ ، ويذكر في هامش نفس الصفحة أسماء بعض الأسر التي لا تزال محتفظ بألقابها في تطوان وغيرها من مدن المغرب مع ذكر مقابلها بالخرنوبية ، نقلا عن كتاب محمد بن داود ص ٢١٥ .

لقد رغب من أكرهوا على التنصير فى الهجرة بحثا عن حرية يتسمونها وربما دفعتهم الأسباب الاقتصادية الى الرحيل للأرض الموعودة ، وهناك بعض آثار ، وإن كانت قليلة ، تدل على وجود البعض هناك ، فمثلا أحرق شخص اسمه "البروجونثالث" بسبب اسلامه فى "كوثكو" سنة ١٥٦٠ ، وكان مهاجرا من «اورناشوس» واعترفت «ماريا رويث» لمفتشى المكسيك سنة ١٥٩٦ أنها كانت تحافظ على عقيدتها الأصلية حتى سنوات مضت ، وكانت قد هاجرت من غرناطة وتزوجت من مسيحي ، وقد قضى بقرض غرامة عليها فقط . وكان هناك مورسكيون غرناطيون يعلمون عبيدا عند أسيادهم بهذه البلاد بعد ثورة غرناطة . باختصار كان هناك وجود مورسكي فى القارة الامريكية ربما لم ينتبه اليه احد ، وهنا يأتى تساؤل ، هل النجارون الذين أعدوا سقف «الفارخيس» ، هم أنفسهم الذين بنوا سقف سان فرنسيسكو دى كيتو ؟ ربما ، فالأثر المورسكى لم يكن غائبا عن الفن الأسباني الامريكي .

وكل هذا الذى ذكرناه لايعتبر شيئا ، اذا قورن بفيضان الخروج من أسبانيا الذى سببته مرسومات طرد المورسكيين من البلاد اعتبارا من ١٦٠٩ حسبما ذكرنا من قبل . لقد كانت النتيجة أن توجهت الأغلبية الكبيرة من المورسكيين الإسبان الى الأراضى الإسلامية ، وهناك عدد ليس بالقليل أثر الإقامة فى أراض مسيحية ، وواجهوا صعوبات وعقبات قانونية تنأى على القهر . يذكر الاب «بليدا» أنه عندما ذهب الى روما وجد هناك جماعة مورسكية مهاجرة من أشبيلية تقيم فى منطقة «أجدى» بالقرب من "ناربونا" وكان هؤلاء يتحسرون على الوطن المفقود ، وكثير منهم حاول الرجوع ، ويروى نفس الأب أن بعضهم كان فى فرنسا وأن أحد الاشياء التى جعلتهم يشمأزون من هذه البلاد «أن الخنازير كانت تمشى فى الشوارع بصورة

مألوفة ، وكلما حاولوا الاحتراس ، لمست ملابسهم فى مرات عديدة ، وما كانوا يجروون على أكل الخبز الذى يصنع فى الاقران ، حيث كانت توجد عادةً قدور من شحم أو دهن الخنزير ، ولذلك أعدوا لأنفسهم فرنا خاصا فى منزل معين ، وكانوا يصنعون خبزهم ويطبخون فى قدور لحومهم ، رغم أن هذا كان يكلفهم كثيرا ، لقد بكوا على الحرية التى اتاحت لهم فى أسبانيا مدركين أن ما يمنحونه فى فرنسا قليل ، لقد كانوا يتضررون من الخنازير ومن شحومها المنبعثة من منازل الجيران والتى لا تتركهم يهنأون حتى داخل منازلهم ؛ بسبب الدخان والرنحة التى كانت تزكم أنوفهم دائما» (١) .

وقد درس «يونى فاثيو دى اتشيجارا» حديثا ، مسألة استقرار المورسكيين المطرودين من اسبانيا فى الأراضى الفرنسية(٢) وأنتهى الى نتائج مضمونها : أنه عند طرد المورسكيين من أسبانيا ، طلبوا من انريكى الرابع أن يصرح لهم بزراعة إقليم «لاس لانداس» ولسنا نعرف رد الفعل لدى الملك ، ولكن الدراسة الطبوغرافية وأسماء الاعلام ، مثل بحيرة موريسكوت بالقرب من بيارتيث» وغيرها ، جعلت المؤلف يفترض استقرار المورسكيين فى بلاد الباسك الفرنسية .لقد منح الملك نفسه تصريحاً للمورسكيين بأن يتوجهوا من فرنسا وموانى البحر الابيض المتوسط الى الشمال الافريقي ، لكن هذا حدث فقط مع من لم يرغبوا فى اعتناق الكاثولكية ، أما الذين اعتنقوا هذه الديانة فقد سمح لهم بقرار من نفس الملك مؤرخ فى ٢٢ فبراير سنة ١٦١٠ بالبقاء فى فرنسا فى المناطق الواقعة بن نهري «جارونا» و«دوردونيا» ، منع بقاعهم على أى حال فى بلاد الباسك . وبعد ترتيبات انريكى الرابع لوحظ وجود المورسكيين فى «بيرن ولان جويدك وجونيا وروفرنسا» وقد زدنا المؤلف أيضا ببعض التفصيلات عن العلاقة بين المورسكيين فى أسبانيا وبين فرنسا فى نهاية القرن السادس

(١) انظر : Bleda , Jaime : *Coronica de Moros de espana , valencia 1618 capitulo 39* .

- A. Domnguez ortiz : *Historia* .,p 226 .

(2) *Bulletin Hispanique* XIVII , 1, 1945 , pp . 22 - 102 .

عشر ، ويذكر أن المورسكيين الأسبان اقترحوا على «انريكى الرابع» فى أواخر حكم «فلييب الثانى» ، أن يضعوا تحت تصرفه جيشا قوامه ٨٠ الف جندى يعملون تحت أمره القوات الفرنسية التى تحارب القوات الأسبانية ، وقد عثر على رسالة من زعيم المورسكيين موجهه الى الملك الفرنسي ضمن وثائق دار محفوظات «دوق دى لا فورث» حاكم بيرن^(١) . ويؤكد «بردويل» بقاء بعض المورسكيين فى فرنسا حيث يذكر أن ١٢ الف عبروا جبال البرانس الى هذه البلاد ، وقد بقى بعضهم هناك . وتوجه البعض الآخر الى مارسيلية ومنها أبحروا الى بلدان اسلامية مختلفة^(٢) .

وجلى مما سبق أن المورسكيين لقوا ترحيبا فى فرنسا ، لكن هذا كان فى البداية ، فقد مات انريكى الرابع فى مايو سنة ١٦١٠ ، يعنى فى وقتٍ تزامن مع طردهم الأخير من أسبانيا ، وقد مثل هذا كارثة بالنسبة لهم ، لأن «بوربون الأول» قد انتقد بشدة اجراءات سلفه ، وبين أنه مستعد من حيث المبدأ بالسماح بالاستمرار واستقرار هؤلاء الذين يؤمنون بالكاثوليكية . ولقد تغير الموقف بسبب ما ترتب على النفى العام من أوضاع ، وبسبب الاستعداد السيئ لدى السكان الأصليين تجاه أناس غرباء ، دينهم مختلف وكثير منهم فى حالات يرثى لها ، فهم مرضى وليست لديهم موارد مالية ، وقد صدرت الاوامر لمدن جنوب فرنسا أن يوجهوهم بدون إبطاء نحو أقرب الموانئ البحرية حتى يغادروا البلاد بحرا ، ومن يحاول منهم البقاء يقضى عليه بالسجن المؤبد ، وقد حدث هذا حتى قبل موت انريكى الرابع ، ويشك أن الملك كان يوافق على هذه الاجراءات القاسية ، ومع ذلك فإن السلطات الاقليمية والمحلية قامت بها مع كثير من العنف والشدة . وأوصت كل من بلدية «باينا» وبرلمان «تولوز» بأنه ينبغى أن تغلق الحدود أمامهم مستقبلا

(١) انظر las Memoires authentiques de nompar de caumont duc de la Force (pairs
1843 , 1 , jacques pp . 341 - 345 .

la Mediterranee , p 594

(٢) انظر : .

وانظر عن الموضوع نفسه .

Juan regla : estudios sobre los Moriscos pp . 115 . 116 y las notas en las mismas paginas .

، بل إن برلمان «لانجيدوك» هدد بشنق هؤلاء الذين يصرون على البقاء في فرنسا ، أما برلمان «برونيثا» فقد منعهم من تجاوز «الروداتو» . ولأن الكثيرين منهم كان عليهم أن يبحروا من «مرسيلية» أو أن يقفوا للراحة بها في طريقهم الى افريقيا ، فقد نظم الامر بحيث يعبرون من مركب الى آخر مباشرة دون أن يؤذن لهم بالنزول على الارض ، أيضا نظمت تكاليف الرحلة ، ففرض على المورسكيين الأغنياء أن يتحملوا نفقات زملائهم الفقراء ، وإذا لزم الامر فان البلديات تقوم بتغطية ما قد يكون هناك من عجز (١)

أما خطر الوباء والخوف منه فقد كان موجودا باستمرار في هذه الازمنة ، وقد كان هناك ما يبرره ، ونحن نذكر ما صاحب المورسكيين الغرناطيين عند نفهم الى قشتاله ، وقد واجهت فرنسا نفس التهديدات ، فقد كانت هناك مجموعة تعدادها الف أبحرت من اشبيلية في مركبين اندلسيين غرق أحدهما وسلم الآخر . ومن بقوا على قيد الحياة ، وصلوا الى «مرسيلية» في حالة يرثى لها وأمتلأت المستشفيات والمستوصفات بهم ، وأسرعت سلطات المدينة فاستأجرت سفنا لنقل هؤلاء الى «بونا» و «تاباركا» وموان أخرى في بلاد المغرب ، وأنتهز بعض الرجال وملاك السفن الحالة السيئة التي كان عليها هؤلاء الناس الفقراء فسرقوا أمتعتهم وحقائبهم ، بل وصل الأمر إن صح ما تردد من شائعات في بعض الشواطئ الفرنسية ، أن قذف بهم في الماء ليكونوا طعاما للسمك وأطلقوا كلمة «السردين الغرناطي» على هذه الاسماك التي كان البعض يتردد في أكلها . ومهما يكن من أمر فان النهب الذي قامت به بعض أجهزة السفن أمر موثوق منه كما توضح بعض الدعاوى القضائية . مثلا تعهد أحد الرجال بان ينقل ٤٠ مورسكيا ملتزما ان يحملهم الى تونس ، لكن عندما وصل نقطة معينة أنزلهم برا ، وبدأ في

(1) Louis cardailiac : Morisques en provence , Revue des langues Romanes XXIX 1971 , pp. 296 - 317

وقد أعاد ميغيل دى إبالثا نشره ضمن مجموعة تناولت دراسات حول المورسكيين صدرت عن المعهد العربي للثقافة بمدريد اسبانيا ١٩٧٣ تحت عنوان :

Etudes sun les Moriscos andalous en tuhisic

وأنظر المقال المذكور من ص ٨٩ الى ص ١٠٢ .

تغيير وجهته واستولى على أموال ومجوهرات وأمتعة قيمتها ٩٣٢٤٥ اسكودوس ، وكان هناك راكب واحد يمتلك ٢٣٢٦٥ ، لكن الباقين كانوا فى غاية الفقر وتركتهم حادثة النهب بلا شئ . ومن الإنصاف ان نقول ان برلمان «لانجودكو» قد تعامل مع المجرمين بفاعلية وسرعة واعتقل المذنب وشركاءه قبل سنة ١٦١٠ ، وعوقبوا بأقصى العقوبات وصودرت ممتلكاتهم واسترد المورسكيون ما أخذ منهم (١) .

وإذا وضعنا فى الاعتبار هذه الروح المعادية للمورسكيين ، اتضح انه من الصعب الحديث عن استقرار له شئ من الاهمية فى جنوب فرنسا ، وليس هناك إشارات الى عدة أسماء يمكن ان تكون مؤشرات على بقائهم أو مرورهم ببلاد الباسك الفرنسية (٢) و معروف أن بعضهم وصل الى «باريس» ، ومعظمهم بقى لوقت طال أو قصر فى الأقاليم الجنوبية ، وهناك غموض شديد فيما يتعلق بحالتهم الدينية - وهى أسس كل مشكلتهم - فقد كانوا من الناحية الرسمية مسيحيين ، رغم أنهم طردوا من أسبانيا ، لأنهم لم يكونوا كذلك ، واختيارهم طريق فرنسا جعل البعض يفكر أن فيهم من كان مسيحيا حقيقة . والواقع أن الكاثوليك والبروتستانت فكروا فى ضم هذه الخراف الضالة اليهم ، وجعلهم بعض رجال الدين المسيحى هدفا لرسائلهم التبشيرية ، بينما حاول اتباع مذهب كلفينوس - وهم كثيرون فى جنوب فونسا - تبشير هؤلاء وجذبهم الى مذهبهم ، ورأوا ان ذلك سيكون مثمرا ، واضعين فى الحسبان انهم يرتبطون معهم برباط مشترك يتمثل فى بعض الطائفتين للكاثوليك .

(١) انظر . L . cardailiac : procec pour abus contre les Morisques en languedoc .

وهو قسم من البحث المشار اليه فى التعليق السابق منشور فى مجموعة ميجل دى إبالتا المشار اليها أننا انظر المقال المذكور فيها من ص ١٠٣ الى ١١٣ .

Etudes sur les moriscos Andalous en Tunis

وهى مجموعة

(٢) انظر Bonifacio de Echegaray : se estblicieron las moriscos en el pais vasco

de Francia . Bulltin Hispanique xL VII , 1945 .

- A . Domínguez : historia ... p . 228 .

أما المورسكيون فقد دفعتهم الحاجة الى قبول الحماية من كل من أقرب منهم ، ولم يترددوا فى التظاهر باندماج لم يشعروا به فى حقيقة الامر ، ولا ينبغى أن نلومهم على هذا التظاهر ، فقد كان لزاما عليهم أن يفعلوا ذلك عبر أجيال وقبل مغادرتهم اسبانيا كى تبقى لهم حياتهم ، ولكن ذلك ما كان ممكنا أن يستمر لفترة طويلة ، فالمجمع الدينى البروتستانتى الذى انعقد سنة ١٦١٧ ، حذر الجماعات الاصلاحية من المسلمين المطرودين من أسبانيا ، والذين ينتقلون من كنيسة الى أخرى حتى لا يكونوا موضع عطفهم . وبعد هذا التاريخ لا نجد لهم ذكرا ، مما يجعلنا نظن ان هؤلاء منذئذ بدأوا يتجهون الى الاراضى الاسلامية . ويذكر كارديلاك « ان تحولهم الطارئ الى البروتستانتية ، كان فقط مرحلة فى مسيرة نفهم ومع ذلك فان نفس المؤلف يذكر بعض من بقوا : كتب أحد المؤرخين يقول : لقد سمح لعدد كبير بالبقاء فى المدن حيث مارس بعضهم التجارة وبعضهم الطب ، وكثيرون منهم احترفوا زراعة الارض ، ويمكن أن نقدر أنه من بين ٣٠ الف مورسكي دخلوا فرنسا ، فإن عدة مئات ، وربما لا تزيد على الالف ، بقوا فيها ، دون أن ندخل فى الاعتبار من مرضوا وماتوا ودفنوا فى الأراضى الفرنسية. (١)

إيطاليا ايضا يمكن أن تكون قد أعطت فرصتها لمن اراد البقاء بها من المورسكيين ، تظاهرا بأنه مسيحي ، وقد عبرها الكثيرون فى طريقهم الى تونس أو تركيا وبقي البعض فيها ، فقد تلقت السلطات ، الايطالية رساله بعث بها احد النبلاء ينبه ويحذر من انه وصلت على متن السفن اعداد كبيرة من المورسكيين والمورسكيات ، معظمهم صغار فى السن ، ويرفضون العبور الى بلاد البربر ويرغبون ان يستقروا فى صقلية وقد أعلن واحد من الملوك

(1) Cita por Juan Pignon en su resena de la obra de Lapcyre

وأنظر كتاب دراسة عن المورسكيين الاندلسيين - بالفرنسية - لـ مجيل دى اهلالتا والمذكور من قبل ص ٧٥ ، وأبضا :

A. Dominguez ortiz : Historia ... P. 228

استعداده لمنحهم ملجأ^(١) كما حاول أحد النبلاء ان يعمل على استقرار
ثلاثة آلاف منهم فى "ليورتا" تلك المدينة التى نمت وتطورت بالتعاون مع
جالية من الاسبان واليهود ، ولسنا نعرف الاسباب التى من أجلها فشلت هذه
المحاولة ، ربما لأنهم عملوا على عمل مالم يمكن فى طاقتهم أو عمل مالم
يكونوا يرغبون فيه ، أولأن المعاملة الطيبة فى أول الأمر تحولت الى سلوك
سئ ازاءهم . يفهم ذلك من رسالة معبرة كتبها احد المورسكين المثقفين
ووجهامن الجزائر احد الفرسان من "توريخيو" ذكر فيها المعاملة السيئة التى
عومل بها فى مرسيليه ثم قال:

نحن جميعا ،الذين كنا أكثر من الف شخص تقرر أن نخرج من هذه
المملكة وان نذهب الى مكان نجد فيه هدوءا أكثر وقد ذهبنا الى «ليورتا»
فحدث لنا مثلما حدث فى مرسيلية ،ورأيت هناك وفى الاقطاعات الاخرى
من ايطاليا انهم لا يريدوننا لشيء أكثر من ان نخدم فى زراعة الحقل وفى
مهن اخرى حقيرة ، ومعظم الناس لا يجيدون ذلك ، فمعظمهم كانوا تجارا
وكثيرون يجيدون حرفا راقية...وقدواقفنا أن نذهب الى هناك لأن رغبة
الملك كانت أن يبعث بنا وهكذا كل من كان منا فى "توريخيو" أتى الى هذه
المدينة فى الجزائر ، ومعظم من فيها اصلا من استرمامادورا ومنشا
وأراجون^(٢)

ويذكر الاب "بليدا" ان مورسكيين كثيرين دخلوا "روما" واكدوا أنهم
كانوا مستيحيين وقد طلبوا وساطة - البابا لدي ملك اسبانيا كى يعودوا الى

(1)Codoin , tomo 44 , p . 129

تقلا عن

A. Dominguez ortiz : Historia ...p . 229

ويقول فى هامش ٨ بنفس الصفحة إن هذه الرسالة قد عرضت على المستشارين فرأى أثنان ترك
المورسكيين يعيشون هناك بينما رفض ذلك أثنان آخران .

(١) انظر . janer , florencio : Codicion social de los Moriscos , apandice 132.

ويقول انطونيو دوميجث أنه يفهم من هذه الرسالة أن محاولة هذا الدوق قد حققت نجاحا وانه استخدم
لها فلاهين من ارجوان وبلنسية ، ويبقى الشك فى نوعية هؤلاء الفلاحين واما اذا كان بينهم من لم
تكن الزراعة مهنته التقليدية ؟

انظر المرجع السابق ص ٢٢٩ هامش ٩ .

وطنهم ، لكن البابا عرف ان احدي المورسكيات رفضت الاعتراف بالمسيحة في لحظة الموت فأمر بطردهم جميعا^(١) وربما كانت شدة عداء الرهبان الدومنيكان للمورسكيين وراء تشويه أمثال هذا الحادث ، وعلى كل حال فقد وصل مورسكيون الى "فينسيا" حتى قبل الطرد العام ، وهذا كان بالنسبة لهم مرحلة من مراحل رحلة طويلة فى اتجاه تركيا . ويؤكد "فوسيكاً" « انه وجد فى سالونيكاً ٥٠٠ من أراجون ، وأن عدداً مثلهم وصل الى القسطنطينية وان ٦٠٠ من اشبييلة أبحروا من ميناء اجدى^(٢) »

ونحن نعرف طريقاً من الطرق التى سلكها المورسكيون من خلال دليل جيد لرحلة كانت فى القرن السادس عشر موجوده ضمن مخطوط مكتوب بلفة "الانحميادو" فى المكتبة الملكية بباريس ، وقد عرفنا به "سليستري دى ساكي" فى القرن التاسع عشر ، ونشر بعد ذلك فى المجله الجغرافية ، نيويورك يوليو ١٩٣٩ وفى الدراسات الجغرافية ٧ - ١٩٤٩ ١٣٦ - ١٤١ : انه مختصر حقيقى للرحلة يتضمن بالاضافة ال ذلك بعض الاشارات المفيدة . يقول ان الرحلة تنطلق من "خاكا رجيت" إلى مكتشف الذهب ومضيق كانفرال ، بعد ذلك تمر "بترها تاربيس" ثم "تولوز" بعد ذلك الى "فليون" ثم يعرض علي المسافر احد طريقين : اما الطريق المؤدى الى "بالونيدى جراسيا أو الطريق المؤدى الى "ميلان" ، واظن أن عدداً قليلاً جداً اختار طريق الاراضى المنخفضة : لان الهدف الحقيقى كان الامبراطورية العثمانية . وفي "خاكا" كان عليهم ان يبينوا ما إذا كانوا ذاهبين لان لهم ديونا فى فرنسا ويريدون استرداها ؟ ثم يصلون الى فرنسا اوالى ايطاليا هارين من اراضى الكفار وفى "فينسيا" ، نقطة تفرع الطريقين ، ليس من الضرورى المداراة ، لكن كيف نعرف الوسطاء الذين سييسرون لهم المرحلة الأخيرة من

(1) Blead : corónica ... copitulo 36 .

(2) Fonseca Damian : justa expulsion de Moriscos de Espana ... pp 347 - 348 .

وتذكر وثيقة نشرها «خانير» فى كتابه الحالة الاجتماعية للمورسكيين والمشار اليه أنفا ص ٣١٩ أن هناك أربعة أسر مورسكية ذهبت من مرسية الى فينسيا سنة ١٦٠٨ ومنها الى "القسطنطينية" وقد أبحروا من "اليكانتى" وقدموا معلومات مزورة تقول أنهم مواطنون ونواب من مرسية .

أنظر : انطونيو دومينجث ، البحث المشار اليه قبلاً ص ٢٢٩ التعليق رقم ١٠ .

رحلتهم ؟ اننا اذا ذهبنا الى ميدان "سان ماركوس" ، نرى هناك الاتراك فى أغطية الرأس البيضاء ، ونرى اليهود فى أغطية الرأس الصفراء ، وكل هؤلاء نسألهم عن الموجهين لهم ، وعما اذا كان لهم اخوة فى سالونيك ؟ فإذا كانوا يريدون الذهاب الى هناك ، فإن عليهم أن يدفعوا "دوكادوس" عن كل رأس تريد العبور ، ويحضرزون زادا لمدة خمسة عشر يوما . ويبدو واضحا أن هذا الطريق الطويل والمكلف ، لم يكن من السهل على معظم المورسكيين المعوزين أن يسلكوه ، ومع ذلك فان الاعداد التى استخدمته زادت بشكل ملحوظ بعد سنة ١٦٠٩ ، ومن هؤلاء من ذهب الى القسطنطينية ، ومنهم من ذهب الى سالونيك وبعض الموانى الأخرى فى الشرق الادنى^(١) ومنهم من ذهب الى القاهرة أو الى الأراضى التى تكون اليوم جمهورية لبنان حيث يوجد حتى الوقت الحاضر طائفة من الزعماء واعين لأصلهم الأندلسي^(٢)

، وكان التمرکز الكبير فى القسطنطينية ، يحدثنا صاحب "كتاب الأنوار النبوية فى آباء خير البرية" عن هذه الرحلة فيقول «خرج منا بعض للمغرب وبعض للمشرق خفية ، كان ذلك سنة ١٠١٣ هـ مظهرا دين الكفار أبعدهم الله ، فخرج بعض أحبائنا واخواتنا وهو الفقيه الأجل محمد ابو العباس احمد الحنفي المعروف بعبد العزيز القرشي ومعه أحد أخواله الى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان ، نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه بما حل بإخواننا بالاندلس من الشدة بفرانسة (فرنسا) وغيرها ، فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله ، باعلام السلطان نصره الله ، يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالاندلس ، وخدام آل عثمان ويوجههم اليه فى سفن من عنده مع ما يحتاجون اليه ، فلما قرئ الأمر السلطاني فى ديوان الفرنسيس ، فسمعه من كان عنده مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيليبو الثالث ، فأرسل لسيده يخبره بالواقع ، و أن السلطان أحمد آل عثمان أرسل أمره إلى فرانسة ،

(1) julio caro Baroja : los Moriscos , ...p . 241 .

(2) A . Dominguez ortiz : la historia ... p 230 .

وأمر صاحبها أن يخرج من كان عنده من الأندلس ، فقبل كلامه وأمر بإخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لا بأس عليهم ، وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه ، ويبلغهم حيث شاؤا من بلاد المسلمين ، فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب اسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد...^(١) ، وكان منطقيا أن يتمركز الغرناطيون في القسطنطينية ابتداء من سنة ١٤٩٢ وحتى ١٥٦٩ ، وقد استقروا في حي "جالاتا" وسلمت لهم كنيسة "سان بابلو" القديمة والتي تحولت إلى مسجد ، وكان ضغط الواصلين حديثا كبيرا ، فاضطر المسيحيون أن يتركوا لهم هذا الحي ، وانتقلوا إلى حي "بيرا" .

يقول صاحب كتاب "رحلة إلى تركيا" : إنه كانت هناك في القسطنطينية مورسكيات كثيرات ، من ارجوان وبلنسية ، وفي كل يوم كن يخرجن مع أزواجهن وثروتتهن خوفاً من محاكم التفتيش^(٢) . وابتداء من سنة ١٦٠٩ بدأت اعدادهم تزداد بطريقة كبيرة ، وترسم لنا مكاتبات السفير الفرنسي والهولندي لدى الدولة العثمانية صورة لأقلية عديدة نشطة ومؤثرة^(٣) وكذلك وجه أحمد بن قاسم بيخاراتو ، المورسكى الذى عمل مترجما ورسولاً للسلطان المغربى مولاي زيدان ، رسالة من باريس سنة

(١) فصل عن المورسكيين المهاجرين ، ضمن مخطوطة بالمكتبة الكتانية بالرباط تحت رقم ٢٣٨ ، لمحمد ابن عبد الرقيق بن محمد الشريف الحسينى الجعفري الاندلسي ، عنوانه «الاتوار النبوية فى اباء خير البرية» وكان المؤلف قد عاش في جنوب الاندلس ثم هاجر الى تونس ولس مأساة المورسكيين عن قرب ، وقد نقل هذا الفصل بتصريف الشاعر المغربى محمد بوجندار فى كتابه «مقدمه الفتح من تاريخ رباط الفتح» . الرباط ١٣٤٥ هـ من ص ٢٠٠ - ٢١٤ وأنظر : عنان : نهاية الأندلس ٤٠٣ - ٤٠٧ حيث نقل نص هذا الفصل .

(١) . Viaje de Turquia . Coloquio Ix .

وقد جرت العادة أن ينسب هذا العمل الى كريستوبال دى ببالون ، ولكن الدراسات التى قام بها م . باتون جعلت الاحتمال الأخرى نسبة هذا العمل الى طبيب من سيجورنيا اسمه اندرس لاجونا . أنظر : انطونيو دومنجيث : تاريخ المورسكيين ، التعليق رقم ١١ فى ص ٢٣٠ .

(2) Jean pignon : Une géographie de L'Espagne mo. que cahiers de tunisie , 14 , tenez , 1966 - pp . 286 - 300 .

١٦١٢ الى الاندلسيين الذين يقيمون في القسطنطينية (١) . أما الأغلبية الكبرى من المسلمين فقد توجهت ناحية بلاد شمال افريقية ، منذ بدأ نجم هذه البلاد فى الأفول ، يذكر لنا ذلك صاحب كتاب «الأنوار النبوية» فيقول :

انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أراده ، وبيع ما عنده وإبتانه لهذه الديار الاسلامية ... فلما تحرك أجدادنا لذلك ، وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز الى هذه الديار التونسية والحضرة الخضراء بغتة من جاز اليها حينئذ ودخلوا فى زقاق الاندلس المعروف الآن بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنين وتسعمائة ، وكذا للجزائر وتطاون (كهذا) وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم فيهم لذلك ، انقض العهد ، فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ، ومنعهم قهرا من الخروج واللحوق بإخوانهم وقرابتهم بديار الاسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئا ويفعل بهم شيئا آخر مع أن المسلمين أجدادنا ، استنجدوا مرارا ملوك الاسلام ، كملك فارس ومصر حينئذ ، فلم يقع من احدهما الا بعض المراسلات ، ليقضى الله امراً كان مفعولاً (٢)

ويقول المقربى - وكان من المعاصرين للمأساه ، اخرج النصرارى المسلمين ... اعوام سبعة عشر والى ، فخرجت الوف بفاس وألوف آخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الاعراب ، ومن لا يخشى الله تعالى فى الطرقات ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفارس ونجا القليل من هذه المضرة . أما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لذلك العهد ، عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاون "تطوان" وسلا وقيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكريا جرارا ، وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور

(1) I . P . Harvery : the morisco who was mueley Zaidans interpreter v, Miscelanea de estudios Arabes y Hebraicos , Granada , 1959 , P . 71 .
وأنظر فى الموضعين .
A . Dominguez ortiz : la historia ... p 230

(٢) انظر عنان : نهاية الاندلس وما عنده من مصادر ص ٤٠٤ ، ص ٤٠٥ .

الآن ، وحصنوا قلعة «سلا» وبنوا بها القصور والحمامات والدور وهم الآن بهذه الحال ، ووصل جماعة الى القسطنطينية العظمى والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت^(١) .

أما ابن أبى دينار التونسي فيقول فى أخبار سنة ١٠١٧ : وفى هذه السنة والتي تليها جاءت الاندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب اسبانية ، وكانوا خلقاً كثيراً ، فأوسع لهم عثمان داي فى البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمرُوا حيث شاؤوا ، فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا فى البلاد فعمرت بهم ، واستوطنوا فى عدة أماكن ، وعمرُوا نحو عشرين بلداً ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات وصاروا يعتبرون من أهل البلاد^(٢) .

ويقول واحد من الكتاب المتأخرين «وفى سنة ست عشرة وألف ، قدمت الامم الحالية من جزيرة الأندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى فى مملكته فبنوا نحو عشرين قرية ، وأغبط بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم ، وقلدوا ترفهم^(٣) .

وانتقال المسلمين من الاندلس الى المغرب الغربى ، ليس أمراً غريباً ، بل هو امتداد لأسلوب قديم لهذه البلاد القريبة من شبة جزيرة «ابيريا» وتشبهها فى كثير من المظاهر والأعماط ، واستقبال هذا المغرب للعديد من موجات الاندلسيين يرجع الى تواريخ بعيدة جدا ، ولكن حركة الانتقال من هذا الجانب او ذاك من المضيق ، أضحت مسيرة فى اتجاه واحد ، منذ أن تغلب المسيحيون ، وأصبحت لهم السيادة على بلاد الاندلس ، فكل إقليم أو مدينة كبيرة ، أعاد المسيحيون فتحها ، كانت تعنى موجه جديدة من موجات الهجرة الى الشمال الافريقى تعمل على أغناء هذه البلاد وإفقار

(١) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٢١٧ ، ج ٤ ص ٥٢٨ من نشرة احسان عباس .

(٢) المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ص ١٩٣ .

(٣) ابو عبد الله الباجى المسعودي : الخلاصة النقية فى امراء افريقية ، تونس ص ٩١ ويذكر السلاوى فى الاستقصا ، ج ١٠٠ ، ج ١٠١ ص ٣ وما بعدها

الاندلس ، وكان القسم الاكبر من هؤلاء المهاجرين يتوجه ناحية المدن الكبرى ويكون فيها نواة برجوازية ، وكان سقوط غرناطة بأيدي المسيحيين بمثابة دفعة جديدة من هذه الهجرات . وقد استمرت هجرة المسلمين المنصرين تتوالى على امتداد القرن السادس عشر ، وانضم اليهم الكثير من الأسرى والمرتدين ، ليس من اسبانيا وحدها بل ومن كل الجنسيات الاوربية ، ووجود هذه العناصر المختلفة بالاضافة الى المبشرين ورجال الارساليات وبالإضافة للتجار والمغامرين ، يفسر انتشار اللغة القشتالية في بلاد المغرب ، ليس بين المهاجرين فقط بل بين المسلمين المرموقين (١) .

وبرغم قوة ونشاط السكان وتقدمهم من الناحية الفنية ، إلا إن وضع المغرب الكبير كان يرثى له في مطلع القرن السابع عشر ، فقط أمكن لمراكش أن تقدم صورة الدولة المستقلة ، برغم أن أجهزة الحكم فيها كانت بدائية . أما الجزائر وتونس ، فكانت كلتاهما تتبع الامبراطورية العثمانية ، وتخضع لحكم البوابات العثمانيين ، ولم تعد كل من اسبانيا وتركيا تعادى احدهما الأخرى ، ولم تعد أى منهما تهتم بالبحر الابيض المتوسط بعد معركة «ليبانتو» ، ذلك ان تركيا قد غرقت في مشاكلها بالشرق يعنى مع الصفيين في بلاد فارس ، بينما غرقت اسبانيا في مشاكلها شمال المحيط الاطلسي (٢) ، ولأن الاتراك لم تعد لهم السيطرة البحرية ، فقد فقدوا نفوذهم وضاعت هيبتهم وتجراً عليهم المتمردون في داخل البلاد ، بل إن نفس فرقهم العسكرية و هي الانكشارية ستعمل على الاستقلال ، لقد أصبح من الامور المألوفة أن يختار ضباط الانكشارية من يكون حاكما (باى) عليهم في الجزائر ، وانحصر دور السلطان في التصديق على من يختارون ، وكان الوضع في تونس يشبه ذلك مع قارق وحيد ، وهو أن الباي التركي تحول الى شخصية للزينة وتحولت السلطات ليستحوذ عليها من حل محله وهو

(١) يشهد بهذه الحقيقة Fray Matias de San Francisco ، الذى نشر سنة ١٦٤٣ كتابها

Un relacion del viaje que hizo a Marruccos Fray

بعنوان

Juan de prado , Capitulo VIII

A . Dominguez ortiz : la historia ... p 231 Y Su notas .

(2) Braudel : la méditerranec ... II . p . 468 .

فلم تكن الانكشارية ببساطة الافرقة عسكرية ، وانحصرت مهمتها فى القيام بغارات دورية ، هدفها السلب من داخل البلاد بحجة جمع الضرائب ، وكانت كل قرية وكل قبيلة تعيش مستقلة ، ويتعايش الأتراك والأشوار فى المدن الكبرى مع جماعات غير متجانسة ومع مجموعات البرجوازية ومن لا دين لهم من كل الجنسيات . وهؤلاء المارقون هم الذين كانوا يقومون بعمليات القرصنة ، ذلك العمل الذى جنوا من ورائه مكاسب هائلة والذى كان يشترك فيه حتى البرابرة أنفسهم بطريقة مباشرة

وقد اتجهت مجهودات الملوك الاسبان ، لمواجهة أخطار القرصنة هذه فى المراحل الأولى ، نحو الاستيلاء والسيطرة على موانئ الشمال الاقريقي مثل «طنجة وسبتة ومليلية وأوران» حيث أنشأت قلاعاً حقيقية للدفاع تكلفت كثيراً ولكن فاعليتها كانت محدودة ، وقد أقيمت علاقات سلمية أحيانا ومعادية أحيانا أخرى مع هؤلاء المغامرين من خلال تلك القلاع ، وعاش البعض فى ظل هذه الحصون ، وهناك من الاسبان من هرب اليها وقام بأنشطة معادية ، وكان الفشل فى احتلال تونس والجزائر مدعاة الى البحث عن وسائل أخرى لردع عمليات القرصنة ، فتم تسليح السفن وأستغلت فى ذلك الضرائب غير العادية التى كانت تجمع باسم الخدمات الدينية ، ولكن هذه السفن لم تكن تكفى لمراقبة سواحل بحرية بهذا الطول ، لا من حيث عددها ولا من حيث قدرتها البطيئة على الحركة ، أما الحصون التى أقيمت ، فإن ما يجنى منها من فوائد ، لم يكن كافياً لتعويض ما ينفق عليها . إزاء هذا كله كان لابد من اللجوء الى بديل ثالث تمثل فى تغطية كل ساحل البحر الابيض المتوسط بأبراج دفاعية تدعمها قوات متحركة ، وكان هذا يكفى لضمان أمن جزئى فقط .

ثم جاءت هجرة الغرناطين ، فقدمت دفعة جديدة لعمليات القرصنة ، وكانت تلك العمليات مورد رزق بالنسبة لهم ، كما كانت تعبيراً عن مقتهم

للمسيحيين ، وبذلك اقترنت الخطورة الاسلامية فى بلاد الشمال الافريقى بالانتشار التركي على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهذا هو الذى جعل المشكلة تتسم بطابع الخطورة فى القرن السادس عشر . لقد رأت اسبانيا أن الخطر الحقيقى يتمثل فى غارات المجاهدين المسلمين على الثغور والشواطئ الاسبانية . وقلاً سيرة هذه الغارات فراغا كبيرا فى الرواية الاسبانية وتسبغ عليها صفة الانتقام لما حدث للاندلس المفقود ، وقد استمرت هذه الغارات طوال القرن المذكور آنفا ، واستمرت دهرا بعد اخراج المسلمين من اسبانيا ، ويشير «المقرى» الى مغزى هذه الغارات بعد اخراج المسلمين المنصرين فيقول: «إن هؤلاء» «انتظموا فى جيش سلطان المغرب وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن» (١) .

وقد اشتد ساعد البحرية التركية بفتح القسطنطينية ، فزاد نشاط المسلمين العثمانيين البحري الذى كان قد بدأ فى القرن الخامس عشر ، وكان سقوط غرناطة واضطهاد المسلمين باسبانيا ، ايذانا بتطور هذه الغارات البحرية ونزول الأندلسيين والمورسكيين المنفيين الى ميدانها ، واتخاذها صورة جهاد ضد من آذوا المسلمين وألحقوا بهم ضروب السعف والارهاق فى بلاد الاندلس (٢) .

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على موانئ اسبانيا بعد سقوط غرناطة وحمل المسلمين على التنصير ، فقد غادر الاندلس آلاف من المجاهدين انفوا العيش تحت نير الاسبان ، فعبروا البحر الى العدو الأخرى واستقروا فى بعض القواعد الساحلية مثل وهران والجزائر ووجاية ووهبوا حياتهم للجهاد فى سبيل الله ، وكان البحر ييسر لهم القيام بهذه الفريضة ، كما كانت شواطئ المغرب بطبيعتها الوعرة وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة التى تحميها الصخور العالية ، أصلح ملاذ لمشاريع أوئلك البحارة المجاهدين ، وكانت الجزائر ووجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والاقلاع ، وكان هذه الغارات تعتمد على عنصر المفاجأة ، وتنجح فى تحقيق غاياتها فى معظم الأحوال .

(١) نفع الطيب ٢ ص ٦١٧ ، ج ٤ ص ٥٢٨ من نشرة احسان عباس ، وقد الف المقرى كتابه هذه سنة ١٦٣ ، وانظر : عنان : نهاية الاندلس ص ٣٨٣ .

(2) Lane poole : stanly : the barbary corsairs , pp 26 - 27 London 1890.

يصف «بيترو مارتيري» هذه الغارات فيقرر أن «فرناندو الخامس» أمر سنة ١٥٠٧ باخلاء الشاطئ الجنوبي من جبل طارق الى ألمرية لمدة فرسخين الي الداخل تحوطا من هذه الغارات ، ثم صدرت مرسومات عدة تحرم على المورسكيين السفر الى أبعاد معينة من الشاطئ ، ولكن هذا التحوط لم يقد فى شئ ، واستمرت أعمال المجاهدين ، فألقوا باللوم على المورسكيين وخاصة سكان بلنسية ، وكلما اشتدت وطأة الاضطهاد والعسف بالمورسكيين ، لجأوا الى اخوانهم المغاربة يستصرخونهم ، فيخف المجاهدين المغاربة ، ويغيرون على الشواطئ الاسبانية ويخطفون النصرارى ويبيعونهم عبدا فى الأسواق المغربية، وكان المورسكيون من جانبهم يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الدقيقة عن أحوال الشواطئ ومواطن الضعف فيها ، ويمدونهم بالأقوات والمؤن ، وكثيرا ما جهزت هذه الحملات لنقل المورسكيين الى العدو الأخرى حيث استطاعت نقل جماعات كبيرة منهم خلال القرن السادس عشر .

وفى أوائل القرن السادس عشر ظهر عنصر جديد ، أذكى موجة الغارات البحرية ، ذلك أن البحارة الاتراك وعلى رأسهم "عروج وخير الدين باربا روسا" ، اندفعوا من شرق البحر الابيض المتوسط الى غربه فى مغامرات وجهاد معروف . وفى سنة ١٥١٧ ، سار عروج على رأس قوة برية وبعض السفن واستولى على الجزائر ، ولما قتل فى العام التالي فى معركة مع الاسبان ، استولى أخوه خير الدين على الجزائر ، ثم على معظم الثغور المغربية الساحلية ، وعينه السلطان سليم حاكما عليها وأمدته بالقوات فتألق نجمة وأصبح اعظم امراء البحر فى زمنه وعاونه نخبة من أمهر الربانة الترك مثل «طرغود» الذى خلفه فى الرياسة ، «وصالح ريس وسان اليهودى وايدى ريس» وغيرهم من البحارة الشجعان الذى بسطوا سلطانهم على معظم أنحاء البحر الابيض المتوسط ، وأشتهروا بغاراتهم على الشواطئ الاسبانية والإيطالية والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من المغاربة والمورسكيين .

وقد «بدأ خير الدين» غاراته على المياة الاسبانية بمهاجمة الشواطئ الشرقية ، واستمرت هذه الغارة ثلاثة أشهر ، جمع خلالها فى سفنه كثيرا من المسلمين الراغبين فى الهجرة ، كما أسر كثيرا من الاسبان ، وعرج أثناء عودته على جزيرة «منورقة» . وفى سنة ١٥٢٩ نظم «خير الدين» غارة مهمة على شواطئ الاسبانية ، حيث فاضه جماعة من المورسكيين من بلنسية أن ينقلهم الى عدوة المغرب خلصة ، فأرسل عدة سفن رست ليلا عند «أوليفا» شمال غربى مدينة «دانية» ونزلت الى البرقوة جمعت ٦٠٠ من المورسكيين الراغبين فى الهجرة ، لكن مجموعة من السفن الاسبانية الكبيرة ، فاجأت سفن المسلمين وطاردتها حتى مياة الجزر الشرقية (البليار) ، وفجأة تحولت السفن الاسلامية من حالة الدفاع الى وضع الهجوم وأغرقت بعض السفن الاسبانية وأسرت البعض الآخر ، وسارت سالمة الى الجزائر تحمل مغانمها من سفن وأفراد ، وكان صريخ المورسكيين يتوالى على خير الدين وحلفائه من أمراء المغرب ولا سيما أثناء الثورات المحلية ، ومن هنا تتابعت بعوث خير الدين وغاراته على الشواطئ الاسبانية ، وأخذت تنقل المورسكيين الراغبين فى الهجرة حتى بلغ مجموع ما نقلته سفن خير الدين منهم حوالى ٧٠ ألفا^(١) .

وكان نشاط خير الدين واخوانه فى المياة المغربية ، سببا فى تحطيم كثير من المشروعات الاسبانية فى بلاد المغرب ، وكانت القوات الاسبانية قد استولت على ميناء «وهران» سنة ١٥٠٥ ، واحتلت المياة التونسية عام ١٥٣٥ عندما انضم أميرها من بنى حفص الى لوائهم بعد عزله ، وكان بعض أمراء القواعد والثغور المغربية المعرضين لتهديد الترك يتجهون بأبصارهم نحو الاسبان طلبا للمساعدة ليظلوا محتفظين برئاستهم ، وهناك صور لوثائق محفوظة موجهة من هؤلاء الامراء المغاربة الى الامبراطور

Lanc - poole : stanly : the barbary corsairs , London 1890

(١) انظر :

الفصل الاول والثانى والثالث وكذلك كتاب : غزوات عروج وخير الدين المنشور بالعربية بالجزائر سنة ١٩٣٤ منقولا عن اللغة التركية .

«شركان» تستنصر به وتتعهد بطاعته (١) .

وفى سنة ١٥٥٩ قام «طرغود» أمير البحر التركي بعد خير الدين ، بغارة كبيرة على الشواطئ الاسبانية واستطاع ان يحمل معه ٢٥٠٠ مورسكى ، وفى سنة ١٥٧٠ حملت السفن الاسبانية الاسلامية كل المورسكيين فى «بالميرا» وفى سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر الى بلنسية وحمل ٢٣٠٠ وفى العام التالى حملت السفن كل سكان مدينة «كالوسا» وبلغت الغارات البحرية على الشواطئ الاسبانية ثلاثا وثلاثين بين سنتى ١٥٢٨ - ١٥٨٤ ، هذا عدا الغارات المحلية التى كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من المورسكيين .

وقد وصف «ثيرفانتس» هذه الغارات ، وكان نفسه ضحية أحداها حيث حمل اسيراً الى الجزائر سنة ١٥٧٥ وظل بها حتى تم فداؤه سنة ١٥٨٠ (٢) .

وقد عمل فى الجهاد البحرى ضد الاسبان جماعة من كبار المورسكيين المنفيين ممن تحولوا الى اعداء لآسبانيا مثل الرئيس بلانكيو والرئيس احمد ابو على من شونية ، ومراد الكبير من المدينة الملكية وغيرهم ، وقد أبلى هؤلاء بلاء حسنا وعاونوا على إحكام الغارات على المياة الاسبانية ، وفى سنة ١٦٠٢ وقعت غارة كبيرة بقيادة البحار «مراد الرئيس» على «لورقة» وحملت عددا من الأسرى ، ثم كثرت الغارات فى الأعوام التالية على الشاطئ الجنوبي ، وقد تبين أنها من تنظيم بحار المهليزى مغامر ، كان يعيث فى بلاد سواحل الاندلس ويأخذ الأسرى ويبيعهم عبيدا فى أسواق المغرب ، وكانت ثغور تونس فى نفس الوقت أيام حاكمها عثمان داي ١٥٩٨ - ١٦١٠ ملاذا لطائفة من البحارة المغامرين على الشواطئ الاسبانية ،

(١) هناك صور من هذه الوثائق فى دار المحفوظات العامة بسميته ، وقد حصل الاستاذ محمد عبد الله عنان على بعضها وعرض مضمونها فى كتابه نهاية الاندلس . أنظر ص ٣٨٨ و ماها من تمليلات .

(٢) انظر lea : History of the inquisition in spain , V . ١ . ص . 363

وكان من أشدهم «عمر محمد باي» الذي قام بعدة غارات جريئة على شواطئ اسبانيا الجنوبية كان يعود بعدها مثقلا بالغنائم والسبي (١) .

وهكذا لبثت الغارات البحرية تزعج الحكومة الاسبانية فترة طويلة من الزمان ، وقد زادت حدتها منذ منتصف القرن السادس عشر ، وكان ذلك أمرا غريبا ، فقد كانت اسبانيا آنئذ تلقب بسيدة البحار ، ولكنها لم تستطع ان تفعل شيئا ازاء غارات مفاجئة تقوم بها سفن صغيرة تحمل مجاهدين مضحيين ، وكان اللوم يقع دائما على المورسكيين كما أسلفنا ، لاسيما سكان الثغور فهم الذين يمدون الحملات بالمعلومات ، ويزودنها بالمؤن ، ويحددون لها مواطن الرسو والاقلاع . وقد كان المورسكيون على اتصال دائم ببلاد المغرب وبالمسلمين في افريقية رغم الاضطهاد والتشدد في مراقبتهم ، وكانت «سلا» بمرفئها البديع الذي تحميه الخلجان ، مركزا لأولئك المغامرين ومنها تتوجه اقوى الحملات الى الشواطئ الاسبانية (٢) .

وقد استمر البحارة الاتراك يتزعمون هذه الغارات البحرية زما ، معتمدين بالدرجة الأولى على النواتية المجاهدين من المغارنة والمورسكيين ، ثم أخذت هذه الغارات تفقد مغزاها وتتحول الى حملات للنهب على الشواطئ الاسبانية والايطالية ، وكانت تغذى الأسواق بأسراب الرقيق ، وكان يشترك مع البحارة الترك مغامرون من كل البلاد الأوربية . أما الباشوات او الدايات الترك الذين حكموا طرابلس وتونس والجزائر منذ اواخر القرن السادس عشر ، فقد وجدوا فيها فرصة للنهب والمغانم ، فأمدوا رؤساء البحارة بمعونتهم عند الاقلاع وعند الرسو في ثغورهم مقابل عشر الغنائم تدفع الى خزينة الباشا أو الداى . وبهذه الطريقة استرق عشرات الآلاف من النصارى فى هذه الغارات التى استمرت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبرغم وقوف الدول الأوربية فى مواجهتها إلا أنها لم تستطيع انهاءها تماما إلا بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ .

(١) انظر : ابن أبي دينار : المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ص ١٩٢ .

(٢) انظر : المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٦١٧ ، عنان : نهاية الاندلس ص ٣٩٠ .

وفى أواخر عهد فيليب الثالث حدث نزاع فى بلاد المغرب بين ابناء السلطان المنصور الثلاثة عقب وفاته ، وخشيت اسبانيا من استعداء المورسكيين لمسلمي افريقية ، وبالفعل ، كان المورسكيون فى بلنسية قد ارسلوا رسلهم الى مولاي زيدان ، يوضحون له سهولة غزو اسبانيا واستعدادهم لتقديم ٢٠٠ الف مورسكي مقاتل ، متى احتل السلطان احد الثغور الهامة ولكن السلطان رفض وأجاب بأنه لن يحارب خارج بلاده (١) .

أما اخوة الشيخ فقد استنجد بملك اسبانيا فألجده ، وتنازل الشيخ عن بعض المواقع الهامة ، فثار الشعب عليه وقتله ، وصفا الملك لمولاي زيدان الذى ظل فى كفاح مع اسبانيا حتى وفاته سنة ١٦٢٧ (٢) .

وهكذا لم تقتصر عمليات الجهاد البحرى على العثمانيين ومعاونيهم من المغاربة وغيرهم ، بل اشترك فيها فى مراحلها المتأخرة . المارقون الأوربيون ، وهم عدد غير قليل من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ، جاءوا جميعا بتكتيك ملاحى جديد مع مقدرة على تصنيع السفن العسكرية ، و لم تكن الناحية الدينية شيئاً ذا بال بالنسبة لهم ، لقد شكلوا نوعا من جمهورية المغامرين الحرة ، وكانوا شبه بالقراصنة الذين بقوا فى أرض ليست مملوكة لأحد ، وأنهم كونوا اقطاعات صغيرة . حقيقية . لقد اعتبرت السواحل الشمالية الأفريقية أرضاً لا يمتلكها أحد إلى حد كبير ، ومن يمثلون سيادة السلطان العثمانى من الناحية النظرية ، تركوا القراصنة يقومون بنشاطهم بكل حرية ، مقابل المشاركة فى المغائم التى قمت فى الأسرى من الأيدى العاملة بصورة أساسية وكانوا فيما بعد موضوعا لغدائمات جزيلة .

ولم يجهل المورسكيون أوضاع الحياة فى افريقيا ، ولهذا فإن عدداً ليس بالقليل من الأغنياء والمشهورين ، آثروا البقاء فى الأراضى

(١) انظر ابو عبد الله البفرى : نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى طبع فاس ص ١٦٢ - ١٦٧ .

، وكذلك السلاوى : الاستبصار ص ١٠٢ .

(٢) انظر : عنان : . الاندلس ص ٢٨٣ ٣٩٢ .

المسيحية ، أما الجمهور فقد كانت الأرض التى يمارس فيها شعائر الإسلام بحرية هى المثال بالنسبة له ، وقد فتح الواقع أعينهم على نتائج قاسية مخيبة للآمال تفاوتت درجاتها ، فقد كان الترحيب بهم يختلف من منطقة إلى أخرى ، فلقوا مودة وترحيبا فى بعض الأماكن ومعاملة لا انسانية فى أماكن أخرى .

أما مراكش ، فكانت منعزلة عن العالم الخارجى تقريبا ، ولم تشهد مظاهر التقدم أو لم تعرف التغيرات الكبيرة التى كانت تجرى فى أوروبا ، وقد كون الأندلسيون فيها بهرجازية متخضرة منذ زمن بعيد ، واستفاد السلاطين منهم مساعدات قيمة . وقد شهد القرن ١٦ فيضانا من المهاجرين وكثيرا من المارقين ، تسربت معهم لمحات من التكنيك الغربى ، تكفى لإقامة مسافة بين المغرب وبين الدول البدائية السوداء فى السودان . على الأقل مسافة كبيرة ، تشبه تلك التى كانت بين المغرب وأوروبا فى سنة ١٥٩١ ، أنهم جيش من المرتزقة ، مع اشتراك واسع من قبل المتمردىن الأسبان ، لقد قاموا جميعا بغارات عبر الصحراء وصلت حتى "توبوكتو" أو تمبكتوا سنة ١٥٩١ ، وكانوا جميعا يتكلمون القشتالية (١) .

وكان معظم المورسكيين الذين وصلوا إلى مراكش سنة ١٦١٠ اندلسيين وقشتاليين ومن استريمادورا ، لقد وصلوا فى لحظة تمثل مرحلة عميقة فى مسيرة الإمبراطورية العثمانية العجوز ، فقد مات السلطان أحمد الرابع - فاتح السودان - سنة ١٦٠٢ وقامت الأسر المتصارعة بيث العداوة بين أبنائه عقب صروف للدهر لا تعيننا الآن روايتها ، المهم أن مولاي الشيخ الذى هزمه مولاي زيدان لجأ أخيرا إلى اسبانيا ، حيث ساعده ملكها فى صراعه مع أخيه ، ولكن ذلك السلطان قتل بعد ذلك بقليل ، وبقي مولاي زايدن ، وهو عدوا اسبانيا ، العاهل الوحيد . وفى سنة ١٦١٤ قامت حملة

julio caro Baroja : los Moriscos ..p 240

(١) انظر

وماها من تعليقات

Emilio Garcia gomez : Espana en el sudan , revista de occidente 1935

وانظر مقال

بفتح ميناء "مامورا" على شاطئ المحيط الأطلسي ، دون أن تعاني عمليات القرصنة من نقص ملحوظ نتيجة لذلك .

ويقدر الرقم الإجمالي للمورسكيين في مراكش بأربعين ألفا ، أقام معظمهم في المناطق القريبة من سبتة وفي تطوان وفي مناطق أخرى قريبة من المضيق "من أجل أن يستنشقوا هواء اسبانيا وقد وصلوا يرتدون ملابسهم على الطراز الأسباني ، ويتكلمون القشتالية ، وتمتزج أسماؤهم وألقابهم المسيحية مع أسمائهم الإسلامية ، وكانت عقيدتهم الإسلامية السبب في منحهم ثقة نادرة حتى لقد أسماهم البعض "مسيحيو قشتالة" ، رغم أن هذا يعتبر نتيجة ضعيفة ، الا أنه مؤكد أن بعض المورسكيين استمروا على على مسيحييتهم وقاسوا في سبيل ذلك" (١) .

وقد جند مولاي "زيدان" بضعة آلاف (٢) من بينهم في حربه التي قام بها ضد أخيه مولاي الشيخ ، ولكن هزيمة مولاي زيدان ، جعلت المورسكيين يهربون عبر سلاسل الجبال ، حاملين معهم حقائبهم المتواضعة يجرون نساءهم وأبناءهم ، ويلعنون حظهم في بلاد البربر وتصدر منهم أصوات يختلط فيها أسفهم بمدح السيد المسيح (٣) .

وعلى كل حال فقد حررهم مقتل الشيخ منافس مولاي زيدان من هذا الكرب ، ووجه الأخير فرقة من الجنود إلى مناطق النفوذ الأسباني فلم تستطيع القضاء عليه أما من لم يشترك في الحرب من المورسكيين ، فقد اختلطوا بسكان الحواضر في طنجة وتطوان وساوين وفارس ومدن أخرى ، وكانت تربطهم ذكريات عديدة مادية وإنسانية بوطنهم الأسباني ، وقد

(١) روى كاهيرا قرطبة وغيره بعض الأمثلة ، انظر : 1610 - 4 - 6... relaciones

وانظر A . Dominguez ortiz : la historia ... p 233 y nota 18 .

(٢) هذا العدد هو ثمانية آلاف حسب ما ذكره vaucelas لا أتريكي الرابع والموجود في : -

-las sources inedites de Histoire du Maroco . serie 1 tomo II , p . 495 .

وربما دخل في هذا غير المقاتلين ولذلك ذكر أن العدد كان فقط ١٥٠٠ Rojas casanate

وانظر A . Dominguez ortiz : obra citada , p 233 y nota 19 .

(٣) انظر A . Dominguez : obra citada , p 233 y nota 18 en la misma pag.

استقرت منهم فرقة قوية بنت مدينتين قديمتين خريتا الآن تقريبا هما "سلا" فى الجانب الأيمن و"الرباط" فى الجانب الأيسر . وقد شهدت الأخيرة عصرا من الإزدهار تحت حكم الموحدين ، حيث بنوا هناك برجا هويرج "حسان" الذى يشبه كثيرا برج "لاخيرالدا" فى اشبيلية ، لكنه اذ ذاك كان متواضعا جدا ولم يكن هناك أكثر من بضعة مئات من المساكن المتواضعة يحيط بها ويحميها سور متهدم ، وقصبه .. أو حصن فى حالة مماثلة . وفى مواجهة المدينة العسكرية الرباط ، بنيت مدينة "سلا" التى تميزت بعبقها الدينى بتأثير واحد من المرابطين المتميزين هو "العيشي" .

هذه المدينة المزدوجة أضحت ذات نشاط وحيوية ، وأصبحت مشهورة بفضل مجئ المورسكيين ، الذين شكلوا هناك نوعا من جمهورية القراصنة المستقلة خلال فترة طويلة . ونحو نعرف جيدا ما تعرضت له من خطوب الدهر ، بفضل سلسلة من البحوث أوضحت كل جوانب هذا الفصل الذى يعتبر أهم فصول مأساة النفى المورسكى (١) .

ونعرف أن أول من وصل إلى هذه المنطقة هم "لوس أورناتشوس" ، وهؤلاء يتميزون بأنهم ألفوا العيش بين السلاسل والمرات الجبلية ، وأنهم كونوا مجموعة كثيفة جسورة ثابتة على عقائدها الإسلامية . وقد أقلع هؤلاء من أشبيلية ونزلوا فى سبتة واستقروا فى تطوان ، ثم رغب السلطان فى أن يستفيد بهم ويمقدرتهم العسكرية ، فنقلهم ليستقروا فى جنوب مراكش فى "درعا" لكن ذلك لم يرق لهم ، فهربوا وأقاموا فى الرباط - سلا ،

(١) هناك إعلان جديران بلفت الانتظار اليهما فى هذا الصدد هما :

- les corsaires de sale , Roger coindreau - paris 1948 , 240 paginas .
- la republic andaluza de rabat en el siglo XVII , "Guillermo Gozallees Busto (Cuadernos de la Bilblioteca Espanola de Tetuan " 9 - 10 , Diciembre de 1974 , 464 paginas) .

وهناك وثائق كثيرة عن المورسكيين فى سلا مع دراسات نقدية منشورة فى المجلد الثالث من

1 - serie de las sources indetes de Histoire du Maroco p . 187 y siguientes ..

وأنظر A . Dominguez ortiz : nota 21 en la pagina , p 234 de su obra citada anterior mente .

وكان عددهم ثلاثة آلاف تقريبا ، بينما وصل عدد الأندلسيين إلى عشرة آلاف ، هاجر بعضهم من "استريا دورا" ومن مناطق أخرى ، ويبدو أن العلاقة بين الجماعتين كانت متينة ، وتميز الأندلسيون والجبليون بأنهم ادركوا ما تميزوا به من تفوق على أبناء البلاد الأصليين . وعند تسليم "لاراس" للقشتالين تصادف ذلك مع فتحهم لـ"لامامورا" وهي ميناء على بعد عدة كيلومترات في اتجاه أقصى الشمال ، وبهذا أصبحت الرباط - سلا هي الميناء المغربى الوحيد تقريبا على المحيط الأطلسي وقد فكر السلطان فى استخدامه قاعدة لعمليات الجهاد ، وساعد انسحاب القراصنة الأجانب ، ممن كانوا يعيشون فى "لامامورا" على تنفيذ هذه الفكرة . لقد كان بينهم بحارة متمرسون وهولنديون ماهرون فى بناء السفن ولكن الجبليين ، بفضل تماسكهم القوى وطاقتهم التى لا تقهر ، استطاعوا أن يقوموا بنفس الشئ مستفيدين بتدريبهم على هذا العمل من قبل ، برغم قلة عددهم عن عدد الأندلسيين .

وقد اعترفوا فى المراحل الأولى من نشاطهم بسلطة القاضى الذى عينه السلطان وأمدوه بعشرة فى المائة من المغانم ، ثم مالبتوا أن قتلوا القاضى واصلوا الإستقلال .

وقد جاء المورسكيون والمارقون من كافة النواحي ، تجذبهم رائحة الثورة التى هبت من سلا ، أما بناء السفن فقد شهد تطورا ملحوظا ، انها سفن سريعة تصنع من خشب البلاد ، وتزود بأشعة وأدوات مستوردة من هولندا ، وتنشر الفزع حتى حدود ايرلندا ، وكان الأسطول يتكون من ٤٠ باخرة تقريبا فى أكثر الأوقات مناسبة ، وكانت تقوم بالغارات فتجلب كميات كبيرة من البضائع بالإضافة إلى الأسرى ، وكان هذا يمثل أسس ارتباطاتها بالعالم الخارجى . وقد بنيت حصون متينة هناك لاستخدامها فى الدفاع وصد الهجمات الخارجية ، وكان مدخل الميناء من الصعوبة بحيث لا يتمكن من قيادة السفن فيه الا الخبراء المتمرسون بسبب ضحالة غاطس الماء فيه .

وقد تدهورت الأوضاع فى "سلا" بسبب النزاعات الداخلية فالأندلسيون كانوا غير راضين عن سيطرة الجبليين ، ووصل الأمر إلى صراع مفتوح انتهى باتفاق مضمونه أن توزع الستة عشر منصبا والسلطة التنفيذية بينهما بالتساوى ، وكذلك يوزع بينهما ما يتم تحصيله من جمارك او مغانم لكن هذا الإتفاق لم يصمد طويلا ، فقد تجددت الصراعات الداخلية مرة أخرى اعتباراً من سنة ١٦٣٦ وتعددت أكثر عندما تدخل أحد المرابطين وهو السيد "العايشي" الذى زعم أنه يمثل السلطان ، وكان غرضه الوحيد فى الواقع هو الإشتراك فى المغانم . وقد أمكنه فى سنة ١٦٣٧ الحصول على مساندة اسطول المجليزى قام بقذف القنصة بالنيران وإن استمرت محاولات القرصنة واستمر مايجنى من ورائها من ثمرات . لكن استقلال جمهورية الجبليين التى أحاطها الأعداء من كل جانب بدأ فى الإنحدار ، وحصل المرابطون - وهم الممثلون الأصليون للمسلمين - على نفوذ هناك بدأ يزداد بشكل تدريجى حتى انتهى استقلال جمهورية الجبليين تماما سنة ١٦٦٨ وانضمت سلا للملكة المغربية .

هذه الظروف الصعبة التى عاشها المورسكيون فى سلا ، تفسر المبادرات التى قاموا بها بهدف التوصل إلى اتفاق مع ملك اسبانيا ، وتمثل المبادرة الأولى فى مشروع معاهدة تم إعداده فيما يبدو سنة ١٦٣١^(١) ويتضمن قيام الدوق دى مدينة "سيدونيا" - بوصفة القائد العام للمحيط - بنقل الجبليين ، وتعبير الوثيقة عن الكراهية التى يكنها سيدى محمد للعرب ، لأنهم يتهمونه بمناصرة المسيحيين ، ولملك المغرب الذى يتمنى أن يحطمه أن استطاع . ونظرا لما لاسبانيا من محبة وثيقة لدى الجبليين ، ولأنهم يشتاقون إليها منذ خرجوا منها ، فإنهم يقترحون تسليم مدينتهم لقلب الرابع بالشروط الآتية :-

G . S . Colin : projet de traite entre

(١) مشروع المعاهدة هذه نشره

Les morisques de la casba de Rabat et le roi de Espagne

en 1631 . (Hesperis) tomo 52 , 1955 . p . 17 - 26 .

منقولا عن مخطوط فى الوطنية بهاريس ، ويقول أنها بلا تاريخ وان العنوان التالى هو الذى حدد سنة ١٦٣١

A . Dominguez ortiz : historia p . 235 , nota 22 .

وانظر :

١- أن يسمح لهم بالعودة إلى "أورناشوس" على أن يدفعوا للسكان الذين يرحلون منها كي يحلوهم محلهم .

٢- أن يكون المسئولون من رجال السلطة المحلية منهم ، حتى لا يتعرضوا لإهانات كتلك التي جرت لهم فى مناسبات سابقة .

٣- الا يكون بينهم من المسيحيين القدماء الا القساوسة والرهبان الضرورى لتعليم العقائد الدينية ، والا يتعرض للمحاكمة من ولد منهم فى بلاد البربر وليس لديه استعداد لاعتناق العقيدة الكاثوليكية ويسرى ذلك لمدة ٢٠ سنة .

٤- أن يحتفظوا بما كان لهم من مزايا قديمة ، والا تكون هناك تفرقة بينهم وبين غيرهم من الرعايا فيما يتعلق بالضرائب ، وأن تحترم ثرواتهم وتعطى لهم سندات بها . وتقدم نفس اجراءات الأمن للأندلسيين الآخرين الذين يرغبون فى العودة ، لأن هناك كثيرين فى تطوان والجزائر بمجرد أن يعملوا أن بإمكانهم المجرى آمنين ، فإنهم سيرجعون .

ولتأكيد أنهم كانوا مسيحين قداماء ، سوف يرسل الأسرى المسيحيون معلومات تبين ذلك ، وتوضح أن كثيرا من المورسكيين قد ماتوا على العقيدة فى المسيح .

وقد عرضوا الوصول إلى اشبيلية مستخدمين نفس سفن القراصنة ، ثم تدخل هذه السفن فى أملاك صاحب الجلالة ، كذلك عرضوا تسليم حصن سلا مع ٦٨ مدفعا موجودة به ، ويكفى لهذا إرسال حملة عسكرية بسيطة من مائة شخص ، وعرضوا تسليم المراسلات التى تمت مع ملك المجلترا "حيث ذهب اليها كسفراء كل من لويث دى ثابار؛ والكاتب "أوناشوس" ومحمد دى كلايخو وهو مورسكى من "أوييدا" وقد اتفق معهم البرلمان الإنجليزى على نقاط مهمة ، كذلك عرضوا تسليم المراسلات والإتفاقيات التى جرت بينهم وبين رؤساء بلدية "امستردام" وقالوا إنهم قبل رحيلهم سيسلبون الحى البالغ

الثراء :حتى اليهود ، وسوف ينتظرون وصول هؤلاء اليهود مع قوافلهم وسفنهم البالغة الأهمية ، ويستولون على ذلك كله ، ويسلمونه لصاحب الجلالة ، مع ثروات أخرى من بضائع هولندية وفرنسية ذات قيمة عالية . فى مقابل هذه المغانم وهذه السفن يطلبون من الملك أن يعطيهم مائتى جنيه ، كما طلبوا أن يرد اليهم أبناؤهم الذين حرموا منهم بسبب نفى المورسكيين من كل اسبانيا .

وقد وقع مشروع المعاهدة هذه أربعة رئيسيين منهم ، امتزجت أسماؤهم المسيحية بأسمائهم العربية ، كما يقضى العرف المورسكى ، وهؤلاء هم : محمد بن عبد القادر حاكم العقبة ، والقائد بسر (بشر) ابراهيم دى بارجاس ، والكابitan العموميان : محمد بلانكو (الأبيض) وموسى سنتياجو .

وهذه الوثيقة العجيبة يبدو أن أصلتها ليست موضوع مناقشة ، ولنا أن نتساءل ، هل اشتاق هؤلاء المورسكيون إلى اسبانيا حقيقة ، وهل كانوا مستعدين أن يستأنفوا حياتهم فيها مسحيين أم أن ذلك ليس الا تعبيرا بسيطا عن موقف صعب فرضته ظروفهم ومواقف أعدائهم ؟ المسألة - فيما يظن - خليط من هذا وذاك ، فمجموعة من المورسكيين رغبت فى العودة لاسبانيا بأى ثمن ، بما فى ذلك التظاهر باعتناق عقيدة دينية لا يشعر بها معظمهم حقيقة .

وهناك رسالة عجيبة جدا منشورة ضمن كتاب "مصادر غير منشورة من تاريخ مراكش بالفرنسية" هذه الرسالة موجهة من السيد "خورخى ماسكادنيس" إلى فيليب الثالث بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٦١٩ يذكر فيها حادثة لقاء مع بحارة سفينة تابعة للسلطان العثماني ، وكان معظمهم من جنوب اسبانيا ، وقد ذكر أنه تعرف على جندي منهم وأنه قدم له معلومات عن المكان وعن مدخل الميناء وعن الناس الذين كانوا فى العقبة وقال أنهم حوالى ٤٠٠ شخص ، وكان يظن أنهم أقل بكثير ، وقد سألته عما اذا كان يذكر اسبانيا فأجابنى والدموع فى عينيه أنه كان مسيحيا ويثق فى الله وأنه كان

يحب أن يموت فى اسبانيا" (١) ولا يعرف موقف الحكومة الأسبانية أو رد فعلها ازاء هذا المشروع ، ويقول كولين :إن هناك من الدلائل مايشير إلى أن هذا الأمر كان يحتاج لموافقة أو اعتماد البابا ، ولكن احتمالات قبوله بالصورة التى حاربها كانت قليلة ، ومع ذلك فإن المفاوضات لم تتوقف ، وفى نهاية سنة ١٦٣٦ ، كتب أحد النبلاء ، وركز كلامه عن سكان مدينة "سلا" بصفة خاصة وقال "انهم قدموا مايدل على موافقتهم على بنود اتفاقيات لخدمة صاحب الجلالة ، لقد رفعوا أيديهم عن العقبة ، مقابل تعريضهم بأمور لا نعرف تفصيلها ، ويبقى البحث عن وسائل التنفيذ ومعرفة حقيقة النوايا" وهذا هو الذى حدا ببعض الرهبان أن يذهبوا إلى "تطوان" لمهام تبشيرية ، وقد امتد نشاطهم إلى "سلا" حيث استؤنفت المباحثات السرية (٢)

ولكن المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة حاسمة ، الشئ الذى جعل "لوس أورناشيوس" (الجبليين) يتجهون بعروضهم إلى ملك إنجلترا سنة ١٦٤٠ .ابتداء من هذه الفترة بدأت الجمهورية السلطانية تفقد سلطانها شيئا فشيئا نتيجة للصراعات الداخلية . ولعدة سنوات خضعوا لسيطرة برايرة من الوادي الأعلى ثم تحرروا من نيرهم ليقعوا فى نير السلطان "مولاي الرشيد" وبعد سنة ١٦٦٨ لم تعد "سلا" أكثر من جزء فى الإمبراطورية المراكشية . ورغم أن القرصنة قد استمرت الا أنها لم يعد لها التأثير الأول . وقد تفرق كثير من الجبليين فى المدن المراكشية الأخرى ، وفقدوا وعيهم بأصلهم شيئا فشيئا ، رغم أنه لاتزال توجد حتى اليوم ألقاب تدل على وجود سلف اسباني لهؤلاء ، هذه الألقاب مثل لوس دى كاراسوكوس ، بالومينو ، بلاتكو ، بيريث ، رودريجز ، مدينة ، توليدانو ...

وهناك عدد كبير من المورسكيين ، وخاصة من بلنسية ، توجهوا إلى

Source indites ... 1 - serie III p. 49 .

(١) ذكرها

A . Dominguez ortiz : Historia p. 237 .

(2) Archivo general de simancas , Estado , Espana , Consulta de 11 diciemllerc 1636.

A . Dominguez : obra citade p. 237.

وانظر

السواحل الجزائرية ، وهؤلاء كانوا أسوأ حظا ، يستوى فى ذلك من نزلوا بالقرب من أورن ، ومن حظوا رحالهم فى الأماكن القريبة من مليلة ، لقد وجدت هناك قبائل بدوية قامت بنهب هؤلاء المورسكيين وعاملوهم بأسلوب لا رحمة فيه ، لقد التقط «ب. فونسيكا» روايات ممن سلم منهم ، وأكد أن من سلم من البلنسيين لا يتجاوز الربع ، وربما كان هذا مبالغته ؛ ولكن الشئ المؤكد أن خسائرتهم كانت كبيرة وكانت معاناتهم رهيبة . وهناك رواية عن مورسكي مشهور من مواليد "بناجواثيل" هذه الرواية مؤثرة للغاية ، انها تبدأ فتشير إلى الفرق الكبير بين من أبحروا فى مراكب تابعة للأسطول الملكى حيث وجدوا معاملة كريمة ، وبين الذين ربطوا فى المراكب الخاصة ، ويذكر أنه هو نفسه أبحر فى واحدة منها ، وقد مخرت بهم عباب الماء فى اتجاه "رأس بالوس" وكان اجمالى من وجد بها ثلاثون شخصا وقد فوجئوا بعاصفة قذفت بثلاثة سفن فرنسية فى اتجاه الصخور ، وجاءت سفن إنقاذ من "كارتاخينا" وأنقذت من كان لايزال على قيد الحياة ونزل الجميع ، وأمضوا عدة أيام فى أكواخ بدائية إلى أن هدأت العاصفة . بعد ذلك استأنفوا الرحلة ونزلوا شرقى "أوران" وقد خرج عليهم فى الطريق حوالى ثلثمائة فارس من البدو ، "وقد قاموناهم بالحجارة لأننا نحن كنا غير مسلحين ، وأمكنا أن ندفعهم ، ومع ذلك فقد ادرك المورسكيون أن هذه ليست الا بداية نكباتهم ، وقد لاذوا بالجبال لايعرفون لآى جماعة يلجأون ، وأخذت أعداد كبيرة منهم تحفر الحفر وتدفن فيها أموالها ويخافون فى الواقع مما حدث . ثم جاءت مجموعة من ستة آلاف من البدويين يغريهم النهب والغنيمة ، وما كان من المستطاع دفع هؤلاء ، لقد سلبوا كل شئ حتى الملابس التى باعوها بعد ذلك فى "أورن" بثمن بخس . وبعد هذه المعاملة السيئة ومايشبهها ، وأصل المورسكيون مسيرتهم ، ينهكهم الجوع والبرد ، حيث انضموا إلى مجموعة كانت قد وصلت من قبل ، وواصل الجميع رحلتهم نحو الجزائر معرضين لمشقات هائلة فى الطريق ولم يكن هناك الا زاد قليل ، واذا توفرت المؤونة ، فإنها كانت تعرض بسعر غال ، وفقد المورسكيون كل أموالهم تقريبا ومرت بهم أيام عجاف كانوا يرتعون خلالها فى الحشائش مثل

الدواب ، وعندما توافر زاد متواضع للغاية ، فإن الحصول عليه لم يكن الا من نصيب المحظوظين .

وقد كانت اعداد البائسين تتناقص بسرعة ، فكثيرون قد ماتوا وآخرون آثروا البقاء فى أى مكان ، وأسعد الناس حظا هم الذين وصلوا إلى ضواحي الجزائر ، وإن زعم صاحب الرواية أنه وحده هو الذى تمكن من دخول تلك المدينة^(١) .

وهذه الرواية يمكن أن تكون حقيقة فى خطواتها الأساسية ، لكن لاينبغى أن ينظر اليها باعتبارها نموذجا يتكرر ، فهناك مجموعات أخرى لم يكن حظها مثل هذه ، وهناك من وصلوا إلى ميناء الجزائر بدون مشكلات أو كوارث ، فهؤلاء الذين رحلوا من "الدا" و"نولدا" وصلوا سالمين معهم كل ما كانوا يحملون ، لأن الكونت صاحب قطاعهم كان يرافقهم ، ولم يتركوا الا بعد أن وصلوا إلى مناطق آمنة وأصبحوا فى حماية السلطة التركية وبعيدا عن متناول البدويين ، بل هؤلاء الأخيرين ثبت أنهم كانوا يعاملون الناس معاملة جيدة فى بعض المناطق . ويروى "فوسيكاً" نفسه ان أحد المرابطين عنف بعض من نهبوا السفن وأجبرهم على رد ماكان فيها من ممتلكات .

هناك وثيقة شبه رسمية حول رعب المورسكين الذين نفوا أولا ، وكيف أن هذا الرعب كان له ما يبرره ، هذه الوثيقة نقلها "كابريرا دى قرطبة" فى علاقاته ، وهى محررة فى البلاط بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٦٠٩ ، تقول:-

أن الكونت دى اجيلار قائد "اوران" كتب أن من بقى من المورسكين فى هذه البلاد أعدادهم كبيرة ، لأنهم يخافون من البدويين اذا ماتوغلوا فى عمق النواحي ، فالبدويون يسرقونهم ويعاملونهم معاملة سيئة ويأخذون نساءهم ، وأنهم يموتون بسبب الجوع والأوىثة . ويذكر أن عشرين من زعمائهم ، ممن رحلوا من بلنسية ، مثلوا أمامه ، وأوضحوا له أنهم كانوا مسيحيين ، وأنهم ما كانوا يعرفون حقيقة العقيدة الواجب عليهم اعتناقها

(١) انظر A . Dominguz ortiz : Historia ... p 238 y nota 25 en la misma pagina .

حتى رأوا رجس المسلمين فى هذه الأرض ، وأنهم يريدون الموت مسيحيين ولن يفادروا المكان حتى لو صدر الأمر بقتلهم ، وقد وضعوا تحت الحراسة فى انتظار ما سيتقرر بشأنهم . إن هذه يؤكد فى الواقع عمق خيبة الأمل عند بعض المورسكيين ، الشئ الذى ترتب عليه الوصول إلى مرحلة الأزمة مع معتقداتهم القديمة^(١) .

إن معظم من وصلوا إلى السواحل الجزائرية كانوا قد قدموا من بلنسية ، بالإضافة إلى أناس من أقاليم مختلفة ، ومع ذلك فقد كان الكل حذرا من التوجه مباشرة إلى العاصمة ، هكذا تعبر الوثيقة الطيبة التى أتى بها الجامعى "مولينا" ونسخها "خانير" فى الملحق ١٣٢ من كتابه ، إنها تقول : كل الذين قدموا من نواحي بلنسية أتوا إلى هذه المدينة الجزائرية ، حيث كان يوجد معظم المهاجرين من "استريمادورا ومنشا وأراجوان" وقد انتهى بهم الأمر إلى التمرکز فى هذه المدينة الجزائرية ؛ لأنها تذكرهم ببلنسية فى لطافة ضواحيها العامرة بالبساتين ، اننا نجد هناك كثيرا من المواطنين ، وصلوا فرادى أو جماعات فى القرن الماضى .

إن "دياجودى هايدو" مؤلف "طوبوغرافية وتاريخ الجزائر العام - وهو واحد من أحسن الكتب فى الأدب التاريخى - يمدنا بأخبار طيبة عن وضع الجزائر قبل وصول المطرودين إليها بفترة قليلة^(٢) وهو يقدر عدد المهاجرين بألف أسرة انقسمت إلى مجموعتين هما : المدجنون (المودخر) وهم الذين جاءوا من بلاد مسيحية ، ولوس تاجارنيوس (ربما كانت الكلمة مشتقة من تاجرى" بمعنى حدود) ، وهؤلاء توجد جذورهم فى مملكة أراجون ، وهم يختلفون عن غيرهم وعن الأتراك ببشرتهم البيضاء اللون أكثر من غيرهم ، وهم يكرسون جهودهم للعمل فى حرف متنوعة ، فبينهم الحدادون والخباطون والبناءون وصانعو الأخذية والخبراء بالحراير ، ووجد فيهم عدد قليل من التجار ، والبعض منهم كان خبيرا فى صنع النشا الحربية والفراء

(١) انظر . A . Dominguz ortiz : Historia ... pp . 238 - 239 .

(٢) طبع كتاب la Topografia فى ثلاثة مجلدات بمديد سنة ١٩٢٧ ، وكان قد طبع لأول مرة فى بلد الوليد سنة ١٦١٢ وان تمت كتابته سنة ١٦٠٥ .

التي تحتاج اليها صناعة السفن ، كما أن منهم من تخصص في صنع البنادق والبارود وملح البارود ، ولكن ما تحتاج اليه عمليات القرصنة كان من أعمال المارقين أكثر منه عملا للمورسكيين رغم إن هذه الصناعة ازدادت قوتها بوصول هؤلاء .

إن كثيرا من المورسكيين الذين وصلوا إلى الجزائر كانوا يعانون من الأشمزاز ازاء ممارسات وعادات غريبة عليهم ، إن هذا ملاحظ بصورة واضحة في اقرار واحد منهم اسمه "دياجوديات" ، وهو مدجن وكان قد مثل امام محكمة تفتيش «كونكا» و كان عاملا ، عمره ١٧ سنة عند الطرد ، وقد عاد إلى اسبانيا بعد أن أقام فترة قصيرة في "بايونا وسان خوان دي لوث" ، وكان قد رحل من قبل مع آخرين من كارتاخينا إلى الجزائر وجاء الأتراك - كما يقول - فحملوه إلى المدينة وأدخلوه "لاس لاراثانس" Las larazanas وهي بيوت ملكية كبيرة بها بعض الأسلحة وأدوات المدافع ، وهناك نظروا إلى كل الذكور وأجروا لهم عملية الختان ، وبعد هذا الختان قدموا لهم طعاما طيبا ، وصنعوا لهم من معافطهم رداء اسلاميا . ويقول إنه قد عمل مع مورسكيين آخرين ومع أسرى مسيحيين في صناعة السفن وأعمال الرصف ، ويؤكد أنهم واصلوا سرا الإيمان بعقيدتهم الكاثوليكية ، وأن ما شاهدوه في الجزائر سبب له اسيتاء واشتمزازا ، وأنه اقتنع بترك دينه الإسلامي . إن كل ما كانوا يقومون به في هذه البلاد كان يخلف تماما عما كان في اسبانيا ، فالرجال يتبولون عن طريق رفع الملابس الداخلية وانزال البنطلون ، والنساء تغطى وجهها ، والكل يأكل جلوسا على الأرض .

الفضيحة الكبرى كما صورها (وقد ذكر ذلك "هايدو" أيضا) هو الإنتشار بصورة مبالغ فيها ، وممارسة اللواط مع الأطفال "إنهم يشترون عبيدا من الشباب ليناوما معهم ... وفي الجزائر أكثر من ستة آلاف غرناطي كلهم مسيحيون ، لكن المورسكيين من «بلنسية وأرجوان» لم يؤمنوا بالمسيحية قط ، وإذا كان عند بعض الغرناطيين ابن فإنه ماكان يجرؤ أن يتركه من يده ، خشية أن يأخذه المسلمون من الجزائر ، ليستخدموه

ولا ينبغي أن نبالغ كثيرا فى الثقة بما جاء فى هذه الكلمات ، فقد يكون المدح والثناء بهدف التقرب إلى مفتشي التحقيق ، ولا يبقى الا الإنطباع بأن المورسكيين الذين نفوا شعروا جميعا بلون من الغرابة ازاء السلوك والمعاملات فى المجتمعات الجديدة^(١) .

المجموعة المورسكية الأكثر عددا والأوفر حظا ، هى تلك التى وصلت إلى تونس ، والتى لدينا معلومات عنها ، بفضل سلسلة الأعمال الممتازة عنها والتى جمعت فى مجلد بعنوان "دراسات عن المورسكيين فى تونس" نذكر موجزا لها فيما يلى :

المورسكيون الذين وصلوا إلى هذه البلاد ، وجدوا لهم بها كثيرا من الأسلاف ، شأنها شأن غيرها من بلاد المغرب ، فقد كان هناك أندلسيون فى تونس منذ القرن الثالث عشر على الأقل ، وكثير من الأشبيليين وصلوا إلى هناك بعد سقوط مدينتهم الأصلية فى أيدي المسيحين ١٢٤٨م ، كما وصل إليها الكثيرون من بلاد شرقي الأندلس وقد كتب ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى يقول أنه وجدت بينهم أسر مشهورة : أمراء وعلماء وشعراء ومحاربون ، وقد قويت الهجرات التى اتجهت من جديد من الأندلس إلى تونس العاصمة ، وإلى سفاقس وجابيس وسوسا ابتداء من سنة ١٢٩٢ ، وفى سنة ١٦٠٨ يعنى قبل الطرد بسنة واحدة ، وصل إلى هذه البلاد "قرناندو دى ليون" ومعه مائة وثمانية من الغرناطيين .

لكن لم يحدث قط أن شهدت البلاد وصول موجة غزيرة مثل موجة اللاجئين الذين وصلوا إلى تونس سنة ١٦٠٩ ، انها تقدر بثمانين الفا من الأفراد ، وهو عدد ضخم اذا قارناه إلى وضع بلد صغير ، لم يتجاوز سكانه

خمسین الفأ وفقاً لتقدير لاسام^(١) وعلى أى الأحوال فهذا رقم عال جدا ، وقد وجد بينهم بلنسيون وقشتاليون ، لكن المجموعة الأكثر ، كانت قد وفدت من أراجون . وقد حظى هؤلاء باستقبال الوالى (الداى) العثمانى لهم استقبالا جيدا وأبدى لطفاً إزاء اخوانه المؤمنين بنفس الدين الإسلامى ، وأدرك أن وصولهم سيكون مفيداً فى تنمية بلده ، وقد انقسم الواصلون حديثاً إلى مجموعات ثلاث :

١- « لا ايليتى » وهم العلماء والأثرياء وأعضاء الهيآت الحضارية ، وهؤلاء استقروا فى أحياء معينة من العاصمة فى المنطقة التى وجد فيها من قبل "شارع الاندلسيين وزقاق الأندلسيين" .

٢- الفلاحون ورجال الصناعات الصغيرة الذين استقروا فى مراكز أنشؤوها وأخرى قاموا بتوسيعها على بعد مسافة قليلة من العاصمة وفيها واصلوا ممارسة انشطتهم التقليدية .

٣ - المزارعون ، وهم المجموعة الأكثر عدداً ، هؤلاء استقروا فى المناطق الزراعية الخالية ، وأرسل آخرون الى مناطق معرضة لخطر غارات البرابرة المتوحشين ، فبنى هؤلاء قرى فى الأماكن المرتفعة وفى مواقع يمكن الدفاع عنها أو على أطلال مدن رومانية قديمة بادت مثل مناطق : « تيسطور ومدخل الباب ، وسلوكيا وقلعات الاندلس » ، أما المناطق الهادئة مثل جزيرة «رأس بون وسليمان وجرومباليا وبيلى» وغيرها ، فقد اندمجوا مع السكان القدامى الموجودين . ويبدو أنه فى داخل نطاق هذا التوزيع العام ، فإن

(1) J . D . latham : towades study of andalusian imigrations and its place in tunisian history

مقال منشور فى Les chaires de tunisie , V , 1957 , pp . 203 - 252

وقد نشر ميغيل دى ابالثا ترجمة فرنسية له فى كتابه

دراسات عن المورسكيين الأندلسيين فى تونس ، انظر ص ٢١ الى ص ٦٣ ومعروف ان المؤلف نفسه ، وهو استاذ بجامعة مانسستر فى بريطانيا ، قد أعد دراسة جيدة عن هذا الموضوع بعنوان :

Andalusian in Barbary

لاندرى هل طبعت أم لا ، أنظر :

A . Dominguz ortiz : Historia ... p 240 , Nota 27 .

المورسكيين حاولوا التمرکز فی مجموعات اقليمية وفقا للمصدر الذي قدموا منه ، يعنى أنه رغم وجودهم فی أرض عربية ، فقد استمر البنسنيون يشعرون باختلافهم عن الغرناطين وعن المستعمرين القشتاليين ، وكان التخصص المهني أيضا معيارا لبعض التجمعات وفقا للعادة القديمة والخاصة بتمركز جميع التجار والحرفيين فی شوارع وأحياء خاصة . حدث هذا فی العاصمة وفي «بيزيرتا» حيث يوجد فی كل منها «حماة الاندلس» أوحي الأندلسيين الذي يتمتع بنوع معين من الاستقلال .

وقد شهد التقدم الحرفي فی تونس العاصمة دفعة كبيرة بوصول هؤلاء المهاجرين ، ونفس الشيء حدث بدرجة أقل فی المدن الأخرى ، فكثير من المورسكيين وصل معه معداته وآلاته ، وحسنوا الناحية الفنية لصناعة الحرير فی كل مراحلها ، ابتداء من جنى البراعم وحتى النسيج وتغرية الأقمشة وصبغها ، وقد حظى تصنيع القلنسوة باهتمامهم الخاص ، ولا يزال قسم كبير من الكلمات الفنية الخاصة بهذه الصناعة حتى يومنا هذا من أصل اسباني ، كما برهن على ذلك «محمد العنابي»^(١) ، وربما كان التطور الذي شهدته صناعة القلنسوات فی بلاد البربر ، هو السر فی تدهور هذه الصناعة فی «طليطلة» التي كانت تصدر فی القرن السادس عشر كميات كبيرة منها

وتعتبر صناعة الخزف والفخار من بين الصناعات ذات التقاليد العريقة فی تونس ، وقد أضاف اليها وصول المورسكيين أشياء جديدة فيما يتعلق بالموضوع وأسلوب الصناعة والتلون بالألوان الزاهية ، وكان الوجود الأندلسي متمثلا أيضا فی الزخارف التصويرية الخاصة بالاستقف والافريز والحيطان ، أما التجديد المعماري الذي شهدته العاصمة ، فقد كان متلائما مع الموقف الاقتصادي واتخذ مظاهره فی بناء المنازل الفخمة ، التي كان لبعضها أفنية من المرمر وعيون وناقورات وحدات تنم عن الوجود الاندلسي.

أما التحسينات فی المجال الزراعي ، فقد كانت ملحوظة بصورة أوضح ،

(1) miguel de epalza : etudes ... pp . 304 , 305 .

وكل الذين اهتموا بالقطر التونسي من مؤرخين وجغرافيين ورحالة ، أشاروا الى النهضة الحيوية الكبيرة التي كان وراءها وصول آلاف عديدة من الفلاحين الخبراء ، الذى ادخلوا تحسينات على الجوانب الفنية للري ، وزرعوا أشجارا مثمرة ، وقدموا دفعة كبيرة لمحاصيل عديدة خاصة محاصيل الحدائق والبساتين .

وحتى القرن الثامن عشر كانت القرى ذات الاصل الاسبانى مزدهرة ، وقد تدهورت اليوم ، ويكاد الأثر المورسكى الاسبانى ينمحي منها ، وإن استمر محتفظا بقوته فى بعض الأماكن مثل «تيسطور» الواقعه فى وادى «مدخيردا» الذى يضم أفضل الأراضى التونسية خصوية . وعندما وصل اليه المورسكيون مهاجرين لم يكن يستخدم إلا فى الرعى وحده ، وأقصى ما أستفيد به منه زراعة بعض المحاصيل ، كذلك أدخل المورسكيون محاصيل الرى فى السهول المنخفضة كما ادخلوا البقول والحبوب فى الاراضى التى تعتمد فى ربيها على مياة الامطار التى تقع على ارتفاع متوسط ، أما الأرض المرتفعة أكثر فقد خصصوها للغابات ، وبهذا الأسلوب أوجدوا واحة حقيقية بين المناطق التى يسكنها البدو ، منفصلة عنهم ببعض الأسوار ، وكانوا يبيعون السلع ويعقدون الصفقات من خلال السوق الذى كان يعقد مرة فى كل أسبوع .

وكان وعيهم بذاتهم وراء المحافظة على نقاء عنصرهم نسبيا ، مع المحافظة على الفنون الشعبية التى ميزت مجموعتهم خلال فترة طويلة . وكان من الممكن ادراك تميزهم بصورة واضحة جدا حتى القرن الثامن عشر ، وحتى اليوم توجد بعض آثار وان كانت باهتة . يروى رحالة فرنسى ان النساء المورسكيات كن يفضلن البقاء بلا زواج على الاقتران بزواج بدوى ، وكن على العكس يفضلن المتمردين الاسبان ، وحتى اليوم يتميز التونسي المنحدر من أصول اندلسية . من الناحية الجسيمة عن زرية المتمردين الاسبان ، بلامح فى سحنته وبلونه الصافى^(١) بل لقد احتفظ بعضهم بلقب العائلة

(1) J . d latham . towards study of andalusian inmigrations and its place in tunisian history . (cahierx de tunisie , 5 , tuncz , 1957 , pp . 203 - 252

وترجمته الفرنسية فى عمل ميچيل دى الهالسا من ص ٢١ الى ص ٦٣ . كما سبق ذكر ذلك فى ص ٢

مثل" كونت لويس ، منديث ، مورسكو ، بالدو" ، وقد انتهى استعمال القشتالية والبلنسية بينهم . لكن بقيت تفاصيل مادية ملموسة لا تخصى ، كما بقيت عادات تذكر بأصلهم ، وهناك أسلوب الطبخ المستمد من مصدر الاندلس ، ويدخل فى وصفه أطباق من اللحم المتبل مع كميات وافرة من البهارات والتوابل ، ومن المحتمل أن يكونوا هم الذين ادخلوا زراعة الزعفران بهذه البلاد ، وتبدو آثارهم أيضا فى عمل الفطائر المصنوعة من الدقيق وعسل النحل والسكر بالدرجة الاولى . أما واجهات بيوتهم المبنية من الآجر فتذكرنا بفن «الموديخى الارجوانى» وتذكرنا قمم المنارات المخروطية الشكل ، بأبراج «طليطلة وبورجوس» ، وفى «تيسطور» - المكان الذى يتضح الأثر الاندلسى فيه - ترى منازل ذات فتحات او شبابيك تطل على الشارع ، وهذا شئ غير مألوف فى بلد أسلامى .

ومن الامور التى تستدعى الدهشة اننا نرى فى بيوتهم أبوابا تزينها مسامير تشكل رسومات على شكل صليب ، وفى سنة ١٧٢٠ وصف أحد الرحالة أسلاف المورسكيين بأنهم الشعب الأكثر تحضرا والأكثر لطفا ، رغم أنهم متكبرون وقساة وحريصون على الشهرة والمجد ، ويبدو أن هذه المظاهر متوافرة بينهم حتى اليوم ، وقد اعترفت الحكومة نفسها بتميز هذه المجموعة ، فحتى منتصف القرن التاسع عشر كان يوجد بينهم شيخ الاندلسيين ، وكان له السلطان عليهم ، وكان يعمل وسيطا بينهم وبين المشايخ ، وكان يتولى هذه المسئولية فى منتصف القرن السابع عشر ، رجل اسمه «مصطفى كاردناس او كارديناس» وأصله من أسرة من "بيزا" .

وبرغم انغلاق هذه المجموعة على نفسها ، فإن بعض عاداتها انتقل الى بقية السكان ، ليس أمامنا وسيلة أخرى نفسر بها مثلا أن عصى ورق اللعب التونسى تدعى دينار ، أن «باستون او باستوس» تعنى المرعى ، وأن إسبانا (اسبادا) تعنى السيف وأن الأقداح او الأكواب يقال لها

«كوباس» . دليل آخر على امتداد تأثيرهم فى مجالات معينة وصل الى المستوى القومي هو أن امين "السواسان" حتى نهاية القرن التاسع عشر كان هو الامين amin الذى يهيمن على الحياة الاقتصادية والنقابية لكل التجارات لقد وجد «ميجل دى ابالسا- بين آلاف الوثائق القانونية والتجارية ، الموجودة بسجلات المحفوظات فى القنصلية الفرنسية بتونس - ٢٤٦ وثيقة تتعلق بالمورسكيين ، تتضح منها نشاطاتهم المهنية ومستوى التعليم بينهم ، وهى تؤكد ان مستوى التعليم عندهم كان أعلى منه عند المسلمين الآخرين^(١) وكان بعضهم يوقع بالاحرف اللاتينية الى ما بعد الطرد بسنوات عديدة . ويبدو أن الفترة اللامعة فى حياتهم استمرت حتى سنة ١٦٥٠ ، اما النصف الثانى من القرن السابع عشر فقط شهد توقفهم .

لم تكن السلطات التونسية على اتفاق معهم فى معظم الأحيان ، وكانت تفرض عليهم ضرائب تفوق طاقاتهم أحيانا . وفى القرن الثامن عشر وصل الأمر بالمجموعة المورسكية أنها كانت مهددة بالتحلل والانصهار ، الا فى الأماكن التى كونوا فيها أغلبية قوية ، كما هو الحال فى ناحية «تيسطور» السابق ذكرها ، وقد درس مسجدها العظيم أكبر المتخصصين فى الفن المعماري بالشمال الافريقى وهو «ج . ماركيس» ، ولفت النظر الى التشابه بينه وبين الآثار العربية والمدججة الموجودة فى شبه جزيرة ايبيريا ، كما لفت النظر حتى الى الجانب غير الجيد فيه .

ولقد دُرستُ بعض ملامح الثقافة الروحية لدى المورسكيين ، ويأتى فى هذا النطاق ذلك العمل الهام والمفيد الذى أعده «اوليفر آسين» بعنوان «مورسكى من تونس معجب بلويى^(٢) .

لقد واصل هؤلاء كتابة أدبهم «الاحميادو» وإن لم تصبح له نفس

(1)Miguel de epalza : Moriscos y andalusies en tenez durante el siglo XVII, Al - Andalus XXXIV , 1969 , pp . 247 - 329

(٢) نشر هذا العمل بالاسبانية فى مجلة الاندلس . مدريد سنة ١٩٣٣ . من ص ٤٠٩ الى ص ٤٥٠ . ونشرت له ترجمة فرنسية عند ميجيل دى البالسا : دراسة عن المورسكيين الاندلسيين فى

تونس من ص ٢٠٥ الى ص ٢٣٩

الشهرة فى بيئة عربية اسلامية . ويرجع ذلك الى ان معظمهم كان يتكلم الاسبانية ، ولم يكن عندهم المقدرة على الكتابة باللغة العربية فى انسياب وطلاقة . يذكر «اوليفر آسين» اسم «عبد الكريم بن على بيريث» بين كتاب آخرين ، وهو الذى الف كتابا سنة ١٦١٥ يدافع فيه عن الاسلام ، ويشهر بصورة واضحة جدا . بمحاكم التفتيش وأعضائها ، كذلك كتب ابراهيم طبيلى - وهذا اسمه عندما استقر فى تونس وهو طليطلى واسمه السابق خوان بيريث - كتب أشعارا حول الجدل الدينى تدل على أنه كانت له معرفة محدودة باللغة اللاتينية وبالمؤلفين الكلاسيكيين ، رغم أنه كان يميل الى اتجاه مدرسة النهضة الشعرية فى قشتاله ، وهناك فصل طيب عند هذا الكاتب يدل على أنه عرف «كيخوتى» فى نسخة مفقودة اليوم ، سابقة على تلك التى تعتبر اساسا^(١) كذلك عرف الشاعر الارجوانى "دى بيافيلتش" وآشى محمد ريبو» الخ .

وهناك أعمال كثيرة محفوظة مجهولة المؤلف ، معظم مضمونها دينى مع بعض استلها من الادب القشتالى ، فقد تداول هؤلاء المورسكيون قصائد شعبية رومانسية وأشعارا «لجارتيلاسو» و«جونجرا ولوى» . ويذكر «اوليفر آسين» بحق ان تونس كانت العاصمة الثقافية لكل بلاد البربر الى حد كبير ، فيها كان يمكنك أن تقرأ اعمالا وافدة من الجزائر مثل أشعار «ابراهيم دى بولفاد» وأعمالا من مراكش مثل دعوى ضد الشريعة المسيحية" لمحمد الجوايز ، وهو مورسكى أصله من «باسترانا» . وهذه السيطرة الأدبية التونسية تعكس بدون شك الترحيب الأفضل والاضاع المناسبة أكثر والاستقرار الذى نعم به من وصل الى هذه البلاد من المورسكيين .

ومن المؤكد أن الهجرة المورسكية لبلاد المغرب لم تكن مفيدة فى كل جوانبها ، فهناك بعض السلبيات . ذلك أنه بالاضافة الى زيادة اعمال القرصنة ، فلا بد من الإشارة ايضا الى تجارة العبيد باعتبارها احدى المهن التى كرسوا لها نشاطاتهم ، ولهذا علاقة بالقرصنة ، ولا تنقصنا الوثائق

(1) Oliver Asin : El quijote de 1604 , Madrid 1948 .

التي تدل على أن المورسكيين عوملوا معاملة سيئة سواء من جانب القراصنة أو من جانب المتمردين من المسلمين ، وربما بسبب الكراهية المتراكمة للمطرودين ، على الأقل مجموعة الجيل الاول . ومع ذلك فان من الممكن أن نقول إن تحركات الجماهير المورسكية هذه كانت إثراء ملحوظا لبعض البلاد الفقيرة سواء على مستوى الافراد او مستوى النواحي الفنية ، وقد أسهم في هذا الأثراء - بالإضافة الى المورسكيين - اليهود والمتمردون الذين وفدوا من اسبانيا ايضا ، وكان عدد أفراد مجموعة اليهود في تونس كبيرا ، بينهم عدد كبير جاء من «ليورنا» مركز التجمع اليهودي الاسباني - وكانت ضمن أملاك دوق «توسكانا العظيم ، ويذكر «ب هارفي» أن هذا الدور لم يقتصر على النطاق الاسباني ، بل أصبح يمثل مرحلة من مراحل التوسع الاوربي^(١) ويروي لنا نفس المؤلف مغامرات رجل من هؤلاء المنقبين اسمه «احمد بن قاسم الاندلسي» كان يفتخر بلقب «بيخاراتو» ؛ لأنه من أصل غرناطي او بلنسي ويتكلم العربية منذ الطفولة ، وفي سنة ١٥٩٩ انتقل الى المغرب حيث عمل سكرتيرا و مترجما للسلطان مولاي زيدان ، وكان قد سافر الى باريس لمهمة دبلوماسية كما سافر الى هولندا بهدف السعى للحصول على مراكب ، وله جدل ومناقشات مع اليهود ومع المسيحيين ، وقد سافر الى مكة لاداء فريضة الحج ، وفي العودة استوطن تونس وفيها قام بترجمة رسالة المدفعية لابراهيم بن احمد من القشتالية الى العربية - ومؤلف الرسالة المذكورة اسباني غرناطي رغم اسمه العربي - وكان يلقب بـ «ريفاس» وهو بين المورسكيين الغرناطيين الذين طردوا من وطنهم الاصلي سنة ١٥٧٠ ، وقد أقام مثل غيره في اشبيلية ، وأعجبه عالم البحر وما فيه من عجائب حتى أنه سافر الى بلاد الهند على متن السفن . ولا بد أنه قد ألف هذه الرسالة بعد أن جمع معلومات عن المدفعية عرضها في الموجز المذكور .

وعندما طرد ١٦٠٩ استقبله الداى العثماني في تونس بحرارة وبعد مغامرات متعددة ولاء الداى قيادة حصن « جوليتا » ، ومن المحتمل أن يكون قد أعد كتابه عن

(1) L . P . H arvey : the Morisco who was Muely Zaydan's interpreter . Miscelanca de estudios Arabes ... 1959 .

المدفعية مستفيدا من كتب حول هذا الموضوع كان الاسبان قد تركوها بعد إقامتهم هناك لفترة ، وربما كان الهدف من تأليف هذا الكتاب هو تدريب رجال المدفعية الذين كانوا هناك ، وقد كتبه باللغة القشتالية ؛ لأنها كانت اللغة المألوفة لدى هؤلاء الجنود (١) .

وقد ذكر « هارفى » المناصب المرموقة التى شغلها هؤلاء الجنود بينما كان لا يهتم بهم أحد فى بلادهم الأصلية ، واستنتج من ذلك أن المورسكيين تنبها الى المزايى التى قدمتها لهم الثقافة المادية المتقدمة التى حصلوها من اسبانيا ، وجعلتهم يتفوقون على إخوانهم من الافارقة المسلمين ، وهذا مثلا ما حدث مع المهندس المعمارى « خانيرو الاندلسى » ومثله كثير .

بطبيعة الحال لم يكن دخول ما بين ٢٥٠ الى ٣٠٠ الف مورسكى ومتمرد ، كافيا لتضييق المسافات الواسعة بين افريقية وأروبة ، وعندما تمركز عدد منهم فى شمال شرقي تونس ، أمكنهم القيام بتغيرات ملوطة ، لكن توزع الباقين على امتداد ٢٠٠٠ كيلو متر ما بين الرباط والجزائر وبقى تونس ، لم يكن كافيا لخلق خبرة كافية تعوض التأخر الموجود فى هذه البلاد ، بل إن هذا التأخر كان يزداد مقارنا بالتقدم الذى كان يجرى فى أوربا ، ومع ذلك فمن الممكن تأكيد أن ما قام به هؤلاء المورسكيون من نشاط كان يفوق كثيرا ما تمثله أعدادهم .

فالفلاحون والمهنيون والمثقفون والتجار ورجال الدولة ، كل هؤلاء أسهموا فى استمرار قيام التشكيلات الهشة لبعض الأمور البدائية التى كانت تهددها دائما اقليمية البلد الاصلي واعتداءات وأذى رجال البدو . كل ذلك كان ممكنا بالنسبة للمورسكيين ؛ لأنهم تجمعوا فى المراكز الحضارية ، مشكلين نسبة مهمة فى الجزائر وتطوان وفاس وطنجة وتلمسان ، وهى بلاد يتميز فيها المسلم الاسبانى الأصل عن ابن البلد الأصل حتى قبل وصول المورسكيين . حول هذه المراكز الحضارية ، وفى ظل العلاقة المتينة مع

(1) L.. Harvy : the moriscos wha was mulcy zaidans inter preter, Mescelanca de Estudios arbes, 1959,

البرجوازيين سكانها وملاك قسم طيب من أراضيها ، قام الفلاحون المورسكيون بزراعة الأراضى بنفس الاسلوب الذى كان يزرع به أجدادهم فى اسبانيا . هذا التمرکز ووعى المورسكيين لأصلهم ، هو الذى يفسر عدم ذوبانهم فى أبناء البلد الأصليين رغم مرور وقت طويل ، كما يفسر أن عدداً كبيراً من أبناء المهاجرين ، حافظوا على تقاليد أسرهم الأصلية . يقول «كارو باروخا» :

« نجد اليوم - فى الواقع - فى المدن القديمة بالشمال الاقريقي مسلمين تقليديين يفخرون بأصلهم الاندلسى ، لناخذ مثلاً حالة تطوان ، فى مقابل كل أجنبى يوجد إسباني لديه الحد الأدنى من الاهتمام بالماضى ، وهذا حال أشخاص المجتمع التطوانى . هذا يذكرنا فى الحال بالتقاليد التى فرضت على افراد بعض الأسر أن يتعاشوا حتى فى اللحظة التى كان المسلمون فيها لا يزالون يوجدون فى شبه جزيرة «ايبيريا» حتى إن بعض العائلات تؤكد أنها تملك مفاتيح منزل الأسرة القديمة» .^(١) هذا ما حدث مع الرحالة الذى زار هذه البلاد فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

وهناك مسافر انجليزى زار هذه المناطق فى النصف الاول من القرن التاسع عشر اسمه «سير ارثوردي كاييا بروك» وجه عنايته للعنصر الاسبانى فى السكان ، واعتبر ذلك من الأمور الجوهرية ، وذكر بعض الاصول الاسلامية الأندلسية الموجودة هناك ، وأضاف اليها قائمة بالأسر المقيمة فى فاس والرباط من نفس الأصل ، واليوم يمكن أن نصل الى معلومات اكثر تحديداً . فمن بين ٤٧٥ أصل أوجذر نسبى جمعها «الرعونى» فى كتابه تاريخ تطوان ، نجد بينها ١٠٤ لا يعرف مصدرها ، وترجع ١٢٠ منها الى جذور اختفت ولم يعد لها وجود ، ويأتى الاندلسيون على رأس قائمة من يعرف لهم أصول باقية ، حيث يصل عدد هؤلاء الى ٧٥ من اجمالى من يعرف لهم أصل ، يليهم الشرفاء ولهم ٥٩ ويحتل الجزائريون المرتبة الثالثة بعدد ٢٨ ، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء قد استقروا بهذه المناطق فى القرن

(1) . Caro Baroja : Baroja : los Moriscos... P. 241,

التاسع عشر أثناء الحرب بين فرنسا والجزائر ، تأتي بعد هذا جذور نسبية لقبائل مغربية مختلفة ومن أراض مجاورة . وفي آخر القائمة تأتي أصول من أماكن بعيدة في العالم الإسلامي وفي حوض البحر الأبيض المتوسط (١) .

وربما كانت حالة تطوان أكثر وضوحاً من غيرها ، لأن طابعها الأندلسي أكثر بروزاً وقد أنشئ فيها نتيجة طرد ١٦٠٩ حيان جديدان بهدف استقبال المهاجرين الجدد هما حيّ العيون وحيّ تركات . وقد بينت فيها خمسة مساجد على مدار ٣٠ سنة تحت إشراف شخصية أندلسية مهمة هي شخصية المعلم « اليوادي » واليه يرجع فضل إقامة المنارة العالية لجامع العيون . إن تأثير الفن الإسباني المورسكي لا يقف عند حدود المدن الساحلية ، إنه يوجد أيضاً ويمثل بصورة طيبة في عمق البلاد ، ولا ينبغي أن نتوقع عظمة أوبهاء في هذا الفن أو تلك الأبنية ، فالحالة الاقتصادية للبلاد بصفة عامة ، وللهؤلاء الذين وصلوا حديثاً لا تسمح بالفخامة . إننا أمام مساجد لا يتجاوز أقصى ارتفاع لها ٢٥ متراً والزخارف فيها متواضعة (٢) لقد كانت أسهاماً متواضعاً قدمه شعب جريح ، في أرض رسخت فيها أصول فنّه .

والآن . هل انمحي الوجود الإسلامي بخروج المورسكيين من إسبانيا بالصورة المريرة التي عرضتها الصفحات السابقة ، أم بقي البعض منهم ، واستمر وجودهم في البلاد بشكل أو بآخر ؟ هذا ما نحاول عرضه في الفصل المقبل .

(1) انظر: J. Caro Baroja, los moriscos... PP. 242, 243 حيث نجد

تفصيل هذه الجذور النسبية ، نقلاً عن :

١٩٥٣ - تطوان ١٣٢ - ١١٨ سيدي أحمد راعوني : تاريخ تطوان ، ص

(2) santiago sabastian : la arquitectura religiosa tetuani, archivo espanol de arte n. 117 ano 1957

وانظر أيضاً

A. Dominguez ortiz : historia ... P. 245.

الفصل التاسع
الوجود المورسكى
فى أسبانيا بعد النفى

من بين المسائل التي استحوذت على اهتمام الباحثين وحيرتهم فى الآن نفسه ، محاولة معرفة الى مدى كان نفى المورسكيين من اسبانيا فعلا أو كاملا ، ومن الطبيعى أن تختلف الآراء حول هذه النقطة ، فهى مشكلة تاريخية صعبة ، وليس معروفا عدد المورسكيين الذين بقوا فى اسبانيا على وجه التحديد . ولا تتعلق المسألة بإرضاء حب الاستطلاع فحسب ، بل ان الاجابة على تساؤل مضمونه هل كان نفى المورسكيين كاملا أو غير كامل ؟ ، يمكننا أن نعتمد عليها لمعرفة ما اذا كانت الرواية المورسكية قد أنتهت بصورة كاملة ونهائية باجراء ١٦٠٩ / ١٦١٤ دون ان تترك اثرا على الخصائص البشرية والثقافية والعنصرية لاسبانيا ، او على الاقل على بعض اقاليمها ؟ أو أن شيئا من ذلك قد حدث وبقيت بعض الملامح والاثار ... ؟

الواقع أن النفى لم يكن كاملاً من الناحية العملية ، وان اعتقد البعض ذلك ، وقد زدونا «برونات» «بأدلة وفيرة تدل على بقاء بعض المورسكيين^(١) وجمع «فرنا نديث وجونثالث» حالات مختلفة لمورسكيين بقوا فى اسبانيا بعد النفى العام^(٢) وكتب مؤرخ معاصر هو «هاملتون» يقول : اشتكى نائب غرناطة فى البرلمان بتاريخ ٣ يوليو سنة ١٦٢٦ من وجود كثير من المورسكيين فى الاندلس ومن أنهم لا يشتغلون بزراعة الحقول ورعى الماشية حيث تقل الأيدي العاملة ، وإن بقاء الدم المورسكى. الموجود حاليا فى الاندلس وبلنسية ، يؤكد بقاء كثير من العرب فى اسبانيا ربما بسبب مقاومة النبلاء وكبار رجال الاقطاع الذين واجهوا العرش الاسبانى حول هذه القضية^(٣) .

(1) Boronat y Barrachina : los Moriscos espanoles... 2 - PP.307.

(2) Revista de espana, XIX, PP. 103 y PP. 363 Madrid 1871.

(٣) انظر el florecimiento del capitalismo y otros ensayos de historia economica, Madrid 1948, P. 126 .

وقد قام «خوان رجلا» بتوثيق حالة بعض المورسكيين فى «طرطوش» ثم قال اعتمادا على تجربة : إن لقب «موريسك وموريسكوت» يوجد فى بعض قرى الوادى الاوسط ، واذا وضعنا فى الاعتبار أنه لم يكن هناك مورسكيون بهذه المنطقة فى الفترة السابقة على الطرد ، فانه يترتب على ذلك ولا شك وجود بعض حالات من المسيحيين الجدد أقاموا فى البلاد المذكورة بعد الاجراء الدرامى الذى قام به فيليب الثالث : يقصد النفى العام (١) .

وقدرأينا أن كثيرين ممن نفوا قد عادوا الى اسبانيا ، فرارا مما لقوا فى رحيلهم من ضروب الاعتداء المفزع ، وقد أسلم بعض هؤلاء أنفسهم رقيقا يقتنى كذلك كان ثمة جماعات من الاسرى المسلمين من مغاربة وغيرهم ممن أخذوا فى المعارك البحرية مع المغيرين . وهؤلاء كانوا يباعون رقيقا فى اسبانيا ويفرض عليهم التنصير . ومع أنه قد صدر قرار بحظر وجودهم فى العاصمة الاسبانية ، الا أنه كان من الصعب اخراجهم من كل المملكة ، نظرا لما ترتب لأصحابهم عليهم من حقوق ، وكان البعض منهم يفلح فى ابتياع حريته ويعيد حياة المورسكيين سرا ، وأخيرا توجست الحكومة الاسبانية من وجودهم فصدر سنة ١٧١٢ قرار بنفيهم خلال المده التى يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم الى افريقية ...

وعلى الجملة فان آثار المورسكيين والاسلام لم يعف عليها نهائيا من اسبانيا، ولبت كثير من الأسر والافراد المورسكيين واندمجوا فى المجتمع الاسبانى ، وان استمرت صلاتهم الخفية بالماضى البعيد . وقد ضبطت خلال القرن الثامن عشر حالات عرضت على محاكم التفتيش ، وكان المتهمون ضبط١٧٦٩فيها مورسكيين يجرون شعائر الاسلام خفية . وفى سنة مسجد صغير فى قرطاجنة أنشأه المنتصرون المحدثون ، مما يدل على أنه كانت لا تزال توجد آثار ضئيلة للمورسكيين والاسلام ... بل مازالت حتى اليوم فى «بلنسية وقرطاجنة» ومقاطعة «لامنشا» جماعات من الاسبان تغلب

عليها تقاليد المورسكيين فى العادات ويجهلون التقاليد النصرانية . ومن الصعب اعتقاد أن اسبانيا ، برغم ما ارتكبتها من وسائل مفرقة فى الاجرام ، قد قضت نهائيا على آثار الأمة الاسلامية ؛ فانه من المستحيل أن تجتث آثار السلالات البشرية ، خصوصا متى لبثت آمادا متداخلة ... (١)

ولسنا نشك فى أن رغبة الحكومة فى ابتلاع هذه النبتة لم تلتن ، وانها ارادت استئصال هؤلاء من الجذور ، وهناك براهين كافية تدل على ذلك ويكفى ان نشير أنه من بين الاشياء المعبرة والدالة على هذه الرغبة اختيار رجل لا يرحم مثل الكونت «دى سالازار» مسئوليا عن تنفيذ هذه السياسة ، وكانت كل الرجاءات والتوسلات مرفوضة حتى ولو كانت مقرونة بأقوى الشفاعات ، وقد فشلت سيدات القصر مثلا فى محاولة حجز الترسى المورسكى الخاص بهن ، الشئ الذى اسعد قلب المطران «سان خوان دى ريبيرا» (٢) وكل ادعاءات اعتناق المسيحية أصبحت كلها تقريبا غير مفيدة ، وحتى الذين سجنوا بمقتضى احكام محكمة التفتيش أصبحوا أحرارا وجرى عليهم الطرد .

يقول ابن عبد الرافع - المورسكى المطرود الذى لجأ الى تونس - «ان ملك الكفار امر يطرد من كانوا فى السجن ايضا ، حتى هؤلاء الذين كانوا يجهزون ليتم احراقهم» (٣) إنهم لم يرغبوا أن يبقى فى اسبانيا مثل واحد

(١) عنان : نهاية الاندلس ص ٩-٤ ، وكذلك ، عنان : الآثار الاندلسية الباقية ، الطبعة الثانية ٤٣٦ - ٤٤٤

- lea : the Moriscos ; 365.

(2) Boronat : los moriscos ... 2, p. 709.

(3) A. Dominguez ortiz : Historia... P. 247

ويقول فى التعليق ٢ بنفس الصفحة : ان هذا الاجراء القاسى كان يمثل الحرية والانتفاذ بالنسبة من قسم محاكم التفتيش فى دار محفوظات التاريخ القومى ، توجد ٥٨٦ لكثيرين ، فى الكتاب اجابات كثيرة من المحكمة العليا على استشارات محاكم الاقاليم فى شأن هذه المسألة : ماذا تفعل مع الاسرى المورسكيين ؟ والجواب هو نفسه دائما : لا نطلق سراحهم رسميا ، ولكن ان يرغبوا فى مغادرة البلاد فنحن لا نمنعهم ، وقد كان ذلك مفيدا من الناحية المادية ، لمحكمة التفتيش ؛ لاننا سنتخلص من الاتفاق على أناس صودرت ممتلكاتهم ، وهناك رسالة تلوم فيها المحكمة العليا محكمة «كونيكا» «قونية» لانها تحتفظ بالكثيرين من المورسكيين الفقراء الذين يأكلون على نفقة العامه الخزينة العامه (نفس المصدر ورقة ٣٣٠) ، بعد ذلك بهام كانت هناك مشكلة أخرى وهى ماذا =

فقط لهذا الجنس لا صالحا ولا طالحا وقد قدم مجموعة من المورسكيين الذين طردوا رغم زواجهم من مسيحيات قديمات مذكرة الى المقر البابوي - من خلال السفير لدى ذلك المقر - يطلبون فيها اذناً لهم بالعودة الى اسبانيا ، لكن الاجابة عليها كانت بالنفى (١) .

ومع ذلك ، وبرغم هذه الرغبة الاكيدة من جانب السلطة ذات الاراده المطلقة وبرغم ما ارتكب مع بقايا هذا الاصل المورسكى ويعد أن طردوا مرة ومرة ورغم أن المستولين ذهبوا الى كل ركن فى اسبانيا بحثا عن هؤلاء الذين يمكن أن يكونوا قد اختفوا هنا أو هناك ، بعد ذلك وبرغم ذلك كله فليس من شك فى أن الكثيرين قد بقوا ، على الاقل فى بعض النواحي . لقد كتب «الكونت دى سلازار» الى «الدوق دى ليرما» بتاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ١٦١٢ يقول «لقد بقى الكثيرون خاصة حيث توجد طونف (٢) وهم مكرمون ، وهذا هو حالهم فى «بلاسنثيا وتروخيو وميردا وأوكانيا وطلبييرة» . انه معروف أنه يوجد مورسكيون كثيرون يعيشون فى احياء منذ القدم ، وتأتى البراهين على وجودهم ممثلة فى آراء أصحاب المكان » .

ولدينا دليل يثبت دقة هذه الكلمات يتعلق بواحدة من المدن المذكوره وهى « طلبيره دى لارينا » فى السجلات الكنسية ينقطع ذكر المورسكيين إبتداء من سنة ١٦١ سنة أى أنهم لا وجود لهم من الناحية الرسمية . ومع ذلك

= نعمل مع ماذا نعمل مع المورسكيين الذين اعتقلوا فى عمليات قرصنة ؟ وفى سنة ١٦١٥ شكت محكمة التفتيش من انهم لا يسلمون باعتبارهم مرتدين ، وكانت الحجمة غير معقوله منذ اللحظة التى تركوا فيها اسبانيا لأنهم غير مؤمنين . انظر

- Lea: tha horiscos, P. 355 .

- Miguél de epalza : studes ... PP. 122.

A. Dominguz : obracitad, P. 248 Nota 3

(١) المذكرة والرد عليها موجود عند

Archivo general de simanco, stado roma,

نقلا عن

séptl.1611.

(٢) يشير الى أنه أحيانا وعندما كانت الاماكن مقسمة بين الطوائف او الاحزاب ، فانه كان من الصعب الحصول على عمل فعال أنظر :

Lapeyre, Apendice XIV

وكذلك : انطونيو دو منجيث ، تاريخ المورسكيين ، ص ٢٤٨ التعليق رقم ٤

فقد بقيت أسماء وألقاب كثيرة لأشخاص عرفوا بها من قبل ويذكرون بها الآن (١) وهذا شيء لا يمكن أن يحدث دون تعاون القساوسة بطبيعة الحال مما يؤكد أن المورسكيين لقوا شيئاً من التسامح والمساعدة من بعض الطبقات الاجتماعية ، أحياناً بسبب المصلحة وأحياناً أخرى بسبب الرفق بهم . فوق أن السادة أصحاب الاقطاع قد بذلوا مجهودات للاحتفاظ برعاياهم ، وقد فشلت في معظم الأحيان لكن بعضها حقق نجاحاً .

وإذا كان الماركيز دى «لوس فيليث» قد استطاع أن يصل الى تأجيل طردهم من ٢٣ مكاناً في مرسية ، فإنه لم يكن امامه الا الخضوع للقدر عندما رأهم يغادرون الإقليم . اما الكونت دى «أوروييسا» ، فقد استخدم نفوذه كى يبقى المورسكيون فى الاماكن الخاضعة لسيطرته وشهد بحسن مسيحياتهم . (٢) أما فى اقطاعية «لونا» فقد بقى عدد ليس بالقليل . وفى «قشتالة» حيث وجد أنصهار المدجنين تقدماً ملحوظاً فى بعض الاماكن ، فاننا نجد أناساً يشك فى أنهم كانوا مورسكيين ونجد رجال دين شهدوا بمسيحية البعض فى حالات معينة .

يذكر «جونثالت مونيوز» الدعوى التى اقامها بعض الفخارين «بطلبيرة» بنجاح ضد احدى الجمعيات الدينية التى رفضت قبول هؤلاء الفخارين فيها على أساس أنهم مسيحيون جدد . وكان هناك مورسكيون فى «كامبودى لا ترابا» باعداد كبيرة تتجاوز الثلاثة الاف . وقد حاولوا البقاء لأن لديهم ميزة منحها لهم الملكان الكاثوليكيان حين أعفاهم من ضريبة «لافرضا» كذلك ذهب كثير من المورسكيين وأعلنوا امام المحاكم نفى أئمتائهم للأقلية المورسكية ، وادعوا أنهم يملكون وثائق تصرح لهم بالبقاء فى اسبانيا . وفى سنة ١٦١١ تحدث الكونت «دى سالاز» عن ٧١٦ وثيقة تثبت شرف النسب ، أخذت احكاماً قضائية فى المحاكم لصالح المدعين

(1)Gonzalez Nunaz : la poblacion de Talvera de la reina, PP. 251- 252.

- A. Dominguez : Historia ... P. 248.

(2) Laypere... P. 257 .

فى مقابل ٤١٦ طلباً رفضت (١) .

ومع كل هذا فانه لا ينبغي أن نعمم الحكم نفسه على « بلنسية » التى وصل اليها خمسمائة مورسكى وامرأة واحدة يشك فى بقائها مخفية شخصيتها حسبما يقول واحد من الباحثين (٢) فالدعم الذى صادفة المورسكيون فى البلاد التى بها كثافة سكانية وهى بلنسية واراجون كان محدودا ، فقد حاول البعض أن يبقى مستسلما كعبيد لبعض الشخصيات ، والبعض حاول الاحتماء فى سلاسل الجبال ، وهؤلاء تحولوا فيما بعد الى قطاع طريق ومن المحتمل أن يكونوا قد امتزجوا بطوائف من الفجر ، لكن يمكن أن يقال بصفة عامة إن معاداة السكان للمورسكيين لم يسمح الأ ببقاء بعض الافراد المنعزلين

وأما المورسكيون القطلان فقد تمتعوا بحماية اسقف «طرطوشه» ، ولهذا فقد بقى الكثيرون منهم ، ومعظم من نفوا عادوا مرة أخرى ، وقد تم اجراء استفتاء برزت من خلاله تفصيلات مفيدة جدا (٣) وكان المطلوب فيه الرد على سؤال فحواه هل تعرف أن المورسكيين الذين بقوا فى قطلونيا يتمتعون بالحرية ؟ وهل يعيشون - مع وجود شك كبير فى انهم مسلمون - مثلما يعيش المسلمون فى بلاد البربر ؟ وقد تجنب البعض الاجابة ، والبعض انحصرت اجابته فى الاشارة الى كيفية ادائهم لواجباتهم الدينية المسيحية على كره ومضض ، والبعض قال أنه لا يلمس فرقا بين الذين رحلوا

(١) توجد وثائق محفوظة كثيرة حول محاولات المورسكيين البقاء فى ظل احكام قضائية ، وقد ذكر المؤرخ « لى » بعض امثلة لذلك فى كتابه عن المورسكيين ص ٣٧٥ ، وانظر :

A. Dominguz : Historis ... P. 249 Nota 7

حيث يذكر مثالا منها .

(2) Herrero Martinez : la polbacion palentina en los siglos XVI XVII palencia 1961, P. 26

A. Dominguez : Historia... P. 249.

(٣) هذه المعلومات عن شهور ، تلقاها الدكتور « بديرو خوان هورتولا » حول المورسكيين الذين بقوا فى طرطوشه وبعض مناطقها بعد الطرد ، وحول من نفوا ثم رجعوا انية ، نشرها :

Ignacia Bauer, papeles fe miarchiva, relacianes y manuscritss, Madrid, s.a.

A. Dominguez : Histaria ... P. 249, Nota 10.

والذين بقوا . السؤالان الثالث والرابع فى هذا الاستفتاء هما : هل تعرفون أنه حدثت تكلفات كثيرة فى اجابة اسئلة الاستفتاءات التى اجريت ؟ وهل تعرفون أن كثيرا من المسحيين القدماء قد استراحوا كثيرا للاموال التى اخذوها من المورسكيين فى مقابل شهادة المسحيين لصالح هؤلاء المورسكيين ؟ وقد جاءت اجابة الكل تقريبا بالإيجاب لقد كانت هناك تزويرات وأعمال رشاوى ، لدرجة أن الذين رحلوا ، رحلوا لانعدام الاصدقاء والمال ، وليس لأنهم كانوا متمسكين بالاسلام اكثر ممن بقوا . وقد حدد بعض الناس اتهماتهم ، مثلا تلقى كاتب عمومى من طرفوشه معلومات تفيد أن الاسقف حصل على اموال كثيرة من المورسكيين وأنه أصبح غنيا ، كما أصبح رئيس الشمامسة فى احدى الكنائس ، وراهب أوغسطينى آخر من الاغنياء . وقد قبل الحفاة الكرمليون فى بعض المواقع الف اسكودوس من المورسكيين تبرعاً للدير الذى كانوا يقومون بانشائه . أما السؤال السابع فكان هل تعرف أن كثيرا ممن رحلوا وأبحروا من البلاد ، عادوا مرة أخرى يعيشون فى نفس الاماكن ؟ وكان الرد بالإيجاب فكل أو معظم من توجهوا الى فرنسا عادوا مرة أخرى مع أسرهم ، وقد قدموا - فى بعض الحالات - معلومات تفيد وجود علاقات صورية ، وقد وجدت تصريحات بابقاء ١٤ أسرة تضم ٨٠ شخصا من بين الذين رحلوا عن طريق البر ، وفى منطقة «ما» بقى ٣٣ منزلا مورسكيا ورجعت ٢٤ أسرة . وفى وادى « ريكوتى » بقى عدد كبير بعضهم بصوره قانونية حيث دخلوا فى اسر دينية أو عقدوا زواجا مع مسحيين قداماء ، وآخرون - هنا وفى اجزاء اخرى من اسبانيا - اختفوا وتواروا بين جماعات المتسولين والحجاج والفجر والأشرار من قطاع الطريق .

لكن الاندلس هو الاقليم الذى شهد بقاء مورسكيين اكثر من غيره لسببين رئيسيين : الأول أنتشار العبودية أنتشارا كبيرا فى هذا الاقليم ، والثانى العلاقات الطيبة التى ربطت بين المسحيين القدامى والجدد ، اذا قارناها بالشئ نفسه فى مملكة أراجون . وقد يبدو هذا الكلام متناقضا مع ما خلفته ثورة غرناطة من أمور فظيعة ، لكن الواقع أنه ما أن انتهت هذه

الحرب وزال الخطر ، حتى ظهر ما لكثير من المسيحيين القدما من مصلحة فى بقاء السكان المنهزمين . هذا واضح بصفة خاصة فى أراضى « ألمرية » التى أصبحت جرداء خالية من السكان تقريبا وقد كانت الحاجة غير المتوقعة للأيدي العاملة شديده حتى يعود لهذا الاقليم أهميته ، وهذا يسر التكامل الكامل بين الملاك وبقايا المورسكيين . نفس الشئ بالنسبة لهؤلاء الذين عملوا على تجنب النفى ، وهؤلاء الذين رجعوا متحدين كل المنوعات . لقد برهن « تاييا » على أن السكان الجدد الذين قاموا باستئجار اراضى المستعمرات المورسكية ، هم الذين كانوا يحمون المورسكيين ويخفونهم . إن أسلوب ذوبان هؤلاء المورسكيين فى الاغلبية كان طويلا ولم يحدث دفعة واحدة وإنما مر بالخطوات التالية تدريجياً :

تبنى أسماء وألقاب مسيحية ، ثم ممارسة عقيدة لم يتجاوبوا معها فى البداية ، ثم الاخلاص لهذه العقيدة فى نهاية القرن . وفى النهاية كان البعض بجهد وما وفره ، أمكنه أن يحصل على ممتلكات جديدة ، وعندما جاء القرن التاسع عشر ، قُبل هؤلاء بين جماهير الملاك الزراعيين ، وفقدوا هويتهم (١) .

لقد فتحت دراسات « نيقولاس كابرانا » متطورات واسعة للبحث فى مسائل العبودية أو التبعية ثم الالتحام بعد ذلك . (٢) فبالإضافة لى العبودية التى جاءت نتيجة الحروب فى الفترة من ١٥٦٨ / ١٥٧٠ وجد ايضا نوع من العلاقة الواهية ، صحبتها عقود التدريب . يعنى وضع المتعلمين تحت سيطرة استاذ أو معلم مع حقوق وواجبات متبادلة . لقد تصادف وجود اعداد كبيرة من اليتامى والاطفال المهلمين نتيجة للحرب ، مع

(1) Angel tapia : Historia de la Baja Alpujarra, Almeria 1965, PP.215
٢214,

(٢) ينبغى الاشارة الى ثلاثه اعمال لهذا المؤلف فى هذا الصدد : وهى : (١) ألمرية فى القرن السادس عشر : المورسكيون الموصى بهم . مقال فى مجلة الارشيف والمكتبات والمتاحف ، يناير / يونيو ١٩٧٥ . (٢) العبيد المورسكيون فى الاندلس فى القرن السادس عشر ، مقال منشور بمجلة الاندلس المجلد ١١ سنة ١٩٧٥ . (٣) جذور ممنة للمستعمرات فى مملكة غرناطة ... بلد الوليد . ١٩٧٦ .

الحاجة الى ايدى عاملة رخيصة ، وهذا هو ما يفسر ظهور رسائل المستعمرات في مملكة غرناطة القديمة ، والتي بمقتضاها يوضع الاطفال المورسكيون ، بنون وبنات ، تحت رعاية أسر مسيحية ، وهؤلاء يمكن الاستفادة بعملهم فى مقابل الاتفاق عليهم مع تعويض نهائى بسيط يمكن الطفل من مواصلة حياته فيما بعد ، واذا عهد بالطفل الى أحد الحرفيين فانه كان يلزمه أن يعلمه المهنة ، ومعظم الاطفال المتبنون كانت أعمارهم ما بين سبعة الى عشرة أعوام ، وكانوا يعملون لحساب معلمهم فترة كبيرة ، وهناك حالات قليلة لم تكن كذلك لأسباب لها علاقة بالرأفة بهم .

ومن الواضح أن علاقة من هذا النوع الذى يمكن أن يكون شبه رق ، يناسبها سوء الاستغلال ، ومع ذلك فان السلطات لم تكن تدعم الاستثمار الظالم ، فقد كان هناك البعض من أمثال المستشار القانونى البحرى الذى يرى «كابريانا» أنه أثر بنفوذه وسلوكه فى كل ماله من نشاط لصالح المضطهدين من المورسكيين ، أنه لا يدافع عن الاطفال الموصى بهم فقط ، بل عمل على أن يبقى المورسكيون الشيوخ دون طرد . وهؤلاء بقوا فى المرية ، ويفضله نجوا من موت محقق . لكن ماذا سيكون مصير هؤلاء الاطفال الذين سيصبحون رجالا عند صدور أمر الطرد العام سنة ١٦١٠ ؟ إن نفس المؤلف يزودنا بالاجابة المحتملة ، ذلك أن كثيرا من هؤلاء انتهى به الأمر الى الذوبان فى السكان المسيحيين ، فبعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة اختفت الآثار التى ولدتها أحداث ثوره غرناطة ١٥٦٨ ، وعقد هؤلاء زواجا مع أسر مسيحية قديمة ، وبسبب المشكلة الاقتصادية والديموجرافية فانه ماتنازل أحد عن الاقتران بمورسكى أو مروسكية ، دخله أو دخلها لا يقل عن ١٨ الى ٢٠ دوкас ، بخلاف مالديها من وفورات . الامر المهم فى انصهار الجنس أنه وجدت وثائق يشطب فيه الاسم المسيحى الجديد ، وهو الشئ الذى يجعل الفرد داخلا فى المسيحيين القدامى من الناحية القانونية ، حدث هذا فى فترة وصل فيها الأنشغال بنقاء الدم الى أقصى شدته فى مملكة قشتالة .

وهناك اعمال مشابهة لتلك الدراسات التى قام بها «كابريانا» خاصة

بالمرية ، يبرز من بينها دراسة «رافائيل بنيتيث» حول اتجاه المنهزمين المورسكيين نحو العودة والاحتماء بسلسلة جبال مالقه . ومن كانت أعمارهم أزيد من عشرة أعوام يبعوا عبيدا ، أما من كانوا من عشرة أعوام ، فقد عهد بهم الى مسيحيين قداماء ليقوموا بخدمتهم ، الأولاد الى سن العشرين والبنات الى سن الثمانية عشرة ، وفي مقابل هذه الخدمة كان واجبا على المسيحيين أين يطعموهم وأن يعلموهم العقيدة المسيحية ويمنحونهم راتباً بسيطاً . ومن هؤلاء الابناء فى رعايتهم كانوا نوعين : إما نبلاء وعلى الأولاد أن يقدموا لهم خدمات منزلية ، وإما تجار وحرفيين وهؤلاء يعمل الأولاد عندهم صبيانا ومتعلمين ، أما اندماج هؤلاء فى المجتمع المسيحى آخر الأمر ، فهذا شئ ليس موضع شك (١) .

بالإضافة الى من بقوا ، لابد أن نضع فى اعتبارنا الذين رجعوا ثانية ، ذلك أن من خرجوا نتيجة استخدام القوة معهم ، عادوا عندما أصبح ذلك فى مقدرتهم ، والآخرون الذين تحملوا مشقات الطرد بلا مبالاة بل ويسرور ، غيروا وجهة نظرهم عندما رأوا الاستقبال السيئ الذى صادفوه فى بلاد الشمال الاقريقي . إنه توجد وثائق وفيرة تدل على أن الكثيرين منهم تعرضوا لمشقات جعلت الحياة لا تطاق فى مهاجرهم ، وجعلتهم يخاطرون من أجل العودة الى اسبانيا ، وبالإضافة الى الوثائق ، يوجد إنتاج أدبى عالى القيمة حول نفس القضية . ان الفصل الخاص «بريكوتى» فى دون كيشوت ٥٤/٢ ، قد علق عليه مرات عديدة . وهو يعرض بعض جوانب المشكلة المورسكية ، فثرفانتس لا يعالج هذا الموضوع بصورة عابرة ، لكنه يخصص له فصلا كاملا ليس فيه ما يمكن الاستغناء عنه ، بل ان كل ما فيه ذو فائدة كبرى ويعيننا هنا ما يعكس الواقع أو الحقيقة ، فلنلخص الفصل المشار اليه :

سيد وخادم ، فارقا حلم (لا انسولا باراتاريا) ويستأنفان مشيهما فى

Rafacl Benitez :

(1)gucrray sociedad : Malaga y los ninos Moriscos Cautivos "Estudis" vol. 111, ano 1974, PP. 31-54.

وقد عالج هذا الموضوع أيضا .

Jose M. "Ralbsco en dos asptos de la esclavitud morisca, Malaga 1569 "Homenaje a regle" 1, 293-302.

الطريق المهد ، فيقابلها زمرة من الحجاج المتسولين ، جنسيتهم المانية ، وكان المتنكر «ريكوتى» بين من قابلا ، وقد تعرف على «سانشو» وحكى له قصته : قبل أن تنتهى الفترة الممنوحة لهم كى يستعدوا لمغادرة البلاد ، قام برحلة خارج اسبانيا للتعرف على مكان يذهب اليه مع أسرته يتوافر فيه امان اكثر من غيره ، وقد ذهب الى فرنسا ، ورغم انهم هناك استقبلوه استقبالا حسناً ، الا أنه رغب فى رؤية كل شئ فعبر الى ايطاليا ومنها سافر الى المانيا ، وهنا فى المانيا بدا له أنه يمكن أن يعيش فى حرية أكبر ، لأن الناس فى معظم ارجائها يتمتعون بحرية ضمير . يقول : وقد عدت متخفياً بين واحدة من الجماعات التى تبغى زيارة المعابد الاسبانية ، وقد يستمتعون باجازة سعيدة ثم يعودون ومهم حفنة طيبة من المال . وكانت نية «ريكوتى» استخراج الكنز الذى كان مدفوناً وحمل أسرته الى المانيا . لكن بينما كان يقوم هو برحلته فى اوربا ، فان صهره ، وكان مسلماً بسيطاً ، حمل زوجته وابنته الى بلاد الشمال الافريقى ، رغم أن كليهما كانت مسيحية كاثوليكية . وقد زوده «سانشو» ببعض المعلومات والاخبار ورفض أن يشاركه اهتماماته من اجل استعادة المدخرات التى يسميها - فى أبهة تفاخر - كنزاً ، ثم افترقا .

فى هذه القصة عناصر واقعية حقيقية مذهشة ، وأخرى ليست كذلك ، انه لا يمكن تصديق أن يصف مورسكى عقوبة الطرد بأنها عادلة أو أنه بمجرد أن وصل الى ايطاليا سيعبر جبال الالب نحو المانيا . أنه مما يشك فيه أن يكون شئ كهذا قد حدث لأى انسان ، ربما كان «ثيرفنتس» يبحث عن طريقة تجعل «ريكوتى» يرجع متخفياً بين الحجاج الالمان وربما اخترع قصة موجزة ليتحدث عن حرية الضمير التى أعجب بها سرا ، لكن بيئة «أوجوسبورجو» بما فيها من قسوة لا يمكن أن تكون لها شئ من الجاذبية بالنسبة لتاجر منتسب الى «لامنشا» رغم أنه كان يمكنه أن يقوم هناك بأداء الشعائر والصيام والأعمال المقدسة بكل حريه . وعلى العكس من ذلك هناك أمور مأخوذة من الواقع منها اخفاء «ريكوتى» لمدخراته ، والانقسام الدينى فى داخل الأسرة والشكوك التى عبرت عنها شخصية «ريكوتى» التى

اعترفت أن عندها من المسيحية أكثر مما عندها من الاسلام ، وهو يتوسل الى الله أن يفتح عينيه على الفهم وأن يعلمه كيف يعبد سبحانه^(١) اننا اذا تعاملنا مع مورسكيين من اراجون أو بلنسية ، فان هذه المأثرة تبدو أمرا متكلفا ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لقشتاله الجديدة ، فان هذه الاوضاع تصبح عادية فيها بين المورسكيين الذين هم شبه مندمجين . امران فى هذه الرواية اثرا فى القارئ وأثرا بدون شك فى المؤلف أيضا : المرارة التى لا حدود لها عند المنفيين «انما حللنا نبكى على اسبانيا التى ولدنا فيها والتى هى وطننا الأصلى ... إن الرغبة لدينا جميعا تقريبا أن نعود الى اسبانيا التى يعرف كل هؤلاء - وهم كثيرون - لغتها كما أعرفها أنا ، أنهم سيعودون اليها ويتركون هناك نساءهم وابناءهم بلا حماية ، وأيضا ولايد أن تبرز أيضا ما أظهره الجيران من عطف وشفقة عند رحيل ابنته ، هذه المكرمة لها قيمتها فى بلاد قشتاله وحدها .

ويلاحظ أن «ثيرفنتس» - على لسان ويكوتى - يحصر امكانية العودة فى من يعرفون اللغة» وهو بهذا التحديد يستبعد معظم البلنسيين ، وكثير من الأراجونيين والفرنطيين ، فهؤلاء يتكلمون اللغات الرومانيسة ليليا وبطريقه سيئة ،ولانهم أغلبية فانه ليس ممكنا أن تكون أرقام من رجعوا متخفين عالية نسبييا ، إنه يمكننا أن نتكلم عن مئات وربما آلاف .

أننا نعرف حالة المورسكيين فى طرطوشة وناحياتها والتى يمكن اعتبارها استثناءا . وأيضا المورسكيون من «كامبودى كالاترايا» الذين عاد عدد كبير منهم ، وقد طردهم الحاكم ، ولكنهم عادوا مرة ثانية فى تصميم لا يصدق ، وقد نجحوا فى العودة مرات عديدة ، واعترف عدوهم الذى لا يرحم «الكونت دى سالازار» انه بقى منهم كثيرون بتصريح من مجلس الدولة ، إما بكثير من التسامح أو بروايات مزيفة عن كونهم شيوخا أو مرضى بالكساح» وقد كتب حاكم المرية سنة ١٦١٢ يقول : انه يوجد هناك مورسكيون كثيرون ، سجناء ممن كانوا قد رجعوا الى البلاد» .

(١) شخصيات «ثيرفنتس» والمورسكيون . درست أكثر من مرة وخاصة فصل ويكوتى ، ويمكن أن ترى مثلا لذلك عن

F. Marguez

A. Dominguez : Historia ... PP. 252, 253 y Nota 14, P. 252.

أما الوثائق المتعلقة باشبيلة فقد أخرجها « ميشيل موريت (١) » بعد سبات عميق ، وهى تكشف عن حالات كثيرة تستوجب الدهشة . ويتفق «الدوق دى ميدنيه سيدينيا» مع المجلس فى أن الكثيرين قد بقوا ، وأن آخرين قد عادوا الى البلاد ، وبين هؤلاء من أرسل بهم إلى السجون ومع ذلك فإن نفس الدوق طلب تصريحاً كان سبق رفضه من اجل ان يبقى ستة من الخدم المورسكيين ، وقد توسط ايضا لصالح حوذى قديم رغب ان يستمر فى المنفى مع زوجته وابنته

أى مسرحيات مأسوية عبر عنها موقف الدوق ، وهو يتشفع لبعض المورسكيين ، بينما القى آخرون فى السجون ، إن هذا يوضح الشكوك والتناقضات التى شعر بها هؤلاء الرجال ، ازاء عمل متعدد الاشكال لم يضر بالمصالح فقط بل وحرك الضمائر ، لأنه عمل الذين اختفوا فتسببوا فى كثير من التعقيدات . وأعداؤهم القاسية قلوبهم يعترفون بذلك وبأسفون عليه . فالكونت «دى سالازار» يضاعف من تحذيراته والاب «بليدا» يكتب «كثير من المورسكيين يعودون الى هذه الاراضى بعد أن رأوا المعاملة السيئة التى لقوها هناك فى افريقية ، أنهم يعودون ويطلبون الرحمة ويقولون أنهم يريدون أن يكونوا مسيحيين وأن يعاملوا معاملة العبيد . إنهم يجدونهم عند من يعودون الى بيوتهم للقيام بخدمتهم مجانا ، وكثير من المتخصصين فى اللاهوت يؤكدون للوالى أنه مع أن الأوامر والبلاغات التى فوضهم صاحب الجلالة فى تنفيذها ، توجب اعتقالهم ، لأن المسلمين الاتراك غير «مؤمنين بالتعميد ، وأن عليهم أن يعملوا فقط على ارجاع المسحيين ممن ايعتقون عقيدة الكنيسة ، فان الواجب الأساسى هو ضرورة استقبال هؤلاء الذين سبق تعميدهم ويرغبون فى العودة الى مستقرهم (٢) .

إن تذبذبات السياسة الحكومية تصادف اتفاقا مع ارتفاع وهبوط سياسة «الكونت دى سالازار» ، ففى نوفمبر سنة ١٦١٢ سحبت سلطاته المطلقة لأنه عمل كل ما هو ضرورى لطرده المورسكيين . أما الدعاوى

(1)Michele Moret : Aspectos de la socieite marchande de sevilla au debut du XVII siecle pagina 100, Paris 1967.

(2)Coronica, P. 1020

والالتماسات التي تحدث بسبب ادعاءات المورسكيين فانه كان يعهد بها الى مجلس قشتالة وعندما ترفع اعمالهم الى هذا الجهاز الاعلى بالطرق القانونية ، فان الاعداء الساخطين على المسيحيين الجدد ، بدأوا يهدؤون ، وهذا سهل بقاء الذين حاولوا استنفاد كل الوسائل القانونية حتى لا يطردوا من البلاد ، حيث صدر مرسوم ملكى فى ٢٠ ابريل سنة ١٦١٣ يتعلل بأنه قد عاد الى هذه المملكة كثير من المورسكيين ، لهذا ولأنه لم يخرج واحد ممن بقوا ، ولكونه من المناسب لخدمة الاله ولخدمتى ولصالح هذه الممالك ، اقام هذا العمل من كل جوانبه ، فاننى قد قررت تكليف الكونت دى سالازار من جديد بتنفيذ كل ما يتعلق بالطرد المذكور واصبح مستولا عن كل ما كان خاضعا لمسئوليته ولغيره فى كل ممالكى واقطاعياتى» وقد تم تفويضة فى حل مجمل وسريع لكل الدعاوى المعلقة ، وامرت كل السلطات المدنية أن تضع فى يديه كل الدعاوى وأن يمنح كل سلطة لمراجعة التصريحات التى اعطيت لمورسكيين بهدف أن يستمروا فى البلاد ، لكونهم عجائز او مسيحيون جيّدون أو لأمى سبب آخر» (١).

ان التعسفات التى ارتكبتها هذا الانسان القاسي والمملوء حقدا لا يمكن وصفها ، كذلك التى ارتكبتها منفذوا أو امره ، لقد كان واجبا عليهم أن ينظرو الشكاوى والادعاءات لوضع حد لها . وفى فبراير سنة ١٦١٤ وزع على المحاكم امر صاحب الجلالة الذى قال ان الطرد قد انتهى بما حدث اخيرا فى مملكة مرسية ، أما القضايا المنظورة أمام القضاء ، فان مجلس الكونت دى سالازار يقرر انهاها ، ولن تقبل بلاغات جديدة الأضد من ثبت أنهم عادوا من المنفى . وفى هذه الحالة يبعث بهم الى السجون اذا كانوا قادرين على الخدمة فيها أما فى الحالات الأخرى فانهم يجلدون ويطردون وتصادر ممتلكاتهم» .

بهذا القرار يبدو أنه قد وضعت النهاية للالتماسات الخاصة بالمورسكيين ، ومع ذلك فان بعض الوكلاء المفوضين الغيورين كثيرا ، كانوا لا يزالون يواصلون مضايقتهم حتى هذه اللحظة لهؤلاء الذين بقوا ، مثال

(1)janer, florencio : condicion social de los Moriscos de Espana apendice 141,P. 357-359.

ذلك ما حدث لمن كانوا يقيمون فى ناحية «طرطوشة» وهم من المعروفين بعمسكهم وتشبثهم بأرضهم . لقد كان عليهم أن يحصلوا على تأييد الأسقف ودعم السادة اصحاب إقطاعياتهم ودعم النبلاء وبعض الجمعيات الدينية ويبدو انهم أخيرا حصلوا على تصريح بالبقاء . ونتيجة لمذكرة من كنيسة طرطوشة ، فان مجلس اراجوان شكوا للملك من محاولات الكونت دى سالازار والوالى الهادفة الى طرد المورسكيين والسيطرة على ممتلكاتهم وقد أجاب الملك فيليب الثالث :

«لقد أمرت والى الايضايقيمهم ، بل يتركهم يستمتعون بالفضل الذى منحتهم بكل حرية وليكتب للأسقف ليرى كيف يعيشون ، فوفقا لرأيه يتركون» .

ويعتقد أن الاتفاق على بقاء المورسكيين فى وادى «الابرو الادنى» يرجع الى ان «كارلوس الخامس» قد أمر بانشاء كليات ملكية فى «ستتياجو وسان ماتياس» لتعليم المورسكيين دينيا فى طرطوشة ، وقد فرغ من نباء هذه المؤسسات التعليمية فى عهد فيليب الثانى ، ووجدت لها مؤسسات مماثلة فى بلنسية وغرناطة (١) .

أما الذين ذهبوا يبحثون لهم عن ملجأ فى جزيرة «مايوركا» فقد صادفوا حظا أقل ، وقد جاء معظمهم من وادى ريكوتى ، ومثلهم الذين ذهبوا الى «سردينيا» وبسبب الغموض فى استخدام كلمة «اسبانيا» بالوثائق الرسمية ، فان هناك شك حول صدور أمر باخراج المورسكيين من هذه الجزائر ، لقد أجاب الملك ردا على استشارة والى «دى مايوركا» قائلا :-

«يكتب للوالى أنه ليس من المناسب بأى حال أن يقيم هؤلاء المورسكيون هناك ، وفى الحال يجب اخراجهم منها ، لكونها جزيرة متاخمة لاسبانيا وقريبة جدا من الجزائر»

وتنفيدا لهذا الأمر ، أخبر الوالى بتاريخ ١٨ اغسطس أن آخر مجموعة من المسلمين المنصرين فى «ريكوتى» قد أخرجت وهى مكونة من

(1)A. Dominguez ; Histori ... P. 255, Nota 18.

٢. . سيدة متزوجة ، وبقي فقط ٣ من المورسكيين ليست لديهم وسائل للاتفاق على رحلة بالبحر الى ايطاليا ، وقد أجاب الملك إن قد أمرت باخراج هؤلاء الناس من هناك ، وليعطوا نفقات الإبحار وكل وسائل الراحة الممكنة(١) .

ولا يبدو أن أحدا ممن حاولوا الاختفاء أو المغامرة بالعودة ، قد قضى عليه بالاعدام ، نعم هناك من حكم عليه بالسجن المؤبد ، وهى عقوبة مرعبة ، يمكن اعتبارها مساوية للعمل فى مناجم المعادن الذى كان يتم فى ظروف سيئة للغاية ، حتى لو بقى السجين فى نفس مبنى السجن القديم الذى كان يتصل بالمناجم من خلال ممر تحت الأرض . نعم استمتع العاملون من الاحرار بنظام أقل قسوة ، لكنه كان دائما اليما ومضراً بالصحة ، لانه كان يجب عليهم اكمال المده المقررة مع المسجونيين والعبيد ، وقد وجد مسلمون فى المناجم قضى عليهم بعد ذلك بالتنصير ، وفى سنة ١٥١٦ صرح لمتعهدى المنجم بابقاء ٣. من هؤلاء ، من سكان القرى ، على أن يعفوا من الضرائب(٢) ، لأن الايدى العاملة أصبحت نادرة والطلب على الزئبق يتزايد فى كل يوم خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد . لقد حصل مندوب مؤجرى المنجم - فى سنة ١٥٦٩ على تصريح بالتعاقد مع ٢. . بحد أقصى ممن طردوا من مملكة غرناطة ، وقد سلم له رئيس أحد الأحزاب ٩٣ فقط من الذين يرغبون هذا العمل بأجر يومية ، ويبدو أننا أمام عمل حر ، على الأقل من الناحية النظرية ، ومع ذلك فقد سجلت حالات هرب ، مما يدل على أن العمال لم يعملوا جميعا برغبتهم ، ومع ذلك فان من يعمل هذا العمل يتبغى

(١) نفسه ص٧١ ويذكر *regla* (ص٧٥) استشاره حاكم مايوركا بتاريخ سنة ١٦١٣ بمناسبة وصول سفينة فرنسية أخبره قبطانها بأنه يوجد فى الجزائر . . ٤ مورسكى من الاغنياء ، وانهم اتفقوا على الهرب من هناك يتقدمهم لويس دى طليطة ، وأنه يحملون بالاضافة الى اسرهم ما بين ٤. الى ٥. اسير مسيحي ، وكان الفرنسى يريد معرفة رأى الحاكم وعما اذا ان يمكنه المساعدة فى تنفيذ هذا المشروع ؟ ولكن الملك أراه أن يستقبل الأسرى المسيحيين عند وصولهم وأن يدع المورسكيين يذهبون حيث يشاؤون على الا يكون مستقرهم فى اسبانيا ، انظر كذلك

: Dominguez : obracitada, P. 255, Nota 19.

(2)Tomas Gonzales : registro de las minas de castilla, 1.78.

-A.Dominguez : Historia ... P. 256.

أن يكون كفوًا ، فقد صدر مرسوم ملكي سنة ١٥٨٨ يصرح بنقل ٢٠٠ مورسكي من جيان وأوييدا ويايثا» على أن يتجهوا ناحية المنجم ، وكان يمكن أن يحمل الى هناك ايضا ، الذين حكم عليهم بعدم الاقتراب من مملكة غرناطة ولكنهم لا يحترمون قرار المنع ويقتربون منها(١) .

وقد اثر طرد سنة ١٦١٠ على ٨٠ مورسكيا كانوا يعملون في المناجم ، وكان هذا سببا في قلق اللجنة المشرفة على الانتاج ، وقد حاولت الاحتفاظ بهم حتى عن طريق طرد غيرهم ، لكن الملك أجاب قائلا : «ليبحث عن وسيلة أخرى» ولم يكن البحث عن طرق أخرى أمرا سهلاً والحاجات في الهند كل مرة كانت اكثر الحاحا حتى إنهم كانوا يحتاجون في اسبانيا الجديدة الى خمسة آلاف قنطار من الزئبق ، وامكن فقط ارسال اسطول به ثلاثة الاف قنطار سنة ١٦١٢ ، وحتى هذه الكمية اقتطع منها الف لصالح «بيرو» بسبب توقف المنجم الذي يمون هذه الولاية عادة . لقد كانت الطلبات ملحة بل كانت هناك محاولات غير ناجحة لنقل الزئبق الى الصين ، لهذا فان المجلس المختص أعاد النظر في المسألة وصمم على أن الوسيلة الوحيدة للتخفيف من نقص الايدي العاملة في المناجم هي حمل ١٥٠ عاملا مورسكيا اليها «فليكونوا هناك ، عدلا أو ظلما ... وإذا تبين أن في هذا قسوة فانه يمكن أن يكونوا من المطرودين الذين رجعوا للبلاد ، وكما أنه يقضى عليهم بالاشغال الشاقة ، فانه يحكم عليهم بالعمل في المناجم ، ولا بد أن ندرك أن البعض سيمرض ويموت في بداية الأمر ، لكن بمرور الزمن سيتعودون ويعملون باليومية كما يفعل سكان القرى ، وهؤلاء عندما يلحظون أعراض التسمم ببخار الزئبق ، فانهم سيذهبون للهواء الطلق الى أن تختفى الأعراض ، وسيكون أبنائهم اكثر مقدرة وتعودا . بناء على هذه الفتوى ، صدر أمر لكل المورسكيين الذين عادوا أو سيعودون ، بمقتضاه بيعت بهم الى العمل في المناجم ، وكذلك كل من كان كفوًا بين من يقضون عقوبة المؤبد (٢) .

(1)Matilla tascon : Historia de las minas de Almaden, Madrid 1958, PP. 95-97.

-A. Dominguez : Historia ... P. 256.

نقلا عن

(2)Arhivo general de simancas. cjh. 493,

A. Doming : Historia ... P. 256

وهناك فتوى اخرى صادرة بتاريخ ١٢ فبراير سنة ١٦١٣ بشأن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة من المورسكيين . أنها تقضي بحمل ٨. منهم فى الحال للعمل ، فى المناجم على أن يدفع لهم الأجر اليومى مع تحذيرهم من الغياب عن العمل والا فعوقبتهم ستكون الاعدام ، وحيث ان لا توجد هناك منازل ولا أماكن لإيوائهم ، فإنه يمكن اقراض ٦. «دوكادوس» لكل مواطن يرغب تشغيلهم بمنزله ، وقد علق الملك بقوله «فلتنتظروا كما يبدو لكم ولتكن هناك عناية كبرى بحرس جيد يحرس هؤلاء الناس ، ولتكن المنازل ذات تكلفة بسيطة ولتكن متجاورة» (١) .

المؤلف الذى عالج موضوع المورسكيين الذين بقوا فى اسبانيا بعد الطرد العام هو «فيرناندث وجونثالث» ومقاله الذى يحمل هذا العنوان (٢) يتضمن سلسلة من البيانات البعيدة عن الموضوع ، وهى ان لم تكن مخطئة فهى مبلبلة للأفكار لأنه يخلط بين المورسكيين وبين العبيد المسلمين الذين كانوا موجودين باعداد كبيرة فى اسبانيا ، وهؤلاء لم تتضمنهم قرارات الطرد لأنه يفترض أن ذلك فيه اخلال بحق الملكية لملاكهم ، كذلك لم يكونوا خاضعين لسلطة محكمة التفتيش لأنهم لم يكونوا مسيحيين من الناحية الرسمية ومعروف انهم كانوا يمارسون شعائرتهم رغم أنه كان من المحرم عليهم ممارستها فى الخارج . اذن كان هناك باسبانيا فى القرن السابع عشر خليط من المورسكيين الذين تمكنتوا من البقاء بصفة رسمية ومنهم من عاد الى البلاد متنكرا ، وكان هناك عبيد مورسكيون مسلمون وحتى وجد «بربر» ممن عبروا المضيق تلقائيا بهدف البقاء فى اسبانيا بعد أن طلبوا التعميد باعتباره مطلباً سابقاً لا مناص عنه . هذا عمل يثير الدهشة كثيرا ، وقد وجدت بشأنه نصوص قليلة جدا رغم انها أصيلة ، واحدة منها متضمنة فى ترجمه مسيحي قديم هو «دون فرنسيسكو دى رينوسو» الذى عينه فيليب الثالث

(1)ID. id . 250 un resumen del informe del Visitador Juan de pedrosa en larruga, Memorias ... XVII, 115 - 117 .

نقلا عن انطونيو دو مينجت : المرجع والموضع السابق

(2)Fernandez y Gonzalez, franaisco : "de los moriscos que permanecierom en espa-
na

despues de la expulsion decretado por felipe 111 : revista de espana "XIX 1877, PP.

اسقفا لقرطبة سنة ١٥٩٧ ، قبل هذا التاريخ كان رئيسا لدير في بلنسية ، حيث كان سخيا يستقبل الضيفان بشكل كبير مع كرم زائد عاونه عليه دخله الكبير ، ويروى في ترجمته أنه «حتى الكفار من البربر كانوا يستقبلون استقبالا حسنا فى هذا المنزل ، ويجدون مأوى» وقد ارسل الملك نفسه كثيرين كى يبشروا بالدين ويعمدوا ، وآخرون جاءوا برغبتهم أتت بهم شهرة سخائه ، وكان يستقبل الكل بارتياح شديد ، وقد استمر البعض بعد التعميد فى منزله ، يجرى عليهم جراية وبنحهم راتبا على امتداد حياتهم» (١) وقد يخرج هؤلاء الى اماكن بعيدة فيشاهدون اقاليم الاندلس : وليست فريدة فى بابها ، تلك الحالة التى يذكرها المؤرخ الغرناطى «انريكث دى خوكيرا» والتى تقول :

فى ١٩ مارس سنة ١٦٠٧ أتى الى غرناطة كثير من المسلمين والمسلمات من بلاد البربر مع ابنائهم ، وقد نزلوا فى مدينة المونيكار» ، وكان الدافع وراء مجيئهم هو الرغبة فى العودة الى المسيحية وقد استقبلوا استقبالا حسنا فى مدينة غرناطة ، بأمر من صاحب الجلالة وتلقوا العقيدة ، وجاء اسقف غرناطة ومنحهم ماء التعميد المقدس فى كنيسة غرناطة مع كثير من المهابة ، وكان عدد هؤلاء الذين تحولوا الى المسيحية مع نسايتهم وأولادهم يتجاوز الاربعين ، وقد أمر الاسقف بأن يلبس هؤلاء وفقاً للطريقة الاسبانية وأعطيت نساؤهم أغطية ، وفى نفس الوقت قامت شخصيات أخرى من علية القوم ومنحوهم أغطية وهبات أخرى ، ومن كان منهم متزوجا فى ملته تزوج من جديد» (٢) .

(1) Fray gregario de Alfara : Vida ejemplar de Don francisco de Reinoso, ABAD de husillos y obeispo de cordoba, capitulo XXVII (pub). por J. entrambgues en Valladolid 1940)

(2) Anales ... II, 552.

فى المجمع الدينى الذى انعقد سنة ١٥٨٣ طلب اسقف «باداخوس» وضع حراسة على المسلمين الذين يعيشون فى الشمال الافريقى والذين يتحولون الى المسيحية ، حسبما يقولون ، بينما هم فى الواقع يتحولون سائلين صدقات الناس ، ويسميهم الناس هم وأولادهم . Gacis انظر .

-peroperez : Catequesis de los moriscos extremeños "revista del centro de estudios extremeños : X (1936) PP. 31 - 49

-A. Dominguez ortiz : Historia P. 258, Nota 26.

هؤلاء البربر الذين عادوا الى المسيحية كان يطلق عليهم لقب جائيس Gacis وهذه الظاهرة تشبه ظاهرة العصاة المسيحيين الذين كانوا خليطاً من المغامرين والذين تطاردتهم العدالة ومن المسجونين والجنود الذين هربوا من السجون ، بالاضافة الى عناصر أخرى خارجة على القانون ويجب أن نستبعد السبب الديني ، ذلك انه من الصعب قبول أن افراداً وأسراً كاملة من البربر ، اتوا الى اسبانيا ليتحولوا الى المسيحية ، معقول أن يكونوا قد أتوا هارين أو أن المستوى العالى من الحياة فى اسبانيا قد جذبهم ، والعجيب أن المسيحيين قد استقبلوا هؤلاء الهارين بكل اريحية وضمومهم الى صفوفهم دون ما شك فى نواياهم ، بينما كان على المورسكى أن يبذل مجهوداً كبيراً كى يقنع زملاءه المسيحيين بأن مسيحيتهم مخلصه .

لهذا فان الاشارات الى المورسكيين بعد الطرد تستدعى حذراً وفطنة حتى لا يكون هناك انطباع بأن عددهم كثير وحتى لا يظن أن من بقوا أو قدروا على العودة لاسبانيا كانوا كثيرين ، الواقع أنهم كانوا قليلين نسبياً ، فالاسلام الاسبانى أنتهى ما بين ١٦٠٩ - ١٦١٤ ، وهذا لا يمنعنا من الاعتراف بوجود بقايا لهؤلاء المسلمين اما بصفة شخصية او فى صورة مجموعات صغيرة كانوا متمسكين بعقيدتهم الاسلامية ، يدل على ذلك هذا التكرار النسبى الذى كانوا يظهرون به فى الاحتفال بتنفيذ العقوبات المتعلقة بمخالفة العقيدة الكاثوليكية ، حيث كان يوجد مسلمون ويهود وكان الاخرون أقل بكثير ، أضعف لذلك اننا لا نتعامل فى كل الحالات مع مورسكيين حقيقيين ، بل أحياناً مع عبيد معمدين قد أنتكسوا وعادوا لتطبيق عقيدتهم القديمة . ويقوم المؤرخ «ليا» بحصر بعض الحالات غير المتجانسة : (١)

فى سنة ١٦١٦ طلب مندوب «دانية» من محكمة تفتيش «بلنسية» تعليمات بشأن العبيد المورسكيين الذين يخططون للهرب الى بلاد الشمال الافريقى . وفى بلد الوليد قدمت بين سنتى ١٦٢٢ / ١٦٦٢ حالة واحدة لواحد من المسلمين اتى به لمحاكمته ، بينما كانت الحالات العادية اكثر قليلاً

(1) lea : the Moriseos of spain ... P. 375 y ss.

في طليطلة . وفي سنة ١٦٦٧ جلد مورسكى من بعض القرى لأنه سخر من الاسرار الكنسية . وفي الاحتفال العلنى باعدام الملحدن حرقا ، أحرق رجل من قادش حيا ، لأنه كان قد ارتد عن المسيحية وأصبح من القراصنة . ولم تجد « مرثيدس جارثيا ارنال» فى بحثها المشار اليه سابقا أى طلب رأفة بدار وثائق محمة تفتيش قونيه يخص أى دعوى نظرت بعد سنة ١٦١٠ .

مع بداية حكم فيليب الرابع بدأت مرحلة من الاعتدال والنسيان فى مواجهة المتعصبين الذين كانوا يرون أن المورسكيين يوجدون فى جهات كثيرة وبطالون باجراءات عنيفة ضدهم ، لقد آمنت الحكومة الجديدة بالواقعية ولم تكن بعيدة عن اعتبار أن اجراء الطرد الجماعى كان أمراً غير صواب ، وادركت أنه لم يكن هناك مبرر لهذه الاجراءات القاسية التى ارتكبت ضد مجموعة من اليوساء لا يمكن أن يمثلوا خطرا ، ويبدو أن الشعور المسيطر على البرلمان كان يسير فى نفس الاتجاه ، وفى جلسات ١٦٢٣ اشارة الى أنه اذا عاد أى مورسكى الى القيام بمضايقات فان الأمر ينبغى أن يكون موضع تحقيق ... ومن اجل توفير الخدمة للملايين فإن صاحب الجلالة يأمر بهذا من الآن ، على أن توقف تلك التحقيقات التى كانت معلقة ولا يسمح بالشكاوى ضد الذين يعيشون اليوم فى هذه الممالك ولا ضد الذين يقال أنهم عادوا اذا لم يكونوا يعيشون على بعد ثلاثة فرسخ من موانى البحر (الفرسخ ٣ ميل) وليس من الضرورى - بالنسبة لهم - أن يفهم هذا التحديد» وعلى هامش هذه الورقة وجدت العبارة التالية : «ليس من المناسب ان يتم هذا من خلال القانون ، وقد أمر صاحب الجلالة بكتابة رسائل الى من يدارون هؤلاء» (١)

وفى العام التالى صمم البرلمان وعاد الملك ليجيب بأنه ليس من المناسب أن نحرر مرسوما ، لكن يرسل لأجهزة العدالة بالا تقبل شكاوى ، ومن يشتبه فيهم لا يعاملون باعتبارهم مورسكيين لكن يعاملون باعتبارهم صعاليك (٢) .

(1) Actas de las cortes, XI, 406 .

(2) Id id, X LII, 194 y XLII, 299

وقد سمحت القرارات الحكومية باستمرار بقاء المجموعات التي تقدمت في انصهارها مع المجتمع المسيحى . وقد رأينا أنه بفضل رئيس دير طرطوشه وآخرين أمكن لكثير من المورسكيين أن يحصلوا على إذن بالبقاء فى وادى الابرو الادنى ، كذلك صمم المورسكيون على البقاء فى خمسة مدن صغيرة فى منطقة كامبودى لا ترابا ، وتم التجاوز عن اكثر العقوبات المرعبه وعاد كثير منهم واستقروا هناك ، وادعى بعضهم أن من حقهم التمتع بمزايا منحهم اياها الملوك السابقون . وفى سنة ١٦٢٥ قدم واحد من المسيحيين الجدد أصالة عن نفسه ونيابة عن مسيحيين حدد آخرين من المنطقة مذكرة اوضح فيها كيف تم طردهم وكيف سلبت ممتلكاتهم دون الاستماع اليهم ودون اعطائهم وقت للدفاع عن أنفسهم . وكان صاحب الجلالة قد أمر فى مدريد بتاريخ ٢٣ يونيو من العام السابق (١٦٢٤) بأن يبقى أبناء الضياع الخمسة المذكورة ، لانهم ابناء الشخصيات التى منحت العفو المذكور ، وكان من حقهم أن ينفذ ما هو متضمن الوثائق ، لكن ذلك لم يحدث ، وبدلا من تعرضوا لكثير فى المضايقات والمنغصات ، مع التشكيك فى عقيدتهم حتى لا يتمكن الشهود من حمايتهم والدفاع عنهم ، بحجة أنهم طردوا ودخلوا فى بلاغ الطرد ، وهم بهذا الاسلوب يسعون الى فضحهم وانتهت المذكرة طالبة أن يحتفظ لهم بمزاياهم وأن يسمح لهم بالعمل فى الوظائف الرسمية العامة دون أية تفرقة أو تمييز ، ويذكر ايضا أنهم خلال ثورة المورسكيين الغرناطيين وحرب البرتغال ، فانهم خدموا باعتبارهم جنودا كما كانوا جنودا فى الميليشيات ، والآن هم قادة فى محلاتهم وان خمسين منهم يعملون جنودا ، وفى نفس الوقت فانه يوجد بينهم رجال دين وأدباء وراهبات حافيات .

بعد دراسة السوابق ، رأت غرفة قشتالة أنه يمكن لصاحب الجلالة أن يأمر بالمحافظة على المزايا المذكورة للمسيحيين الجدد الذين يعيشون فى دائرتها واضعين فى الاعتبار قفر هذه الممالك من السكان ، وبناء على هذا صدر مرسوم ملكى وأصبح من حق المورسكيين الا يعود أحد الى مضايقتهم

فى «كامبودى لاترابا» (١) .

ليس من الممكن تجاهل الترابط بين هذا القرار وبين السياسة التى كان يقوم «الكونت دو كى» بتنفيذها خلال هذه السنوات التى كانت تسيير فى خط مزدوج يحرص على أصالة السكان كما يحرص على تلطيف الإجراءات ضد المسيحيين الجدد ، ورغم أن نظرتة كانت متهجة قبل كل شئ الى المجموعة الفعالة من اليهود الذين تحولوا للمسيحية ، الا أن البقايا الاسلامية المتواضعة استفادت من هذه الاريحية . وقد طبع بيان فى مدريد سنة ١٦٢٦ يقول «صدر عن المجلس الملكى فى الايام الماضية مرسوم يدعو الايتجاسر أحد ويعامل من بقى من المورسكيين معاملة سيئة ، والا يلحق بهم أى أذى مادواموا يعيشون فى الداخل على بعد ٢٠ فرسخا من البحر» (٢) .

الفصل الأخير من هذا التاريخ الطويل والمؤلّم معاً يحملنا من جديد الى مقاطعة «ريكوتى» فى «مرسية» فإن من طردوا من «كالترابا» قد عادوا مرة الى أرضهم الأصلية وظنوا أن الخطر قد انتهى وفقاً للأوامر والمرسومات المذكورة ، لكن فى سنة ١٦٣٤ وفى احدى الزيارات التى نظمتها احدى الجمعيات الدينية فان المفتش الزائر كتب تقريراً يحذر ويؤكد أن هذه القرى تغص بالمورسكيين ، وأن لهم اتصالات مع زميلاتهم الآخرين عن بقوا فى مملكة بلنسية وخاصة من كان منهم فى «الثيرا» . ومن حسن الحظ أن الوالى كان قد أعد تقريراً متزناً ، قرر فيه أن الفرق واضح بين المورسكيين الاصلاء فى مرسية ، وهؤلاء كانوا مسلمين حقيقة وقد عبروا جميعا الى بلاد الشمال الاقريقى ، ولم يرجع منهم أحد - كما هو معلوم - وبين المورسكيين فى «وادي ريكوتى» ، وقد خرج المدجنون من هذا الوادى وأبحروا فى اتجاه ايطاليا وفرنسا ، ولم يتوجه واحد منهم الى بلاد شمال افريقية أو الى بلاد البربر . ويقال إن هؤلاء كانوا يفخرون دائماً بمسيحيتهم

(1) A. Dominguez ortiz : felipe IV y los Moriscos, Miscelanea de estudios Arabes y Hberiacos, ano VIII N: 8.

(٢) صدرت هذه الوثيقة نتيجة للطلبات البرلمانية السابقة . أنظر :

A. Dominguez ortiz : Historia ... P. 260.

وقد آلمهم حقيقة أن يطردوا من اسبانيا . وهناك مجموعة أخرى جاءت الى الكونت «دى سالازار» وقد مواله التماسات ، وزعموا أنهم يرغم اقامتهم فى هذه الاماكن ، الا أنهم لم يكونوا قط مدجنين ، بل هم دائما مسيحيون قدماء ، وقد اعترف لهم بذلك ، ولم تشملهم البلاغات الرسمية للطرد وقد استخرجوا وثائق تثبت شرف نسبهم ، وبالفعل بقى الكثيرون منهم وصدرت الأوامر بأن يستردوا مالهم من ممتلكات .

لكن المؤكد أن هؤلاء كانوا مورسكيين دائما ، وأن المعلومات التى قدموها لم تكن حقيقية ، وما معهم من شهادات كانت مشتراه بالمال . وما أن نفذ الكونت دى سالازار أمر الطرد ، ومضت فترة وجيزة حتى عادوا الى قراهم . ورغم أنهم بدأوا ويمشون ويتركون فيها متخفين ، الا أن أخبارهم وصلت الى «السلطات الرسمية» فألقى القبض على كثيرين منهم ، وحكم عليهم بالسجن المؤبد ، ولما هرب البعض منهم ، قضى عليهم بالاعدام غيابيا ، وبهذا لم يبق أحد منهم ، ثم مرت سنتان أو ثلاثة فعاد الهاريون مرة أخرى ، وجاء رئيس مجلس غرناطة واتخذ الاجراءات القانونية ضدهم وحكم عليهم بالجلد والسجن ، لكنه لم يكذ يغادر المدينة حتى عاد الهاريون . ورغم أن سلطات العدالة قد طاردهم واعتقلتهم وعاقبتهم ، إلا أنه لم تكن هناك وسيلة لإقصائهم عن هذه الارض لقد كابدوا أعمالا جسيمة حتى انه فى عام ١٦٢٦ وضعت المملكة شرطا هو الايتصرف أحد تصرفا سيئا ضد المورسكيين الذين رجعوا الى البلاد ، فصاحب الجلالة قد منحهم عفوا ومنذ هذه اللحظة وهم هادئون ويعيشون فى هذه الاماكن بسلام ، ودائما تمضى حياتهم مع كثير من الطاعة والاذعان ، دون أن يقوموا بارتكاب أخطاء شنيعة أو اعطاء أمثلة سيئة ، وبدا أنهم مسيحيون جيدون ومن أكثر الناس احتراماً لمرسومات صاحب الجلالة ... إنهم أناس متواضعون واجلون للغاية . وحول ما يتعلق بالشك فى ان لهم صلوات مع مورسكيين آخرين فى هذه المملكة ، خاصة مع المورسكيين فى وادى «الثيرا» فان لذلك ظل من الحقيقة ، فان بقوا فى هذه المملكة ورجعوا ، قليل عددهم . ويمكن أن يكون الشك منشؤه أن كثيرا من الناس ممن كانوا فى مملكة بلنسية ، قد أتوا ليعيشوا

فى هذه الأماكن ، وبهذا استمر الاتصال ، الذى كان موجوداً بين هذا المكان وذاك ، وربما بسبب الرغبة فى حقوق التجارة التى تنتقل من مكان لآخر ، وهذا شئ عادى ، ثم الاتصال مع تحفظ ، وبوسائل تبعث على الريبة (١) .
ونظراً لما جاء فى هذا التقرير ، فان مجلس الدولة رأى أنه ليس هناك ما يدعو الى الشعور بالخطر وأنه يكفى أن يكتب لاسقف « كارتاخينا » بأن يقوم القساوسة بمراقبة المورسكيين ، والتأكد من انهم يعيشون كمسيحيين ، وقد وافق الملك على ذلك ، ولم يعد هناك صدى فى التاريخ لمورسكي « وادى ريكوتى » .

وفى غرناطة ، لا بد أنه قد بقى بها مورسكيون كثيرون أيضا ، تنكروا وأدعوا أنهم مسيحيون قداماء ، لأن التعايش المكشوف مع هؤلاء ، جعل المورسكيين يكتسبون عاداتهم وطرائقهم فى الكلام وأصبح من الصعب للغاية تمييزهم ، وقد واصل بعض افراد سلالات الأسر الاسلامية العالية تمتعهم بما كان لهم من مزايا وتولوا بعض المسئوليات العامة ، ولندكر ما يبدو أن له فائدة من بين الأخبار الأخيرة بالمورسكيين فى غرناطة .

هناك فتوى لمجلس الدولة مؤرخة ٩ فبراير سنة ١٦٢٤ تخبرنا أنه وجدت اسرتان فى هذه المدينة ، أسرة « لوس كورباس » وأسرة « لوس مدريدس » وأن وضعهما الاقتصادى كان جيدا ، وانها كانا يسيطران على صناعة الحرير ، ولكون الاسرتان مورسكيتين ، وربما بسبب التنافس أو الحسد فان البعض وشى بهما لدى الحكام وأدعى أن لهما علاقات مع المسلمين فى بلاد الشمال الافريقى ، وانهما يدبران مؤامرة بالتواطؤ معهم . وقد فتشت منازلهم ولم يعثر بها على شئ باستثناء خريطة لمملكة غرناطة ، وقد وصلت هذه المعلومات الى السلطات فى مدريد ، فقررت أنها دعوى بلا أساس وأن البراهين لا تستندها وأمر مجلس السكان بأن يسمح للأسرتين بالاستمرار فى ممارسة نشاطهما

وبين الوثائق المتعلقة بالثورة الشعبية الفاشلة فى يونيو سنة ١٦٥٠ لا نعدم اتهامات توجه للمورسكيين باعتبارهم متآمرين أو محرضين ، ويقال

(1) Archivo general de simancas, estado espanol. 2653
A. dominguez ortiz : abera citada, P. 261.

أنهم كانوا يعدون ثمانية آلاف شخص داخل وخارج المدينة بهدف أن يسيطروا عليها من خلالهم وأن ينهبوا منازل الاغنياء . وما ان اكتشفت المؤامرة حتى أعلن عن صدور أربعة احكام شنقا وحكم بالاعدام بالسيف ، بتهمة التعامل مع أحد النبلاء ، هذا بالاضافة الى كثيرين آخرين أدينوا بعقوبات مختلفة ، وهناك رواية معاصرة للمؤامرة تقول «إن المحركين لهؤلاء الثائرين كانوا من المورسكيين ، وكان معظمهم من سكان البيازين ويقال إن صباغا مورسكيا من أغنياء حى البيازين ، كان من بين المحرضين وقد بقى هذا الحى بدون سكان تقريبا ، لأن اهله كانوا إما داخل السجون ، واما أنهم تركوا الحى وهربوا ، ولم يبق الا الدخلاء والغرياء (١) .

وفى هذا النوع من الحكايات يبضعب دائما فصل الحقيقة عن الخيال ولا يستبعد أن يكون هناك مورسكيون قد تدخلوا فى هذه الثورة ، فهذا أمر محتمل جدا ، لكنهم لم يشتركوا باعتبارهم مورسكيين بل باعتبارهم اعضاء فى جماعة اجتماعية غير راضية عن الظروف السيئة التى كانت تمر بها اسبانيا والتى اغضبت كل القطاعات حتى هؤلاء الذين كانوا يستمتعون بمزايا ، لكن السؤال الذى ينبغى أن نطرحه هو : ما نوع المورسكيين هؤلاء الذين يجرى عنهم حديث فى عام ١٦٥٠ بل وحتى بعد ذلك التاريخ ؟ ولنذكر بعضها :

وجد بعض الباحثين ذكرا لمسيحيين جدد - مرات عديدة - فى سجل كنيسة قرية «اوليفا» حتى سنة ١٦٦٠ وكانت تلك القرية واحدة من القرى البلنسية التى بها جذور مورسكية قوية . وهنا يبدو أن الاشارة تعنى الاطفال الذين أعفوا من الطرد بسبب صغر سنهم وسلموا لمسيحيين قداماء . ويعتقد قسيس القرية أنه كان يجب عليهم أن يذكروا شيئا عن أصلهم عندما يتزوجون وكان يجب عليهم أيضا أن يعرفوا بالنسل الذى أنجبوه ، وفى الجيل الثانى أو الثالث انعدم ذكر شئ فى السجل ، وربما كان الشئ

(1) Id. id folios 169 - 171.

(١) وانظر ايضا

A.Dominguez ortiz :Alteraciones andaluzas, Madrid 1973, P. 68

(2) Historia ... P. 262.

نفسه معمولاً به فى كنانس اخرى ثم تركت ايضا ذلك التسجيل (١) ويذكر أحد المؤرخين لبليسية زواج مسلمين مطرودين فى كنيسة «سان ميان بيلنسية» سنة ١٦٢٣ (٢) ولاندرى هل نحن حقيقة أمام مطرودين عادوا أم وراء أطفال ممن بقوا كما هو الحال فى قرية «أوليفا» ؟ .

وفى الاحتفالات بحرق الملحدين فى القرن السابع عشر وحتى بداية القرن الثامن عشر ، ظهر بعض المسلمين فى مناسبات متفرقة ، لكن لم يحدث قط أن تعاملنا مع أسلاف المورسكيين ، وإنما كانوا عبيداً أو أحراراً ممن تم تعميدهم ثم عادوا لعقيدتهم الاسلامية . والحقيقة أن مفتشى التحقيق لم يمنحوا اهتماماً لهذه البقايا الاسلامية البسيطة بعد أن تم طرد المسلمين المنصرين وكان جل اهتمامهم مركزاً على اليهود ، ذلك أن مطاردة أو تعذيب المسلمين لن يعود عليهم الا بالقليل سواء ميدان العقيدة أو على نطاق المكاسب المادية ، فلا يتوقع منهم هذه المصادر المثمرة التى استفاد منها هؤلاء المفتشون فى الماضى . وان مما يؤكد عدم الاهتمام بالمسلمين والامان النسبى الذى كان يعيش فيه هؤلاء تلك الرواية العجيبة حول رحلة أحد السفراء المغاربة الذين أتوا الى اسبانيا ١٦٩٠ - ١٦٩١ من أجل السعى لتخليص أسيرة «بعد استسلام هذه القلعة للأسرى المسلمين (٣) وعلى امتداد جولة البعثة فى اسبانيا ، وجد المغاربة - أو اعتقدوا أنهم وجدوا - دلائل تشير الى صلابة وبقاء الشعب المورسكى حيث أكد بعض السكان - اعتماداً على براهين يقينية - أن معظم السكان ينحدرون من أصل اسلامى ، وانهم قد تربوا فى ظلمات الكفر رغم مضي وقت طويل على انتهاء الحكم الاسلامى ، نفس الشئ بالنسبة لسكان مناطق أخرى واطاف أن ابنة المأمور القضائى وابنة الحاكم تنتميان لأسرة آخر ملوك غرناطة ، وفقاً لما صرحت به احدى الشخصيات المهمة وهى شخصية تعتد بنفسها فى مدريد

(1) estudio de la demografia de oliva "estudis", 1.183, 184 .

(2)Coscs evengudes en la ciutat y regne de Valencia , 11.127 Valencia 1934 .

A. Dominguez ortiz : Historia ...P. 262. : انظر

(3)H.Sauvair : voyage en espagne d un ambassadeur marocain (1690 - 1691) traduit de l'arabe par, paris, 1884.

ذكر ذلك

A. Dominguez : Historia ... P. 263.

وهو رجل أشم معتد بنفسه ، وتفخر تلك الشخصية بانحذارها من نفس الأصل الاسلامى وتعجب بسماع الحديث عن الاسلام والمسلمين . وهناك بين سكان «مادشينا» من يرتفع بنسبه الى الاصول الاسلامية القديمة ، ومن بين سكان «اندوخر» من يؤكد أن عددا كبيرا منهم ينحدر من أسرة بنى السراج الذين اضطهدهم مولاى «حسن» فهربوا الى أرض المسيحيين واعتنقوا العقيدة الكاثوليكية ، والى هؤلاء ينتمى قسم كبير من نبلاء المدينة المذكورة . لكن بينما يذكر بعضهم هذا الاصل بكل فخر ، نرى أن آخرين يستنكرونه ويزعمون أنهم ينحدرون من أصول كانت موجودة فى جبال «نيره» . أما سلالات المسلمين الذين يشغلون وظائف عامة فانهم لا ينكرون سلسلة نسبهم . وعندما تخرج من الاندلس ، فان أمثال هذه الاشارات تنقطع ، كما فى «لامنشا» حيث لا نجد بقايا الأخوة فى العقيدة القديمة ، ولا بد أن تقبل حقيقة أن من اختاروا طريق «تورى دى خوان اباد» ربما مروا «بالكامبودى لا ترابا» وزودوتا» ببعض الأخبار الطيبة . ومع ذلك فان «مدريد» شهدت وجود مؤلف كتب مذكراته اليومية عن الرحلة وزودنا بمعلومات مهمة ، تعكس مدى الانتقادات التى حدثت عند طرد المسلمين المنصرين (ص ١١٦) . وتقويم هذه الرواية صعب ، لأن فيها تختلط بعض الاخبار التى تبدو مؤكدة بأخرى تبدو مبالغاً فيها أو حتى مخطئة تماما ، ومع ذلك فان هناك أشياء تبدو يقينية ، منها أنه فى نهاية القرن السابع عشر كانت هناك أسر أندلسية كثيرة تذكر أصلها الاندلسى دون امتعاض ، رغم أنهم كانوا يمارسون طقوس العقيدة المسيحية بانتظام .

وليس غريبا أن تكون نصوص المورسكيين الغرناطيين الأخيرة مرتبطة بمدينة غرناطة ، حيث واصلت ذرياتهم ارتباطها بصناعة الحرير التقليدية يذكر مؤلف من القرن الثامن عشر أنه اشترى منزلا كبيرا كانت محكمة التفتيش قد صادرتة سنة ١٧٢٧ من ملاكه تجار الحرير الأغنياء وكانوا من بقايا المسيحيين الجدد الذين عادوا الى ارتكاب جريمة اعتناق مذهبهم الباطل» (يقصد الاسلام) ومن الأشياء المميزة لهؤلاء المورسكيين الغرناطيين أنهم كانوا يعلقون فى واجهة سلالم منازلهم صورة تمثل النقاء الذى لا دنس

فيه (١) كما تعودت سلالات اليهود ، أن يعلقوا بعض الصور المقدسة فى اماكن بحيث يمكن مشاهدتها بسهولة .

إن مما يؤسف له أنه ليست لدينا الوثائق الكاملة للاحتفال بحرق غير الكاثوليكين علنا ، ذلك الذى لا بد أن يكون قد جرى بغرناطة فى العام نفسه ، والذى كان من نتيجته أن بلدية غرناطة توجهت فى سنة ١٧٢٩ الى الملك ، وطلبت منه طرد المورسكيين الذين أصدرت محاكم التفتيش أحكاما ضدهم حتى تبقى هذه المملكة نقية من هذه الوصمة . (٢) ونفس الشئ حدث بالنسبة لمن تحول الى المسيحية من اليهود ، ولم يقتصر الأمر على المدانين من المورسكيين وأما تعدى ذلك الى البرآء ، وعلق ذلك فى ذاكرة الناس ، خاصة فى الاماكن ذات الحساسية فيما يتعلق بهذه القضية كما هو الحال فى غرناطة . وهناك اعمال درامية استوحيت من هذا تمثل بعضها فى آثار مكتوبة تدل على جلد ومثابرة ، وهناك نحات غرناطى مشهور عاش بين ١٧٠٨ - ١٧٧٣ م ، كان بطل واحدة من هذه الاعمال : لقد كانت له علاقات منذ فترة الشباب مع فتاة رقيقة الحال ، كانت محكمة التفتيش. قد أدانت أحد أسلافها فى القرن السادس عشر ، ويرغم مرور الزمن ، فان ذكرى أسلافها الشائنة استمرت حية ، حتى إن أسرة النحات عارضت فى اصرار أن يرتبط بها ، فقط فى سنة ١٧٤٧ بعد أن اصبح عنده ٦ أولاد منها ، حلت القضية ، فسمح له أن يتزوج بها سرا ومع ذلك فقد واصلا حياتهما ، كل

(1) Juan F. perez de herrasti : historia de la Herrasti P.284, Granada 1750

وقد شهدت هذه السنوات نشاطا مركزا المحاكم التفتيش ، تضرر منه اليهود بالدرجة الاولى ، ولكن هناك أيضا ضحايا من المسلمين ، يذكر «ليا» - نقلا عن E.N. Adler انه فى احتفال النطق بالاحكام فى غرناطة بتاريخ سنة ١٧٢٨ ، حدث تصالح مع ٤٥ من التهمين ، بالاضافة الى ٢٨ فى جلسة ١٠ اكتوبر التالى ، وهؤلاء ينبغى أن يكونوا أثرياء . لأن مصادرة ممتلكاتهم كان أمرا مفيدا لمحاكم التفتيش ، ولذلك أعطى للوشاة منحة قدرها ١٠٠ دوكادوس : أنظر:

- lea : the moriscos ..., III, P. 406.

- A. Dominguez .. : Historia... P. 263, 264 No ta 38

(٢) ذلك وفقا لوثيقة رسم ٦ فى 'Archivo municipal ، اطلع عليها السيد Garzon pareja
A.Dominguez : obra citada, P. 264. أنظر :

منهما مستقل عن الآخر الى أن أدركه مرض الموت (١) .
 عند هذا الزمن كان قد نسى فى باقى اسبانيا أنه كان هناك
 مورسكيون يوما ما فى العالم ، اللهم الا فى بقعة هناك أو قرية اسبانية
 حيث كانت تعيش ذرياتهم . تحديد أعداد هذه البقايا دائما يصبح أمراً
 مستحيلا . كتب «براوديل» موجزا رأية حول هذه النقطة ، يقول :
 لقد طرد كل المورسكيين تقريبا من المدن ، وطرد بنسبة أقل الذين
 كانوا يقطنون الاماكن الاميرية ، أما المورسكيون فى أراضي الاقطاع وفى
 المناطق الجبلية والفلاحون المتناثرون فقد طردوا لكن مع استثناءات أكثر (٢)
 . ويرى بعض الباحثين أن المورسكيين فى المدن الكبرى ، كانت لديهم فرصة
 أكبر لتجنب الطرد ، فقد كان فى امكانهم الاختلاط بالطبقات الدنيا خاصة
 فى المدن الاندلسية حيث كان يجب على طوائف الصعاليك والفجر أن
 يستقبلوا عدداً غير قليل منهم . أما المورسكيون فى المناطق الريفية فلا
 أحد ينكر أن السادة الاقطاعيين منهم . أما المورسكيون فى المناطق الريفية
 فلا أحد ينكر أن السادة الاقطاعيين قد حاولوا الاحتفاظ بقسم منهم
 باعتبارهم من رعاياهم وقد نجحوا فى بعض الحالات ، ويبدو أنه ينبغى أن
 نفرق بصورة رئيسية بين مورسكيين لم يتم اندماجهم أو صهرهم وبين هؤلاء
 الذين كانوا فى طريقهم الى الانصهار فى المجتمع المسيحى ، وهؤلاء
 الاخرون هم الذين حاولوا البقاء أو العودة ، وقد توج تصميمهم بالنجاح فى
 عدد من الحالات غير قليل (٣) .

أما فى مدن الجنوب الكبرى : اشبيلية وقادس ومالقه وقرطاجنة ، فقد
 امتزجت مشكلة المورسكيين بمشكلة العبيد ، ولم يكن من السهل التمييز

(1)A. gallego Burin. Torcuato Ruiz del peral "Boletin de la universidad de granada, Julio de 1936.

(2)Braudl : la mediterrance ... 2 - ed XII, P. 130.

وانظر ص ١٩٣ من الجزء الثانى من الترجمة الاسبانية

(3)Antonio Dominguez otiz : Historia ... P. 264.

بينهم فى كثير من الحالات ، وهذا هو سرّ الأخطاء المتكررة التى وقع فيها بعض الباحثين مثل تلك التى ارتكبها «فيرناندث وجونثالث حيث تبين كيف أن من بقوا على قيد الحياة من المورسكيين فى اشبيلية ، هم عبارة عن مجموعات بقايا المسلمين الذين كثرت شكاوى الناس منهم الى بلدية تلك المدينة ، فلنخصص لذلك الأسطر التالية :

لقد كانت العبودية ظاهرة عادية فى اسبانيا آنثذ ، وإذا حاولنا تحديدها فى نطاقها الجغرافى ، فاننا نقول انها كانت فى الجنوب ، وفى «لاكورت» . وفى بعض المناطق المنعزلة مثل بلنسية وصل الأمر أنها كانت ذات كثافة كبرى . لقد توزع العبيد بالتساوى تقريبا بين منطقتين ، وكان عبيد كل منطقة ، مختلفين تماما عن عبيد المنطقة الأخرى ، ليس فقط من الناحية الجسمية بل وفى الثقافة والسلوك : الافريقيون السود ، وهؤلاء متقادون ويقبلون الإنصهار فى المجتمع المسيحى ، وليس بينهم من رفض التعميد ، والمسلمون من أصل أبيض ، ومعظمهم من بلاد البربر ، ومن جنسيات مختلفة تابعة للإمبراطورية العثمانية ، وهناك مسلمون اسبان ضرب عليهم الرق نتيجة للحروب والثورات المتفرقة . وفى سنة ١٦٠٩ كان لا يزال يوجد عدد ليس بالقليل من المسلمين الغرناطين الذين أسروا قبل ذلك بأربعين سنة أثناء حوادث الثورة الغرناطية ، يضاف الى هؤلاء عدد قليل ممن استسلموا بإرادتهم ورضوا بضرب الرق عليهم لتفادى الطرد ، وهناك من حصل على حريته بالعتق أو الفداء ، وهناك كثير من العبيد عاشوا حالة قريبة من الحرية ، فكان ملاكهم يتنصلون من رعايتهم والإنفاق عليهم ، فيطلبون منهم دفع مبلغ من المال بصفة دورية ، ويسمح لهم بالعمل باعتبارهم احرارا ، ويؤدون المبلغ المطلوب ثم يحتفظون ببقية دخولهم فهم عبيد مكاتبون ويمكن أن يحصلوا على الحرية اذا دفعوا الثمن الذى يحدده السيه فى مقابل عتقهم . وهؤلاء هم الذين كان يطلق عليه اسم «المسلمون المختونون - أو الخصيان» ، وكانت تكثر بينهم العادات السيئة كما كانوا يدفعون القسم الأكبر من الضرائب فى الأندلس .

لقد كانوا . لا بائسين قلقين يخضعون لمراقبة دائمة وهم موضع شك

ياستمرار ، الشيء الذى جعلهم يحتجون لدى البرلمان اكثر من مرة . ففى سنة ١٦٢٦ قال نائب غرناطة أنها لكبيرة تلك العوائق التى أمام هذا العدد من المسلمين والمسلمات فى الأندلس ، إن بينهم من تعمد ، وكلهم خصيان ، ويدفعون للمالكهم بصورة دورية ، وكلهم يعملون فى مهن متواضعة بالملكة ، فهم يبيعون القمح والخمر والمحفات ، ويحضرون العتلات (ادوات العمل) وهم حَمَّالون يبيعون كثيرا من الاشياء التافهة ، انهم يعملون قليلا ويكسبون كثيرا وهذا الريح الكثير يمكن الواحد منهم أن يصبح حرا بعد سنتين اذا ما دفع ٢٠٠ دوكدوس ، ليس بينهم من يسهم فى اعمال الحقل ، ولا يؤمنون بالرعى ، وهذا هو الشيء الذى نعانى من نقص كبير فى رجاله ، كما أنهم على شيء من العبودية حتى لا يطردوا من البلاد كما يأمر القانون ، وقد أشار النائب المذكور الى أن المشكلة خطيرة بصفة خاصة فى منطقة «لوشة» ، وقد وافق البرلمان على بذل المساعى حتى لا يبقى مسلمون خصيان فى المدينة المذكورة (١) .

وعندما حددت الملكة سنة ١٦٢٨ الشروط المطلوبة من أجل تأجيل الضريبة على افراد الشعب ، تضمن ذلك أن الاندلس ليس به مسلمون مخصيون ، لا مع تعميم ولا بدون تعميم (٢) لكن لم يتخذ قرار فى هذا الصدد ، واستمر وجودهم بأعداد كبيرة حتى كان الاحتفال الذى انعقد فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٧١٢ والذى أمر فيه بطردهم فى الحال الى بلاد الشمال الافريقى .

وفى سنة ١٦٢٥ صدر تقرير عن المسلمين الاحرار والعبيد فى اشبيلية (٣) ويشير هذه التقرير الى وجود عدد ضخم من المسلمين والمسلمات الذين كانوا قد اختفوا بعيداً داخل البلاد ، لأنهم كانوا ممنوعين من الإقامة

(1) Actass de las Corts, XIV, 222

(2) ID. id. tom XL VII

Juan Baruzze

Problemes

(٣) المخطوط رقم ١٨٧٥٣ بالمكتبة الوطنية بمدريد

من قبل ذلك لخصه

Fernndez Gonzales : dhiatoire des religions P. 126 not
Moriscos que quedaron en espana despues de la expulsion. "Revista de espana" 1871.

فى بلاد السواحل البحرية ، لقد تجمعوا وعاشوا جماعات عديدة فى مساكن متجاورة متواضعة ، وتخصصوا فى التجارة واعادة بيع المواد الألية ، واتهموا بسرقة الاطفال بهدف تضليلهم وتعليمهم دين محمد صلى الله عليه وسلم . إنه من المؤكد أنه بين هذه الطبقة شبه الكادحة . وجد مع العبيد الخصيان من المسلمين ، مورسكيون أحرار أمكنهم أن يخالفوا أمر الطرد وأن يتخفوا بين الجماهير فى الحواضر الكبرى . ويذكر «ليا» صورة نهائية للإسلام فى اسبانيا ، تتمثل فى اكتشاف مسجد مطمور فى «قرطاجنة» وفقاً لبيان صدر عن محكمة التفتيش سنة ١٧٦٩ ، ومن المؤكد تقريباً أن المورسكيين كانوا يترددون عليه ، بل كان يتردد عليه العبيد الذين كانوا يكثرون فى هذه القلعة (١) .

وهكذا استمر الوجود الاسلامى فى اسبانيا ، برغم قرار الطرد العام وما صاحبه من قسوة وصرامة وإهانات وتعذيب عند التنفيذ ، فقد تمكن البعض من الاختفاء هنا أو هناك ، وآلمهم أن يقضى عليهم بمفارقة وطن شهد مولدهم وعاشوا طويلاً فى أرضه مستقرين . آلمهم أن يتحولوا الى مصير غامض ومستقبل مجهول ، وبعضهم عاد بعد فترة عانى خلالها من المعاملة السيئة والاستقبال البارد والسلوك القاتل الذى لقيه من إخوانه فى أرض المهجر ، فوق ما تعرض له من سلب ونهب وإهانة ، كل هذا جعله يؤثر المغامرة ويرجع من حيث أتى ، متخفياً حيناً ، مثعللاً بعلى ترضى القوم حيناً ، من اجل أن يضمن لنفسه ولأسرته الاستمرار والبقاء

ونحن مضطرون فى هذا الى الاعتماد على الرواية النصرانية وحدها اذا اتنا لا نجد صدق لهذه الاحداث عند الرواية الاسلامية ، مثلها مثل كثير من الفصول الأخرى لآخر قصص الاسلام فى الأندلس ، وهذا لا يمنع من أن الاسلام ظل جذوة مشتعلة فى نفوس الكثيرين ، وظلوا يؤمنون به سرا ويدافعون عنه ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً فترات طويلة بعد طرد المسلمين من الأندلس ، تبرهن على ذلك الاحداث والروايات وقضايا محاكم التفتيش السابق الاشارة اليها فى مواطنها من هذا الفصل وغيره ، وآخرها هذا

(١) أنظر : the moriscos P. 393

المسجد الذى شهد تردد المسلمين عليه للعبادة وأداء الشعائر حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وهذا ما يجعلنا نردد مرة أخرى ما ذكره الاستاذ محمد عبدالله عنان من أنه «من الصعب اعتقاد أن اسبانيا برغم ما ارتكبتة من وسائل مفرقة فى الإجرام ، قد قضت نهائيا على آثار الامة الاسلامية ، فانه من المستحيل أن تجتث آثار السلالات البشرية خصوصاً متى لبثت آمادا متداخلة» (١) .

بعد هذا كله ، هل كان لهذه المشكلة وجود فى انتاج الإدباء ، خلال الفترة نفسها أو بعدها ؟ وهل عرف بين المورسكيين أنفسهم من صار أديبا مشهورا انعكست أوضاع بنى قومه فى أعماله ؟ الفصل التالى محاولة فى هذا الاتجاه .

(١) أنظر : الآثار الاندليسة الباقية ٤٣٦ - ٤٤٤ كذلك نهاية الاندلس ٤٠٩ ، ٤١٠ .

الفصل العاشر

المورسكيون والإنتاج الأدبي

مرّ ما تعرض له المسلمون المنصرون من ضغوط لا تحتمل ، لجأت فيها السلطات الاسبانية الى كل الوسائل ما يخطر على البال وما لا يخطر ، بهدف حمل هؤلاء على التخلي عن دينهم ونسيان شعائرهم وعاداتهم ، ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً بالنسبة للاغلبية الساحقة لهذا الشعب المضطهد ، فقد استمروا يزاولون الشعائر والعادات الاسلامية فى تكتم ، ويدونون احكام الاسلام والأدعية والمدائح النبوية فى لغة عرفت عنهم واختصت بهم هى تلك التى اصطلح على تسميتها بلغة «الالحميادو» Aljamiado وهو تحريف اسبانى للكلمة العربية «الاعجمية» ، وتعنى كلمات أو جمل قشتالية مكتوبة بأحرف عربية بحيث يصعب فهمها على المفتشين والمستولين عن مطاردة هؤلاء المسلمين . وهذا يعنى أن العقيدة الاسلامية قد استقرت فى قلوبهم وان حملوا على التنصير فى الظاهر ، وقد وصف أحد المطارنة وضعهم هذا سنة ١٥٦٥ فقال :

أنهم خضعوا للتنصير ، ولكنة لبثوا كفرية فى سرائرهم ، وهم يذهبون الى القداس تفاديا للعقاب ، ويعملون خفية فى أيام الاعياد ، ويحتفلون بيوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد ، ويفتسلون حتى فى ديسمبر ، ويقومون الصلاة سرا ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعا للقانون ، ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان أولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية ، وتذهب عرائسهم الى الكنيسة فى ثياب أوروبية ، فاذا عدن الى المنزل استبدلن بها ثيابا عربية ، واحتفل بالزواج طبقاً للرسم العربية ووفقا للشعائر الاسلامية» (١) .

وهناك وثيقة عربية هامة تؤكد قيام المسلمين المنصرين بأداء الشعائر

- lea : the moriscos ... PP. 213, 214

(١) أنظر

Marmol - Historia ... libro II, capitulo I, PP. 128 - 129

وقد ذكر القس بدير لويجاس فى كتابه عن حياة المورسكين كثيرا من العادات والرسم والآيات والمدائح النبوية مكتوبه بالالفب القشتالية ، راجع :

عنان : نهاية الاصلح . ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

الاسلامية خفية وتوضح كيف أنهم كانوا يبحثون عن الاعذار التي تبرر اضطرابهم لأداء الطقوس النصرانية علناً ، علّ هذا يشفع لهم عند ربهم ، هذه الرسالة عبارة عن وثيقة وجهها أحد فقهاء المغرب الى جماعة المسلمين المنصرين الذين يسميهم «الغرياء» ، يوجه اليهم فيها بعض النصائح التي تعاونهم على تنفيذ أحكام الاسلام فى السر والخفاء ، وهذه الوثيقة مؤرخة غرة رجب سنة ٩١ هـ (٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤) (١) .

وقسك هؤلاء المسلمين المنصرين بالاسلام وتعلقهم به وبتراثه وشعائره ، وإصرارهم على ممارستها سرّاً وتعليمها لأبنائهم ، تؤكده كذلك رواية معاصرة ، كتبها مورسكى عاش فى «جيان» أو آخر عهد المورسكيين ثم هاجر الى تونس قبيل النفى العام ، حيث الف هناك كتابا بالعربية عنوانه «الأنوار النبوية فى آباء خير البرية» خصص فى نهايته فصلاً يتحدث فيه عن المورسكيين وعن تمسكهم بالاسلام ، وأوضح قضية نفيهم من اسبانيا وما احاط بذلك النفى من ملاسبات وأسباب (٢) .

ولم تكن السلطات الاسبانية تبغى فقط اجتثاث قيم الاسلام من نفوسهم ، بل كانت تريد القضاء على خصائصهم المميزة ، ونسف كل ما يربطهم بتراثهم الفكرى والأدبى ، والقضاء على لغتهم العربية ، ولهذا فليس عيباً أن القوانين التى بدأت تظهر اعتباراً من سنة ١٥٢٦ ، أخذت تتوالى وتحرم عليهم المحافظة على العوائد الاسلامية ، وتمنعهم من الحديث او التخاطب ، فضلا عن الكتابة باللغة العربية ، ليس فى غرناطة وحدها بل فى أماكن تجمع هؤلاء المسلمين فى اراجون وغيرها وفقاً لما جاء فى بعض

(١) نشر الاستاذ عنان الوثيقة نفسها وقدم معلومات عنها ، أنظر : نهاية الأندلس ... ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ .

(٢) نقل الاستاذ عنان هذا الفصل كاملاً فى كتابه المذكور ص ٣٠٤ ، ٧٠٤ ، ومؤلف الكتاب هو محمد بن عبد الرقيق بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى الأندلسى ، المتوفى سنة ١٠٥٢ (١٦٥٢) أى بعد النفى باثنتين وأربعين سنة ، ونسخته موجودة فى الخزائن العامة بالرباط ، المكتبة الكتانية رقم ١٢٣٨ ، ومذكور فى نهاية الكتاب أنه تم تحريره فى تونس سادس شعبان ١٠٤٤ (١٦٤٤) . ويشغل فصل المورسكيين فيه من ص ٣١٩ : ٣٣٦ ، وقد نقل الشاعر المغربى محمد بوجندار هذا الفصل بتصريف فى كتابه «مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح» الرباط ، ١٣٤٥ هـ ص ٢٠٠ - ٢١٤ ، انظر الاستاذ عنان : «المرجع السابق» ، هامش ص ٤٠٣ ، ٥٠١ .

الوثائق (١) ، وبرغم هذا فقد استمر بعض المرسكيين فى كتابة النثر ونظم الشعر باللغة العربية ، فكتبوا مثلاً قصيدة لا تخلو من روح شعرية الى السلطان بايزيد الثانى يلتمسون منه النجدة والغوث (٢) ، كما أخذوا يوجهون رسائلهم بالعربية الى المسلمين فى بلاد الشمال الافريقى ، وعندما أصدر فيليب الثانى سنننة ١٥٦٦ مرسومه الذى يحرم فيه كل الوان التعامل بتلك اللغة ، وتعسف واشتد فى تنفيذ ذلك المرسوم وجدنا العربية تشهد زفرتها الأخيرة ، ورأينا بعض المرسكيين يستخدمها فى القوائد الثورية السرية ، وربما كان خطاب مولاي عبدالله ، آخر زعماء الثورة الغرناطية ، يمثل المرحلة الأخيرة فى الخط البيانى المنحدر للغة العربية فى بلاد الاندلس ، فما لبثت أن اختفت كل مظاهرها وآثارها ، وفرضت القشتالية فرضاً لفة للتخاطب وكل ألوان التعامل ، فلجأ المسلمون المنصرون الى نفس أبجدية اللغة القشتالية واتخذوها متنفساً للتعبير عن فكرهم وأديهم وكتبوا القشتالية سرا بأحرف عربية ، وكان من نتيجة ذلك بمر الزمان ، خلق لغة جديدة تختلط فيها الالفاظ العربية مع الكلمات الاعجمية مع كلمات اعجمية من لهجات بعضها قديم وبعضها معاصر ، خاصة اللغة الرومانية التى كانت لغة المستعربين ايام الحكم الاسلامى والتى كانت ذاتة فى الحواضر الاسلامية ويتكلم بها كثير من المنصارى المستعربين ، كما كان يتكلم بها الصقالبة فى البلاط وبعض علماء المسلمين ، وكثيرا ما استخدموها فى كتاباتهم العلمية واسموها اللغة «الليطينية» يعنى اللغة اللاتينية ، وتحتوى ابيات الزجل الاندلسى كثيرا من كلمات هذه اللغة خاصة عند ابن قزمان ، وكانت لغة الحديث فى غرناطة خليطاً من كلمات اللغة العربية الشعبية التى تسرب اليها كثير من الالفاظ الرومانية والقشتالية (٣) وكثير من كلمات لغة المرسكيين السرية استمدت من تلك القصة الغرناطية

(١) انظر : عنان : المرجع السابق ص ٤٩٤ وهامش «١» بنفس الصفحة .

(٢) انظر ص من هذا البحث .

(٣) انظر : Ramon menendez pidal : origines del espanol PP. 418, 429 - 431 .

عنان : نهاية الاندلس ص ٤٩٥ .

وقد استمر لغة «الانجيمادة» سرا غامضاً حتى عثر العلماء من الاسبان أوائل القرن الثامن عشر على مجموعة من المخطوطات المكتوبة بها ، وبدأت حولها الدراسات ، وظن أول الامر أنها كتابات بلغة شرقية قد تكون الفارسية أو التركية أو البربرية ، لكن بدأ التعرف على حقيقتها . وفى نهاية القرن التاسع عشر عرف أنها كتابات المورسكيين المضطهدين الذين استخدموا اللغة الرومانية . وقد عرفها «مننديث أى بلايو» بانها اللغة الرومانية القشتالية مكتوبة بأحرف عربية ، ويعلل المستشرق «سافدرا» قيامها بقوله إن الطابع الدينى الذى كان يفصل بين المورسكيين وياقى الاسبان يطغى على أنتاجهم الادنى وكانما هو قرين طبيعى للمنتجات العربية ، فهم لكى يحتفظوا بجذوة حية من العقيدة المحمدية ، كتب العلماء والفقهاء كتباً عما يجب أت يعتقده وأن يحفظه كل مسلم حسن الايمان ، كتبوا عن صفات الله وعن بعض المسائل الفقهية وفقاً لمذهب مالك وكتبوا عن التاريخ المقدس ، والقصص الدينى ، وتعبير الرؤيا وغير ذلك . «(١) .

أما القرآن الكريم فقد كتبه سرا باللغة العربية مع تفاسير وشروح انجيمادية ، وكتبوا باللغة الجديدة هذه سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وقصص الانبياء وبعض كتب الفقه والحديث النبوى ، وكانت البسملة والآيات القرآنية تكتب دائما باللغة العربية ، وكانوا يقومون بتشكيل ما كتبه تشكيلا كاملا فى معظم الأحيان ، ليتمكن قراءة المكتوبات قراءة صحيحة ومن بين المورسكيين شعراء وكتاب عبروا عن أفكارهم الادبية نثرا ونظما بنفس لغة «الانجيمادو» ، ومن أشهر شعرائهم محمد ريدان (أو الراعى) وكان يعيش فى أواخر القرن السابع عشر وأصله من «روطه خالوت» من «أراجون» ، وانتاجه الادبى يتراوح بين قصائد دينية وأخرى قصصية ، ومن أنتاجة فى القصص الدينى كتاب «هول يوم الحساب» وقصة النبى منذ بدء

(١) من كلمة القيت فى اكااديمية التاريخ الاسبانية بمريد سنة ١٨٧٨ ل E. Saavdra . وانظر عنان نفس المرجع والموضع السابق .

وانظر كذلك : Anwar G. chejne : Islam and the west. the moriscos, acultural and social history, newyork 1983 P.43 yss.

الخليقة» وأغنيات دينية وأسماء الله الحسنى وكلها شعر يتسم بالجزالة وسهولة الألفاظ ، ومن شعراء المورسكيين أيضا ابراهيم دى بلفاد ، وخوان الونسو ومحمد الخرطوشى . ومنهم أديب مجهول عاش فى تونس اوائل القرن السابع عشر بعد مأساة الطرد من الأراضى الاسبانية ، وقد اشتهر بتعليقاته النقدية على مسرحيات الشاعر الاسبانى الكبير «لويث دى فيجا» .

ومن اشهر كتاب «الانحميادو» الكاتب الفقيه «فتى ابراليو» وله مؤلفات فى تفسير القرآن الكريم وفى القصص الدينى كما أنه لخص كتب السنة ، وقد جاب معظم أرجاء اسبانيا وشاهد عن قرب مصائب قومه وتحدث عنها ، وأخذ العلوم الاسلامية عن عالمتين بارزتين فى الشريعة هما «مسلمة ابده» «ومسلمه آبله» .

وقد أولى المورسكيين كتابة القصص عناية خاصة ، ولهم فى ذلك اعمال منها «حديث القصر الذهبى» «وكتاب الحروب» وحديث على والاربعين جارية» أما كتاب «قصة الاسكندر ذى القرنين» فهو من أعظم انتاجهم الحماسى القصصى ، وهو إشاده بالاسكندر ، لأن قصته قد ذكرت فى القرآن الكريم ، ولأنه قد بعث ليحارب ملوك الارض ، ويحطم الاصنام ويقضى على عبادها .

وتعتبر المذائح النبوية والأدعية من أشهر ما كتبه المورسكيون ، وإن كان الاهتمام بكتابة المذائح النبوية باللغة القشتالية يرجع الى فترة أسبق ، فقد كتب المذجون مذائح بهذه اللغة فى القرن الثالث عشر ، ثم انتشرت بين طوائف هؤلاء فى مختلف مدن قشتالة وأراجون ، بعد ذلك تناول المورسكيون نفس الموضوع وكتبوا حوله بلغة «الانحميادو»

ومن يرجع الى انتاجهم يرى أن كتاباتهم وتفكيرهم كان يغلب عليها الطابع الغربى وإن عبروا ذلك بالقشتالية العربية كما يرى أن الغالب عليه هو التأثير بلهجات المقاطعات المختلفة أكثر من التأثير بقواعد اللغة . ويرى النقاد أن نثر كتاب «الانحميادو» أفضل من نظمهم ، وانه نثر لا تكلف فيه ، وأن الالفاظ العربية الصحيحة تتسرب اليه من آن لآخر ، وأنه يعنى فى الدرجة الأولى بتقديم التاريخ والتقاليد العربية فى إطار ديني ، أكثر من

عنايته برونق الاسلوب وجمال الالفاظ ويغلب عليه الضعف والركاكة ، وهذا لا يمنع وجود انتاج يتميز بالطلاوة ويصل الى مرتبة البلاغة كما هو حال الشعر عند محمد ديدان (الراعى) (١) ، وليس المهم فى هذا الادب الموسكى قيمته الادبية ، وانما قيمته الاجتماعية ، لأنه يوضح كثيراً من عادات وتقاليد هذه الشعب المنكوب ، الذى ترك آثاره على كثير من المظاهر الثقافية فى اللغة الاسبانية وفى الشعر الاسبانى وفى الافكار الدينية وغير ذلك .

وقد عرض غير واحد من الكتاب للادب المورسكى ، وأوضحوا ما فيه من شاعرية وخيال وذوق سليم . وعلق «برونات» على اختفاء هذا الشعب ، معترفاً بقيمة أدبهم وما كان لهم دور فى المجتمع الاسبانى ، فقال : «ان السياسة الاسبانية لم تكتف بنفى المورسكيين وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائنا ، ولم يقتصر الأمر على أنتصار التعصب وبربرية ديوان التفتيش ، بل تعداه الى اختفاء الشعر ، وشعور الجمال المورسكى والادب السليم الذى رفع سمعة تاريخنا ... لقد أختفى بطرده المورسكيين الادب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحي الذى كانوا يمثلونه ، وقد غاص باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والالهام والحماسة التى كانت من خواصهم ، وحل محلها الظلام فى الأفق الأدبى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر (٢) .

وفى المكتبة الوطنية بمدريد كثير من الكتب والوثائق المكتوبة باللغة «الانحميادية» منها كتب فى الفقه ، وكتب فى الادعية والصلوات ومعظمها يفتح بالبسملة والصلاة على رسول الله . وتوجد وثائق تبدأ بالبسملة ثم يتخللها ذكر الله والصلاة والسلام على نبيه صلى الله عليه وسلم . ومن كتب الادعية. هذه مخطوط تدل عبارته الختامية على ان اللغة

(١) راجع

- Menendez y pidal : Historia de las Heterodoxes capanoles

- Esaavcedra : Ibed, PP. 345 - 349

والموسمة الاسبانية العامة ، كلمة Aljamia

وعنان : نهاية الاندلس : ٤٩٤ - ٤٩٨ .

(2) Boronat y Barrachina, P. los Moriscos ... II, PP. 384 y siguiente.

العربية كانت مازالت موجودة وتستعمل سرا الى أواخر القرن السارس عشر
وأن ضمت كثيرا من الاخطاء .

« أفرغ للعبد من الله تعالى المعترف بذنبه ، الراجى غفران ذنبه ، على
بن محمد بن محمد بن شكار من بلاد مزما ذيبانتى ، اليوم الآخر من جمادى
الثانى يوم اربعة ولعشرين من شهر ماروس من يوم من ثلاث منه عام ثمانية
وتسعين تسع مائه من الحجزة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعددا من
المسيح منه عام وتسع وثمانين الف وخمسائة أمين أمين يارب العالمين ، تمت
بحمد الله وحسن عونه ، وكان الفراغه ثم صلاة العصر » (١) (هكذا) .

ومن بين كتب الادب المورسكى قطعة مخطوطة من كتاب لمؤلف
مجهول عنوانه « قصيدة يوسف » وهو يحكى حياة سيدنا يوسف عليه وعلى
نبينا السلام فى أسلوب شعرى (٢) .

وهناك ايضا كتب دينية كثيرة فى السيرة النبوية والتفسير والحديث .
وهذه الآثار الدينية حول التعاليم الاسلامية وسيرة النبى صلى الله عليه
وسلم ، كثيرا ما تضم بعض التعاليم النصرانية مختلطة بتعاليم الاسلام ،
وأحيانا تعرض المثل الاسلامية فى صوره مثل مسيحية ، بل قد تقدم بعض
جوانب النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى صورة المسيح ، ومرد ذلك تلك
الظروف التى كان يعيش الشعب المورسكى فى ظلها والمطاردة التى كانت
تضغط بثقلها عليه ، ومحاكم التفتيش التى لم ينقطع عنه عسفها وفداحة
جورها وظلمها ، وهذه الآثار الدينية المورسكية يستشف منها كراهية هذا
الشعب للطقوس وتقاليد النصرانية المفروضة عليه ، وإذا كانت بعض
تعليماتها قد تسربت الى ما كتبوه ، فذلك سببه ظروف العصر التى قضت
عليهم بالابتعاد عن تعاليم دينهم القديم شاعوا أم أبوا .

(١) المخطوط رقم ٥٣٠٦ ، فى فهرس المخطوطات العربية بمكتبة مدريد الوطنية .

(٢) مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد رقم R. 247 ، ومنه قطعة بمكتبة اكاديمية التاريخ فى مدريد
مجموعة جاينجوس ، وقد وضع المؤرخ منندث بيدال كتابا نقديا عن هذا المخطوط نشر فيه النص
الاحمىادى مع تخريج اسباني بعنوان :

La poema de yusuf, Granada 1952.

انظر : عنان : نهاية الاتدلس ص ٥٠٠ .

وفى أواخر القرن السادس عشر ، عشر بدير « ساكرومونتى » بالقرب من غرناطة ، على مجموعة من ألواح الرصاص عليها كتابات دينية باللاتينية تدور حول حياة الرسل والمسيح وامه عليهما السلام ، وحول بعض القواعد الاسلامية ، وفتنحج فيها التعاليم الاسلامية بالتعاليم المسيحية ويرى بعض الباحثين أن هذه الألواح كتبها المورسكيون فى محاولة من جانب علمائهم لإيجاد حل وسط يوفق بين الاسلام وبين المسيحية بحيث يكون هناك شئ مشترك مقبول من كلا الجانبين ، وقد حملت هذه الألواح الى «روما» وترجم القسم اللاتينى منها ، وانتهى رأى الفايتهكان الى أنها أوهام وخرافات ترمى لمسح الدين المسيحى^(١)

ومن بين الكتب المفيدة ، مخطوط حول رحلة جرت فى القرن السادس عشر ، يشتمل على بيان أحد الطرق التى سلكها المورسكيون أثناء هجرتهم ، وهو متضمن فى مخطوط «الخميادو» محفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس ، وقد عرف به المستشرق « سلفستري دى ساس » فى القرن التاسع عشر وأعيد طبعة فى Geographical review, New york Julio 1939 ثم نشر مرة

أخرى فى (٢) Estudios gragaphical. VII, 1949. P. 136 - 141

وهناك كتاب مورسكيون غادروا اسبانيا قبل النفى ، وكتبوا بالعربية بعض ما أنتهى الينا من آثار . من هؤلاء كما سبقت الاشارة ، محمد بن عبد الرفيع الحسينى الاندلسى الذى هاجر الى تونس وكتب كتاب «الأنوار النبوية فى آباء خير البرية» .

ومنهم أيضا احمد بن القاسم بن احمد الفقيه قاسم بن الشيخ الحجرى ، ويعرف بالشهاب الحجرى كما يعرف بـ «افوقاى» ، وهو من ضواحي غرناطة ، وقد تمكن من مغادرة الاندلس عام ١٠٠٧هـ (١٥٩٨م) يعنى قبل النفى بحوالى ثلاثة عشر عاما ، وقد ترجم كتابا بعنوان «العز المنافع ...» روى فى آخره قصة فراره من اسبانيا فقال :

(١) انظر : Menendez y pidal : Historia de los Heterodoces eapanoles, P. 354

وعنان : نهاية الأندلس ص ٥٠١

A. Dominguez : Historia ... P. 229

(٢) أنظر :

« اعلم أن أول ما تكلمت به ببلاد الاندلس كان العربية ، وكانت النصرارى - دمرهم الله - تحكم فيمن يجذوه يقرأ العربية فتعلمت القراءة الاعجمية للأخذ والأعطى ، ثم الهمنى الله أن اخرج من تلك البلاد الى بلاد المسلمين لما تحققت أن الكفار كانوا فى الثغور يبحثون عن كل من يرد عليهم لعلهم يجذونه اندلسيا مخفيا ، ليحكموا فيه ، لأنهم كانوا منعوهم من الثغور لثلا يهربوا الى بلاد المسلمين ، فجلست سنين أتعلم الكلام والأخذ فى كتبهم ليحسبوا أنى منهم ، اذ أمشى الى بلادهم للخروج منها الى بلاد الاسلام . ولما أن جئت الى البلاد التى هى حاشية البحر حيث هو الحرس الشديد ، وجلست بينهم ، فلم يشكوا فىّ بما راوا منى من الكلام والحال والكتابة وجئت من بينهم الى بلاد المسلمين ، وبهذه النية تعلمت وبلغت فى كتبهم ، ولكل امرئى ما نوى . ثم رأيت أن بسبب التعليم انه كان بنية القرب من الله ببلاد المسلمين ، فتح الله لى بذلك العلم المنهى عنه ببيان الملوك المسدودة عن كثير من الناس . » .

وقد اتصل الشهاب الحجرى عقب وصوله الى المغرب بالسلطان احمد المنصور ملك المغرب آنئذ ، واشتغل مترجما للبلاد فى عهد المنصور وولده السلطان مولاى زيدان المتوفى ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧م) ، فقد كان يجيد العربية والاسبانية معا ، وقد عمل فى سفارات للسلطان لدى البلدان الاوربية ، وفى اواخر حياته رحل الى المشرق وأدى فريضة الحج ، وعند رجوعه نزل بتونس وقربه اميرها يومئذ الداى مراد ، وتوثقت الصداقة عندئذ بينه وبين مهاجر اندلسى هو الرئيس ابراهيم بن احمد بن غانم بن محمد بن زكريا الاندلسى ، وكان أحد زعماد الجند - فيما يبدو - وقد ألف كتابا بالاسبانية حول فن الجهاد بالمدافع ، فترجمه الشهاب الحجرى الى العربية وسماه : كتاب العزو الرفعة والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع» ولقب نفسه على صفحة العنوان بلقب «ترجمان سلاطين مراكش» والكتاب عبارة عن خمسين باباً فى وصف البارود والآلات الحربية القاذفة ، وتركيب المدافع

وأنواعها ووصف أدواتها وطرق تعميمها والرمى وغير ذلك ، ويتخلل ذلك رسوم توضيحية تبين اجزاء المدفع (١) .

وفى الكتاب المذكور اشارة الى المقرئ والى كتابه نفع الطيب يقول :
« وقد صح من كتب التواريخ التى جمعها العلامة الشيخ احمد المقرئ فى كتابه بمصر ، فى الكتاب الجامع للتواريخ على بلاد الاندلس ، اعادها الله الى الاسلام » ولا غرابة فقد تعاصر الرجلان وقد يكون الشهاب الحجرى قد لقي المقرئ بمصر خلال مروره من هناك فى طريقه للحج أو عوده منه ، وقد يكون ذلك حوالى ١٠٤٠ هـ قبل وفاة المقرئ بقليل .

وللشهاب الحجرى كتاب آخر عنوانه « رحلة الشهاب الى بقاء الاحباب » ، وربما كان يقصد بالاحباب أخوانه المسلمين فيما وراء البحر بالأراضى المغربية ، ولم تصلنا هذه الرحلة ، ولكنها عرفت من خلال نقول أقتبسها منها بعض المتأخرين من المغاربة ، وقد نقل صاحب كتاب نزهة الحادى نصا عن الشهاب يوضح أحوال اسبانيا يومئذ جاء فيه :

« إن جزيرة الاندلس ، استردادها من ايدى الكفار سهل ، واسترجاعها منهم قريب ، ولما دخلت فى ايام المنصور مراكش ، وجدت عنده من الخيل نحو من ستة وعشرين الفا ، فلو تحركت هذه لفتحتها ، ولا استولى عليها فى الحين (٢) .

وليس هذا كل انتاج الشهاب الحجرى ، فله كتاب آخر ألفه عقب عوده من رحلة الحج عنوانه « ناصر الدين على القوم الكافرين » فند فيه عقائد النصرارى وانتصر لمبادئ الاسلام .

لقد كان انتاج القوم وفيما ، وتناوله بشئ بالتفصيل يطول ، ويخرج بهذا البحث عن الإطار المحدد له ، وحسبنا أن نشير الى انه قد اكتشفت

(١) توجد لهذا المخطوط أكثر من نسخة ، واحدة منها بخزانه الرباط تحت رقم ٨٧ ج ، مذكور فى صفحة عنوانها أنها من تأليف الرئيس ابراهيم بن غانم بن محمد بن زكريا ، كتبه بالأعجمية وترجمه له الى العربية ترجمان سلاطين مراكش احمد بن قاسم بن احمد الحجرى الأندلسى ، وهناك نسخة أخرى بدار الكتب المصرية ، الخزانه التيمورية رقم ٩٧ فروسية وثلاثة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧١ فتون حربية .

(٢) ابو عبد الله محمد البيرى : نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى طبع فاس ، ص ٩٩
ايضا : عنان : نهاية الأندلس ص ٥٠٣

مكتبة سنة ١٨٨٤ فى Almonacid de la sierra بالقرب من سرقسطة تضم كتباً مؤلفة فى حوالى مائة موضوع ، باللغة العربية ولغة الاخميادو وتدور حول موضوعات دينية وترجمات لبعض كتب النحو العربى وغير ذلك (١) ، وهناك مئات الكتب والوثائق مكتوبة بلغتهم محفوظة فى دور المخطوطات بسمنقة وطليلطة واراجون وبلنسية وقادش وقونية ومدن اسبانية أخرى ، وقد جمع العالم الاسبانى «جاينجوس» مجموعات ضخمة من انتاجهم محفوظة الآن فى مكتبة اكاديمية التاريخ بمدريد وفى المكتبة الوطنية بنفس المدينة . وقد درس العالم المذكور هذه المخطوطات ونشر مقالاً للمرة الأولى عن لغة وأدب المورسكيين سنة ١٨٨٩ ، وصف فيه طبيعة ومضمون الادب الاخميادى وأصوات لغة وطريقة القوم فى الكتابة ، ثم نشر نفس المؤلف كتابين احدهما لمجهول والآخر لعيسى بن جابر ، كلاهما يتكلم عن مبادئ وعقيدة الاسلام ، ثم نشر «تكتور» شعراً فى مدح النبى محمد صلى الله عليه وسلم وآخر يذكر قصة سيدنا يوسف ، ضمن كتابه «تاريخ الادب الاسبانى» ، وفى نفس الوقت ذكر «فيرناندث وجونثالث» بعض وثائق الاخميادو فى كتابه عن «المدجنون فى قشتاله» ، وما لبث أن جذب الموضوع علماء من غير الاسبان ، فنشر «ميلار» فى المانيا سنة ١٨٦٠ ثلاث قصائد اعتماداً على المخطوط رقم ١٨٨٠ فى مكتبة الاسكوريال ، فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم والثناء على الله والحديث عن الشعائر الاسلامية ، ونشر «مورفى» قصيدة يوسف بالانجليزية ، كما عرف بشعر محمد ريدان

، لكن اعظم الناس اهتماماً بالادب المورسكى فى القرن التاسع عشر هو المهندس المستعرب «سافادرا» تلميذ جاينجوس - وكلمته التى القاها عن «الادب الاخميادو» سنة ١٨٧٨ أمام الاكاديمية الملكية الاسبانية تضمنت حقائق عالية القيمة فيما يتعلق بشكل ومضمون هذا الادب وقد الحق بكلمته وصفاً لـ ١٣٦ مخطوط الاخميادو ، عثر عليها فى مجموعات خاصة بمكتبة مدريد الوطنية ومكتبة الاسكوريال والمكتبة الاقليمية بطليلطة

ومكتبة كنيسة «البيلاز» بسرقة ، والمكتبة القومية بباريس ومكتبة جامعة «اوباسلا» ومكتبة المتحف البريطانى ومكتبة جامعة «بولوجنا» ، ومكتبة اكاديمية التاريخ بمدريد التى تحفظ فيها مجموعة «جاينوجوس» ثم ذلك تلا نشره للكاتبين : رواية حب The narration of zariebe والثانى بعنوان : Story of the city of alaton وموضوعه بطولة الامام على ابن عم النبى محمد صلى الله عليه وسلم . بعد ذلك نشر «جيلين روبلس» كتابا عن «أساطير مورسكية» فى ثلاثة مجلدات اعتمادا على مخطوطات مختلفة ، ونشر قصة يوسف وقصة الاسكندر ، وأعد فهرسا للمخطوطات من هذا النوع فى مكتبة مدريد الوطنية ، ثم تعالت الابحاث التى اهتمت بالقوم وأدبهم والتى اشترك فيها كبار المستشرقين الاسبان والامريكان والفرنسيين والالمان والانجليز من امثال مينندث بيدال ومينوى وزترستين وجونثال بالثيا ولونجاس .. وهرفى وباريخا وجالمس وبيريث وكاردايلاك وكونتزي وكلينيك وشيخنى الخ ..

ولعل أحدث دراسة إعدادت حول الادب المورسكى ، واستفادت من كل الدراسات السابقة وقدمت هؤلاء المسلمين المنصرين وما عندهم من خلال ما كتب عنهم ، هى تلك الدراسة التى أعدها الباحث الامريكى الاستاذ الجامعى انور. ج . شيخنى ، المنشورة سنة ١٩٨٣ ، فقد اعتمد على حوالى ستين مخطوطا مكتوبة بلغة «الانخمياو» ومحفوظة فى المكتبة الوطنية بمدريد ومكتبة اكاديمية التاريخ ومكتبة القصر الملكى ومكتبة معهد آسين بلاثيوس بنفس العاصمة ، وانتهى الى أن هذا الادب يدور فى معظمه حول المسائل الدينية ولهذا فقد كانوا يحرصون على اخفائه دائما عن أعين السلطات بوضعه بين جدران المنازل أو اسقفها ، فهذا الانتاج يتضمن القرآن الكريم وتفسير القرآن العظيم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم والعقائد الدينية والايمان بالله ومسائل الفقه والعبادات ومعراج الرسول وحياة النبى صلى الله عليه وسلم باعتباره قدوة فى السلوك والصبر والتحمل ، وذلك للنجاة يوم العرض على الله ، كما يعرض مسائل مثل دفن الموتى ووجوب الجهاد فى سبيل الله تعالى ووجوب اتباع اوامر الله واجتناب منهياته

، وهناك مخطوطات مورسكية تعالج موضوعات فى الجدل الدينى من أهمها ما نشره المتشرق كاردبالاك وموضوعات تاريخية خاصة بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية وتقدم العثمانيين لحصار «فيينا» سنة ١٥٢٩ واعتبار ذلك عقاباً من الله لهؤلاء الكافرين ، ومنها ما يتناول تاريخ خلق العالم وتاريخ ما قبل الاسلام وأيام العرب فى الجاهلية وحياة النبى صلى الله عليه وسلم ونسبه وأجداده ونبوته وفضله على رسل الله الآخرين ومعراجه الى السماء ولقائه بالرسول ووصف العالم الآخر ومافيه من جنة ونار ونعيم وعذاب وملائكة وحضوره وشفاعته يوم القيامة ، وتاريخ بعض الشخصيات الاسلامية مثل تاريخ الخلفاء الراشدين وسيرة عمر وعلى وما قدمه من أمجاد ، وخالد بن الوليد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ولأل والحجاج وبعض قصص السابقين مثل قصة الاسكندر ذى القرنين وسليمان وقصص بعض الانبياء وبعض قصص الحب وأدب الرحلات ، وفى بعضها حديث عن نبوءاتهم وعن بعض علومهم ومدارسهم وخاصة الطب واختلاطه عندهم بالسحر . وبعض انتاجهم يدل على أنهم استفادوا من الادب الاسبانى وللقوم انتاج شعرى يدور حول نفس موضوعات نثرهم فيغلب عليه الطابع الدينى ويتناول الحديث عن الذات الالهية والحب فى الله ومدح النبى محمد صلى الله عليه وسلم والتوسل بشفاعته وقصة يوسف ومدح الاسلام والحديث عن العبادات الاسلامية والمراثى وتمجيد مآثر الامام «على» ونسبه وشجاعته ، وهناك قصائد لشعراء مجهولين وأخرى لمهاجرين أبرزهم ابراهيم بولفاد وخوان الفونسو ومحمد ريدان ولا تعدم بين المؤلفين المورسكيين من كان متعاوناً مع السلطة الرسمية مثل خوان اندرس ونونيث مولى وكلاهما اعتنق المسيحية ودافع عن مبادئها ، ومثلهما الونسودى كاستيو ومجيل لونا ، وقد عرف كلاهما العربية والرومانسية وعمل مترجماً لدى محاكم التفتيش كما عمل كلاهما مترجماً لدى البلاط ودعا فى كتاباته الى التسامح بين المسلمين والمسيحيين (١) .

(١) أنظر : Anwar G. chejne : Islam and the west : the Moriscos

حيث يذكر نماذج لشعراء مختلفين مع ترجمات انجليزية لها ، انظر مثلاً ص ٣٥ من ص ١٦٥ وانظر ص ٢٩ ، ٣٠ .

لقد عاش هؤلاء المورسكيون اكثر من مائة سنة فى شكل مجموعات مضطهدة ، وقامت محاكم التفتيش معهم بأسوء دور عرفه تاريخ العالم كله وكان فوق كل خيال للدرجة التى جعلتهم يصورونها فى كتبهم بأنها محكمة الشيطان ومستشاروه فيها الغش والعمى ، ويتحدثون فى بعض المخطوطات عن قضاة هذه المحاكم فيرمونهم بالكفر ، ويرزون انهم بأسلوبهم الشيطانى اتباع ابليس أو هم قضاة الارواح ايضا يضايقونها من الخارج للوصول الى شرورهم الشيطانية بلا مبرر .. (١)

ومن بين الدراسات القيمة التى أعدت قديما ، تلك الدراسة التى أعدها الباحث الاسبانى «اوليفرأسين» بعنوان «مورسكى من تونس معجب بلوى» الشئ الذى يؤكد ما أشرنا اليه آنفاً من أن القوم واصلوا كتابة «الانحميادو» فى بلاد المهجر ، ويذكر المستشرق المذكور - بين كتاب آخرين - اسم «عبد الكريم بن على بيريث» الذى كتب ١٦١٥ كتابا يدافع فيه عن الاسلام ويتضمن تشهيراً واضحاً بمحاكم التفتيش وأعضائها ، وكذلك المورسكى الطليطلى «خوان بيريث» الذى تسمى باسم «ابراهيم طبيلى» عند استقراره فى «تيستور» بتونس وكتب اشعاراً حول المجدل الدينى تبرهن على معرفة محدودة باللاتينية وبالمؤلفين الكلاسيكيين وإن كان يميل نحو اتجاه مدرسة النهضة الشعرية فى قشتاله ، وهناك فقرة عجيبة عند هذا الكاتب تدل على أنه عرف «كيخوتى» فى نسخة تسبق أقدم النسخ المعروفة حتى اليوم ، وهناك أيضاً شاعر من أصل ارجونى اسمه «آس محمد رويبو» ..

وكان للمورسكيين المهاجرين بعض الالهامات فى الادب القشتالى ، كما تداولوا قصائد رومانسية وأشعاراً «لجارتيا لا سو وجولجورا ولوى» ، حسبما يذكر «اوليفر أسين» وكان هذا الانتاج يقرأ فى تونس ، باعتبارها العاصمة الثقافية لكل المورسكيين فى بلاد البربر ، فهناك كانت تقرأ اعمال أدبية وافدة من الجزائر مثل اشعار ابراهيم دى بولفاد ، وأخرى وافدة من المغرب مثل عمل بعنوان «موقف معارض للقانون المسيحى» لمحمد

(1) L. ardailiac : la polemeque anti - chretienne du manuscrit du aljamiado N. 49444 de la bilbiotheque nationale de Madrid . ejemplar mecanografiado, tomo I, 200 - 201 A. Dominguez otiz : Historia ... P. 103.

الجوايزير الوزير) وهو مورسكى من «باسترانا» (١)

هذه نبذة سريعة حول مالهُؤلاء المورسكيين من انتاج ، أما صورتهم من خلال أعمال أدبية كتبها غيرهم ، فإن تفرد وضعهم كان سبباً فى أدب وفير يدور حولهم ، وان كان ليس سهلاً أن نميز فيه الحقائق من المبالغات التى سببها الحقد العام (٢)

إن صورة هؤلاء المنصرين من المسلمين تبدو واضحة فى كثير من الاعمال الأدبية ، فمثلاً «لوى رويدا» فى الكوميديا المسماة «ارميليئا» يتحدث عن إيمانهم بالسحر وعن حرصهم على اقتناء الكتب المليئة بالوصفات السحرية ، ليس فقط للحصول على مكاسب ، لكن لأهداف لها صلة بالجانب الاخلاقى أو القانونى ، لقد أبرز هذا المؤلف احدى شخصياته وهى تتحدث لغة «الانخيمادو» على سبيل السخرية ، وأظهرها تستخدم رقى قديمة يحتمل أن تكون مجدية . (٣) وتجد خصائص اكثر غرابة عند بطل كوميديا «رويث دى الاركون» التى عنوانها « من يمشى بطريقة سيئة ينتهى نهاية سيئة » ، رغم انه اكتشف أن كاتب المسرحيات ينبغي أن يستلهم ساحرا مورسكيا عاقبته محاكم التفتيش كى يصور لنا صورته (٤)

لقد طال اضطهاد المسلمين المنصرين ، فتوهموا أن النبوءات وضربات الحظ يمكن أن تفيدهم فى شئ ، وكان ايمانهم بالجبرية سبباً فى رسوخ ذلك عندهم كما كان سبباً فى معارضة القساوسة المسيحيين المدافعين عن حرية الكنيسة وعندما قل العلماء العارفين بالدين الاسلامى فان عجوزا كان بإمكانه أن ينعش العقيدة العامة عن طريق رواية حكاية قديمة . لقد انتشرت النبوءات والكتابات الصوفية كثيرا فى زمن فيليب الثانى ،

(١) أنظر : olivar Asin ; Jaine : un morisco de tunez Admirador de Iope Al-

Andalus, I, 1933, PP. 413 - 418

- A. Dominguez : Historia ... 243

(٢) أنظر : انطونيو دو منجيث : المرجع السابق ص ١٩٢ .

lope de Rueda, I, PP. 129 - 134 Escano IV

(٣) أنظر :

Ruiz de alarcon, P. 211 - 228,

A. Gonzalez palencia : losfuentes de la comedia " quien mal anda, mal acba, XI, PP.

199 - 222

والصلحات من ٢٤٧ - ٢٧٤ مفيدة لدراسة موضوع الدجل والشعوذة والسحر .

وهناك العديد من ذلك نجد متضمنا فى الوثائق العربية والرومانسية التى شرحها «الونسو دى سيبا» بأمر من الرئيس «ديسا» إنهم يسمونها «خوفورس» ، وقد ترجم «مارمول» بعضها الى اللغة القشتالية ، وإن كان قد اخطأ ، لأن من نسخوا الاصول الغربية لم يعرفوا قواعد هذه اللغة جيدا . والواقع أن «مارمول» نفسه يشير الى أن المورسكيين الغرناطيين فى زمنه لم يستفيدوا من هذه الكتابات الأخرى ، وهكذا لا ينبغى أن نصدم إذا عرفنا أن نفس «ابن امية» - الذى عين خليفة إبان الثورة الغرناطية - لم يكن يعرف من العربية أكثر من توقيع ردى بها ، وأن الوظائف والمراكز التى كانت تتطلب تنظيميا عالياً كانت فى حالة تدهور . (١)

أما كوميديا «لوى» فتشير الى ما يحرمه المورسكيون على أنفسهم من أكل لحم الخنزير وقد ، جاء فيها ، على لسان بعض الشخصيات : «لا بد من تعليق فخذ الخنزير حتى يهربوا» (٢)

أما «أثنار كاردونا» فقد لفت النظر - بأسلوبه المتميز - الى منافشات جرت مع المورسكيين فى منطقة «أراجون» حول تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، حيث ذكر هؤلاء أن ذلك أمر لا بد منه لحفظ الصحة نفسها (٣) .

كذلك لاحظ «لوى دى فيجا» فى مواضع عديدة أن المورسكى يتميز بأنه ينطق العربية وأنه يتحدث أيضا «الانغميادو» يعنى اللغة الرومانسية مع نبرة ونطق خاص (٤) ونجد نفس الملاحظة عند كتاب معاصرين ولاحقين

(١) انظر :

Marmol carvajal ; luis : Historia libro 111 capitula III PP. 177 y siguiente
julio cara Baroja : los moriscos ... 128 - 129.

وقد ذكر أنور . ج . شنخى بعض التبرعات فى كتابة بالانجليزية السابق ذكره ، انظر ص ٢٦ : ٢٨ .

(2) Miguel Artigo Don luis de congora y Argote, P. 367 - 370

(3) Azmar Cardona, pedro : expulsion... Folia. 34.

(٤) نجد نصوص تعبر عن ذلك فى : «قروية من ختياى»

la Villana de Getafe

وانظر :

Julio. C. Baroja : las moriscos ... P. 133.

وما عنده من مصادر

له قاموا جميعا بتقليد حديث المورسكيين الاندلسيين للسخرية منهم والاستهزاء بهم ، ويمكن أن نذكر بين ذلك عملا شعريا أدبيا للشاعر «لويس جونجرا» ولهذا العمل قيمة خاصة ، لأن مؤلفة كان قرطيبيا ، ولا يستبعد أنه كانت له علامات طيبه مع المورسكيين ، ويتميز بعبقريته اللغوية واستخدامه لجمل وكلمات عربية ، ويعكس عمله بعض الملامح الصوتية التي تشبه في بعض مظاهرها أصوات اللغة القشتالية التي يتكلمها أهل المغرب الآن ، ومن الممكن ملاحظة الظواهر الصوتية الآتية :

Li	الى LL	(١) تحويل الصوت
Ni	الى N	(٢) تحويل الصوت
E	الى i	(٣) تحويل الصوت
O	الى Ue	(٤) تحويل المركب
E	الى ie	(٥) تحويل المركب
O	الى U	(٦) تحويل المركب

ويشير الى أنهم يستخدمون المصدر كثيرا ويخلطونه باسم الجنس^(١) وكل المؤلفين الذين كتبوا روايات هزلية حول المورسكيين مثل «كولديرن» في مسرحيته الكوميديه المشار اليها سلفا ، أو «لوبي» الذي لا بد أن يكون قد كتب في شبابه عن «سان دياجودي القلعة» أو «فراى انطونيو دى كوابارا» أو مؤلفون آخرون أقل من حيث الدقة والأهمية مثل «كيبيدو» أو «دونيا أناكارو» أو «ميشيل دى كاباخال» أو لويس اورتادو» ...

كل هؤلاء يصرون على ملامح مشابهة ، كما يصر البعض على أنه مما يميز المورسكيين قلب الصوت P الى B ، وهذا يمكن ملاحظته بسهولة فى «بلنسية» ، وهناك شئ يبرزه الجميع ويتفقون عليه ، فهو واضح تماما عند كل من درس هذه الظواهر عند المورسكيين ، هو تحويل الصوت فى اللغة الاسبانية القديمة الى S أو حرف «السين» فى اللغة العربية ، ووفقاً للعالم اللغوى «الدرينى» ، فان المسيحيين - خاصة زمن الثورة الغرناطية -

(1) Gongara, PP. 495 - 496 (Ictrilla 20)

نقلا عن المرجع السابق لتوليو كارو باروخا ص ١٣٤ .

كانوا اذا أرادوا التعرف على المدجنين los aljamiados الذين تعلموا الاسبانية فى فترة متأخرة ، فإنهم كانوا يطلبون منهم أن ينطقوا الكلمة ، Cebollo فكان المورسكى ينطقها Xebolia ، وبالعكس عندما يكون هناك الصوت فى القشتالية فانه كان يحوله الى ؟ (١) .

وقد واصل كتاب المسرحيات فى القرن السابع عشر نفس الاساليب السابقة وقلدهم من جاء بعد ذلك ، فكل الاعمال المسرحية تقريبا كانت كذلك ، يستوى فى ذلك كتاب مدريد المسرحيون الهزليون فى نهاية القرن التاسع عشر ، أو كتاب « اقليم » بسكاي فى المسرحيات الكوميديا القديمة (٢) .

إن كتاب القرنين السادس عشر والسابع عشر ، يقدمون لنا مسلم العصور السابقة ، وفقاً للرأى العام ، باعتباره مؤرخاً ممتازاً وفلكياً ماهراً ومهندساً معمارياً قديراً ومحارباً شجاعاً ، وفارساً نبيلاً ، ومحبا متفانيا ، ولكى نبرهن على ما كان للمورسكيين من خبرة فى فن الكتابة التاريخية ، يكفى أن نشير الى هؤلاء الذين الهمو « ثيرفنتس » ابداع عمله « دون كيشوت » أو « دون كيوخوته » والى الملاح التى تميزت بها احدى شخصيات هذا العمل وهى شخصية « سيدى هاميتى بن انجيلى » الذى لم يفعل سوى رسم صورة كاريكاتورية لمؤلفى بعض كتب الفروسية التى تنسب الى علماء مسلمين ، بهدف إعطاء شهرة أكثر وصيتا أعظم فى هذه المواد التى لم تكن متوفرة للعوام ، وقد كان التنجيم أيضا بين هذه المواد (٣) ويشير نفس « ثيرفنتس » الى أن « سيدى هاميتى » لديه مهارة فى علم الفلك ،

(١) نقل « خوليو كارو باروخا » نصوصا أدبية للشعراء المذكورين ، ويقول إن هناك أمثلة لذلك ايضا عند منندث بيدال فى :

Poema de yacuf, material para su estudio, P. 48, 49 .

لدى يعرض الملاح العامه للكلام المورسكى فى صفحات ص ٣٧ - ٥١ ، ويصر على أنها هجرت

وأن استخدمت فى بعض النصوص ، انظر كتاب خوليو باروخا

los moriscas ... PP. 135, 136

وما بهما من تعليقات

(٢) تقليد « ثيرفنتس » لكلام سكان منطقة « البشكنس » فى منظرمهم من « دون كيوخوته » ، الجزء

الاول الفصل الثامن ، لا يشير بوضوح الى العيوب الحقيقية فى اللغة القشتالية التى يتكلمها هؤلاء .

انظر : المرجع السابق ص ١٣٦ ، هامش ٩ .

Julia Caro Baroja : los moriscos... P. 142 Note 121

(٣) انظر :

فالثقة العمياء فى مدارات النجوم حسبما يقرر هذا العلم ، لها جذور عند العلماء العرب ، كما كان ذلك شائعاً بين المورسكيين الى آخر لحظة (١) .
 وفيما يتعلق بالعمارة فان هناك نصوص ترينا المقدرة العظيمة عند المسلمين فى هذا الصدد ، ففى بعض أشعار «فراى لويس دى ليون» نرى مدحا للعالم الذى لا يعالج الا أعمال العظماء ، ونرى أنه يتميز بين أشياء أخرى بأه لا ينبغى أن نندهش للسقف المزخرف المتين الذى يقوم به العالم أو المهندس المسلم القدير ، فقد كانت شهرة المسلمين شائعة فى هذا الخصوص ، ففى شبه الجزيرة الايبيرية حتى اليوم ينسب للمسلمين تقريبا جميع الأبنية المشهورة سواء بقدمها أو بطابعها الأثرى ، سواء كانت قنطرة رومانية أو مصلى رومانى أو كنيسة قوطية أو قبرا داخل نصب تذكارى (٢) .

(١) هناك كتابات كثيرة حول أدب النجوم والفلك عند المسلمين ، وفى سنة ١٩٥٤ نشر بمديد كتاب el libra cónplido de las iudizias de la estrella

هى ترجمه تمت فى بلاط الفونسو العاشر عن نص كتبه «على بن راجل» ، وهناك نصوص كثيرة فى العصر الوسيط تكشف عن إيمان المسيحيين العميق بعلم المسلمين فيما يتعلق بهذه الجزئية ، ففى حولية الفونسو الحادى عشر ص ٣١ (فصل ٢٢٤) نرى حديثا عن مسلم اسمه «بنا يتميرو» كانت لديه معرفة عظيمة بالنجوم والطبيعة ، وفى حولية بديرو الأول سنة ١٣٩٦ ، الفصل الثالث ص ٥٨٦ - ٥٨٨ ، نقرأ نبوءة «بناهاتن» وهو عالم غرناطى كان متفيا مع ابن الخطيب حسبما يذكر جارثيا جومث فى ابن زمرك ص ٢٠ . كذلك يرسم «ايرناندو دى باديثا» - ص ١٧ - صورة لعلماء الفلك الغرناطيين مع نبوءات كثيرة ، ونفس «ثرفنتس» يجرى على لسان احدى شخصياته ، وهى شخصية مسيحية من بلنسية جيد العقيدة ، اشارات الى نبوءة لأجد اجداده المشهورين فى علم النجوم ، حول ما سيحدث باسبانيا فى فترة لن يكون الا الدين المسيحى فى كل اجزائها ، وفيما يتعلق بالأدب الاخيماو المتصل بالنجوم

Saavdra, eduardo : literatura aljamiada..., Madrid 1878

58, 159

أنظر أعمال 159 , 158 PP.

- Persiles y segismund, libro III, cap XI, PP. 645 - 646,

- Marmol : libro 3, capitula 4

- Hurtad a de mendoza ; Diego : guerra de Granada, P. 23

- J.C. Baroja : los moriscos ... P. 142, Nota 122

(٢) بقى طابع العمارة الاسلامية منعكسا فى رومانسية ابن عمار أو القصائد الشعبية له ، ويذكر فيها أن استادا مسلما هو الذى عمل alijares ، ثم قتله ملك غرناطة بعد ذلك حتى لا يكرر نفس العمل ، وقد اشتهر من المهندسين المسلمين بعد النفى العام المهندس المعمارى «خانيرو الاندلسى» ، انظر

- J.C. Barja :

المرجع السابق ص ١٤٣ هامش ١٢٣

- A.-Dominguez : historia ... P. 244.

إن القصاصين الراويين الشعبيين الذين اختارهم دون «اجوستن ديورن» في مجموعته الشهيرة ، يرسمون لنا مسلمين شجعانا كلهم رشاقة يمتلئون محبة وحماساً ويجعلون الآخرين يفعلون الشيء نفسه ، وهم في نفس الوقت نموذج للمظهر المنعم ، ولديهم شعور بحرارة الحب ، فاين عمار الزرقى وجازول وابن امية وزيدى وطارفى وابن درايت وموسى ورضوان ولوس بشيلينيس وأوديا وأدولشى ، كل هؤلاء قدموا لنا هذه الحرارة والحماس باعتبارهم شخصيات شعرية ، أن الاعمال التى تروى بطولتهم تجعل الانسان يشعر بإعجاب مضاعف . (١) .

وإذا كان يعتقد أن المسلمين كانوا عظماء فى الماضى ، أليس من الممكن ان يكون نفس الرأى فيما يخص الحاضر ؟ لقد كان هؤلاء احفاد أولئك العلماء المعمارين ، خبراء السحر والتنجيم وأحفاد هؤلاء الوجهاء الشجعان العاطفيين وسلالة أبطال الشعر الذى يمضى من فم الى فم . ، ولكن المورسكى عند الرأى العام كان شخصا غير مثقف بل وحتى فظا غليظاً يحتل بسبب عناده آخر درجة فى السلم الاجتماعى .

انه شخص صاحب قدرات معينة ولكنة غير مثقف ، بل ان العلماء والقضاة والبارزين فى هذه الجماعة ، لم يكونوا موضع تقدير المطارنة والادباء ورجال القلم فى عهد كارلوس الأول وفيليب الثانى ، لقد كان العوام فى المدن المورسكية أضحوكة وكانت آحاسيسهم مجروحه بشكل مألوف (أول اشارة الى المسألة المورسكية بمفهومها التاريخى مجدها فى عمل أدبى عند «الپارو جومث دى كاسترو» ، عالم النهضة الاسبانية الأول ، حيث خصص بعض أبيات باللغة القشتالية بعنوان «مقطوعات غنائية حول المورسكيين» ، ونشرها «الفار ائكيرا» فى «حول شعر البارو جومث دى كاسترو» جامعة مدريد المركزية سنة ١٩٨٠ .

ولقد تمثلت أنشطة المورسكيين - كما تعكسها الأعمال الادبية - فى زراعة الحدائق وصناعة السلال والأدوات الاخرى المصنوعة من الجريد ، مثلاً تقول احدى شخصيات «تيرسو» فى : la Villana de Vallecas : آه

Duran, I, PP. 1 - 28.

(١) أنظر

حيث يختار ٢٤٣ شعبية تعالج هذا الموضوع وتؤكد الالكار المذكورة .

(٢) أنظر Miguel angel de bunes los moriscos en el pensamiento histori- co , madrid 1983 , P. 17.

المورسكيون هم الذين كانوا فى الشوارع يبيعون حصر الجريد ، سىدى (١) وكان من بين أعمالهم التجول بهدف البيع والتجاره فى التين الجاف والزبيب والجوز والعسل والحلويات الشعبية (مثل العسلية) والفواكه ، وصنع الطوب اللبن والآجر ودهان المنازل بالجير وعمل الجص وبيع الزيتون والخبز المحمص وكل هذه ليست لها علاقة بالأعمال الرومانسية التى كان يتغنى بها فى القصائد الشعبية الجادة حسبما لاحظته بعض الشعراء (٢) أما عن المرأة ففى مقابل المرأة المسلمة الرشيقه يرسم شعراء الطرب لنا المرأة المورسكية الفقيرة بائنة متجولة ، مغطاة باللبس الحرىمى متميزة بالحياء ، تبيع المناديل ومياه المشروبات الملونه «الشربيات» ومياه الشرب والتين والصابون فى شوارع وميادين غرناطة ومدن أخرى فى وسط وفى جنوب اسبانيا ، أما المقاتل القديم فيقابله المورسكى البارح فى إصابة الهدف (٣)

أنا لو قرأنا حوار الكلاب «ليثرفنتس» فاننا نجد نفس الاشياء التى دبحها يراع «أثنار كاردونا» او أى كاتب من نفس المستوى الفكرى ، ولقد عبر «ثيرفتش» مثل غيره عن كراهيته لهؤلاء المسيحيين الجدد فى اعماله الشعرية والنثرية مثل دون كيشوت وحوار الكلاب واعمال بيرسيلس وسجسموندا وحمامات الجزائر

ويجدد بنا أن نلقى نظرة سريعة على بعض هذه الاشياء العامة ، يقول كلب «ثيرفنش» عن المورسكيين : «انهم لا يتميزون بالعفة ولا يعتقدون ديناً سواء رجالهم أو نساؤهم وكلهم يتزوج وكلهم يتكاثر ، لأن

(١) نقلا عن انطونيو دومنجيث : تاريخ المورسكيين .. ص ١١٩ : acta 3, Escena 9

(٢) بلغت «جورثالث بالنشيا» النظر الى هذا فى بحثه عن «ثيرفتس والمورسكيون» ص ١٠٧ - ١٢٢ حيث ينقل عددا من القصائد الشعبية الرومانسية تؤكد هذا المعنى .

(٣) ينقل خوان كارو باروخا بعض القصائد الشعبية لجبرائيل دى لافييجا (١٦٠١) طبع مدريد سنة (١٩٤٢) وفقا لجورثالث بالنشيا - ثيرفتس والمورسكيون - ص ١٠٧ - ١٢٢ أنظر عمل باروخا ص ١٤٦ ، ١٤٧ وما بهما من تعليقات :

هذا وقد أشار الى اعمال مهمة لدراسة هذا الموضوع من بينها :

- el moro de Granada en la literatura del siglo XV al XX Soledad Carrasca urgoite, Madrid 1956

el moro y el morisco en la novela espanola de los siglos XVI y XVII .

M.S. Carrasco

من تأليف

انظر تعليقات ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ .

الحياة المقنعة تزيد من أسباب التناسل ، الحرب لا تفنيهم ، كما أنه لا يؤثر عليهم ما يقومون به من أعمال بالغة الارهاق (١) ونفس موضوع الخصوبة وكثرة النسل واليقين في أمور الحياة لمجده في «اوستريادا» لخوان روفو (٢) ، وأكثر من هذا إننا نجد التعبير عنه قاسياً في كتب متداولة مثل كتاب «اثنار كاردونا» الذي وصل الى تأكيد أن تكاثر الكورسكيين يخضع لخطّة تعمل على معارضة تزويج الابناء من سلالات المسيحيين القدامى ، هؤلاء المسيحيون القدامى الذين يتزوج كبار السن منهم ، أما الباقيون فينخرطون في سلك صفوف رجال الكنيسة ، ويعشون حياة منعزلة في الاديرة أو في الجيش .

يقول «اثنار كاردونا» ان كل المورسكيين كانوا يزوجون أولادهم في سن مبكرة ، ويبدو لهم أنه لا بدّ تزويج الفتاة في سن لا يتجاوز الحادية عشرة والفتى الثانية عشرة .

ولم تكن تشغلهم قضية المهر كثيراً ، لأنه يكفي عند عامتهم - لا يستثنى الا الاغنياء - توافر سرير وعشرة جنيهاً وهذا يسعدهم كثيراً ، لقد كانوا يحاولون تكثير أولادهم مثل الحشائش الضارة . لقد كانوا متميزين ومعروفين بالبراعة في كل اسبانيا ، وكانت أشعارهم تعبر عن ذلك ، لقد تكاثروا للغاية ، ولم يوجد بينهم من يعارض الزواج أو يرغب أن يكون من رجال الدين أي راهباً أو راهبة أو قسيساً ... والكل يتزوج غنياً أو فقيراً سليماً أو غير سليم ، انهم لا يفعلون مثلما يفعل المسيحيون ، حيث يزوج من عنده خمسة أو ستة أولاد أكبرهم فقط أو واحد منهم ، أما الآخرون فيتحولون الى رهبان أو راهبات أو قساوسة أو جنود أو يصبح من المتصوفين أو وعفيفاً ، إن الشئ المؤلم عند المسيحيين القدامى أنهم كانوا يتزوجون من مورسكيات ، حتى لو كانوا ممن يعتزون بنبيلهم ، وليست لهم مصلحة في ذلك ، انهم بهذا يلوثون النقي من نسلهم ، ويغضبون

(١) ثيرفنتس : حوار الكلاب ص ٣٥١ .

(٢) خوان روفو «او ستربادا» ص ٨

الله... (١) وهناك جملة يرددها «ثرفنتس» عن المورسكيين فى عمله «حوار الطلاب» - كما يردد أدباء العصر نفسه جملا مشابهة تقول : «إنهم يكسبون المال ، ويكومون اكبر كمية مما يوجد منه فى اسبانيا (٢) ويقول نفس أديب اسبانيا الاكبر : «إن كل محاولاتهم تتركز فى ضرب النقود ، وجمع النقود المضروبة ، ولكى يتأتى لهم ذلك ، فانهم يعملون ولا يأكلون ويحرصون على تملك حتى ربع بيزته (وهو مبلغ تافه جدا) ولا يتوقفون ، أنهم يريحون دائما ، ولا ينفقون شيئا ، ووصل بهم الأمر الى تجميع كميات كبيرة من المال فى اسبانيا ، ومع هذا التوفير والنهب ، يخفون ما يحصلون عليه ، إنهم يعتبرون كثيرين ، وفى كل يوم يكسبون ويخفون جزاء أقل أو اكثر ومع الحرارة البطيئة تنتهى الحياة مثل الحمى ، ولأنهم يتكاثرون فان مدخراتهم المختفية تزداد ... ويصبح هؤلاء أغنياء ، ويتركوننا فقراء ... ليس عندهم خدم ، لأنهم هم أنفسهم خدم ، ولا ينفقون دلى تعليم أبنائهم ، لأن تعليمهم لا يزيد عن بيان كيف يسلبوننا ويكون من السهل عليهم العبث والنهب (٣) ، وثرفانتس - مثل اثنار كاردونا - يتهم المسلمين المنصرين بأنهم يزيغون النقود ، وانهم يضربون عملة مزورة (٤) ، وتجد نفس الفكرة عند «جوادا لاخارا» حيث يقول : أنهم بصفة عامة جشعون وسيئون ويقظون فى حرص لجمع المال وحبسه دون إنفاق ، حتى لو كان لازما لحاجات ضرورية ، لقد اختاروا الحرف والاعمال المناسبة اكثر للوصول إلى الثراء ، فهم أصحاب دكاكين وعطارون متجولون وحلوانية جائلون ، وهم بهذه الصورة مثل اسفنجة تمتص كل ثروة اسبانيا ، وبدون شك توجد كميات هائلة من الذهب والفضة فى حورتهم ، ولسنا فى حاجة للبرهنة على ذلك من خلال ما يحدث فى المملكة ، فما عند أهلها قليل ، ويحمل المورسكيون zafra و يدفعون لسادتهم ثلث

(1) Aznar cardona (pedro) : expulsion ... capitulo XI Fols

36r - 37r

وانظر

J.C. Baroja : los moriscos ... P. 216 Nota 43

(2) A. Dominguez : Historia ... P. 125

(3) Cervantes : el Coloquio de perros, P. 351

(4) Aznarcadrona : obra citada fols 52 r y 54 r

نقلا عن خوليه باروخا : نفس المرجع والموضع السابقين .

ما يكسبون ، وهم رغم هذا بينهم أغنياء ، حتى فى الاماكن الصغيرة والمواطن القاحلة ، لا يحصل السادة منهم الإيرادات العادية بل فحسب ويفرضون عليهم الهبات والقروض الاختيارية ، فلننظر إلى أى مدى هم عقبات فهذا العدو الواضح هو المالك لكل ما يسمى مالا (١) .

أما خروج المسلمين المنصرين من أسبانيا ، فقد صورة لنا «جاسباردى اجيلار» فى الشكل الآتى :

مجموعات من مسلمات ومسلمين يذهبون جميعا مستمعين لألف اهانة . هم يمضون مع الثروات والكنوز وهن تمضين فى أثواب جميلة وزينات العجايز تمشى كتيبات باكيات تحملن جميعا قدروا حقيرات مع ollas ومقالات وأباريق وشمعات . عجوز يحمل طفلا فى يده . آخر يذهب لصدر أمه المكشوف آخر ذكر قوى مثل الطروادى يحمله والده بلا توقف (٢) .

ونفس الشاعر يوضح لنا ما تعرض له المورسكيون من تعاسة بسبب النفى وسوء المعاملة فيقول :

كم من فقيرات مسكينات نالهن السوء
لانهن رأين من ينتمين لهن بلا دفاع
انهن مع اطفالهن الصغار لهن محتضنات
صاعدات فى جبال عاليات
وكم لهن من أولاد أعزاء يبيعوا
لرجالنا ، فقط لأنهم يريدون كسرة خبزة (٣)

أما «اثنار كاردونا» فقد قدم لنا صورة واقعية لأبعد مدى عن الخروج والنفى يقول: فى شكل مركب غير منسق ، يختلط فيه المشاة

(1) Marcos de Guadalajara, Memorabb expulsion ... fol 84 r ...

J.C. Baroja : los moriscos ... P. 216, Nota 45.

(2) Gaspar de aguilor :

وقصيدته طرد المورسكيين من اسبانيا تتكون من ثمانية مقاطع ، ويرى بعض الباحثين أن هذه القصيدة يجب اعادة طبعها لقيمتها التاريخية ، ومنها نسخة بالكتابة الوطنية بمدريد تحت رقم R. 12484 كتب «جاينجوس» على هامشها «نسخه كاملة تماما لعمل نادر» وقد وصفت «بانها لم يرى نسخة مماثلة لها» أنظر :

A. Dominguez : i:historia ... P. 182 y Nota 14

(٣) ص ١٨٩ ١٩ من القصيدة . والمرجع السابق لا نظريو رود ريبهيت ص ١٨٤

يختلط فيه المشاة بالركبان يمضى الجميع ، مجموعة تلو أخرى ، يتفجرون من الألم والدموع يحملون ابناءهم ونساءهم ومرضاهم والأطفال والعجائز ، محدثين صخبا عظيما وصراخا مريعا ، التراب يغطيهم ، العرق يغمرهم ، بعضهم محمول فى عربات مشدودون إليها بأشخاصهم وحليهم وزينتهم المتواضعة ، والبعض يستخدم دوابا ، يحملون أدوات غريبة واشياء فظة ، وقد يحملون على كراسى مع قفف من الخرج ، وأباريق وسلال من الجريد ، وملابس وتنورات وقمصان وألواح وسماطات ، وكسر من القنب ، وقطع من الكتان ، البعض يذهبون مشاة محطمين ، عليهم ثياب رديئة ، فى أرجلهم أحذية ونعال ، ومنهم من يضع دثاراً على رقبتة ، ومنهم من معه ملابس وحاجاته الضرورية ، ومجموعة منهم تستخدم غطاءات متنوعة وأربطة . وكل منهم يقدم التحية إلى من ينظر اليهم قائلاً :

فليجزىكم الله ويحرسكم ، ولتبق معكم رعاية الله وعنايته . وبين الفئات المذكورة كنت ترى بين الحين والآخر نساء كثيرات ، زوجات لمسلمين أغنياء يضعن الحلى القيمة ، مع مظاهر الزينة المتنوعة ، بعضها مصنوع من الفضة ، يثبتنها على الصدر أو تعلقنها فى الرقبة مع عقود وأطواق وأقراط وأساور ومرجان وغيرها ومع حلل وملابس مزركشة ، بهذا كله يسترون بعض آلام القلب ، أما الآخرون ، وهم الكثرة الكاثرة بلاشك ، فقد مضور مشاة متعبين ، يشعرون بالمرارة والضياع ، تؤلمهم مناظر ومتاعب لا تطاق ، ويشعرون بمرارة عظيمة للغاية ، ويموت الكثيرون منهم بسبب المحن المفجعة ، يشترون الماء وظل الطريق ، فقد كان الوقت صيفاً (١) .

وقد مر بنا أن " ثرفاتش " قد خصص فصل " ريكوتى " فى " كيوخوته " بأكمله للحديث عن بعض جوانب المشكلة المورسكية (٢) ويقولون أنه فى القرن السابع عشر عندما كانوا يريدون الإشارة بشكل واضح ولكنه غير مباشر إلى أن شخصا "ما" مورسكى الأصل

1-Aznarcadorna : expulsion justificada de los moriscos espanoles , Parte 11 capitulo 2 -A . Dominguez : Historia ...P.196.

٢- انظر ص من هذا البحث .

كانوا يقولون أن أجداده كان Melcocherors أي أنهم كانوا يصنعون الكعك من نوع من العجين يتكون من الدقيق وعسل النحل والماء الذي يقومون بطبخه في الزبدة ؛ فقد كان المورسكيون مغرمين بهذا النوع من الكعك ومتخصصون في صنعه ، وهذه النادرة ترجع إلى أزمان قديمة ، ففي فقرة هجائية من شعر «الونسوانثيتو» تقرأ: -

الداعر الفاسد في مكة يأكل كل يوم كعكا مقلبا في زبدة
بعث به اليه الاله العظيم (١)

أما «لوي دي فيجا» ، فقد حاول في «قروية خاطبة» أن ينفردنا من سيدة قهر مائة (وصيفة) كانت عند فارس . يقول : إن هذا الفارس من اصل مورسكى مثل خادمته ، ويذكر أنه نفسه قدم له معلومات عن طرد اسلافه من اسبانيا ، فقال إن جده كان من ناحية اسمها «دون فيلكس» وأنه كان يدعى «زوليمبا» ، أماجد «لوي» فهو «لاكايو آرامبيل مولى» من «كاييو» . إنه متكلف وخيالي ، فقد اشترى الدابة التي يخذعنا بها ، من الأموال التي جمعها والده من عمل كعك العجين المقلبي والذي كان يباع في الأندلس (٢) ، وقد أشار مرة أخرى إلى عناية المورسكيين بهذا الكعك فقال: يباع هذا الكعك ، كلب مورسكى ، يلبس ثيابا بيضاء ، يفكر في خيانتنا .

أما «لوريتا» ، فانه يغني قصيدة مضحكة تقول :
ينادى المسلم محمدا لكن لا احد يعيره سمعا
لقد كان يصنع الكعك المقلبي ، مع ثلاثة أو اربعة من المورسكيين (٣)
ونذكر اخيرا أننا نقرأ في احدي قصائده الشعبية التي يقلد فيها القصاصين أو الروائيين ، حديثا على لسان مسلم اسمه «زايدى» على سبيل السخرية :

Poema de alfonso oncen, P. 505 a (926)

(١) ذكرها

J.C. Baroja : moriscos ... P. 219 Note 57.

(2) Lope de Vega ... X, P. 393 (acto 11)

واكثر من هذا يقول راميرث ص ٣٩٤ : «لوي» الذي كان أجداده يعيشون من صنع الكعك . أنظر

J.C. Baroja : obra citada : P. 219 Nota 58

(3)obras ... V, 196 B

هناك داخل الخنارة يفرم اللحم - صانع الحلوى يحذره الاير بالشارع
وصانعو الكعك أنفسهم ، رغم أنهم من بنى جنسه فانهم من بين
الزيت يحذرونه حتى لا ير بالشارع (١)

«وقروية خاطبة» المذكورة عبارة عن «كوميديا» تبرهن على القلق
الذى يترتب على ملاحظة اسارير جسدية معينة عند صنف معين من
الناس (٢) ، كما يترهن على أن المسلمين الاسبان ، برغم كل شئ كانوا أعلى
من المسلمين فى افرقية (٣) .

ولا ينبغي مع ذلك التقليل مما قيل حول بغضهم والكراهية التى كانت
تبدو كل يوم لهم .. إن كتاب العصر الذهبى ، يروون لنا خداعا وغشا
ووشايات وألوانا من الشرور - يزعمون أن المورسكيين قاموا بها - ، وكانوا
يقومون بها ، ليس باعتبارها أشياء عادية ، بل أشياء يجب أن يفعلوها ،
وهنا تذكر بعض الامثلة : -

يروى «بيثنتى اسبنييل» فى «حياة ماركو دى اويرجون» ، يروى هذا
المؤلف من خلال شخصية واقعية هى شخصية الفارس «رونډ نيو» - خوان
دى لوثون - القصة الأتية :

لقد وجد راع مسلم فى سلسلة جبال «رنده» ، وكان يقوم برعى
مواشيه بين قريتى «بلاستر وشوكر» وفى يوم من الايام كان يشعر بعطش
شديد ، وقد اختفى كلب كان معه ، وبعد فترة عاد سعيداً يحرك ذنبه
المبلول تماما ، وقد صدم هذا المنظر الراعى كثيراً ... ومن حسن الحظ انه
ربط كلبه ، على أمل أن يعود اليه العطش ، وعندما لاحظ ذلك عليه ،
أطلقه لكى يبحث عن الماء ، فأخذ هذا يشم ويقفز هنا وهناك ، لكنه كان

(1) Duran, I, P. 136 (Num. 257)

(٢) تقول انا

أى مورسكى يكون لوى هذا ، انه لبيدوى الوجه اكثر من السيد «فيليكس» ...
Lope : obras ... X, P. 393 (acto 2)

(٣) نفسه obras ... X P. 398

وهناك نصوص أخرى تتعلق بالمورسكيين تقول انهم صانعو كعك ولصوص وخداعون ، وأنهم بلنسيون
بتكلمون العربية جيداً ، خذ مثلاً لهذه النصوص عند «ريكاردو دى اركو»
la Sociedad española en los obras de Lope de vega, PP. 83 - 85 .

مربوطا بحبل كبير ، ثم مضى ليكشف عن ماء موجود فى كهف خفى جدا ، فاعتبر المورسكى بحق أنه عثر على شئ ثمين للغاية ، وقد رأى أن ماء النبع يسير فى اتجاهين ، فأغلق واحدا منهما بالحجارة ، وجعل الماء يتدفق فى اتجاه واحد . وفى اليوم التالى نقص الماء فى «شوكر» ، فذهب الراعى هناك وروى ما اكتشفه وقال أنهم اذا دفعوا له جيدا ، مكرر ، فلن يعيد الماء فقط ، بل سيجعل تيار الماء يزداد تدفقاً عندهم ، فأعطاه أهل القرية ٢٠٠ دوقيه (عملة قديمة) تدفعهم الحاجة والرغبة فى الحصول على ماء اكثر ، فرجع الراعى إلى الكهف وحطم السد الذى صنعه وأجرى الماء وضم ماء الفرع الآخر إلى هذا الفرع ، وكان فى هذا نهاية حياته ، لأن اهل «شكور» وقد أصبح الماء عندهم مضاعفا ، ولأنهم خافوا أن يذهب المورسكى إلى «بلاستر» ويقترح شيئا مماثلا ، فانهم قتلوه ، دون أن يتألم ضميرهم فيما يبدو (١) .

وهذه القصة القروية تقليدية فى أى بلد بجنوب اسبانيا ، ولكنها مع ذلك ليست الأكثر استهتارا أو الاكثر تعبيراً .

لقد امكن لـ «ايسبيجا ندو» أن يقدم للادب نخبة من الروايات أدهى لاشمئزاز أكثر ، إنها تعرض حالة ضعف بل وربما انعداما فى الضمير ، مثلا يروى «فراى ماركوس دى جوادالاجارا» كيف أن أحد الفرسان ، وصل من «فلندس» وقد تعرف عند مروره «ببياسه» على مورسكية أمّا الحمال (مهنته الحمل على البغال) من «قيجاطة» فى محافظة «جيان» ، وقد خطر له عندئذ أن يتظاهر بأنه من أسره آل بنيفش ، وأنه سليل ملوك عرناطة ، وبهذا أنس إلى المورسكيين فى «قيجاطة» وأنسوا اليه ، واكتشف سلسلة من دسائس هؤلاء تدل على ما عندهم جميعا تقريبا من خداع فلم يتردد فى العمل على أدانتهم ومعاقتهم وسجنهم (٢) .

وهناك حالات أخرى ، المبرر فيها أقل ، مثلا «فى رواية» «الجندى

يندارو»

(1) espinal, P. 407 (relacion 1, descanso XIV .

(2) Marcos de Guadalajara, Prodcion ... FOLS 7v - 9r

J.C. Baroja : los Morisos ... P. 221, 222

وانظر فى الموضعين السابقين .

نرى المؤلف يروى قصة لص غشاش وقع أحد التجار الاغنياء ضحيه له ، وكان التاجر يقيم فى اشبيلية ، قادما من بلد الوليد ، واشتهر بانه من المورسكيين ، وقد ذهب اللص الغشاش إلى منزل التاجر ، متظاهرا بأنه يريد شراء قطعة قماش لعمل ثوب ، وقد قلب كثيراً فى قطع قماش المصنع الموجود فى «شقوبية» و «بياسه» ثم وضع علبة صغيرة بين طيات واحدة منها ومضى قائلاً انه لم ترق له واحدة من كل مارأى ، وفى اليوم التالى عاد وبدأ يقلب فيها من جديد إلى أن عثر على تلك القطعة التى وضع فيها العلبة بالامس ، فالتقى المورسكى نفسه عليها مندحشا ، اما اللص فقد حاول من ناحيته فتحها ، وبدأ صراع أكد فيه التاجر أن العلبة تخصه وأنه لا ينبغى أن تكون لأحد غيره ، وبينما كان يقول ذلك قام اللص بفتح العلبة التى كانت فى يده وكشف فى داخلها عن صورة اسلامية مذهبة على شكل قمر من ناحية الأرجل وتمسك بنسخة من القرآن فى يديها . وكان رعب المورسكى البائس كبيرا ، وقد عامله الوغد معاملة سيئة وتفوه بكلمات بذيئة ، وهذده بإبلاغ الأمر لسلطات العدالة ، وأخيرا وبعد توسلات ورجاءات تركه آمنا بعد أن دفع له ٣٠٠ دوقية (١) .

لقد وصل احترام المورسكيين فى مطلع القرن السادس عشر إلى ادنى مستوى عند الرأى العام ، وموقف «ثيرفنتس» منهم يعتبر أمرا عاديا ،

(1) Gonzala de cespedas y meneses : Fortune varia del soldado pindaro, PP. 319 - 320, lile I, cap XXII

اخبر تنقل فقرة من حياة عثمان الفاراشى ، لـ

Mateo aleman, P. 197, Parte I lib I cap. III

تقول : أنا اشهد أن نائباً عن احدى المدن الرئيسية فى الاتدلس ومملكة غرناطة ، كان يمتلك ماشية وكان الجو باردا ، لهذا لم يرق لبئها له ، فحضر باعة اللبن اليه ، وبدا له أنه سيخسر كثيرا ، لان زمن الصوم الكبير عند المسيحيين قد أوفى . فاقترح فى بلديته أن يقوم الباعة المورسكيون بسلب المملكة لافتاً النظر الى القليل الذى يتكلفه ذلك ، انهم لن يكون الا اكثر قليلا من ستة آلاف مراهطى ، وسوف يرحبون ربعا معتدلا ، ولكن لا أحد أراد أن يفعل ذلك ، ففيه خسارة لهم . وفى وسط هذا الحوار راق له أن يحول الانتاج الى زبدة وقشدة وجبنة طازجة وأشياء أخرى الى أن يهجم الوقت المناسب وعندما بدأ صنع الجبن ، فانهم رفعوا سعره الى ١٢ مراهطى كما كان من قبل ، لكننا كنا فى زمن الصيف ، ولم يكن هناك مبرر لذلك ، لقد روى هذه الحيلة متفحّصا كيف كان هؤلاء الناس أنثهاذيين . ولاهد ، فهل هناك واقعية فى هذا التعبير ؟ ، انظر :

J.C. Baroja : los moriscos ... P. 222, Nota 66.

ليس فقط فى الجزء الثانى من «دون كيخوته» (الفصول Liv y LXII) أو حوار الطلاب ، بل وفى انتاج فترة الشخوخة حيث قدم تصورات وأفكارا أكثر ، فقد خصص لهم فى «بيرسيلس» و «سيخسموندا» بعض الجمل المفعم بالاحتقار والكراهية ، ربما سببها تذكره للمعاملات السيئة التى عانى منها خلال اعتقاله فى الجزائر ، لكن الجيد فى الفقرة الأخيرة «لثرفانتس» أنه وضع التشهير المعادى للمورسكيين على لسان واحد من نفس الاصل ، وهو مسيحي مخلص فى الآن نفسه ، اسمه «الحندرجى خارفى» ، لقد كان يعيش فى قرية قريبة من شاطئى بلنسية ، وكان عليه أن يلبأ إلى الكنيسة مع القلائل المسيحيين القدامى فى نفس المكان ، بينما كان الباقون من بنى جنسه ، المتورطون فى اتفاق مع القراصنة الاتراك ، قد غادروا القرية مع الجماهير ، بعد أن ارتكبوا سلسلة من الاعمال العنيفة . بعد ذلك سيحاول مضيف عجوز أن يخدع المسافرين ، أبطال الرواية ، عارضا عليهم منزله ، وفى نيته أن يأخذهم أسرى . وقد شهدت ابنة العجوز الجميلة «رافالا» على محاولته ، وهى مسيحية وبنّت اخ «الحندرجى» (١)

إن العمق التاريخى لهذه الرواية يمكن تحديده عن طريق دراسة الوثائق المنشورة عن معاهدات الاتراك مع المورسكيين فى بلنسية (٢)

وهناك نصوص أدبية أخرى تعطينا صورة ليست أقل قيمة ، ففى «لابيكارا خوستينا» يمكن أن نرى صورة عجوز مورسكية من «أندوجر» (قرطبة) وهى معادية للدين المسيحى لسبيين ، لكونها مسلمة ولكونها ساحرة ، ولانها تدرك وضعها ، وتتكلم «الاحمبادو» على الطريقة المورسكية القديمة ، فانها تبدو نموذجاً لواحدة من هؤلاء الذين كان عليهم أن يستقروا فى أراضى الشمال ، بسبب تحركات أسر من نفس أصلهم ، وكان عليهم أن يعيشوا فى وسط أناس صعاليك حتى جاءت اللحظة التى لم يعد

(1) Cervabates : Trabajo de persiles y segismundo, PP. 644 - 646, lib III, cap. XI
J.C. Baraja : las Moriscas ... P. Nota 68.

(٢) اعمال الاتراك فى هذا العصر ، تعكسها كتابات مؤلفين مثل انريكس دى خوركيرا أو غيره
Henriquez de Jorquera ; francisco : Anales de Granada... III, P. 608, 609, 633
وانظر خوليو كارو باروخا : المورسكيون ص ٢٢٣ هامش رقم ٦٩ .

يسمح لهم فيها حتى بهذا^(١)

أما الاغانى الشعبية فانها تعرض أيضا بعض جوانب المسألة الموسيكية ، فهناك أغنية شعبية فى مجموعة «دوران» مؤلفها مجهول ، رأى كما رأى كثير من المسيحيين القدامى فى زمنه ، الفخامة والأبهة التى أظهرتها بعض الأسر الموسيكية الاشبيلية ليس فقط فى الملابس (٢) بل وفى أجهزة العرائس وفى الاعياد والاحتفالات الأسرية^(٣) ووفقا لهذا المؤلف فان كفاءة هذا الشعب ملحوظة ، ليس فقط فى التجارة والصناعات البسيطة ، بل وفى الاعمال الحرة والمهن التكنيكية العالية^(٤) لكن فى نفس هذه

(١) شهرة النساء الموسيقيات والهربيات فى السحر تعكسها بعض الاعمال مثل :

- Mafeo Aleman : Vida de Guzman alfarache, P. 218, Parte II libra 11, cap. IX

- Henriquez de jorquera, 11, p1559

أو عند بعض المحللين مثل

- Aznar cardona : expusion ... fols 37 y 49r

J.C. Baroja : los moriscos, P. 126 Nota 49 y P. 223, Nota 70. : انظر

(٢) جاء فى مجموعة «دوران» فيما يتعلق بالملايس ما يلى :

الموسيقى الذى يمتلك مبلغا زهيدا ويصنع الثمال من الحلفاء ، يجلب الأن Alosados مفضض ، ويلبس قטיפه الحرير Aforrada ، ولديه سيف لامع مفضض وخنجر مذهب ، الموسيقى الذى اعتاد أن يكون خادما لسيده ، يريد الأن أن يقوم السادة على خدمته ، أنهم عبيد يمسون متفطرسين فى مجموعات من اربعة ، يرون بالشوارع ينظرون فى تल्प ، الخادم الوقح الذى لم يتمكن فى الماضى حتى من لبس القماش ؛ لفقره الشديد ، يمشى الآن Contino شقيا .

Duran 2 P. 190 - 191.

(٣) يواصل قائلا فى نفس ص ١٩١ :

الموسيكية صاحبة الدكان الصغير التى تعودت غسل الاطباق ، تقتنى اقلالا من فضة وأحذية مزخرفة وثوبا عظيما من الحرير وعقودا غالية الثمن وسلسلة عظيمة من الذهب وخلاخيل مطلية . انهن لا يخرجن الا مع أسلحه ، وفى اكثر الامسيات تظهرن مزينات ، انهن نساء لرجال من القادة ، وهناك زخارف فى منازلهن مع عبيد وإماء . إن مقعدها من استبرق فائق الغلو والاعراس والاعياد تتم فى مبالغات ويحتفلن بها مع غناء كله كلام رشيق .

(٤) يستمر فى ص ١٩١ نفسها قائلا :

لقد كانت لفخامتهم عالية ، ومنظرهم فوق المتوقع ، بينهم لا يتميز الشريف والفارس ، أن منزلتهم عالية فى اسبانيا ، وكل يحترف حرفة ذات دخل كبير ، بينهم دكاترة كثيرون ، وكتاب ونواب فى كل دورة ، وفيهم ادهاء غاية فى المهارة ، والتجارة والعقود فى ايديهم ، والسلطة والدكاكين المحتكرة لهم رئسهم يمشى بالسوق مختالا خطيرا كأنه أحد القادة ، يذهبون الى الكنيسة بالقوة ، ينادونهم من قائمة ، فيظهرون مرتدين الذهب والحرير والأقمشة الموشاة ليس للولاء ، ولكن لأن الكل ينظر اليهم .

الاغنية الشعبية يوجد استداراك فى هذه القضية ، ووفقاً له فان من خرجوا من اشبيلية كانوا ٣٠ الف مورسكى بينهم ٥٠٢٤ من «الخارافى» وحدها^(١) . وقد سمع بكاء ونواح كثيرات من سيدات هذا الشعب ، ويبدو أنهم شعرن بالتأثر ، لحملهن على ترك مجاورة سكان منطقة الكنيسة وترك العبادات والطقوس المسيحية ، وتوسلن بحق عذراوات «بيلين» وعذراوات «روساريو»^(٢) وقد اعلن المنفيون على الملأ بعض الاعمال التى تدل على الاخلاص ، بما فى ذلك ترك أربعة آلاف دوقة قرى لعذراء «انيستا» عند مغادرتهم^(٣) .

أما «جاسير دى اجيلار» فيقدم لوحة لخروج المورسكيين الاندلسيين من اشبيلية ، فى قصيدة له ، لها قيمة جمالية إلى حد ما ، فيها ترى سهل «بتلادا» مغطى بجموع حزينة عصبية مستعدة للرحيل ، وهناك أرملة شابة ومعها أبنائها الثلاثة تعبر عن أسفها وإشفاقها^(٤) بينما المورسكيون

(١) فى نفس المكان يقول :

خرج من مكان فى اشبيلية ، سيدة النبل ، ثلاثين الف او اكثر معا ، ما بين رجال ونساء وشباب أعصارهم مختلفة ، وبينهم الفنى والفقير ، وجاء من «الخارافى» خمسة آلاف وأربع عشرين غير آخرين يصلون الى رقم مماثل تقديراً .

(٢) يواصل فى الموضوع نفسه فيقول :

النساء المورسكيات ، تلبض وتبسط أباذيها البيضاء ، وترفع هيونها الى السماء ، تملن باكيات فى أصوات عاليات ، أه اشبيلية وطنى ، أه كنيسة القديس «بابلو» ، والقديس «أندرس» والقديسة «مارينا» والقديس «خوليان» والقديس «ماركوس» ، وأخريات تهكين فى المواطن التى شهدت معاملتهن وحياتهن .

ويقول فى الصفحة نفسها ايضا :

إن هناك نسوة أخريات ترفعن الصوت قائلات : عذراء «روساريو» عذراء «بيلين» إن كليهما حامية لنا .

(٣) يقول ايضا :

ترك كثير من المورسكيين وصاياها طيبة لصالح المعاهد الشهيرة قبل أن يرحلوا ، كان بينهم نهار حينوا «سان خوليانا» ، وآخرون تركوا للعذراء «انيستا» أربعة آلاف دوكدوس .

(٤) يقول «جاسير دى اجيلار» ص ١٧٤

فى الجانب الآخر من «بيتيس» ، ترى الساحة الواسعة «فى تاهالدا» مغطاه ، هناك مسلمون ومسلنات فى ميناء «قادس» ، ينتظرون المراكب ، بينهم من تهكى زوجها الميت ، وهناك تقلب مورسكية أخرى فى داخل مركبة جيدة فخمة ، عندها ثلاثة أولاد فيهم رشاقة وجمال ، أكبرهم طفل صغير لا يكاد يمشى ، يتعب لأنه صغير ، ومن لحظة لأخرى تمحى الام حنانها ، والأفطس اللطيف يتعب ايضا ، ويظهر أن الثالث قد تعب من الطريق ، والأم تنادى فى مودة : ليؤخذ الثلاثة فى مركب ولتمض .

الاغنياء والاقوياء المتجمعون يسبون ويهددون بأصوات فيها نغمة الانتقام ، وهم يأملون أن يعودوا إلى اسبانيا (١) ، وبهذا يتسببون فى قلق مؤكد .
وفى مقابلة الصورة الحزينة التى يقدمها لنا الفقيه العجوز المشلول الذى لا بد من حمله على كرسى (٢) ، فاننا نرى صوره أخرى جيدة تنعكس الأوضاع من خلالها : مورسكيتان ، احدهما عجوز ، والأخرى شابه جميلة ، وصلتا إلى الميناء فى مركبته فخمة ترافقهما الموسيقى والرقص (٣) لكننا لا نكاد نشعر بهذه المناظر حتى نفقدها فى الاعداد الهائلة من رجال ونساء يهتمون فقط بالمحافظة على صرر الملابس وأدوات العمل التى يمكنهم بها استئناق حياتهم فى الشمال الافريقى (٤) .

نفس الشاعر «جاسبر دى اجيلار» يعكس لنا التفاؤل الظاهرى المرحب بطرد المورسكيين من بلنسية ، فى قصيدة مشهورة يذكرها كل المؤلفين ،

(١) يقول «جاسبر دى اجيلار ص ١٧٥

انظر ايضا فى الناحية المقابلة ، ترى جماعة من المورسكيين الشجعان البواسل ، انهم يمضون فى تؤده وملابسهم مليئة بالزئيات ، أنهم داخل عربات ، وآخرون فى مؤخرة السفينة ينتظرون حظهم ويقولون مع تهديد ووعيد : اذا كانت عناية السماء معنا ، فلا بد أن نعود لاسبانيا .

(٢) يقول نفس الشاعر فى نفس الصفحة :

انظر الى الهواية المشهورة ، باشبيلية الرملية ، ترى أناسا يغطيهم العرق والتراب ، هناك مسلم عجوز على كرسى ، الامل فيه مفقود تماما ، إن حمله معجزة ، وقد علق على جبهته ووجهه ورقة كتب فيها : «إن فقيه القرآن ملعون» .

(٣) يقول نفس الشاعر فى نفس الصفحة :

هناك ترى مورسكيات على كراسى وترى مركبة جيدة فخمة ، تحمل مورسكية عجوز وأخرى شابه . يتبع هؤلاء أناس كثيرون ، يرقصون ويغنون ويستخدمون الموسيقى ، يأتى بعدهم أناس كثيرون مسرورون سعداء ، لأن نور الأندلس السعيد ، يهجر إلى بلاد الشمال الافريقى

(٤) يقول نفس الشاعر فى الصفحة نفسها :

إن الكل يضى فرحا سعيدا فى محاولة للبرهنة على مشاعرهم المجيدة البعض يحمل سلاا كبيرة ، والبعض يحمل أخرى صغيرة ، محمى الزاد الضرورى جدا كل فقير يحمل اسفاطا وادوات ميكانيكية وأجهزة متواضعة ، يحتاجها لممارسة الحرفة التى يعرفها ، فأمله أن يتمكن من العيش فى أى مكان يريد .

وبرى الشاعر نفسه فى نفس القصيدة خروج المورسكيين الاندلسيين من ص ١٧٠ الى ص ١٨١ ويخصص بعض الأبيات لخروج المورسكيين الأراجون .

انظر

تقول : سادة المسلمين وحدهم ، هم الذين جاؤا لأفناء دولتهم ، انهم يقيمون فى قطع مقسمة من الأرض ، بسلطة الفقراء جاؤا ، والمملكة لم تفقد شيئا فى النهاية ، لقد بقوا الآن لأن كل شئ قد تغير ، الفقراء أصبحوا أغنياء والاعنياء فقراء ، والفتيان أصبحوا كباراً والكبار فتيانا .

وهناك انشودة أخرى «جاسبر دى اجيلار» ايضا ، تعالج عدم سعادة المسلمين بسبب ما تعرضوا له من طرد ، وتتحدث عن التعميم اللامتناهى الذى سيعم كل اسبانيا نتيجة لطردهم .

وقد ترك لنا «أثنار كاردونا» صورة عن مغادرة المورسكيين للقرى الأراجونية التى يعرفها أفضل ، هذه القصيدة قوية وغنية بالعواطف الجياشة (١) .

وليست هذه هى القصائد الوحيدة التى تعبر عن القضية المورسكية بعبارات مشابهة ، انها لكثيرة تلك القصائد الأخرى ، بعضها حافل بالمعانى وبعضها ليس كذلك ، وكلها يثنى على فيليب الثالث باعتباره بطل المأثرة الكبرى : طرد المورسكيين (٢) ونحن نعرف أن بعض المورسكيين قد عادوا إلى اسبانيا فرادى أو فى صورة مجموعات ، وهذا أحد الموضوعات الشهيرة التى حظيت باهتمام الادب الاسبانى .

كتب «كاهبررا دى قرطبة يقول : لقد بدأ كثير من المورسكيين يعودون بعد الطرد إلى الاماكن التى نفوا منها ، وقد ذهب وفد من المسيحيين إلى الكونت سالازار ، ليعاقبهم على ذلك وليطلب من القضاة والمستولين عدم السماح لهم بالبقاء ، وقد ذهب وفد إلى عدد من القرى الصغيرة فى نفس

(1) Aznar cardona : expulsion... Fols. 5 y 6

ويمكن مقارنة وصف هذا المؤلف للخروج بوصف جاسبر دى اجيلار لنفس الموضوع والخاص بخروج المورسكيين البنسنيين ، وهو يمدح روح الفداء والنهل البنسنى بصفة عامة ، وقد مر وصفه هذا فى ص من هذا البحث .

(٢) انظر مثلا المؤلفات اللاتينية الموجودة فى آخر كتاب «جاسبر دى اجيلار» من ص ٣٠٩ - ٢٣٢ ، أو العلاقات المورسكية بالهف Bauer من ١٨٠ - ١٨٢ وانظر

J.C. Baroja : los Moriscos ... P. 234, Note 128

حيث يشير الى كتب ونصوص عديدة قدح فيليب الثالث لقراره الخاص بطرد المورسكيين .

المنطقة ، فوجد بها اكثر من ٨٠٠ مورسكى ممن عادوا ، فأرسل بعضهم إلى السجن ، وبعضهم للعمل فى مناجم الزئبق ، وذهب الباقون مرة أخرى إلى خارج المملكة وفقا لما تقرر بشأنهم ، وهكذا اتخذت الاجراءات ضدهم وحوكم الذين رجعوا حتى لا يبقى أحد منهم بهذه المملكة .

وكان من بين أسباب طرد المورسكيين من « وادى ريكوتى » أنهم استقبلوا بعض من رجع من المسلمين المنصرين^(١) ، هذا ما يشير اليه المورسكى ريكوتى صاحب الدكان والحجار والصيديق « لسانشويتزا » الذى خرج من اسبانيا بعدما صدر مرسوم الطرد الاول ويعد أن اخفى ثروته إلى أن يجد مكانا يستقر فيه بأوربا ، وهو الذى وجد مكانا مناسبيا للعيش فى المانيا ، فعاد متنكرا فى ملابس الحج ، بهدف أن يأخذ كنزه ويحمله إلى ابنته ، بطله الفصل الأخير من ريكوتى ، وهو من اكثر الفصول تعقيدا ، وقد مرت الإشارة إلى كل ذلك .

وليس مصادفة أن يجعل « ثيرفنتس » اسم ريكوتى علما على فصل مهم فى « كيوخوتى » ، إنه يعكس وقع الطرد النهائي لدى الرأى العام ، وقد شغل جميع من علقوا على « ثيرفنتس » نهذه القضية ، وأخيرا قال « ماركيزدى بيانوبيا » إن المورسكيين فى « ريكوتى » كانوا رهائن جدال بين الأصوليين والمعتدلين ، وقد أنتهى الأمر بانتصار الفريق الاول بصورة حاسمة وتأكدت سيطرة المقاييس الانغلاقيه فى السياسة الاسبانية ، وقد تحول اسم هذه البلدة بفضل « ثيرفنتس » إلى اسم يشير لأمر قاطع هو أن المورسكى المنتسب إلى لامنشا ، هو بدورة نموذج لشخصية بريئة ، وقد أراد ثيرفنتس لشخصيته النبيلة أن تكون ذكرى حية لآخر فصول هذا الطرد واكثرها بعثا للأسى ، والتي رأها تمدح من حوله كما لو كانت مأثرة مجيدة^(٢) .

(1) Cabrera de cordoba : relaciones... P. 522, 29 Junio 1613.

J.C. Baroja : los moriscos... P. 237 Note 1

(2) F. Marquez villanueva : personaje y temas del quijote

وفى الصفحتين ٢٣٢ ، ٢٣٣

تعريف كامل بذكر « ثيرفنتس » فيما يتعلق بموضوع المورسكيين وما عرض له من تفسير وانظر :

A. Dominguez : Historia... P. 200.

إن الحوار بين «ريكوتى وسانشو» حوار معبر من عدة جوانب يبرز من بينها ما يلى : -

١- إنه يشير إلى ان عودة المورسكيين كانت أمراً عاماً بينهم جميعاً ، يقول «ريكوتى» إن رغبتنا الأكيدة أن نعود جميعاً إلى اسبانيا ، فمعظم هؤلاء والكثيرون ممن يعرفون اللغة كما أعرف ، يعودون إليها ، ويتركون هناك نساءهم وأبنائهم بدون حماية .

٢- يبدو أن المانيا هي البلد الذى عاشوا فيه متمتعين بحرية أكثر .

٣ - يفهم من الحوار أن المورسكيين كانوا درجات فيما يتعلق بمدى قبولهم للعقيدة الكاثوليكية ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء ، فريكوتى متردد ، وزوجته وابنته كلتاها مسيحية ، وصهره مسلم مرهف .

٤ - يشير إلى بعض العلاقات المتميزة بين المورسكيات الشابات الجميلات ، وبين الشبان المسيحيين ، بما فى ذلك ابناء النبلاء الشئ الذى يوحى انه كانت هناك لقاءات متفرقة بل وحتى زيجات حب .

كذلك فإن شهرة الثروات التى تركها المورسكيون مخفية فى بعض الأماكن ، أتاح الفرص لبعض الحكايات الروائية ، منها واحدة تقليدية موجودة فى رواية «عمل الخير لا يضيع» ، وهى الرواية السادسة من الروايات التى جمعها السيد «الونسو دى كاسيتو سولور زانو» تحت عنوان «المتعة» وفيها يظهر مورسكى من بلنسية يتكلم اللغة البلنسية - وليست العربية - وقد ساعد فارساً أسيراً من الجزائر ، فأرشد هذا الفارس الأسير ذلك المورسكى إلى المكان الذى كان عمه قد أخفى فيه ١٦ الف «اسكودوس» معدنية أنتظاراً لثورة أو تمرد يقوم بها بنو جنسه (١)

وقد وصف المورسكى «ميتى» حياة أسرته بهذه العبارات :

أجدادى الذين بقوا بعد فتح الملك «خامى الاول» لبلنسية ، كانوا يقيمون فى مكان بهذه المملكة يدعى «بينال جواثيل» ، وكانوا فى اسبانيا يدعون بالمورسكيين ، وهناك زرعنا - بعناية - أرضنا الموروثة والموجودة

(1) Alonso de castillo solorzano : Novelas de placer P. 252 - 260

بين المسيحيين ، وكانت لنا حكومتنا التي ما عرفنا الحاجة اليها ، ازاء الرضاء الذي حققناه لسادة الاماكن الذين نخضع لهم ، والذين قدمنا لهم مساعدات جدّ وفيرة (١) .

وبين من هاجروا إلى الجزائر مجموعة حافظت على عقيدتها المسيحية ، فقد كان يعيش في مدن هذا البلد ؛ وفي المدن الافريقية الأخرى ، مجموعة تتكلم «الاحميادو» وتحافظ على اللغة حتى زمن متأخر ، وهناك أسماء يذكرها بكثرة المشتغلون بالادب المورسكى مثل خوان الفونسو وابراهيم دى بولفاد ومحمد الجوازير (الوزير) ، وقد كتب «خوان الفونسو» - وكان يقيم في مدينة تطوان ، احد مراكز تجمع المورسكيين - بعض الموشحات أو الأغاني الشعبية ضد الدولة الاسبانية نذكر من بينها :

«الجسم الاسباني اللعين المنتن إنه ذو رعوس ثلاثة على باب جهنم (٢) وقد الف الاب «دياجو دى هايدو» كتابا ممتاراً عن «طبوغرافية وتاريخ الجزائر العام» ذكر فيه بعض الحقائق اعتمادا على بعض القصائد الشعبية ، يقول :

إن من بين مجموعات المورسكيين ، تلك المجموعة التي كانت تعيش في ممالك غرناطة وأراجون وبلنسية وقطالونيا ، ثم توجهوا من هذه البلاد مع نساتهم وأبنائهم إلى فرنسا ، فتلقاهم الفرنسيون بالترحاب ، وقد ركبوا البحر من «مرسيليا» ومدن فرنسية أخرى ، وانقسم هؤلاء إلى مجموعتين - حسب الاماكن التي جاوا منها - ، وكان يطلق على بعضهم كلمة «مودخر» وهم الذين قدموا من غرناطة والاندلس ، والآخرون كانوا يسمون «تاجارينوس» يعنى مسلمون اقاموا في بلاد النصادى من هؤلاء الذين وفدوا من اراجوان وبلنسية وقطالونيا ، كان هؤلاء بيض اللون ، واستعدادهم جيد ، مثل كل من ولدوا في اسبانيا أو أتوا منها ، وهم

(١) المرجع السابق ، التعليق رقم ٤ ص ٢٣٨ .

(2) Saavdra : P. 170.

وهناك مرجز عن الشعر المورسكى من عمل

Donadolfo de Castro : biblioteca de academia espanola, XLII, PP. XIII - XVI
J.C. Baroja : los moriscos... P. 240, Nota 6

كثيرون ويعملون فى مهن مختلفة لأنهم جميعا يجيدون حرفة أو أكثر ،
فبينهم من يصنع البنادق ، وبعضهم يصنع أوان ، وبعضهم يعد الملح ،
وبعضهم يعمل حدادا أو نجارا أو بناء أو ترزيا أو سباكا ، وبينهم من يصنع
القدور أو يبيعها ، بالإضافة إلى مهن أخرى ، وكثير منهم يعملون فى
زراعة وتصنيع وتسويق الحرير ، وعند بعضهم محلات تباع فيها كل اصناف
التجارة .

وكلهم بصفة عامة من أكثر الناس عدا و بغضا للمسيحيين ، فهم
مانقطع ظموهم ، ولا جوعهم الشديد ضد الدين المسيحى ، وهم يلبسون كما
يلبس الاتراك عامة ... والأن يوجد فى الجزائر حوالى الف منزل من هؤلاء ،
وقد ذكر «كانوفاس» هذا النص لمؤلف الكتاب وأيده بقصائد ذات طابع
شعبى مثل :

مورسكى من قشباله خدعتى - وانه لمجرم كافر ضال
يقيم فى جبل صفير - على يعد رسخ من الجزائر
وقد عاد بعض من هاجروا لاقريقية الى الاسلام ، واعلنوا ذلك بوضوح
حتى قبل مغادرتهم اسبانيا ، وكانوا يتزوجون ثلاثة أو اربعة نساء ، وقد
تنكروا وتصنعوا حتى لا يتمكن أحد من الإختيار عنهم ... (١) ، وبعض من
طردوا عملوا فيما يسميه الاورييون قرصنة وهو فى حقيقة أمره جهاد ضد
أعداء الله الذين جرموا المواطن المسلم من أبسط حقوقه (٢) ، وقد ذهب
بعضهم الى القسطنطينية وسالونيك وبعضهم الى موان أخرى فى الشرق

(١) انظر : Diego de Haedo : topographia e Historia general de Argel, Fol. 9

Canovas (Antonio) ; la Contestacion del discurso de saavadra : memorias de la real
academia espanala VII, Madrid 1889, PP. 193 - 236.

- Salzas de Mendoza, pedro : origen de las dignidades ... Fol. 184 r.

- J.C. Baroja : los moriscos ... P. 239 Nota 5.

(٢) عن جهود هؤلاء انظر :

los relaciones o "pliego de cordel" de la tercera decada del siglo XVII

المنشورة فى مالقة ، واليها تشير ايضا مطبوعات أخرى فى الجنوب .

انظر كذلك :

Andres sanchez perez : los moriscos de Hornachos, corsarios de sale, Badajoz., 1964.

وانظر بعض التفصيلات عند

J.C. Baroja : obra citada, P. 241, Nota 11.

الادنى كما مرّ ذكره ، وورد لهم ذكر فى بعض الاعمال الادبية .
يقول «جونثالث بالنثيا» فى «ثيرفنتس والمورسكيون» ص ١١٦ -
: ١٢ .

لكى نبين الدور الذى قام به «ريكوتى» ، نقتبس الرسالة التى بعث
بها أحد مواليد وادى مدريد واسمه «أنطونيو دى أوكانيا» ، وهو من
المورسكيين الذين نفوا من اسبانيا وتوجهوا الى الجزائر ، وقد بعث بهذه
الرسالة من منفاه فى الجزائر إلى صديقه فى الوادى المذكور ، ولفت فيها
نظره الى الاحوال هناك عنده ، وفيها يروى سلسلة من المغامرات غير
العادية التى قام بها مورسكيون بعينهم ، وصلوا الى القسطنطينية ثم
تركوها عائدين الى اسبانيا ، بهدف كنوز كانت مدفونه هناك منذ الطرد ،
ثم عادوا وماتوا فى القسطنطينية بعد الرحلة الثانية ، بسبب ما نالهم من
تعذيب لكونهم مسيحيين (١) كما يزعم

ومعروف ايضا أن العمارة وأسلوب المباني الاسلامية قد تركت تأثيرها
على المدن فى جنوب اسبانيا ، وكانت الشرفة (النافذة) واحدة من العناصر
المهمة عند الابداء ، ففى الاعمال الرومانسية والاغاني الشعبية ذات الطابع
الروائى ، اشارة الى أن الشرفات كانت مصدر الهام بشكل عادى جدا ،
فمنها تأملت السيدات مآثر الفرسان فى المبارزات والبطولات (٢) وفيها
جرت المناقشات العاصفة بين المحبين (٣) ، وهناك اجتر العاشق مأسيه

(١) يمكن قراءة هذه الحكاية كاملة فى مجموعة Baues

Papeles de mi archivo, Relaciones de Africa (Argel) IV, PP. 31 - 38 .

ونظر ايضا «اثنار كاردونا» حيث يشير الى بعض الاعنيات الشعبية التى لها صلة بهذا الحدث
المصطنع انظر : 7r.Fol

J.C Baroja : los mariscos... P.241 Notas 14 y 15.

(٢) نقرأ فى القصيدة او الاغنية الخامسة عشرة للمسلم «جاذول»

الف سيدة مسلمة تنظرن من الشرفات والنوافذ

uran I, P. 20 (Num 43)D

وفى ظروف مشابهة قال المسلم موسى فى بطولة «جلفيز» (الاغنية الثالثة من مسلسلته) ... فى كل
شرفه الف امرأة معشوقة

(٣) زيدى المسلم يعتب على حبيبته على خيانتها له بهذه الكلمات (القصيدة ٣ من مجموعته) :
«ألسنت أنت التى قلت فى الشرفة ذات مساء ، أنت انا ، أنالك وساكون لك وحياتى لك يازيدى» ؟
ونقرأ بيتا آخر فى نفس القصيدة يقول : خرجت «ثيلندا» الى الشرفة وفى الأغنية الرابعة من
مسلسله زيدى ، يقول «اربولان» فى المقطع الأول : انظر الى شرفة «جوهالا»

Duran I. P 26 (Num 53 y 54 y P. 83 (Num 160)

وتحدث عن بطولاته وحماسه (١) . كما اجتر الملك صعوبات وزارته (٢) .
بعض هذه الشرفات ، كما تعودنا أن نراها فى الصورة المصغرة ، تبدو
معلقة على قمة جبل يمثل شكل هرم ، وقد تكون مزخرفة فى بعض الاحيان
، وهذا مانراه فى الاغنية الثالثة للمسلم « طرفى » (٣) . واهيانا يحل
الشباك الحديد محل الشرفة (٤) ، وهذا الشباك الحديدى يقع فى أعلى البرج
(٥) ويدهن باللون الازرق (٦) ومن هناك تصدر - اشارات المحبة بين
المحبين (٧) .

الابراج ، والشرفات ، والشبابيك الحديدية ، ورءوس الأبراج على
شكل الهرم والحدايق الصغيرة المحاطة بأسوار قديمة والتي لانرى فى داخلها
شيئا تقريبا ، اللهم الا بعض النخيل يبدو بارزا ، حسبما يظهر فى القصيدة
الأولى لابن امية (٨) .

العمارة الرئيسية الغرناطية فى القرن السابع عشر على الاقل ، لم
تستغن عن هذه العناصر ، ولا عن الاسقف المصنوعة من القرميد ، ولا عن
انواع معينة من الطوب المحروق . يكفى أن تمر بغرناطة وغوطتها ويقليل من
التأمل تجد أن هذا ملحوظ بها بشكل ثابت .

(١) كان «ازاركى» فى شرفة بمنزله يفتخر ببطولاته (الاغنية الثالثة من سلسلة)

Duran I, P. 10 (num 24)

(٢) جاء فى الاغنية الثانية ل «ثيلين» لقد ذهب الملك الى شرفته

I, P. 61 (Num 116)

(٣) انظر : Leopoldo torres Balbas : Miniatura Hispano - Musulmanas, P.196 - 202.

(٤) فى شرفة برأس البرج ، هى أعلى ما فى البرج (Duran I, P. 53 (Num)

(٥) يبدو ابو عبد الله فى القصيدة الثانية من مسلسله «فى شباك البرج»

1,P. 56 (Num 111)

(٦) نقرأ فى الاغنية الثانية ل «أودايا» ضع فى شبابيك البرج الزرقاء I, P. 65 (Num 127)

(٧) يتوجه «زيدى» فى المجموعة التاسعة من مسلسله الى محبته بهذه الكلمات .

للاعجاب الذى تستقبلين به عندما تدورين حول منزلك ، اذا كنا نهارا تخرجين للنواقد ترا . واذا كنا

ليلا ، اجدك فى الشرفات أو الشبابيك (Duran I, P. (Num 59)

(٨) انظر الى البيازين ، حيث تعيش سيدتك ، الابراج المزخرفة والأسوار القديمة من خلال ما فيها من

حديقة ترى هناك نخلة مفروسة . وهناك حديقة فى الاغنية الثانية ل «مانيلرو»

Duran I, P. 49 (Num 99) وانظر فى كل ذلك

J.C Baraja · los moriscos PP 252, 253 وما بها من تعليقات

هذه لمحة سريعة أوضحت أن القضية المورسكية احتلت مكانا بارزا فى انتاج الأدباء فتحدث بعضهم عن مكانة المورسكيين فى المجتمع ، وعن موقف الرأى العام منهم ، وبين ما تخصصوا فيه من حرف ومهن ، واستهزأ بهم وسخر منهم أحيانا . وعندما تقرر طردهم ، لم يفت الادب أن يقدم لنا لوحة فنية كاملة الوضوح عن خروجهم ، ومناظر جموعهم وأماكن تجمعاتهم ، وشرح لنا عوائدهم وأخلاقهم وطباعهم سواء فى مواطنهم الجديدة أو عندما كانوا فى اسبانيا ، كما بين تأثير خروجهم على اوضاع تلك البلاد الاسبانية .

وهكذا نرى أن يمكن الاستعانة بالانتاج الادبى على تقديم فكرة جيدة عن هذا القطاع الهام من المجتمع الاسبانى المسلم ، الذى أريد له أن يكون نصرانيا بالقوة الغاشمة ، فإن لم يستجب فالويل والنضال والتعذيب ومآسى محاكم التفتيش . إنها تضيق الخناق عليه وتقتات على حسابه ، وتراقب حركاته وسكناته ، ولا تتركه الا بعد اعتصاره ليصبح جثة هامدة . ثم كانت مأساة المآسى ، حين قضى عليه المتعصبون وضيقوا الأفق ، بمغادرة موطنه ومفارقة أهله وذريته وتبديد ماله ، ومانظن أن شعباً بأكمله ، تعرض لما تعرضت له هذه الأمة ، أو ناله مانال هذا الشعب الأبى فى جملته الصبور المجاهد فى سبيل دينه وأمته .

إن دراسة انتاج المورسكيين ، وما كتب بشأنهم فى مختلف اللوان الأدبية الاسبانية ينبغى أن تفرد له دراسة خاصة . والحمد لله فى الأولى والآخرة .

كلمة اعترار

كان من المقرر أن يتم إعداد فهرس كاملة لهذا الكتاب تتضمن الاعلام والأماكن التي ورد ذكرها فيه ، مع كتابتها بالحروف العربية وكتابة مقابلها بالحروف اللاتينية .

ونظراً لاعتبارات فنية تتعلق بصعوبة طبع هذا النوع من الفهارس ، ولضيق الوقت ، فإننا نعتذر عن القيام بذلك الآن ونأمل أن نتمكن من تقديمه فى الطبعة القادمة .

وإلى أن يتم ذلك فإننا نحيل مؤقتاً على كتاب الاستاذ «محمد عبد الله عنان» تحت عنوان :

«الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية باللغتين الإسبانية والعربية ،

مرتبة على حروف المعجم» ، صدر فى مدريد سنة ١٩٧٦ م

وفيما يتعلق بالأماكن نحيل على كتاب الأستاذ

> لويس سيكودى لوثينا « Luis seco de lucena

وعنوانه : «غرناطة زمن بنى نصر فى القرن الخامس عشر الميلادى»

la granada Nazari del siglo XV

كذلك نرجو مراجعة الخرائط المثبتة آخر هذا البحث .

عبد الله جمال الدين

المصادر والمراجع

رأينا إثبات المصادر والمراجع التي أفادت وتفيد في دراسة موضوع الكتاب مرتبة حسب ألقاب المؤلفين مع عدم مراعاة الاضافات مثل ابن ، ابو ، اداه والتعريف ... الخ

أولا : المراجع العربية

- ابن إياس : ابو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الناصري
(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور المعروف بتاريخ مصر طبع بولاق - القاهرة سنة ١٣١١هـ فى ثلاثة مجلدات
الباجى : أبو عبد الله الباجى المسعودى
(٢) الخلاصة النقية فى أمراء أفريقية طبع تونس
بشتاوى : عادل سعيد
(٣) الأندلسيون المواركة ، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، القاهرة ١٩٨٣ م
بوجندار : محمد
(٤) مقدمه الفتح عن تاريخ رباط الفتح ، الرباط ١٣٤٥هـ أنظر «ابن عبد الرفيح»
التميمي : عبد الجليل
(٥) أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول . مقال بالمجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد السادس يوليو ١٩٧٦
(٦) دين وهوية المورسكيين الأندلسيين ومصادر وثائقهم تعريف بالمؤتمر الذى انعقد تحت هذا العنوان بتونس سنة ١٩٨٣ ، اعداد عبد الجليل التميمي ، نشر فى المجلة التاريخية المغربية ، السنة الحادية عشرة ، العددان الثانى والثلاثين والثالث والثلاثين ، يونيو ١٩٨٤م
جمال الدين : عبد الله محمد
(٧) المورسكيون أو المدجنون ، آخر المسلمين فى الأندلس . مقال

مترجم - مع مقدمة وتعليقات - عن اللغة الاسبانية تأليف رينيهولد كونتزي ، الأستاذ بجامعة تويتجن بالمانيا الغربية ، منشور في حولية كلية دار العلوم العدد الثامن ١٩٧٧ / ١٩٧٨ ، مطبعة جامعہ القاهرة سنة ١٩٨٠م

الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم
(٨) صفة جزيرة الأندلس ، منخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، نشر وتعليق وتصحيح ١ . لافى بروفنسال في مجلدين يضم الأول منهما النص العربى ويضم الثانى ترجمة فرنسية ، القاهرة ١٩٣٧م
ابن أبى دنيار : أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى
(٩) المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس . الطبعة الثالثة تونس

١٩٦٧م
داوود : محمد
(١٠) مختصر تاريخ تطوان
السقا : مصطفى أنظر : المقرئ
السلامى : ابو العباس أحمد بن خالد الناصرى
(١١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٠ أجزاء الدار البيضاء

سنة ١٩٥٤م
الشناوى : محمد عبد العزيز
(١٢) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها أجزاء ، القاهرة

سنة ١٩٨٦م
عباس احسان : أنظر : المقرئ
ابن عبد الرفيع : محيد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى
الجعفرى الأندلسى

(١٣) الأنوار النبوية فى آباء خير البرية ، مخطوط بالمكتبة الكتانية بالرباط ، وقد نقل محمد بوجندار الفصل الخاص بالمورسكيين الأندلسيين المهاجرين ونشره فى كتابه : مقدمه الفتح عن تاريخ رباط الفتح ، الرباط

١٣٤٥هـ وأنظر «بوجدان»

عبد القادر : نور الدين

(١٤) نشر كتاب غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٣٥٣ هـ -

١٩٣٤ م

عنان : محمد عبد الله

(١٥) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة الطبعة

الرابعة ١٩٨٧م

(١٦) أندلسيات ، وهو الكتاب العشرون من سلسلة كتاب العربي

التي تصدر عن دولة الكويت يوليو ١٩٨٨م

قشتيليو : محمد

(١٧) محنة الموريسكوس في اسبانيا ، تطوان بالمغرب . ١٩٨٠

مصطفى : أحمد عبد الرحيم

(١٨) أصول التاريخ العثماني ، القاهرة ١٩٨٢

كونتزي : رينينهولد

أنظر : جمال الدين

المقري : شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني :

(١٩) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وتاريخ لسان الدين ابن

الخطيب .

طبع في بولاق بالقاهرة في مجلدين ، ثم أعاد «إحسان عباس» نشره

في عدة مجلدات ، بيروت ١٩٤٨م

(٢٠) أزهار الرياض في أخبار عياص

نشره مصطفى السقا وزميله ، القاهرة ١٩٣٩م

ميلر : نشر أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر لمجهول ،

جوتنجن ١٨٦٣

هوراس : انظر : اليفرنى

اليفرنى : ابو عبد الله محمد الصغير بن الحاج محمد بن عبد الله

السوسي المراكشي

(٢١) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، طبع فاس بدون تاريخ
طبعة حجرية ، وطبعة أخرى بعناية لمستشرق الفرنسي «هوداس» باريس
سنة ١٨٨٨ م
مجهول :

(٢٢) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ، نشر بعناية الأستاذ
ميللر ، جو تنجن ١٨٦٣ ، وهو نفسه
نبذه العصر في أخبار ملوك بني نصر - نشر بعناية معهد فرانكو ،
العرائس ١٩٤٠
مجهول :

كتاب غزوات عروج وخير الدين نشر بعناية نور الدين عبد القادر ،
الجزائر ١٩٣٤

ثانيا : المراجع الأوربية

تثبت هنا أهم المراجع الأوربية لدراسة الموضوع مرتبة أبجديا .

Aguilar Gaspar :

(1) Expulsion de los Moriscos de Espana Valencia , Espana 1610

Anderson :

(2) Naval wars en the levant , leverpool 1953

Andrew C. Hess :

(3) the moriscos : An ottoman Fifth column inXVI century spain

مقال منشور في

the american historical Review L XXX IV

Arco (Ricardo del)

(4) La sociedad Espanola en las dramaticas obras de lope de Vega , Madrid 1942 .

Asenso . E

(5) Estudios de historia moderna , IV
Barcelona , Espana 1954 .

Asso (ignacio de)

(6) Historia de la economia politica de Aragon .
Zaragoza , Espana 1947 .

Astrain (cabculo)

(7)noticias y doumentos sobre moriscos Aragoneses .
Miscelanea de estudios Arabes y Hebricos Granada , V , 1956

Aznar cardona : pedro

(8) Expulsion justificada de los moriscos Espanoles ... Huesca
1612 .

Babana : juan . B .

(9) Itenerario de Reyno de Aragon a donde andou os ultimos me-
ses de anno de 1610os primeiro de 1611 , Zaragoza Espana 1895 .

Bannasar (B) :

(10) Valladolid au siecle d, or , paris 1967.

Bauer (Ignacio Landauer) :

(11) Papeles de mi archivo , relaciones y manuscritos (Moriscos)
Madrid S.F (sin fecha)

Benitez (Rafael sancho Blanco) :

(12) guerra y sociedad, Malaga y los ninos moriscos cautivos .
Studis , vol . III ano 1974 . PP 31-54 .

Bleda (Jaime) :

(13) Coronica de los moros de Espana , valencia 1618.

Boronat y Barrachina (Pascual) :

(14) Los moriscos Espanoles y su expulsion , 2 vols , valencia ,
Espana 1901 .

Braudel (Fernando) :

(15) La mediterraneanee et le monde mediterraneen a l' epoque de
phelippe II paris 1949 , 1966 y 1976

Mario Montefort Toled (الاسبانيه) وقد ترجم هذا العمل الي القشتاليه

مع آخرين تحت عنوان

El mediterraneo y el mundo mediterranea en la epoca de felipe
11,2 vols , Mexico 1953 .

Buns (Miguel angel de) :

(16) Los moriscos en el pensamiento historico , Madrid 1983 .

Cabanillas Rodrigues (Darillo) :

(17) Proyecto de alianza entre los sultanes de Marruecos y Turquia
contra Felipe II

مقال منشور في مجلة

Miscelanea de Estudios Arabes y hebraicos , Granada , Espana
1957 .

(18) El morisco granadino Alonso del Granada y castillo , gra-
na, Espana 1965 .

Cabrero de cordoba (Luis) :

(19) Relaciones de las cosas sucedidas en Espana desde 1599
hasta 1614 Madred 1857 .

CaBriana (Micolas ciezar :

(20) Esclavos moriscos del sigloxvi

Al-Andalus xxII 1957.

Caranada : (Ramon) :

(21) gobernantes y gobernados en la hacienda de castilla 1536-1556 , Arbor XVIII 1951 reproducido en siete estudios de Historia de Espana , Barcelona , Espana 1969.

Cardaillac (Louis) :

(22) Morsques et chretiens , un affrement polemque 1492-1640 , paris 1977.

(23) Morisques et protestant , Al-Andalus xxxvI 1971 pp 29-63 .

Caro (Julio ... Baroja) :

(24) Los moriscos del reino de Granada Madrid Espana 1976 .

Castillo (Alvaro) :

(25) La coyuntura de la economea valenciana en el siglo xvII .
Anuario de historia economia y social II ,

Castro (Americo) :

(26) Espana en su historia , cristianos , Moros and judios . Buenosaires Argentina 1948 .

Cavarrubias (Sebastian de) :

(27) Tesoro de la lengua castellana o Eapanola Barcelona , Espana 1943 .

Cavillac (Michel) :

(28) Amparos de pobres "clasicos Castellanos" Madrid 1975 .

Celestino Lopez martinez :

(29) Mudejares y moriscos sevillanos , sevilla Espana 1953 .

Ciscar pallares (Eugenio) :

(30) Los cortes valencianos de Felipe III valencia , Espana 1973 .

(31) Prestamistas moriscos en valencia , cuadernos de historia N.5 , ano 1975 .

Cock (H) :

(32) Relaciones del viaje hecho por Felipe II en 1585 a zaragoza , Barcelona y valencia ... Madrid 1876.

Codoin :

(33) Coleccion de Documentos para la historia de Espana , Madrid 1842-1843.

Comara (Jacinto) :

(34) Estudios demograficos sobre la industria en Elche , Alicante, Espana 1958.

Chaunu (Pierre) :

(35) Minortes et conjuncture. l' expulsion des Morisques en 1609.

Revue Historique ccxxv , 1 , 1961.

(36) Sevilla et l , Atlatique

Chejne (Anwar de) :

(37) Islam and the west , the moriscos , a cultural and social history , Newyork 1983 .

Danvila y collado (Manuel) :

(38) La expulsion de los moriscos Espanoles Madrid 1889.

Davila Gonzales :

(39) Teatro eclesiastico de la Iglesia de Avila

Dominguez : (Antonio ...ortiz) :

(40) Historia de los moriscos , Vida y tragedia de una memoria , Madrid 1979 , vease : Bernard vincent .

(41) Crisis y decadencia de la Espana de los Asturias , Barcelona , Espana 1969.

(42) Felipe IV y los moriscos , Miscelanea de estudios Arabes hebraicos , N. VIII. ano , 1959 , PP. 55-65.

(43) Alteraciones andaluzas ,Madrid 1973 .

Doncel (juan arnada) :

(44) Potencial economica de la poblacion morisca en Cordoba .. boletin real academia ciencia bellas letras y nobles artes , 1972 .

Duran (Agustin) :

(45) Romancero general , 1 , 11 , Boletin ACADEMIA Espanola) X , XVI

Echegaray (Bonifacio de) :

(46) Se establecieron los moriscos en el pais vasco de Francia. ?
Bulletin Hispanique , XLVII , 1945 , PP . 92-102.

Epalza (Miguel de) :

(47) Studes surles moriscos Andalaus en Tunisie , Madrid 1974 .

(48) Moriscos y andalusies en Tunez durante el siglo XVII Al-
andalus XXXIV , 1969 .

Escolano (Gaspar) :

(49) Decadas de la insigne y coronada ciudad y reyno de valencia.
ed. por.j.B. Berales , valencia , 1878-1880 y columna 1972 .

Fernandez y Gonzalez (Francisco) :

(50) De los moriscos que permanecieron en Espana despues de la
expulsion decretada por Felipe III .

Revista de Espana XIX , XX , 1877 , 1881 .

Ferrera (orestes) :

(51) En el siglo XVI a la luz de los embajadores venecianos ,
Madrid 1952 .

Le flem :

(52) Les morisques du nord-oust de l' espagne

Fonseca (Damian) :

(53) Justa expulsion de los moriscos de Espana , Roma , 1612 .

Gallego y Burin :

(54) Los moriscòs del Reino de Granada segun el sinado de cua-
dix en 1554 , Granada , Espana 1968 , vease :

Gomir sandoval (Alonso) .

Garcia (Fray M. mirallas) :

(55) Historia calanda , valencia 1969 .

Garcia carcel (Recardo) :

(56) Los rentas de la inquisicion de valencia en el sigloXVI
Anuario de historia moderna y contemporanea . II , III , 1976

E. Garcia chico (Esteban) .

(57) Los moriscos en Tordesillas (Simancas) 1 1950. PP. 240-

García Gomez (Emilio) :

(58) España en el sudan , revista de occidente 1935 .

Garacia Martinez , S :

(59) Bandolerismo , perateria y control de moriscos en valencia durante el reinado de Felipe II . Studis , I , valència 1972 , PP 85-167 reimpression ; universidad de valencia 1977 .

Garcia rodriguez (Luis) :

vease : Lapeyre (Henri) .

Garrad (K) :

(60) La industria sidra granadina en el siglo XVI y su conexión con el levantamiento de las Alpujarras . Miscelanea de estudios Arabes y Hebraicos V , ano 1956 , PP . 73-104

(61) La inquisición y los moriscos granadinos 1528-1580 .

Bulletin Hispanique LXVII , 12 , 1965 , PP . 63-77 .

M. carrido (Atianza) :

(62) Las capitulaciones para la entrega de Granada - granada 1910.

Gayangos , pascual de :

(63) Mohammedan dynsties in spain 2 vols Delhi , India 2 ed edicion 1984 .

Gestos (jose) :

(64) Historia de los barros vidriados sevillanos sevilla 1904 .

Gonzalez Palencia , A..

(65) Un cuaderno morisco del siglo XVI y las fuentes de la comida "quien mal ande , mal acabe" de juan ruiz de alarcon BRAB XVI 1929 Y XVII 1930 .

(66) Los mozarabes de Toledo en los siglos XII Y XIII , Madrid 1930 .

Gonzalez Palencia (Angel) :

(67) Cervantes y los moriscos . Boletin de la real academia Espanola XXVII 1947- 1948 , PP. 107-122 .

Gonzalez (Tomas) :

(68) Censo de poblacion de las provincias y partidos de la corona

de castilla en el siglo XVI . Madrid 1829

Guadalajara y javier (Marcos) :

(69) Memorabe expulsion y justisimo destierro de los moriscos de Espana , pamplona 1613

Guikken (Robles F) :

(70) Leyendas moriscas sacadas de varios manuscritos existentes en las bibliotecas nacional , real y de p. Gayngos , Madrid 1885-1886.

Hamilton (Earl j .) :

(71) El florecimiento de capitalismo y otros ensayos de historia economica , Madrid 1948 .

Haperin (Tulio ...Dongui) :

(72) Unconflecto nacional : moriscos y cristianos viejos en valencia .

Cuadernos de historio de Espana , Buenos aires , XXIII , XXIV 1955 , XXV-XXVI 1957 .

(73) Recou vrements de civilisation :

Les morisques de royaume de valence au XVI siecle , annales Esc. XI , N.2 , PP. 1554-182 paris 1956 .

Harvery (I.P.)

(74) The morisco who was Muley Zaidan spanish enterpreta . Miscelanea de esludios Arabes y Hebriacos Granada , VII , 1959.

Henriquez de jorquera (Francisco) :

(75) Anales de Granada descripcion del reino y ciudad de Granada , cronica de la reconquesta 1482-1492 sucesos de los anos 1588-a 1646 , Edicion de D. Antonio Marin ocelte 2 vols , Granada 1934 .

Hitos (Francisco A.) :

(76) Martires de la Alpujarra en la rebelion de los moriscos 1568 Madrid , 1935 .

Hume :

(77) Spain , its greatness and decay cambridge 1905

Hurtado de Mendoza (Diego)

(78) Guerra de Granada . hecha por el rey de Espana . D. Felipe

Il contra los moriscos de aquel reino... boletin academia-Espanola ,
XXI , PP. 65-122.

Einiguez (almech F.) :

(79) Notas para geografia de la arquitectura mudejar en Aragon.
Boletin de la real sociedad geografica , tomo 74 , 1934.

Jamil M. Abun-nasr :

(80) A. history of the Maghrib in the Islamic period , cambridge
university 1987 .

Janer : (Florencio) :

(81) Condicion social de moriscos en Espana ; causa de su expulsion
y consecuencia que este produjo en el orden politico y economico ,
Madrid 1857 .

Jose .M

(82) Rabasco en dos aspectos de la esclavitud morisca , Malaga
1569 , Homenaje a regla I,P. 293-302.

Kamen : Henry:

(83) The spanish inquisicion , London 1965

وله ترجمة اسبانية عنوانها

La inquisicion Espanola , Madrid 1973 .

Lane poole (stanly) :

(84) The barbary corsairs .

Lapeyre (Henri) :

(85) Geographie d l' Espagne morisque , paris 1959.

Luis rodriguez Garcia

وقد ترجم هذا العمل للاسبانية
تحت عنوان

Geografia de la Espana morisca , valencia , Espana 1986 .

Latham j.D.

(86) Towards study of andalusian imigration and its place in tu-
nisian history

مقال منشور في

Les chaires de Tunisie , v , 1957 .

Lea (Henry charls) :

(87) History of the moriscos of spain . their conversion and ex-

pulsion , London 1901, Newyork 1968.

(88) History of the inquisition in spain .

وقد ترجم هذا العمل للقشتالية (الاسبانية) كل من

Angel Alcalá y jesuo Tobio

تحت عنوان

Historia de la inquisicion Espanola , 3 vols , Madrid , Espana ,1983 .

Longas (Pedro) :

(89) Vida religiosa de los moriscos , Madrid 1915 .

Llorente (juan antonio) :

(90) Historia critica de la inquisicion de Espana , Barcelona , Espana 1835 .

Marmol carvajal (Luis de) :

(91) Historia de la rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada , Madrid 1797 .

Martinez (M. Romero) :

(92) Viente incunables sevillanas que tratan de historia , sevilla , Espana 1946 .

Martinez (Juan ...Ruiz) :

(93) Inventarios de bienes moriscos en el reino de Granada , Madrid 1972 .

Martin (Ruiz) :

(94) Moveniemntos demograficos y economicos en el reino deGr-nada durante la segunda mited siglo XVI .

مقال منشور في

anuario de historia economica y social 1968 .

Matillo (tascon)

(95) Historia de las minas de Almaden , Madrid 1958 .

Martiri de angeleria ,P :

(96) Una embajada de los reys catolics a Egipto .

Melon , A :

(97) Lupercio latras y la guerra de moriscos y montaneses en Aragon a final del siglo XVI . Zaragoza , Espana 1917

Menendez Pidal (Ramon) .

(98) Orígenes del Español .

(99) Poema de Yucuf , material para su estudio , Granada , España 1952 .

Menéndez y Pelayo (Marcelino) :

(100) Historia de los Heterodoxos Españoles , Madrid 1880-1881 .

Monroe , J.T. :

(101) A curious appeal on the Ottoman Empire , Al-Andalus 1966

.Montefort (Mario ... Toledo) , véase :

Braudel .

Moret (Michele) :

(102) Aspects de la société marchande de Séville à l'aube du XVII^e siècle , Paris 1967 .

Munzón (Jerónimo) :

(103) Viaje por España y Portugal 1494-1495 , traducción de José López Toro , Madrid 1951 .

Núñez (Carmen González) :

(104) La población de Talavera de la Reina Madrid 1965 .

Oliver Asín (Jime) :

(105) El Quijote de 1604 , Madrid 1948 .

(106) Un morisco de Túnez admirador de Lope , Al-Andalus , 1 , 1933 .

Pérez de Hita (Gines) :

(107) Gurras civiles de Granada , Cuenca 1619 , 1913 .

Peropérez:

(108) Catequesis de los moriscos extremeños , revista del centro de estudios extremeños X , 1936 .

Pignon , J :

(109) Une géographie de l'Espagne morisque .

Chiers de Tunisie , 14 Tunisie 1966 , pp. 286-300 .

Pike (Ruth) :

(110) An urban minority : the moriscos sevillanos .

International Journal of middle east studies , 11 , مقال منشور في
1971 , pp: 377

Ponsot (Pierre) :

(111) Les mouisques , la culture irriguee du ble et le probleme de la decadencia Espagnole au XVII eme siecle , Melangues de casa de ve-lazquez , VII , 1971 .

Quesada : M. A. Ladero :

(112) Los Mudejares de castilla en tiempo de Isabel , Valladolid , Eapana 1969 .

Regla (Juan) :

(113) Estudios sobre los moriscos , Barcelona , Espana 1974 .

Rojas (Casanati) :

(114) Relaciones de algunos sucesos celebres , nuevos , y post-
reros de berberia y salida de los moros de Espana , Lisboa , portugal
1613 .

Saavedra (Eduardo) :

(115) Literalura aljamiada Madrid 1878 .

Discurso leído ante la real acadmia Espanola .

Salyer (Johnc) :

(116) La importancia economica de los moriscos en Espana ,
anales de economia , IX , 1949 .

Salzare de mendoza (Pedro):

(117) Origen de las dignidades seglares de castilla y Leon ...
MDCXVIII .

Sandoval (Gomir ...alonso) , Vease :Gallego y Burin .

Santiago Sabastian :

(118) La arquitectura religiosa Tetuani , archivo Espanol de arte
N. 117 , ano 1957 .

Santo (Niela Francisco) :

(119) El problema Hispano - morisca , siglo XVII , Revista de
estudios extremeños XXIX ano 1973 , pp. 5-104 .

Sauvaire (H) :

- ٥٢١ -

(120) Voyage en espagne d' un ambass aueur Marocain 1690-

1691 , traduction d l' arabe , Paris 1884 .

Serrano y sanz : (Manuel) :

(121) Nuevos datos sobre la expulsion de los moriscos andaluces. Rev. contemporanea ,XC , 1893 , pp. 113-127 .

Tapia (Jose angel ... Garrido) :

(122) Historia de la baja Alpujarra , Almeria , Espana 1966 .

Torres Balbas (Leopoldo) :

(123) Arte almohade , arte nazari y arte - mudejar

وهو المجلد الرابع من مجموعة

Ars Hispaniae , Madrid 1949 .

Tramo yeres :

(124) Instiluciones gremiales de valencia , valencia 1889 .

Villanueva (F. Marquez) :

(125) Personaje y temas del quijote .

Vincent (Bernard) :

Historia de los moriscos .. vease : Antonio Rodriguez .

(126) La expulsion des morisques du Royoume de Granada et leur repartition en castilla 1570-1571 en melanges de la casa de velazquez ,VI , Paris 1970 .

(127) Les bandist morisques en andalasia au XVI siecle :

مقال منشور فى :

Revue d' histoire moderne et contemporaine 1974 .

Vinas (Mey Carmelo) :

(128) El problema de la tierra de Eapana en los siglos XVI y XVII , Madrid 1942 .

Wagner (klaus):

(129) Un pardon desconocido de los Mudejares de sevilla y .la expulsion de 1502 .

Al- andalus Vol. XXXVI .

(130) Archivogeneral de simancas P. R. Leg. II

مصورة مع وثائق و أعمال مهمة أخرى و موجودة بمكتبة المرحوم الأستاذ محمد عبد الله عنان التى تفضل مشكورا بإهدائها الى مكتبة دار العلوم بالقاهرة .

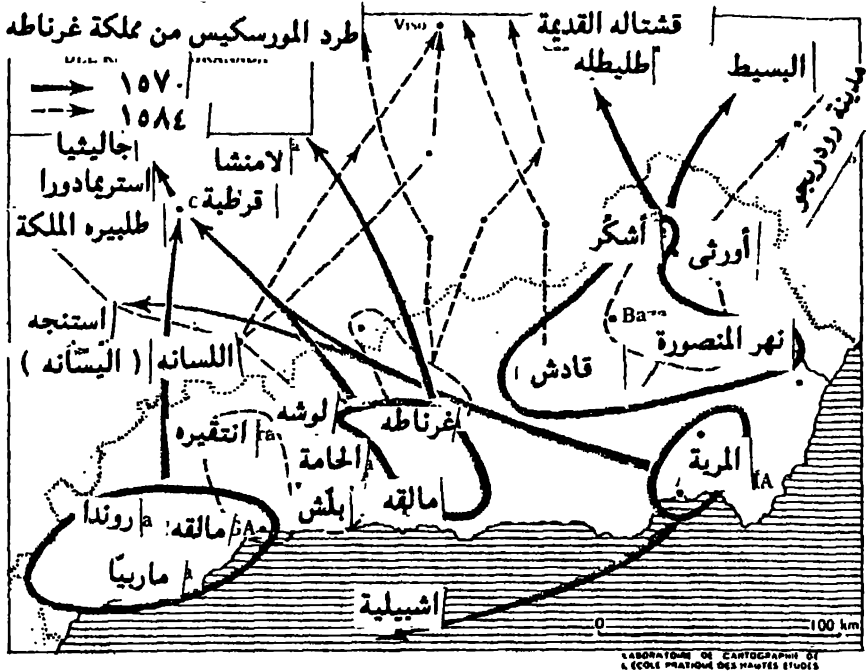
فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	
٣		مقدمة
١٩	سقوط غرناطة وموقف السلطات المسيحية من المسلمين ١٤٩٠ - ١٥٦٨ م .	الفصل الأول :
٧٩	الثورة الغرناطية ١٥٦٨ - ١٥٧٠ م .	الفصل الثاني :
١٥٥	العلاقات المتوترة بين المسلمين والمسيحيين ٥٧٠ - ١٥٩٨ م .	الفصل الثالث :
٢٠٥	نفي المورسكيين من اسبانيا ، مبشرات ذلك النفي .	الفصل الرابع :
٢٦٥	النتائج الاقتصادية لإخراج المسلمين المنصرين . ثروة ونشاطات ومهن المسلمين المنصرين .	الفصل الخامس :
٣٠٧	المورسكيون والشعائر الاجتماعية والدينية ، محاولات تبشيرهم	الفصل السادس :
٣٤٩	وجذبهم ووسائل زجرهم .	الفصل السابع :
٣٨٧	المورسكيون خارج اسبانيا .	الفصل الثامن :
٤٣٥	الوجود المورسكى فى اسبانيا بعد النفي .	الفصل التاسع :
٤٧١	المورسكيون والأنتاج الأدبى .	الفصل العاشر :
٥١٥		كلمة اعتذار :
٥١٧		المصادر والمراجع :
٥١٧		أولا : المراجع العربية :
٥٢١		ثانيا : المراجع الأوربية:
٥٣٣		فهرس الموضوعات :

وصلى الله على محمد النبى الأمى

وعلى آله وصحبه وسلم

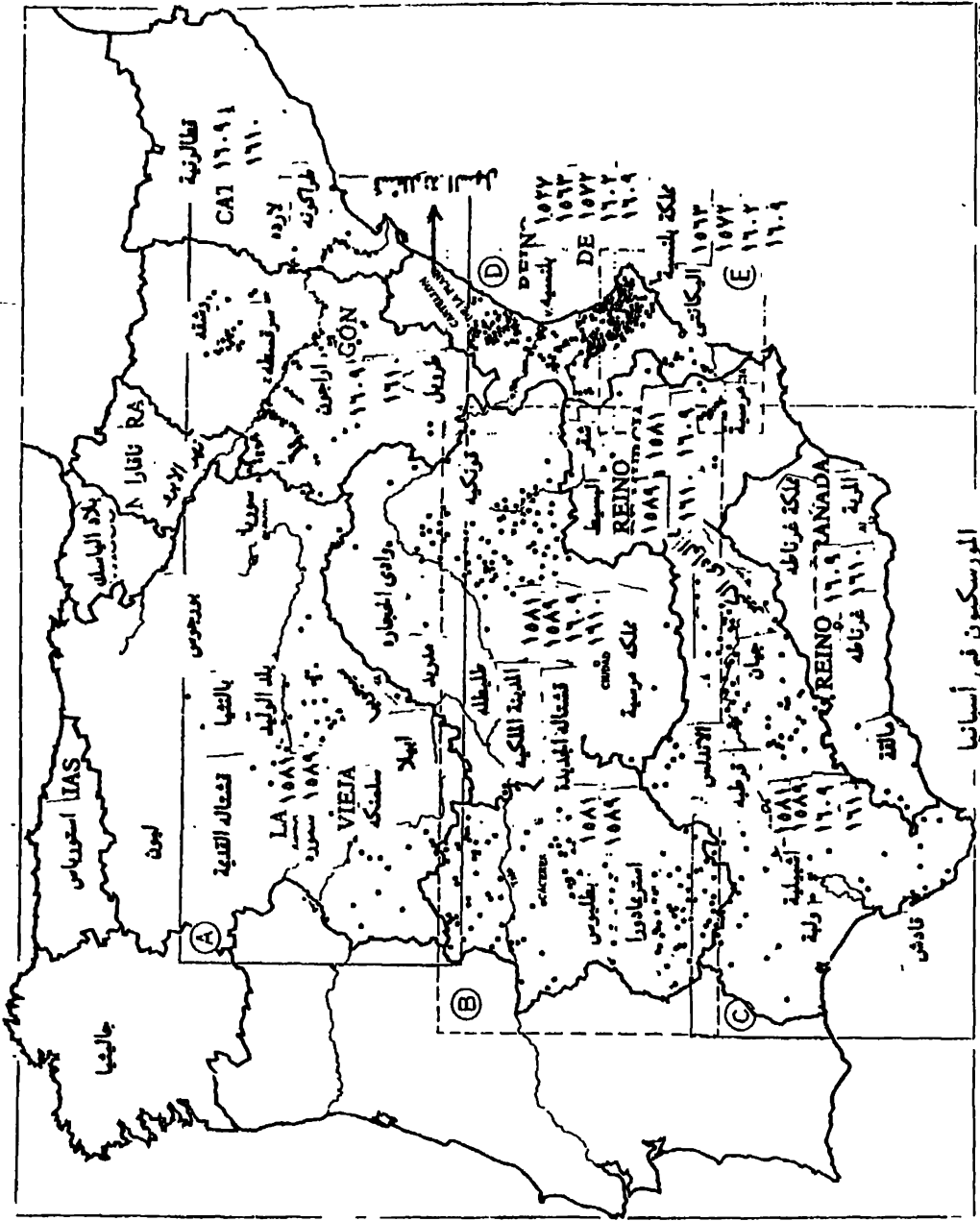
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



طرد المورسكيين من مملكة غرناطة

———— 1492

----- 1492



المورسكيون في أسبانيا

الأندلس بعد الانهيار،
 مملكة غرناطة
 والملك الصراية الإسبانية
 في القرن الرابع عشر.



طبع بمطبع
مركز العدالة
٣٨ ش الإخلاص - دار السلام

رقم الإيداع
٩١/٢٧٠٠
الترقيم الدولي
I.S.B.N 977-255-026-1